

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثاني

دار إحياء التراث العربي

الآية: ١٤٢ - ١٤٩

الآية: ١٥٠ - ١٥٩

الآية: ١٦٠ - ١٦٩

الآية: ١٧٠ - ١٧٩

الآية: ١٨٠ - ١٨٩

الآية: ١٩٠ - ١٩٩

الآية: ٢٠٠ - ٢٠٩

الآية: ٢١٠ - ٢١٩

الآية: ٢٢٠ - ٢٢٩

الآية: ٢٣٠ - ٢٣٩

الآية: ٢٤٠ - ٢٤٩

الآية: ٢٥٠ - ٢٥٩

الآية: ٢٦٠ - ٢٦٩

الآية: ٢٧٠ - ٢٧٩

الآية: ٢٨٠ - ٢٨٦

سورة آل عمران

الآية: ١ - ٩

الآية: ١٠ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٢٩

الآية: ٣٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٤٩

الآية: ٥٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٦٩

الآية: ٧٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ٨٩

الآية: ٩٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١٠٩

الآية: ١١٠ - ١١٩

الآية: ١٢٠ - ١٢٩

الآية: ١٣٠ - ١٤٠

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثاني

دار إحياء التراث العربي

(٣)

" سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (١٤٢) - آية واحدة بلا خلاف. أخبر الله (تعالى) نبيه (عليه السلام) أنه سيقول لك فيما بعد السفهاء، وهو جمع سفيه، وهو والجاهل والغبي نظائر.

" ما ولاهم " معناه، أي شئ ولاهم ومعنى ولاهم صرفهم عنه، ومثله: قلبه عنه وقتله. " عن قبلتهم التي كانوا عليها ". والقبلة: الجهة التي تستقبل في الصلاة، وقبلة المسلمين: الكعبة. والسفيه الخفيف إلى ما لا يجوز له أن نخف إليه، وهي صفة ذم في الدين. وضد السفه الحكمة واشتقاق. لاهم من الولي، وهو حصول الثاني بعد الأول من غير فصل. فالثاني يلي الأول، والثالث يلي الثاني، والرابع يلي الثالث ثم هكذا أبدا. وولى عنه خلاف ولى إليه: مثل قولك: عدل عنه، وعدل إليه، وانصرف، عنه وانصرف إليه. فاذا كان الذي يليه متوجها إليه فهو متول إليه واذا كان متوجها إلى خلاف جهته إلى خلاف جهته، فهو متول عنه.

والقبلة مثل الجلسة للحال التي يقابل الشيء غيره عليها. كما أن الجلسة للتي يجلس عليها. فكان يقال: فيما حكي هو لي قبلة، وأنا له قبلة، ثم صار علما على الجهة التي تستقبل في الصلاة. واختلفوا في الذين عابوا المسلمين بالانصراف عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة على ثلاثة أقوال:

(الاول) فقال ابن عباس، والبراء بن عازب: هم اليهود. و (الثاني) قال الحسن: هم مشركوا العرب، وإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما حول الكعبة من بيت المقدس، قالوا: يا محمد (صلى الله عليه وآله) رغبت عن قبلة آبائك، ثم رجعت إليها ايضا، والله لترجعن إلى دينهم. والثالث قال السدي: انهم المنافقون، قالوا ذلك استهزاء

(٤)

بالاسلام. واختلفوا في سبب عيهم الصراف عن القبلة: فقال قوم: انهم قالوا ذلك على وجه الانكار للنسخ. و (الثاني) قال ابن عباس: إن قوما من اليهود قالوا: يا محمد ما ولاك عن قبلك التي كنت عليها، ارجع إليها نتبعك ونؤمن. وأرادوا بذلك فتنته. الثالث - انه قال ذلك مشركوا العرب ليوهموا ان الحق ما هم عليه.

وإنما صرفهم الله عن القبلة الاولى لما علم الله تعالى من تغير المصلحة في ذلك. وقيل انما فعل ذلك لما قال تعالى " وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه "، لانهم كانوا بمكة، أمروا أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ليتميزوا من المشركين الذين كانوا بحضرتهم يتوجهون إلى الكعبة، فلما انتقل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة كان اليهود المجاورون للمدينة يتوجهون إلى بيت المقدس فنقلوا إلى الكعبة ليتميزوا من هؤلاء كما اريد في الاول ان يتميزوا من أولئك. واختار ذلك البلخي والجبائي والرماني.

وقوله تعالى:

" قل لله المشرق والمغرب " أمر من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء الذين عابوا انتقالهم عن بيت المقدس إلى الكعبة: المشرق والمغرب ملك الله يتصرف فيهما كيف شاء على ما تقتضيه حكمته. والمشرق والمطلع نظائر، وكذلك المغرب والمغيب نظائر.

وفي الآية دلالة على جواز النسخ لانه تعالى نقلهم - عن عبادة كانوا عليها -

إلى ايقاعها على وجه آخر وهذا هو النسخ.

وقوله: " لله المشرق والمغرب " فيه دلالة على أن من له المشرق والمغرب، فله التدبير فيهما، وفي ذلك اسقاط قول من زعم: أن الارض المقدسة أولى بالتوجه إليها. لانها مواطن الانبياء - وقد شرفها الله وعظمها - فلا وجه للتولية عنها - فرد الله عليهم بأن المواطن كلها لله

يشرف منها ما يشاء في كل زمان على ما يعلمه من مصالح العباد. وقال ابن عباس، والبراء بن عازب: انه كانت الصلاة إلى بيت المقدس إلى بعد مقدم النبي (صلى الله عليه وآله) بسبعة عشر شهرا. وقال انس بن مالك: انما كان ذلك تسعة اشهر أو عشرة اشهر. وقال معاذ بن جبل كان ثلاثة عشر شهرا. وقال

(٥)

قتادة صلت الانصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم النبي (صلى الله عليه وآله) وصلى النبي (صلى الله عليه وآله) بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا ثم وجهه الله إلى الكعبة. ولاخلاف ان التوجه إلى بيت المقدس قبل النسخ كان فرضا واجبا. ثم اختلفوا فقال الربيع: كان ذلك على وجه التخيير، خير الله نبيه بين ان يتوجه إلى بيت المقدس وبين غيرها. وقال ابن عباس وأكثر المفسرين كان ذلك فرضا معنيا - وهو الاقوى -، لقوله: " وما جعلنا القبلة التي كنت عليها " فبين انه جعلها قبلة، وظاهر ذلك انه معين، لانه لادليل على التخيير، على انه لو ثبت انه كان مخيرا لما خرج من ان يكون فرضا، كما ان الغرض ان يصلى الصلاة في الوقت ثم هو مخير بين أوله وأوسطه وآخر. وقوله: " والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " معنا: يهديهم إلى الدين المستقيم الذي يؤديهم إلى الجنة، فلذلك سماه صراطا كما يؤدي الطريق إلى المقصد. قوله تعالى:

" وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم " (١٤٣) آية بلا خلاف.

القرآءة:

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم " لرؤوف " على وزن لرعوف. الباقيون " لرؤف " على وزن (فعل).

(٦)

المعنى:

اخبار الله تعالى أنه جعل أمة نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) وسطا: أي سماها بذلك وحكم لها به. والوسط: العدل. وقيل الخيار، ومعناها واحد: وقيل: انه مأخوذ من المكان الذي تعدل

المسافة منه إلى اطرافه. وقيل: بل أخذ الوسط من التوسط بين المقصر والمغالي، فالحق معه (١). وقال مؤرج: اي وسط بين الناس وبين انبيائهم وقال زهير:

هم وسط يرضى الانام بحكمهم * اذا نزلت احدى الليالي بمعظم (٢)

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: أمة وسطا: عدلا. وهو قول مجاهد، وقتادة، والربيع، وابن عباس، واكثر المفسرين. وقال صاحب العين: الوسط من الناس وغيرهم، ومن كل شئ أعدله، وفضله وقيل الواسط والوسط بمعنى واحد، كما قيل يابس ويبس بمعنى واحد. قال تعالى " في البحر يبسا " (٣) والوسط - بتسكين السين - الموضع. والوسط - بالتحريك - لما بين طرفي كل شئ، ويسمى واسط الرحل بين القادمة والاخرة، وكذلك واسطة القلادة. واصل الباب الوسط: العدل وقولهم فلان من اوسطهم نسبيا: اي تكلمه الشرف من نواحيه. الاعراب:

واللام الاولى في قوله: " لتكونوا شهداء على الناس " لام كي، كأنه قال كي تكونوا، واصلها لام الاضافة. واللام في قوله: " وان كانت لكبيرة " لام تأكيد، وهي تلزم أن المخففة من الثقيلة، لئلا تلبس بأن التي بمعنى ما، كقوله تعالى:

(١) الضمير راجع إلى الوسط اي الحق مع الوسط لانه ليس بالمقصر ولا بالمغالي.

(٢) ديوانه ٢: ٢٧ وروايته.

لحي حلال يعصم الناس أمرهم * اذا طرقت احدى الليالي بمعظم
وفي تفسير الطبري وبعض المصادر الاخرى كما هو مثبت في المتن.
(٣) سورة طه: آية ٧٧.

(٧)

" إن الكافرون إلا في غرور " (١) وهي لام الابتداء أخرت إلى الخبر في باب (ان) خاصة. واما اللام الثالثة في قوله: " وما كان الله ليضيع إيمانكم " فلام الجحد، واصلها الام الاضافة، والفعل نصب باضمار (أن)، ولا يظهر بعدها (ان)، لان التأويل: ما كان الله مضيعا ايمانكم، فلما حمل معناه على التأويل، حمل، لفظه ايضا على التأويل من غير تصريح باظهار (ان). المعنى:

فان قيل: باي شئ يشهدون على الناس، قلنا فيه ثلاثة اقوال: احدها - ليشهدوا على الناس باعمالهم التي خالفوا فيها الحق في الدنيا وفي الآخرة كما قال: " وجيئ بالنبیین والشهداء " (٢) وقال " يوم يقوم الاشهاد " (٣) قال ابن زيد: الاشهاد أربعة الملائكة، والانبياء، وامة

محمد (صلى الله عليه وآله) والجواح. كما قال: " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون " (٤).

الثاني - يشهدون الانبياء على امهم المكذبين بانهم بلغوا. وجاز ذلك لاعلام النبي (صلى الله عليه وآله) اياهم بذلك.

الثالث - " لتكونوا شهداء على الناس " أي حجة عليهم فيما يشهدون، كما أن النبي (صلى الله عليه وآله) شهيد بمعنى حجة في كلما اخبر به. والنبي (صلى الله عليه وآله) وحده كذلك. فأما الامة فجماعتها حجة دون كل واحد منها. واستدل البلخي، والجبائي، والرماني، وابن الاخشاد، وكثير من الفقهاء، وغيرهم بهذه الآية على أن الاجماع حجة من حيث ان الله وصفهم بانهم عدول، فاذا عدلهم الله تعالى، لم يجز أن تكون شهادتهم مردودة - وقد بينا في اصول الفقه أنه لا دلالة فيها على ان الاجماع حجة - وجملته ان الله تعالى وصفهم بانهم عدول، وبانهم شهداء وذلك يقتضي ان يكون كل واحد عدلا،

(١) سورة الملك: آية ٢٠.

(٢) سورة الزمر: آية ٦٩.

(٣) سورة المؤمن: آية ٥١.

(٤) سورة النور: آية ٢٤.

(٨)

وشاهدا، لان شهداء جمع شهيد، وقد علمنا أن كل واحد من هذه الامة ليس بهذه الصفة، فلم يجز أن يكون المراد ما قالوه، على أن الامة إن أريد بها جميع الامة، فقد بينا ان فيها كثيرا ممن يحكم بفسقه بل بكفره، فلا يجوز حملها على الجميع.

وان خصوها بالمؤمنين العدول، لنا أن نخصها بجماعة، كل واحد منهم موصوف بما وصفنا به جماعتهم: وهم الائمة المعصومون من آل الرسول (صلى الله عليه وآله) على أنالوه سلمنا ما قالوه من كونهم عدولا، ينبغي أن نجنبهم ما يقدح في عدالتهم وهي الكبائر، فأما الصغائر التي تقع مكفرة، فلا تقدح في العدالة، فلا ينبغي أن نمنع منها، ومتى جوزنا عليهم الصغائر لم يمكننا أن نحتج باجماعهم، لانه لاشئ أجمعوا عليه إلا ويجوز أن يكون صغيرا فلا يقدح في عدالتهم، ولا يجب الاقتداء بهم فيه لكونه قبيحا. وفي ذلك بطلان الاحتجاج باجماعهم. وكيف يجنبون الصغائر، وحال شهادتهم ليس بأعظم من شهادة النبي (صلى الله عليه وآله) ومع هذا يجوزون عليه الصغائر فهلا جاز مثل ذلك عليهم، ولا تقدح في عدالتهم - كما لم تقدح في عدالة النبي (صلى الله عليه وآله)؟

قوله: " ويكون الرسول عليكم شهيدا ". قيل في معناه قولان:
أحدهما - عليكم شهيدا بما يكون من اعمالكم. وقيل: يكون حجة عليكم.
والثاني - يكون لكم شهيدا بأنكم قد صدقتم - يوم القيامة - فيما تشهدون به.
وجعلوا (على) بمعنى اللام كما قال: " وما ذبح على النصب " (٢) اي للنصب. والتشبيه
في قوله " وكذلك " وقع بما دل عليه الكلام في الآية التي قبلها: وهي قوله " يهدي من يشاء
إلى صراط مستقيم " فتقديره انعمنا عليكم بالعدالة كما انعمنا عليكم بالهداية والعامل في الكاف
جعلنا، كانه قيل: " من يشاء إلى صراط مستقيم " فقد انعمنا عليكم بذلك وجعلناكم أمة وسطا
فأنعمنا كذلك الانعام. إلا أن (جعلنا) يدل على انعمنا في هذا الكلام، فلم نحتج إلى حذفه معه
في قوله تعالى: " وما جعلنا القبلة التي كنت عليها " اي ما صرفناك عن القبلة التي كنت
عليها إلا لنعلم، وحذف لدلالة

(١) سورة المائدة: آية ٤

(٩)

الكلام عليه. وقوله " إلا لنعلم " قيل في معناه ثلاثة اقوال:
اولها " إلا لنعلم " اي لنعلم حزينا من النبي والمؤمنين، كم يقول الملك فعلنا وفتحنا بمعنى فعل
أولياؤنا ومن ذلك قيل: فتح عمر السواد وجبا الخراج وإن لم يتول ذلك بنفسه.
الثاني - إلا ليحصل المعلوم موجودا، فقيل على هذا: إلا لنعلم، لانه قبل وجود المعلوم لا
يصح وصفه بانه عالم بوجوده.
والثالث - إلا لنعاملكم معاملة المختبر الممتحن الذي كأنه لا يعلم أن العدل يوجب ذلك، من
حيث لو عاملهم بما يعلم انه يكون منهم كان ظلما لهم. ويظهر ذلك قول القائل لمن انكر أن
تكون النار تحرق الحطب: فاليحضر النار والحطب لنعلم أنترقه أم لا، على جهة الانصاف
في الخطاب، لاعلى جهة الشك في الاحراق. وهذا الوجه اختاره ابن الاخشاد، والرماني.
وكان علي بن الحسين المرتضى الموسوي يقول في مثل ذلك وجها مليحا: وهو ان قال: قوله
لنعلم يقتضي حقيقة ان يعلم هو وغيره ولا يحصل علمه مع علم غيره إلا بعد حصول الاتباع،
فاما قبل حصوله فانما يكون هو تعالى العالم وحده، فصح حينئذ ظاهر الآية وهذا وجه رابع،
وفيه قول خامس - وهو ان يعلموا انا نعلم، لانه كان منهم من يعتقد ان الله لا يعلم الشئ حتى
يكون على ان قوله: " لنعلم من يتبع الرسول " لا يدل على حدوث العلم، لانه كان قبل ذلك
عالما بان الاتباع سيوجد، او لا يوجد، فان وجد كان عالما بوجوده وان لم يتجدد له صفة.
وانما يتجدد المعلوم، لان العلم بان الشئ سيوجد علم بوجوده إذا وجد.

وانما يتغير عليه الاسم، ويجري ذلك مجرى تغير الاسم على زمان بعينه، بان يوصف بانه غد قبل حصوله، فاذا حصل قيل انه اليوم، فاذا تقضى وصف بانه امس، فتغير عليه الاسم والمعلوم لم يتغير.

وقوله تعالى: " ممن ينقلب على عقبيه " قيل في معناه قولان:

احدهما ان قوما ارتدوا عن الاسلام لما حولت القبلة جهلا منهم بما فيها من وجه الحكمة.

(١٠)

والآخر ان المراد به كل مقيم على كفره، لان جهة الاستقامة إقبال، وخلافها ادبار، لذلك وصف الكافر بانه ادبر واستكبر. وقال " لا يصلها إلا الاشقى الذي كذب وتولى " (١) اي عن الحق.

اللغة:

والعقب مؤخر القدم قال ثعلب: ونرد على اعقابنا: أي نعقب بالشر بعد الخير وكذلك رجع على عقبيه. وسميت العقوبة عقوبة لانها تتلو الذنب. والعقبة كرة بعد كرة في الركوب والمشى. المعقبات: ملائكة الليل تعاقب ملائكة النهار. وعقب الانسان نسله. والعقاب معروف والعقب أصلب من العصاب وامتن، يعقب به الرماح.

والنعقيب: الرجوع إلى امر تريده. ومنه قوله تعالى: " ولم يعقب " (٢) ومنه يقال عقب الليل النهار يعقبه. واعقب الرأي خبرا، وأعقب عزه ذلا أي ابدل به. والعقبة طريق في الجبل. وعرو العقاب: الراية لشبهها بعقاب الطائر. واليعقوب ذكر القبسج تشبه به الخيل في السرعة. لا معقب لحكمه أي لا راد لقضائه. والمعقب: الذي يتبع الانسان في طلب حق. واصل الباب التلو.

المعنى:

والضمير في قوله " وان كانت لكبيرة " يحتمل رجوعه إلى ثلاثة أشياء: القبلة على قول ابن عامر. والتحويلة على قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهو الاقوى، لان القوم ثقل عليهم التحويل لا نفس القبلة. وعلى قول ابن زيد الصلاة. وقوله:

" لكبيرة " قال الحسن: معناه ثقله يعني التحويلة إلى بيت المقدس، لان العرب لم تكن قبلة احب اليهم من الكعبة. وقيل معناه عظيمة على من لم يعرف ما فيها من وجوه الحكمة. فاما الذين هدى الله، لان المعرفة بما فيها من المصلحة تسهل المشقة فيصير بمنزلة مالا يعتد بها ولذلك حسن الاستثناء بما يخرجهم منها.

(١١)

وقوله: " وما كان الله ليضيع ايمانكم " قيل في معناه اقوال:

اولها - قال ابن عباس وقتادة والربيع: لما حولت القبلة قال ناس: كيف باعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الاولى. وقيل: كيف من مات من اخواننا قبل ذلك، فانزل الله (وما كان الله ليضيع ايمانكم).

الثاني - معناه قال الحسن: وانه لما ذكر ما عليهم من المشقة في التحويلة اتبعه بذكر مالهم عنده من المثوبة وانه لا يضيع ما عملوه من الكلفة فيه لان التنكير به يبعث على ملازمه الحق والرضا به.

الثالث - قال البلخي: انه لما ذكر انعامه عليهم بالتولية إلى الكعبة ذكر سبب ذلك الذي استحقوه به وهو ايمانهم بما عملوه اولا فقال: " وما كان الله ليضيع ايمانكم " الذي استحققتم به تبليغ محبتكم في التوجه إلى الكعبة.

اللغة:

والاضاعة مصدر اضاع يضيع. وضاع الشيء يضيع ضاعة، وضعة تضيعا. قال صاحب العين: ضبعة الرجل حرفته. يقال: ما ضيعتك اي ما حرفتك، هذا في الضياع وضاع عمل فلان ضيعة، وضياعا. وتركهم بضيعة ومضيعة. والضيعة والضياع معروف واصل الضياع الهلاك.

وقوله: (ان الله بالناس لرؤف رحيم) ان قيل: ما الذي اقتضى ذكر هذه الصفة، قلنا الرؤوف بعباده الرحيم بهم لا يضيع عنده عمل عامل منهم، فدل بالرفقة والرحمة على التوفير عليهم فيما استحقوه دون التضييع لشيء منه. وانما قدمت الرفقة على الرحمة، لان الرفقة أشد مبالغة من الرحمة ليجري على طريقه التقديم - بما هو اعرف - مجرى اسماء الاعلام ثم إتباعه بما هو دون منه ليكون مجموع ذلك تعريفا أبلغ منه، لو انفرد كل واحد عن الآخر كما هو في الرحمن الرحيم فرؤف على ورن فعول، لغه اهل الحجا على ورن فعل، لغة غيرهم قال الانصاري (١):

(١) هو كعب بن مالك الانصاري.

(١٢)

نطيع نبينا لنطيع ربا * هو الرحمن كان بنا رؤفا (١)

وقال حريز: يعني منعمين حقا، كفعل الوالد الرؤوف الرحيم. والرافة: الرحمة تقول راف يرأف رافة:

المعنى:

واستدل من قال الصلاة: الايمان بهذه الآية، فقالوا: سمي الله الصلوة ايمانا - على تاويل ابن عباس، وقتادة، والسدي والربيع وداود بن ابي عاصم وابن زيد وسعيد بن المنذر وعمرو بن عبيد وواصل وجميع المعتزلة. ومن خالفهم من المرجئة لايسلم هذا التاويل ويقول: الايمان على ظاهره وهو التصديق ولا ينزل ذلك بقول من ليس قوله حجة، لانهم ليسوا جميع المفسرين بل بعضهم ولا يكون ذلك حجة.

واستدل الجبائي بهذه الآية على ان الشاهد هو الحاضر دون من مات، بان قال: لو كان الرسول شاهدا على من مضى قبله أو من يأتي بعده ومن هو حاضر معه لم يكن لقوله (ويكون الرسول عليكم شهيدا) معنى. ويؤكد ذلك قوله (وكنتم عليهم شهيدا ما دمت فيهم) (٢) وقال غيره: قد يجوز ان يشهد العالم بما علم وان لم يحضره - وهو الاقوى - وهذه الآية فيها دلالة على جواز النسخ في الشريعة بل على وقوعه، لانه قال (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) فاخبر ان الجاعل لتلك القبلة كان هو تعالى، وانه هو الذي نقله عنها وذلك هو النسخ، فان قيل: كيف أضاف الايمان إلى الاحياء وهم كانوا قالوا: كيف بمن مضى من اخواننا قلنا يجوز ذلك على التغليب، لان من عادتهم ان يغلبوا المخاطب على الغائب كما يغلبون المذكر على المؤنث تنبئها على الاكمل، فيقولون: فعلنا بكما وبلغنا كما، وان كان احدهما حاضرا والاخر غائبا، فان قيل كيف جاز على اصحاب النبي صلى الله وآله الشك فيمن مضى من اخوانهم فلم يدروا انهم كانوا على حق في صلاتهم إلى بيت المقدس؟ قيل في ذلك: كيف اخواننا لو ادركوا الفضل بالتوجه، وانهم أحبوا لهم ما احبوا لانفسهم. ويكون قال ذلك منافق بما فيه الرد على المخالفين المنافقين.

(١) اللسان " راف " وروايته " ونطيع " بدل " نطيع " في المطبوعة " رؤف " بدل " رؤوفا " . (٢) سورة المائدة: آية ١٢٠.

(١٣)

قوله تعالى:

" قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما تعملون " (١٤٤) آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابوجعفر، وروح " عما تعملون " بالتاء. الباقون بالياء.
النزول:

وقال قوم ان هذه الآية نزلت قبل التي تقدمتها: وهي قوله: (سيقول السفهاء)
المعنى:

إن قبل لم قلب النبي (صلى الله عليه وآله) وجهه في السماء، قلنا عنه جوابان:
أحدهما - انه كان وعد بالتحويل عن بيت المقدس، وكان يفعل ذلك انتظارا وتوقعا لما وعد
به.

والثاني - انه كان يحبه محبة الطباع، ولم يكن يدعو به حتى ادركه فيه، لان الانبياء لا يدعون
إلا بما أذن لهم فيه لئلا تكون المصلحة في خلاف ما سألوه فيكون في ردهم تنفر عن قبول
قولهم. وهذا الجواب يروى عن ابن عباس، وقتادة.
وقيل في سبب محبة التوجه إلى الكعبة ثلاثة أقول:
أولها - قال مجاهد: انه أحب ذلك، لانها كانت قبلة ابراهيم - حكاة الزجاج - انها احب ذلك
استدعاء العرب إلى الايمان.

(١٤)

اللغة:

وقوله: (قد نرى) فالرؤية هي ادراك الشئ من الوجه الذي يتبين بالبصر.
وقوله: (تقلب وجهك) التقلب والتحول والتصرف نظائر: وهو التحرك في الجهات وقوله:
(ترضاها) تحبها. والرضاء ضد السخط: وهو ارادة الثواب. والسخط ارادة الانتقام. وقوله:
(شطر المسجد) اي نحوه، وتلقاه بلا خلاف بين اهل اللغة. وعليه المفسرون كابن عباس،
ومجاهد، وابي العالية، وقتادة، والربيع، وابن زيد، وغيرهم. قال الشاعر:
وقد اظلمك من شطر ثغركم * هول له ظلم يغشاكم قطعاً
اي من نحو ثغركم وانشد ابن عبيدة الهذلي (١):
ان السير بها داء مخامرها * فشطرها نظر العينين محسور (٢)
وقال ابن احمر (٣):

تعدو بنا شطر جمع وهي عاقدة * قد كارب العقد من ايفادها الحقبا (٤)
وقال الجبائي: اراد بالشطرن النصف، كأنه قال: وجهك نصف المسجد، لان شطر الشئ:
نصفه، فامرہ ان يولي وجهه نحو نصف المسجد حتى يكون مقابل الكعبة. وهذا فاسد، لانه
خلاف أقوال المفسرين، ولان اللفظ اذا كان مشتركاً بين النصف، وبين النحو ينبغي ألا يحمل

على احدهما إلا بدليل. وعلى ما قلناه اجماع المفسرين، قال الزجاج: يقال: هؤلاء القوم شاطرونا دورهم، تتصل بدورنا كما

(١) هو قيس بن العيزارة الهذلي. والعيزارة أمه واسمه قيس بن خويلد بن كاهل.
(٢) ديوانه: ٢٦١ والكامل لابن الأثير ١: ١٢، ٢: ٣ واللسان " شطر " في المطبوعة " العشير " بدل " العسير " وتخامرها " بدل " مخامرها " و " محشورا " بدل " محسور " (٣) في المطبوعة " الراحم " وهو تحريف.
(٤) سيرة ابن هشام ٢: ١١٩، والروض الاتف ٢: ٣٨ والخزانة ٣: ٣٨، ومجاز القرآن لابي عبيدة: ٦٠ في المطبوعة " كادت العقد من العادها " بدل " كارب العقد ص يفادها " وهو تحريف فاحش قوله: جمع هي اسم مكان، ويسمى المزدلفة عاقدة قد عكف ذنبها بين فخذيهما. كارب: اوشك، وكاد، وقارب، ودنا. اوفدت الناقة: اسرعت. الحقب: الحزام.

(١٥)

يقال هؤلاء يناحوننا أي نحن نحوهم وهم نحونا. وقال صاحب العين شطر كل شيء نصفه وشطره: قصده ونحوه، ومنه المثل احلب احلبا لك شطره اي نصفه. وشطرت الشيء جعلته نصفين، وقد شطرت الشاة شطارا: وهو ان يكون احد طستها اكثر من الآخر وان حلبا جميعا، ومنزل شطر: اي بعيد، وشطر فلان على اهله: اي تركهم مراغما أو مخالفا. ورجل شاطر. وقد شطر شطورة، وشطورا وشطارة: وهو اعيا اهله خبثا. واصل الشطر النصف.
المعنى:

وقال السدي المعني بقوله (وان الذين أوتوا الكتاب) هم اليهود. وقال غيره:
هم احبار اليهود، وعلماء النصارى غير انهم جماعة قليلة يجوز على مثلهم اظهار خلاف ما يبطنون، لان الجمع الكثير لا يتأتى ذلك منهم لما يرجع إلى العادة، وانه لم يجز بذلك مع اختلاف الدواعي، وانما يجوز العناد على النفر القليل وقد مضى فيما تقدم نظير ذلك، وان على ما نذهب اليه في الموافاة لا يمكن أن يكونوا عارفين بذلك إلا أن يكون نظيرهم لا يوجه وجوب المعرفة، فاذا حصلت المعرفة عند ذلك فلا يستحقون عليه الثواب لان النبي (صلى الله عليه وآله) يمنع منه ان يكونوا مستحقين للثواب الدائم ويكفرون فيستحقون العقاب الدائم والاحباط باطل، فيؤدي ذلك إلى اجتماع الاستحقاقين الدائمين وذلك حلاف الاجماع.
وهذه الآية ناسخة لفرض التوجه إلى بيت المقدس قبل ذلك. وروي عن ابن عباس انه قال:
اول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا شأن القبلة. وقال قتادة:

نسخت هذه الآية ما قبلها. وقال جعفر بن مبشر هذا مما نسخ من السنة بالقرآن - وهذا هو الاقوى -، لانه ليس في القرآن مما يدل على تعبد بالتوجه إلى بيت المقدس. ومن قال: انها نسخت قوله تعالى: (فأينما تولوا فثم وجه الله) قلنا له هذه ليست منسوخة بل هي مختصة

بالنوافل - في حال السفر - فأما من قال: يجب على الناس ان يتوجهوا إلى الميزاب الذي على الكعبة ويقصدوه، فقوله باطل، لانه خلاف

(١٦)

ظاهر القرآن. قال ابن عباس: البيت كله قبلة - وهو قول جميع المفسرين. وروى بعض اصحاب الحديث: ان البيت هو القبلة وان قبلته بابه. وهذا يجوز. قال فاما ان يجب على جميع الخلق التوجه اليه، فهو خلاف الاجماع.

وقوله: (حيثما كنتم قولوا وجوهكم شطره) روي عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع) ان ذلك في الفرض، وقوله: (فاينما تولوا فثم وجه الله) في النافلة.

وروى عن ابن عباس وابي جعفر بن محمد بن علي: انه لما حول إلى الكعبة اتى رجل من عبد الاشهل من الانصار وهم قيام يصلون الظهر وقد صلوا ركعتين نحو بيت المقدس، فقال: ان الله قد صرف رسوله نحو البيت الحرام، فصرفوا وجوههم نحو البيت الحرام في بقية صلاتهم.

الاعراب:

قوله: (وحيثما كنتم) موضع كنتم جزم بالشرط، وتقديره وحيث ما تكونوا، والفاء جواب ولولا (ما) لم يجز الجزاء (بحيث) لخروجها عن نظائرها، بانه لا يستفهم بها، ولان الاضافة لها كالصلة لغيرها، وليست بصلة كصلة اخواتها. والهاء في قوله تعالى:

(وانه للحق) على قول الجبائي يعود إلى التحويل. وقال الحسن: هي عائدة إلى التوجه إلى الكعبة، لانها قبلة ابراهيم، والانبياء قبله.

اللغة:

و " الحق " وضع الشئ في موضعه اذا لم يكن فيه وجه من وجوه القبح.

والغفلة: هي السهو عن بعض الاشياء خاصة واذا كان السهو عاما فهو فوق الغفلة وهو السهو العام، لان النائم لا يقال: انه غفل عن الشئ الا مجاز.

المعنى:

وقال عطا في قوله تعالى: (فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال: الحرم

(١٧)

كله مسجد. وهذا مثل قول اصحابنا أن الحرم قبلة من كان نائيا عن الحرم من أهل الآفاق. واختلف الناس في صلاة النبي (صلى الله عليه وآله) إلى بيت المقدس فقال قوم: كان يصلي بمكة إلى الكعبة، فلما صار بالمدينة أمر بالتوجه إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا ثم أعيد إلى

الكعبة. وقال قوم: كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها ولا يصلي في غير المكان الذي يمكن هذا فيه. وقال قوم: بل كان يصلي بمكة، وبعد قدومه المدينة سبعة عشر شهرا إلى بيت المقدس، ولم يكن عليه ان يجعل الكعبة بينه وبينها، ثم أمره الله بالتوجه إلى الكعبة. ومن صلى إلى غير القبلة لشبهة دخلت عليه، ثم تبينه، فان كان الوقت باقيا أعاد الصلاة. وان خرج الوقت، فان كان صلى يمينا وشمالا، فلا إعادة عليه، وإن صلى إلى استنبارها أعاد. وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.
قوله تعالى:

(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين)
(١٤٥) آية بلا خلاف.
الاعراب:

اختلف النحويون في أن جواب - لئن - لم كان جواب (لو) فقال الاخفش، ومن تبعه اجيبت بجواب - لو، لان الماضي وليها كما يلي لو فاجيبت بجواب (لو) ودخلت كل واحدة منهما على صاحبها قال الله تعالى: (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون) (١) فجرى مجرى ولو ارسلنا وقال (ولو انهم آمنوا واتقوا لمتوبة من عند الله) (٢) على جواب لئن. قال سيبويه وجميع اصحابه: ان معنى (لظلوا

(١) سورة الروم آية ٥١ (٢) سورة البقرة آية ١٠٣

(١٨)

من بعده يكفرون) ليظلم ومعنى (لئن) غير معنى (لو) في قول الجماعة. وإن قالوا إن الجواب متفق لانهم لا يدفعون أن معنى (لئن) ما يستقبل ومعنى (لو): ما مضى وحقيقة معنى (لو) أنها يمتنع بها الشيء لامتناع غيره. كقولك لو أتيتني لآكرمتك أي لم تأتني فلم آكرمك، فامتنع الآكرام، لامتناع الاتيان. ومعنى (إن) (ولئن) انما يقع بهما الشيء لوقوع غيره تقول: إن تأتني آكرمك، فالآكرام يقع بوقوع الاتيان. وقال بعضهم: إن كل واحدة منهما على موضعها، وانما لحق في الجواب هذا التداخل، لدلالة اللام على معنى القسم، فجاء الجواب القسم، فاغني عن جواب الجزاء لدلالته عليه، لان معنى لظلوا ليظلم وهذا هو معنى قول سيبويه. ويجوز أن تقول: إن أتيتني لم آجفك، ولا يجوز أن تقول: إن أتيتني ما حفوتك، لان (ما) منفصلة (ولم) كجزء من الفعل. ألا ترى أنه يجوز ان تقول: زيدا لم أضرب، ولا يجوز زيدا ما ضربت. وانما يجاب الجزاء بالفعل أو الفاء، فاذا تقدم لام القسم جاز، فقلت لئن أتيتني ما جفوتك.

المعنى:

فان قيل: كيف قال (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك)

وقد آمن منهم خلق؟ قلنا عن ذلك جوابان:

أحدهما - قال الحسن: إن المعنى أن جميعهم لا يؤمن، وهو اختيار الجبائي.

والثاني - أن ذلك مخصوص لمن كان معاندا من أهل الكتاب دون جميعهم الذين وصفهم الله، فقال " يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " اختاره البلخي والزجاج. وهذه الآية دالة على فساد قول من قال: لا يكون الوعيد بشرط، وعلى فساد قول من قال بالموافاة، وإن من علم الله أنه يؤمن لا يستحق العقاب أصلا، لان الله تعالى علق الوعيد بشرط يوجب أن يكون متى تحصل الشرط تحصل استحقاق العقاب، وفيها دليل على فساد قول من قال: إن الوعيد لا يقع لمن علم أنه لا يعصي، لان الله تعالى علم من حال الرسول أنه لا يتبع أهواءهم ومع هذا يوعدده إن اتبع أهواءهم. وفي الآية دلالة على

(١٩)

بطلان قول من قال: إن في المقدور لطفًا، لو فعل الله بالكافر لآمن لامحالة، من قبل أنه قيل

في قوله (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك)

قولان:

أحدهما - أن المعاند لا ينفعه الدلالة لانه عارف والآخر أنه لالطف لهم فتلتمسه ليؤمنوا، وعلى القولين فيه دلالة على فساد قول أصحاب اللطف، لان مخرجه مخرج التنصل من التخليف عنهم ما يؤمنون عنده طوعا، فلو قال قائل: وما في أن الآية لاينفعهم في الايمان لطف ينفعهم فيه لكان لا يسقط سؤاله. إلا بأن يقال: لا لطف لهم كما لا آية تنفعهم. وقوله: (ولئن اتبعت أهواءهم) قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدهما - (لئن اتبعت أهواءهم) في المداراة لهم حرصا على أن يؤمنوا (إنك إذا لمن الظالمين) لنفسك مع اعلامنا إياك: (انهم لا يؤمنون) هذا قول ابي علي الجبائي.

الثاني - الدلالة على أن الوعيد يجب باتباع أهوائهم فيما دعوا اليه من قبلتهم، وأنه لا ينفع مع ذلك عمل سلف، لانه ارتداد. والخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به كل من كان بتلك الصفة. كما قال: (لئن أشركت ليحبطن عملك) (١) وهذا قول الحسن، والزجاج.

الثالث - ان معناه الدلالة على فساد مذاهبهم، وتبكييتهم بها. كما تقول: لئن قيل عنك أنه لخاسر تريد به التبكييت على فساد رأيه، والتبعيد من قبوله.

وقوله: (وما أنت بتابع قبلتهم) قيل في معناه أربعة اقوال:

اولها - أنه لما قال: (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم) على وجه المقالة كما تقول: ما هم بتاركي انكار الحق وما أنت بتارك الاعتراف به، فيكون الذي جر الكلام التقابل للكلام الاول، وذلك حسن من كلام البلغاء.

(١) سورة الزمر: آية ٦٥.

(٢٠)

الثاني - أن يكون المراد أنه ليس يمكنك استصلاحهم باتباع قبلتهم لاختلاف وجهتهم، لان النصرى يتوجهون إلى المشرق، واليهود إلى بيت المقدس، فبين الله تعالى: أن رضا الفريقين محال.

الثالث - أن يكون المراد حسم طمع أهل الكتاب من اليهود إذ كانوا طمعوا في ذلك وظنوا انه يرجع إلى الصلاة إلى بيت المقدس، وما جوا في ذكره.

الرابع - انه لما كان النسخ مجوزا قبل نزول هذه الآية، فأنزل الله تعالى الآية، ليرتفع ذلك التجوز.

وقوله: (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن، والسدي، وابن زيد، والجبائي: أنه لا يصير النصرى كلهم يهودا، ولا اليهود كلهم يصيرون نصرى أبدا، كما لا يتبع جميعهم الاسلام. وهذا من الاخبار بالغيب. وقال غيرهم: معناه إسقاط الاعتلال بأنه مخالفة لاهل الكتاب الذين ورثوا ذلك عن أنبياء الله بامرهم إياهم به، فكلما جاز أن يخالف بين وجهتهم للاستصلاح جاز ان يخالف بوجهة ثالثة للاستصلاح في بعض الازمان.

وقد بينا حد الظلم فيما تقدم، واعترضا قول من قال: هو الضرر والقيح الذي يستحق به الذم من حيث أن ذلك ينقض بفعل الساهي، والنائم، والطفل، والمجنون - اذا كان بصفة الظلم - فانه يكون قبيحا وان لم يستحقوا به الذم. ومن خالف في ذلك كان الكلام عليه في موضع آخر. على ان المخالف في ذلك ناقض، فانه قال: ان الكذب يقع من الصبي ويكون قبيحا. وهذا اذا جاز. هلا جاز ان يقع منه الظلم؟

فان قال: لان العقل للانسان البالغ، يزجر الصبي عن ذلك بالتاديب. قلنا مثل ذلك في الظلم سواء.

قوله تعالى:

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن

(٢١)

فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) (١٤٦) آية بلا خلاف المعنى:
أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم يعرفون النبي (صلى الله عليه وآله) كما يعرفون أبناءهم،
وأن جماعة منهم يكتمون الحق مع علمهم بأنه حق. وقيل في الحق الذي كتموه قولان:
أحدهما - قال مجاهد: كتموا محمدا (صلى الله عليه وآله) ونبوته، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في
التوراة والانجيل.

والثاني - قال الربيع: انهم كتموا أمر القبلة. وقوله (وهم يعلمون)
يحتمل امرين:

أحدهما - يعلمون صحة ما كتموه. والثاني - يعلمون ما لمن دفع الحق من العقاب والذم.
و (الهاء) في قوله: (يعرفونه) عائدة - في قول ابن عباس، وقتادة، والربيع - على أن أمر
القبلة حق. وقال الزجاج هي عائدة على أنهم يعرفون النبي (صلى الله عليه وآله) وصحة أمره،
وثبوت نبوته، وانما قال: (وان فريقا منهم ليكتمون الحق) وفي أول الآية قال: (يعرفونه) على
العموم، لان أهل الكتاب منهم من أسلم وأقر بما يعرف فلم يدخل في جملة الكاتمين. كعبد الله
بن سلام، وكعب الاحبار، وغيرهما ممن دخل في الاسلام.

والعلم والمعرفة واحد. وحده ما اقتضى سكون النفس. وإن فصلت، قلت: هو الاعتقاد للشئ
على ما هو به مع سكون النفس. وفصل الرماني بين العلم والمعرفة، بأن قال: المعرفة هي
التي يتبين بها الشئ من غيره على جهة التفصيل. والعلم قد يتميز به الشئ على طريق الجملة
دون التفصيل كعلمك بان زيدا في جملة العشرة. وإن لم تعرفه بعينه وإن فصلت بين الجملة
التي هو فيها، والجملة التي ليس هو فيها. وهذا غير صحيح

(٢٢)

لان المعرفة أيضا قد يتميز بها الشئ على الطريق الجملة، فلا فرق بينهما. قيل لم قال:
" يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " إنهم ابناءهم في الحقيقة، ويعرفون أن محمدا (صلى الله عليه
وآله) هو النبي المبشر به في الحقيقة؟ قلنا التشبيه وقع بين المعرفة بالابن في الحكم: وهي
معرفة تميزه بها من غيره، وبين المعرفة بالنبي المبشر به في الحقيقة، فوقع التشبيه بين
معرفتين. إحداهما أظهر من الأخرى.

قوله تعالى:

(الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) (١٤٧)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

" الحق " مرتفع بأنه خبر ابتداء محذوف وتقدير ذلك الحق من ربك أو هو الحق من ربك. ومثله مررت برجل كريم زيد: اي هو زيد، ولو نصب كان جائزا في العربية على تقدير إعلم الحق من ربك.

المعنى:

وقوله " فلا تكونن من الممترين " معناه من الشاكين ذهب اليه ابن زيد، والربيع، وغيرهما من المفسرين. والامتراء الاستخراج. وقيل: الاستدرار. فكأنه قال: فلا تكن من الشاكين فيما يلزمك استخراج الحق فيه. قال الاعشى:

تدر على اسوق الممترين ركضا إذا ما السراب الرجحن (١)

يعني الشاكين في درورها، لطول سيرها. وقيل: المستخرجين ما عندها. قال صاحب العين: المري مسحك ضرع الناقة. تمر بها بيدك لكي تكن، للحلب، والريح تمرى السحاب مريا. والمرية من ذلك. والمرية الشك. ومنه الامتراء،

(١) ديوانه: ٢٣ رقم القصيدة: ٢، واللسان " رجحن " تدر - بضم الدال وتشديد الراء - تجري بسرعة. الممترين: الذين يغمزون خيلهم بساقهم. ارجحن السراب: ارتفع في المطبوعة " وكفا " بدل " ركضا " و " السحاب " بدل " السراب " .

(٢٣)

والتمازي، والممارة. والمراء. وأصل الباب الاستدرار. ويقال: بالشكر تمتري النعم اي تستدري. وقال الحسن، والربيع، والجبائي: معنى الآية " فلا تكونن من الممترين " في الحق الذي تقدم اخبار الله به من أمر القبلية، وعناد من كتم النبوة وامتناعهم من الاجتماع على ما قامت به الحجة. وقال بعضهم: " لاتكونن من الممترين " في شئ يلزمك العلم به. وهو الاولى، لانه أعم، والخطاب وان كان متوجها إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فالمراد به الامة كما قال تعالى: " يا أيها النبي إذا طلقتم " (١) وقال: (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) (٢). وقال قوم: إن الخطاب له، لانه إنما لايجوز عليه ذلك لملازمته أمر الله. ولو لم يكن هناك أمر لم يصح أن يلزم.

والنون الثقيلة يؤكد بها الامر والنهي، ولا يؤكد بها الخبر، لما كان المخبر يدل على كون المخبر به، وليس كذلك الامر والنهي، والاستخبار، لانه لايدل على كون المدلول عليه، فألزم الخبر التأكيد بالقسم وما يتعبه من جوابه، واختصت هذه الاشياء بنون التأكيد ليدل على اختلاف المعنى في المؤكد. ولما كان الخبر أصل الجمل أكد بأبلغ التأكيد وهو القسم.

قوله تعالى:

(ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير). (١٤٨)

آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن عامر وابوبكر عن عاصم (مولاها). وروي ذلك عن ابن عباس ومحمد بن علي، فجعلوا الفعل واقعا عليه. والمعنى واحد، كذا قال الفراء.

(١) سورة الطلاق: آية ١ (٢) سورة الاحزاب آية: ١.

(٢٤)

المعنى:

وفي قوله: " ولكل وجهة هو موليها " أقوال:

أحدهما - قال مجاهد، والربيع، وابن زيد، وابن عباس، والسدي: أن لكل أهل ملة من اليهود والنصارى.

الثاني - قال الحسن: إن لكل نبي وجهة واحدة: وهي الاسلام وان اختلف الاحكام كما قال: " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا " اي في شرائع الانبياء الثالث - قال قتادة: هو صلاتهم إلى بيت المقدس، وصلاتهم إلى الكعبة.

الرابع - ان لكل قوم من المسلمين وجهة، من كان منهم وراء الكعبة وقدامها أو عن يمينها أو عن شمالها، وهو الذي اختاره الجبائي. والوجهة قيل فيه قولان:

احدهما - انه قبلة. ذهب اليه مجاهد، وابن زيد. الثاني قال الحسن: هو ما شرعه الله لهم من اسلام.

وفي (جهة) ثلاث لغات: وجهة، وجهة، ووجه. وإنما أتم لانه اسم لم يجئ على الفعل. ومن قال: جهة. قال المبرد: جاء به على قولهم وجهني، ووجهته.

ومعنى " موليها " مستقبلها - في قول مجاهد وغيره. كأنه قال: مول إليها، لان ولى اليه نقيض ولى عنه. كقولك: انصرف اليه: وانصرف عنه. وقوله " هو " عائد - على قول اكثر

المفسرين - إلى كل. وقال قوم يعود على اسم الله حكاهما الزجاج.

و " الخيرات " هي الطاعات لله - على قول ابن زيد وغيره - وقوله: " يأت بكم الله جميعا "

يعني يوم القيامة - من حيث ما متم من بلاد الله - وهو قول السدي، والربيع وقد روي "

ولكل وجهة " مضاف غير منون - وذلك لا يجوز، لانه يكون الكلام ناقصا، لامعنى له ولا

فائدة فيه. وقوله: " استبقوا " يحتمل معنيين:

احدهما - بادروا إلى ما أمرتم به مبادرة من يطلب السبق اليه.
الثاني - قال الربيع: سارعوا إلى الخيرات. وهو الاولى، لانه أعم

(٢٥)

اللغة:

والاستباق، والابتدأ، والأسراع نظائر. قال صاحب العين: السبق: القدمة في الجري وفي كل أمر. تقول: له في هذا الأمر سبقة، وسابقة وسبق: أي سبق الناس اليه. والسبق الخطر الذي يوضع بين أهل السباق، وجمعه اسباق. والسباقان في رجل الطائر الجارح قياده من خيط أو سير. واصل الباب السبق: القدم في الأمر.

قوله تعالى:

(ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) " ١٤٩ " آية بلا خلاف.

قيل في تكرار قوله تعالى: " فول وجهك شطر المسجد الحرام " قولان:

احدهما - أنه لما كان فرضاً، نسخ ما قبله، كان من مواضع التأكيد لينصرف إلى الحال الثانية بعد الحال الاولى على يقين.

والثاني - أنه مقدم لما يأتي بعده ويتصل به، فاشبه الاسم الذي تكرره لتخبر عنه باخبار كثيرة كقولك: زيد كريم، وزيد عالم، وزيد حليم، وما اشبه ذلك مما تذكره لتعلق الفائدة به وإن كانت في نفسها معلومة عند السامع، ومعنى قوله " وإنه للحق " الدلالة على وحب المحافظة - من حيث كان حقاً لله فيه طاعة -، ومعنى قوله " وما الله بغافل عما تعملون " هاهنا التهديد كما يقول الملك لعبيده ليس يخفى علي ما أنتم فيه، ومثله قوله: " إن ربك لبالمرصاد " (١). والوجه الجارحة المخصوصة وقد حده الرماني بأنه صفيحة فيها محاسن تعرف بها الجملة، وحيث مبنية على الضم، لأنها كالتأنيب تماماً الاضافة إلى المفرد، دون الجملة، لها بمنزلة الصلة، فجرت لذلك مجرى قوله " من قيل ومن بعد " . (٢)

(١) سورة الفجر آية: ١٤ (٢) سورة الروم آية: ٥.

(٢٦)

قوله تعالى:

(ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولا تم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) " ١٥٠ " آية بلا خلاف.
المعنى:

قيل في تكرار قوله: " ومن حيث خرجت " ثلاثة اقوال:

احدها - لا اختلاف المعنى وإن اتفق اللفظ، لأن المراد بالاول: من حيث خرجت منصرفاً عن التوجه إلى بيت المقدس. " فول وجهك شطر المسجد الحرام " وأريد بالثاني أين كنت في البلاد، فتوجه نحو المسجد الحرام مستقبلاً كنت لظهر الكعبة أو وجهها أو يمينها أو شمالها.
الثاني - لاختلاف المواطن التي تحتاج إلى هذا المعنى فيها.

الثالث - لأنه مواضع التأكيد بالنسخ الذي نفلوا فيه من جهة إلى جهة للتقرير والتثبيت. فان قيل هل في قوله تعالى: " وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره " حذف منه (في الصلاة) أم هو مدلول عليه من غير حذف؟ قيل: هو محذوف، لأنه اجتزء بدلالة الحال عن دلالة الكلام، ولولم يكن هناك حال دالة لم يكن بد من ذكر هذا المحذوف إذا أريد به الافهام لهذا المعنى فأما قوله: عليم وحكيم. فانه يدل على المعلوم من غير حذف.
ومعنى قوله:

" لئلا يكون للناس عليكم حجة " ها هنا. قيل فيه قولان:

احدهما - لا تعدلوا عما أمركم الله في التوجه إلى الكعبة، فيكون لهم عليكم حجة، بأن يقولوا لو كنتم تعلمون أنه من عند الله ما عدلتم عنه.

(٢٧)

الثاني - لئلا يكون لاهل الكتاب عليكم حجة لو جاء على خلاف ما تقدمت به البشارة في الكتب السالفة من أن المؤمنين سبوجهون إلى الكعبة.
وموضع اللام من " لئلا " نصب والعامل فيه احد شيئين: فولوا. والآخر ما دخل الكلام من معنى عرفتم ذلك. وهو قول الزجاج.

وقوله " إلا الذين ظلموا منهم " قيل فيه اربعة اقوال:

احدها - أنه استثناء منقطع، و " إلا " بمنزلة (لكن) كقوله (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) (١) وقوله: ماله علي إلا التعدي، والظلم، كأنك قلت:

لكن يتعدى ويظلم، وتضع ذلك موضع الحق اللازم، فكذاك لكن الذين ظلموا منهم، فانهم يتعلقون بالشبهة، ويضعونها موضع الحجة. فلذلك حسن الاستثناء المنقطع قال النابغة:

لا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب (٢)

جعل ذلك عيبهم على طريق البلاغة، وان كان ليس بعيب. كأنه يقول: ان كان فيهم عيب فهذا، وليس هذا بعيب، فاذا ليس فيهم عيب، فكذا إن كان على المؤمنين حجة، فللظالم في احتجاجه، ولا حجة له، فليس اذا عليهم حجة.

القول الثاني - ان تكون الحجة بمعنى المحاجة، والمجادلة، كأنه قال: لئلا يكون للناس عليكم حجاج إلا الذين ظلموا منهم، فانهم يحاجوكم بالباطل.

الثالث - ما قاله ابو عبيدة ان (إلا) هاهنا بمعنى الواو كأنه قال: لئلا يكون للناس عليكم حجة والذين ظلموا منهم. وان ذكر ذلك الفراء والمبرد قال الفراء: لا يجيء إلا بمعنى الواو إلا اذا تقدم استثناء كما قال الشاعر:

ما بالمدينة دار غير واحدة * دار الخليفة إلا دار مروان

(١) سورة النساء آية: ١٥٦.

(٢) اللسان " فل " (وقرع). فلول السيف. كسر من حده. القرع: الضرب الشديد الكتاب جمع كتيبة وهي فرقة من الجيش المصفح.

(٢٨)

وانشد الاخفش:

وأرى لها دارا بأغدره السي * دان لم يدرس لها رسم

إلا رمادا هامدا دفعت * عنه الرياح خوالد سحم (١)

يعني أرى لها دارا ورمادا. وكأنه قال في البيت الاول: ما بالمدينة دار إلا دار الخليفة ودار مروان. وخالفة ابو العباس فلم يجز ان تكون (إلا) بمعنى الواو أصلا.

الرابع - قال قطرب: يجوز الاضمار على معنى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا. وموضع الذين عنده خفض على هذا الوجه يجعله بدلا من الكاف كأنه قيل في التقدير: لئلا يكون للناس على أحد حجة إلا الظالم. قال الرماني: وهذا وجه بعيد لا ينبغي أن يتأول عليه، ولا على الوجه الذي قاله ابو عبيدة والاختيار القول الاول.

وأثبتت (الياء) في قوله " واخشوني " هاهنا، وحذفت فيما عداه، لانه الاصل، وعليه اجماع هاهنا. واما الحذف فلا جزاء بالكسرة من الياء.

وقوله: " واخشوني " معناه واخشوا عقابي بدلالة الكلام عليه في الحال، وإنما ذكرهم فقال " فلا تخشوهم " لانه لما ذكرهم بالظلم، والاستطالة بالخصومة والمنازعه طيب بنفوس المؤمنين أي فلا تلتفتوا إلى ما يكون منهم فان عاقبة السوء عليهم. وقال قتادة، والربيع: المعني بالناس هاهنا أهل الكتاب. وقال غيرهما: هو على العموم - وهو الاقوى - وقال ابن عباس،

والربيع، وقتادة: المعني بقوله " الذين ظلموا " مشركوا العرب. وقال قوم: هو على العموم - وهو الاولى -.

وقوله " لئلا " ترك الهمزة نافع. الباقون يهزمون. ويلين كل همزة مفتوحة قبلها كسرة. والحجة هي الدلالة. وهي البرهان.

قوله تعالى " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم

(١) اللسان (خلد) ذكر البيت الثاني فقط.

(٢٩)

الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون " (١٥١) - آية بلا خلاف.
المعنى:

التشبيه بقوله (كما أرسلنا) يحتمل أمرين:

أحدهما - ان النعمة في أمر القبله كالنعمة بالرسالة، لان الله لطف بعباده بها على ما يعلم من المصلحة، ومحمود العاقبة.

الثاني - الذكر الذي أمر الله به كالنعمة بالرسالة فيما ينبغي ان يكون عليه من المنزلة في العظم والاخلاص لله، كعظم النعمة. وهو على نحو قوله: (كما احسن الله اليك (١) والعرب تقول: الجزاء بالجزاء، فسمي الاول باسم الثاني للمقابلة، والتشبيه لكل واحد منهما بالآخر.
الاعراب:

و (ما) في قوله: (كما) مصدرية. كأنه قال: كارسالنا فيكم ويحتمل أن تكون كافة قال الشاعر:
أعلاقة أم الوليد بعدما * أفنان رأسك كالنعام المخلص (٢)

لانه لا يجوز كما زيد يحسن اليك فأحسن إلى أبنائه. والعامل في قوله (كما) يجوز أن يكون أحد أمرين:

أحدهما - الفعل الذي قبله: وهو قوله: (ولاتم نعمتي عليكم) (كما أرسلنا فيكم) والقول الثاني - الفعل الذي بعده: وهو فاذكروني (كما أرسلنا). والاول

(١) سورة القصص آية: ٧٧.

(٢) قائله المرار الاسدي، وفي التكملة المرار الفقعي.

(٣) اللسان " علق " و " نغم " و " فنن " العلاقة: الحب. أفنان خصل الشعر.

النغام شجر ابيض. المخلص: الذي بين السواد والبياض: فكأنه يقول: أحب بعد الشيب.

(٣٠)

أحد قولي الفراء، والزجاج واختاره الجبائي. والثاني قول مجاهد والحسن، وابن ابي يحتج بأحد قولي الفراء، والزجاج، واختيار الزجاج. وقال الفراء: لا نذكروني جوابان: احدهما - (كما). والآخر - أذكركم، لأنه لما كان يجب عليهم الذكر ليذكرهم الله برحمته، ولما سلف من نعمته، أشبه - من هذا الوجه - الجواب، لأنه يجب للثاني فيه بوجوب الاول:
المعنى:

وقوله: (يزكيكم) معناه يعرضكم لما تكونوا به أذكيا من الامر بطاعة الله واتباع مرضاته. ويحتمل أيضا أن يكون المراد: ينسبكم إلى أنكم أذكيا شهادة لكم بذلك، ليعرفكم الناس به، وإنما قال: (الكتاب والحكمة) لاختلاف الفائدة في الصفتين وإن كانتا لموصوف واحد. كقولك: هو العالم بالامور القادر عليها.

ويحتمل أن يكون أراد بالكتاب: القرآن، وبالحكمة: الوحي من السنة. والكاف في قوله: (فيكم) خطاب للعرب - على قول جميع أهل التأويل. وقوله: (ويعلمكم) معناه مالا سبيل لكم إلى علمه إلا من جهة السمع، فذكرهم الله بالنعمة فيه. ويكون التعليم لما عليه دليل من جهة العقل تابعا للنعمة فيه. ولا سيما اذا أوقع موقع اللطف.

ومعنى الارسال: هو التوجه بالرسالة والتحميل لها ليؤدي إلى من قصد، فالدلالة والرسالة جملة مضمنة بمن يصل اليه ممن قصد بالمخاطبة. والتلاوة: ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متنسق في الرتبة. والتركية: النسبة إلى الازدياد من الافعال الحسنة التي ليست بمشوبة. ويقال أيضا على معنى التعريض لذلك بالاستدعاء اليه واللطف فيه. والحكمة: هي العلم الذي يمكن به الافعال المستقيمة.

(٣١)

قوله تعالى:

فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢)

آية بلا خلاف.

المعنى:

الذكر المأمور به في الآية، والموعود به، قيل فيه أربعة أقوال:
احدهما - قال سعيد بن جبير " اذكروني " بطاعتي " أذكركم " برحمتي.
الثاني - " اذكروني " بالشكر (أذكركم) بالثواب.

الثالث (أذكروني) بالدعاء (أذكركم) بالاجابة.
الرابع - (اذكروني) بالثناء بالنعمة (أذكركم) بالثناء بالطاعة.
اللغة:

والذكر: حضور المعنى للنفس، فقد يكون بالقلب، وقد يكون بالقول، وكلاهما يحضر به المعنى للنفس، وفي اكثر الاستعمال يقال: الذكر بعد النسيان، وليس ذلك بموجب إلا ان يكون إلا بعد نسيان، لان كل من حضره المعنى بالقول أو العقد أو الحضور بالبال اذكر له. واصله التثبيته على الشئ. فمن ذكر ناسيا، فقد نبهه عليه. وإذا ذكرناه نحن فقد نبهنا عليه. والذكر نقيض الانثى (وانه لذكر لك) (١) أي شرف لك من النباهة والجلالة. والفرق بين الذكر، والخاطر. أن الخاطر: مرور المعنى بالقلب، والذكر قد يكون ثابتا في القلب. وقد يكون بالقول.
الاعراب:

وقوله تعالى: (واشكروا لي) معناه اشكروا لي نعمتي فحذف، لان حقيقة الشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم. وقوله: (ولا تكفرون) فيه حذف،

(١) سورة الزخرف آية: ٤٤.

(٣٢)

وتقديره: ولا تكفروا نعمتي، لان الكفر هو ستر النعمة وجدها. لاستر المنعم.
وقولهم حمدت زيدا، وذممت عمرا، فلا حذف فيه وإن كنت انما تحمد من اجل الفعل الحسن، وتذم من اجل الفعل القبيح. كما أنه ليس في قولك: زيد متحرك حذف، وإن كان إنما تحرك من أجل الحركة. وليس كل كلام دال على معنى غير مذكور يكون فيه حذف، لان قولك زيد ضارب دال على مضروب، وليس بمحذوف، وكذلك زيد قاتل دال على مقتول، وليس بمحذوف، فالحمد للشئ دلالة على انه محسن، والذم له دلالة على انه مسيء كقولك: نعم الرجل زيد، وبئس الرجل عمرو، وكذلك قولك: زيد المحسن، وعمرو المسيء، ليس فيه محذوف ويقال:

شكرك، وشكرت لك، وإنما قيل شكرك، لانه أوقع اسم المنعم موقع النعمة، فعدى الفعل بغير واسطة والاجود. شكرت لك النعمة، لانه الاصل في الكلام، والاكثر في الاستعمال. قال الشاعر (١):

هم جمعوا بؤسى ونعمى عليكم * فهلا شكرت القوم إذ لم تقاثل (٢)

ومثل ذلك نصحتك، ونصحت لك، وإنما حذف (الياء) في الفواصل، لأنها في نية الوقف،
فلذلك قال (ولا تكفرون) بغير (ياء) وهي في ذلك كالقوا في التي يوقف عليها بغير ياء كقول
الاعشى:

ومن شأنى كاشف وجهه * إذا ما انتسبت له أنكرن (٣)
يعني أنكرني فحذف الياء.

(١) نسبه ابوحيان في تفسيره ١: ٤٤٧ لعمر بن لجا.

(٢) معاني القرآن للفراء: ١: ٩٢ يقول: لما ذا لم تشكر القوم الذين جمعوا لك النعيم والبؤس وانت لم تقاتل.

(٣) ديوانه: ١٩. رقم القصيدة ٢ في المطبوعة "بله" بدل "وجهه" و "ذكرت" بدل "انتسبت".

(٣٣)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) (١٥٣) آية
واحدة بلاف خلاف.

اللغة والمعنى:

الصبر هو حبس النفس عما تدعوا اليه من الامور، والصابر هو الحابس نفسه عما تدعوا اليه
مما لا يجوز له. وهو صفة مدح. ووجه الاستعانة بالصبر أن في توطين النفس على الامور
تسهيلا لها. واستشعار الصبر إنما هو توطين النفس. ووجه الاستعانة بالصلاة ما فيها من
الذكر لله، واستشعار الخشوع له، وتلاوة القرآن وما فيه من الوعظ، والتخويف، والوعد،
والوعيد، والجنة، والنار، وما فيه من البيان الذي يوجب الهدى ويكشف العمى. كل ذلك داع
إلى طاعة الله، وزاجر عن معاصيه، فمن هاهنا كان فيه المعونة على ما فيه المشقة من
الطاعة. وأما الاستعانة فهي الازدياد في القوة مثل من يريد أن يحمل مئة رطل فلا يتهيأ له
ذلك فاذا استعان بزيادة قوة تأتي ذلك، وكذلك إن عاونه عليه غيره وعلى ذلك السبب والآلة،
لانه بمنزلة الزيادة في القوة. وقوله تعالى: (إن الله مع الصابرين) أي معهم بالمعونة،
والنصرة، كما تقول: إذا كان السلطان معك، فلا تنال من لقيت. وقد تكون (مع)

في الكلام على معنى الاجتماع في المكان. وذلك لايجوز عليه تعالى.

وفي الآية دلالة على أن الصلاة فيها لطف، لان الله تعالى أمرنا بالاستعانة بها، وتوضيحه
قوله: (ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) (١) ولولا هذا النص، لجوزنا أن يكون في غير
ذلك. والذي يستعان عليه بالصبر والصلاة. قيل فيه قولان:

احدهما - طاعة الله، كأنه قال استعينوا بهذا الضرب من الطاعة على غيره فيها.

والثاني - على الجهاد في سبيل الله، لاعدائه.

(٣٤)

الاعراب:

وموضع الذين رفع لا يجوز غير ذلك عند جميع النحويين إلا المازني، فانه أجاز يا أيها الرجل اقبل، والعامل فيه ما يعمل في صفة المنادي - عند جميع النحويين - إلا الاخفش، فانه يجعله صلة لاي ويرفعه بأنه خبر ابتداء محذوف، كأنه قيل:

يامن هم الذين آمنوا. إلا أنه لا يظهر المحذوف مع أي، وإنما حملة على ذلك لزوم البيان له، فقال: الصلة تلزم، والصفة لا تلزم. قال الرماني والوجه عندي أن تكون صفة بمنزلة الصلة في اللزوم، وإنما لزمت أي هاهنا في النداء، لان العرض بحرف التنبيه وقع في موضع التنبيه، فلزم، فلا يجوز أن تقول: نعم الذين في الدار، لان نعم إنما تعمل في الجنس الذي يكره إذا أضمر فسر بها.

قوله تعالى:

(ولا تقولن لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) (١٥٤) آية بلا خلاف.
المعنى:

فان قيل: هل الشهداء أحياء على الحقيقة، أم معناه أنهم سيحيون وليسوا أحياء؟ قلنا: الصحيح أنهم أحياء إلى أن تقوم الساعة، ثم يحييهم الله في الجنة لا خلاف بين أهل العلم فيه إلا قولاً شاذاً من بعض المتأخرين. والاول قول الحسن، ومجاهد، وقتادة، والجبائي، وابن الاحشاد، والرماني، وجميع المفسرين. والقول الثاني حكاة البلخي. يقال: ان المشركين كانوا يقولون: إن أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) يقتلون نفوسهم في الحرب لالمعنى، فأنزل الله تعالى الآية. وأعلمهم أنه ليس الامر على ما قالوه، وأنهم سيحيون يوم القيامة ويثابون، ولم يذكر ذلك غيره. وقيل: ليس هم أمواتاً بالضلالة بل هم أحياء بالطاعة، والهدى، كما قال: (أو من كان ميتاً فأحييناه) (١)

(٣٥)

فجعل الضلالة موتاً، والهداية حياة. وقيل: معناه ليس هم أمواتاً بانقطاع الذكر، بل هم احياء ببقاء الذكر عند الله، وثبوت الاجر عنده. واستدل ابو علي الجبائي على أنهم أحياء في الحقيقة

بقوله: (ولكن لا تشعرون) فقال: لو كان المعنى سيحيون في الآخرة، لم يقل للمؤمنين المقربين بالبعث، والنشور (ولكن لا تشعرون لانهم يعلمون ذلك، ويشعرون به. فان قيل: ولم خص الشهداء بأنهم احياء والمؤمنون كلهم في البرزخ أحياء؟ قيل يجوز أن يكونوا ذكروا اختصاصا، تشريفا لهم. وقد يكون على جهة التقديم للبشارة بذكر حالهم في البيان لما يختصون به من أنهم يرزقون، كما قال تعالى (بل احياء عند ربهم يرزقون) (١). وإنما قيل للجهد سبيل الله، لانه طريق إلى ثواب الله تعالى.
اللغة:

والموت: نقص بنية الحياة. والموت - عند من قال إنه معنى عرضي - ينافي الحياة منافاة التعاقب. ومن قال: ليس بمعنى قال: هو عبارة عن فساد بنية الحياة.
فأما الحياة، فهي معنى بلا خلاف.
الاعراب:

وقوله: (أموات) رفع بانه خبر ابتداء محذوف، كأنه قال: لا تقولوا هم أموات. ولا يجوز فيه النصب على قولك: قلت خيرا، لانه الخير في موضع المصدر كأنه قال: قلت قولا حسنا. فاما قوله (ويقولون طاعة) (٢) فيجوز فيه الرفع والنصب في العربية: أرفع على منا طاعة: والنصب على نطيع طاعة والفرق بين (بل) و (لكن) ان (لكن) نفي لاحد الشئيين، وإثبات للآخر، كقولك: ما قام زيد لكن عمرو، وليس كذلك (بل)، لانها للاضراب عن الاول، والاثبات للثاني، ولذلك وقعت في الايجاب كقولك: قام زيد بل عمرو. فاما اذا قصد المتكلم، فانما هو ليبدل

(١) سورة آل عمران آية: ١٦٩. (٢) سورة النساء آية: ٨٠

(٣٦)

على أن الثاني أحق بالاخبار عنه من الاول، كقولك اقام زيد بل عمرو، كأنه لم يعتد بقيام الاول.

اللغة:

والشعور: هو ابتداء العلم بالشئ من جهة المشاعر، وهي الحواس، ولذلك لا يوصف تعالى بأنه شاعر، ولا أنه يشعر، وإنما يوصف بأنه عالم ويعلم. وقد قيل: إن الشعور إدراك مادي للطف الحسن مأخوذ من الشعر لدقته، ومنه شاعر، لانه يفتن من إقامة الوزن وحسن النظم بالطبع لما لا يفتن له غيره.

المعنى:

فان قيل: هل كون عقولهم إذا كانوا أحياء، وكيف يجوز أن يصل اليهم ثوابهم مع نقصان عقولهم؟ قيل الثواب لم يصل اليهم على كنهه وانما يصل اليهم طرف منه. ومثلهم في ذلك مثل النائم على حال جميلة في روضة طيبة يصل اليهم طيب ريحها ولذيذ نسيمها على نحو ما جاء في الحديث من انه يفصح له مد بصره، ويقال له وممة العروس. وأما الذين قتلوا في سبيل الله، فعلى ما ذكرناه من الاختصاص بالفضيلة. فان قيل: كيف يجوز أن يكونوا أحياء - ونحن نرى جثثهم على خلاف ما كانت عليه في الدنيا؟ قيل: إن النعيم انما يصل إلى الروح وهي الحية، وهي الانسان، دون الجثة - والجثة كالجثة واللباس لصيانة الارواح. ومن زعم ان الانسان هذه الجملة المعروفة وجعل الجثة جزء منها فانه يقول: يلطف أجزاء من الانسان توصل اليه النعيم، وإن لم يكن الانسان بكماله على نحو ما ذكرنا أن النعيم لا يصل اليه نفسه. قوله تعالى:

" ولنبلونكم بشئ من الجوع ونقص من الاموال والانسف والثمرات وبشر الصابرين " (١٥٥). الخطاب بهذه الآية متوجه إلى اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) - على قول عطاء، والربيع

(٣٧)

وابي علي، والرماني، ولو قيل: أنه خطاب لجميع الخلق، لكان ايضا صحيحا، لان ذلك جاز في جميعهم. اللغة:

والابتلاء في الاصل: الطلب لظهور ما عند القادر على الامر من خير أو شر. والابتلاء، والاختبار، والامتحان، بمعنى واحد، والابتلاء بهذه الامور المذكورة في الآية بأمر مختلف. فالخوف هو انزعاج النفس لما يتوقع من الضرر، وكان ذلك لقصد المشركين لهم بالعداوة. والجوع كان لفقرهم وتشاغلهم بالجهاد في سبيل الله عن المعاش. ونقص الاموال للانقطاع بالجهاد عن العمارة. والانسف بالقتل في الحرب مع رسول (صلى الله عليه وآله). والجوع ضد الشبع. يقال جاع يجوع جوعا، وأجاعة إجابة، وجوعه تجويعا، وتجوع تجوعا. قال صاحب العين: الجوع اسم جامع للمخمصة، والمجاعة: عام فيه جوع. والنقص نقيض الزيادة. قال صاحب العين:

النقص الخسران في الحظ. تقول نقص نقصا، وانتقص انتقاصا، وتناقص تناقصا، ونقصه تنقيصا، واستنقص استنقاصا، وتنقصه تنقاصا. والنقصان يكون مصدرا أو إسما، كقولك: نقصانه كذا: أي قدر الزاهب. ونقص الشيء، ونقصته، ودخل عليه نقص: في عقله ودينه. ولا يقال: نقصان. والنقيصة: الواقعة في الناس.

والنقيصة انتقاص حق ذي الرحم. وتنقصه تنقصا: اذا تناول عرضه. واصل الباب النقص الحط من التمام. والمال معروف. وأموال العرب أنعامهم. ورجل مال: أي ذو مال. ونال: أي ذو نوال. وتقول: تمول الرجل، ومول غيره. واصل الباب المال المعروف. والثمرة: أفضل ما تحمله الشجرة.

المعنى:

ووجه المصلحة في ذلك هو ما في ذلك من الامور المزعجة إلى الاستدلال والنظر في الادلة الدالة على النبوة، وليعلم ايضا انه ليس فيما يصيب الانسان من شدة في الدنيا ما يوجب نقصان منزلته. ففي ذلك ضروب العبرة. فان قيل إذا كان الله

(٣٨)

قد فعل الابتلاء بهذه الاشياء، والمشركون أوقعوها بالمؤمنين ففي ذلك إيجاب فعل من فاعلين. قلنا: لا يجب ذلك، لان الذي يفعله الله تعالى غير الذي يفعله المشركون، لان علينا ان نرضى بما فعله الله ونسخط مما فعله المشركون، وليس يقدرين على شئ مما ذكر في الآية، ولكنهم يقدرين على التعريض له بما هو محرم عليهم، وقبيح منهم.

الاعراب:

وفتحت الواو في لنبلونكم لامرين:

احدهما - للعلة التي فتحت الراء في لننصركم (١) وهو أنه بني على الفتحة، لانها أخف إذ استحق البناء على الحركة كما استحق (يا) في النداء حكم البناء على الحركة. الثاني - أنه فتح لالتقاء الساكنين إذ كان قبل معتلا لا يدخله الرفع.

المعنى:

وانما قال: " بشئ " من الخوف ولم يقل: بأشياء لامرين:

احدهما - لئلا توهم بأشياء من كل واحد، فيدل على ضروب الخوف، ويكون الجمع كجمع الاجناس للاختلاف، فقدر: شئ من كذا، وشئ من كذا، وأغني المذكور عن المحذوف. والثاني - أنه وضع الواحد في موضع الجمع للابهام الذي فيه ك (من).

والابتلاء بما ذكر لابد ان يكون فيه لطف في الدين، وعود في مقابله، ولا يحسن فعل ذلك لمجرد العوض - على ما ذهب اليه قوم - . فان قيل: الابتلاء بأمر القبلة وغيره من عبادات الشرع هل يجري مجرى الالم - عند المصيبة؟ قلنا:

لا، بلا خلاف هاهنا، فانه لابد ان يكون فيه لطف في الدين فان (٢) كان فيه

(١) في المطبوعة " لننصركم " وهو غلط.

(٣٩)

خلاف في الالم، لان هذه طاعات يستحق بها الثواب. وبالاخلال بها - إذا كانت واجبة - يستحق العقاب، فلا يجري مجرى الالم المحض. والصبر واجب كوجوب العدل الذي لايجوز عليه الانقلاب - في الشرع - إذ الصبر حبس النفس عن القبيح من الامر، وقد بينا فيما مضى ابتلاء الله تعالى العالم بالعواقب، فان المراد بذلك انه يعامل معاملة المبنتي، لان العدل لايصح إلا على ذلك، لانه لو أخذهم بما يعلم أنه يكون منهم، قبل ان يفعلوه، لكان ظلما وجورا، فبين الله بعد، أنه يعاملهم بالحق دون الظلم.

والوقوف على قوله: (وبشر الصابرين) حسن، وقال بعضهم: لا يحسن.

وذلك غلط، من حيث كانت صفة مدح، وعامل الصفة في المدح غير عامل الموصوف، وإنما وجب ذلك، لان صفة صابر صفة كصفة تقي، كما قال الله تعالى: (إن الله مع الصابرين) (١).

والجوع: الحاجة إلى الغذاء، وتختلف مراتبه في القوة والضعف. وقد يقال:

جوع كاذب، لانه يتخيل به الحاجة إلى الغذاء لبعض الامور العارضة من غير حقيقة.

وقوله تعالى: (وبشر الصابرين) فالتبشير في الاصل هو الاخبار بما يسر، أو نعمة، يتغير له الشره، غير انه كثر استعماله فيما يسر. والصبر المحمود هو حبس النفس عما قبح من الامر. قوله تعالى:

(الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون)

(١٥٦) آية بلا خلاف.

المعنى:

في قوله: (إنا لله) إقرار الله بالعبودية (وإنا اليه راجعون) فيه إقرار

(١) سورة البقرة آية: ١٥٣.

(٤٠)

بالبعث والنشور، وان مأل الامر يصير إليه، وإنما كانت هذه اللفظة تعزية عن المصيبة، لما فيها من الدلالة على أن الله يجزها (١) ان كانت عدلا، وينصف من فاعلها إن كانت ظلما. وتقديره (إنا لله) تسليما لامره ورضا بتدبيره (وإنا اليه راجعون) ثقة بأنا إلى العدل نصير. اللغة:

والمصيبة هي المشقة الداخلة على النفس، لما يلحقها من مضرة، وهي من الاصابة، لانها يصيبها بالبليّة. ومعنى الرجوع إلى الله: الرجوع إلى انفراده بالحكم كما كان أول مرة لانه قد ملك قوما في الدنيا شيئا من الضر، والنفع لم يكونوا يملكونه، ثم يرجع الامر إلى ما كان إذا زال تمليك العباد.

وأصل الرجوع هو مصير الشيء إلى ما كان، ولذلك يقال: رجعت الدار إلى فلان إذا اشتراها مرة ثانية. والرجوع والعود، والمصير نظائر.

وفي الآية معنى الامر لانها مدح عام، لكل من كان على تلك الصفة بتلك الخصلة. وأجاز الكسائي والفراء في (إنا لله) الامالة، ولا يجوز ذلك في غير اسم الله، مثل قولك: إنا لزيد، لا يجوز إمالته، وإنما جاز الامالة مع اسم الله لكثرة الاستعمال حتى صارت بمنزلة الكلمة الواحدة، وإنما يجز الامالة في غير ذلك، لان الحروف كلها وما جرى مجراها لا يجوز فيها الامالة مثل (حتى) و (لكن) و (مما)

وما اشبه ذلك، لان الحروف بمنزلة بعض الكلمة من حيث امتنع فيها التصريف الذي يكون في الاسماء والافعال.

قوله تعالى:

(أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمه وأولئك هم المهتدون) (١٥٧) آية بلا خلاف.

(٣) والاصح " يجزها " بدل " " يجزها " .

(٤١)

(أولئك) إشارة إلى الصابرين الذين وصفهم الله في الآية الاولى.

وقيل في معنى الصلاة ثلاثة أقوال:

احدها - انها الدعاء، كما قال الاعشى:

وصلى على دنها وارتمس (١)

أي دعا لها.

والثاني - انها مشتقة من الصلوى مكتنفا ذنب الفرس أو الناقة، فسميت الصلاة - في الشرع

- بذلك، لرفع الصلوة في الركوع والسجود. الثالث - قال الزجاج: إن أصلها اللزوم من قوله

(تصلى نارا حامية) (٢) أي تلزمها، والصلاة من أعظم ما يلزم من العبادة. وقال قوم: معنى

الصلاة هاهنا: الثناء الجميل.

وقيل: بركات الدعاء، والثناء يستحق دائما، ففيه معنى اللزوم، وكذلك الدعاء يدعا به مرة بعد

مرة، ففيه معنى اللزوم. والمصلي من الخيل الذي يلزم أثر السابق.

ومعنى (المهتدون) يعني إلى الحق الذي به ينال الثواب، والسلامة من العقاب. والرحمة: الانعام على المحتاج، وكل واحد يحتاج إلى نعمة الله. والاهتداء: الاصابة لطريق الحق وهو الاصابة للطريق المؤدي إلى النعمة. قوله تعالى:

" إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم " (١٥٨) آية بلا خلاف.
القرءة:

قرأ حمزة والكسائي (ومن يطوع) بالياء، وتشديد الطاء، والواو، وسكون العين. والباقون بالتاء على فعل ماض

(١) ديوانه: ٣٥، رقم القصيدة: ٤ واللسان " صلا " وقد مر البيت في ١: ٥٦ - ١٩٣ (٢) سورة الغاشية آية: ٤.

(٤٢)

اللغة:

الصفا - في الاصل - الحجر الاملس مأخوذ من الصفو. قال الميرد: الصفا: كل حجر لا يخلط غيره، من طين أو تراب يتصل به حتى يصير منه، وانما اشتقاقه من صفا يصفو - إذا خلص - وهو الصافي الذي لا يكدره شئ بشوبه. وقيل واحد الصفا: صفا، وقيل بل هو واحد يجمع اصفاء أو صفى - وأصله من الواو -، ولاتك تقول - في تثنيته: صفوان، ولانه لا يجوز فيه الامالة.

والمروة في الاصل: هي الحجارة الصلبة اللينة. وقيل: الصفا: الصغير، والمروة:

لغة في المرو. وقيل انه جمع مثل تمره وتمر، قال ابو ذؤيب:

حتى كأني للحوادث مروة (١) والمرو: نبت. والاصل الصلابة. والنبت سمي بذلك لصلابة بزره. والصفا والمروة: هما الجبلان المعروفان بالحرم، وهما من الشعائر، كما قال الله تعالى. والشعائر: المعالم للاعمال، فشعائر الله: معالم الله التي جعلها مواطن للعبادة، وهي أعلام متعبداته من موقف، أو مسعى، أو منحرف، وهو مأخوذ من شعرت به: أي علمت، وكل معلم لعبادة من دعاء، أو صلاة، أو اداء فريضة، فهو مشعر لتلك العبادة، وواحد الشعائر شعيرة، فشعائر الله أعلام متعبداته قال الكميت بن زيد:

نقتلهم جيلا فجيلا نراهم * شعائر قربان بهم نتقرب (٢)

والحج: قصد البيت بالعمل المشروع من الاحرام، والطواف، والوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة. واشتقاقه من الحج الذي هو القصد - على وجه التكرار والتردد قال الشاعر (٣):

(١) ديوانه ٣. من قصيدة النارعة في رثاء أولاده. وعجزه:

بصفا المشرق كل يوم يقرع ويرى " المشقر " وهو سوق الطائف: المروة الصخرة والمشرق: الناسك بمعنى يصف الشاعر نفسه بأنه من كثرة الحوادث: أصبح كالصخرة في مكان تمر بها الناس كثيرا وقرعها واحد بعد الآخر. " ٢ " اللسان " شعر " والهاشميات: ٢١ " ٣ " هو المخبل السعدي، وهو مخضرم.

(٤٣)

وأشهد من عوف حلولا كثيرة * يحجون سب الزبرقان المزعفرا (١)

يعني يكثر التردد اليه بسؤدد. وقال آخر:

يحج مأمومة في قعرها لجف (٢)

وأما العمرة في الاصل فهي الزيارة وهي هاهنا زيارة البيت بالعمل المشروع:

من طواف الزيارة والاحرام. وأخذت العمرة من العمارة لان الزائر للمكان يعمره بزيارته له، وقوله: (فلا جناح عليه). فالجناح هو الميل عن الحق، وأصله من جناح إليه جنوحا إذا مال اليه. قال صاحب العين: الاجناح: الميل. اجنحت هذا فأجتج أي املته فمال. وقوله: (وإن جنحوا للسلم فأجنح لها) (٣) أي مالوا إليك لصلح فمل إليهم. وجناحا الطائر: يداه، ويذا الانسان: جناحاه. وجناحا العسكر جانباه، وجناحا الوادي: مجريان عن يمينه وشماله. وجنحت الابل في السير إذا أسرعت. وإنما قيل للاضلاع جوانح، لاعوجاجها. وجنحت السفينة إذا مالت في أحد شقيها. وكل مائل إلى شئ فقد جنح إليه (ولا جناح عليكم) أي ميل إلى مآثم. وكل ناحية: جناح، ومر جنح من الليل أي قطعة نحو نصفه. وأصل الباب الميل. والطواف: الدور حول البيت. ومنه الطائف: الدائر بالليل. والطائفة الجماعة كالحلقة الدائرة. ويطوف أصله يتطوف، فادغمت التاء في الطاء، لانها من مخرجها، والطاء

٨ " ١ " البيان والتبيين ٣: ٩٧ واللسان (سبب) (حجج) (زبرق) حل بالمكان حلولا: اذا نزل القوم به. يحجون يكثر الاختلاف اليه (سب الزبرقان) الزبرقان بن بدر الفزاري وهو من سادات العرب. وقيل ان سب: است: وقيل عمامة. المزعفر المصبوغ بالزعفران. يقول يكثر الذهاب إلى هذا الرجل الذي يصبغ عمامته، أو استه بالزعفران. وهذا هجأه.

" ٢ " اللسان (حجج) (لجف) وعجزه:

فاست الطبيب قذاها كالمغريد يحج: يزور أو يكشف. مأمومة: شجة في أم الرأس. في قعرها: في اقصاها. لجف: حفر.

فاست: فميل. المغاريد: صمغ معروف يوضع على الجرح.
يقول يرى شجة في أم الرأس يخاف من رؤيتها ويجزع، فيصفر من هولها.
" ٣ " سورة الانفال آية: ٦٢.

(٤٤)

أقوى بالجهر منها. والفرق بين الطاعة والتطوع: ان الطاعة موافقة الارادة في الفريضة والنافلة. والتطوع التبرز بالنافلة خاصة. واصلها الطوع الذي هو الانقياد.
المعنى:

وإنما قال (فلا جناح عليه أن يطوف بهما) وهو طاعة، من حيث أنه جواب لمن توهم أن فيه جناحا، لصنمين كانا عليه: احدهما إساف، والآخر نائلة، في قول الشعبي، وكثير من أهل العلم. وروى ذلك عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع) وكان ذلك في عمرة القضاء ولم يكن فتح مكة بعد، وكانت الاصنام على حالها حول الكعبة وقال قوم: سبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بينهما، فكره المسلمون ذلك خوفا أن يكون من أفعال الجاهلية، فانزل الله تعالى الآية. وقال قوم عكس ذلك:

أن أهل الجاهلية كانوا يكرهون السعي بينهما، فظن قوم أن في الاسلام مثل ذلك، فأنزل الله تعالى الآية. وجملته أن في الآية ردا على جميع من كرهه، لاختلاف أسبابه. والطواف بينهما فرض عندنا في الحج والعمرة، وبه قال الحسن وعائشة وغيرهما، وهو مذهب الشافعي، وأصحابه. وقال أنس بن مالك، وروى عن ابن عباس: أنه تطوع وبه قال ابوحنيفة، وأصحابه، واختاره الجبائي. وعندنا ان من ترك الطواف بينهما متعمدا، فلا حج له حتى يعود فيسعى، وبه قالت عائشة، والشافعي. وقال ابو حنيفة، وأصحابه، والنوري: إن عاد، فحسن، وإلا جبره بدم، وقال عطا، ومجاهد يجزيه ولا شئ عليه. وقوله تعالى: (ومن تطوع خيرا) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أولها " من تطوع خيرا " اي بالحج العمرة بعد الفريضة. الثاني - " ومن تطوع خيرا " أي بالطواف بهما عند من قال إنه نفل. الثالث - " من تطوع خيرا " بعد الفرائض، وهذا هو الاولى، لانه أعم. وفي الناس من قال: وهو الجبائي، وغيره:

إن التقدير فلا جناح عليه ألا يطوف بهما كما قال: " يبين الله لكم أن تضلوا " ومعناه ألا تضلوا وكما قال: " أن تقولوا يوم القيامة " (١). ومعناه الا تقولوا.

" ١ " سورة الاعراف آية: ١٧١.

(٤٥)

وقال آخرون: إن ذلك لا يجوز. وهو اختيار الرماني. وهو الصحيح، لأن الحذف يحتاج إلى دليل. ومعنى القرائتين واحد لا يختلف.

ووصف الله تعالى بأنه شاکر مجاز، لأن الشاکر في الاصل هو المظهر للانعام، والله لا يلحقه المنافع، والمضار - تعالى عن ذلك. ومعناه هاهنا المجازي على الطاعة بالثواب، وخروج اللفظ مخرج التلطف حيثما على الاحسان اليهم، كما قال " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا " (١) والله لا يستقرض من عوز، لكن تطف في الاستدعاء كأنه قال: من ذا الذي يعمل عمل المقرض، بأن؟ فيأخذ أضعاف ما قدم في وقت فقره وحاجته إلى ذلك فكذا، كأنه قال: " من تطوع خيرا فان الله " يعامله معاملة الشاکر، يحسن المجازاة، ويجاب المكافاة. والفرق بين التطوع والقرض أن القرض يستحق بتركه الذم والعقاب، والتطوع لا يستحق بتركه الذم، ولا العقاب.

وروي عن جعفر بن محمد: أن آدم نزل على الصفا، وحواء على المروة، فسمى المرو باسم المرأة.

قوله تعالى:

(إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) (١٥٩) آية بلا خلاف.
المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، والحسن، وقتادة، السدي،

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٥.

(٤٦)

واختاره الجبائي، وأكثر أهل العلم: انهم اليهود، والنصارى: مثل كعب بن الاشرف وكعب بن أسيد، وابن صوريا، وزيد بن تابوه، وغيرهم من علماء النصارى الذين كتموا أمر محمد (صلى الله عليه وآله)، ونبوته: وهم يجدونه مكتوبا في التوراة والانجيل مبينا فيهما.

والثاني - ذكر البلخي: أنه تناول لكل من كتم ما أنزل الله وهو أعم، لانه يدخل فيه أولئك وغيرهم، ويروي عن ابن عباس أن جماعة من الانصار سألوا نفرا من اليهود عما في التوراة، فكتموا إياه، فانزل الله عزوجل " إن الذين يكتُمون " الآية. وإنما نزل فيهم هذا الوعيد، لان الله تعالى علم منهم الكتمان، وعموم الآية يدل: على أن كل من كتم شيئا من علوم الدين، وفعل مثل فعلهم في عظم الجرم أو أعظم منه، فان الوعيد يلزمه، وأما ما كان دون

ذلك، فلا يعلم بالآية بل بدليل آخر. وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: من سئل عن علم يعلمه، فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار. وقال ابوهريرة: لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم وتلا " إن الذين يكتُمون ما أنزل الله " الآية، فهذا تغليظ للحال في كتمان علوم الدين. وكتمان الشئ اخفاؤه مع الداعي إلى اظهاره، لانه لا يقال لمن أخفى ما لا يدعوا إلى اظهاره داع: كاتم. والكتاب الذى عني هاهنا قيل التوراة. وقيل كل كتاب أنزله الله. وهو أليق بالعموم. وقال الزجاج: هو القرآن، واستدل قوم بهذه الآية على وجوب العمل بخير الواحد من حيث أن الله تعالى توعد على كتمان ما أنزله، وقد بينا في اصول الفقه أنه لا يمكن الاعتماد عليه، لان غاية ما في ذلك وجوب الاظهار، وليس إذا وجب الاظهار وجب القبول، كما أن على الشاهد الواحد يجب إقامة الشهادة وإن لم يجب على الحاكم قبول شهادته، حتى ينضم اليه ما يوجب الحكم بشهادته، وكذلك يجب على النبي (صلى الله عليه وآله) إظهار ما حمله، ولا يجب على أحد قبوله حتى يقترن به المعجز الدال على الصدق، ولذلك نظائر ذكرناها. على أن الله تعالى بين أن الوعيد انما توجه على من كتم ما هو بينة وهدى وهو الدليل، فمن أين أن خبر الواحد بهذه المنزلة، فاذا لادلالة في الآية على ما قالوه، والبيئات والهدى هي الادلة

(٤٧)

وهما بمعنى واحد، وإنما كرر لاختلاف لفظهما. وقيل: إنه أراد بالبينات الحجج الدالة على نبوته (صلى الله عليه وآله) وبالهدى إلى ما يؤديه إلى الخلق من الشرائع، فعلى هذا لا تكرر. اللغة:

واللعن في الاصل الابعاد على وجه الطرد قال الشماخ:

ذعرت به القطا ونفيت عنه * مقام الذئب كالرجل اللعين (١)

أراد مقام الذئب اللعن. واللعين في الحكم: الابعاد - من رحمة الله - بايجاب العقوبة، فلا يجوز لعن ما لا يستحق العقوبة. وقول القائل: لعنه الله دعاء، كأنه قال: أبعد الله، فاذا لعن الله عبدا، فمعناه الاخبار بأنه أبعد من رحمته.

المعنى:

والمعنى بقوله و (يلعنهم اللاعنون) قيل فيه أربعة أقوال:

أحدها - قال قتادة، والربيع، واختاره الجبائي، والرماني، وغيرهما: انهم الملائكة والمؤمنون - وهو الصحيح -، لقوله تعالى في وعيد في الكفار (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين) (٢) فلعنة اللاعنين كلعنة الكافرين.

الثاني - قال مجاهد، وعكرمة: إنها دواب الارض، وهو انها تقول منعنا القطر لمعاصي بني آدم.

الثالث - حكاه الفراء أنه كل شئ سوى الثقلين الانس والجن، رواه عن ابن عباس.

الرابع - قاله ابن مسعود: أنه إذا تلعن الرجلان رجعت اللعنة على المستحق لها، فان لم يستحقها واحد منهم رجعت على اليهود الذين كنتموا ما أنزل الله. فان قيل:

كيف يجوز على قول من قال: المراد به البهائم اللاعنون، وهل يجوز على قياس ذلك الذاهبون؟

قلنا لما أضيف إليها فعل ما يعقل عوملت معاملة ما يعقل كما قال تعالى (والشمس والقمر رأيتهم لي

(١) مر تخريجه في ١: ٣٤٣ من هذا الكتاب (٢) سورة البقرة آية: ١٦١

(٤٨)

ساجدين) (١) فان قيل: كيف يجوز إضافة اللعن إلى ما لا يعقل من البهيمه والجماد؟

قيل: لامرين احدهما - لما فيه من الآية التي تدعوا إلى لعن من عمل بمصية الله.

والثاني - أن تكون البهائم تقول على جهة الالهام لما فيه من الاعتبار.

قوله تعالى:

" إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم " (١٦٠) آية بلا خلاف.

المعنى:

استثنى الله تعالى في هذه الآية من جملة الذين يستحقون اللعنة من تاب، وأصلح، وبين. واختلفوا في معنى " بينوا " فقال أكثر المفسرين، كقنادة، وابن زيد، والبخري، والجبائي، والرماني: إنهم بينوا ما كتموه من البشارة بالنبي (صلى الله عليه وآله) وقال بعضهم: بينوا التوبة، وإصلاح السريرة بالاظهار لذلك. وإنما شرط مع التوبة الاصلاح، والبيان ليرتفع الايهام بأن التوبة مما سلف من الكتمان يكفي في ايجاب الثواب.

ومعنى قوله تعالى (أتوب علمهم) أقبل توبتهم. والاصل في أتوب أفعل التوبة إلا أنه لما وصل بحرف الاضافة دل على ان معناه أقبل التوبة، وإنما كان لفظه مشتركا بين فاعل التوبة، والقابل لها، للترغيب في صفة التوبة إذ وصف بها القابل لها، وهو الله وذلك من إنعام الله على عباده، لئلا يتوهم بما فيها من الدلالة على مقارفة الذنب أن الوصف بها عيب، فلذلك جعلت في أعلا صفات المدح، والتوبة هي الندم الذي يقع موقع التنصل من الشئ وذلك بالتحسر على موافقته، والعزم على ترك معاودته إن أمكنت المعاودة. واعتبر قوم المعاودة إلى مثله في القبح. وهو الاقوى. لاجماع الامة على سقوط العقاب عندها، وما عداها فمختلف فيه. فان قيل: ما الفائدة في هذا الاخبار، وقد

(١) سورة يوسف آية: ٤.

(٤٩)

علمنا أن العبد متى تاب لا بد أن يتوب الله عليه؟ قلنا أما على مذهبنا، فله فائدة واضحة: وهو أن إسقاط العقاب عندها ليس بواجب عقلا، فإذا أخبر بذلك أفادنا ما لم نكن عالمين به، ومن خالف في ذلك قال: وجه ذلك أنه لما كانت توبة مقبولة وتوبة غير مقبولة صحت الفائدة بالدلالة على أن هذه التوبة مقبولة. ومعنى قبول التوبة حصول الثواب عليها وإسقاط العقاب عندها.

و (التواب) فيه مبالغة إما لكثرة ما يقبل التوبة وإما لانه لايرد تائبا منيبا أصلا. وقبول التوبة بمعنى إسقاط العقاب عندها، غير واجب عندنا عقلا. وإنما علم ذلك سمعا، وتفضلا، من الله تعالى على ما وعد به بالاجماع على ذلك. وقد بينا في شرح الجمل في الاصول أنه لادلالة عقلية عليه، ووصفه نفسه بالرحيم عقيب قوله (التواب) دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة

تفضل منه ورحمة من جهته. ومن قال: إن الفعل الواجب نعمة إذا كان منعما بسببه كالثواب، والعوض، فإنه لما كان منعما بالتكليف وبالآلام التي يستحق بها الاعراض، جاز أن يقال في الثواب والعوض أنه تفضل وإن كانا واجبين، فقوله باطل، لأن ذلك إنما قلنا في الثواب للضرورة، وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى ذلك. وإصلاح العمل هو إخلاصه له من قبيح يشوبه، والتبيين هو التعريض للعلم الذي يمكن به صحة التمييز.

الاعراب:

وموضع الذين نصب على أنه استثناء من موجب. و (إلا) حقيقتها الاستثناء. ومعنى ذلك الاختصاص بالشئ دون غيره كقولك: جائي القوم إلا زيدا فقد اختصاصت زيدا بأنه لم يجئ، وإذا قلت ما جاني إلا زيد، فقد اختصاصت زيدا بأنه جاء، وإذا قلت ما جاني زيد إلا راكبا فقد اختصاصته بهذه الحال دون غيرها من المشي والعدو، وما أشبه ذلك. قوله تعالى:

" إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة

(٥٠)

الله والملائكة والناس أجمعين " " ١٦١ " آية بلاخلاف.

المعنى:

إن قبل: كيف يلعن الكافر كافرا مثله وهو الظاهر في قوله (والناس أجمعين)؟

قبل عنه ثلاثة أجوبة:

أولها - أنه يلعنه الناس أجمعون يوم القيامة كما قال تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) (١) وهو قول ابي العالية.

الثاني - قال السدي: انه لا يمتنع أحد من لعن الظالمين، فيدخل في ذلك لعن الكافر لانه ظالم. الثالث يرا؟ به لعن المؤمنين خصوصا، ولم يعتد بغيرهم كما يقال: المؤمنون هم الناس، وهو قول قتادة والربيع، هذا إذا حمل على أن اللعن في دار الدنيا، لان من؟؟ أهل ملة لا يلعن أهل ملة.

القراءة:

وحكي عن الحسن أنه قرأ " والملائكة " رفعا ويكون ذلك على حمله على معنى يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون. كما تقول: عجبت من ضرب زيد، وعمرو - بالرفع - وهذه قراءة شاذة لا يعول عليها لان المعتمد ما عليه الجمهور. ولا يجوز رفع " أجمعين " وحده هاهنا لان هذه اللفظة لا تكون إلا تابعة، وليس في الكلام مظهر ولا مضمير تتبعه على ذلك، وإنما الحمل على المعنى بمنزلة إعادة معنى العامل الاول، كأنك قلت:

ويلعنهم الملائكة والناس أجمعون.

المعنى:

والكفر ما يستحق به العقاب الدائم عندنا، وعندمن خالفنا في دوام عقاب فساق أهل الصلاة انه ما يستحق به العقاب الدائم الكثير، ويتعلق به أحكام مخصوصة،

(١) سورة العنكبوت آية: ٢٥

(٥١)

وسواء كان الكفر في تشبيهه الله تعالى بخلقه أو في تجريده في أفعاله أو الرد على النبي (صلى الله عليه وآله) وسلم أو ما كان أعظم منه في القبح. واللعنة: الابعاد من الرحمة على ما بيناه مع ايجاب العقوبة، ويجري ذلك من الناس على وجه الدعاء، ومن الله على وجه الحكم، وإنما قال: (وماتوا وهم كفار) وكل كافر، فهو ملعون في حال كفره وإن لم يكن ممن يوافق بالكفر للدلالة على خلودهم في النار إذا ماتوا على غير توبة، وقد دل على ذلك ما بينه في الآية الثالثة، وإنما أكد بأجمعين ليرتفع الاحتمال، والايهام قبل أن ينظر في تحقيق الاستدلال، ولهذا لم يجز الاخفش رأيت أحد الرجلين كليهما، وأجاز رأيتهما كليهما، لانك إذا ذكرت الحكم مقرونا بالدليل عليه، أزلت الايهام للفساد، وإذا ذكرته وحده فقد يتوهم عليك الغلط في المقصد بقولك: أحد الرجلين، لما ذكرت التثنية وذكرت أحدا كنت بمنزلة من ذكر الحكم، والدليل عليه فأما ذكر التثنية في رأيتهما، فبمنزلة ذكر الحكم وحده. ووحد الناس إنسان في في المعنى، فأما في اللفظ، فلا واحد له، وهو كنفر، ورهط مما يقال: إنه اسم للجمع. قوله تعالى:

(خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) " ١٦٢ " آية بلا خلاف.

المعنى:

والهاء في قوله " فيها " عائدة على اللعنة في قول الزجاج. وقال ابو العالية. هي عائدة إلى النار، ومعنى قوله (ولا هم ينظرون) على قول ابي العالية رفع لايهام الاعتذار كما قال: (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) (١) لئلا يتوهم أن التوبة والانابة هناك تنفع. والخلود في اللعنة يحتمل أمرين أحدهما - إستحقاق اللعنة بمعنى أنها تحقق عليهم أبدا. والثاني - في عاقبة اللعنة: وهي النار التي لا تفنى، وإنما قال: (لا يخفف)

(١) سورة المرسلات آية: ٣٦

(٥٢)

مع أنهم مخلدون، لان التخفيف قد يكون مع الخلود، بان يقل المعاون ما يفعل، فأراد الله أن يبين أنه يقع الخلود، ويرتفع التخفيف.

الاعراب:

وخالدين نصب على الحال من الهاء والميم في عليهم، كقولك: عليهم المال صاغرين، والعامل فيه الاستقرار في عليهم.

اللغة:

والخلود: اللزوم أبداً، والبقاء: الوجود وقتين فصاعداً، ولذلك لم يجز في صفات الله خالد، وجاز باق، ولذلك يقال: أخلد إلى قوله: أي لزم معنى ما أتى به، ومنه قوله تعالى (ولكنه أخلد إلى الارض) (١) أي مال إليها ميل اللازم لها، كأنه قبل الخلد فيها.

والفرق بين الخلود والدوام أن الدوام: هو الوجود في الاول، ولا يزال.

وإذا قيل دام المطر، فهو على المبالغة، وحقيقته لم يزل من وقت كذا إلى وقت كذا، والخلود هو اللزوم أبداً. والتخفيف: هو النقصان من المقدار الذي له اعتماد. والعذاب:

الالم الذي له امتداد. والانظار: الامهال قدر ما يقع النظر في الخلاص، واصل النظر الطلب، فالنظر بالعين: الطلب بالعين، وكذلك النظر بالقلب أو باليد أو بغيرها من الحواس، وتقول أنظر الثوب أين هو. والفرق بين العذاب والايلام ان الايلام قد يكون بجزء (٢) من الالم في الوقت الواحد. والعذاب له استمرار من الالم في أوقات، ومنه العذب، لاستمراره في الحلق (٣). والعذبة، لاستمرارها بالحركة (٤).

(١) سورة الاعراف آية: ١٧٥ (٢) في المطبوعة (محز)

(٣) وفي مجمع البيان (ومنه العذاب لاستمراره بالخلق) والصحيح ما ذكره الشيخ، لان المقصود منه: عذوبة لماء ونحوه، ولا يكون ذلك الا في الحلق.

(٤) العذبة التي تستمر بالحركة: خرقة النائحة.

(٥٣)

قوله تعالى:

" وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم " " ١٦٣ " آية بلا خلاف.

المعنى:

يوصف تعالى بأنه واحد على أربعة أوجه أولها - إنه ليس بذئ أبعاض ولا يجوز عليه الانقسام. الثاني - واحد في استحقاق العبادة. الثالث - واحد لانظير له ولا شبيهه. الرابع -

واحد في الصفات التي يستحقها لنفسه، فهو قديم، وقادر لا يعجزه شيء، وعالم لا يخفى عليه شيء، فكل هذه الصفات يستحقها وحده، والواحد شيء لا ينقسم عدداً كان أو غيره، ويجري على وجهين: على الحكم، وعلى جهة الوصف، فالحكم كقولك: الجزء واحد، والوصف كقولك: إنسان واحد، ودار واحدة.

ومعنى إله أنه يحق له العبادة، وغلط الرماني، فقال: هو المستحق للعبادة، ولو كان كما قال لما كان تعالى إلهها فيما لم يزل، لأنه لم يفعل ما يستحق به العبادة. ومعنى ما قلناه: أنه قادر على ما إذا فعله استحق به العبادة. وقيل معنى إله أنه منعم بما يستحق به العبادة، وهذا باطل لما قد بيناه، ولا يجوز أن يحيا أحد من الخلق بالالهية، لأنه يستحيل أن يقدر أحد سوى الله على ما يستحق به العبادة من خلق الاجسام، والقدرة، والحياة، والشهوة، والنفاد، وكمال العقل، الحواس وغير ذلك، فلا تصح الآلهية الا له، لأنه القادر على ما عددها، والآية تتصل بما قبلها وبما بعدها، فاتصالها بما قبلها، كاتصال الحسنة بالسيدة، لتمحو أثرها، وتحذر من موافقتها، لأنه لما ذكر الشرك، وأحكامه أتبع ذلك بذكر التوحيد وأحكامه، واتصالها بما بعدها كاتصال الحكم بالدلالة على صحته، لأن ما ذكر في الآية التي بعدها حجة على صحة التوحيد.

فان قيل: كيف يتصل الوصف بالرحمة بما قبله؟ قلنا، لأن العبادة تستحق بالنعمة التي هي في أعلى مرتبة، ولذلك بولغ في الصفة بالرحمة، ليدل على هذا المعنى.

(٥٤)

الاعراب:

و (هو) في موضع رفع، ولا يجوز النصب، ورفع على البديل من موضع (لا) مع الاسم، كقولك: لا رجل إلا زيد كأنك قلت: ليس إلا زيد - فيما تريد من المعنى - إذا لم يعتد بغيره، ولا يجوز النصب على قولك: ما قام احد إلا زيدا، لأن البديل يدل على أن الاعتماد على الثاني، والمعنى ذلك، والنصب يدل على أن الاعتماد في الاخبار إنما هو على الاول، وقوله تعالى: (لا إله إلا هو) إثبات لله تعالى وحده وهو بمنزلة قولك: الله إله وحده، وإنما كان كذلك لأنه القادر على ما يستحق به الالهية، ولا يدل على النفي في هذا الخبر من قبل أنه لم يدل على إله موجود، ولا معدوم سوى الله عزوجل، لكنه نقيض لقول من ادعى إلهها مع الله. وإنما النفي إخبار بعدم شيء كما أن الاثبات إخبار بوجوده. قوله تعالى:

(إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة

وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) (١٦٤) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع وابن كثير، وابوعمر، وابن عاصم، وابن عامر (الرياح) على الجمع. الباقر على التوحيد، ولم يختلفوا في توحيد ما ليس فيه ألف ولام. المعنى:

لما أخبر الله تعالى الكفار بأن إلههم إله واحد لا ثاني له، قالوا: ما الدلالة

(٥٥)

على ذلك؟ فقال الله عزوجل: (إن في خلق السماوات والارض) الآية إلى آخرها. ووجه الدلالة من الآية (أن في خلق السماوات والارض) يدل على أن لها خالق، لا يشبهها ولا تشبهه، لأنه لا يقدر على خلق الاجسام إلا القديم القادر لنفسه الذي ليس بجسم، ولا عرض، إذ جميع ذلك محدث ولا بد له من محدث ليس بمحدث، لاستحالة التسلسل. وأما (الليل والنهار)، فيدلان على عالم مدبر من جهة أنه فعل محكم، متقن، واقع على نظام واحد، وترتيب واحد، لا يدخل شيئاً من ذلك تفاوت، ولا اختلاف.

وأما (الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) فتدل على منعم دبر ذلك لمنافع خلقه، ليس من جنس البشر، ولا من قبيل الاجسام، لان الاجسام يتعذر عليها فعل ذلك. وأما الماء الذي ينزل من السماء، فيدل على منعم به يقدر على التصريف فيما يشاء من الامور، لا يعجزه شيء.

وأما (إحياء الارض بعد موتها)، فيدل على الانعام بما يحتاج اليه العباد. وإحياءها: إخراج النبات منها، وأنواع الثمار (وبث فيها من كل دابة) دال على ان لها صناعا مخالفا لها منعماً بأنواع النعم. (وتصريف الرياح) يدل على الاقتدار على ما لا يتأتى من العباد ولو حرصوا كل الحرص، واجتهدوا كل الاجتهاد، لأنه إذا ذهب جنوباً مثلاً، فاجتمع جميع الخلق على أن يقلبوها شمالاً أو صبا أو دبوراً، لما قدروا على ذلك، ولا تمكنوا على رده من الجهة التي يجئ منها.

وأما (السحاب المسخر) فيدل على أنه يمسه القديم، والذي لا شبه له ولا نظير، لأنه لا يقدر على تسكين الاجسام الثقيل بغير علاقة ولا دعامة إلا الله تعالى، وكذلك لا يقدر على تسكين الارض كذلك إلا القادر لنفسه، فهي تدل على صناع غير مصنوع قديم لا يشبهه شيء، قادر لا يعجزه شيء، عالم لا يخفى عليه شيء، حي لا يموت واحد ليس كمثلته شيء، سميع بصير (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات

(٥٦)

ولا في الارض) (١) لان صفات النقص لا يجوز عليه تعالى. ويدل على أنه منعم بما لا يقدر غيره على الانعام بمثله (٢)، أنه يستحق بذلك العبادة دون غيره.
اللغة:

والخلق هو الاحداث للشئ على تقدير من غير احتذاء على مثال، ولذلك لا يجوز إطلاقه إلا في صفات الله، لانه ليس أحد - جميع أفعاله على ترتيب من غير احتذاء على مثال - إلا الله تعالى. وقد استعمل الخلق بمعنى المخلوق كما استعمل الرضى بمعنى المرضي، وهو بمنزلة المصدر، وليس معنى المصدر معنى المخلوق، واختلف أهل العلم فيه إذا كان بمعنى المصدر، فقال قوم: هو الارادة له. وقال آخرون: إنما هو على معنى مقدر، كقولك: وجود وعدم، وحدث وقدم، وهذه الاسماء تدل على مسمى مقدر للبيان عن المعاني المختلفة وإلا فالمعنى بما هو الموصوف في الحقيقة.

وإنما جمعت السماوات ووحدت الارض، لانه لما ذكرت السماء بأنها سبع في قوله تعالى: (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) (٣) وقوله: (خلق سبع سموات) (٤) جمع لثلاثا يوم التوحيد معنى الواحدة من هذه السبع. وقد دل مع ذلك قوله (ومن الارض مثلهن) (٥) على معنى السبع، ولكنه لم يجر على جهة الافصاح بالتفصيل في اللفظ. ووجه آخر: وهو أن الارض لتشاكلها تشبه الجنس الواحد، كالرجل، والماء الذي لايجوز جمعه إلا أن يراد الاختلاف، وليس تجري السماوات مجرى الجنس، لانه دبر في كل سماء أمرها. والتدبير الذي هو حقها.

وفي اشتقاق قوله (واختلاف الليل والنهار) قولان:

أحدهما - من الخلف، لان كل واحد منهما يخلف صاحبه على وجه المعاقبة له.
والثاني - من اختلاف الجنس كاختلاف السواد والبياض، لان أحدهما لا يسد مسد الآخر في الادراك. والمختلفان ما لا يسد أحدهما مسد الآخر فيما يرجع إلى ذاته.

" ١ " سورة سبأ آية: ٣ " ٢ " في المطهوعة (لمثله) " ٣ " سورة البقرة آية: ٢٩ " ٤ " سورة الطلاق آية ١٢،
وسورة الملك آية: ٣ " ٥ " سورة الطلاق آية: ١٢

(٥٧)

والنهار: إتساع الضياء، وأصله الاتساع، ومنه قول الشاعر: (١)
ملكبت بها كفي فأنهزت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها (٢)

أي أوسعت، ويصلح ان يكون من النهر أي جعله كالنهر. والنهر أوسع مجاري الماء، فهو أوسع من الجدول، والساقية. وإنما جمعت الليلة، ولم يجمع النهار لان النهار بمنزلة المصدر، كقولك: الضياء، يقع على الكثير والقليل، فأما الليلة، فمخرجها مخرج الواحد من الليل على أنه قد جاء جمعه على وجه الشذوذ. قال الشاعر:

لولا الثريدان هلكنا بالضم * ثريد ليل وثرید بالنهر (٣)

والفلك: السفن يقع على الواحد، والجمع بلفظ واحد، ومنه قوله: (في الفلك المشحون) (٤) ومنه (واصنع الفلك بأعيننا) (٥) والفلك: فلك السماء.

قال الله تعالى: (كل في فلك يسبحون) (٦). وكل مستدير فلك، والجمع أفلاك وقال صاحب العين: قيل: اسم للدوران خاصة. وقيل: بل اسم لاطواق سبعة فيها النجوم. وفلكت الجارية إذا استدار ثديها. والفلكة: فلكة المغزل معروف. وفلكة الجدي، وهو قضيب يدار على لسانه لئلا يرضع. واصل الباب الدور، والفلك السفينة لأنها تدور بالماء أسهل دور. وإنما جعل الفلك للواحد، والجمع بلفظ واحد، لان فعل وفعل (٧) يشتركان كثيرا: العرب، والعرب، والعجم، والعجم، والبخل والبخل.

" ١ " هو قيس بن الخطيم.

" ٢ " اللسان (نهر) ملكت: شددت وقويت. أنهرت فتقها: وسعته حتى جعلته نهرا.

يصف طعنة، فشبها اولاً بالنهر ثم شبها بالنافذة بقوله: يرى قائم.. وهذا في غاية المبالغة.

" ٣ " اللسان (نهر)، وتهذيب الالفاظ: ٤٢٢، والمخصص ٩: ٥١. ورواية اللسان، والمخصص " لمتنا " بدل " لهلكنا " الضمر - بضم الميم، وسكونها - الهزال، ولحاق البطن، والضم هنا: الحوع، لان المعنى لولا ثريد الليل وثرید النهار لمتنا جوعا. والثرید:

خيز؟ في ماء اللحم وغيره.

" ٤ " سورة يس آية: ٤١ " ٥ " سورة هود آية: ٣٧ " ٦ " سورة الانبياء آية: ٣٣، وسورة يس آية ٤٠ " ٧ " فعل الاولى - بفتح الفاء والعين - والثانية - بضم الفاء وسكون العين -، وكذلك كل ما مثل به من الكلمات المتفقة في المادة في هذه الموضع.

(٥٨)

ومن قال في أسد: أسد. قال في فلك: فلك، فجمعه على فعل. وإنما أنت الفلك إذا أريد به الجمع، كقولك: السفن التي تجرى في البحر.

وقوله: (وما أنزل الله من السماء) يعني من نحو السماء عند جميع المفسرين.

وقال قوم: السماء تقع على السحاب، لان كل شئ علا فوق شئ، فهو سماء له. فان قيل:

هل السحاب بخارات تصعد من الارض؟ قلنا ذلك جائز لا يقطع به، ولا مانع ايضا من صحته من دليل عقل، ولاسمع. والسماء: السقف، فسماء البيت سقفه قال تعالى:

(وجعلنا السماء سقفا محفوظا) (١) فالسماء المعروفة سقف الارض. وأصل الباب السمو: وهو العلو. والسماء: الطبقة العالية على الطبقة السافلة إلا أنها صارت بمنزلة الصفة على السماء المعروفة: وهي التي من أجل السمو كانت عالية على الطبقة السافلة. والارض الطبقة السافلة. يقال: أرض البيت وأرض الغرفة، فهو سماء لما تحته من الطبقة، وارض لما فوقه، وقد صار الاسم كالعلم على الارض المعروفة. وإنما يقع على غيرها بالاضافة.

والليل هو الظلام المعاقب للنهار. وقد يقال لما لا يصل اليه ضوء الشمس: هو الليل وإن كان النهار موجودا. والبحر: هو الخرق الواسع الماء الذي يزيد على سعة النهر. والمنفعة: هي اللذة، والسرور وما أدى إليهما. أو إلى كل واحد منهما. والنفع، والخير، والحظ نظائر، وقد تكون المنفعة بالآلام إذا أدت إلى لذات. والاحياء:

فعل الحياة. وحياة الارض: عمارتها بالنبات، وموتها إخراجها بالجفاف الذي يمتنع معه النبات. والبت: التفريق، وكل شئ بثنته،؟ فرقته، ومنه قوله تعالى:

(كالفرش المبتوث) (٢)، وتقول: انبت الجراد في الارض، وتقول: بثنته سري، وابثنته إذا أطلعت عليه. والبت: ما يجده (٣) الرجل من كرب، أو غم في نفسه، ومنه قوله: (أشكون بثي وحنني إلى الله) (٤). وأصل الباب التفريق.

وقال صاحب العين: كل شئ مما خلق الله يسمى دابة مما يدب، وصار بالعرف اسما

" ١ " سورة الانبياء آية: ٣٢ " ٢ " سورة القارعة آية: ٤ " ٣ " في المطبوعة " ما يمجده " " ٤ " سورة يوسف آية:

(٥٩)

لما يركب، ويقولون للبردون: دابة وتصغيرها دويبة. ودب النمل يدب دبيبه. ودب الشراب بالانسان دبيبا. ودب القوم إلى العدو أى مشوا على هيتهم لم يشرعوا.

والدبابة تتخذ في الحروب، ثم يدفع إلى أصل حصن فينقبون وهم في جوف الدبابة (١) والدب: نوع من السباع، والانثى دبه. والدبة لزوم حال الرجل في فعاله. ركب فلان دبة فلان، وأخذ بدبته أي عمل بعمله.

وقوله تعالى: (وتصريف الرياح) التصريف والتقليب والتسليك نظائر.

وتصريف الرياح تصرفها من حال إلى حال، ومن وجه إلى وجه، وكذلك تصرف الخيول، والسيول، والامور. وصرف الدهر تقلبه، والجمع صروف. والصريف:

اللبن إذا سكنت رغوته. وقال بعضهم: لا يسمى صريفا حتى يتصرف به الضرع.
والصريف صريف الفحل بنابه حتى يسمع لذلك صوت، وكذلك صريف البكرة.
وعنز صارف: إذا أرادت الفحل. والصرف: صبغ أحمر، قال الاصمعي: هو الذي يصبغ به
الشرك. والصرف: فضل الدرهم على الدرهم في الجودة. وكذلك بيع الذهب بالفضة، ومنه
اشتق إسم الصير في، لتصريفه أحدهما في الآخر. والصرف:
النافلة. والعدل: الفريضة. والصرفة: منزل من منازل القمر: كوكب إذا طلع قدام الفجر، فهو
أول الخريف، وإذا غاب من طلوع الفجر، فذاك أول الربيع. والصرف:
الشراب غير ممزوج. والصرفان تمر معروف، أوزنه وأجوده. وأصل الباب: القلب عن
الشيء. والسحاب: مشتق من السحب وهو حرك الشيء على وجه الأرض، تسحبه سحبا كما
تسحب المرأة ذيلها، وكما تسحب الريح التراب، وسمي السحاب سحابا، لا نسحابه في السماء
وكل منجر منسحب.
والتسخير، والتذليل، والتمهيد نظائر. تقول: سخر الله لفلان كذا إذا سهله له، كما سخر الرياح
لسليمان. وسخرت الرجل تسخيرا إذا اضطهدته، فكلفته عملا بلا أجره. وهي السخرة، وسخر
منه إذا استهزأ به، قال الله تعالى (فيسخرون)

" ١ " في المطبوعة " دابة "

(٦٠)

منهم سخر الله منه (١) وقال (فاتخذتموهم سخريا) (٢) من الاستهزاء، وسخريا من تسخير
الحول وما اشبهه. وأصل الباب: التسخير: التذليل.
المعنى:

وقيل في تصريف الرياح قولان: أحدهما - هبوبها شمالا وجنوبا وصبا ودبوراً. والثاني -
قيل مجيؤها بالرحمة مرة وبالعذاب أخرى. وهو قول قتادة.
وقوله: (لقوم يعقلون) فيه قولان: أحدهما - أنه عام لمن استدل به، ومن لم يستدل من العقلاء.
والثاني - أنه خاص لمن استدل به كما قال: (إنما أنت منذر من يخشاها) (٣) وكما قال (هدى
للمتقين) (٤) لما كانوا هم الذين اهتدوا بها وخشوا عند مجيئه أضيف إليهم وإنما أضيفت
الآيات إلى العقلاء لأمريين: أحدهما - لأنها نصبت لهم. والثاني - لأنها لا يصح أن يستدل
بها سواهم.

اللغة:

قال ابوزيد: قال القيسون: الرياح أربع: الشمال، والجنوب، والصبا، والدبور.

فأما الشمال عن يمين القبلة والجنوب عن شمالها والصبا والدبور متقابلتان، فالصبا من قبل المشرق والدبور من قبل المغرب وإذا جاءت الرياح بين الصبا والشمال، فهي النكباء التي لا يختلف فيها. والتي بين الجنوب والصبا، فهي الجريباء، وروى ابن الاعرابي عن الاصمعي، وغيره: ان الرياح اربع: الجنوب، والشمال، والصبا، والدبور. قال ابن الاعرابي: كل ریح بين ريحين، فهي نكباء. قال الاصمعي: اذا انحرفت واحدة منهن، فهي نكباء، وجمعها نكب. فاما مهيبين، فان ابن الاعرابي قال: مهيب الجنوب من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، والصبا من مطلع الثريا إلى بنات نعش، والشمال من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر، والدبور من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل، والجنوب، والدبور لهما هيف ولطيف: الريح الحارة، والصبا، والشمال: لاهيف لهما. وقال

" ١ " سورة التوبة آية: ٨٠ " ٢ " سورة المؤمنون آية: ١١١ " ٣ " سورة النازعات آية: ٤٥ " ٤ " سورة البقرة آية: ٢

(٦١)

الاصمعي: ما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر: جنوب. وما بان انهما هما، يستقبلهما من الغرب: شمال، وما جاء من واء البيت الحرام فهو دبور، وما جاء قبالة ذلك، فهو صبا. وتسمى الصبا قبولا، لأنها تستقبل الدبور، وتسمى الجنوب الازيب، والنعامي. وتسمى الشمال محوة ولا تصرف، لأنها تمحوا السحاب وتسمى الجريباء، وتسمى مسعا، وتسعا. وتسمى الجنوب اللاقح. والشمال حائلا، وتسمى ايضا عقيما، وتسمى الصبا عقيما ايضا. قال الله تعالى: " وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم " (١) وهي التي لا تلقح السحاب. والذاريات التي تذرّوا التراب ذروا.

ومن قرأ بلفظ الجمع، فلان كل واحدة من هذه الرياح مثل الاخرى في دلالتها على التوحيد وتسخيرها لنفع الناس. ومن وحد أراد به الجنس كما قالوا أهلك الناس الدينار، والدرهم. قوله تعالى:

ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب. (١٦٥) آية بلا خلاف القراءة:

قرأ نافع وابن عامر، وأبوجعفر من طريق النهرواني " ولو ترى " بالتاء. الباقرن بالياء. وقرأ أبوجعفر، ويعقوب " إن القوة لله، وإن الله " بكسر الهمزة فيهما. الباقرن بفتحها. وقرأ ابن عامر وحده " إذ يرون " بضم الياء. والباقرن بفتحها.

اللغة:

الانداد، والامثال، والاشباه نظائر، والانداد (٢) واحدها ند. وقيل

" ١ " سورة الذاريات آية: ٤١.

" ٢ " في المطبوعة (الانداد) ساقطة.

(٦٢)

الاضداد. وأصل الند المثل المناوي والمراد به هنا قال قتادة، والربيع، ومجاهد، وابن زيد، وأكثر المفسرين آهتهم التي كانوا يعبدونها. وقال السدي: رؤسائهم الذين يطيعونهم طاعة الارباب من الرجال. وقوله تعالى " يحبونهم " فالمحبة هي الارادة إلا ان فيها حذفاً، وليس ذلك في الارادة فاذا قلت: أحب زيدا معناه أريد منافعه أو مدحه، وإذا أحب الله تعالى عبداً فمعناه أنه يريد ثوابه وتعظيمه، وإذا قال:

أحب الله معناه أريد طاعته واتباع أوامره، ولا يقال: أريد زيدا، ولا أريد الله ولا إن الله يريد المؤمن، فاعتيد الحذف في المحبة، ولم يعتد في الارادة. وفي الناس من قال: المحبة ليست من جنس الارادة، بل هي من جنس ميل الطبع، كما تقولون:

أحب ولدي أي يميل طبعي اليه، وذلك مجاز، بدلالة أنهم يقولون: أحببت أن أفعل بمعنى أردت أن أفعل. و ضد الحب البغض. وتقول: أحبه حبا، وتحب تحبياً، وحببه تحببياً، وتحاباً تحاباً. والمحبة: الحب. والحب واحده حبة من بر، أو شعير، أو عنب. أو ما أشبه ذلك. والحبة بزور البقل. وحبة القلب ثمرته. والحب: الجرة الضخمة. والحب القرط من حبة واحدة. وحباب الماء: فقاقيعه. والحباب الحبة.

وأحب البعير إجاباً: إذا برك، فلا يثور، كالحران في الخيل، قال أبو عبيدة: ومنه قوله تعالى " أحببت حب الخير عن ذكر أبي " (١) أي لصقت بالارض لحب الخير، حتى تأتيني الصلاة. وأصل الباب: الحب ضد البغض.

المعنى:

وقوله: " كحب الله " قيل في هذه الاضافة ثلاثة أقوال: أحدها - كحبكم الله. والثاني - كحبهم الله. والثالث - كحب الله الواجب عليهم لا الواقع منهم، كما قال الشاعر:

فلست مسلماً ما دمت حياً * على زيد بتسليم الامير (٢)

" ١ " سورة ص آية: ٣٢. " ٢ " البيان والتبيين ٤: ٥١، ومعاني القرآن للفراء ١: ١٠٠، وأمالى الشريف المرتضى ١: ٢١٥. ولم نعرف قائله.

(٦٣)

أي مثل تسليمي على الامير. فان قيل: كيف يحب المشرك - الذي لا يعرف الله - شيئاً كحبه
الله؟ قلنا من قال: إن الكفار يعرفون الله قال: كحبه الله.

ومن قال: هم لا يعرفون الله - على من يقوله أصحاب الموافاة - قال: معناه كحب المؤمنين
الله أو كالحب الواجب عليهم.

وقوله تعالى: " والذين آمنوا أشد حبا لله " قيل في معناه قولان:

أحدهما - " أشد حبا لله " للاخلاص له من الاشرار به والثاني - لانهم عبدوا من يملك الضر
والنفع، والثواب، والعقاب، فهم أشد حبا لله بذلك ممن عبد الاوثان.

الاعراب:

ويجوز فتح " أن " من ثلاثة أوجه، وكسرهما من ثلاثة أوجه - مع القراءة بالياء -:

أولها - يجوز فتحها بايقاع الفعل عليها بمعنى المصدر. وتقديره " لو يرى الذين ظلموا إذ
يرون العذاب " قوة الله وشدة عذابه.

الثاني - أن يفتح على حذف اللام كقولك: لان القوة لله.

الثالث - على تقدير لرأوا أن القوة لله، على الاتصال بما حذف من الجواب.

والاول من الكسر على الاستئناف. الثاني - على الحكاية مما حذف من الجواب كأنه قيل:
لقالوا إن القوة لله جميعا. الثالث - على الاتصال مما حذف من الحال، كقولك: يقولون: إن
القوة لله.

ومن قرأ بالتاء، يجوز ايضا في الفتح ثلاثة أوجه. وفي الكسر ثلاثة أوجه:

أول الفتح - على البدل، كقولك: ولو ترى الذين ظلموا أن القوة لله عليهم، وهو معنى قول

الفراء. الثاني - لان القوة لله. الثالث - أرأيت أن القوة لله. قال أبو علي الفارسي: من قرأ

بالتاء لا يجوز أن تنصب أن إلا بالفعل المحذوف - في الجواب. وأما البدل فلا يجوز، لانها

ليست " الذين ظلموا " ولا بعضهم ولا مشتملة

(٦٤)

عليهم، هذا إن جعل الرؤية من رؤية البصر. وإن جعلها من رؤية القلب، فلا يجوز ايضا،

لان المفعول الثاني في هذا الباب هو الاول في المعنى: وقوله تعالى:

" إن القوة لله " لا يكون الذين ظلموا، فلم يبق بعد ذلك إلا أنه ينتصب بفعل محذوف. والكسر

مع التاء مثل الكسر مع الياء. واختار الفراء - مع الياء - الفتح، ومع التاء الكسر، لان الرؤية

قد وقعت على الذين، وجواب لو محذوف، كأنه قيل: لرأوا مضررة اتخاذهم للانداد، ولرأوا

أمرًا عظيمًا لا يحصر بالآوهام. وحذف الجواب، يدل على المبالغة، كقولك: لو رأيت الشياطين تأخذ فلانا.

والضمير في قوله " يتخذ " عائد على لفظ من. وفي قوله يحبونهم على معنى من، لأن من مبهم، فمرة يحمل الكلام منها على اللفظ، وأخرى على المعنى، كما قال:

" ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا " (١) - بالتاء، والياء - حملا لمن على اللفظ والمعنى.

وانصلت الآية بما قبلها اتصال انكار، كأنه قال: أبعد هذا البيان والادلة القاهرة على وحدانيته، يتخذون الانداد من دون الله.

ومن قرأ قوله " ولو ترى " - بالتاء - جعل الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به غيره، كما قال: " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء " (٢). والذين على هذا في موضع نصب. ومن قرأ بالياء يكون الذين في موضع رفع بأنهم الفاعلون.

وقوله " جميعا " نصب على الحال، كأنه قيل: إن القوة لله ثابتة لله في حال اجتماعها. وهي صفة مبالغة بمعنى إذا رأوا مقدورات الله فيما تقدم الوعيد به، علموا أن الله قادر لا يعجزه شيء.

والشدة قوة العقد، وهو ضد الرخاوة. والقوة والقدرة واحد. و (ترى)

في قوله تعالى: " ولو ترى " من رؤية العين بدلالة أنها تعدت إلى مفعول واحد، لأن التقدير ولو ترون أن القوة لله جميعا أي ولو يرى الكفار ذلك.

" ١ " سورة الاحزاب آية: ٣١.

" ٢ " سورة الاطلاق آية: ١

(٦٥)

ومن قرأ - بالتاء - يقوى انها المتعدية إلى مفعول واحد، ويدل على ذلك ايضا قوله " إذ يرون العذاب "، وقوله: " وإذا رأى الذين ظلموا العذاب " " فلا يخفف عنهم "، فتعدى إلى مفعول واحد. فان قيل: كيف قال: " ولو يرى الذين ظلموا " وهو أمر مستقبل، وإذ لما مضى؟ قيل: إنما جاء على لفظ المضى لارادة التقريب في ذلك، كما جاء " وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب " (١) وعلى هذا جاء في هذا المعنى أمثلة الماضي كقوله: " ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة " (٢). وهكذا ذكره أبو علي الفارسي قال: وعلى هذا المعنى جاء في " مواضع كثيرة في القرآن، كقوله تعالى " ولو ترى إذ وقفوا على ربهم " (٣)

" ولو ترى إذ وقفوا على النار " (٤) " ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم " (٥) " ولو ترى إذ فزعوا، فلا فوق " (٦) " ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة " (٧). كذلك هذه الآية.

قوله تعالى:

إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (١٦٦) آية واحدة بلا خلاف الاعراب واللغة:

العامل في (إذ) قوله تعالى: " وإن الله شديد العقاب إذ تبرأ الذين " كأنه قيل وقت تبرأوا. والتبرء: التباعد للعداوة، فإذا قيل تبرأ الله من المشركين معناه باعدهم من رحمته، وكذلك إذا تبرء الرسول منهم معناه باعدهم - للعداوة - عن منازل من

سورة النحل آية: ٧٧.

(٢) سورة الاعراف آية: ٥٠. (٣) سورة الانعام آية: ٣٠.

(٤) سورة الانعام آية: ٢٧. (٥) سورة سبأ آية: ٣١.

(٦) سورة سبأ آية: ٥١. (٧) سورة الانفال آية: ٥١.

(٦٦)

لا يجب له الكراهة.

والتبرء في أصل اللغة، والتزيل، والنقصي نظائر. و ضد التبرء التولي. والاتباع: طلب الاتفاق في مكان، أو مقال، أو فعال، فإذا قيل اتبعه ليلحقه، فمعناه ليتفق معه في المكان، وإذا تبعه في مذهبه أو في سيره أو غير ذلك من الاحوال، فمعناه طلب الاتفاق. و " اتبعوا " ظمت الالف فيه لضممة الثالث، وضممة الثالث لما لم يسم فاعله، لانه إنما يضم له أول المتحرك من الفعل فيما بني عليه، والف الوصل لا يعتد به، لانه وصلة إلى التكلم بالساكن فإذا اتصل بمتحرك، استغني عنه.

المعنى:

والمعنى بقوله: " الذين اتبعوا " رؤساء الضلالة من الانس. وقال قوم: هم من الجن. وقيل: من الجميع. والاول - قول قتادة، والربيع، عطا. والثاني - قول السدي. وقوله تعالى: " وتقطعت بهم الأسباب " فالتقطع: التباعد بعد الاتصال. والسبب: الوصلة إلى التعذر بما يصلح من الطلب. ومعنى الأسباب هاهنا. قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال مجاهد، وقتادة، والربيع، وفي رواية عن ابن عباس: هي الوصلات التي كانوا يتواصلون عليها.

الثاني - روي عن ابن عباس: أنها الأرحام التي كانوا يتقاطعون بها.

الثالث - قال ابن زيد: الأعمال التي كانوا يوصلونها. وقال الجبائي: نقطعت بهم أسباب: النجاة.

اللغة:

والسبب: الحبل. والسبب: ما تسببت به من رحم، أو يد، أو دين. ومنه قوله: " فليرتقوا في الأسباب " (١). تقول العرب. إذا كان الرجل ذا دين:

(١) سورة ص آية: ١٠

(٦٧)

ارتقا في الأسباب. والسبب: الشتم. والسبب: القطع. والسبب: الشقة البيضاء من الثياب، وهي السببية (١)، ومضت سبة من الدهر أي مالا. والسبب: الوند. والسبابة: ما بنى الوسطى والأبهام. والتنسب: التوصل إلى ما هو منقطع عنك. ويقال: تسبب يتسبب تسببا، واستبوا استبأبا، وسبب تسبيبا، وسأبه؟. قوله تعالى:

وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرء منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار (١٦٧) آية بلا خلاف. المعنى:

المعنى بقوله: " وقال الذين اتبعوا " هم الذين تبرءوا منهم: ساداتهم الذين اتبعوهم " لو أن لنا؟ " يعني رجعة إلى دار الدنيا، قال الاخطل:

ولقد عطفن على فزارة عطفة * كر المنيح وجلن؟ مجالا (٢)

فالعامل في " لو أن " محذوف، كأنه قال: لو صح أن لنا كرة، لان (لو) في التمني، وغيره تطلب الفعل. وإن شئت قدرته: لو ثبت أن لنا كرة.

اللغة:

والكر نقيض الفر تقول: كر يكر كرا، وكرة، وتكرر تكررا، وكرر

" ١ " وفي لسان العرب (سبب) السب، والسببية: الشقة، وخص بعضهم به الشقة البيضاء.

" ٢ " ديوانه: ٤٨، ونقائض جرير والاخلط: ٧٩. في المطبوعة (المسيح) بدل (المنيح) وفي الديوان (قدارة) بدل (فزاره). وفزاره: ابن ذبيان بن؟. والمنيح:
قح لاحظ له في الميسر. والمنيح اسم رجل من بني أسد من بني مالك. ومعنى البيت: لقد ها جمناهم في الحرب بشدة ومراس مثل ما يهاجم المنيح.

(٦٨)

تكريرا، وتكرارا. والكرة والفرة متقابلان. والكر والرجع والفتل نظائر في اللغة قال صاحب العين: الكر الرجوع عن الشيء ومنه التكرار. والكر الحبل الغليظ. وقيل: الشديد الفتل. والكرير صوت في الحلق. والكرير: نهر. والكرة:
سبرقين وتراب، يدق، ويجلا به الدروع.

وقوله " فنتبرء منهم " فالتبرء والانفصال واحد، ومنه برئ من مرضه: اذا انفصل منه بالعافية. ومنه برئ من الدين براءة. وبرئ الله من الخلق.
الاعراب:

وانتصب " فنتبرء " على أنه جواب التمني - بالفاء - كأنه قال: لو كان لنا كرة فنتبرءا (١) وكما عطف للفعل على تأويل المصدر، نصب باضمار (أن). ولا يجوز اظهارها.
المعنى:

وقوله: " كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات " وذلك لانقطاع الرجاء من كل واحد منهما. قيل ايضا: كما أراهم العذاب يريهم أعمالهم حسرات عليهم.
وذلك، لانهم أيقنوا بالهلاك في كل واحد منهما. والعامل في الكاف يريهم. والاعمال التي يرونها حسرات قيل فيها ثلاثة أقوال:
أحدها - المعاصي يتحسرون عليها لم عملوها.
الثاني - الطاعات يتحسرون عليها لم لم يعملوها، وكيف ضيعوها، ومثله " زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون " (٢) أي أعمالهم التي فرضناها عليهم، أو ند بناهم اليها.

" ١ " في المطبوعة نسختين احدهما نفس الآية، وهذا لا يجوز مع قوله كأنه، لان التشبيه يقتضي التغاير بين المشبه، والمشبه به حتى يكون بينهما اثنتين، والنسخة الثانية (كان لنا كرة ورفنتبرأ) وهذه ليس فيه معنى محصل، فلا بد أن تكون خطأ، وفي مجمع البيان (ليت لنا كرورا فتبروءا) وبدل على صحة ما أثبتنا تنمة الجملة. والمخطوطة هنا ناقصة بعض الاوراق.
" ٢ " سورة النمل آية: ٤.

(٦٩)

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال: هو الرجل يكتسب المال، ولا يعمل فيه خيرا، فيرثه من يعمل فيه عملا صالحا، فيرى الاول ما كسبه حسرة في ميزان غيره فان قيل: لو جاز أن تضاف الاعمال التي رغبوا فيها، ولم يفعلوها بأنها أعمالهم لجاز أن يقال: الجنة دارهم وحوار العين أزواجهم لانهم عرضوا لها ! قلنا لا يجب ذلك، لانا إنما حملنا على ذلك للضرورة. ولو سمى الله تعالى الجنة بأنها دارهم لتأولنا ذلك، ولكن لم يثبت ذلك، فلا يقاس على غيره.

الثالث - الثواب، فان الله تعالى يريهم مقادير الثواب التي عرضهم لها لو فعلوا الطاعات فيتحسرون عليه - لم فرطوا فيه - والقول الاول قول الربيع، وابن زيد، واختيار الجبائي، وأحد قولي البلخي. والثاني قول عبدالله، والسدي، وأحد قولي البلخي. وهو كما تقول الانسان أقبل على عملك وأعقدت عليه عملا قلت في عملك، والذي أقوله: ان الكلام يحتمل أمرين: فلا ينبغي أن يقطع على واحد منهما إلا بدليل إلا ان الاول أقوى، لانه الحقيقة. والله أعلم بمراده.

اللغة:

والحسرات: جمع الحسرة، وهي أشد من الندامة. والفرق بينهما وبين الارادة ان الحسرة تتعلق بالماضي خاصه، والارادة تتعلق بالمستقبل، لان الحسرة انما هي على ما فات بوقوعه أو يتقضي وقته. وانما حركت السين، لانه اسم على فعلة اوسطه ليس من حروف العلة، ولو كان صفة لقلت: صعبات فلم يحرك: وكذلك جوزات وبيضات. وانما حرك الاسم، لانه على خلاف الجمع السالم، إذ كان كان انما يستحقه ما يعقل.

والحسرة والندامة نظائر، وهي نقيض الغبطة. ونقول: حسرت العمامة عن رأسي إذا كشفتها. وحسر عن ذراعيه حسرا، وانحسر انحسارا، وحسرة تحسيرا.

والحاسر في الخرب الذي لا درع عليه، ولا مغفر. وحسر يحسر حسرة وحسرا: اذا كمد على الشئ الفائت (١)، وتلهف عليه. وحسرت الناقة حسورا: اذا أعييت.

" ١ " في المطبوعة (اذا كمد على الشئ الغائب) وهو تحريف.

(٧٠)

وحسر البصر اذا كل عن البصر: والمحسرة: المكنتة. والطيير يتحسر: اذا خرج من ريشه العتيق إلى الحديث. وأصل الباب الحسر: الكشف.

وفي الآية دلالة على انه كان فيهم قدرة على البراءة منهم، لانهم لو لم يكونوا قادرين لم يجز أن يتحسروا على مافات، كما لا يتحسر الانسان لم لم يصعد إلى السماء، ولا من كونه في الارض.

قوله تعالى:

يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين
(١٦٨) آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع، وأبو عمر، وحمزة، وخلف، وأبو بكر إلا البرجمي، والبزي إلا ابن مرج والربيعي إلا
الولي " خطوات " بسكون الطاء حيث وقع. والباقون بضمها.
اللغة:

الاكل: هو البلع عن مضغ، وبلع الحصا ليس بأكل في الحقيقة، وقد قيل:
النعام يأكل الخمر، فأجروه مجرى فلان يأكل الطعام. ويقال مضغه ولم يأكله.
والحلال: هو الجائز من أفعال العباد، مأخوذ من أنه طلق، لم يعقد بحظر. والمباح هو الحلال
بعينه، وليس كل حسن حلالا، لان أفعاله تعالى حسنة ولا يقال: انها حلال، إذا لحلال اطلاق
في الفعل لمن يجوز عليه المنع. وتقول: حل يحل حلالا، وحل يحل حلولا، وحل العقد حلا،
وأحله إحلالا، واستحل استحلالا، وتحلل تحللا واحتل احتلا، وتحالوا تحالا، وحاله محالة،
وحللة تحليلا، وانحل انحلالا، وحل العقد يحله حلا، وكل جامد أذنبته فقد حللته، وحل بالمكان
إذا نزل به، وحل الدين محلا، وأحل من إحرامه وحل، والحل: الحلال. ومن قرأ " يحلل "
معناه ينزل ومن قرأ " يحل " معناه يجب، وحلت عليه العقوبة أي وجبت. والحلال الجدي
الذي يشق عن بطن

(٧١)

أمه، وتحلة اليمين، منه قول الشاعر: (١)

تحفي التراب بأضلاف ثمانية * في أربع مسهن الارض تحليل (٢)
أي هين. والحليل، والحليلة: الزوج والمرأة سميا بذلك، لانهما يحلان في موضع واحد.
والحلة: أزار، ورداء برد، وغيره. لا يقال حلة حتى يكون ثوبين.
والاحليل مخرج اللبن من الضبي، والفرس، وخلف الناقة، وغيرها، وهو مخرج البول من
الذكر. وأصل الباب: الحل نقيض العقد، ومنه أحل من إحرامه، لانه حل عقد الاحرام
بالخروج منه. وتحلة اليمين أخذ اقل القليل، لان عقدة اليمين تتحل به.

والطيب: هو الخالص من شائب ينغص، وهو على ثلاثة أقسام:

الطيب المستذ، والطيب الجائز، والطيب الطاهر، كقوله تعالى: " فتيمموا صعيدا طيبا " (٣)
أي طاهرا. والاصل واحد، وهو المستذ إلا أنه يوصف به الطاهر، والجائز تشبيها إذ ما
يزجر عنه العقل أو الشرع، كالذي تكرهه النفس في الصرف عنه، وما تدعوا اليه بخلاف

ذلك. وتقول: طاب طيبا، واستطاب استطابة، وطايبه مطايبة، وتطيب تطيبا، وتطيهه تطيبيا، والطيب: الحلال والنظيف، والطهور، من الطيب. وأصل الباب: الطيب خلاف الخبيث. والخطوة: بعد ما بين قدمي الماشي. والخطوة المرة من الخطو: وهو نقل قدم الماشي. وتقول: خطوة، وخطوة، وخطوة واحدة. والاسم: الخطوة، وجمعها خطى، وقوله تعالى: " ولا تتبعوا خطوات الشيطان " أي لا تتبعوا آثاره ولا تقتدوا به. وأصل الباب الخطو: نقل القدم قدما. والعدو: المبادئ عن الخير إلى الشر. والولي نقيضه.

" ١ " هو عبدة بن الطيب.

" ٢ " اللسان (حل) في المطبوعة (خفي) بدل (تحفي) والاصلاب بدل (الاضلاف)

" ٣ " سورة النساء آية: ٤٢، وسورة المائدة آية: ٧.

(٧٢)

المعنى:

وإنما قال: " حلالا طيبا " فجمع الوصفين، لاختلاف الفائدتين: إذ وصفه بأنه حلال يفيد بأنه طلق. ووصفه بأنه طيب مفيد أنه مستنذ إما في العاجل وإما في الآجل. و " خطوات الشيطان " هاهنا قيل فيه خمسة أقوال: فقال ابن عباس:

أعماله. وقال مجاهد، وقتادة: خطاياهم، وقال السدي: طاعتكم إياهم. وقال الخليل:

إيثاره. وقال قوم: هي النذور في المعاصي. وقال الجبائي: ما يتخطى بكم إليه بالامر والترغيب. وروي أن هذه الآية نزلت، لما حرم أهل الجاهلية من ثقيف، وخزاعة، وبني مدلج من الانعام، والحرث: البحيرة والسائبة والوصيلة، فنهى الله تعالى عما كانوا يفعلونه، وأمر المؤمنين بخلافه. والاذن في الحلال يدل على حظر الحرام على اختلاف ضرور به، وأنواعه، فحملها على العموم أولى. والمآكل، والمنافع في الاصل للناس فيها ثلاثة أقوال: فقال قوم: هي على الحظر. وقال آخرون:

هي على الإباحة. وقال قوم: هي على الوقف. وحكي الرمانى: أن فيهم من قال:

بعضها على الحظر، وبعضها على الإباحة. قد بينا ما عندنا في ذلك في أصول الفقه إلا أن هذه الآية دالة على إباحة المآكل إلا ما دل الدليل على حظره. (١) وقوله:

" انه لكم عدو مبين " في وصف الشيطان معناه أنه مظهر العداوة بما يدعوا إليه من خلاف الطاعة لله التي فيها النجاة من الهلاك، والفوز بالجنة.

قوله تعالى:

إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (١٦٩) آية واحدة بلا خلاف.

اللغة:

الامر من الشيطان هو دعاؤه إلى الفعل، فأما الامر في اللغة، فهو قول

" ١ " كل لفظة حظر في الاسطر المتقدمة فانها في المطبوعة " خطر ". والمخطوطة ناقصة في هذا الموضوع. والصحيح ما أثبتناه لمقابلته بالحلال.

(٧٣)

القائل لمن هو دونه: إفعال. وإذا كان فوقه سمي ذلك دعاء، ومسألة. وهل يقتضي الامر الايجاب، أو الندب، ذكرناه في أصول الفقه، فلا نطول بذكره هاهنا. والسوء: كل فعل قبيح يزجر عنه العقل أو الشرع، ويسمى ما تنفر عنه النفس سوء، تقول: ساءني كذا يسوعي سوء. وقيل إنما سمي القبيح سوء، لسوء عاقبته، لأنه يلتذ به في العاجل، ولا يخلوا المكلف من الزجر عن القبيح إما عقلا، أو شرعا، ولو خلا منه لكان معرى بالقبيح، وذلك لا يجوز.

والسوء في الآية قيل فيه قولان: قال السدي: هو المعاصي. وقال غيره: ما يسوء الفاعل: يعني ما يضره. والمعنى قريب من الاول، والاول هو الصحيح. والفحشاء: هو العظيم القبح في الفعل، وكذلك الفاحشة. وقيل المراد به: الزنا من الفجور، عن السدي. والفحشاء: مصدر فحش فحشا، كقولك: ضره ضرا وسره سرا وسرا. والفحشاء، والفاحشة، والقبيحة، والسيئة نظائر، ونقيضها الحسنة. تقول: فحش فحشا، وافحش إفحاشا، وتفاحش تفاحشا، وفحش تفحيشا، واستفحش استفحاشا، وكل من تجاوز قدره فهو فاحش. وأفحش الرجل: اذا قال فحشا، وكل شيء لم يكن موافقا للحق، فهو فاحشة. قال الله تعالى: " إلا أن يأتين بفاحشة مبينة " (١) يعني بذلك خروجها من بيتها بغير إذن زوجها المطلق لها. وقال تعالى " وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى " (٢) والقول: كلام له عبارة تنبئ عن الحكاية، وذلك ككلام زيد، يمكن أن يأتي عمرو بعبارة عنه تنبئ عن الحكاية له فيقول: قال زيد كذا وكذا، فيكون قوله: قال زيد، يؤذن أنه يحكى بعده كلام، وليس كذلك إذا قال: تكلم زيد لأنه لا يؤذن بالحكاية. والعلم: ما اقتضى سكون النفس. قيل: هو تبين الشيء على ما هو به للمدرك له.

سورة الطلاق آية: ١.

(٢) سورة النحل آية: ٩٠.

المعنى:

فان قيل: كيف يأمرنا الشيطان ونحن لانراه، ولا نسمع كلامه ! قلنا: لما كان الواحد منا يجد من نفسه معنى الامر بما يجد من الدعاء إلى المعصية، والمنازعة في الخطيئة، وكان ما نجده من نفوسنا من الدعاء والاعواء إنما هو بأمر الشيطان الذي دلنا الله عليه، وحذرنا منه، صح إخبار الله بذلك. فان قيل: اذا كان الله عزوجل يوصل معنى أمره لنا إلى نفوسنا، فما وجه ذلك في الحكمة، وهو لو أمر من غير إيصال معنى الامر لم يكن في ذلك مضرة؟ قلنا. في ذلك أكبر النعمة لان التكليف لا يصح إلا مع منازعة إلى الشئ المنهي عنه، فكان ذلك من قبل عدو، يحذره، أولى من أن يكون المنازعة من قبل ولي يستصحه. وفي ذلك المصلحة لنا بالتعريض للثواب الذي يستحقه بالمخالفة له، والطاعة لله تعالى، كما أن في خلقه مصلحة من هذه الجهة، واذا كان إنما أفهمنا ذلك لنجتنبه، فهو كتعليم شبهة ملحد، لنعلم حلها وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال: إن المعارف ضرورة، لانها لو كانت ضرورة، لما جاز أن يدعوهم إلى خلافها، كما لا يدعوهم إلى خلاف ما هم مضطرون اليه من أن السماء فوقهم، والارض تحتهم، وما جرى مجراه مما يعلم ضرورة لان الدعاء إلى ذلك يجري مجرى الدعاء إلى خلق الاجسام، وبعث الاموات، لايدخل تحت مقدور القدرة. وقد استدل نفاة القياس، والقول بالاجتهاد بهذه الآية بأن قالوا: القول بالاجتهاد والقياس قول بغير علم، وقد نهى الله عن ذلك فيجب أن يكون ذلك محظورا، ومذهبنا وإن كان المنع من القول بالاجتهاد، فليس في هذه الآية دلالة على ذلك، لان للخصم أن يقول: اذا دلني الله تعالى على العمل بالاجتهاد، فلا أعمل أنا به إلا بالعلم، ويجري ذلك؟ وجوب العمل عند شهادة الشاهدين، والعمل بقول المقومين في أروش الجنائيات وقيم المتلفات، وجهات القبلة، وغير ذلك من الاشياء التي هي واقعة على الظن شرط، والعمل واقف على الدليل الموجب للعلم

عنده، فلا يكون في الآية دلالة على ذلك. وقد بينا ما نعتمده في بطلان القول بالاجتهاد والرأي - في أصول الفقه - فلا وجه لذكره هاهنا.

قوله تعالى:

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون

شيئاً ولا يهتدون (١٧٠)

آية واحدة بلا خلاف.

ألفينا، وصادفنا، ووجدنا بمعنى واحد، والاب، والوالد واحد.

الاعراب:

وقوله تعالى:

"أولو كان" هي واو العطف، دخلت عليها حرف الاستفهام، والمراد بها التوبيخ والتفريع، فهي ألف التوبيخ. ومثل هذه الألف (١)
"أثم إذا ما وقع" (١) و"أفلم يسيروا في الأرض" (٣). وإنما جعلت ألف الاستفهام للتوبيخ، لأنه يقتضي ما الإقرار به فضيحة عليه، كما يقتضي الاستفهام الأخبار، مما يحتاج إليه.
المعنى:

والمعنى: إنهم يقولون، هذا القول "وإن كان آبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون". والفرق بين دخول الواو، وسقوطها في مثل هذا الكلام، أنك إذا قلت: اتبعه ولو ضرك، فمعناه اتبعه على كل حال ولو ضرك، وليس كذلك إذا قال:
اتبعه لو ضرك، لأن هذا خاص، والأول عام، فانما دخلت الواو لهذا المعنى:

"١ في المطبوعة (الواو).

"٢ سورة يونس آية: ٥١.

"٣ سورة يوسف آية: ١٠٩، وسورة الحج آية: ٤٦، وسورة المؤمن آية ٨٢، وسورة محمد آية: ١٠.

(٧٦)

ومعنى قوله: "لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون" يحتل شيئين:

أحدهما - لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون إليه.

والثاني - على الشتم والذم، كما يقال: هو أعمى إذا كان لا يبصر طريق الحق - على الذم - هذا قول البلخي. والأول قول الجبائي.

وفي الآية دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف، لأنها دلت على أنهم كانوا على ضلال في الاعتقاد.

والضمير في قوله: "هم" قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - انه يعود على (من) في قوله: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا".

والثاني - انه يعود على (الناس) من "يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً" فعدل عن المخاطبة إلى الغيبة، كما قال تعالى: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة".

(١)

الثالث - انه يعود على الكفار، إذ جرى ذكرهم، ويصلح أن يعود إليهم وإن لم يجر ذكرهم، لأن الضمير يعود على المعلوم، كما يعود على المذكور. وقال ابن عباس: إن النبي (صلى الله

عليه وآله) دعا اليهود من أهل الكتاب إلى الاسلام، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرا منا، فأنزل الله عزوجل " واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله " الآية. و " وألفينا " في الآية معناه وجدنا - في قول قتادة - قال الشاعر: (٢) فألفيته غير مستعتب * ولا ذاك الله إلا قليلا (٣)

" ١ " سورة يونس آية: ٢٢ " ٢ " هو أبو الاسود الدؤلي. " ٣ " ديوانه: ٤٩، والاعاني ١١ ١٠٧، وشرح شواهد المعنى: ٣١، واللسان (عتب) وهو من أبيات قالها في امرأة كان يجلس إليها بالبصرة، فقالت له: هل لك أن تتزوجني، فاني امرأة صناع الكف، حسنة التدبير قانعة بالميسور، فتزوجها ثم وجدها على خلاف ما قالت، فخاتته وأسرت في ماله، وأفشت؟، فردها إلى أهلها، وأنشد الابيات، فقالوا: بلى والله يا أبا الاسود، فقال: هذه صاحبكم، واني أحب أن أستمر ما أفكرت من أمرها، ثم سلمها إليهم.

(٧٧)

والاتباع: طلب الاتفاق في المقال أو الفعال. أما في المقال، فاذا دعا إلى شئ استجيب له. وأما في الفعال، فاذا فعل شيئا، فعلت مثله. والعقل مجموعة علوم بها يتمكن من الاستدلال بالشاهد على الغائب. وقال قوم: هو قوة في النفس يمكن بها ذلك. والاهتداء الاصابة لطريق الحق بالعلم. وفي الآية حجة عليهم من حيث أنهم اذا جاز لهم أن يتبعوا آباءهم فيما لا يدرون أحق هو أم باطل، فلم لا يجوز اتباعهم مع العلم بأنهم مبطلون. وهذا في غاية البطلان. وفيها دلالة على فساد التقليد، لان الله تعالى ذمهم على تقليد آباءهم، ووبخهم على ذلك. ولو جاز التقليد لم يتوجه إليهم توبيخ، ولا لوم، والامر بخلافه. قوله تعالى:

ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون (١٧١) آية بلا خلاف.

المعنى:

التشبيه في هذه الآية يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل:

أحدها - وهو أحسنها وأقربها إلى الفهم، وأكثرها في باب الفائدة - ما قاله أكثر المفسرين كابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والربيع، واختاره الزجاج، والفراء، والطبري، والجبائي، والرماني، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)

إن مثل الذين كفروا في دعائك إياهم، " كمثل الذين ينعق " أي الناعق في دعائه.

المنعوق به من البهائم التي لا تفهم كالابل، والبقر، والغنم، لأنها لا تعقل ما يقال لها، وإنما تسمع الصوت. والحذف في مثل هذا حسن. كقولك لمن هو سئ الفهم: أنت كالحمار، وزيد كالاسد: أي في الشجاعة، لأن المعنى في أحد الشبيئين أظهر، فيشبهه بالآخر ليظهر بظهوره، وهذا باب حسن البيان.

الثاني - حكاة البلخي، وغيره: إن مثل الذين كفروا في دعائهم ألتهتم من

(٧٨)

الأوثان كمثل الناعق في دعائه مالا يسمع، بتعالى، وما جرى مجراه من الكلام، وذلك أن البهائم لا تفهم الكلام، وإن سمعت النداء، والدعاء، وأقصى أحوال الأصنام أن تكون كالبهائم في أنها لا تفهم، فإذا كان لا يشكل عليهم أن من دعا البهائم بما ذكرناه جاهل، فهم في دعائهم الحجارة أولى بالجهل وصفة الذم.

الثالث - قال ابن زيد: إن مثل الذين كفروا في دعائهم ألتهم كمثل الناعق في دعائه الصدى في الجبل، وما أشبهه، لأنه لا يسمع منه إلا دعاء ونداء، لأنه إذا قال: يا زيد، سمع من الصدى يا زيد، فيتخيل إليه أن مجيباً أجابه، وليس هناك شيء، فيقول: يا زيد، وليس فيه فائدة، فكذلك يخيل إلى المشركين أن دعاءهم للأصنام يستجاب، وليس لذلك حقيقة، ولا فائدة. وإنما رجحنا الوجه الأول، لما بيناه من حسن الكلام، ولأنه مطابق للسبب الذي قيل: إنها نزلت في اليهود، فإنهم لم يكونوا يعبدون الأصنام، ولا يليق بهم الوجه الثاني، فإذا ثبت ذلك، ففيه ثلاثة أوجه من الحذف:

أولها - " ومثل الذين كفروا " في دعائك لهم كمثل الناعق في دعائه المنعوق به. والثاني - " ومثل الذين كفروا " في دعائهم الأوثان كمثل الناعق في دعائه الأنعام. الثالث - مثل وعظ الذين كفروا كمثل نعق الناعق بما لا يسمع، وهذا من باب حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه كقول الشاعر: (١)

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتني * على وعل في ذي المطارة عاقل (٢)

والتقدير على مخافة وعل. فان قيل: كيف قوبل الذين كفروا - وهم المنعوق به - بالناعق، ولما تقابل المنعوق به بالمنعوق به - في ترتيب الكلام - أو الناعق بالناعق؟ قيل للدلالة على تضمين الكلام تشبيه اثنين باثنين: الداعي للإيمان للمدعو

" ٢ " ديوانه: ٩٠، واللسان (خوف)، ومجاز القرآن: ٦٥، وأمالى الشريف المرتضى ١: ٢٠٢، ٢١٦. الوعل: تيس الجبل يتحصن بوزره من الصياد. (ذى المطار) - بفتح الميم - اسم جبل. وعائل: قد عقل في رأس الجبل. في المطبوعة (لقد) بدل (وقد) ورواية اللسان (بذى) بدل (في ذى).

(٧٩)

من الكفار بالداعي إلى المراد للمدعو من الانعام، فلما أريد الإيجاز أبقى ما يدل على ما ألقى، فأبقي في الأول ذكر المدعو، وفي الثاني ذكر الداعي، ولو رتب على ما قال السائل، لبطل هذا المعنى. وزعم أبو عبيدة، والفراء: أنه يجري مجرى المقلوب الذي يوضع فيه كلمة مكان كلمة، كأنه وضع الناعق مكان المنعوق به، وأنشد:

كانت فريضة ما تقول كما * كان الزناء فريضة الرجم (١)

والمعنى كما كان الرجم فريضة الزناء، وكما يقال: أدخلت الفلنسة في رأسي، وإنما هو أدخلت رأسي في الفلنسة قال الشاعر:

إن سراجا لكريم مفخره * تحلى به العين إذا ما تجهره (٢)

والمعنى يحلى بالعين، فجعله تحلى به العين. والاقوى أن يكون الأمر على ما بيناه من المعنى الذي دعا إلى الخلاف في الحذف، ليدل بما بقي على ما ألقى.
اللغة:

قال صاحب العين: نعق الراعي بالغنم ينطق نعيقا إذا صاح بها زجرا، ونعق الغراب نعاقا، ونعيقا إذا صاح. والناعقان: كوكبان من كواكب الجوزاء: رجلها اليسرى ومنكبها اليمين، وهو الذي يسمى الهنعة، وهما أضوء كوكبين في الجوزاء.

وأصل الباب الصياح، والنداء: مصدر نادى مناداة، ونداء، وتنادوا تناديا، وندى تنديا، وتندى تنديا. والنداء، والدعاء، والسؤال نظائر، قال صاحب العين:

الندى له وجوه من المعنى: ندى الماء، وندى الخير، وندى الشر، وندى الصوت، وندى الخصر. فأما ندى الماء فمنه ندى المطر، أصابه ندى من ظل، ويوم ندى، فأرض ندية. والمصدر منه الندوة، والندى ما أصابه من البلل، وندى الخير هو المعروف، تقول: أندى علينا فلان ندى كثيرا، وإن يده لندية بالمعروف، وندى

" ١ " البيت للناطقة الجعدي. اللسان (زنا)، وأمالى الشريف المرتضى ١: ٢١٦، ومعاني القرآن للفراء ١: ٩٩، ١٣١.

" ٢ " اللسان (حلا). وأمالى الشريف المرتضى ١: ٢١٦. في المطبوعة (لجلاله) بدل (تحلا به). تجهره: تنظر إليه نظرة اعجاب وتقدير.

(٨٠)

الصوت: بعد مذهبه، وندى الخصر: صحة جريه، واشتق النداء في الصوت من ندى ناداه أي دعاه بأرفع صوته: ناداه به. والندوة الاجتماع في النادي، وهو المجلس، ندى القوم يندون ندوا اذا اجتمعوا، ومنه دار الندوة، وأصل الباب لندى: البلل، وندى الجود كندى الغيث. المعنى:

ومعنى " صم بكم عمي فهم لا يعقلون " أي صم عن إستماع الحجة، بكم عن التكلم بها، عمي عن الابصار لها، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي. والاعمي: من في بصره آفة تمنعه من الرؤية. والاصم: من كان في آلة سمعه آفة تمنعه من السمع. والابكم: من كان في لسانه آفة تمنعه من الكلام. وقيل: إنه يولد كذلك، والخرس قد يكون لعرض يتجدد.

وأجاز الفراء النصب في " صم " على الذم، والاجود الرفع على ما عليه القراء، وتقديره هم صم.

وفيها دلالة على بطلان قول من زعم: أنهم لا يستطيعون سمعا على الحقيقة، لانه لا خلاف أنهم لم يكونوا صما لم يسمعوا الاصوات، وانما هو كما قال الشاعر:

أصم عما ساءه سميع (١)

وفيها دلالة على بطلان قول من قال: إن المعرفة ضرورة، لانهم لو كانوا عالمين ضرورة لما استحقوا هذه الصفة.

وقال عطا: نزلت هذه الآية في اليهود، ومعنى ينعق يصوت قال الاخطل:

فانعق بضأنك يا جرير فانما * منتك نفسك في الخلاء ضلالا (٢)

والدعاء: طلب الفعل من المدعو، والاولى أن يعتبر فيه الرتبة، وهو أن

" ١ " اللسان (صمم)، (سمع).

" ٢ " ديوانه: ٥٠، ونقائض حرير والاطخل: ٨١، واللسان (نعق) وطبقات فحول الشعراء ٤٢٩، ومجاز القرآن: ٦٤، يقول: انما أنت زاعي غنم وليس لك حظ في هذا الامر الذي منتك نفسك به، فارجع إلى غنمك، فأمرها وانهاها، واترك الحرب، وانشاد الشعر.

(٨١)

يكون فوق الداعي. والسمع: إدراك الصوت. والمثل: قول سائر يدل على أن سبيل الثاني سبيل الاول.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون (١٧٢) آية بلا خلاف.

المعنى:

هذا الخطاب يتوجه إلى جميع المؤمنين، وقد بينا أن المؤمن هو المصدق بما وجب عليه، ويدخل فيه الفساق بأفعال الجوارح، وغيرها، لأن الإيمان لا ينفى الفسق - عندنا - . وعند المعتزلة: إنه خطاب لمجتبئي الكبائر، وإنما يدخل فيه الفساق على طريق التبعية، والتغليب، كما يغلب المذكر على المؤنث في قولك: الاماء والعبيد جاوزني، وقد بينا فيما تقدم أن أفعال الجوارح لا تسمى إيماناً - عند أكثر المرجئة وأكثر أصحابنا - وإن بعضهم يسمي ذلك إيماناً، لما رووه عن الرضا (ع). وإيمان مأخوذ من أمان العقاب - عند من قال: إنه تناول مجتبئي الكبائر - وعند الآخرين من أمان الخطأ، في الاعتقاد الواجب عليه. وفي المخالفين من يجعل الطاعات الواجبات، والنوافل من الإيمان. وفيهم من يجعل الواجبات فقط إيماناً، ويسمي النوافل إيماناً مجازاً.

وقوله " كلوا " ظاهره ظاهر الامر، والمراد به الاباحة، والتخيير، لان الاكل ليس بواجب إلا أنه متى أراد الاكل، فلا يجوز أن يأكل إلا من الحلال الطيب، ومتى كان الوقت وقت الحاجة فإنه محمول على ظاهره في باب الامر: سواء قلنا: إنه يقتضي الايجاب أو الندب.

وفي الآية دلالة على النهي عن أكل الخبيث - في قول البلخي، وغيره - كأنه قيل: كلوا من الطيب دون الخبيث، كما لو قال: كلوا من الحلال، لكان ذلك

(٨٢)

دالا على حظر الحرام - وهذا صحيح فيما له ضد قبيح مفهوم. فأما غير ذلك، فلا يدل على قبح ضده، لان قول القائل، كل من زيد، لا يدل على أن المراد تحريم ما عداه، لانه قد يكون الغرض البيان لهذا خاصه، والآخر موقوف على بيان آخر، وليس كذلك ما ضده قبيح، لانه قد يكون من البيان تقبيح ضده.

والطيبات قد منا معناها فيما تقدم، وأن المراد بذلك الخالص من شائب ينغص، وإن كان لا يخلو شئ من شائب، لكنه لا يعتد به في الوصف بأنه حلال طيب، ولو كان في الطعام ما ينغصه لجاز وصفه بأنه ليس بطيب.

والرزق قد بينا فيما مضى: أنه ماللحي الانتفاع به على وجه لا يكون لاحد منعه منه.

وقوله: " واشكروا لله " ٢ فالشكر: هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، ويكون ذلك

عن وجهين: (١)

أحدهما - الاعتراف بالنعمة - متى ذكرها - للمنع بالاعتقاد لها.
الثاني - الطاعة بحسب جلاله النعمة، فالاول لازم في كل حال من أحوال الذكر، والثاني إنما يلزم في الحال التي يحتاج فيها إلى القيام بالحق، واقتضى ذكر الشكر هاهنا ما تقدم ذكره من الانعام في جعل الطيب من الرزق، للانتفاع، واستدفاع المضار، وذكر الشرط هاهنا إنما هو وجه المظاهرة في الحجاج ولما فيه من حسن البيان دون أن يكون ذلك شرطاً في وجوب الشكر، وتلخيص الكلام إن كانت العبادة لله واجبة عليكم بأنه إلهكم، فالشكر له واجب عليكم بأنه محسن اليكم.

وأما العبادة، فهي ضرب من الشكر، لأنها غاية ليس وارهها شكر، ويقترن به ضرب من الخضوع. ولا يستحق العبادة إلا الله، لأنها تستحق باصول النعم من الحياة، والقدرة، والشهوة، والنفاد، وأنواع المنافع، ويقدر من النفع لا يواريه

" ١ " في المطبوعة هنا تكرير الوجه الاول كله والظاهر أنه تسطير من الناسخ وانما حذفناه لعدم وجوده في المخطوطة ولا في مجمع البيان. لان مجمع البيان ناقل المطب بحذافيره، ولم يكرر.

(٨٣)

نعمة منعم، فلذلك اختص الله تعالى باستحقاقها.

قوله تعالى:

إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم (١٧٣) آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع وابن عامر، وابن كثير، والكسائي - بضم نون - " فمن اضطر " الباقون بكسرها.
اللغة والاعراب:

لفظة إنما تفيد إثبات الشيء، ونفي ما سواه كقول الشاعر:

وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي (١)

ومعناه لا يدافع غيري، وغير من هو مثلي، وهو قول الزجاج، والفراء، والرماني، والطبري، وأكثر أهل التأويل. وإنما كانت لا ثبات الشيء، ونفي ما سواه، من قبل أنها لما كانت (إن) للتأكيد، ثم ضم إليها (ما) للتأكيد ايضاً، أكدت (إن) من جهة التحقيق للشيء، أكدت (ما) من جهة نفي ما عداه، فكأنك اذا قلت: إني بشر، فالمعنى أنا بشر على الحقيقة، فاذا قلت: إنما أنا بشر، فقد ضمنت إلى هذا القول ما أنا إلا بشر.

وتقدير قوله تعالى: "إنما حرم عليكم الميتة" ما حرم عليكم إلا الميتة. ولو كانت (ما) بمعنى الذي، لكتبت مفصولة (٢)، ومثله قوله تعالى: "إنما الله

" ١ " قائله الفرزدق، تلخيص المفتاح أو مختصر المعاني للتفتزاني (باب القصر) وهو:
أنا الذائد الحامي الديار وانما * يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي
" ٢ " في المطبوعة (مفعوله).

(٨٤)

إله واحد " (١) أي لا إله إلا واحد، مثله "إنما أنت منذر" (٢) أي لا نذير إلا أنت (٣) ومثله
إنما ضربت أخاك أي ما ضربت إلا أخاك.
فاذا ثبت ذلك، فلا يجوز في الميتة إلا النصب، لان (ما) كافة (٤) ومعناه تحريم الميتة،
وتحليل المذكي، ولو كانت ما بمعنى الذي، لكان يجوز في الميتة الرفع.
والفرق بين الميت، والميتة قيل فيه قولان:
أحدهما - قال أبو عمرو: ما كان قد مات، فهو بالتخفيف مثل "يخرج الحي من الميت" (٥).
وما لم يميت بالتثقيب كقوله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون" (٦). ووجه ذلك أن التثقيب لما
كان هو الاصل كان أقوى على التصريف في معنى الحاضر والمستقبل.
و (الثاني) قال قوم: المعنى واحد، وانما التخفيف لتقل الياء على الكسرة، قال الشاعر: (٧)
ليس من مات فاستراح بميت * إنما الميت ميت الأحياء (٨)
فجمع بين اللغتين:

" ١ " سورة النساء آية: ١٧.

" ٢ " سورة الرعد آية: ٨.

" ٣ " هكذا في النسخ كلها وفي مجمع البيان أيضا، والصحيح (ما أنت الا منذر) وهو من باب قصر الموصوف على
الصفة، وهو الذي يقتضيه المقام، وعبارة المتن من باب قصر الصفة على الموصوف.

" ٤ " في المطبوعة (كأنه) بدل (كافة) ومعنى كافة: أي قد كفت (ان) عن المعمل بالجملة التي بعدها، وإذا كانت (ان)
مكفوفة تعين نصب (الميتة) ب (حرم)، وإذا كانت ان عاملة في الجملة تكون " ما " اسم موصول بمعنى الذي، وهي
اسم " ان ". والميتة خبر " ان " فيتعين الرفع على هذا التقدير كما يتعين النصب على الاول.

" ٥ " سورة الانعام آية: ٩٥. وسورة يونس آية: ٣١ وسورة الروم آية: ١٩.

" ٦ " سورة الزمر آية: ٣٠.

" ٧ " هو عدي بن الرعلاء.

" ٨ " اللسان " ميت " وشرح شواهد المغني: ١٣٨. ومعجم الشعراء: ٢٥٣.

وغيرها كثير.

(٨٥)

المعنى:

قوله: " وما أهل به لغير الله " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الربيع، وابن زيد، وغيرهما من أهل التأويل: معناه ذكر غير اسم الله عليه.

والثاني - قال قتادة، ومجاهد: ما ذبح لغير الله.

اللغة:

والاهلال على الذبح: هو رفع الصوت بالتسمية، وكان المشركون يسمون الاوثان، والمسلمون يسمون الله. ويقال: انهل المطر انهلالا وهو شدة انصابه، وتهلل السحاب ببرقه أي تلالا، تهلل وجهه اذا تلالا، وتهلل الرجل فرحا.

والهلال غرة القمر، لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته بالتكبير، والمحرم يتهلل بالاحرام، وهو أن يرفع صوته بالتلبية، ويهلل الرجل: يكبر اذا نظر إلى الهلال.

وهل البعير تهليلا اذا تقوس كتفوس الهلال، وسمي به الذكر، لان الهلال ذكر.

وثوب هل أي رقيق مشبه بالهلال في رفته. والتهليل: الفرع. واستهل الصبي اذا بكى حين يولد. والهلال: الحية الذكر، لانه يتقوس، وسمي به الذكر، لان الهلال ذكر.

" فمن اضطر " من كسر النون فلا لتقاء الساكنين، ومن ضمها أتبع الضمة الضمة في الطاء. وقرأ أبو جعفر بكسر الطاء.

والاضطرار: كل فعل لا يمكن المفعول به الامتناع منه، وذلك كالجوع الذي يحدث للانسان، ولا يمكنه الامتناع منه. والفرق بين الاضطرار، والالقاء أن الالقاء تتوفر معه الدواعي إلى الفعل من جهة الضر أو النفع، وليس كذلك الاضطرار.

وأكثر المفسرين على أن المراد في الآية المجاعة. قال مجاهد: ضرورة إكراه. والاولى أن يكون محمولا على العموم إلا ما خصه الدليل.

(٨٦)

" ولحم الخنزير " قال صاحب العين يقال: رجل لحم اذا كان أكل اللحم.

وببيت لحم: يكثر فيه اللحم. وألحمت القوم اذا قتلهم وصاروا لحما. والملحمة:

الحرب ذات القتل الشديد. واستلحم الطريق اذا اتسع. واللحمة: قرابة النسب.

واللحمة ما يسد به بين السديين من الثوب. واللحام: ما يلحم به صدع ذهب أو فضة أو حديد حتى يلتحمها، ويلتئما. وكل شئ كان متباينا ثم تلاع، فقد التحم.

وشجة متلاحمة إذا بلغة اللحم. وأصل الباب اللزوم، فمنه اللحم للزومه بعضه بعضا.

المعنى:

وقوله: " غير باع ولا عاد " قيل في معناه ثلاثة أقوال أولها - " غير باع " اللذة " ولا عاد " سد الجوعة وهو قول الحسن، وقتادة، ومجاهد، والربيع، وابن زيد. والثاني - ما حكاه الزجاج " غير باع " في الافراط " ولا عاد " في التقصير. والثالث - " غير باع " على إمام المسلمين " ولا عاد " بالمعصية طريق المحققين، وهو قول سعيد بن جبير، ومجاهد، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله (ع) قال الرماني: وهذا القول لا يسوغ، لانه تعالى لم يبيح لاحد قتل نفسه بل حظر عليه ذلك، والتعريض للقتل قتل في حكم الدين، ولان الرخصة إنما كانت لاجل المجاعة المتلفة، لا لاجل الخروج في طاعة، وفعل إباحة. وهذا الذي ذكره غير صحيح لان من بغى على إمام عادل فأدى ذلك إلى تلافه، فهو المعرض نفسه للقتل، كما لو قتل في المعركة، فانه المهلك لها، فلا يجوز لذلك استباحة ما حرم الله، كما لا يجوز له أن يستبقي نفسه بقتل غيره من المسلمين، وما قاله من أن الرخصة لمكان المجاعة، لا يسلم إطلاقه، بل يقال: إنما ذلك للمجاعة التي لم يكن هو المعرض نفسه لها، فأما إذا عرض نفسه لها، فلا يجوز له استباحة المحرم، كما قلنا في قتل نفس الغير، ليدفع عن نفسه القتل. وأصل البغي: الطلب من قولهم: بغى الرجل حاجته ببيغها بغا قال الشاعر:

(٨٧)

لايمنعك من بغا * الخير تعقاد التمائم (١)

إن الاثائم كالأيا * من والأيا من كالأثائم (٢)

والبغاء: طلب الزنا. وإنما اقتضى ذكر المغفرة هاهنا أحد أمرين:

أحدهما - النهي عما كانوا عليه من تحريم مالم يحرمه الله من السائبة، والوصيلة، والحام، فوعد الله بالمغفرة عند التوبة، والانابة إلى طاعة الله فيما أباحه أو حظره.

الثاني - إذا كان يغفر المعصية، فهو لا يواخذ بها، جعل فيه الرخصة، ولا يجوز أن يقع في موضع غير (إلا) لأنها بمعنى النفي هاهنا، ولذلك عطف عليها ب (لا) لأنها في موضع (لا).

فأما (إلا) فمعناها في الاصل الاختصاص لبعض من كل، وليس هاهنا كل يصلح أن يحض منه. " غير باع " منصوب على الحال وتقديره لا باغيا، ولا عاديا. والقدر المباح من الميتة

عند الضرورة مايمسك الرمق فقط - عندنا - وفيه خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء.

قوله تعالى:

إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم

إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٧٤) آية بلا خلاف.

المعنى:

المعني بهذه الآية أهل الكتاب باجماع المفسرين إلا أنها متوجهة - على قول كثير منهم - إلى جماعة قليلة منهم، وهو علماءهم الذين يجوز على مثلهم كتمان ما علموه، فأما الجمع الكثير منهم الذين لا يجوز على مثلهم ذلك لا خلاف (٣) دواعيهم، فلا

١ " اللسان " عقد " في المطبوعة " لا يمنك " بدل " لا يمنك " ولم يستقم الوزن.
٢ " اللسان " شام " وروايته " فاذا " بدل " ان ".
٣ " في المطبوعة " لاخلاف " .

(٨٨)

يجوز. والذي كتموه قيل فيه قولان:

قال أكثر المفسرين: إنهم كتموا أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بأن حرفوه عن وجهه في التأويل، هذا إذا حمل على الجماعة الكثيرة. وإن حمل على القليلة منهم، يجوز أن يكونوا كتموا نفس التنزيل أيضا.

الثاني - قال الحسن: كتموا الاحكام، وأخذوا الرشا على الاحكام، والكتاب على القول الاول: هو التوراة، وعلى الثاني يجوز أن يحمل على القرآن وسائر الكتب. وقوله: " ويشترون به ثمنا قليلا " ليس المراد به أنهم إذا اشتروا به ثمنا كثيرا كان جائزا. وإنما المقصد كلما يأخذونه في مقابلته من حطام الدنيا، فهو قليل، كما قال " ويقتلون النبيين بغير حق " (١) وكما قال " ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به (٢) وإنما أراد أن قتل النبيين لا يكون إلا بغير حق، وإن من ادعى مع الله إلها آخر لا يقوم له عليه برهان. وكما قال الشاعر:

على لا حب لا يهتدى بمناره والمعنى لا لاحب هناك، فيهتدى به، لانه لو كان، لاهتدي به. وقوله تعالى " ما يأكلون في بطونهم إلا النار " معناه على قول الربيع، والحسن، والجبائي، وأكثر المفسرين: الاجر الذي أخذوه على الكتمان، سمي بذلك، لانه يؤديهم إلى النار، كما قال في أكل مال اليتيم ظلما " إنما يأكلون في بطونهم نارا " (٣) وقال بعضهم: إنما يأكلون في جهنم نارا جزاء على تلك الاعمال، والاول أحسن. فان قيل اذا كان الاكل (٤) لا يكون إلا في البطن، فما معنى قوله " في بطونهم "؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - ان العرب تقول: جعت في غير بطني وشبعت في غير بطني، اذا

١ " سورة آل عمران آية: ٢١ .

٢ " سورة المؤمنون آية: ١١٧ .

" ٣ " في المطبوعة " الاول " .

" ٤ " سورة النساء آية: ٩ .

(٨٩)

جاع من يجري جوعه مجرى جوع نفسه، فذكر ذلك لازالة اللبس.
والثاني - انه لما استعمل المجاز بالاجراء على الرشوة اسم النار، حقق بذكر البطن، ليدل
علي أن النار تدخل أجوافهم.

اللغة:

والبطن: خلاف الظهر. والبطن: الغامض من الارض. والبطن من العرب:
دون القبيلة. وعرفت هذا الامر ظاهره، وباطنه أي سره وعلانيته. ورجل بطين:
عظيم البطن. ومبطن: خميض البطن. وفلان بطانتي دون إخواني. أي الذي أبطنه أمري.
واستبطنت أمر فلان: إذا وقفت على دخلته. ويقال في المثل: البطنة تذهب الفطنة، وبطن
الشيء بطونا اذا غمض. والبطان حزام الرحل. والبطين: نجم وهو بطن الحمل. وأصل الباب
البطون: خلاف الظهور.

المعنى:

وقوله تعالى: " ولا يكلمهم " قيل في معناه قولان:

أحدهما - لا يكلمهم بما يحبون، وإنما هو دليل على الغضب عليهم، وليس فيه دليل على أنه
لا يكلمهم بما يسوءهم، لانه قد دل في موضع آخر، فقال " فلنستلن الذين أرسل اليهم ولنستلن
المرسلين " (١) وقال " ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون " (٢)
وهذا قول الحسن، وواصل، وأبي علي.

الثاني - لا يكلمهم أصلا، فتحمل آيات المسائلة على أن الملائكة تسألهم بأمر الله ويتأول قوله " اخسئوا فيها ولا تكلمون " على أن الحال دالة على ذلك. وإنما دل نفي الكلام على الغضب -
على الوجه الاول - من حيث أن الكلام وضع في الاصل

" ١ " سورة الاعراف آية: ٥ .

" ٢ " سورة المؤمنون آية: ١٠٨ - ١٠٩ .

(٩٠)

للفائدة، فلما انتفى على جهة الحرمان للفائدة، دل على الغضب، ولا يدخل في ذلك الكلام للغم
والايلام.

وقوله: " ولا يزكهم " معناه لا يبني عليهم، ولا يصفهم بأنهم أركياء.

ويحتمل أن يكون المراد لا يتقبل أعمالهم تقبل أعمال الأذكيا.

والاشترء هو الاستبدال بالثمن العوض، فلما كانوا هؤلاء استبدلوا بذبهم الثمن القليل، قيل فيهم: إنهم اشتروا به ثمنا قليلا. والثمن هو العوض من العين، والورق والقلة هو نقصان المقدار عن مقدار غيره، لأنه يقال: هو قليل بالاضافة إلى ما هو أكثر منه، وكثير بالاضافة إلى ما هو أقل منه.

والكلام ما انتظم من حرفين فصاعدا من هذه الحروف المعقولة: إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيلة للافادة وقال الرماني: الكلام ما كان من الحروف دالا بتأليفه على معنى، قال وأصله من الآثار وهي كالعلامات الدالة، والكلم أي الجراح.

وما ذكرناه أولى، لان هذا ينتقض بالمهمل من الكلام، فانه لا يفيد وهو كلام حقيقة.

قوله تعالى:

أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار (١٧٥) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى " اشتروا الضلالة بالهدى " استبدلوا، لان أصل الشراء الاستبدال، وليس يقع في مثله إشكال، فأما قولهم: استبدل بالجارية غيرها، فلا يجوز أن يقال بدلا منه اشترى، لانه يلتبس. والضلالة التي اشتروها بالهدى: كفرهم بالنبى (صلى الله عليه وآله) وجدهم لنبوته استبدلوه بالايمان به، وهم وإن لم يقصدوا أن يضلوا بدلا من أن يهتدوا فقد قصدوا الكفر بالنبى (صلى الله عليه وآله) بدلا من الايمان به، وذلك ضلال

(٩١)

بدلا من هدى، فقد قصدوا الضلال بدلا من الهدى، وإن لم يقصدوه من وجه أنه ضلال. ولا يجوز أن يقول: قصدوا أن يضلوا. لانه يوهم أنهم قصدوه من هذا الوجه، كما ينبى علموا أنهم يضلون غير أنهم علموه من هذا الوجه، ويجوز قصدوا الضلال، وعلموا الضلال، لانه لا ينبى على هذا الوجه وإنما علموه، وقصدوه من وجه آخر، وهو جدهم محمدا (صلى الله عليه وآله) بدلا من التصديق به.

وقوله تعالى: " فما أصبرهم على النار " الفاء معناها معنى الجواب، لان الكلام المتقدم قد تضمن معنى من كان بهذه الصفة، " فما أصبرهم على النار " فعومل معاملة المعنى الذي تضمنه حتى كأنه قد لفظ به. والعجب لا يجوز على القديم تعالى، لانه عالم بجميع الاشياء، لا يخفى عليه شئ. والتعجب يكون مما لا يعرف سببه. وإنما الغرض - من الآية - أن يدلنا

على أن الكفار حلو محل من يتعجب منه، فهو تعجيب لنا منهم. وقد قيل في معنا (ما) في قوله " فما أصبرهم على النار " قولان:

أحدهما - قال الحسن، وقتادة، ومجاهد: إنها للتعجب. والثاني - قال ابن عباس، وابن جريج، وابن زيد والسدي: إنها للاستفهام. وقيل في معنا " أصبرهم " أربعة أقوال:

أحدها - ما أجرأهم على النار، ذهب إليه الحسن وقتادة. والثاني - قال مجاهد: ما أعملهم بأعمال أهل النار. وهو المروي عن أبي عبدالله (ع). والثالث - حكاه الزجاج: ما أبقاهم على النار، كما تقول: ما أصبره على الحبس. والرابع - ذكره الفراء: ما صبرهم على النار أي حبسهم عليها. وقال الكسائي: هو استفهام على وجه التعجب. قال أبو العباس: المبرد: هذا حسن كأنه توبيخ لهم وتعجيب لنا، مثل قولك للذي وقع في هلكة ما اضطررك إلى هذا، إذا كان غنيا عن التعرض للوقوع في مثلها. يقال: أصبرت السبع، والرجل، ونحوه إذا نصبت له لما يكره.

وقال الحطيئة:

قلت لها أصبرها جاهدا * ويحك أمثال طريف قليل: (١)

" ١ " اللسان (صبر). الضمير في أصبرها عائد على النفس، وكأنه يقول: احبس نفسك على الجهاد.

(٩٢)

معناه ألزمها، واضطرها. فأما التعجب، فمثل قوله " قتل الانسان ما أكفره " (١) أي قد حل محل ما يتعجب منه. وقيل: ما أصبرك على كذا بمعنى ما أجرأك قال أبو عبيدة: هي لغة يمانية.

واشتق أصبر بمعنى أجرأ من الصبر الذي هو حبس النفس، لأن بالجرأة يصبر على الشدة. فأما القول الآخر: فحبسوا أنفسهم على عمل أهل النار، بدوامهم عليه، وانهما كهم فيه. وحكى الكسائي عن قاضي اليمن عن بعض العرب، قال لخصمه:

ما أصبرك على الله أي على عذاب الله تعالى.

قوله تعالى:

ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد (١٧٦) آية واحدة.

الاعراب: ذلك رفع بالابتداء، أو بأنه خبر الابتداء وهو إشارة إلى أحد ثلاثة أشياء: أولها - قال الحسن: ذلك الحكم بالنار. الثاني - ذلك العذاب. الثالث - ذلك الضلال.

وفي تقدير خبر ذلك ثلاثة أقوال: (الاول) - قال الزجاج: ذلك الامر، أو الامر ذلك، فحذف لدلالة ما تقدم من الامر بالحق. فكأنه قال: ذلك الحق. واستغنى عن ذكر الحق لتقدم ذكره في الكلام. الثاني - ذلك معلوم " بأن الله نزل الكتاب بالحق " فقد تقدم ذكر ما هو معلوم بالتنزيل، فحذف لدلالة الكلام عليه. الثالث - ذلك العذاب لهم " بأن الله نزل الكتاب بالحق " وكفروا به، فتكون الباء في موضع الخبر. ويحتمل ذلك أن يكون رفعا على ما بينا. ويحتمل أن يكون نصبا على فعلنا ذلك، لان في الكلام ما يدل على (فعلنا).

" ١ " سورة عبس آية: ١٧.

(٩٣)

المعنى:

ومعنى الكتاب هاهنا قيل: إنه التوراة. وقال الجبائي: إنه القرآن، وغيره. وهو أعم فائدة.

وقال بعضهم: إن المراد بالاول التوراة، وبالثاني القرآن. ومعنى الاختلاف هاهنا يحتمل أمرين:

أحدهما - قول الكفار في القرآن. ومنهم من قال: هو كلام السحرة. ومنهم من قال: كلام يعلمه. ومنهم من قال: كلام يقوله الثاني - اختلاف اليهود والنصارى في التأويل، والتنزيل من التوراة، والانجيل، لانهم حرفوا الكتاب، وكتموا صفة محمد النبي (صلى الله عليه وآله) وحدثت اليهود الانجيل والقرآن.

قوله تعالى: " لفي شقاق بعيد " فيه قولان:

أحدهما - بعيد عن الالفة بالاجتماع على الصواب. الثاني - بعيد: من الشقاق، لشهادة كل واحد على صاحبه بالضلال. وكلاهما قد عدل عن السداد. ومن ذهب إلى أن المعنى ذلك العذاب " بأن الله نزل الكتاب بالحق " قدر فكفروا به، وجعله محذوفا. ومن ذهب إلى أن المعنى: ذلك الحكم بدلالة " أن الله نزل الكتاب بالحق " لم يجعله محذوفا.

والمعني بالذين اختلفوا على قول السدي: اليهود، والنصارى. وقال غيره:

هم الكفار من عبدة الاوثان، وغيرهم من أهل الضلال. وهو الاولى، لانه أعم.

الاعراب:

وإنما كسرة (إن) الثانية لاحاق اللام الخبر، وهي لام الابتداء، فأخرت إلى الخبر وكسرت معها (إن) لانها للاستئناف ايضا. فأما (أن) المفتوحة فاسم يعمل فيه عوامل الاعراب كما

يعمل في الاسماء. وإنما كسرت (إن) في قوله تعالى: " وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم
ليأكلون الطعام " " ١ " لا لا لحاق اللام، ولكن

" ١ " سورة الفرقان آية: ٢٠.

(٩٤)

لدخول (إلا) على جملة مستأنفة في التقدير. كأنه قيل: إلا هم يأكلون الطعام. ولو قلت ما
ظننت إلا إنك لخارج لكسرت لاجل اللام.
اللغة:

والاختلاف: الذهاب على جهة التفريق في الجهات. وأصله من اختلاف الطريق.
تقول: اختلفنا الطريق، فجاء هذا من هاهنا، وجاء ذلك من هناك، ثم قيل في الاختلاف في
المذاهب تشبيها في الاختلاف في الطريق من حيث أن كل واحد منهم على نقيض ما عليه
الآخر من الاعتقاد. فأما الاختلاف في الاجناس، فهو ما لا يسد واحد منهما مسد الآخر، فيما
يرجع إلى ذاته، كالسواد والبياض، وغيرهما.
والشقاق: انحياز كل واحد عن شق صاحبه للعدواة له. وهو طلب كل واحد منهما ما يشق
على الآخر، لاجل العدواة. والمشاققة مثله.
قوله تعالى:

ليس البر أن تولو وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل
والمسائلین وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في
البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (١٧٧) آية واحدة بلا
خلاف.

القراءة:

قرأ حفص الاهبيرة، وحمزة " ليس البر " بنصب الراء. الباقر برفعها.
وقرأ نافع، وابن عامر " ولكن البر " بتخفيف النون، ورفع الراء.

(٩٥)

النزول:

قيل: إن هذه الآية نزلت لما حولت القبلة، وكثر الخوض في نسخ تلك الفريضة، صار كأنه لا
يراعى بطاعة الله إلا التوجه للصلاة، فأنزل الله تعالى الآية، وبين فيها أن البر ما ذكره فيها،

ودل على أن الصلاة إنما يحتاج إليها لما فيها من المصلحة الدينية، وإنه إنما يأمر بها، لما في علمه أنها تدعوا إلى الصلاح، وتصرف عن الفساد، وإن ذلك يختلف بحسب الأزمان، والاوقات.

المعنى:

وقوله: " ليس البر " قيل فيه قولان: أحدهما - ذكره ابن عباس، ومجاهد: أنه " ليس البر " كله في التوجه إلى الصلاة بل حتى يضاف إلى ذلك غيره من الطاعات التي أمر الله تعالى بها. والثاني - قاله قتادة، والربيع واختاره الجبائي: أنه " ليس البر " ما عليه النصارى من التوجه إلى المشرق، أو ما عليه اليهود من التوجه إلى المغرب " ولكن البر " ما ذكره الله تعالى في الآية، وبينه. وقوله: " ولكن البر من آمن " قيل فيه ثلاثة أقوال: أولها - " ولكن البر " بر " من آمن بالله " فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، واختاره المبرد، لقوله " ليس البر أن تولوا " وقال النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي * على وعل في ذي المطارة عاقل (١)
يعني مخافة وعل. وقالت الخنساء:

ترتع ما غفلت حتى اذا ادكرت * فانما هي إقبال وإدبار (٢)
معناه انما هي مقبلة تارة، ومدبرة أخرى، فبالغ، فجعلها إقبالا وإدبارا،

" ١ " مر تخريجه في ٢ : ٧٨.

" ٢ " اللسان (قبل) في المطبوعة (غفت) بدل (غفلت) وفي مجمع البيان (ما رتعت).
الرتع: الاكل في شره، ورتعت المواشي: أكلت ما شأت وجاءت وذبحت. ادكرت: تذكرت.

(٩٦)

وقال متمم: (١)

لعمري ! وما دهري بتأبين هالك * ولا جزعا مما أصاب فأوجعا (٢)
معناه ولا ذى جزع.

الوجه الثاني - ولكن ذا البر من آمن بالله. الثالث - ولكن البار من آمن بالله، فجعل المصدر في موضع اسم الفاعل. وقد بينا في ما مضى حقيقة الايمان والخلاف فيه، فلا معنى لاعادته. والضمير في قوله: " على حبه " يحتمل أن يكون عائدا على حب المال، ويحتمل أن يكون عائدا على حب الاتيان، قال عبدالله بن مسعود: على حب المال، لانه يأمل العيش ويخشى الفقر. وأما على حب الاتيان، فوجهه ألا تدفعه وأنت متسخط عليه كاره. ويحتمل وجها ثالثا:

وهو أن يكون الضمير عائداً على الله، ويكون التقدير على حب الله، فيكون خالصاً لوجهه، وقد تقدم ذكر الله تعالى في قوله " من آمن بالله " وهو أحسنها. والآية تدل على وجوب إعطاء مال الزكاة بلا خلاف. وتدل أيضاً - في قول الشعبي، والجبائي - على وجوب غيره مما له سبب وجوب كالانفاق على من تحب عليه نفقته، وعلى من يجب عليه سد رمقه إذا خاف التلف، وعلى ما يلزمه من النذور، والكفارات، ويدخل فيها أيضاً ما يخرج به الإنسان على وجه التطوع، والقربة إلى الله، لأن ذلك كله من البر. وابن السبيل: هو المنقطع به إذا كان مسافراً محتاجاً وإن كان غنياً في بلده، وهو من أهل الزكاة.

وقيل: إنه الضيف، والاول قول مجاهد، والثاني قول قتادة. وانما قيل: ابن السبيل: بمعنى ابن الطريق، كما قيل للطير: ابن الماء، للملازمة إياه، قال ذو الرمة:

" ١ " هو متمم بن نويرة.

" ٢ " اللسان (أبن، دهر) ليس من عادتي تأبين الاموات، ومدحهم بعد موتهم، ولست أجزع من المصيبة.

(٩٧)

وردت اعتسافاً والثريا كأنها * على قمة الرأس ابن ماء معلق (١) والسائلين معناه: والطالبين للصدقة، لأنه ليس كل مسكين يطلب. وقوله: " وفي الرقاب " قيل فيه قولان: أحدهما - عتق الرقاب. والثاني - المكاتبين. وينبغي أن تحمل الآية على الأمرين، لأنها تحتمل الأمرين، وهو اختيار الجبائي، والرماني. اللغة:

والمراقبة: المراعاة. والرقة: الانتظار. والرقيب: المشرف على القوم لحراستهم. والرقيب: الحافظ. وتقول: رقبته أرقبه رقبا، وراقبته مراقبة، وارتقبته ارتقاباً، وتراقبوا تراقباً، وترقب ترقباً. والرقوب: الأرملة التي لا كاسب لها، لأنها تترقب معروفاً أو صلة. والرقة مؤخر أصل العنق. وأعتق الله رقبته، ولا يقال عتقه. والرقيب ضرب من الحيات خبيث. والرقوب: المرأة التي لا يعيش لها ولد. والرقيب: النجم الذي يتبين من المشرق، فيعيب رقبته من المغرب.

المعنى:

وقوله تعالى: " ذوي القربة " قيل أراد به قرابة المعطي، اختاره الجبائي، لقول النبي (صلى الله عليه وآله) لفاطمة بنت قيس، لما قالت: يا رسول الله إن لي سبعين مثقالاً من ذهب، فقال: اجعلها في قرابتك. وقال (ع) لما سئل عن أفضل الصدقة، فقال:

جهد المقل على ذي القرابة الكاشح. ويحتمل أن يكون أراد به قرابة النبي (صلى الله عليه وآله). كما قال: " قل لا أسئلكم عليه أجر إلا المودة في القربى " (٢) وهو قول أبي جعفر، وأبي عبدالله (ع) وقوله: " في البأساء والضراء وحين البأس " قال قتادة:

" ١ " ديوانه: ٤٠١، واللسان (عسف). وردت اعتسافا: سرت بدون تدبير، ولا معرفة للطريق، بل اقتحمت اقتحاما. والثريا: جملة من النجوم تشبه قطف العنب. شبه الثريا بالطير المحلق فوق رأسه وهو على الماء. " ٢ " سورة الشورى آية: ٢٣.

(٩٨)

البأساء: البؤس، والفقر. والضراء: السقم، والوجع. ومنه قوله: " مسني الضر " (١). وحين البأس: حين القتال. قال ابن مسعود: البأساء: الفقر. والضراء: السقم وإنما قيل: البأساء في المصدر ولم يقل منه أفعل، لأن الاصل في فعلاء أفعل للصفات التي للألوان، والعيوب. كقولك أحمر، وحمراء، وأعور، وعوراء. فأما الاسماء التي ليست بصفات، فلا يجب ذلك فيها. وعلى ذلك تأولوا قول زهير:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم * كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم (٢)

وأنكر ذلك قوم، لأنه لم يصرف أشأم. وقالوا إنما هو صفة وقعت موقع الموصوف كأنه قال: غلمان أمر أشأم، فلذلك قالوا إنما المعنى الخلة البأساء، والخلة الضراء.

" والموفون بعهدهم " رفع عطا على " من آمن ". ويحتمل أن يكون رفعا على المدح، وتقديره: وهم الموفون، ذكره الزجاج. والصابرين نصب على المدح، كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتبية في المزدم

وذا الرأي حين تغم الامور * بذات الصليل وذات اللحم (٣)

ويحتمل أن يكون نصب بفعل مضمر، وتقديره وأعني الصابرين. ويحتمل أن يكون عطا على قوله: " وآتى المال على حبه ذوي القربى " والصابرين " فعلى هذا يجب أن يكون رفع " الموفين " على المدح للضمير الذي في صلة (من)، لأنه لا يجوز بعد العطف على الموصوف، العطف على ما في الصلة. وهذا الوجه ضعيف، لأنه يؤدي إلى التكرار، لأنهم دخلوا في قوله: " والمساكين وابن

" ١ " سورة الانبياء آية: ٨٣.

" ٢ " ديوانه: ٢٠ من معلقته الفريدة، من أبياته في صفة الحرب. الضمير في (فتنتج) عائد إلى الحرب، وقد مر ذكرها في أول الابيات. (أشأم): أي؟ شؤم.

" ٣ " معان القرآن للفراء ١: ١٠٥، وأمالى الشريف المرتضى ١: ٢٠٥، والاصناف:
١٩٥، وخزاتة الادب: ٢١٦. القرم: السيد المقدم في المعرفة، والتجارب الكتيبة هي فرقة من الجيش. المزدحم: هو
المكان الذي تجتمع به الناس كثيرا، وتتسابق على التقدم فيه، والمقصود منه هنا ساحة الحرب تغم الامور أي تضيع
عليهم الصليل: صوت السيوف وذات اللجم: الخيل

(٩٩)

السبيل والسائلين " فيجب أن يحمل قوله: " والصابرين " على من لم يذكر، ليكون فيه فائدة.
وإن كان ذلك وجها مليحا.
والقراءة بالرفع أجود، وأقوى، لانه اسم (ليس) مقدم قبل الخبر لفائدة في الخبر، ولانه قرأ "
ليس البر بأن " ذكره الفراء.
وقوله: " أولئك الذين صدقوا " معناه الذين جمعوا العمل بهذه الخصال الموصوفة: هم
الموصوفون بأنهم صدقوا على الحقيقة، لانهم عملوا بموجب ما أقرؤا به. " أولئك هم المتقون
" يعني اتقوا - بفعل هذه الخصال - نار جهنم.
واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن المعنى بها أمير المؤمنين (ع)، لانه لاخلاف بين الامة أن
جميع هذه الخصال كانت جامعة فيه. ولم تجتمع في غيره قطعا، فهو مراد بالاية بالاجماع.
وغيره مشكوك فيه غير مقطوع عليه. وقال الزجاج، والفراء: هذه الآية تتناول الانبياء
المعصومين، لانهم الذين يجمعون هذه الصفات.
الاعراب:

ومن قرأ " ليس البر " بالرفع، جعل البر اسما، وجعل (أن) في موضع نصب، ومن نصب
جعل " أن تولوا " في موضع رفع، وقدم الخبر. ومثله قوله تعالى:
" ما كان حجتهم إلا أن قالوا " (١) " وما كان قولهم " (٢) " وما كان جواب قومه (٣). " فكان
عاقبتهما " (٤) وما أشبه ذلك.
قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى
فمن عفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة
فمن اعتدى

" ١ " سورة الجاثية آية: ٢٤. " ٢ " سورة آل عمران آية: ١٤٧ " ٣ " سورة الاعراف آية ٨١. " ٤ " سورة الحشر
آية: ١٧.

(١٠٠)

بعد ذلك فله عذاب أليم (١٧٨) آية بلا خلاف.

معنى قوله: كتب: فرض. وأصل الكتب: الخط الدال على معنى الفرض.

وقيل: لانه، مما كتبه الله في اللوح المحفوظ على جهة الفرض، قال الشاعر: (١)

كتب القتل والقتال علينا * وعلى المحصنات جر الذبول (٢)

وقال النابغة الجعدي:

يا بنت عمي كتاب الله أخرجني * عنكم فهل امنع الله ما فعلا (٣)

ومنه الصلاة المكتوبة أي المفروضة فان قيل: كيف قيل: كتب عليكم بمعنى فرض، والاولياء

مخيرون: بين القصاص، والعفو، وأخذ الدية؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - انه فرض عليكم ذلك إن اختار أولياء المقتول القصاص. والفرض قد يكون مضيقا

ويكون مخيرا فيه. والثاني - فرض عليكم ترك مجاوزة ما حد لكم إلى التعدي فيما لم يجعل

لكم.

اللغة:

والقصاص: الاخذ من الجاني مثل ما جنى، وذلك لانه تال لجنايته. وأصله التلو، من قص

الاثر: وهو تلو الاثر. والقصاص، والمقاصة، والمعاوضة، والمبادلة نظائر. يقال: قص يقص

قصا، وقصا. وأقصه به إقصا. واقتص اقتصا.

وتقاصوا تقاصا. واستقص: اذا طلب القصاص استقصا. وقاصه مقاصة وقصا. وقص

الشئ بالمقص يقصه قصا. وقص الحديث يقصه قصا. وكذلك قص أثره قصا: اذا اقتفى

أثره. والقص والقصاص: عظم الصدر من الناس،

" ١ " هو عمر بن أبي ربيعة، أو عبدالله بن الزبير الاسدي " ٢ " ديوان عمر، والبيان، والتبيين ٢ : ٢٣٦، والكامل

لابن الاثير ٢ : ١٥٤، وتاريخ الطبري ٧ : ١٥٨، واتساب الاشراف ٥ : ٢٦٤. والاغاني ٩ : ٢٢٩.

" ٣ " اللسان (كتب)، وأساس البلاغة (كتب) والمقاييس ٥ : ١٥٩. ورواية الاساس (اخرني) بدل (أخرجني).

(١٠١)

وغيرهم. والقصة: الخصلة من الشعر. والقصة من القصص معروفة. والقصة الجص.

والقصاص: النقص من الجراحات والحقوق شئ بشئ. والقصيص: نبات ينبت في أصول

الكمأة. واقصت الشاة، فهي مقص اذا استبان ولدها. وأصل الباب التلو.

وقوله تعالى: " الحر بالحر " فالحر نقيض العبد، والحر من كل شئ:

أعنته. والحر: ولد الحية، وولد الطيبة، وفرخ الحمام. واحرار البقول: ماؤكل غير مطبوخ.

والحر: نقيض البرد، حر النهار يحر حرا. والحرير: ثياب من إبريسم.

والحريرة: دقيق يطبخ باللبن. والحررة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار. وتحرير الكتابة: إقامة حروفها. والحرورية: منسوب إلى حرور: قرية كان أول مجتمعهم بها، فالمحرر المختص بخدمة الكنيسة ما عاش، ومنه قوله " وما في بطني محررا " (١) وأصل الباب الحر خلاف البرد. منه الحرير، لأنه يستدفا به.

قوله " من عفي له من أخيه شئ " معناه ترك، من عفت المنازل اذا تركت حتى درست. والعفو عن المعصية: ترك العقاب عليها. وقيل: معنى العفو هاهنا ترك القود بقبول الدية من أخيه، فالأخ يجمع أخوة اذا كانوا لأب، وإذا لم يكونوا لأب، فهم أخوان، ذكر ذلك صاحب العين، ومنه قوله: " فاصلحوا بين أخويكم " (٢)

ومنه الإخاء، والتأخي. والأخوة قرابة الأخ. والتأخي اتخاذ الإخوان. وبينهما إخاء وأخوة. أخيت فلانا مواخاة، وإخاء. وأصل الباب الأخ من النسب، ثم شبه به الأخ من الصداقة.

المعنى:

والهاء في قوله: " من أخيه " تعود إلى أخي المقتول - في قول الحسن - . وقال غيره: تعود إلى أخي القاتل، فان قيل: كيف يجوز أن تعود إلى أخي القاتل وهو في تلك الحال فاسق؟ قيل عن ذلك ثلاثة أجوبة:

" ١ " سورة آل عمران آية: ٣٥. " ٢ " سورة الحجرات آية: ١٠.

(١٠٢)

أحدها - إنه أراد أخوة النسب، لافي الدين، كما قال " وإلى عاد أخاهم هودا " (١). والثاني - لان القاتل قد يتوب فيدخل في الجملة، وغير التائب على وجه التغليب. الثالث - تعريفه بذلك على أنه كان أخاه قبل أن يقتله، كما قال:

" إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن " (٢) يعنى الذين كانوا أزواجهن. وقال جعفر بن مبشر عن بعضهم: ان هذه الآية منسوخة بقوله " النفس بالنفس " (٣) قال: وليست عندي كذلك، لان الله تعالى إنما أخبرنا أنه كتبها على اليهود قبلنا، وليس في ذلك ما يوجب أنه فرض علينا، لان شريعتهم منسوخة بشريعتنا. والذي أقوله: إن هذه الآية ليست منسوخة، لان ما تضمنته معمول عليه ولا ينافي قوله تعالى: " النفس بالنفس " لان تلك عامة، ويمكن بناء تلك على هذه، ولا تناقض ولا يحتاج إلى أن ينسخ إحداها بالآخرى.

وقال قتادة: نزلت هذه الآية، لان قوما من أهل الجاهلية كانت لهم حولة (٤)

على غيرهم من أهل الجاهلية، فكانوا يتعدون في ذلك، فلا يرضون بالعبد إلا الحر، ولا بالمرأة إلا الرجل، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

وقوله: " فاتباع بالمعروف " يعني العافي، وعلى المعفو عنه " أداء اليه باحسان " وبه قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والشعبي، والربيع، وابن زيد، وهو المروي عن أبي عبد الله (ع). وقال قوم: هما على المعفو عنه.

والاعتداء هو القتل بعد قبول الدية على قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله (ع).

وقال بعضهم " من اعتدى " بعد البيان في الآية، فقتل غير قاتل وليه أو بعد قبول

" ١ " سورة الاعراف آية: ٦٤، سورة هود آية: ٥٠.

" ٢ " سورة البقرة آية: ٢٣٢.

" ٣ " سورة المائدة آية: ٤٨.

" ٤ " الحولة: هي المنكر، ويمكن أن يكون معناه الحق الذي حل أجله، ويكون المعنى لهم عليهم حق قصاص حال، وعلى الاول لهم عليهم قود ينكر قد فعلوه، ويريدون الاقتصاص منهم.

(١٠٣)

الدية " فله عذاب أليم " وهذا ايضا جيد تحتمله الآية.

الاعراب:

وقوله: " فاتباع " رفع بأنه إبتداء لخبر محذوف، كأنه قيل: فحكمه اتباع، أو فعلية اتباع. وكان يجوز النصب في العربية. على تقدير فاليتبع اتباعا، ولم يقرأ به. اللغة:

والاداء، قال الخليل: أدى فلان يؤدي ما عليه إداء وتأدية. ويقال:

فلان أدى للامانة من غيره. والاداة من أدوات الحرب. وأصل الباب التأدية تبليغ الغاية.

المعنى:

وقوله تعالى: " تخفيف من ربكم " معناه: أنه جعل لكم القصاص، أو الدية، أو العفو، وكان لاهل التوراة قصاص، وعفو، ولاهل الانجيل عفو، أو دية. ويجوز قتل العبد بالحر، والانثى بالذكر إجماعا، ولقوله: " ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليله سلطانا " (١) ولقوله: " النفس بالنفس " (٢). وقوله: في هذه الآية " الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى " لا يمنع من ذلك، لانه تعالى لم يقل: ولا يقتل الانثى بالذكر، ولاالعبد بالحر. فاذا لم يكن ذلك في الظاهر،

فما تضمنته الآية معمول به، وما قلناه مثبت بما تقدم من الأدلة. فأما قتل الحر بالعبد، فعندنا لا يجوز، وبه قال الشافعي، وأهل المدينة. وقال أهل العراق: يجوز. ولا يقتل والدبولد عندنا، وعند أكثر الفقهاء. وعند مالك يقتل به على بعض الوجوه. وأما قتل الوالدة بالولد، فعندنا تقتل. وعند جميع الفقهاء انها جارية مجرى

" ١ " سورة الاسرى آية: ٣٣. " ٢ " سورة المائدة آية: ٤٨.

(١٠٤)

الاب. فأما قتل الولد بالوالد فيجوز إجماعا. ولا يقتل مولى بعبد. ويجوز قتل الجماعة بواحد إجماعا إلا أن عندنا يرد فاضل الدية، وعندهم لا يرد شئ على حال. وإذا اشترك بالغ مع طفل. أو مجنون في قتل، فعندنا لا يسقط القود عن البالغ، وبه قال الشافعي. وقال أهل العراق: يسقط. ودية القصاص في قود النفس الف دينار، أو عشرة آلاف درهم، أو مائة من الابل، أو مأتان من البقر، أو الف شاة، أو مأتا حلة. ولا يجبر القاتل على الدية - عندنا - وان رضي، فهي عليه في ماله. وقال الحسن: يجبر على العفو عن القصاص، والدية على العاقلة. والقتل بالحديد عمدا يوجب القود إجماعا. فأما غير الحديد، فكل شئ يغلب على الظن أن مثله يقتل فن يجب القود عندنا، وعند أكثر الفقهاء،، والذي له العفو عن القصاص كل من يرث الدية إلا الزوج، والزوجة. وهم لا يستثنون بها إلا أبا حنيفة: قال: إذا كان للمقتول ولد صغار وكبار، فلكبار أن يقتلوا، ويحتج بقاتل علي (ع). وقال غيره: لايجوز حتى يبلغ الصغار. وعندنا أن لهم ذلك إذا ضمنوا حصة الصغار من الدية إذا بلغوا، ولم يرضوا بالقصاص. وإذا اجتمع مع القصاص حدود، فان كان حد لله، فالقتل يأتي عليه. وإن كان حق لادمي كحد القذف، أقيم عليه الحد ثم يقتل. وقال أهل المدينة: القتل يأتي على الكل. ويقتل الرجل بالمرأة اذا رد أولياؤها نصف الدية. وخالف جميع الفقهاء في ذلك. وما قلنا، قول علي (ع) وقول الحسن البصري. وشرح مسائل الديات ذكرناها في النهاية، والمبسوط، لا يقتضي ذكرها هاهنا.

قوله تعالى:

ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب للعلم تتقون (١٧٩) آية بلا خلاف.
المعنى:

أكثر المفسرين على أن قوله: " ولكم في القصاص حياة " المراد به القصاص

(١٠٥)

في القتل. وإنما كان فيه حياة من وجهين:

أحدهما - ما عليه أكثر المفسرين كمجاهد، وقتادة، والربيع، وابن زيد:

أنه إذا هم الانسان بالقتل فذكر القصاص، ارتدع، فكان ذلك سببا للحياة.

الثاني - قال السدي: من جهة أنه لا يقتل إلا القاتل دون غيره. خلاف فعل الجاهلية الذين كانوا يتفانون (١) بالطوائل، والمعنيان جميعا حسنان. وقال أبو الجوزاء: معناه أن القرآن (٢) حياة بالقصاص، أراد به القرآن. وهذا ضعيف، لانه تأويل خلاف الاجماع، ولانه لايليق بما تقدم، ولا يشاكله، وهو قوله:

" كتب عليكم القصاص في القتلى "، فكأنه قال بعده ولكم فيه حياة. ونظير هذه الآية قولهم: القتل أنفى للقتل. وبينهما من التفاوت في الفصاحة، والبلاغة ما بين السماء والارض وقيل: الفرق بينهما من أربعة أوجه:

أحدها - أنه أكثر فائدة. وثانيها - أنه أوجز في العبارة. وثالثها - أنه أبعد عن الكلمة بتكرير الجملة. ورابعها - أنه أحسن تأليفا بالحروف المتلائمة.

أما كثرة الفائدة، ففيه ما في قولهم: (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان حسنة: منها إبانة العدل، لذكره القصاص. ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه، لذكر الحياة. ومنها الاستدعاء بالرغبة والرغبة لحكم الله به.

وأما الإيجاز في العبارة، فإن الذي هو نظير (القتل أنفى للقتل) قوله تعالى:

" في القصاص حياة " وهو عشرة أحرف. والاول أربعة عشر حرفا. وأما بعد التكلف، فهو أن في قولهم: (القتل أنفى للقتل) تكرير غيره أبلغ منه. متى كان التكرير كذلك، فهو مقصر في باب البلاغة. وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة، فهو مدرك بالحس، وموجود باللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعدهم الهمزة من اللام. وكذلك الخروج من الصاد

" ١ " في المطبوعة " يتغابون " .

" ٢ " هكذا في المطبوعة ولم أجد قول لابي الجوزاء في هذا الموضوع في ما حضرني من التفاسير، ولم أجد في كتب

اللغة القصاص بمعنى القرآن، الا أن يكون - بفتح القاف -

(١٠٦)

إلى الحاء أعدل من الخروج من الالف إلى اللام. فباجماع هذه الامور التي ذكرناها كان أبلغ منه وأحسن. وإن كان الاول حسنا بليغا وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء، فقال:
أبلغ أبا مالك عني مغلظة * وفي العتاب حياة بين أقوام (١)
وهذا وإن كان حسنا، فبينه وبين لفظ القرآن: ما بين أعلى الطبقة وأدناها.
وأول ما فيه أنه استدعاء إلى العتاب. وذلك استدعاء إلى العدل. وفي هذا إبهام.
وفي الآية بيان عجيب.

اللغة:

وقوله: " يا أولى الالباب " فالالباب: العقول وهو مأخوذ من النخلة على وجه التشبيه به.
واللب: العقل. لب الرجل يلب: إذا صار لبيبا. ولب بالمكان، وألب به لبا، وإلبا: إذا أقام به.
ولب كل شئ خالصه. قال صاحب العين:
اللب: البال. تقول: الامر منه في لبب رخي أي في بال رخي. واللبب من الرمل: شبيهه حقف
بين معظم الرمل، وجلد الارض. وتلبب بالثياب إذا جمعها.
ويشبهه به المتسلح بالسلاح. واللبة من الصدر: موضع القلادة. والتلبيب: مجمع ما في موضع
اللبب من ثياب الرجل. تقول: أخذ فلان بتلابيب فلان. وأصل الباب لب الشئ: داخله: الذي
تركبه القشرة، وتلزمه. ومنه لبيك وسعديك أي ملازمة لامرك وإسعادا لك.
المعنى:

وقوله تعالى: " لعلمكم تتقون " قد بينا فيما مضى أن لعل معناه لكي وقيل في معناه هاهنا
قولان:

(١) اللسان (غلل) أشده بن؟ مغلظة: رسالة محمولة من بلد إلى بلد والعتاب هو الملامة ولا يكون الا بين اثنين
فصاعدا. وإنما قال: حياة، لانه يخفف من الغيظ، وقد يبطل العتاب حربا يقتل فيها الالوف. فكأنه يقول اوصل هذه
الرسالة التي هي عتاب، والعتاب حياة لقومي ولقومك.

(١٠٧)

(الاول) لكي تتقوا القتل بالخوف من القصاص. ذكره ابن زيد.
الثاني - قال الجبائي، وغيره: لتتقوا ربكم باجتتاب معاصيه. وهذا أعم فائدة، لانه يدخل فيه
اتقاء القتل، وغيره.
وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: لان فيها دلالة على أنه أنعم على جميع العقلاء،
ليتقوا ربهم، وفي ذلك دلالة على أنه أراد منهم التقوى وإن عصوا، وإنما خص الله تعالى

بالخطاب أولي الالباب، لانهم المكفون المأمورون، ومن ليس بعاقل لا يصح تكليفه، ولا يحسن، فلذلك خصهم بالذكر.

قوله تعالى:

كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين (١٨٠)

آية بلا خلاف.

المعنى:

هذا ابتداء قصة، ولا بد فيه من واو العطف، بان يقال: وكتب، لانه حذف اختصارا وقد بينا فيما مضى: أن معنى كتب فرض. وهاهنا معناه الحث والترغيب دون الفرض، والايجاب. وفي الاية دلالة على أن الوصية جائزة للوارث، لانه قال الوالدين، والاقربين. والوالدان وارثان بلا خلاف إذا كانا مسلمين حرين غير قاتلين. ومن خص الاية بالكافرين، فقد قال: قولنا بلا دليل، ومن ادعى نسخ الاية فهو مدع لذلك، ولا يسلم له نسخها. وبمثل ما قلناه قال محمد بن جرير الطبري سواء، فان ادعوا الاجماع على نسخها، كان ذلك دعوى باطلة ونحن نخالف في ذلك. وقد خالف في نسخ الاية طاووس، فانه خصها بالكافرين، لمكان الخبر ولم يحملها على النسخ. وقد قال أبو مسلم محمد بن بحر: إن هذه الاية مجملة، وآية الموارث مفصلة، وليست نسخا، فمع هذا الخلاف كيف يدعى الاجماع على نسخها.

(١٠٨)

ومن ادعى نسخها، لقوله (ع): لا وصية لوارث، فقد أبعد، لان هذا اولا خبر واحد لا يجوز نسخ القرآن به إجماعا. وعندنا لا يجوز العمل به في تخصيص عموم القرآن. وادعواؤهم أن الامة أجمعت على الخبر دعوى عارية من برهان. ولو سلمنا الخبر جاز أن نحمله على أنه لا وصية لوارث فيما زاد على الثلث، لانا لو خلينا وظاهر الاية لاجزنا الوصية بجميع ما يملك للوالدين والاقربين، لكن خص ما زاد على الثلث لمكان الاجماع.

فأما من قال: إن الاية منسوخة بأية الميراث فقوله بعيد عن الصواب. لان الشئ إنما ينسخ غيره: إذا لم يمكن الجمع بينهما، فأما اذا لم يكن بينهما تناف ولا تضاد بل أمكن الجمع بينهما، فلا يجب حمل الاية على النسخ، ولا تنافي بين ذكر ما فرض الله للوالدين وغيرهم من الميراث، وبين الامر بالوصية لهم على جهة الخصوص، فلم يجب حمل الاية على النسخ. وقول من قال: حصول الاجماع على أن الوصية ليست فرضا يدل على أنها منسوخة باطل، لان اجماعهم على أنها لاتقيد الفرض، لا يتمتع من كونها مندوبا إليها ومرغبا فيها، ولاجل

ذلك كانت الوصية للوالدين، والاقربين الذين ليسوا بوارث ثابتة بالاية ولم يقل أحد أنها منسوخة في خبرهم (١).

ومن قال: إن النسخ من الاية ما يتعلق بالوالدين، وهو قول الحسن والضحاك، فقد قال قولاً ينافي ما قاله مدعي نسخ الاية - على كل حال - ومع ذلك فليس الامر على ما قال، لانه لادليل على دعواه. وقال طاووس: إذا وصى لغير ذي قرابة لم تجز وصيته. وقال الحسن: ليست الوصية إلا للاقربين وهذا الذي قالاه عندنا وإن كان غير صحيح، فهو مبطل قول من يدعي نسخ الاية. وإنما قلنا أنه ليس بصحيح، لان الوصية لغير الوالدين، والاقربين عندنا جائزة. ولاخلاف بين الفقهاء في جوازها. والوصية لا تجوز بأكثر من الثلث إجماعاً، والافضل أن يكون بأقل من الثلث، لقوله (ع) والثلث كثير، وأحق من وصي له من كان

" ١ " نسب الخبر اليهم مع أنهم يروونه عن النبي (صلى الله عليه وآله)، لانه لايسلم صحته.

(١٠٩)

أقرب إلى الميت إذا كانوا فقراء - بلا خلاف - وإن كانوا أغنياء، فقال الحسن وعمرو بن عبيد: هم أحق بها. وقال ابن مسعود، وواصل لأحق بها الاجوع، فالاجوع من القرابة. وقوله تعالى: " إن ترك خيراً " يعنى مالا. واختلفوا في مقداره الذي يجب الوصية عنده، فقال الزهري: كلما وقع عليه اسم مال من قليل أو كثير. وقال ابراهيم النخعي: الف درهم إلى خمسمائة. وروي عن علي (ع) أنه دخل على مولى لهم في مرضه، وله سبع مائه درهم أو ستمائة، فقال: ألا أوصي، فقال: لا إنما قال الله تعالى: " إن ترك خيراً " وليس لك كبير مال. وبهذا نأخذ، لان قوله حجة عندنا.

الاعراب:

والوصية في الاية مرفوعة بأحد أمرين:

أحدهما - ب (كتب)، لانه لم يسم فاعله الثاني - أن يكون العامل فيه الابتداء.

وخبره للوالدين، والجملة في موضع رفع على الحكاية بمنزلة قيل لكم: الوصية للوالدين. وقيل في إعراب (إذا) والعامل فيه قولان: إحداهما - كتب على معنى اذا حضر أحدكم الموت أي عند المرض. والوجه الآخر قال الزجاج، لانه رغب في حال صحته أن يوصي، فتقديره كتب عليكم الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف في حال الصحة قائلين: اذا حضرنا الموت فلفلان كذا.

المعنى:

المعروف هو العدل الذي لا يجوز أن ينكر ولا جور والحضور وجود الشيء بحيث يمكن أن يدرك. وليس معناه في الآية إذا حضره الموت أي إذا عين الموت، لأنه في تلك الحال في شغل عن الوصية. لكن المعنى كتب عليكم أن توصوا وأنتم قادرون على الوصية، فيقول الانسان: إذا حضرني الموت أي إذا أنامت، فلفلان كذا.

(١١٠)

والحق هو الفعل الذي لايجوز إنكاره وقيل ما علم صحته سواء كان قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً وهو مصدر حق يحق حقاً وانتصب في الآية على المصدر وتقديره أحق حقاً وقد استعمل على وجه الصفة، بمعنى ذي الحق، كما وصف بالعدل " على المتقين " معناه على الذين يتقون عقاب الله باجتناب معاصية، وامثال أو امره.
قوله تعالى:

فمن بدله بعد ما سمعه فانما إثمه على الذين يبطلونه إن الله سميع عليم (١٨١) آية بلا خلاف. الهاء في قوله: " فمن بدله " عائدة على الوصية: وإنما ذكر حملاً على المعنى، لان الايحاء والوصية واحد. والهاء في قوله: " فانما إثمه " عائدة على التبديل الذي دل عليه قوله: " فمن بدله ". وقال الطبري: الهاء تعود على محذوف، لان عودها على الوصية المذكورة لا يجوز، لان التبديل إنما يكون لوصية الموصي. فأما أمر الله عزوجل بالوصية، فلا يقدر هو، ولا غيره أن يبطله. قال الرماني: وهذا باطل، لان ذكر الله الوصية إنما هو لوصية الموصي، فكأنه قيل: كتب عليكم وصية مفروضة عليكم، فالهاء تعود إلى الوصية المفروضة التي يفعلها الموصي.

قوله تعالى: " فمن بدله " فالتبديل: هو تغيير الشيء عن الحق فيه. فأما البديل، فهو وضع شيء مكان آخر. ومن أوصى بوصية في ضرار فبديلها الوصي، لا يأتى. وقال ابن عباس: من وصى في ضرار لم تجز وصيته لقوله " غير مضار " (١).

والوصي إذا بدل الوصية لم ينقص من أجر الموصي شيء، كما لو لم تبدل، لانه لايجازى أحد على عمل غيره، لكن يجوز أن يلحقه منافع الدعاء، والاحسان الواصل إلى الموصى له، على غير وجه الاجر له، لكن على وجه الجزاء لغيره ممن وصل إليه ذلك الاحسان، فيكون ما يلحق المحسن إليه من ذلك أجراً له، يصح

" ١ " سورة النساء آية: ١١ .

(١١١)

بما يصل إلى المحسن إليه من المنفعة. وفي الآية دلالة على بطلان مذهب من قال: إن الطفل يعذب بكفر أبويه، لأن الله تعالى بين وجه العدل في هذه. وقياس العدل في الطفل ذلك القياس، فمن هناك دل على الحكم فيه. وفيها أيضا دلالة؟ بطلان قول من يقول: إن الوارث اذا لم يقبض دين الميت أنه يؤخذ به في قبره أو في الآخرة، لما قلنا من أنه دل على أن العبد لا يؤخذ بجرم وغيره وأن لا إثم عليه بتبديل غيره. وكذلك لو قضى عنه الوارث من غير أن يوصي به الميت لم يزل عقابه بقضاء الوارث عنه إلا أن يتفضل باسقاطه عنه. وقوله تعالى: " إن الله سميع عليم " معناه سميع لما قاله الموصى من العدل، أو الجنف، عليم بما يفعله الوصي من التبديل أو التصحيح، فيكون ذكر ذلك داعيا إلى طاعته. قوله تعالى:

فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم (١٨٢) آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص وعن عاصم " موص " بالتخفيف. الباقر بالتشديد. وهما لغتان: وصى، وأوصى بمعنى واحد. المعنى:

فان قيل: كيف قال " فمن خاف من موص " لما قد وقع، والخوف إنما يكون لما لم يقع؟ قيل فيه قولان:

أحدهما - إنه خاف أن يكون قد زل في وصيته، فالخوف للمستقبل، وذلك الخوف هو أن يظهر ما يدل على أنه قد زل، لانه من جهة غالب الظن. الثاني - لما اشتمل على الواقع، وما لم يقع جاز فيه " خاف " ذلك فيأمره

(١١٢)

بما فيه الصلاح، وما وقع رده إلى العدل بعد موته. والجنف: الجور، وهو الميل عن الحق. وقال الحسن: هو أن يوصي من غير القرابة، قال: فمن أوصى لغير قرابته رد إلى أن يجعل للقرابة الثلثان، ولمن أوصى له الثلث. وهذا باطل عندنا، لان الوصية لايجوز صرفها عن من وصي له. وإنما قال الحسن ذلك لقوله إن الوصية للقرابة واجبة. وعندنا إن الامر بخلافه على ما بيناه.

اللغة:

وقال صاحب العين: الجنف: الميل في الكلام والامور كلها. تقول: جنف علينا فلان، وأجنف في حكمه، وهو مثل الحيف إلا ان الحيف من الحاكم خاصه، والجنف عام، ومنه قوله تعالى: "

غير متجانف " (١) أى متمایل: متعمد. ورجل أجنف: في أحد شقيه ميل على الآخر. وقال ابن دريد: جنف يجنف جنفا إذا صد عن الحق وأصل الباب: الميل عن الاستواء. وقال الشاعر في الجنف:

هم المولى وإن جنفوا علينا * وإنا من لقائهم لزور (٢)
المعنى:

وإذا جنف الموصي في وصيته، فللوصي أن يردها إلى العدل، وهو المروي عن أبي عبدالله (ع). وبه قال الحسن، وقتادة، وطاووس. وقال قوم، واختاره الطبري: ان قوله " فمن خاف من موص " في حال مرضه الذي يريد أن يوصي فيه، ويعطي بعضا، ويضر ببعض، فلا إثم أن يشير عليه بالحق، ويرده إلى الصواب ويسرع في الإصلاح بين الموصي، والورثة، والموصى له حتى يكون الكل راضين،

" ١ " سورة المائدة آية: ٣. ٢ " قاتله عامر الخصفي، من بني خصفة، ابن قيس عيلان، مجاز القرآن لابي عبيدة: ٦٦، ٦٧، ومشكل القرآن: ١١٩، واللسان (جنف) (ولي). قوله: هم المولى: أي هم أبناء عمنا، أقام المفرد مقام الجمع، أراد الموالي. وان جنفوا: وان جاروا ومالوا عن الحق. والزور: جمع أزور، وهو الغضب والانحراف. يقول: هم أبناء عمنا وان مالوا عن الحق وانا لتكره لقاءهم.

(١١٣)

ولا يحصل جنف، ولا ظلم، ويكون قوله " فأصلح بينهم " يريد فيما يخاف من حدوث الخلاف فيه - فيما بعد - ويكون قوله " فمن خاف " على ظاهره، فيكون مترقيا غير واقع. وهذا قريب أيضا، غير أن الأول أصوب، لأن عليه أكثر المفسرين، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع). وإنما قيل للمتوسط بالإصلاح ليس عليه إثم ولم يقل فله الأجر على الإصلاح، لأن المتوسط إنما يجري أمره في الغالب على أن ينقص صاحب الحق بعض حقه بسؤاله إياه، فاحتاج إلى ان يبين الله لنا أنه لا إثم عليه في ذلك اذا قصد الإصلاح. والذي اقتضى قوله " غفور رحيم " انه اذا كان يغفر المعصية، فانه لا يجوز أن يواخذ بما ليس بمعصية مما بين أنه لا إثم عليه.

والضمير في قوله " بينهم " عائد على معلوم بالدلالة عليه عند ذكر الوصي، والإصلاح، لانه قد دل على الموصى لهم ومن ينازعهم وأنشد الفراء - في مثل " فأصلح بينهم ".

أعمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يوارى جارتى الخدر

ويصم عما كان بينهما * سمعي وما بي غيره وقر (١)

أراد بينهما وبين زوجها، وإنما ذكرها وحدها، وأنشد أيضا:

وما أدري إذا يمت وجهها * أريد الخير أيهما يليني
هل الخير الذي أنا أبتغيه * أم الشر الذي لا يأتليني (٢)
فكنى في البيت الأول عن الشر، وإنما ذكر الخير وحده. وقيل: بل يعود

" ١ " أمالي الشريف المرتضى ١ : ٣٤ ، ١٢٣ . أعمى: أي أغض بصري. والضمير في بينهما عائد على الزوج
والزوجة. يقول لا أنظر إلى جرتي الا وهي متسرة ولا أبوح بسرهما مع زوجها وكل ما أسمع منهما فأجعل نفسي
كأني لم أسمع.

" ٢ " لم أجد هذين البيتين فيما حضرني من المصادر. في المطبوعة " هل " ساقطة.
" أنهما " بدل " أيهما " .

(١١٤)

على مذكور، هم الوالدان والاقربون.
والضمير في قوله " فلا إثم عليه " عائد على الوصي - في قول الحسن - ويجوز أن يعود
على المصلح المذكور في (من).
وقوله تعالى: " جنفا " وإنما يريد بالجنف: الميل عن الحق عن جهة الخطأ، لأنه لا يدري أنه
لايجوز، والاثم: أن يتعمد ذلك، وهو معنى قول ابن عباس، والحسن، والضحاك، والسدي.
وروي ذلك عن أبي جعفر. والجنف في الوصية:
أن يوصي الرجل لابن ابنته، وله أولاد. أو يوصي لزوج بنته، وله أولاد، فلا يجوز رده على
وجه عندنا. وخالف فيه ابن طاووس، وكذلك إن وصى للبعيد دون القريب لا ترد وصيته.
وخالف فيه الحسن.
قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تهتدون (١٨٣) آية
بلا خلاف.

هذه الآية ظاهرها يتوجه إلى من كان على ظاهر الايمان. فأما الكافر، فلا يعلم بهذا الظاهر
أنه مخاطب بالصيام. وقوله " كتب " معناه فرض على ما بيناه.
فميا مضى.

اللغة:

والصيام، والصوم: مصدر صام يصوم صوما قال النابغة:

خيل صيام وخيل غير صائمة * تحت العجاج وخيل تعلق اللجما (١)

وقال صاحب العين: الصوم، والصمت واحد كقوله تعالى " إني نذرت الرحمن صوما " أي صمتا. والصوم قيام بلا عمل صام الفرس على أريه: إذا لم يعلف.

" ١ " ديوانه: ١٠٦ " ملحق "، واللسان " صوم "، " يملك " وهو من قصيدته الشهيرة التي أولها:
باتت سعاد وأمسى حبها انجذما

(١١٥)

وصامت الريح: إذا ركبت. وصامت الشمس: حين تستوي في منتصف النهار.
وصامت الفرس: موقفه. والصوم ذرق النعام. والصوم: شجر. وأصل الباب:
الامساك، فالصوم: الصمت، لأنه إمساك عن الكلام.
المعنى:

والصوم في الشرع هو الامساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة في زمان مخصوص. ومن شرط انعقاده النية.
وقوله " كما كتب على الذين من قبلكم " قيل فيه ثلاثة أقوال. أحسنها:
انه كتب عليكم صيام أيام، كما كتب عليهم صيام أيام. وهو اختيار الجبائي، وغيره، ويكون الصيام رفعا، لأنه ما لم يسم فاعله، ويكون موضع (كما) نصب على المصدر.
والمعنى فرض عليكم فرضا كالذي فرض على الذين من قبلكم. ويحتمل أن يكون نصبا على الحال من الصيام. وتقديره كتب عليكم مفروضا أي في هذه الحال.
والثاني - ما قاله الشعبي، والحسن: انه فرض علينا شهر رمضان كما فرض شهر رمضان على النصارى. وإنما زادوا فيه وحو لوه إلى زمان الربيع.
والثالث - ما قاله الربيع، والسدي: إنه كان الصوم من العتمة إلى العتمة لا يحل بعد النوم مأكل، ولا مشرب، ولا منكح، ثم نسخ. والاول هو المعتمد.
وقال مجاهد. وقتادة: المعني بالذين من قبلكم أهل الكتاب.
وقوله " لعلمكم تهتدون " أي لعلمكم تتقون المعاصي بفعل الصوم - في قول الجبائي - وقال السدي: لتتقوا ما حرم عليكم من المأكل والمشرب. وقالت فرقة:
معناه لتكونوا أتقياء بما لطف لكم في الصيام، لأنه لو لم بلطف به لم تكونوا أتقياء.
وإنما قلنا: الاول هم المعتمد، لأنه يصح ذلك في اللغة، إذا كان فرض عليهم صيام أيام كما علينا صيام أيام وإن اختلف ذلك بالزيادة والنقصان.
قوله تعالى:

أيام معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن

(١١٦)

تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون (١٨٤) آية واحدة بلا خلاف.
القراءة:

قرأ ابن عامر، ونافع " فدية طعام مساكين " على إضافة الفدية وجمع المساكين. الباقون " فدية؟ " طعام مسكين " على التوحيد. والقراءتان متقاربتا المعنى، لأن المعنى لكل يوم يفطر طعام مسكين. والقراءتان يفيدان ذلك.
الاعراب:

قوله تعالى: " أياما معدودات " منصوب بأحد شيئين: أحدهما - على الظرف، كأنه قيل: الصيام في أيام معدودات. وهو الذي اختاره الزجاج. الثاني - أن يكون قد عدي الصيام إليه كقولك: اليوم صمته. وقال الفراء: هو مفعول ما لم يسمى فاعله كقولك: أعطي زيد المال. وخالفه الزجاج، قال، لأنه لا يجوز رفع الايام، كما لا يجوز رفع المال. وإذا كان المفروض في الحقيقة هو الصيام دون الايام، فلا يجوز ما قاله الفراء إلا على سعة في الكلام. وقال عطاء، وقتادة: الايام المعدودات كانت ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ. وكذلك روي عن ابن عباس. وقال ابن أبي ليلى: المعنى به شهر رمضان وإنما كان صيام ثلاثة أيام من كل شهر تطوعا.

وقوله تعالى: " فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر " ارتفع عدة على الابتداء، وتقديره فعليه عدة من أيام أخر. وروي عن أبي جعفر (ع) أن شهر رمضان كان صومه واجبا على نبي دون أمته. وإنما أوجب على أمة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) فحسب. وإنما قال " أخر " ولا يوصف بهذا الوصف إلا جمع المؤنث التي كل واحدة أنثى - والايام جمع يوم وهو مذكر - حملا له على لفظ الجمع، لأن الجمع يؤنث كما يقال جائت الايام ومضت الايام. و " أخر " لا يصرف، لأنه

(١١٧)

معدول عن الالف واللام، لأن نظائرها من الصغر والكبر لا يستعمل إلا بالالف واللام، لا يجوز نسوة صغر، ويجوز في العربية " فعدة " على معنى، فليعد عدة من أيام أخر بدلا مما افطر.
المعنى:

وهذه الآية فيها دلالة على أن المسافر، والمريض يجب عليهما الإفطار، لأنه تعالى أوجب عليهما مطلقاً، وكل من أوجب القضاء بنفس السفر والمرض أوجب الإفطار وداود أوجب القضاء، وخير في الإفطار، فإن قدروا في الآية فأفطر، كان ذلك خلاف الآية، وبوجوب الإفطار في السفر قال عمر بن الخطاب، وعبدالله ابن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالرحمن بن عوف، وأو هريرة، وعروة ابن الزبير، وأبوجعفر محمد بن علي بن الحسين، وروى سعيد بن جبير عن قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس: قال: الإفطار في السفر عزيمة. وروى يوسف ابن الحكم، قال: سألت ابن عمر عن الصوم في السفر قال: رأيت لو تصدقت على رجل بصدقة فردها عليك ألا تغضب، فأنها صدقة من الله تصدق بها عليكم، وروى عبدالملك بن حميد قال قال أبوجعفر: كان أبي لا يصوم في السفر وينهى عنه، وروي عن عمر، أن رجلاً صام في السفر، فأمره أن يعيد صومه، وروى عطا عن المحرز بن أبي هريرة قال: كنت مع أبي في سفر في شهر رمضان، فكنت أصوم ويفطر، فقال أبي أما أنك إذا أقمت قضيت، وروى عاصم مولى قومه: أن رجلاً صام في السفر فأمره عروة أن يقضي، وروى الزهري عن أبي سلمة بن عبدالرحمن ابن عوف قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الصائم في السفر كالمفطر في الحضر. وروي عن معاذ أن النبي (صلى الله عليه وآله) قدم المدينة، فكان يصوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخ ذلك بشهر رمضان في قوله: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام" واختار الطبري هذا الوجه قال، لأنه لم ينقطع العذر برواية صحيحة أنه كان هاهنا صوم متعبد به فنسخه الله بشهر رمضان.

(١١٨)

اللغة:

وأصل السفر الكشف تقول: سفر يسفر سفراً: إذا كشف. وأسفر لونه إسفاراً، وانسفرت الأبل: إذا انكشفت داهية انسفاراً. وسافر سفراً، وسفرت الريح السحاب إذا قشعته قال العجاج:

سفر الشمال الزبرج المزبررجا (١)

الزبرج السحاب الرقيق، ومنه السفر، لأنه يظهر به مالم يكن ظهر، وينكشف به مالم يكن انكشف، والسفرة طعام السفر، وبه سميت الجلدة التي يحمل فيها الطعام سفرة، والمسفرة: المكنسة، والسفير الداخل بين اثنين للصلح، والسفير: ورق الشجر إذا سقط، وسفر فلان شعره إذا استأصله عن رأسه، ومنه قوله تعالى:

"وجوه يومئذ مسفرة" (٢) أي مشرفة مضيئة "والصبح إذا أسفر" (٣)

إذا أضاء. والاسفار جمع سفر "بايدي سفرة" (٤) أي كتبتة.

وقوله تعالى: " وعلى الذين يطيقونه " يقال: طاق يطوق طوقا وطاقة وهي القوة، وأطاقة إطاقة أيضا إذا قوي عليه، وطوقه تطويقا: ألبسه الطوق، وهو معروف من ذهب كان أو فضة كأنه يكسيه قوة بما يعطيه من الجلالة، وكل شئ استدار فهو طوق، كطوق الرحا الذي يدير القطب مثبته بالطوق المعروف في الصورة، وتطوقت الحية على عنقها: أي صارت كالطوق فيه، والطاقة: شعبة من ريحان أو شعر ونحو ذلك، والطاق: عقد البناء حيث ما كان، والجمع الاطواق، وذلك لقوته. وطوقه الامر إذا جعله كالطوق في عنقه.
المعنى:

قال الحسن وأكثر أهل التأويل: إن هذا الحكم كان في المراضع، والحوامل، والشيخ

" ١ " اللسان (سفر)، (زبرج). سفر: كشف. الشمال: ربح الشمال.

الزبرج - بكسر الزاء وسكون الباء وكسر الراء - : السحاب الرقيق فيه حمرة، وقيل: النمر بسواد وحمرة في وجهه. وقيل: هو الخفيف الاحمر.

" ٢ " سورة عبس آية: ٣٨. " ٣ " سورة المدثر آية: ٣٤.

" ٤ " سورة عبس آية ١٥.

(١١٩)

الكبير، فنسخ من الاية المراضع، والحوامل وبقي الشيخ الكبير. وقال أبو عبد الله (ع) ذلك في الشيخ الكبير يطعم لكل يوم مسكينا. منهم من قال: نصف صاع وهم أهل العراق. وقال الشافعي: مد عن كل يوم. وعندنا إن كان قادرا فمدان، وإن لم يقدر إلا على مد أجراه. وقال السدي: لم ينسخ، وإنما المعنى وعلى الذين كانوا يطيقونه.

وقوله تعالى: " فمن تطوع خيرا " يعني أطعم أكثر من مسكين في قول ابن عباس، وعمل برا في جميع الدين في قول الحسن، وهو أعم فائدة. ومنهم من قال:

من جمع بين الصوم، والصدقة ذهب إليه ابن شهاب: والهاء في قوله يطيقونه - عند أكثر أهل العلم - عائدة على الصوم، وهو الاقوى، وقال قوم: عائدة على الفداء، لانه معلوم وإن لم يجز له ذكر. والمعنى بقوله " الذين يطيقونه " قيل فيه ثلاثة أقوال:

أولها - أنه سائر الناس من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى لكل يوم إطعام مسكين حتى نسخ ذلك - في قول ابن عباس، والشعبي.

الثاني - قال الحسن وعطا: إنه في الحامل، والمرضع، والشيخ الكبير، فنسخ من الاية الحامل، والمرضع، وبقي الشيخ الكبير. وقال السدي: إنه فيمن كان يطيقه إذا صار إلى حال

العجز عنه. " ومن " في قوله: " فمن تطوع " الظاهر، والاليق أنها للجزاء. ويحتمل أن تكون بمعنى الذي. وما روي في الشواذ من قراءة من قرأ " يطوقونه " قيل فيه قولان: أحدهما - يكلفونه على مشقة فيه، وهم لا يطيقونه لصعوبته. الثاني - أن يكون معناه يلزمونه، وهم الذين يطيقونه، فيؤول إلى معنى واحد. ومن قرأ " فدية طام مساكين " على إضافة الفدية، وجمع المساكين: عن ابن عامر ونافع، فإن معنى قراءته تؤول إلى قراءة من ينون " فدية طعام مسكين "،

(١٢٠)

لان المعنى: لكل يوم يفطر طعام مسكين. والاول يفيد هذا ايضا، لانه إذا قيل: إطعام مساكين للايام بمعنى لكل يوم مسكين، صار المعنى واحدا. وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة: إن القدرة مع الفعل، لانه لو كانت الاستطاعة مع الفعل الذي هو الصيام، لسقطت عنه الفدية - لان إذا صام لم يجب عليه فدية. وقوله: " وإن تصوموا خير لكم " رفع (خير)، لانه خبر المبتدأ. وتقديره وصومكم خير لكم، كأن هذا مع جواز الفدية، فأما بعد النسخ، فلا يجوز أن يقال: الصوم خير من الفدية مع أن الافطار لا يجوز أصلا. قوله تعالى:

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون (١٨٥) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

يقراً أبوبكر عن عاصم " ولتكلموا " بتشديد الميم. الباقون بتخفيفها. قال أبو العباس: أكملت وكملت بمعنى واحد إلا أن في التشديد مبالغة. ومن قرأ بالتخفيف فلقوله " اليوم أكملت لكم دينكم " (١).

اللغة:

الشهر: معروف، وجمعه: الأشهر. والشهور والشهرة: ظهور الامر في

" ١ " سورة المائدة آية: ٤.

(١٢١)

شنة. وشهرت الحديث أظهرته. وشهر فلان سيفه: اذا انتضاه. والمشير: الذي أتى عليه شهر. وأشهرت المرأة: اذا دخلت في شهر ولادتها. وأتان شهيرة: أي عريضة ضخمة. والمشاهرة: المعاملة شهرا بشهر. وسمى الشهر شهرا، لاشتهاره بالهلال. فأصل الباب الظهور.

وقال ابن دريد: الرمض: شدة وقع الشمس على الرمل وغيره، والارض رمضاء. ورمض يومنا رمضا: إذا اشتد حره. ورمضان من هذا اشتقاقه، لانهم سموا الشهور بالازمنة التي فيها، فوافق رمضان أيام رمض الحر، وقد جمعوا رمضان، رمضانات. قال صاحب العين: والرمض حرقة غيظ تقول: أرمضني هذا الامر، ورمضت له. والرمض: مطر يكون قبل الخريف. وأصل الباب شدة الحر.

الاعراب:

وشهر رمضان رفع لاحد ثلاثة أشياء:

أولها - أن يكون خبر ابتداء محذوف يدل عليه "أياما معدودات" وتقديره هي شهر رمضان. الثاني - على ما لم يسم فاعله، ويكون بدلا من الصيام، وتقديره "كتب عليكم الصيام" شهر رمضان.

الثالث - أن يكون مبتدأ وخبره "الذي أنزل فيه القرآن" ويجوز في العربية شهر رمضان بالنصب من وجهين: أحدهما - صوموا شهر رمضان. والآخر - على البدل من أيام. المعنى:

وقوله "أنزل فيه القرآن" قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن: إن الله تعالى أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك

(١٢٢)

نجوما. وهو المروي عن أبي عبد الله (ع).

والثاني - أنه ابتداء إنزاله في ليلة القدر من شهر رمضان. فان قيل كيف يجوز أنزاله كله في ليلة، وفيه الاخبار عما كان، ولا يصلح ذلك قبل أن يكون؟

قلنا: يجوز ذلك في مثل قوله: "ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة" (١) وقوله:

"لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين" (٢) على اذا كان وقت كذا أنزل "لقد نصركم الله" كما قال تعالى "ونادى أصحاب الجنة" (٣) أي إذا كان يوم القيامة "نادى أصحاب الجنة أصحاب النار".

الاعراب:

وقوله تعالى: " هدى للناس " موضعه نصب على الحال، كأنه قال: أنزل فيه القرآن هاديا للناس. ولا يحتمل سواه، لقوله " وبيّنات من الهدى ".

اللغة:

والقرآن إشتقاقه قرأ يقرأ قراءة، وأقرأه إقرأ وقال صاحب العين: رجل قارئ: أي عابد ناسك، وفعله التقري والقراءة، وأقرأت المرأة: اذا حاضت.

وقرأت الناقة: اذا حملت. والفرأ: الحيض، وقد جاء بمعنى الطهر. وأصل الباب الجمع، لقولهم. ما قرأت الناقة سلا قط: أي ما جمعت رحمها على سلا قط. وفلان قرأ، لانه جمع الحروف بعضها إلى بعض. والفرء الحيض، لاجتماع الدم في ذلك الوقت. والفرقان: هو الذي يفرق بين الحق، والباطل. والمراد به القرآن هاهنا.

المعنى:

وقوله: " فمن شهد منكم الشهر فليصمه " قيل في معناه قولان:

" ١ " سورة آل عمران: ١٢٣ " ٢ " سورة التوبة آية: ٢٦.

" ٣ " سورة الاعراف آية: ٤٣.

(١٢٣)

أحدهما - من شاهد منكم الشهر مقيما. والثاني - من شهده بان حضره، ولم يغيب، لانه يقال: شاهد: بمعنى حاضر وشاهد: بمعنى مشاهد. وروي عن ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد: وجماعة من المفسرين، ورووه عن علي (ع) أنهم قالوا: من شهد الشر بأن دخل عليه الشهر، كره له أن يسافر حتى يمضي ثلاث وعشرون من الشهر إلا أن يكون واجبا كالحج، أو تطوعا كالزيادة، فان لم يفعل، وخرج قبل ذلك كان عليه الافطار، ولم يجزه الصوم.

وقوله تعالى: " فمن شهد منكم الشهر فليصمه " ناسخ الفدية - على قول من قال بالتخيير - وناسخ للفدية ايضا في المراضع والحوامل - عند من ذهب اليه - وبقي الشيخ الكبير، له أن يطعم، ولم ينسخ. وعندنا أن المرضعة والحامل اذا خافا على ولدهما أفطرتا وكفرتا، وكان عليهما القضاء فيما بعد اذا زال العذر. وبه قال جماعة من المفسرين، كالطبري وغيره. وقوله: " ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر " قد بينا أنه يدل على وجوب الافطار - في السفر - لانه أوجب القضاء بنفس السفر، والمرض.

وكل من قال ذلك أوجب الإفطار. ومن قدر في الآية أو على سفر فأفطر فعدة من أيام آخر، زاد في الظاهر ما ليس فيه. فان قيل: هذا كقوله " فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام " (١) ومعناه فحلق. قلنا: إنما قدرنا هناك فحلق للاجماع على ذلك، وليس هاهنا إجماع، فيجب أن لا يترك الظاهر، ولا يزداد فيه ما ليس فيه.
اللغة:

وقوله تعالى: " يريد الله بكم اليسر " قال صاحب العين: الإرادة: أصلها الواو، لانك تقول: روادته على أن يفعل كذا وكذا، مرادة. ومنه راد، يرود، روادا، فهو رايد بمعنى الطالب شيئا. ويقال أرود فلان إروادا: إذا رفق

" ١ " سورة البقرة آية: ١٩

(١٢٤)

في مشي أو غيره. ومنه رويدا فلانا: أي امهله يتفصح منصرفا. ومنه ارتادا ارتيادا كقولك: طلب طلبا، والرود: الميل. وفي المثل (الرائد لا يكذب أهله) أي الطالب صلاحهم لا يكذبهم، لانه لو كذبهم غشهم. وأصل الباب الطلب. والإرادة بمنزلة الطلب للمراد، لانه كالسبب له. واليسر ضد العسر. يقال: أيسر إيسارا، ويسره تيسيرا، وتيسر تيسرا، وتياسر تياسرا، واستيسر استيسارا. واليسار: اليد اليسرى. واليسار: الغنى، والسعة. واليسر: الجماعة الذين يجتمعون على الجزور في الميسر، والجمع: الايسار.
وفرس حسن التيسور: اذا كان حسن السمن (١). وأصل الباب السهولة.
والعسر ضد اليسر. وعسر الشيء عسرا. ورجل عسر بين العسر. ورجل أعسر: يعمل بشماله. وأعسر الرجل إيسارا: اذا افتقر. والعسير الناقة التي اعتاصت فلم تحمل من سنتها. وبغير عسران اذا ركب قيل أن يراض. وأصل الباب الصعوبة.
وقوله تعالى: " ولتكلموا العدة " يقال: كمل يكمل كمالا، وأكمل إكمالا، وتكامل تكاملا، وكمله تكميلا، واستكمل استكمالا، وتكمل تكملا. أصل الباب الكمال، وهو التمام.
الاعراب:

وعطف باللام في قوله تعالى: " ولتكلموا العدة " على أحد أمرين:
أحدهما - عطف جملة على جملة، لان بعده محذوف، كأنه قال: ولتكلموا العدة شرع ذلك أو أريد. ومثله قوله تعالى: " وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين " (٢) أي أريناه. هذا قول الفراء.

الثاني - أن يكون عطفًا على تأويل محذوف دل عليه ما تقدم من الكلام، لأنه لما قال: " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " دل على أنه فعل ذلك ليسهل عليكم، فجاز " ولتكمّلوا العدة " عطفًا عليه. قال الشاعر:

" ١ " حسن ساقطة من المطبوعة، والسمن - بكسر السين وفتح الميم.

" ٢ " سورة الاتعام آية: ٧٥.

(١٢٥)

يارب غير آيهن مع البلى * إلا رواكد جمرهن هباء
ومشجج أما سواء قذاله * فبدوا وغيب ساره المعزاء (١)
فعطف على تأويل الكلام الاول كأنه قال: بها رواكد، ومشجج. وهذا قول الزجاج وهو
الاجود، لان العطف يعتمد على ما قبله، لاعلى ما بعده. وعطف الظرف على الاسم في قوله "
ومن كان مريضاً أو على سفر " جائز، لانه معنى الاسم، وتقديره أومسافراً، ومثله قوله: "
دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً " كأنه قال مضطجعا أو قائماً أو قاعداً.
المعنى:

واليسر المذكور في الآية: الافطار في السفر - في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة،
والضحاك.

والعسر: الصوم فيه وفي المرض. والعدة: المأمور باكمالها، والمراد بها: أيام السفر،
والمرض الذي أمر بالافطار فيها. وقال الضحاك، وابن زيد: عدة ما أفطروا فيه.

وقوله " ولتكبروا الله " المراد به تكبير ليلة الفطر عقيب أربع صلوات:

المغرب، والعشاء الاخرة، وصلاة الغداة، وصلاة العيد - على مذهبنا - . وقال ابن عباس،
وزيد بن أسلم، وسفيان، وابن زيد: التكبير يوم الفطر.

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة من ثلاثة أوجه:

أحدها - قوله " هدى للناس " فعم بذلك كل إنسان مكلف، وهم يقولون ليس يهدى الكفار.

" ١ " اللسان (شجج) ذكر البيت الثاني فقط. غير: بدل. آيهن جمع آية وهي العلامة.

والرواكد هي حجارة توضع تحت القدر. مشجج: مضروب. تذال: مجمع عظم الرأس بدا
ظهر وبان. ساره: جميعه. المعزاء: الارض الصلبة ذات الحجارة. يقول رب لاتترك لهن
علامة، وافنهن جميعاً سوى حجارة الموتد، ومكسرات الرأس، واجعل أرضهن صلبة وفيها
حجارة قد رماها العدو حتى غطت عليهن جميعاً.

(١٢٦)

الثاني - قوله تعالى " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " والمجبرة تقول: قد أراد تكليف العبد ما لا يطيق مما لم يعطه عليه قدرة، ولا يعطيه، ولا عسر أعسر من ذلك.

الثالث - لو أن إنسانا حمل نفسه على المشقة الشديدة التي يخاف معها التلف في الصوم لمرض شديد لكان عاصيا، وكان قد حمل نفسه على العسر الذي أخبر الله أنه لا يريده بالعبد. والمجبرة تزعم أن كلما يكون من العبد من كفر أو عسر أو غير ذلك من أنواع الفعل يريده الله.

مسائل من أحكام الصوم يجوز قضاء شهر رمضان متتابعا، ومتفرقا، فالتتابع أفضل. وبه قال مالك، والشافعي. وقال أهل العراق: هو مخير. ومن أفطر في شهر رمضان متعمدا بالجماع في الفرج لزمه القضاء، والكفارة - عندنا - والكفارة: عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا. وبه قال أبو حنيفة، والشافعي. وقال مالك هو بالخيار. وفي أصحابنا من قال بذلك. والإطعام لكل مسكين نصف صاع - عندنا - وبه قال أبو حنيفة، فإن لم يقدر فمد. وبه قال الشافعي، ولم يعتبر العجز. فإن جامع ناسيا، فلا شيء عليه. وقال مالك: عليه القضاء. ومن أكل متعمدا أو شرب في نهار شهر رمضان لزمه القضاء، والكفارة - عندنا - وهو قول أبي حنيفة ومالك. وقال الشافعي: لا كفارة عليه، وعليه القضاء. والناسي لأشئ عليه عندنا - وعند أهل العراق، والشافعي. وقال مالك عليه القضاء. ومن أصبح جنبا متعمدا من غير ضرورة لزمه - عندنا - القضاء والكفارة. وقال ابن حي عليه القضاء استحبابا. وقال جميع الفقهاء لأشئ عليه.

ومن زرعه القيء، فلا شيء عليه، فإن تعمدته كان عليه القضاء. وبه قال أبو حنيفة والشافعي ومالك. وقال الأوزاعي: إن غلبه، فعليه القضاء بلا كفارة. وإن

(١٢٧)

استدعاه فعليه القضاء، والكفارة. ومن أكل حصى أو نوى متعمدا فعليه القضاء، والكفارة. وبه قال مالك والأوزاعي: وقال أهل العراق عليه القضاء بلا كفارة.

وقال ابن حي لا قضاء ولا كفارة.

وإذا احتلم الصبي يوم النصف من شهر رمضان صام ما بقي، ولا قضاء عليه فيما مضى، ويمسك بقية يومه تأديبا، فإن أفطر فيه فلا قضاء عليه. وبه قال أهل العراق. وقال مالك: أحب الي أن يقضى ذلك اليوم، وليس بواجب. وقال الأوزاعي: يصوم ما بقي، ويقضى ما مضى منه.

وحكم الكافر اذا أسلم حكم الصبي اذا احتلم في جميع ذلك. والمجنون، والمغمى عليه في الشهر كله لا قضاء عليه - عندنا - بدلالة قوله تعالى: " فمن شهد منكم الشهر، فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر " وإنما أراد من شهد الشهر وهو ممن يتوجه اليه الخطاب، والمجنون والمغمى عليه ليس بعاقل يتناوله الخطاب. وقوله " ومن كان مريضا أو على سفر " المراد به إذا كان مريضا عاقلا، يشق عليه الصوم، أو يخاف على نفسه منه، فيلزمه " عدة من أيام أخر ". وقال أهل العراق: إن لم يفق المجنون في جميع الشهر، فلا قضاء عليه، وإن أفاق في بعضه فعليه قضاؤه كله. وأما المعنى عليه في الشهر كله، فعليه قضاؤه، لأنه بمنزلة المريض. وقال حسن بن صالح، ومالك: المجنون، والمغمى عليه سواء، عليه قضاء الشهر كله إن جن في الشهر كله، وأغمى عليه فيه. وقال الاوزاعي: المجنون، والمغمى عليه سواء، ولا قضاء على واحد منهما ما مضى من الشهر، ويقضى ما بقى منه، فإن أفاق بعد ما خرج الشهر كله فلا قضاء عليه. وهذا مثل ما قلناه. وقال الشافعي: يقضى المغمى عليه، ولا يقضى المجنون. والحامل، والمرضع، والشيخ الكبير اذا أفطروا، قال أهل العراق: في الحامل، والمرضع، يخافان على ولدهما: يفطران، ويقضيان يوما مكانه، ولا صدقة عليهما، ولا كفارة، وبه قال قوم من أصحابنا. وقال مالك الحامل تقضي، ولا تطعم والمرضع: تقضي، وتطعم لكل يوم مدا. وقال الشافعي في رواية المزني:

(١٢٨)

عليهما القضاء في الوجهين، وتطعم لكل يوم مدا، وهو مذهبا، والمعمول عليه. وفي رواية البنزطي عن الشافعي مثل قول مالك. والشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم يفطر ويتصدق مكان كل يوم نصف صاع في قول أهل العراق، وهو مذهبا. وقال الشافعي: مد لكل يوم. وقال مالك: يفطر ولا صدقة عليه. والسفر الذي يوجب الافطار: ما كان سفرا حسنا، وكان مقداره ثمانية فراسخ: أربعة وعشرين ميلا. وعند الشافعي: ستة عشر فرسخا. وعند أبي حنيفة: أربعة وعشرون فرسخا. وقال داود: قليله، وكثيرة يوجب الافطار. والمرض الذي يوجب الافطار: ما يخاف معه التلف أو الزيادة المفرطة في مرضه. وروي أنه كل مرض لا يقدر معه على القيام مقدار صلاته، وبه قال الحسن، وعبيدة السلماني. في ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف. ومن قال: إن قوله تعالى: " ولتكلما العدة " يدل على أن شهر رمضان لا ينقص أبدا، فقد أبعده من وجهين:

(الاول)، لان قوله " ولتكلّموا العدة " معناه ولتكلّموا عدة الشهر سواء كان الشهر تاماً أو ناقصاً.

والثاني - أن ذلك راجع إلى القضاء، لانه قال عقيب ذكر السفر، والمرض: " فعدة من أيام أخر يريد الله بكم السير ولا يريد بكم العسر ولتكلّموا العدة " يعنى عدة ما فاتته، وهذا بين.

قوله تعالى:

وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (١٨٦) آية بلا خلاف.

(١٢٩)

النزول:

روي عن الحسن: أن سائلاً سأل النبي (صلى الله عليه وآله) أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فتناجيه، فنزلت الآية. قال قتادة: نزلت جواباً لقوم سألوا النبي (صلى الله عليه وآله) كيف تدعو. المعنى:

وقوله تعالى: " وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب " معناه: إن اقتضت المصلحة إجابته، وحسن ذلك، ولم تكن فيه مفسدة (١). فأما أن يكون قطعاً لكل من يسأل فلا بد أن يجيبه. فلا. على أن الداعي لا يحسن منه السؤال إلا بشرط ألا يكون في إجابته مفسدة، لا له، ولا لغيره، وإلا كان الدعاء قبيحاً. ولا يجوز أن يقيد الإجابة بالمشيئة بأن يقول: إن شئت، لانه يصير الوعد به لا فائدة فيه، فمن أجاز ذلك فقد أخطأ. فان قيل: إذا كان لا يجيب كل من دعا، فما معنى الآية؟ قلنا معناه أن من دعا - على شرائط الحكمة التي قدمناها، واقتضت المصلحة إجابته - أجيب لا محالة، بان يقول: اللهم إفعل بي كذا إن لم يكن فيه مفسدة لي أو لغيري في الدين (٢) أو دنيوي. هذا في دعائه.

وفي الناس من قال: إن الله وعد باجابة الدعاء منه عند مسألة المؤمنين دون الكفار، والفاسيقين. والمعتمد هو الاول. فان قيل: إذا كان ما تقتضيه الحكمة لا بد أن يفعله، فلا معنى للدعاء! قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أن ذلك عبادة كسائر العبادات. ومثله قوله: " رب احكم بالحق ".

والثاني - انه لا يمتنع أن تقتضي المصلحة إجابته اذا دعا. ومتى لم يدع لم تقتض الحكمة إجابته.

فان قيل: هل يجوز أن تكون الاجابة غير ثواب؟ قلنا فيه خلاف. قال

" ١ " في المطبوعة " فنة " " ٢ " هكذافي المطبوعة والاولى أن يكون " في أمرديني.

(١٣٠)

أبو علي لا يكون إلا ثوابا، لأن من أجابه الله، يستحق المدح في دين المسلمين، فلا يجوز أن يجيب كافرا، ولا فاسقا. وكان أبو بكر بن الاخشاد يخبر ذلك في العقل على وجه الاستصلاح له. وهذا الوجه أقرب إلى الصواب.

والدعاء: طلب الطالب للفعل من غيره. ويكون الدعاء لله على وجهين:

أحدهما - طلب في مخرج اللفظ، والمعنى على التعظيم والمدح، والتوحيد: كقولك: يا الله لا إله إلا أنت، وقولك: ربنا لك الحمد.

والثاني - الطلب لاجل الغفران أو عاجل الانعام كقولك: اللهم اغفر لي وارحمني، وارزقني، وما أشبه ذلك.

وقوله: " فاني قريب " قيل في معناه قولان:

أحدهما - إني قريب الاجابة: سريع الاجابة، فجاز ذلك لمشاكلة معنى قريب لسريع.

الثاني - قريب -، لأنه سمع دعاءهم كما يسمعه القريب المسافة منهم، فجاز لفظة قريب، فحسن البيان بها. فأما قريب المسافة، فلا يجوز عليه تعالى، لأنه من صفات المحدثات. اللغة:

وقوله " أجيب دعوة الداعي إذا دعاني " فالاجابة من الجواب، وهو القطع.

يقال: جاب البلاد يجوب جوبا اذا قطع. ومنه قوله تعالى: " وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد " (١) أي قطعوه. وأجاب الله دعاءه إجابة، وأجاب فلان عن السؤال جوابا. وأجاب الظلام اذا قطعه. واستجاب له استجابة. وجاوبه مجاوبة، وتجاوب تجاوبا، وانجاب السحاب: اذا انقشع. وأصل الباب القطع، فاجابة السائل:

القطع مما سأل، لان سؤاله على الوقف أيكون أم لا يكون.

" ١ " سورة الفجر آية: ٩.

(١٣١)

الاعراب:

وقوله تعالى " فليستجيبوا لي " هذه لام الامر، لا بد منها للغائب. وأما للحاضر (١)، فيجوز فيه إثباتها وإسقاطها. كقولك قم ولتقم. والاصل فيها أن تكون مكسورة. ويجوز فيها السكون إذا

اتصلت بحرف واحد كالفاء فأما ثم، فالوجه معها الكسر، لأنها منفصلة. وإنما جاز فيها السكون دون لام كي، لأنه لما كان عملها التسكين جاز فيها، لا يذانه بعملها.
المعنى:

وقال أبو عبيدة: استجاب، وأجاب بمعنى واحد. وأنشد لكعب بن سعد الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى * فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٢)

أي لم يجبه. وقال المبرد: هذا لا يجوز، لأن في الاستجابة معنى الاذعان، وليس ذلك في الاجابة. وقوله " لعلهم يرشدون " في لعل جوابان:

أحدهما - ليرشدوا، فتكون دالة على العوض في الاجابة، من الله تعالى للعبد.

الثاني - على الرجاء والطمع، لأن يرشدوا، ويكون متعلقا بفعل العباد.

والرشد: نقيض الغي. يقال: رشد يرشد رشدا، ورشيد رشديا، وأرشده إرشادا واسترشد إسترشادا، وهو لرشدة خلاف لزنية. وأصل الباب إصابة الخير، فمنه الارشاد: الدلالة على وجه الإصابة للخير. وروى عن أبي عبدالله (ع) أنه قال:

" وليؤمنوا بي " أي وليتحققوا أنني قادر على إعطائهم ما سألوا.

قوله تعالى:

أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس

" ١ " في المطبوعة " قلنا الحاضر " وهو تحريف.

" ٢ " أمالي القالي ٢: ١٥١. والاصمعيات: ١٤، واللسان " جوب " وهو من قصيدة؟ بها أخاه أبا المغوار.

(١٣٢)

لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (١٨٧) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

الرفث الجماع هاهنا بلا خلاف، وفي قراءة ابن مسعود " فلا رفوث "، وقيل: أصله فاحش القول فكنى به عن الجماع قال العجاج:

عن اللغا ورفث التكلم (١)

والرفث والترفت: قول الفحش يقال رفث يرفث رفثا. وروى عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) كراهية الجماع في أول ليلة من كل شهر، إلا أول ليلة من شهر رمضان لمكان الآية والآشبه أن يكون المراد بليلة الصيام ليالي الشهر كله. وإنما ذكر بلفظ التوحيد، لأنه اسم جنس يدل على التكثير. ومعنى قوله: " هن لباس لكم " أنهم يصرن بمنزلة اللباس، كما قال النابغة الجعدي:

" ١ " ديوانه: ٥٩ من رجز له طويل، حمد فيه الله ومجده بقوله:

فالحمد لله العلي الاعظم * ذي الجبروت والجلال الأفخم
إلى أن قال:

ورب أسراب حبيج كظم * عن اللغا ورفث التكلم
والاسراب: القطيع من القطا أو الظباء أو الشاء أو النساء. يقصد به الججاج والكظم بفتح الكاف والظاء - السكوت عن الكلام وحبس النفس في الصدر. اللغا: ما لا يعتد به من كلام. رفث التكلم: عطف بيان على اللغا.

(١٣٣)

إذا ما الضجيع ثنى عطفه * تثنت عليه فكانت لباسا (١)

وقال قوم: معناه هن سكن لكم، كما قال: " وجعلنا الليل لباسا " (٢)
أي سكنا. واللباس الثياب التي من شأنها أن تستر الابدان، ويشبه بها الاعشبية فيقال لبس السيف بالحلية.

وقوله تعالى: " علم الله إنكم كنتم تختانون أنفسكم " معناه أنهم كانوا لما حرم عليهم الجماع في شهر رمضان بعد النوم. خالفوا في ذلك فذكرهم الله بالنعمة في الرخصة التي نسخت تلك الفريضة. فان قيل: أليس الخيانة انتقاص الحق على جهة المساترة، فكيف يساتر نفسه؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أن بعضهم كان يساتر بعضا فيه فصار كأنه يساتر نفسه، لان ضرر النقص والمساترة داخل عليه.

الثاني - أنه يعمل عمل المساترة له فهو يعمل لنفسه عمل الخائن له.

ويقال: خانه يخونه خونا وخيانة، وخونه تخوينا، واختانه اختيانا، وتخونه تخونا، والتخون: التتقص، والتخون: تغيير الحال إلى ما لا ينبغي " وخيانة الاعين " (٣) مشاركة النظر الي ما لا يحل. وأصل الباب منع الحق.

وقوله تعالى: " فتاب عليكم " أي قبل توبتكم على ما بيناه فيما تقدم. وقوله تعالى: " وعفا عنكم " فيه قولان:

أحدهما - غفر ذنبيكم. الثاني - أزال تحريم ذلك عنكم، وذلك عفو عن تحريمه عليهم. وقوله تعالى: " فالآن بأشروهن " أي جامعوا هن، ومعناه الإباحة دون الأمر، والمباشرة إصااق: البشرية بالبشرة، وهي ظاهر أحد الجلدين بالآخر. وقوله تعالى: " وابتغوا ما كتب الله لكم " قيل في معناه قولان: أحدهما - قال الحسن، وغيره: يعني طلب الولد.

" ١ " الشعر والشعراء: ٢٢٥، ومجاز القرآن لابي عبيدة: ٦٧. وتأويل مشكل القرآن: ١٠٧، وفي بعضها (تداعت) بدل (تنتت).
" ٢ " سورة عم آية: ١٠. " ٣ " سورة المؤمن آية: ١٩.

(١٣٤)

الثاني - قال قتادة: يعني الحلال الذي بينه الله في الكتاب، والابتغاء: الطلب للبغية، وقوله " وكلوا واشربوا " إباحة للاكل والشرب " حتى يتبين " أي يظهر، والتبين: تميز الشئ الذي يظهر للنفس على التحقيق " الخيط الابيض من الخيط الاسود " يعني بياض الفجر من سواد الليل. وقيل: خيط الفجر الثاني مما كان في موضعه من الظلام. وقيل النهار من الليل، فأول النهار طلوع الفجر الثاني لانه أوسع ضياء. قال أبوداود (١).
فلما أضاءت لنا سدفه * ولاح من الصبح خيط أنارا (٢)
وروي عن حذيفة، والاعمش، وجماعة أن الخيط الابيض: هو ضوء الشمس، وجعلوا أول النهار طلوع الشمس، كما أن آخر غروبها بلا خلاف في الغروب. وأكثر المفسرين على القول الاول، وعليه جميع الفقهاء، لا خلاف فيه بين الامة اليوم.
اللغة:

والخيط في اللغة معروف يقال خاط يخيط خياطة، فهو يخيط، وخيطه تخييطا. والخيط: القطيع من النعام. ونعامة خيطاء: قيل: خيطها طول قصبته، وعنقها. وقيل: اختلاط سوادها ببياضها، وكلاهما يحتمل، فالاول، لانه كالخيط الممدود. والثاني - لانه كاختلاط خيوط ببيض بسود. والمخيط الابرة. ونحوها مما يخاط به. والابيض نقيض الاسود. والبياض ضد السواد يقال: أبيض، وبياض بيضا، وبيضة تبيضا، وتبيض تبيضا. وبيضة الطير، وبيضة الحديد، وبيضة الاسلام مجتمعه، وابتاضوهم أي استأصلوهم، لانهم اقتلعوا بيضهم وأصل الباب البياض.

واسود، واسواد اسودادا، وسوده تسويدا، وتسود تسودا، وساوده

" ١ " هو أبوداود: الايادي.

" ٢ " اللسان (خيطة) والاصمعيات: ٢٨ ورواية الاصمعيات (خير أنارا) في المطبوعة (غدوة) بدل (سدفة ومعناها متقارب، لان السدفة: ظلمة الليل في لغة نجد، والضوء في لغة قيس. وهي أيضا اختلاط ضوء والظلمة جميعا.

(١٣٥)

سوادا: أي ساداه سوادا، لان الخفاء فيه كخفاء الشخص في سواد الليل. وسواد العراق: سمي به لكثرة الماء، والشجر الذي تسود به الارض. وسواد كل شئ شخصه. والاسود من الحبة يجمع أساود. وسويداء القلب، وسوداوه دمه الذي فيه في قول: ابن دريد. وقيل حبة القلب، لانه في سواد من الظلمة. وساد سؤددا، فهو سيد، لانه ملك السواد الاعظم، والمسود الي قد ساد غيره المعنى:

وقوله " من الفجر " يحتمل معنيين:

أحدهما - أن يكون بمعنى التبويض لان، المعنى من الفجر، وليس الفجر كله. هذا قول ابن دريد.

الثاني - بمعنى تبين الخيط، كأنه قال: الخيط الذي هو الفجر.

وقوله: " ثم أتموا الصيام إلى الليل " قد بينا حقيقة الصيام فيما مضى.

والليل هو بعد غروب الشمس، وعلامة دخوله على الاستظهار سقوط الحمرة من جانب المشرق، وإقبال السواد منه، وإلا فاذا غابت الشمس مع ظهور الآفاق في الارض المبسوطة وعدم الجبال، والروابي، فقد دخل الليل.

وقوله تعالى: " ولا تباشروهن " قيل في معناه قولان هاهنا:

قال ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أراد به الجماع.

وقال ابن زيد، ومالك: أراد الجماع. كلما كان دونه من قبلة، غيرها.

وهو مذهبنا.

وقوله تعالى: " وأنتم عاكفون في المساجد " فالاعتكاف - عندنا - هو اللبث في أحد المساجد

الاربعة: المسجد الحرام أو مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) أو مسجد الكوفة أو مسجد البصر،

للعبادة من غير اشتغال بما يجوز تركه من أمور الدنيا.

وله شرائط - ذكرناها في كتب الفقه - وأصله اللزوم. قال الطرماح:

(١٣٦)

فبات بنات الليل حولي عكفا * عكوف البواكي بينهن صريع (١)

وقال الفرزدق:

ترى حولهن المعتفين كأنهم * على صنم في الجاهلية عكف (٢)
اللغة:

وقوله تعالى: " تلك حدود الله ". فالحد على وجوه:

أحدها - المنع، يقال: حده عن كذا حده عن كذا حداً أي منعه. والحد الدار.
والحد الفرض من حدود الله أي فرائضه، الحد الجلد للزاني، وغيره. والحد: حد السيف، وما
أشبهه. والحد في الحلق: الحدة. والحد: الفرق بين الشيين. والحد منتهى الشيء. وحد الشراب:
صلابته. وإحداد المرأء على زوجها: امتناعها من الزينة والطيب. وإحداد السيف: إشحاذه.
وإحداء - النظر إلى الشيء التحديق إليه. والحديد معروف، وصانعه الحداد. والحداد السجان.
والاستحداد حلق الشيء بالحديد. وحادثته: عاصيته، ومنه قوله تعالى " ان الذين يحادون الله
ورسوله " (٣) وأصل الباب المنع. والحد، نهاية الشيء التي تمنع أن يدخله ما ليس منه، وأن
يخرج عنه ما هو منه.

أحكام الاعتكاف:

ولا يجوز الاعتكاف إلا بصوم، وبه قال أبوحنيفة، وأصحابه، ومالك ابن أنس. وقال الشافعي
يصح بلا صوم، وبه قال الحسن إلا أن يشرط. وعندنا

" ١ " ديوانه: ١٥٣، واللسان (بني) وروايته (تظل) بدل " فبات " و " قتيل " بدل " صريع ". بنات الليل: الهموم. وقيل
الاحلام. والاول أليق في هذا. كأنه يقول: ان الهموم؟ علي. كترام النساء على القتيل.
" ٢ " ديوانه: ٥٦١، والنقائض: ٥٦٣. وفي المطبوعة " العقين " بدل " ملعتفين " والمعتفون: الذين جاؤا يطلبون
الرزق، يصفهم: جمعا قد وقفوا ينتظرون الطعام والعطاء متلهفين.
وهو ليس بدم لهم بل مدح بالمعطي لهم.
" ٤ " سورة المجادلة آية ٥، ٢٠.

(١٣٧)

لا يكون أقل من ثلاثة أيام، وبه قال أهل المدينة. وقال أهل العراق: الاعتكاف جائز به كل
مسجد يصلى فيه جماعة. وقال مالك: لا إعتكاف إلا في موضع يصلى فيه الجمعة من
المصر. وقال أهل العراق: المرأة تعتكف في مسجد بيتها. وقال مالك: لا تعتكف إلا في مسجد
جماعة. وقال الشافعي: المرأة والعبد يعتكفان، وكذلك المسافر حيث شاءوا. وقد بينا ما عندنا
في ذلك. ولا فرق بين الرجل والمرأة فيه. وقال مالك: لا يكون الاعتكاف أقل من عشرة أيام.
وعند أهل العراق يكون يوماً.

ومسائل الاعتكاف قد بينها في النهاية، والمبسوط في الفقه، لا نطول بذكرها. والخلاف فيها ذكرناه في مسائل الخلاف.

سبب النزول:

وقيل أن هذه الآية نزلت في شأن أبي قيس بن صرمه، فكان يعمل في أرض له، فأراد الأكل، فقالت امرأته: يصلح لك شيئاً فغلبت عيناه، ثم قدمت إليه الطعام، فلم يأكل، فلما أصبح لاقى جهداً، فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بذلك، فنزلت هذه الآية.

وروي أن عمراً أراد أن يوقع زوجته في الليل، فقالت: إني نمت فظن أنها تعتل عليه، فوقع عليها، ثم أخبر النبي (صلى الله عليه وآله) بذلك من الغد، فنزلت الآية فيهما.
المعنى:

وقوله تعالى: " كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون " يعني ما بين لهم من الأدلة على ما أمرهم به، ونهاهم عنه، لكي يتقوا معاصي، وتعدى حدوده التي أمرهم الله بها، ونهاهم عنها، وأباحهم إياها. وفي ذلك دلالة على أنه تعالى: أراد التقوى من جميع الناس: الذين بين لهم هذه الحدود. وروي عن أبي عبدالله (ع)

أنها نزلت في خوات من جبير مثل قصة أبي قيس بن صرمه. وأنه كان ذلك يوم

(١٣٨)

الخذق. وروي عن أبي جعفر (ع) حديث أبي قيس سواء.

قوله تعالى:

ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون (١٨٨) آية المعنى:

قوله تعالى: " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أن يكون ذلك على الجهة الظلم، نحو الخيانة، والسرقعة، والغصب، ويكون التقدير لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل كأكل مال نفسة بالباطل، ومثله " ولا تلمزوا أنفسكم " (١) ومعناه لا يلمز بعضكم بعضاً. وقوله: " ولا تقتلوا أنفسكم " (٢) والمعنى لا يقتل بعضكم بعضاً.

الثاني - لا تأكلوه على وجه الهزاء واللعب، مثل ما يوجد في القمار والملاهي ونحوها، لأن كل ذلك من أكل المال بالباطل. وقال أبو جعفر (ع) " لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " يعني باليمين الكاذبة يقتطعون بها الأموال، وقال أبو عبدالله (ع): علم الله أنه سيكون في هذه الأمة حكام يحكمون بخلاف الحق، فنهى الله المؤمنين أن يتحاكموا إليهم، وهم يعلمون أنهم لا يحكمون بالحق.

وقوله تعالى: " وتدلوا بها إلى الحكام " فالحكم هو الخبر الذي يفصل به بين الخصمين يمنع كل واحد من منازعة الآخر. وقيل في معناه قولان: أحدهما - قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: إنه الوديعه وما تقوم به بينة. الثاني - قال الجبائي: في مال اليتيم الذي في يد الاوصياء، لانه يدفعه إلى

(١٣٩)

الحاكم إذا طولب به، ليقنطع بعض، ويقوم له في الظاهر حجة. اللغة:

يقال أدلى فلان بالمال إلى الحاكم إذا دفعه إليه. وأدلى فلان بحقه وحجته: إذا هو احتج بها وأحضرها، ودلوت الدلو في البئر أدلوها: إذا أرسلتها في البئر، وأدليتها إدلاء: إذا انتزعتها من البئر، ومنه قوله تعالى: " فأدلى دلوه " (١) أي انتزعها. وقال صاحب العين: أدليتها إذا أرسلتها أيضا. وأدلى الانسان شيئا في مهوى، ويتدلى هو بنفسه. والدالية معروفة.

الاعراب:

وموضع " تدلو " يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون جزما على النهى، وعظفا على قوله: " لا تأكلوا ". والثاني - أن يكون نصبا على الظرف، ويكون نصبها باضمار أن كقول الشاعر: لا تنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم (٢) لا تجمع بينهما. والاول أجود.

المعنى:

وقيل في اشتقاق " تدلو " قولان: أحدهما - أن التعلق بسبب الحكم كتعلق الدلو بالسبب الذي هو الحبل. والثاني - أنه يمضي فيه من غير تثبت، كمضى الدلو في الارسال من غير تثبت. والباطل هو ما تعلق بالشئ على خلاف ما هو به، خبرا كان أو اعتقادا أو تخيلا أو ظنا. والفريق: القطعة المعزولة من الشئ. والاثم الفعل الذي يستحق به الذم.

وقوله: " وأنتم تعلمون " معناه إنكم تعلمون أن ذلك التفريق من المال " ١ " سورة يوسف آية: ١٩. مرتخريجه في ١: ١٩٠.

(١٤٠)

ليس بحق لكم لانه أشد في الزجر، وفي الآية دلالة على أن تفرقة الحاكم بشهادة الزور غير جائزة، ولا يستباح به النكاح لاحد الشاهدين كما لا يحل ذلك في المال.

قوله تعالى:

يستلونك عن الالهة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٨٩) آية واحدة بلا خلاف.

القرءة:

البيوت والسيوح والغيوب والجيوب - بكسر أولها - شامي والكسائي، والاعشى لا يكسرون، الغيوب، ويكسرهما حمزة، ويحيى إلا الجيوب. ويكسرهما ابن كثير إلا الجيوب والغيوب. وابن فليح يكسرهما كلها. وقالون يكسر منها البيوت فقط. وأبو عمرو يضمها كلها.

اللغة:

الالهة جمع هلال وسمي الهلال، لرفع الصوت بذكره عند رؤيته، ومنه أهل بالحج: اذا رفع الصوت بالتلبية. واختلف أهل العلم إلى كم يسمى هلالا، فقال قوم: يسمى ليلتين هلالا من الشهر. ومنهم من قال: يسمى هلالا ثلاث ليال، ثم يسمى قمرا. وقال الاصمعي: يسمى هلالا حتى يحجر. تحجيره: أن يستدير بخطة دقيقة. ومنهم من قال: يسمى هلالا حين يبهر ضوءه سواد الليل، فاذا غلب ضوءه، سمي قمرا. وذلك لا يكون إلا في الليلة السابعة. وقال الزجاج: يسمى هلالا ليلتين. واسم القمر الزبرقان، واسم دارته الهالة. والفخت اسم ضوءه، أو ظلمته على خلاف فيه. واسم ظله السمر. ومنه قيل: سمار الذين يتحدثون بالليل. وإنما

(١٤١)

اقتصر في جمعه على أهلة، وهو لاد؟ العدد، دون الفعل الذي هو للجمع الكثير، استتقالا له في التضعيف، كما قالوا، فيما ليس بمضعف: حمار وأحمره وحمير.

المعنى:

فان قيل عما كان وقع السؤال من حال الالهة قيل عن زيادتها ونقصانها، وما وجه الحكمة في ذلك، فاجيب بأن مقاديرها تحتاج إليه الناس في صومهم، وفطرمهم، وحجهم وعدد نسائهم، ومحل ذنوبهم، وغير ذلك. وفيها دلالة واضحة على أن الصوم لا يثبت بالعدد، وأنه يثبت بالهلال، لان العدد لو كان مراعى، لما أحيل في مواقيت الناس في الحج على ذلك بل أحيل على العدد.

اللغة:

وقوله تعالى: " قل هي مواقيت " والميقات: هو مقدار من الزمان، جعل علما لما يقدر من العمل، ومنه قوله تعالى: " إلى يوم الوقت المعلوم " (١) والتوقيت: تقدير الوقت. وقت توقيتنا، ومنه قوله تعالى: " وإذا الرسل أفنت " (٢) وكلما قدرت غاية، فهو موقت. والميقات: منتهى الوقت، ومنه قوله تعالى: فتم ميقات ربه " (٣) فالاخرة ميقات الخلق. والاهلال: ميقات الشهر. وإنما لم يصرف مواقيت، وصرف قوارير، لأن قوارير فاصلة في رأس آية، فصرفت لتجري على طريقة واحدة في الايات، كالقوا في، وليس ذلك تنوين الصرف.

المعنى:

وقوله تعالى " وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى " قيل في معناه وجهان:

أحدهما - " ولكن البر من اتقى " كما قلنا في قوله " ولكن البر من آمن بالله ".

" ١ " سورة الحجر آية: ٣٨، وسورة ص آية ٨١.

" ٢ " سورة المرسلات آية: ١١. " ٣ " سورة الاعراف آية: ٤١.

(١٤٢)

والثاني - على وقوع المصدر موقع الصفة، كأنه قال: ولكن البار " من آمن بالله ". قيل في معنى الآية قولان:

أحدهما - أنه كان قوم من الجاهلية إذا أحرموا، نقبوا في ظهر بيوتهم نقبا، يدخلون منه، ويخرجون، فنهوا عن التدين بذلك، وأمروا أن يأتوا البيوت من أبوابها في قول ابن عباس، والبراء، وقتادة، وعطاء. و (الثاني) - قال قوم، واختاره الجبائي: إنه مثل ضربه الله لهم. " وأتوا البيوت من أبوابها " أي أتوا البر من وجهه الذي أمر الله به، ورجب فيه، وهذا الوجه حسن.

وروى جابر عن أبي جعفر محمد بن علي (ع) في قوله: " وليس البر بأن تأتوا البيوت " الآية، قال يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور. وروى أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) مثل قول ابن عباس سواء. وقال قوم: أراد بالبيوت النساء، لان المرأة تسمى بيتا على ما بيناه فيما مضى، فكأنه نهى عن إتيان النساء في أدبارها، وأباح في قبلهن. والاولان أقوى وأجود.

والباب: هو المدخل، تقول منه: بوب تبويبا إذا جعله أبوابا. والبواب:

الحاجب، لانه يلزم الباب. والبابة القطعة من الشئ كالباب من الجملة.

فان قيل أي تعلق لقوله: " وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها " بسؤال القوم عن الاهلة؟ قلنا: لانه لما بين ما فيه من وجه الحكمة، اقتضى لتعلموا على أمور مقدره، ولتجري أموركم على استقامة فانما البر أن تطيعوا أمر الله.

ومن كسر (الباء) من البيوت، فلاستتقال الخروج من الضم إلى الياء. ومن ضم غيوب وكسر البيوت، فلان الغين لما كان مستعليا، منع الكسر، كما منع الامالة.

وأما الحج، فهو قصد البيت الحرام، لاداء مناسك مخصوصة بها في وقت مخصوص. والبر: النفع الحسن. والظهر: الصفيحة المقابلة لصفحة الوجه.

وقوله: " واتقوا الله لعلمكم تفلحون " يعني واتقوا ما نهاكم الله عنه،

(١٤٣)

وزهدكم فيه، لكي تفلحوا بالوصول إلى ثوابه الذي ضمنه للمتقين.
قوله تعالى:

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠) آية بلا خلاف.
المعنى:

القتال هو المقاتلة، وهو محاولة الفاعل لقتل من يحاول قتله، والتقاتل محاولة كل واحد من المتعادين قتل الاخر. والخطاب بقوله " وقاتلوا " متوجه إلى المؤمنين.

ولو قال: " تقاتلوا " لكان أمرا للفريقين. وذهب الحسن، وابن زيد، والربيع، والجبائي: إلى أن هذه الآية منسوخة، لانه قد وجب علينا قتال المشركين وإن لم يقاتلونا بقوله " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " (١) وقوله: " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة " (٢). وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعمر بن عبدالعزيز:

أنها غير منسوخة. وقال بعضهم: أمروا بقتال المقاتلين دون النساء. وقيل: إنهم أمروا بقتال أهل مكة. والاولى حمل الآية على عمومها إلا من أخرجه الدليل.

وقوله تعتدوا " قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها - لا تعتدوا بالقتال بقتال من لم تؤمروا بقتاله. الثاني - لا تعتدوا إلى النساء، والصبيان، ومن قد أعطيتموه الامان. الثالث - لا تعتدوا بالقتال على غير الذين. فان قيل: إذا كان الاعتداء في قتال من لم يقاتلهم فكيف يجوز ان يؤمروا به فيما بعد؟ قيل: انما كان اعتداء من أجل أنه مجاوزة لما حده الله لهم مما فيه الصلاح للعباد، ولم يكن فيما بعد على ذلك، فجاز الامر به.

وقوله: " في سبيل الله " يعني دين الله، وهو الطريق الذي بينه للعباد، ليسلكوه على ما أمرهم به ودعاهم إليه.

" ١ " سورة التوبة آية: ٦. " ٢ " سورة البقرة آية: ١٩٣.

(١٤٤)

وقوله: " لا يحب المعتدين " معناه لا يريد ثوابهم، ولا مدحهم، كما يحب ثواب المؤمنين. وقد بينا فيما مضى أن المحبة هي الإرادة. وإنما قلنا إنها من جنس الإرادة، لان الكراهة تنافيها، ولا يصح إجتماعهما، ولانها تتعلق بما يصح حدوثه لا كالارادة، فلا يصح أن يكون محبا للامان كارها له، كما بينا في أن يكون مريدا له وكارها. وتعلق المحبة بأن يؤمن، كتعلق الارادة بأن يؤمن. وانما اعتيد في المحبة الحذف، والم يعتد ذلك في الاراده، فيقال: الله يحب المؤمن، ولا يقال: الله يريد المؤمن. وقوله: " لا يحب المعتدين " ظاهره يقتضي أنه يسخط عليهم، لانه على وجه الذم لهم إذ لا يجوز أن يطلق على من لا ذنب له من الاطفال، والمجانين.

والاعتداء مجاوزة الحق. وأصله المجاوزة، يقال: عدا اذا جاوز حده في الاسراع. وروي عن أئمتنا (ع). أن قوله تعالى: " وقتلوا في سبيل الله " ناسخ لقوله: " كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " (١) وكذلك قوله:

" واقتلواهم حيث تفقتموهم " ناسخ لقوله " ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم " (٣).
قوله تعالى:

واقتلواهم حيث تفقتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلواهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١)
آية واحدة بلا خلاف.

" ١ " سورة النساء آية: ٩٠. " ٢ " سورة البقرة آية: ١٩١.

" ٣ " سورة الاحزاب آية: ٤٨

(١٤٥)

القرائة:

قرأ حمزة، والكسائي، " ولا تقتلواهم " " حتى يقتلواكم " " فان قتلواكم " كله بغير ألف. الباقون بألف في جميع ذلك.

المعنى:

والمعنى لا تبدؤهم بقتل ولا قتال حتى يبدؤكم. إلا أن القتل يقض بنية الحياة،

والقتال محاولة القتل ممن يحاول القتل.

وقوله: " واقتلوهم " أمر للمؤمنين بقتل الكفار " حيث ثقتموهم " .

الاعراب:

ويجوز في حيث ثلاثة أوجه: ضم الثاء، وفتحها، وكسرها، فالضم لشبهها بالغاية، نحو قبل وبعد، لانه منع الاضافة إلى المفرد مع لزوم معنى الاضافة له، فجرى لذلك مجرى قبل وبعد في البناء على الضم، ولا يجب مثل ذلك في (إذ) لانها مبنية على الوقف، كما أن (مذ) لا يجب فيها ما يجب في منذ. والفتح، لاجل الياء، كما فتحت (أين، وكيف) والكسر فعلى أصل الحركة، لالتقاء الساكنين. وإنما كتبت بغير ألف - في الثلاث والكلام (٢) في المصحف للايجاز، كما كتبوا الرحمن بلا ألف. وكذلك صالح وخالد، وما أشبهها، من حروف المد واللين، لقوتها على التغيير.

اللغة:

وقوله " ثقتموهم " تقول: ثقفته أتقته ثقفا: اذا ظفرت به، ومنه قوله:

" فأما ثقفهم في الحرب " (١) وثقفت الشيء ثقافة: اذا حدقته، ومنه اشتقاق الثقافة بالسيف، وقد ثقف ثقافة فهو ثقف. والثقاف حديدة تكون مع القواس، والرماح يقوم بها المعوج. وثقف الشيء ثقفا: إذا لزم، وهو ثقف اذا كان سريع

" ١ " سورة الانفال آية: ٥٨. " ٢ " هكذا في المطبوعة. وفي العبارة سقط.

(١٤٦)

التعلم. وثقفته تنقيفا: إذا قومته. وأصل الباب: التنقيف التقويم.
المعنى:

وقوله " والفتنة أشد من القتل " قال الحسن، وقتادة، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، وجميع المفسرين: إنها الكفر. وأصل الفتنة الاختبار، فكأنه قال:

والكفر الذي يكون عند الاختبار أعظم من القتل في الشهر الحرام ووجه قراءة من قرأ " ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه " أنه جاء في كلام العرب إذا قتل بعضهم، قالوا: قتلنا، فتقديره حتى يقتلوا بعضكم.

ومعنى قوله " وأخرجوهم من حيث أخرجوكم " أي أخرجوهم من مكة كما أخرجوكم منها. وروى أن هذه الآية نزلت في سبب رجل من الصحابة قتل رجلا من الكفار في الشهر الحرام، فعابوا المؤمنين بذلك فبين الله تعالى أن الفتنة في الدين أعظم من قتل المشركين في الشهر الحرام وإن كان محظورا لا يجوز.

قوله تعالى:

فان انتهوا فان الله غفور رحيم (١٩٢)

معنى قوله تعالى: " فان انتهوا " يعني عن كفرهم بالتوبة منه، في قول مجاهد، وغيره من المفسرين. والانتهاؤ الامتناع يقال: نهى نهياً، وأنهى إنهاء، وتناهى تناهياً، والنهي الزجر عن الفعل بصيغة (لا تفعل) والامر الدعاء إلى الفعل بصيغة (افعل) مع اعتبار الرتبة. والنهي الغدير يكون له الحاجز يمنع الماء أن يفيض، فالنهي بمنزلة المنع. ونهاية الشيء غايته. ونهية الوتد: الفرض، وهو الحز في رأسه الذي يمنع الحبل أن ينسلخ، لانه ينهاه عن ذلك. والنهي: جمع نهية. وهي العقل. والتنهية وجمعها تناهي، وهي مواضع تنهبط. ويتناهى إليها ماء السماء.

والانتهاء إبلاغ الشيء نهايته وفي الآية دلالة على أنه يقبل توبة القاتل عمداً، لانه بين أنه يقبل توبة المشرك، وهو أعظم من القتل، ولا يحسن أن يقبل التوبة من الاعظم، ولا يقبل من الاقل، فان قيل فما معنى جواب الشرط، والله غفور

(١٤٧)

رحيم وإن لم ينتهوا، الجواب: إن معناه فان الله غفور لهم رحيم بهم، ويجوز فان الله يغفر لهم، لانه غفور رحيم، واختصر الكلام لدلالة ما تقدم على أنه في ذكرهم وإن الذي اقتضى انتهاءهم إنما هو ذكر المغفرة لهم، فكان الدلالة عليها بغير إفصاح عنها أحسن لما في ذلك من الإيجاز، والاحالة على الاستدلال لتمكين الأشعار لمتضمن الكلام، والمغفرة: تغطيه الذنب بما يصير به بمنزلة غير الواقع في الحكم.

قوله تعالى:

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين (١٩٣) آية.

المعنى:

هذه الآية ناسخة للأولى التي تضمنت النهي عن القتال عند المسجد الحرام حتى يبدعوا بالقتال فيه، لانه أوجب قتالهم على كل حال حتى يدخلوا في الإسلام في قول الجبائي، والحسن، وغيره، وعلى ما حكيناه عن ابن عباس، وعمر ابن عبدالعزيز: أن الأولى ليست منسوخة، فلا تكون هذه ناسخة بل تكون مؤكدة، والفتنة الشرك في قول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر (ع). وإنما سمي الكفر فتنة، لان الكفر يؤدي إلى الهلاك كما تؤدي الفتن إلى الهلاك، ولان الكفر إظهار الفساد عند الاختبار، والفتنة إنما هي الاختبار. والدين هاهنا قيل في معناه قولان:

أحدهما - الأذعان لله بالطاعة كما قال الاعشى:
هو دان الرباب إذكر هو الد * بين داركا بغزوة وصيال (١)

" ١ " ديوانه: ١١، رقم القصيدة ١. قيل: انه قالها في مدح الاسود بن المنذر اللخمي أخي النعمان بن المنذر لامه، وأم الاسود من تيم الرباب. وقيل: انه قالهما في مدح المنذر بن الاسود لما غز الحليفين، وأسدا وذبيان، ثم أغار على - رمت الاعشى - بني ساعدة بن ضبة بن ثعلبة وكان الاعشى غائبا، فلما قدم وجد الحى مباحا فأتاه، فأنشده، وسأله أن يهبه الاسرى، ففعل. -

(١٤٨)

والثاني - الاسلام دون الكفر. وأصل الدين العادة في قول الشاعر: (١)

تقول إذا درأت لها وضيئي * أهذا دينه أبدا وديني (٢)

وقال آخر:

كدينك من أم الحو يرث قبلها * وجارتها أم الرباب بما سل (٣)

وقد استعمل بمعنى الطاعة في قوله تعالى: " ما كان ليأخذ في دين الملك " (٤) واستعمل بمعنى الاسلام، لان الشريعة فيه يجب أن تجري على عادة قال الله تعالى: " إن الدين عند الله الاسلام " (٥).

قوله: " فان انتهوا " معناه امتنعوا من الكفر وأذعنوا بالاسلام، " فلا عدوان إلا على الظالمين " أي فلا قتل عليهم، ولا قتل إلا على الكافرين المقيمين على الكفر، وسمي القتل عدوانا مجازا من حيث كان عقوبة على العدوان، والظلم، كما قال: " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه " (٦) وكما قال " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (٧) وكما قال: " وإن عاقبتم فعاقبوا " (٨) وحسن ذلك لازدواج الكلام، ومزاوجته هاهنا على المعنى، لان تقديره " فان انتهوا " عن العدوان، " فلا عدوان إلا على الظالمين ". فان قيل: أيجوز أن تقول لاظلم إلا على الظالمين كما جاز " لا عدوان إلا على الظالمين "؟ قلنا: على القياس لا يجوز، لان ذلك مجاز، والمجاز لا يقاس عليه - عند المحصلين - لئلا تلتبس الحقيقة بالمجاز. وإنما جاز في المزوجة، لان الكلام

- والرباب - بكسر الراء - بنو عبد مناة بن أد، وهم تيم وعدي وعوف وثور، اجتمعوا فتحالفوا مع بني عمهم ضبة تيم بن أد، فجاءوا برب (تمر مطبوخ) فغمسوا أيديهم فيه، فسموا الرباب. وقوله: دان الرباب أي أذلهم وحملهم على الطاعة. وقوله: دراكا أي تتابعا. " ١ " هو المثقب العبدى.

" ٢ " اللسان (دين)، (درأ)، (وضن) وروايته (دأبه) بدل (دينه). ردت لها وضيئي: أي وضعت عنها حملها، والوضين هو المنسوخ من أي شئ كان.

" ٣ " لم أجد هذا البيت فيما حضرني من المصادر.
" ٤ " سورة يوسف آية: ٧٦. " ٥ " سورة آل عمران آية: ١٩.
" ٦ " سورة البقرة آية: ١٩٤. " ٧ " سورة الشورى آية: ٤٠.
" ٨ " سورة النحل آية: ١٢٦.

(١٤٩)

معه أبلغ، وأبلغ، كما قال عمرو بن شاس الاسدي:
جزينا ذوى العدوان بالامس فرضهم * قصاصا سواء حذوك النعل بالنعل (١)
وأصل الظلم الانتقاص. من قوله تعالى " ولم تظلم منه شيئا " (٢) وحقيقة ما قدمنا ذكره من
أنه ضرر محض لا نفع فيه يوفي عليه عاجلا ولا آجلا ولا هو واقع على وجه المدافعة.
قوله تعالى:

أشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمان قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما
اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين (١٩٤) آية واحدة بلا خلاف.
أشهر الحرم أربعة: رجب، وهو فرد وثلاثة أشهر سرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.
والمراد هاهنا: ذو القعدة، وهو شهر الصد عام الحديبية. وإنما سمي الشهر حراما، لأنه كان
يحرم فيه القتال، فلو أن الرجل يلقي قاتل أبيه أو ابنه لم يعرض له بسبيل وسمي ذو القعدة،
لعودهم فيه عن القتال.
الاعراب:

والشهر مرتفع بالابتداء، وخبره بالشهر الحرام، وتقديره: قتال الشهر الحرام أي في الشهر
الحرام، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ويحتمل أن يكون تقديره: الشهر الحرام
على جهة العوض لما فات من الحج في السنة الاولى.
المعنى:

وقوله: " والحرامات قصاص " قيل في معناه قولان:
أحدهما - " الحرامات قصاص " بالمراغمة بدخول البيت في الشهر الحرام. قال

" ١ " تفسير الطبري ٣: ٥٧٣.

" ٢ " سورة الكهف آية: ٣٣.

(١٥٠)

مجاهد: لان قريشا فخرت بردها رسول الله (صلى الله عليه وآله) - يوم الحديبية - محرما - في
ذي القعدة - عن البلد الحرام، فأدخله الله عزوجل مكة في العام المقبل في ذي القعدة، ففضى

عمرته، وأقصه بما حيل بينه وبينه يوم الحديبية، وهو معنى قول قتادة، والضحاك، والربيع، وابن زيد.

وروي عن ابن عباس، وأبي جعفر محمد بن علي (ع) مثله.

والقول الثاني - " والحرمان قصاص " بالقتال في الشهر الحرام أي لا يجوز للمسلمين إلا قصاصا. وقال الحسن: إن مشركي العرب قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله): أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام، قال نعم، فأراد المشركين أن يغزوه في الشهر الحرام، فيقاتلوه، فأنزل الله تعالى: " الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمان قصاص " أي إن استحلوا منكم في الشهر الحرام شيئا، فاستحلوا منهم مثل ما استحلوا منكم. وبه قال الزجاج، والجبائي.

وإنما جمع الحرمان لآحد أمرين: أحدهما - إنه يريد حرمة الشهر، وحرمة البلد، وحرمة الاحرام.

الثاني - كل حرمة تستحل، فلا يجوز إلا على وجه المجازاة وفي الناس من قال: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: " قاتلوا المشركين كافة " (١) وقال آخرون ليست منسوخة، لأنه يجوز اجتماعه مع تلك الفريضة - وهو الأولى - لأنه لا دلالة على نسخها.

والحرام: هو القبيح الممنوع من فعله. والحلال: المطلق المأذون فيه. والقصاص الاخذ للمظلوم من الظالم، من أجل ظلمه إياه. فان قيل: كيف جاز قوله: " إن الله لا يحب المعتدين " مع قوله " فاعتدوا عليه " (٢) قلنا الثاني ليس باعتداء على الحقيقة، وإنما هو على وجه المزاجه، ومعناه المجازات على ما بينا.

والمعتدي مطلقا لا يكون إلا ظالما لضرر قبيح، وإذا كان مجازا فانما يفعل ضررا

" ١ " سورة التوبة آية: ٣٧.

" ٢ " سورة البقرة آية: ١٩٤.

(١٥١)

حسنا. فان قيل: كيف قال بمثل ما اعتدى عليكم، والأول جور، والثاني عدل؟ قلنا، لأنه مثله في الجنس وفي مقدار الاستحقاق، لأنه ضرر، كما أن الأول ضرر، وهو على مقدار ما يوجب الحق في كل جرم. وقيل إن عدا، واعتدى لغتان بمعنى واحد، ومثله قرب واقتراب، وجلب واجتلب. وقال قوم: في افتعل مبالغة ليس في فعل.

ومعنى قوله: " واعلموا أن الله مع المتقين " يعني بالنصرة لهم، كأنه قال:

" إن الله مع المتقين " بالنصرة أو إن نصره الله معهم. وأصل (مع) المصاحبة في المكان أو الزمان.

قوله تعالى:

وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين (١٩٥) آية بلا خلاف.

المعنى:

أمر الله تعالى جميع المكلفين المتمكنين من الانفاق في سبيل الله: أن ينفقوا في سبيله، وسبيل الله: هو كل طريق شرعه الله تعالى لعباده، يدخل فيه الجهاد، والحج، وعمارة القناطر، والمساجد، ومعاونة المساكين، والايتم، وغير ذلك، والانفاق: هو إخراج الشيء عن ملكه إلى ملك غيره، لأنه لو أخرجته إلى هلاك لم يسم إنفاقاً.

وقوله تعالى: " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " معناه لا تطرحوا أنفسكم في الهلاك، بأن تفعلوا ما يؤدي إليه. وحقيقة الالقاء تصير الشيء إلى جهة السفلى.

وإنما يقال: ألقى عليه مسألة مجازاً، كما يقال: طرح عليه مسألة.

الاعراب:

والباء في قول بأيديكم يحتمل وجهين: أحدهما - أن تكون زائدة كقولك

(١٥٢)

تعلقت زيدا، وتعلقت بزيد وجذبت الثوب، وجذبت بالثوب، وعلمته، وعلمت به.

قال الشاعر:

ولقد ملات على نصيب جلده * بمساءة إن الصديق يعاتب (١)

والمراد ملات جلده مساءة. والثاني - أن يكون على أصل الكلام من وجهين:

أحدهما - أن كل فعل متعد إذا كني عنه أو قدر على المصدر دخلته الباء، كقولك ضربته ثم تكني عنه فتقول فعلت به. والآخر أن تقول: أوقعت الضرب به فجاء على أصل الافعال المتعدية.

والوجه الآخر: أنه لما كان معناه: لاتهلكوا أنفسكم بأيديكم، فدخلت الباء ليدل على هذا المعنى، وهو خلاف أهلك نفسه بيد غيره.

المعنى:

وقيل في معنى الآية وجوه: أحدها - قال الحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وهو المروى عن حذيفة، وابن عباس: إن معناها " لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " بالامتناع من الانفاق في سبيل الله. الثاني - ما روي عن البراء ابن عازب، وعبيدة السلماني: لا تركبوا المعاصي

باليأس من المغفرة. الثالث - ما قال البلخي، من أن معناها: لا تنتقموا الحرب من غير نكاية في العدو، ولا قدرة على دفاعهم. والرابع - ما قاله الجبائي لا تسرفوا في الانفاق الذي يأتي على النفس.

والاولى حمل الاية على عمومها في جميع ذلك.
اللغة:

والتهلكة، والهلاك واحد. وقيل: التهلكة: ما أهلكهم الله عنده. وأصل الهلاك الضياع، وهو مصدر ضاع الشيء بحيث لا يدري أين هو، ومنه يقال للكافر: هالك، وللميت: هالك، وللمعذب: هالك. والهلوک: المهواة البعيدة، لان الذي يهوي فيها هالك. والهلوک: الفاجرة. والهلوک: المتحيرة، تشبيهاً بالهلوک: الفاجرة

" ١ " لم أجد هذا البيت الا في مجمع البيان وروايته (يعاقب) بدل (يعا؟ ب).

(١٥٣)

التي تمايل في مشيتها، تقول: هلك يهلك هلكا، وهلاكاً، وأهلكه إهلاكاً، وتهالك تهالك تهالكاً، واهتلك اهتلاكاً: إذا ألقى نفسه في المهالك. واستهلكه استهلاكاً، وانهلك انهلاكاً. إذا حمل نفسه على الامر الصعب. والهالكي: الحداد. وأصل ذلك أن بني الهالك بن عمر، كانوا قيوناً، فسمي بذلك كل قين: هالكياً. والتهلكة: كلما كان عاقبته إلى الهلاك. والهالك: الفقير الذي بمضيعة. والاحسان: هو الافضال إلى المحتاج، في قول زيد بن أسلم. وحد الاحسان هو إيصال النفع الحسن إلى الغير، وليس المحسن من فعل الفعل الحسن، لان الله تعالى يفعل العقاب وهو حسن، ولا يقال: إنه محسن به، لا يسمى مستوفي الدين محسناً، وإن كان حسناً، فان أطلق ذلك في موضع، فعلى وجه المجاز، وإنما اعتبرنا أن يكون النفع حسناً، لان من أوصل نفعاً قبيحاً إلى غيره لا يقال: إنه محسن اليه. وقد بينا حقيقة المحبة، فيما مضى، فلا وجه لاعادته، ومحبة الله للمحسنين، إرادة الثواب بهم والمنفعة لهم. وقال عكرمة: أحسنوا الظن بالله يراكم. وقال ابن زيد:

أحسنوا بالعود على المحتاج " إن الله يحب المحسنين " وروى عن أبي عبد الله (ع) أنه قال: لو أن رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل من سبيل الله ما كان أحسن ولا وفق لقوله " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين " يعني المقتصدين.
قوله تعالى:

وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا

أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك

(١٥٤)

عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب (١٩٦) آية واحدة بلا خلاف.
المعنى:

وروي عن الشعبي: أنه قرأ " والعمرة لله " رفعا، وذهب إلي أنها ليست واجبة، كما قال أهل العراق. وعندنا، وعند الشافعي: أنها واجبة، كوجوب الحج.
والقراء كلهم على النصب، والعمرة عطفًا على قوله " وأتموا الحج " وتقديره، وأتموا العمرة لله. وأمر الله تعالى جميع من توجه إليه وجوب الحج أن يتم الحج والعمرة. وقيل في إتمام الحج والعمرة أقوال:

أحدها - أنه يجب أن يبلغ آخر أعمالها بعد الدخول فيهما وهو قول مجاهد، وأبي العباس المبرد، وأبي علي الجبائي.
والثاني - قال سعيد بن جبير، وعطاء، والسدي: إن معناه إقامتهما إلى آخر ما فيهما، لانهما واجبان.

الثالث - قال طاووس: أتمامهما إفرادهما.

الرابع - قال قتادة: الاعتماد في غير أشهر الحج. وأصح الأقوال الأول.
والحج هو القصد إلى البيت الحرام، لاداء مناسك مخصوصة بها في أوقات مخصوصة. ومناسك الحج تشتمل على المفروض، والمسمون. والمفروض يشتمل على الركن، وغير الركن، فأركان الحج أولاً: النية، والاحرام، والوقوف بعرفة، والوقوف بالمشعر، وطواف الزيارة، والسعي بين الصفا والمروة. والفرائض التي ليست بأركان: التلبية، وركعتا طواف الزيارة، وطواف النساء، وركعتا الطواف له.

والمسنوات: الجهر بالتلبية واستلام الأركان، وأيام منى، ورمى الجمار، والحلق أو التقصير، والاضحية إن كان مفردا. وإن كان متمتعا فالهدي واجب عليه، وإلا فالصوم الذي هو بدل عنه، وتفصيل ذلك ذكرناه في النهاية، والمبسوط، والجمل والعقود، لا نطول بذكره. وفي هذه المناسك خلاف كثير - بين الفقهاء - ذكرناه

(١٥٥)

في مسائل الخلاف.

والعمرة واجبة كوجوب الحج، وبه قال الحسن، وابن عباس، وابن مسعود.
وابن عمر، وعطا، وابن جبير، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطا، والشافعي.
وقال ابراهيم النخعي، والشعبي، وسعيد بن جبير، وأهل العراق: إنها مسنونة.
وعن ابن مسعود فيه خلاف، فمن قال: إنها غير واجبة قال: لان الله تعالى أمر بآتمام الحج
والعمرة، ووجوب الآتمام لا يدل على أنه واجب قبل ذلك، كما أن الحج المتطوع به يجب
آتمامه وإن لم يجب الدخول فيه، قالوا: وإنما علينا وجوب الحج بقوله تعالى: " والله على الناس
حج البيت " (١) وهذا ليس بصحيح، لانا قد بينا أن معنى أنموا الحج والعمرة أقيموهما، وهو
المروي عن علي (ع) وعن علي بن الحسى مثله، وبه قال مسروق، والسدي.
والعمرة هي الزيارة في اللغة. وفي الشرع عبارة عن زيارة البيت لاداء مناسك مخصوصة
أي وقت كان من أيام السنة. وأفعال العمرة الواجبة: النية، والاحرام، والطواف، والصلاة عند
المقام، والسعي بين الصفا والمروة، وطواف النساء. وفي بعض ذلك خلاف ذكرناه في
الخلاف.

وقوله " فان أحصرتم " فيه خلاف، قال قوم: فان منعكم خوف، أو عدو، أو مرض، أو هلاك
بوجه من الوجوه، فامتنعتم لذلك. وقال آخرون: إن منعكم حابس قاهر. فالاول قول مجاهد،
وقتادة، وعطا، وهو المروي عن ابن عباس.

وهو المروي في أخبارنا. والثاني ذهب اليه مالك بن أنس. فالاول أقوى لما روي في أخبارنا،
ولان الاحصار هو أن يجعل غيره بحيث يمتنع من الشيء. وحصره منعه، ولهذا يقال: حصر
العدو، ولا يقال: أحصر.

اللغة:

واختلف أهل اللغة في الفرق بين الاحصار، والحصر، فقال الكسائي، " ١ " سورة آل عمران
آية: ٩٧.

(١٥٦)

وأبو عبيدة، وأكثر أهل اللغة: إن الاحصار المنع بالمرض، أو ذهاب النفقة.
والحصر بحبس العدو. وقال الفراء: يجوز كل واحد منهما مكان الآخر. وخالف في ذلك
أبو العباس، والزجاج، واحتج المبرد بنظائر ذلك. كقولهم حبسه أي جعله في الحبس وأحبسه
أي عرضه للحبس، وقتل: أوقع به القتل، وأقتله: عر؟ للقتل، وقبره: دفنه في القبر، وأقبره:
عرضه للدفن في القبر، فكذلك حصره: حبسه أي أوقع به الحصر، وأحصره: عرضه
للحصر. ويقال: أحصره احصارا: اذامعه، وحصره يحصره حصرا إذا حبسه، وحصر

حصرا: إذا عيي في الكلام. وحاصره محاصرنا: إذا ضيق عليه في القتال. والحصر الضيق.
هذا حصر شديد. والحصر:

الذي لا يبوح بسرّه، لانه قد حبس نفسه عن البوح به. والحصير: الملك. والحصير:
المحبس، ومنه قوله تعالى: " وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا " (١) والحصور:
الذي لا إربة له في النساء. والحصور: الغيوب المحجم عن الشيء. والحصر البخيل لحبسه
رفده، وأصل الباب: الحبس.
الاعراب:

وقوله " فما استيسر من الهدى " موضع (ما) رفع، كأنه قال: فعلية " ما استيسر من الهدى ".
ويجوز النصب وتقديره: فليهدى ما استيسر من الهدى.
والرفع أقوى لكثرة نظائره، كقوله " ففدية من سيام " وقوله " فعدة من أيام آخر " (٢) وقوله " فصيام ثلاثة أيام ".
المعنى:

وفي معنى " ما استيسر " خلاف، فروي عن علي (ع)، وابن عباس، والحسن، وقتادة: أنه
شاء. وروي عن ابن عمر، وعائشة: أنه ما كان من الابل والبقر دون غيره، ووجها التيسر
على ناقة دون ناقه، وبقرة دون بقرة. والاول هو المعمول عليه عندنا.

" ١ " سورة الاسراء آية: ٨. " ٢ " سورة البقرة آية: ١٨٤، ١٨٥.

(١٥٧)

اللغة:

وفي اشتقاق الهدى، وأصله قولان:
أحدهما - أنه من الهدية، يقال منه: أهديت الهدية إهداء، وأهديت إلى البيت الهدى إهداء،
فعلى هذا يكون هديا لاجل التقرب به إلى الله باخلاص الطاعة فيه، على ما أمر به.
الثاني - من هديته هدى: اذا سقته إلى طريق الرشاد، وواحد الهدى هدية، وروى أبو عبيدة
عن أبي عمرو: أنه لا يعرف له نظير إلا جدية السرج وجدى، وقال المبرد: وهو مطرد في
الاجناس، كتمرّة وتمر، وشربة وشري، وهو الحنظل.
وقوله " ولا تحلقوا رؤوسكم " معناه لا تزيلوا شعور رؤوسكم: يقال حلق يحلق حلقا، وحلق
تحليقا، وانحلق انحلاقا. والحلق: مجرى الطعام، والشراب في المري. والحلقة: حلقة القوم،
وحلقة الحديد، والحلقة السلاح، ويقال أيضا بالتخفيف. وحلق الطائر في الهواء إذا ارتفع،
وهوى من حلق أي من علو إلى سفلى. وحلق ضرع الناقة إذا ارتفع لبنها. وحلاق المنية،

وجاء بالخلق اذا جاء بالمال الكثير. والملق: معلق الشعر كالموسى. وخلق الارض مجاريها في أوديتها.

والملق: موضع خلق الرأس بمنى. وأصل الباب الاستمرار.

والرؤوس جمع رأس يقال: رأس يرأس رأسه، وترأس ترأسا، ورأسه ترئيسا. والرأس أعلى كل شئ، الرواسي العظيم الرأس فوق قدره، وكلبة رؤس: وهي التي تساور رأس الصيد. وسحابة رأيسة: وهي التي تتقدم السحاب.

ورجل مرعوس إذا أصابه البرسام في رأسه. ورأس فلان فلانا إذا ضربه على رأسه. وأصل الباب الرأس.

وقوله: " حتى يبلغ الهدى محله " معناه حتى ينتهى إليه، يقال: بلغ يبلغ بلوغا، وأبلغه إبلاغا، وبلغه تبليغا، وبالغ مبالغة، وتبالغ تبالغا، وتبلغ تبلغا، وبلغ الرجل بلاغة اذا صار بليغا. والبلغة: القوت. وأصل الباب البلوغ، وهو

(١٥٨)

الانتهاء فمنه البلاغة، لانها تبلغ بالمعنى إلى القلب.

المعنى وقيل في محل الهدى قولان: أحدهما - ما روى عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وعطا: أنه الحرم فاذا ذبح به يوم النحر أحل.

والثاني - قال مالك: إنه الموضع الذي صد فيه، وهو المكان الذي يحل نحره فيه قال. لان النبي (صلى الله عليه وآله) نحر الهدى، وأمر أصحابه فنحروا بالحديبية. وعندنا:

أن الاول حكم المحصر بالمرض، والثاني حكم المحصور بالعدو، وروى أيضا أن محله منى إن كان في الحج، وإن كان في العمرة فمكة.

وقوله تعالى: " فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه " فالأذى كلما تأذيت به. ورجل آذ إذا كان شديد التأذي تقول: آذى يأذى أذى. وأصله الضرر بالشئ، وروى أصحابنا أن هذه الآية نزلت في إنسان يعرف بكعب بن عجرة.

الآية، لكنها محمولة على جميع الأذى.

وقوله " ففدية من صيام أو صدقة أو نسك " فالذي رواه أصحابنا أن الصيام ثلاثة أيام أو صدقة ستة مساكين. وروى عشرة مساكين. والنسك شاة. وفيه خلاف بين المفسرين. وروى عن كعب بن عجرة الانصاري، ومجاهد، وعلقمة، وإبراهيم، والربيع، واختاره الجبائي: مثل ما قلناه: إن الصوم ثلاثة أيام والاطعام لستة مساكين. وقال الحسن وعكرمة: صوم عشرة أيام أو إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع بلا خلاف. ولم يختلفوا في النسك أنه شاة. والنسك: جمع نسيكة، ويجمع أيضا نسائك، كصحيفة وصحائف وصحف.

وقوله " فاذا أمنتم " معناه أمنتم أن يحصركم العدو أو أمنتم المرض " فمن تمتع بالعمرة إلى الحج "، ففرض التمتع - عندنا - هو اللازم لكل من لم يكن من حاضري المسجد الحرام، وحد حاضري المسجد الحرام: من كان على إثني عشر ميلا

(١٥٩)

من كل جانب إلى مكة، ثمانية وأربعين ميلا، فما خرج عنه فليس من الحاضرين، لا يجوز له مع الامكان غير التمتع، وعند الضرورة، يجوز له القران والافراد. ومن كان من حاضري المسجد الحرام، لايجوز له التمتع، وإنم فرضه القران أو الافراد على ما نفسره في القران والافراد، وسياق التمتع أن يحرم من الميقات في أشهر الحج وهي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، ثم يخرج إلى مكة، فيطوف بالبيت، ويسعى بين الصفا والمروة، ويقصر، ثم ينشئ إحراما آخر بالحج من المسجد الحرام، ويخرج إلى عرفات، ويقف هناك، ويفيض إلى المشعر، ويغدوا منها إلى منى، ويقضى مناسكه هناك، ويدخل في يومه إلى مكة، فيطوف بالبيت طواف الزيارة، ويسعى بين الصفا والمروة، ويطوف طواف النساء، وقد أحل من كل شئ ويعود إلى منى، فبيت ليالي بها، ويرمي الجمار في ثلاثة أيام - على ما شرحناه في النهاية، والمبسوط - وفي بعض ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف وللمفسرين في التمتع أربعة أقوال: فالاول رواه أنس بن مالك: أن النبي (صلى الله عليه وآله) أهل بعمرة وحجة، وسموه قارنا، وأنكر ذلك ابن عمر، والثاني روى ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وعطاء، واختاره الجبائي: وهو أن يعتمر في أشهر الحج ثم يأتي مكة، فيطوف، ويسعى، ويقصر ثم يقيم حلالا إلى يوم التروية، أو يوم قبله، فيهل فيه بالحج من مكة، ثم يحج. وهذا مثل ما قلناه سواء. وقال البلخي: إن هذا الضرب كرهه عمر، ونهى عنه، وكرهه ابن مسعود. الثالث - هو الناسخ للحج بالعمرة رواه جابر بن عبدالله، وأبوسعيد الخدري: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمرهم - وقد أهلوا بالحج، لاينوون غيره - أن يعتمروا ثم يحلوا إلى وقت الحج. هذا عندنا جائز أن يفعل. وروي عن أبي نذر: أنها كانت لاصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) خاصة.

وكذلك يقولون: إن عمرا أنكر هذه المتعة.

الرابع - قال ابن الزبير: إن المحصر اذا دخل مكة بعد فوت الحج، تمتع بالعمرة، لانه يحل بها إلى وقت الحج، وكذلك من اعتمر في غير أشهر الحج ثم حج تلك السنة، فهو المتمتع، ولا هدي عليه. وهذا عندنا فاسد بما قدمناه.

(١٦٠)

وقوله تعالى: " فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتكم " فالهدي واجب على المتمتع بلا خلاف، لظاهر التنزيل، على خلاف فيه أنه نسك أو جبران، فعندنا أنه نسك، وفيه خلاف فان لم يجد الهدي ولا ثمنه، صام ثلاثة أيام في الحج، وعندنا أن وقت صوم الثلاثة أيام: يوم قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة، فان صام في أول العشرة جاز ذلك رخصة. وإن صام يوم التروية ويوم عرفة قضى يوماً آخر بعد التشريق فان قاته يوم التروية صام بعد القضاء من التشريق ثلاثة أيام متتابعات. وروي عن ابن عباس، وابن عمر، والحسن، ومجاهد: أنه يجوز ما بين إحرامه في أشهر الحج إلى يوم عرفة. واستحبوا أن يكون يوماً قبل التروية، ويوم عرفة. ووقت صوم السبعة أيام إذا رجع إلى أهله، وبه قال عطاء، وقتادة. وقال مجاهد: إذا رجع عن حجه في طريقه. فأما أيام التشريق، فلا يجوز صومها عندنا، وبه قال جماعة من المفسرين، واختاره الجبائي، لنهي النبي (صلى الله عليه وآله) عن صوم أيام التشريق. وروي عن ابن عمر، وعائشة جواز ذلك.

وقوله: " تلك عشرة كاملة " اختلفوا في معناه، فقال الحسن، والجبائي، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) أن المعنى كاملة من الهدي أي اذا وقعت بدلا منه، استكملت ثوابه.

الثاني - ما ذكره الزجاج، والبلخي أنه لازالة الإيهام لئلا يظن أن (الواو) بمعنى (أو) فيكون كأنه فصيام ثلاثة أيام في الحج سبعة أيام اذا رجعتكم، لانه اذا استعمل (أو) بمعنى (الواو) جاز أن يستعمل (الواو) بمعنى (أو) كما قال: " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع " والمراد " أو " فذكر ذلك لارتفاع اللبس.

الثالث - قاله المبرد: إنه أعاد ذلك للتأكيد قال الشاعر:

ثلاث واثنان فهن خمس * وسادسة تميل إلى شمام (١)

" ١ " في مجمع البيان نسبه إلى جرير ولم أجده في ديوانه. في المطبوعة " شمام " بدل " شمام " " واثنان " بدل " اثنان " .

(١٦١)

اللغة:

وتقول: ثلاثت القوم أثلاثهم، فأنا ثالثهم، وربما قالوا: ثلاثت الرجلين أي صرت لهما ثالثا. والثلاث جزء من ثلاثة. والمثلث: شكل على ثلاثة أضلاع. والمثلوث:

ما أخذ ثلثه. والثلاثاء: اليوم الثالث من الاحد. والثلاثي: ما نسب إلى ثلاثة أشياء، وأصله الثلاثة من العدد.

وأهل الرجل: زوجته. والمتأهل: المتزوج. وأهل الرجل: أخص الناس به. وأهل البيت: سكانه. وأهل الاسلام: من تدين به. وأهل القرآن: من يقرأه، ويقوم بحقوقه. وأهلته لهذا الامر أي جعلته أهلا له. والاهلي: خلاف البري. وقولهم مرحبا وأهلا أي اختصاصا بالتحية، والتكرمة.

المعنى:

وقد بينا أن (أهل حاضري المسجد الحرام) من كان من بينه وبينها إثنا عشر ميلا من أربع جوانبها. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: إنهم أهل الحرم، فروي في أخبارنا أيضا ذلك. وقال مكحول: وعطا: من بين مكة، والمواقيت.

وقيل: ثم أهل الحرم، ومن قرب منزله منها، كأهل عرفة، ذهب اليه الزهري ومالك.

اللغة:

وقوله تعالى: " واعلموا أن الله شديد العقاب " تقول: عقب الشيء يعقب بمعنى خلف بعد الاول. وأعقب إقبابا، وتعقب الرأي تعقبا. " والعاقبة للمتقين " (١)

أي الآخرة. ونرد على أعقابنا أي نعقب بالشر بعد الخير. والعقبة: ركوب أعقبه المشي. " له معقبات " (٢): ملائكة الليل تخلف ملائكة النهار. وعقب الانسان:

" ١ " سورة الاعراف آية: ١٢٧.

" ٢ " سورة الرعد آية: ١٢.

(١٦٢)

نسله، وعقبة، مؤخر قدمه. والعقبة: المصعد في الجبل. والعقب: الصعب. والعقاب: الطائر. واليعقوب: ذكر القبج. " ولا معقب لحكمه " أي لا راد لقضائه. وأصل الباب: العقب: الخلف بعد الاول.

قوله تعالى:

ألحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولي الالباب (١٩٧) آية بلا خلاف.

القرائة:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو " فلا رفث ولا فسوق " بالرفع، " ولا جدال " بالنصب. الباقون بالنصب فيهن تقدير الآية: أشهر الحج أشهر معلومات، فحذف المضاف، وأقام المضاف اليه مقامه. وأشهر الحج - عندنا - شوال، وذو القعدة، وعشر من الحجة، على ما روي عن أبي

جعفر (ع) وبه قال ابن عباس، وابن عمر، وإبراهيم، والشعبي، ومجاهد، والحسن، واختاره الجبائي. وقال عطاء، والربيع، وابن شهاب، وطاووس: أشهر الحج شوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

وروي ذلك في أخبارنا، وإنما هذه أشهر الحج، لان الاحرام بالحج لا يصح أن يقع إلا فيها - بلا خلاف - وعندنا - أن الاحرام بالعمرة التي يتمتع بها لا يقع أيضا إلا فيها. ومن قال: إن جميع ذي الحجة من أشهر الحج، قال: لان جميع ذي الحجة يصح أن يقع فيه شيء من أفعال الحج، مثل صوم الثلاثة أيام، فانه يصح أن يقع في جميع ذي الحجة، وكذلك يصح أن يقع ذبح الهدي فيه. وقال قوم: إن المعنى واحد في قول الفريقين. وقال آخرون: هو مختلف من حيث أن الثاني معناه: أن العمرة لا ينبغي أن تكون في الأشهر الثلاثة على الكمال، لانها أشهر الحج، والاول على أنها لا ينبغي أن تكون في شهرين وعشر من الثالث،

(١٦٣)

فقد روي عن ابن عمر: ان تفصلوا بين الحج والعمرة، فتجعلوا العمرة في غير أشهر الحج، أتم لحج أحدكم وأتم لعمركم. وروي ذلك عن القاسم بن محمد عن ابن شهاب عن عبد الله، وابن سيرين. وقد بينا مذهبنا في ذلك. فان قيل كيف جمع شهرين، وعشرة أيام ثلاثة أشهر؟ قلنا: لانه قد يضاف الفعل إلى الوقت وإن وقع في بعضه.

ويجوز أن يضاف الوقت إليه كذلك، كقولك: صليت صلاة يوم الجمعة، وصلاة يوم العيد وإن كانت الصلاة في بعضه. ويقال أيضا: قدم زيد يوم كذا، وخرج يوم كذا وان كان قدومه أوخروجه في بعضه، فكذلك جاز أن يقال: شهر الحج ذو الحجة، وإن كان في بعضه، وإنما يفرض فيهن الحج، بأن يحرم فيهن بالحج - بلا خلاف - أو بالعمرة التي يتمتع بها بالحج - عندنا خاصة - وفي الاحرام بالحج وافقنا فيه ابن عباس، والحسن، وقتادة. وقال ابن عمر، ومجاهد: إنما يفرض فيهن بالتلبية. وقال بعض المتأخرين: يفرض بالعزم على أعمال الحج. الاعراب:

ولا يجوز نصب أشهر - في العربية - على ما بيناه من المعنى من أن تقديره أشهر " الحج أشهر معلومات " أو وقت " الحج أشهر معلومات " وقد أجازوا الحج شهر ذي الحجة، لانه معرفة كما تقول العرب: المسلمون جانب، والكفار جانب بالرفع، فاذا أضافوا نصبوا، فقالوا: المسلمون جانب أرضهم، والكفار جانب بلادهم. وانما جاز ذلك، لان النكرة لما جاءت على شرط الخبر: في كونه نكرة من حيث كانت الفائدة فيه، ورفعت بأنها خبر الابتداء فلا صارت معرفة، والخبر يطلب النكرة نصبت ليصح تقدير الاستقرار الذي هو نكرة كأنك قلت: الكفار مستقرون جانب بلادهم، ففائدة الاول من جانب، وفائدة الثاني في مستقر.

المعنى:

وقوله تعالى: " فلا رفث " فالرفث هاهنا - عند أصحابنا - كناية عن الجماع وهو قول ابن مسعود، وقتادة. وأصله الافحاش في النطق كما قال العجاج:

(١٦٤)

عن اللغا ورفث التكلم (١)

وقيل الرفث بالفرج: الجماع، وباللسان: المواعدة للجماع، وبالعين: الغمز للجماع. وقال ابن عباس، وابن عمر وعطا: المراد هاهنا: المواعدة للجماع، والتعريض للنساء به. وقال الحسن: الجماع، والتعرض له بمواعدة أو مداعبة كله رفث.

وقوله تعالى: " ولا فسوق روى أصحابنا: أنه أراد الكذب. والاولى أن نحمله على جميع المعاصي التي نهى المحرم عنها، وبه قال ابن عمر. وقال الحسن:

المعاصي نحو القذف وشبهه، وقال ابن عباس ومجاهد وعطا: هو جميع المعاصي مثل ما قلناه. وقال بعضهم لا يجوز أن يكون المراد إلا ما نهى عنه المحرم هاهنا، مما هو حلال له في غير الاحرام، لاختصاصه بالنهاي عنه وهذا غلط، لانه تخصيص للعموم بلا دليل، وقد يقول القائل: ينبغي أن تقيد لسانك في رمضان لثلايطل صومك، فيخصه بالذكر لعظم حرمة. وقوله: " ولا جدال في الحج " فالذي رواه أصحابنا: أنه قول: لا والله وبلى والله صادقا، وكاذبا. وللمفسرين فيه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وابن مسعود، والحسن: أنه لامراء بالسباب والاعصاب على جهة المحك، واللجاج.

الثاني - قال مجاهد والسدي: إنه لا جدال في أن الحج قد استدار (٢)

في ذي الحجة، لانهم كانوا ينسون الشهور فيقدمون ويؤخرون، فربما اتفق في غيره. اللغة:

وأما اشتقاقه في اللغة فالجدال والمجادلة، والمنازعة، والمشاجرة، والمخاصمة

" ١ " مر تخريجه في ٢: ١٣٢.

" ٢ " في المطبوعة (اسناد) ومعنى اسناد: أي؟ معه كيف دار.

(١٦٥)

واحد، وتقول: جدلت الحبل أجده وأجده جدلا: إذا فنتته، وجادلت الرجل مجادلة وجدالا: إذا خاصمته، وتجادلا تجادلا. وجدلته تجديلا: إذا ألقيته على الارض. وتجدل تجدلا وانجدل

انجدالا. والجديل: زمام البعير. والجدول: نهر صغير. والمجدل: القصر. والجدالة: الارض ذات الرمل الرقيق. والاجدل:

الصقر، وكل مفتول: مجدول. وغلام جادل: إذا ترعرع واشتد. والجديلة: شريحة الحمام. ورجل أجدل المنكب: فيه تطأطؤ، بخلاف الاشراف من المناكب. وأصل الباب: الفتل، والجدال: القتال. الاعراب:

ومن نصب (الثلاثة) أخرج اللفظ مخرج عموم النفي للمبالغة في معنى النفي. ومن رفع بعضا ونصب بعضا، فلاختلاف المعنى، لان الاول على معنى النهي، والثاني بمعنى الاخبار عن زمان الحج: قد استدار في ذي الحجة، فكان أحق بالنصب، لعموم النفي. فأما الاول، فقد يقع من الخاطئ، فلا يصح فيه عموم النفي. هذا قول النحويين. والصحيح أن الكل معناه النهي، وان خرج مخرج النفي، والاخبار. والمراد به النهي بلا خلاف. المعنى:

وقوله تعالى: " وما تفعلوا من خير يعلمه الله " معناه وما تفعلوا من خير يجازكم الله العالم به، لان الله عالم على كل حال، إلا أنه جعل " يعلمه " في موضع يجازيه للمبالغة في صفة العدل، لانه يعاملكم معاملة من يعلمه إذا ظهر منكم، فيجازي به، وذلك تأكيد أن الجزاء لا يكون إلا بالفعل دون ما يعلم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه.

وقوله: " وتزودوا فان خير الزاد التقوى " قيل في معناه قولان: أحدهما - قال الحسن، وقتادة، ومجاهد: أن قوما كانوا يرمون بازوادهم، ويتسمون بالمتوكلة، فقيل لهم تزودوا من الطعام، ولا تلقوا كلكم على الناس،

(١٦٦)

وخير الزاد مع ذلك التقوى. والثاني - " تزودوا " من الاعمال الصالحات " فان خير الزاد التقوى "، فذكر ذلك في الحج، لانه أحق شئ بالاستكثار من أعمال البر فيه، والزيد: وعاء يجعل فيه الزاد. وكل من انتقل بخير من عمل أو كسب، فقد تزود منه تزودا. وقوله: " واتقون يا أولي الالباب " يعني ياذوي العقول، لان اللب العقل، وإنما سمي لبا لانه أفضل ما في الانسان. وأفضل كل شئ لبه. قوله تعالى:

ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين (١٩٨) آية واحدة بلا خلاف. هذه الآية فيها تصريح بالأذن في التجارة، ونحوها في حال الاحرام، لانهم كانوا يتخرجون بذلك في صدر الاسلام على قول ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله (ع).
اللغة والاعراب:

والجناح هو الجرح في الدين، وهو الميل عن الطريق المستقيم، وأصله الميل - على ما مضى القول فيه -.

وقوله: " فإذا أفضت من عرفات " يعني دفعتم من عرفه إلى المزدلفة عن اجتماع، كفيض الاناء عن امتلائه، تقول: فاض الماء يفيض فيضا: إذا انصب عن امتلاء، وأفاض إفاضة في الحديث: إذا اندفع فيه. واستفاض الخبر إذا شاع. والافاضة الضرب بالقداح. وفيض الصدر بما فيه: البوح به. والافاضة: امتلاء الحوض حتى يفيض. ورجل فياض: جواد. ودرع مفاضة، وفيوض إذا كانت واسعة (١).

" ١ " في المطبوعة " سا؟ " والصحيح ما أثبتناه.

(١٦٧)

وفيض البصرة: نهرها. وأصل لباب:؟: الانصباب عن الامنا و " عرفات " صرفت وإن كان فيها التعريف، والتأنيث، لأنها على حكاية الجمع، كما يجب أن يحكى المذكر إذا سمي به الجمع، ويجوز فيها ترك الصرف تشبيها بالواحد فيسقط التنوين ويسقط الاعراب كما كان في الجمع كقول امرء القيس:

تتورتها من أذرعات وأهلها * بيثرب أدنى دارها نظر عالي (١)

والاول اختيار النحويين، وقد أجاز بعضهم فتح التاء بغير تنوين على قياس طلحة، وأنشدوا البيت على ثلاثة أوجه (أذرعات) - منونا مكسورا - ومجرورا بلا تنوين - ومفتوحا بلا تنوين - وأنكر الزجاج الوجه الثالث.

والمشعر هو معلم المتعبد. وقال المبرد: المشعر - بفتح الميم والعين - مكان الشعور، كالمدخل لمكان الدخول. والمشعر - بكسر الميم - الحديد التي يشعر بها أي يعلم بها. فكسرت، لأنها آلة كالمخرز، والمقطع، والمخيطة. وقال: الكسائي:

لا فرق بين الفتح والكسر.

المعنى:

و " المشعر الحرام " هو المزدلفة: وهو جمع بلا خلاف. وسميت عرفات عرفات، لان إبراهيم (ع) عرفها بما تقدم له من النعت لها، والوصف، على ما روي عن علي (ع) وابن عباس. وقال عطاء، والسدي، وقد روي ذلك في أخبارنا: أنها سميت بذلك، لان آدم وحواء اجتمعا فيه، فتعارفا بعد أن كانا افتراقا. وقيل: سميت عرفات لعلوه وارتفاعه، ومنه عرف الديك. ووجه التشبيه في قوله " واذكروه كما هداكم " أن الذكر بالشكر، والثناء يجب أن يكون بحسب الانعام، والهداية في العظمة لانه يجب أن يكون الشكر

" ١ " ديوانه ١٤٠. وهو من قصيدته الرائعة المشهورة. والضمير في تنورتها عائد للمرأة التي بذكرها، وتنور النار: رآها من بعيد، جعل المرأة تضيء له كما تضيء النار المشبوبة. وأذرعاع: بلد في الشام، ويثرب: مدينة الرسول " ص ". يقول: لاح لي نورها وأنا في أذرعاع وهي بيثرب ثم يقول: قرب مكانها مني نظر نظرته نحو جو السماء.

(١٦٨)

كالنعمة في عظم المنزلة كما يجب أن يكون على مقدارها لو صغرت النعمة، ولا يجوز التسوية في الشكر بين من عظمت نعمته ومن صغرت. الاعراب:

وقوله: " وإن كنتم من الضالين " معنى (إن) هاهنا المخففة من الثقيلة بدلالة دخول لام الابتداء معها، وإذا خففت لم تعمل. وجر دخولها على الاسم، والفعل، كقوله تعالى: " وإن كل لما جميع لدينا محضرون " (١). وأما " كنتم " فلا موضع لها من الاعراب، لأنها بعد حرف غير عامل. وليس " لان " موضع كما ليس لها موضع في الابتداء. وأما هذه الواو عطف جملة على جملة.

وروي جابر عن أبي جعفر (ع) قال: " لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلا من ربكم " معناه أن تطلبوا المغفرة. قوله تعالى:

ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (١٩٩) آية بلا خلاف. المعنى:

قيل في معنى هذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وعائشة، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع، وهو المروي عن أبي جعفر (ع): أنه أمر لقريش وخلفائهم، لانهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفة،

ولايفيضون منها، ويقولون: نحن أهل حرم الله لا نخرج عنه، فكانوا يقفون بجمع ويفيضون منه، دون عرفة، فأمرهم الله تعالى أن يفيضوا من عرفة بعد الوقوف بها. والثاني - قال الضحاك، والجبائي وحكاه المبرد، لكنه اختار الأول، لأنه

" ١ " سورة يس آية ٣٢.

(١٦٩)

خطاب لجميع الحاج أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم (ع) من المزدلفة. والاول إجماع، وهذا شاذ، وليس لاحد أن يقول على الوجه الاخر: كيف يقال لابراهيم وحده الناس، وذلك أن هذا جائز كما قال: " الذين قال لهم الناس " (١) وإنما كان واحدا بلا خلاف: وهو نعيم بن مسعود الاشجعي، وذلك مستعمل. وقيل إن إبراهيم لما كان إماما، كان بمنزلة الامة التي تتبع في سنة.

فان قيل: إذا كانت (ثم) للترتيب، فما معنى الترتيب هاهنا؟ قلنا: الذي رواه أصحابنا أن هاهنا تقديمًا، وتأخيرًا. وتقديره " وليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم " ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس " فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام " واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ". وقال قوم:

المعنى " ثم أفيضوا " من المزدلفة. والذي أجاب به المتأولون: أن قالوا: رتبت الافاضة بعد المعنى الذي دل الكلام الاول عليه، كأنه قيل: أحرموا بالحج على ما بين لكم " ثم أفيضوا " يا معشر قريش " من حيث أفاض الناس " بعد الوقوف بعرفة. وهذا قريب مما قلناه. وإنما عدل الذي تأوله على الافاضة من المزدلة، لانه رآه بعد قوله، فإذا أفضتكم من عرفات، قال: فأمرؤا أن يفيضوا من المزدلفة بعد الوقوف بها، كما أمرؤا في عرفة، وقد بينا ترتيب الكلام في التأويل المختار. والاستغفار هو طلب المغفرة، كما أن الاستخبار: طلب السؤال. والمغفرة: التغطية للذنب بايجاب المثوبة. وقيل في معنى الاستغفار قولان: أحدهما - الحض عليه في تلك المواطن الشريفة، لانها خليفة بالاجابة. الثاني - استغفروه لما سلف من مخالفتكم في الوقوف والافاضة، كما سنه الله تعالى للناس عامة. والفرق بين غفور وعاقر أن في غفور مبالغة لكثرة المغفرة، فأما عاقر، فيستحق الصفة فيه بوقوع الغفران. والعفو هو المغفرة. وقد فرق بينهما بأن العفو ترك العقاب على الذنب، والمغفرة تغطية الذنب بايجاب المثوبة. ولذلك كثرت المغفرة في صفات الله تعالى: دون صفات العباد، فلا يقال: استغفر السلطان كما يقال: استغفروا الله.

" ١ " سورة آل عمران آية ١٧٢.

(١٧٠)

قوله تعالى:

فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذاكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق (٢٠٠) آية بلا خلاف المعنى:

قوله تعالى: " فاذا قضيتم " معناه فرغتم منها. وأصل القضاء: فصل الامر على أحكام. وقد يفصل بالفراغ منه كقضاء المناسك وقد يفصل بالعمل له على تمام كقوله " فقضاهن سبع سموات في يومين " (١) وقد يفصل بالاحبار على القطع كقوله تعالى: " وقضينا إلى بني اسرائيل " (٢) قد يفصل بالحكم كقضاء القاضي على وجه الالتزام بالقهر. والمناسك المأمور بها هاهنا جميع أفعال الحج المتعبد بها في قول الحسن وغيره من أهل العلم - وهو الصحيح - وقال مجاهد: هي الذبائح. وقوله " فاذكروا الله " فالذكر هو العلم. وقيل: هو حضور المعنى للنفس بالقول أو غيره مما هو كالعلة، لحضوره بها. وقيل: المراد به هاهنا التكبير أيام منى لانه الذكر الذي يختصه بالترغيب فيه على غيره من الاوقات. وقيل أيضا: إنه سائر الدعاء لله تعالى في ذلك المواطن، لانه أفضل من غيره - وهو الاقوى - لانه أعم. وقوله: " كذكركم آباءكم " معناه ما روي عن أبي جعفر " ع " أنهم كانوا يجتمعون، يتفخرون بالآباء، وبمآثرهم، ويبالغون فيه. وقوله " أو أشد ذكرا " إنما شبه الواجب بما هو دونه في الوجوب، لامرین: أحدهما - أنه خرج على حال لاهل الجاهلية كانت معتادة: أن يذكروا آباءهم بأبلغ الذكر على وجه التفاخر، فقيل: اذكروا الله كالذكر الذي كنتم تذكرون به آباءكم في المبالغة، أو أشد ذكرا

" ١ " سورة حم السجدة آية ١٢.

" ٢ " سورة الاسراء آية: ٤.

(١٧١)

بما له عليكم من النعمة. هذا قول أنس، وأبي وائل، والحسن، وقتادة. والثاني - قال عطا: أذكروه بالاستعانة به، كذكركم آباءكم: الصبي لآبيه إذا قال: يا أباه. والاول هو المعتمد. الاعراب:

وإنما نصب " ذكرا " ولم يخفض كما يخفض في قولهم هذا الذكر أشد ذكرا، لانه فيه ضميرا منهم نظير قولك: هم أشد ذكرا، وفي أشد ضميرهم، ولو قلت مررت به أشد ذكرا لكان منصوبا على الحال فأما الذكر، فعلى التمييز. المعنى:

فان قيل الامر بالذكر هاهنا بعد قضاء المناسك أو معه؟ قيل: أجاز أبو على الوجهين، واستشهد بقولهم: إذا وقفت بعرفات فادع الله، وإذا حججت، فطف بالبيت.

والخلاق: النصيب من الخير، وأصله التقدير، فهو النصيب من الخير على وجه الاستحقاق.
قوله تعالى:

ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقفنا عذاب النار (٢٠١) آية
واحدة.

الاعراب:

" ربنا " منصوب، لأنه منادى وتقديره: يا ربنا. وإنما حذف حرف النداء، لما كان أصله تنبيه
المنادى، ليقبل عليك، وكان الله عزوجل لا يغيب عنه شيء - تعالى عن ذلك -، سقط حرف
النداء للاستغناء عنه. فأما يا الله اغفرلي، فيجوز أن يخرج مخرج التنبيه للتأكيد: أن يقبل
عليك برحمته، ولأنك تسأله سؤال المحتاج أن ينبهه على حالة، لأن ذلك أبلغ في الدعاء،
وأحسن في المعنى.

(١٧٢)

اللغة:

والفرق بين القول والكلام: أن القول يدل على الحكاية، وليس كذلك الكلام، نحو قال: الحمد
لله، فإذا أخبرت عنه بالكلام قلت تكلم بالحق، والحكاية تكون على ثلاثة أوجه: حكاية على
اللفظ والمعنى، وحكاية على اللفظ فقط، وحكاية على المعنى فقط، فالاول نحو " أتوني أفرغ
عليه قطرا " (١) إذا حكاه من يعرف لفظه ومعناه. والثاني - إذا حكاه من يعرف لفظه دون
معناه. الثالث - نحو أن يقول: أتوني أفرغ عليه نحاسا، فيكون حكاه على معناه دون لفظه.
المعنى:

وقوله " آتانا " معناه: أعطنا، فالآتيان الاعطاء. وأصله الآتي، والمجئ، فآتي إذا كان منه
المجئ، فآتي إذا حمل غيره على المجئ، كما يقال: آتاه ما يحب، وآتاه غيره ما يحب.
والحسنة التي سألوها قيل في معناها قولان:

أحدهما - قال قتادة، والجبائي، وأكثر المفسرين: إنه نعم الدنيا، ونعم الآخرة.

الثاني - قال الحسن: العبادة في الدنيا، والجنة في الآخرة، وسميت نعمة الله حسنة، لأنها مما
تدعو إليه الحكمة. وقيل: الطاعة والعبادة حسنة، لأنها مما يدعوا إليه العقل.

اللغة:

وقوله تعالى: " وقفنا عذاب النار " فالوقاء: الحاجز الذي يسلم به من الضرر.

يقال وقاه يقيه وقاء، ووقاية. وتوقى هو توعية وأصل الوقاء الحجز بين الشئيين.

وأصل قنا: أوقنا مثل حملنا، فذهبت الواو لسقوطها في بقي، لوقوعها بين ياء وكسرة ثم أتبع
سائر تصاريف الفعل ما لزمته العلة، وسقط ألف الوصل للاستغناء

(١٧٣)

عنها بتحريك ما بعدها، وحذفت الياء، للوقف الذي هو نظير الجزم.
والفائدة في الاخبار عنهم بهذا الدعاء، الاقتداء بهم فيه، لانه لما حذر من الدعاء الاول رغب
في الثاني.

قوله تعالى:

أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب (٢٠٢)

آية بلا خلاف.

الاعراب:

" أولئك " رفع بالابتداء وخبره لهم نصيب. ومعناه أولئك لهم نصيب من كسبهم باستحقاقهم
الثواب عليه.

اللغة:

والنصيب: الحظ، وجمعه أنصباء وأنصبة. وحد النصيب الجزء الذي يختص به البعض من
خير أو شر.

والكسب: الفعل الذي يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر. وتقول: نصب ينصب نصبا، ونصب
نصبا من التعب، وأنصبتني هذا إنصابا. وانتصب الشيء انتصابا.

وناصبه العداوة مناصبة. والنصب إقامة الشيء. والنصب: الرفع. ونصب القوم السير: إذا
رفعوه. وكل شيء رفعته، فقد نصبته، ومنه نصب الحرف، لان الصوت يرفع فيه إلى الغار
الاعلى. والنصب بتغير الحال من مرض أو تعب. والنصب: جمع أنصاب وهي حجارة كانت
تنصب في الجاهلية، ويطاف بها، ويتقرب عندها وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله: " وما
ذبح على النصب " (١) وقال: " والأنصاب والأزلام " (٢). وأنصاب الحرم حدوده، وهي
حجارة تنصب، ليعرف بها

" ١ " سورة المائدة آية: ٤.

" ٢ " سورة المائدة آية: ٦٣.

(١٧٤)

الحرم. ونصاب السكين، وغيره معروف، وفلان في نصاب صدق: في حسب ثابت.

والنصبة: السارية. والمنصب الذي ينصب عليه القدور. وكل شئ استقبلت به شيئاً، فقد نصبته. وأصل الباب القيام.

وقوله تعالى: " والله سريع الحساب " يعني في العدل من غير حاجة إلى خط ولا عقد، لانه (عزوجل) عالم به. وإنما يحاسب العبد مظهرة في العدل، وإحالة على ما يوجب الفعل من خير أو شر. والسرعة هو العمل القصير المدة. وتقول: سرع سرعة، وأسرع في المشي إسراعاً، وسارع اليه مسارعة، وتسرع تسرعاً، وتسارع تسارعاً، وأقبل فلان في سرعان قومه أي في أوائلهم المتسرعين.

واليسروع: دويبة تكون في الرمل. وأصل الباب: السرعة.

وتقول من الحساب: حسب الحساب يحسبه حساباً، وحسب الشئ حساباً، وحاسبه محاسبة، وحساباً، وتحاسبوا تحاسباً، واحتسب احتساباً، وأحسبني من العطاء إحساباً، وأي كفاني " وعطاء حساباً " (١) أي كافياً. والحسبان سهام صغار.

وقيل منه " ويرسل عليها حساباً من السماء " (٢). وقيل عذاباً. والمحسبة وسادة من آدم. والمحسبة غبرة مثل كدرة. وحسب الرجل مآثر آباءه. وأفعل ذلك بحسب ما أوليتني. وحسبي أي يكفيني " ويرزق من يشاء بغير حساب " (٣) أي بغير تضيق " والشمس والقمر بحسبان " (٤) أي قدر لهما مواقيت معلومة لا يعدونها.

والتحسيب: دفن الميت يجب الحجارة (٥) وأصل الباب: الحساب، والحسيان:

الظن، لانه كالحساب في الاعتداد به، والعمل به على بعض الوجوه. وروي عن علي (ع) أنه قال: معناه إنه يحاسب الخلق دفعة كما يرزقهم دفعة. قوله تعالى:

واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا

" ١ " سورة النبأ آية: ٣٦. " ٢ " سورة الكهف آية: ٤١.

" ٣ " سورة البقرة آية: ١١٢. " ٤ " سورة الرحمن آية: ٥.

" ٥ " هكذا في المطبوعة وفي لسان العرب (حسب) التحسيب دفن الميت في الحجارة

(١٧٥)

إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون (٢٠٣) آية بلا خلاف.

المعنى:

هذا أمر من الله تعالى للمكفين أن يذكروا الله في الايام المعدودات: وهي أيام التشريق: ثلاثة أيام بعد النحر، وهو قول ابن عباس، والحسن ومالك. والايام المعلومات: عشر ذي الحجة، وهو قول ابن عباس أيضا، وذكر الفراء: أن المعلومات:

هي أيام التشريق، والمعدودات العشر. وفيه خلاف ذكرناه في اختلاف الفقهاء.

وسميت معدودات لانها قلائل، كما قال: " وشروه بثمان بخرس دراهم معدودة " (١) أي قليلة. والجمع بالالف والتاء يصلح للقليل والكثير، والقليل أغلب عليه. وأنكر الزجاج ما يروي في قول حسان:

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحى * وأسيافنا يقطن من نجدة دما (٢)

من أنه عيب عليه، وزعم أن الخبر موضوع، وقال الالف والتاء يصلح للكثير قال الله تعالى: " وهم في الغرفات آمنون " (٣) وقال: " إن المتقين في جنات وعيون " (٤) وإنما احتمل هذا الجمع القليل والكثير، لان جمع السلامة على طريقة واحدة لا يتميز فيه قليل من كثير، وكان القليل أغلب عليه، لشبهه بالتثنية.

والاية تدل على وجوب التكبير في هذه الايام، وهو أن يقولوا: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد. وبه قال الحسن والجبائي، وزاد أصحابنا على هذا القدر: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا

" ١ " سورة يوسف آية: ٢٠.

" ٢ " ديوانه: ٦٩. الجففات جمع جفنة وهي الفصعة الكبيرة، والغر: البيض. وهذا البيت قيله ان حسان قد فاز به في بعض السنين بسوق عكاظ وقد أعابته الخنساء في الجففات لانها جمع قلة وفي الغر لانه لا يدل على أن القصاعي ممتلأ طعاما، وعلى قوله: يقطن، ولم يقل يجرين.

" ٣ " سورة سبأ آية: ٣٧. " ٤ " سورة الحجر آية: ٤٥.

(١٧٦)

ورزقنا من بهيمة الانعام. وأول التكبير - عندنا - لمن كان بمنى، عقيب الظهر من يوم النحر إلى فجر يوم الرابع من النحر: عقيب خمسة عشرة صلاة، وفي الامصار عقيب الظهر من يوم النحر إلى عقيب فجر يوم الثاني من التشريق: عقيب عشر صلوات، واختار الجبائي من صلاة الغداة من يوم عرفة إلى صلاة العصر آخر يوم التشريق. وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف.

وقوله تعالى: " فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه ".

المعني في ذلك الرخصة في جواز النفر في اليوم الثاني من التشريق وإن أقام إلى النفر الاخير، وهو اليوم الثالث من التشريق، كان أفضل، فان نفر في الاول، نفر بعد الزوال إلى الغروب، فان غربت فليس له أن ينفر. وقال الحسن إنما له أن ينفر بعد الزوال إلى وقت العصر، فان أدركته صلاة العصر، فليس له أن ينفر إلا يوم الثالث وليس للامام أن ينفر في النفر الاول، وبه قال الحسن.

وقوله تعالى: " فلا إثم عليه " قيل فيه قولان: أحدهما - لا إثم عليه لتكفير سيئاته بما كان من حجه المبرور وهو معنى قول ابن مسعود. الثاني - قال الحسن: لا إثم عليه في تعجله ولا تأخره. وإنما نفى الاثم، لئلا يتوهم ذلك متوهم في التعجل، وجاء في التأخر على مزواجة الكلام كما تقول: إن أظهرت الصدقة، فجائز. وإن أسررتها، فجائز، والاسرار أفضل.

وقوله تعالى: " لمن اتقى " قيل فيه قولان: أحدهما - لما قال " فلا إثم عليه " دل على وعده بالثواب، فقيد ذلك بالتقوى لله تعالى، لئلا يتوهم أنه بالطاعة في النفر فقط. والثاني - أنه لا إثم عليه في تعجله إذا لم يعمل لضرب من ضروب الفساد، ولكن لاتباع إذن الله فيه. وقالوا: معنى تجديد الامر بالتقوى هاهنا التحذير من الاتكال على ما سلف من أعمال البر في الحج، فبين أن عليهم مع ذلك ملازمة التقوى، ومجانبة المعاصي.

وروى أصحابنا: أن قوله " لمن اتقى " متعلق بالتعجل في اليومين، وتقديره " فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه " " لمن اتقى " الصيد إلى انقضاء النفر الاخير

(١٧٧)

وما بقى من إحرامه، ومن لم يتقها، فلا يجوز له النفر في الاول، وهو اختيار الفراء، والمروي عن ابن عباس، وروي عن أبي عبدالله (ع) في قوله تعالى " فمن تعجل في يومين " أي من مات في هذين اليومين، فقد كفر عنه كل ذنب. ومن تأخر أي أنسى أجله، فلا إثم عليه بعدها إذا اتقى الكبائر.

الاعراب:

والعامل في اللام في قوله " لمن اتقى " قيل فيه قولان: أحدهما - ذلك " لمن اتقى " فحذف ذلك لان الكلام الاول دل على وعد للعامل. والثاني - أن يكون العامل معنى " لا إثم عليه "، لانه قد تضمن معنى جعلناه " لمن اتقى ".

اللغة:

وقوله تعالى: " واتقوا الله " معناه اجتنبوا معاصي الله، " واعلموا أنكم إليه تحشرون " أي تحققوا أنكم بعد موتكم تردون إلى الله، فيجازيكم على أعمالكم.

تقول: حشر يحشر حشرا، فالحشر: جمع القوم من كل ناحية إلى مكان.

والمحشر: مجتمعهم: هو المكان الذي يحشرون فيه، وحشرتهم السنة: إذا أجمعت بهم، لأنها تضمهم من النواحي إلى المصر. وسهم حشر: خفيف لطيف، لأنه ضامر باجتماعه. ومنه أذن حشره: لطيفة ضامرة. وحشرات الارض: دوابها الصغار، والواحدة حشرة، لاجتماعها من كل ناحية. ودابة حشور: إذا كان ملززة الحلق شديدة. ورجل حشور: إذا كان عظيم البطن. وحشرت السنان، فهو محشور: إذا رففته وأطفته. وأصل الباب الاجتماع. قوله تعالى:

ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام (٢٠٤) آية واحدة.

قال الحسن: المعني بهذه الآية المنافق. وقال قوم: المعني: بها المرأئي. وقيل:

(١٧٨)

إنها نزلت في الاخنس بن شريق ذكره السدي وغيره.
اللغة:

والاعجاب هو السرور بالشئ سرور العجب بما يستحسن. ومنه العجب بالنفس، والسرور بها سرور العجب من الشئ استحسانا له، وذلك إذا تعجب من شدة حسنه. وتقول: عجب عجبا، وتعجب تعجبا، وعجبه تعجيبا، وأعجبه إعجابا، واستعجب استعجابا أي اشتد تعجبه. والعجاب: العجيب، وأعجبني هذا: إذا كان حسنا جدا. والمعجب بنفسه أو بالشئ معروف. وقال الازهري: العجب كل شي غير مألوف، وعجب الذنب: العظم الذي ينبت عليه شعر الذنب في المعز، ورأيت أعجوبة وأعاجيب. وأصل الباب العجب. وقوله تعالى: " في الحياة الدنيا " أي وقت الحياة الدنيا فالحي هو من لا يستحيل، وهو على ما هو عليه أن يكون عالما قادرا.

وقوله: " ويشهد الله على ما في قلبه " فأصل الاشهاد: هو الاقرار بالشئ ليشهد به المقر عنده. والمراد في الآية: من يقر بالحق، ويقول: اللهم اشهد علي، وضميره على خلافه. وقوله تعالى: " وهو ألد الخصام " يقال لده يلد له: إذا غلبه في الخصومة، ولده يلد له: إذا أوجره في أحد خفي فمه. ولدت تلد لدا وهو شدة الخومة. وجانب كل شئ لديداه، فمنه لديدي الوادي. ولديدي العنق:

صفحناه. ولده عن كذا: إذا حبسه. والتلدد: التلفت عن تحير وأصل الباب اللديد: الجانب. والخصام: هو المخاصمة. تقول: خصامة يخاصمه مخاصمة، وخصاما، وتخاصما، واختصما اختصاما، واستخصمهم استخصاما. والخصم طرف الرواية الذي بحيال العزلاء (١) من مأخرها، وطرفها الاعلى وهو العصم. والاختصام من

" ١ " في المطبوعة " الدراية الذي بحبال العولاء " وهو تصحيف.

(١٧٩)

كل شئ جوانبه، كجوانب الخوالق الذي فيه العرى، يحمل به. وأصل الباب الخصومة.
المنى:

ومعنى " ألد " في الآية: هو الشديد الجدل بالخصومة إلى ما يريد، قال الشاعر:

ثم أردي وبهم من تردي * تلد أقران الخصوم اللد (١)

وقال الزجاج: الخصام جمع خصم. والمعنى هو أشد المخاصمين خصومة.

وقال غيره: هو مصدر. ومعنى الآية أنه تعالى وصف المنافقين، فقال: " ومن الناس من يعجبك " يا محمد " قوله " في الظاهر، وباطنه بخلافه " ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام " جدل مبطل.

ومن قرأ " ويشهد الله " - بفتح الياء - معناه أنه تعالى يشهد عليه بنفاقه، وإظهاره خلاف ما يبطن. والقراءة العامة هي الأولى.

قوله تعالى:

وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد (٢٠٥) آية واحدة.

في قوله تعالى: " وإذا تولى " ضمير عن تقدم ذكره وهو " من يعجبك قوله في الحياة الدنيا " والتولي: هو الانحراف، والزوال عن الشئ إلى خلاف جهته. والسعي هو الإسراع في المشي وقيل: إنه العمل، وقال الاعشى:

وسعى لكندة غير سعى مواكل * قيس فضر عدوها وبنى لها (٢)

" ١ " معاني القرآن للفراء ١: ١٢٣ قدم البيت الثاني على الأول، واللسان " لدد " ذكر البيت الثاني فقط. ورواية

اللسان " ألد " بدل " تلد ". ورواية معاني القرآن:

ألد أقران الرجال اللد وفي تفسير الطبري ٤: ٢٣٥ كالذي ذكره الشيخ سواء.

" ٢ " ديوانه: ٣١. رقم القصيدة: ٣.

(١٨٠)

أي عمل لها. وقوله: " في الأرض " دخلت الالف واللام في الأرض، لتعريف الجنس، لان الأرض وإن كانت واحدة بعينها فلو خلق الله مثلها، لكانت أرضاً، كما أن الشمس، والقمر

كذلك، وفارق ذلك زيذا وعمرا - في أسماء الاعلام - وامتتاع دخول الالف واللام عليهما، لان الله تعالى لو خلق مثل زيد لم يجب أن يكون زيذا، على أن الارضين السبعة كما قال تعالى: " خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن " (١) فعلى هذا لا يتوجه السؤال. والافساد: هو عمل الضرر بغير استحقاق، ولا وجه من وجوه المصلحة. والاهلاك: المعمل الذي ينفي الانتفاع.

وقوله: " ليفسد فيها " نصب باضمار (أن) ويجوز إظهارها، فنقول: لان يفسد فيها، ولا يجوز إظهارها في قوله: " ما كان الله ليذر المؤمنين " (٢).

وإنما جاز حذفها في " ليفسد " لدلالة الكلام عليها مع كونها في حروف الاضافة حتى حذف في قولهم: غلام زيد، وما أشبهه مع كثرتة في الكلام، وجاز إظهارها، لانه الاصل من غير مانع في الاستعمال، وإنما امتنع في قوله: " ليذر " لما يرجع إلى المعنى، لان معناه كمعنى (ما كان زيد ليفعل) أي ما كان فاعلا، فلما تضمن غير المعنى الذي توجب صورته لم يتصرف في لفظه، ولانه لما كان محمولا على تأويل معنى لم يذكر، حمل أيضا على تأويل لفظ لم يذكر. والفرق بين دخول اللام فيها أن اللام دخلت في " ليفسد " على إضافة السعي إلى الفساد، على أصل الاضافة في الكلام. ودخولها في " ليذر " فانما هو لتأكيد النفي بتحقيق تعلقه بالخبر كما دخلت الباء في (ليس زيد بقائم)، لان النفي لما كان للخبر وولي حرف النفي الاسم، دخلت الباء، لتدل على اتصاله في المعنى بحرف النفي.

اللغة:

والحرث: الزرع. والنسل: العقب من الولد. قال الضحاك: الحرث: كل

" ١ " سورة الطلاق آية: ١٢.

" ٢ " سورة آل عمران آية: ١٧٩.

(١٨١)

نبات، والنسل: كل ذات. ويقال: نسل ينسل نسولا: إذا خرج، فسقط. ومنه نسل وير البعير أو شعر الحمار أو ريش الطائر. النسالة: قطعة من الوبر، قال الله تعالى: " إلى ربهم ينسلون " (١) أي يسرعون، لانه إسراع الخروج بحدة.

والنسل: الولد، ما نسل بعضه من بعض. والناس نسل آدم، لخروجهم من ظهره. والنسل والنسلان: عدو من عدو الذئب فيه اضطراب. والنسيلة: فتيلة السراج، وأصل الباب النسول: الخروج. وحكى الزجاج: أن الحرث: الرجال، والنسل:

الاولاد. وذكر الازهري: أن الحرث: النساء، والنسل الاولاد، لقوله تعالى:

" نساؤكم حرث لكم " (٢).

المعنى:

وقوله تعالى: " والله لا يحب الفساد " يدل على فساد قول المجبرة: إن الله تعالى يريد القبائح، لأن الله تعالى نفى عن نفسه محبة الفساد. والمحبة هي الارادة، لان كل ما أحب الله أن يكون، فقد أراد أن يكون، وما لا يحب أن يكون لا يريد أن يكون. ومعنى الآية: إذا خرج هذا المنافق من عندك يا محمد غضبان، عمل في الارض بما حرم الله عليه وحاول معصيته، وقطع الطريق، وأفسد النسل، والحرث على عباده. " والله لا يحب الفساد ".

قوله تعالى:

وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (٢٠٦) آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية قولان: أحدهما - قال ابن عباس: إنه كل منافق. والثاني - قال السدي: إنه الاخنس بن شريق، والانتقاء طلب السلامة بما يحجز

" ١ " سورة يس آية: ٥١.

" ٢ " سورة البقرة آية ٢٢٣.

(١٨٢)

من المخافة، وانتقاء الله إنما هو انتقاء عذابه.

وقوله: " أخذته العزة " قيل في معناه قولان: أحدهما - قال الحسن أخذته العزة إلى الاثم، كما تقول: أخذت فلانا (١) بأن يفعل: أي دعوته إلى أن يفعل (٢).

ومعنى قوله: " وإذا قيل له اتقى الله أخذته العزة بالاثم " هو الاشعار بالدليل على نفاقه، لفضيحته بذلك عند المؤمنين - على ما قاله قتادة -، ويجوز أن يكون الذم له على تلك الحال القبيحة.

وقوله: " ولبئس المهاد " الوطأ. فان قيل: كيف قيل لجهنم مهاد. قلنا عنه جوابان:

أحدهما - قال الحسن: معناه القرار هاهنا، والقرار كالوطأ في الثبوت عليه.

الثاني - لانها بدل من المهاد كما قال تعالى: " فبشرهم بعذاب أليم " (٣) لانه موضع البشرى بالنعيم على جهة البديل منه.

اللغة:

والمهاد في اللغة:

الوطأ من كل شئ نقول: مهدت الفراش تميهدا، وكل شئ وطأته فقد مهدته، وتمهد الشئ: إذا يوطأ، وكذلك امتهدا امتهادا، ومهد الصبي معروف، وجمع المهاد، مهد، وثلاثة أمهدة " والارض مهادا " (٤) لاجل التوطأة للنوم، والقيام عليها، وأصل الباب التوطأة. الاخذ: ضد الاعطاء. والعزة: القوة التي يتمتع بها من الذلة. المعنى:

فمعنى الاية: أن هذا المنافق الذي نعتته لك بأنه يعجبك قوله في الحياة الدنيا

" ١ " في المطبوعة " قد كنا " وهو تصحيف.

" ٢ " ذكر قولاً واحداً ولم يذكر الثاني وفي مجمع البيان ذكر القولين ونقل القول الثاني عن الحسن، وأطلق هذا ولم يذكر قائله، راجع صفحة: ٣٠١ من مجمع البيان طبع صيدا. " ٣ " سورة آل عمران آية ٢١. " ٤ " سورة النبأ آية: ٦.

(١٨٣)

" إذا قيل له اتق الله " في سعيك في الارض بالفساد وإهلاك الحرث والنسل، دخلته عزة وحمية، فقال تعالى: فكفاه عقوبة من ضلاله أن يصلى نار جهنم، فانها بئس المهاد لمن يصلها. وقوله تعالى:

ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد (٢٠٧) آية بلا خلاف. النزول:

قال قتادة: نزلت هذه الاية في المهاجرين والانصار. وقال عكرمة: نزلت في أبي ذر الغفاري: جذب بن السكن، وصهيب بن سهان، لان أهل أبي ذر أخذوا أبازر، فانفلت منهم، فقدم على النبي (صلى الله عليه وآله)، فلما رجع مهاجرا عرضوا له، وكان يمر الظهران، فانفلت أيضا منهم حتى قدم النبي (صلى الله عليه وآله)، فلما رجع مهاجرا عرضوا له، فانفلت حتى نزل على النبي (صلى الله عليه وآله). فأما صهيب، فانه أخذه المشركون من أهله فافتدى منهم بما له ثم خرج مهاجرا، فأدركه منقذ بن ظريف بن خدعان، فخرج له مما بقي من ماله، وخرى سبيله.

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال: نزلت في علي (ع) حين بات على فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما أرادت قريش قتله، حتى خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفات المشركين أغراضهم، وبه قال عمر بن شبة.

المعنى:

وروي عن علي (ع)، وابن عباس: أن المراد بالآية: الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وقال الحسن: هي عامة في كل من يبيع نفسه لله بأن يقيم نفسه في جهاد عدوه، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر وغير ذلك مما أمر الله به، وتوعد على خلافه.

(١٨٤)

وقوله تعالى: " يشري نفسه " معناه يبيع نفسه، وقد بينا فيما مضى أن الشراء يكون بمعنى البيع، كما قال: " وشروه بثمن بخس " (١) أي باعوه وقال الشاعر: (٢)
وشريت بردا لبيتي * من بعد برد كنت هامه (٣)
أي بعت. والشراء استبدال العوض بالثمن. وشري باع واشتري ابتاع. وشرا هاهنا مجاز، لان أصله في الاثمان من العين، والورق، لذلك لا يقال: باع متاعه إذا تصدق به، لان الاظهر إذا أطلق أنه باعه بالثمن.
وقوله تعالى: " ابتغاء مرضات الله " معناه طلب مرضات الله، ومثله " حذر الموت " (٤) قال الشاعر: (٥)

وأغفر عوراء الكريم ادخاره * وأعرض عن شتم اللئيم تكرما (٦)
ولا يجوز قياسا على ذلك فعله زيدا أي لزيد. ويجوز فعله خوفا، لان في ذكر المصدر دليلا على العرض الداعي إلى الفعل، وليس كذلك ذكر زيد، والمرضاة والرضى واحد وهو ضد السخط.

وقوله تعالى: " والله رؤف بالعباد " قد بينا فيما مضى معنى الرؤف. والخلاف فيه، ومعناه ذو رحمة واسعة بعبده الذي شري نفسه له في جهاد من جاهد في أمره من أهل الشرك، والفسوق. وإنما ذكر الرؤف بالعباد هنا للدلالة على أنه انما رغب العبد في بيع نفسه بالجهاد في نفسه رافة به، وحسن نظر له، لبيئته من الثواب المستحق على عمله ما لا يجوز أن يصل إليه في جلالته إلا بتلك المنزلة.

" ١ " سورة يوسف آية: ٢٠.

" ٢ " هو يزيد بن مفرغ الحميري.

" ٣ " مرتخرجه في ١: ٣٤٨. وروايته هناك " من قبل " بدل " من بعد " والبيت مروى بالوجهين. " ٤ " سورة البقرة آية: ١٩.

" ٥ " هو حاتم.

" ٦ " ديوانه: ٢٤، ونوادر أبي زيد: ١١، والخزانة ١: ٤٩١. وغيرها وفي البيت اختلاف كثير في الرواية، والشاهد فيه عندهم نصب " ادخاره " على أنه مفعول له.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (٢٠٨)
آية واحدة.

القراءة:

قرأ أهل الحجاز، والكسائي " السلم " - بفتح السين - . الباقون - بكسرهما - اللغاة:

قال الاخفش: السلم - بكسر السين - : الصلح، وفتحها، وفتح اللام:

الاستسلام. وقال الزجاج: السلم جميع شرائعه. ويقال: السلم، السلم معناهما الاسلام، والصلح. وفيه ثلاث لغات: كسر السين، وفتحها مع تسكين اللام، وفتحها. وقال أبو عبيدة: السلم - بكسر السين - والاسلام واحد، وهو في موضع آخر المسالمة، والصلح.

المعنى:

وقال ابن عباس، والسدي، والضحاك، ومجاهد: معنى السلم هاهنا الاسلام، وبه قال قتادة. وقال الربيع: معناه ادخلوا في الطاعة، وهو اختيار البلخي قال: لان الخطاب للمؤمنين بقوله: " يا أيها الذين آمنوا " واختار الطبري الوجه الاول، والامران جميعا عندنا جائزان محتملان، وحملها على الطاعة أعم، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من أن المراد به الدخول في الولاية، قال أبو علي: من قرأ بفتح السين، ذهب إلى أن معناه: المسالمة، والصلح، وترك الحرب باعطاء الجزية. ومن كسرهما، اختلفوا من من حمله على الاسلام، ومنهم من حمله على الصلح أيضا.

اللغة:

وقوله تعالى: " كافة " معناه جميعا، وهو نصب على الحال من ضمير المؤمنين.

وقيل من حال السلم، واشتقاقه في اللغة مما يكف الشيء في آخره، من ذلك كفة القميص، يقال لحاشية القميص كفة. وكل مستطيل، فحرفه كفة. ويقال في كل مستدير: كفة، نحو كفة الميزان. وإنما سميت كفة الثوب، لأنها تمنعه أن ينتشر.

وأصل الكف: المنع، ومنه قيل لطرف اليد: كف، لأنها يكف بها عن سائر البدن:

وهي الراحة مع الاصابع، ومن هذا قيل: رجل مكفوف أي قد كف بصره أن يبصر، وكف من الشيء يكف كفا: اذا انقبض عنه. وكل شئ جمعته، فقد كففته. واستكف السائل: إذا بسط كفه يسأل. واستكف القوم بالشيء: إذا أحدقوا به. تكفف السائل: اذا مد كفه للسؤال. ولقيته كفة لكفة:

إذا لقبته مفاجأة. والمكفوف: الأعمى. والكفف: دارات الوسم. والكفة: ما يصاد به الظباء: كالطوق.

المعنى:

فمعنى الآية على هذا: ابلغوا في الإسلام إلى حيث تنتهي شرائعه، فتكفوا من أن تعدوا شرائعه. وادخلوا كلكم حتى يكف عن عدد واحد لم يدخل فيه.

وقيل: معنى الآية: أن قوما من اليهود أسلموا وأقاموا على تحريم السبت، وتحريم لحم الأبل، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوا في جميع شرائع الإسلام. وقال بعض أهل اللغة: جائز أن يكون أمرهم وهم مؤمنون أن يدخلوا في الإيمان: أي يقيموا على الإيمان كما قال: "يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله" ورسوله " (١) وكلا القولين جائز.

وقوله " ولا تتبعوا خطوات الشيطان " أي لا تتبعوا آثاره، لأن تركم شيئاً من شرائع الإسلام اتباع الشيطان. وخطوات: جمع خطوة وفيها ثلاث لغات: خطوات - بضم الطاء، وفتحها، واسكانها.

" ١ " سورة النساء آية: ١٣٥.

(١٨٧)

وقوله تعالى: " إنه لكم عدو مبين " عداوته للمؤمنين. وإبانة عداوته لنا هو أن ينسها لمن يراه من الملائكة، والجن، ونحن وإن لم نشاهده، فقد علمنا معاداته لنا، ودعاه إيانا إلى المعاصي، فجاز أن يسمى ذلك إبانة. وقال الجبائي:

أبان عداوته لادم والملائكة (ع)، فكان بذلك مبينا لعداوته إيانا.

قوله تعالى:

فان زلتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم (٢٠٩) آية واحدة.

المعنى واللغة::

أنزل الله تعالى هذه الآية، وقد علم أنه سيزل الزالون من الناس، فتقدم في ذلك، وأوعد فيه، لكي تكون الحجة على خلقه. يقال: زل يزل زلا، وزللا، ومزلا، وزلولا. ومعنى الآية " فان زلتم " بمعنى تنحيتهم عن القصد، والشرائع، وتركتهم ما أنتم عليه من الدين " من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز " في نعمته " حكيم " في أمره، لا تعجزونه، وحكيم فميا شرع لكم من دينه، وفطركم عليه، وفيما يفعل بكم من عقوبة على معاصيكم إياه بعد إقامة الحجة عليكم.

وذكر جماعة من أهل التأويل: أن " البيئات " هم محمد (صلى الله عليه وآله) والقرآن، ذهب اليه السدي، وابن جريج، وغيرهما. وقيل: زل في الآية: مجاز تشبيها بمن زل عن قصد الطريق، وحقيقته: عصيتم الله فيما أمركم به أو نهاكم عنه. والاولى أن يكون ذلك حقيقة بالعرف. وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة: أن الله يريد القبيح، لانه لو أراد له لما صح وصفه بأنه حكيم. فان قيل: سواء زل العباد أو لم يزلوا، وجب أن يعلم أن الله عزيز حكيم فما معنى الشرط؟ قيل، لان معنى " عزيز " هو القادر الذي لا يجوز عليه المنع من عقابكم " حكيم " في عقوبته إياكم، فكأنه قال: فاعلموا أن العقاب واقع بكم لامحالة، لانه عزيز لايجوز أن يحول بينه وبين عقوبتكم حائل،

(١٨٨)

ولم يمنعه مانع " حكيم " في عقوبته إياكم، وذلك أن حري لهم وصفه بأنه عزيز أنه قدير لايمنع، لانه قادر لنفسه. و " حكيم " معناه عليم بتدبير الامور. ويقال: " حكيم " في أفعاله بمعنى محكم لها وأصل العزة الامتناع، ومنه أرض عزاز: إذا كانت ممتنعة بالشدة وأصل الحكمة المنع من قول الشاعر:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم * إني أخاف عليكم أن أغضبا (١)

ومنه حكمة الدابة قوله تعالى:

هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الامر وإلى الله ترجع الامور (٢١٠) آية واحدة.

القراءة:

قرأ أبو جعفر " والملائكة " بالخفض. والباقون بضمها. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي " ترجع الامور " بفتح التاء. الباقيون بضمها.

المعنى:

الظل: جمع ظلة. ومعنى الآية أن يأتيهم عذاب الله، وما توعدهم به على معصيته، كما قال: " فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا " (٢) أي آتاهم خذلانه إياهم. والمختار عند أهل اللغة الرفع في " الملائكة " عطفًا على الله، كأنه قال: وتأتيهم الملائكة. ومن كسر عطف على ظلل، وتقديره في ظلل من الغمام، وظلل من الملائكة.

وقوله: " وقضى الامر " أي فزع لهم مما كانوا يوعدون به.

" ١ " قائله جرير، ديوانه ١: ٢٣، واللسان " حكم " " ٢ " سورة الحشر آية: ٢.

(١٨٩)

وقوله: " والى الله ترجع الامور " لايدل على أن الامور ليست إليه الان وفي كل وقت. ومعنى الآية الاعلام في أمر الحساب، والثواب، والعقاب أي إليه، فيعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، فلا حاكم سواه. ويحتمل أن يكون المراد: أنه لا أحد ممن يملك في دار الدنيا إلا ويز؟ ل ملكه ذلك اليوم.

وشبهت الاهوال بالظلم من الغمام، كما قال: " موج كالظلم " (١) ومعنى الآية: ما ينظرون - يعني المكذبين بآيات الله - محمدا وما جاء به من القرآن والايات إلا أن يأتيهم أمر الله وعذابه " في ظلم من الغمام والملائكة "، فهل بمعنى (ما)، كما يقول القائل: هل يطالب بمثل هذا إلا متعنت أي ما يطالب. وينظرون - في الآية - بمعنى ينتظرون. وقد يقال: أتى وجاء فيما لايجوز عليه المجئ، والذهاب، يقولون أتاني وعيد فلان، وكلام فلان، وكل ذلك لا يراد به الاتيان الحقيقي قال الشاعر:

أتاني كلام من نصيب يقوله * وما خفت يا سلام أنك عاتبي (٢)
وقال آخر:

أتاني نصرهم وهم بعيد * بلادهم بلاد الخيزران (٣)

فكان المعنى في الآية: إن الناس في الدنيا يعتصم بعضهم ببعض، ويفزع بعضهم إلى بعض في الكفر والعصيان، فاذا كان يوم القيامة انكشف الغطاء، وأيقن الشاك، وأقر الجاحد، وعلم الجاهل، فلم يعصم أحد من الله أحدا، ولم يكن له من دون الله ناصر، ولا من عذابه دافع، وعلم الجميع أن الامر كله لله.
قوله تعالى:

سل بني إسرائيل كم آتيناكم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب (٢١١) آية واحدة.

" ١ " سورة لقمان آية: ٣٢.

" ٢ " البيت في نوادر أبي زيد: ٤٦، ومعاني القرآن للفراء ١: ١٤٦.

" ٣ " البيت للنابغة الجعدي اللسان (خزر) في المطبوعة (بارض) بدل (بلاد)

(١٩٠)

القراءة:

أهل الحجاز يقولون: سل بغير همز. وبعض بني تميم يقولون: اسأل بالهمز، وبعضهم يقولون: اسل بالالف وطرح الهمز - والاولى أحسنها لانها خط المصحف.

المعنى:

وفي الآية تنبيه وتقريع للكفار من بني اسرائيل، ونظيره قول الرجل في صاحبه إذا فزعه وربحه وأراد أن يلزمه الحجة، ويبين عن كفرانه للنعمة ليوقع به العقوبة - لمن بحضرته -: سله كم أعددت له وحذرتة.

والآيات البينات ماذكرها الله تعالى: من قلب عصا موسى حية، ويده البيضاء، وقلقه البحر، وتغريق عدوهم من فرعون وأصحابه، وتظليلة عليهم الغمام، وإنزال المن والسلوى، وذلك من آيات الله التي أتى بها بني اسرائيل، فخالفوا جميع ذلك، وقتلوا أنبياءه، ورسله، وبدلوا عهده، ووصيته إليهم.

وقوله: " ومن يبذل نعمة الله " معناه: يغير يعني بها الاسلام، وما فرض فيه من شرائع دينه بعد ما عهد إليه وأمره به من الدخول في الاسلام، والعمل بشرائعه، فيكفر به، فانه يعاقبه بما أوعده على الكفر به من العقوبة " والله شديد العقاب ". وقال الزجاج فيه حذف وتقديره شديد العقاب له، ويجوز أن يكون معناه: شديد العقاب لكل من يستحقه، فيدخل فيه هذا المذكور، فأما أن يكون على معنى شديد العقاب لغيره، فلا يجوز إذا لم يكن للمذكور مدخل فيه. وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: من أنه ليس لله على الكافر نعمة، لانه حكم عليهم وبتبديل نعم الله، كما قال: " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون " (١) وقال: " بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار " (٢)

" ١ " سورة النحل آية: ٨٣.

" ٢ " سورة ابراهيم آية: ٢٨.

(١٩١)

قوله تعالى:

زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب (٢١٢) آية واحدة.

المعنى:

إنما ترك التأنيث في قوله زين والفعل فيها مسند إلى الحياة وهي المرتفعة به، لأنها لم يسم فاعلها لشيئين:

أحدهما - أن تأنيث الحياة ليس بحقيقي، وما لا يكون تأنيثه حقيقيا، جاز تذكره، كقوله تعالى: " فمن جاءه موعظة من ربه " (١) وقوله: " قد جاءكم بصائر " (٢) " وأخذ الذين ظلموا الصيحة " (٣).

والثاني - أنه لما فصل بين الفعل والفاعل بغيره، جاز ترك التأنيث، وقد ورد ذلك في التأنيث الحقيقي، وهو قولهم حضر القاضي اليوم امرأة، فإذا جاز ذلك في التأنيث الحقيقي، ففيما ليس بحقيقي، أجوز، قد قيل: إنما ترك التأنيث في هذا الموضع، لأنه قصد بها المصادر، فترك لذلك التأنيث. وقيل في معنى تزيين الحياة الدنيا قولان:

أحدها - قال الحسن، والجبائي، وغيرهما - أن المزين لهم إبليس وجنوده، لأنهم الذين يغوون، ويقوون دواعيه، ويحسنون فعل القبيح، والاخلال بالواجب ويسوفون لهم التوبة، فأما الله تعالى، فلا يجوز أن يكون المزين له، لأنه زهد فيها، فأعلم أنها متاع الغرور، وتوعد على ارتكاب القبائح فيها.

والقول الثاني - إن الله تعالى خلق فيها الأشياء المعجبة، فنظر إليها الذين كفروا باكثر من مقدارها، كما قال: " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٧٥. " ٢ " سورة الانعام آية: ١٠٤.

" ٣ " سورة هود آية: ٦٧.

(١٩٢)

والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث " (١) وإنما أراد بذلك ما جبل الخلق عليه من الميل إلى هذه الاشياء، لا أنه حسن جميعها، ولم يقبح شيئاً منها، وكلاهما جائزان حسنان.

والتزيين، والتحسين واحد، والزين: خلاف الشين، والزينة: اسم جامع لكل ما يتزين به، وهذا أمر زاین له أي مزين له.

وقوله: " ويسخرون من الذين آمنوا " معناه: أن قوما من المشركين كانوا يسخرون من قوم من المسلمين، لان حالهم في ذات اليد كانت قليلة، فأعلم الله تعالى:

أن الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة، لان المسلمين في عليين، والفجار في الجحيم، كما قال تعالى: " إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون " (٢) ثم أخبر عن المؤمنين أنهم يضحكون منهم - في الآخرة -، فقال: " فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون " (٣).

وقوله: " والله يرزق من يشاء بغير حساب " قيل فيه خمسة أقوال:

أحدها - أن معناه: أنه يعطيهم الكثير الواسع الذي لا يدخله الحساب من كثرته.

الثاني - أنه ليس يرزق المؤمن على قدر إيمانه، ولا الكافر على قدر كفره في الدنيا، ولكن الرزق في الآخرة على قدر العمل، وما يتفضل الله به، ويضاعف به عن رجل على المؤمنين ما يشاء من فضله زياده على كفايته.

الثالث - أنه يعطى عطاء لا يأخذه بذلك أحد، ولا يسأله عنه سائل، ولا يطالب عليه بجزاء، ولا مكافأة، ولا يثبت ذكره مخافة الاعداء، والاقبال، لان عطيته ليست من أصل ينقص، بل خزائنه لاتقنى، ولا تتفد (جل الله تعالى).

والرابع - قال قطرب معناه: أنه يعطي العدد من الشئ، لامما يضبط بالحساب، ولا يأتي عليه العدد، لان ما يقدر عليه غير متناه، ولا محصور، فهو

" ١ " سورة آل عمران آية: ١٤ " ٢ " سورة المطففين آية: ٢٩ " ٣ " سورة المطففين آية: ٣٤ "

(١٩٣)

يعطى الشئ لا من عدد أكثر منه ولا ينقص منه كالمعطى من الادميين الالف من الالفين والعشرة من المائة.

والخامس - قال بعضهم: إنما عنى بذلك إعطاء أهل الجنة، لان الله تعالى يعطيهم ما يتناهى، ولا يأتي عليه الحساب، فكل ذلك حسن جائز، وإنما قال:

" والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة " ولا فضل للكفار في الآخرة لامرين:

أحدهما - أن أحوالهم في الآخرة فوق حال هؤلاء الكفار في الدنيا.

والثاني - أن يكون محمولا على قوله تعالى " أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا " (١) وكما قال حسان يعني رسول الله وأبا جهل.

فشر كما لخير كما الفداء (٢)

ومعنى " يسخرون من الذين آمنوا " أي يهزؤون بهم في زهدهم في الدنيا، لانهم يوهمهم أنهم على حق، ويفهم عنهم أن اعتقادهم بخلاف ذلك.

قوله تعالى:

كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٢١٣) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ أبو جعفر المدني " ليحكم " - بضم الياء - الباقون بفتحها.

" ١ " سورة الفرقان آية: ٢٤ .

(١٩٤)

المعنى:

معنى قوله: " كان الناس أمة واحدة " أهل ملة واحدة كما قال النابغة:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وهل يآثمن ذو أمة وهو طائع (١)
أي ذو ملة ودين. وأصل الامة الام من قولك: أم يؤم أما: إذا قصدته.
وهي على أربعة أوجه:

فالامة: الملة، والامة: الجماعة، والامة: المنفرد بالمقابلة، والامة: القابلة.

واختلفوا في الدين الذي كانوا عليه، فقال ابن عباس، والحسن، واختاره الجبائي: إنهم كانوا
على الكفر. وقال قتادة، والضحاك: كانوا على الحق، فاختلفوا.

فان قيل: إذا كان الزمان لا يخلوا من حجة كيف يجوز أن يجتمعوا كلهم على الكفر، قلنا:
يجوز أن يقال ذلك على التغليب لان الحجة إذا كان واحدا أو جماعة يسيرة، لا يظهرون خوفا
وتقية، فيكون ظاهر الناس كلهم الكفر بالله، فلذلك جاز الاخبار به على الغالب من الحال، ولا
يعتد بالعدة القليلة.

وقوله: " وأنزل معهم الكتاب بالحق " قيل في معناه قولان:

أحدهما - بما فيه من البيان عن الحق من الباطل. الثاني - أن معناه: بأنه حق للاستصلاح به
على ما توجه الحكمة فيه.

وقوله: " ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه " فحقيقته، ليحكم منزل الكتاب، لان الله هو الحاكم
بما أنزل فيه، فهو مجاز - في قول الجبائي - قال، إلا أنه جعل اللفظ على الكتاب تفخيما له،
لمافيه من البيان. ويجوز أن يكون في يحكم ضمير اسم الله، فيكون حقيقة. ومن ضم الياء
قراءته لاشبهة فيها. والمعنى ليحكم الناس أو العلماء بما فيه من الحق.

وقوله تعالى: " وما اختلف فيه " الهاء عائدة على الحق. وقيل على الكتاب.

والاول أصح، لان اختلافهم في الحق قبل إنزال الكتاب. فان قيل: إذا كانوا مختلفين على
إصابة بعضهم له، فكيف يكون الكفر عمهم به؟ قلنا: لا يمتنع

" ١ " ديوانه: ٤٠، واللسان (أمم) من قصيدته في اعتذاره للنعمان.

(١٩٥)

أن يكون الكل كفارا، وبعضهم يكفر من جهة الغلو، وبعضهم من جهة التقصير كما كفرت اليهود، والنصارى في عيسى (ع)، فقالت النصارى: هو رب، فغالوا. وقصرت اليهود، فقالوا: كذاب متخرص. فان قيل: كيف يكون الكل كفارا مع قوله: " فهدى الله الذين آمنوا "؟ قلنا: لا يمتنع أن يكونوا كلهم كانوا كفارا، فلما بعث الله اليهم بالانبياء مبشرين، ومنذرين اختلفوا، فأمن قوم، ولم يؤمن آخرون.

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال: كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله، ولا مهتدين، ولا ضلالا، فبعث الله النبيين.

الاعراب:

وقوله تعالى: " بغيا بينهم " نصب على المفعول له، كأنه قال للبغي بينهم - على قول الاخفش، والزجاج - . وقال بعضهم: الاستثناء متعلق بثلاثة أشياء، كأنه قال: " وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه "، وما اختلفوا فيه إلا من بعد ما جاءتهم البيئات، ما اختلفوا فيه إلا بغيا بينهم. إلا أنه حذف الثاني لدلالة الاول عليه. قال الرماني: والصحيح الاول، لانه لا يحكم بالحذف مع استقامة الكلام من غير حذف إلا لعذر.

المعنى:

وقوله: " فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه " معناه: هداهم للحق، وهو الذي اختلفوا فيه. وقيل في معنى باذنه قولان:

أحدهما - بلطفه، ولا بد من محذوف على هذا التأويل، أي فاهتدوا باذنه، لان الله عزوجل، لا يفعل الشيء باذن أحد يأذن له فيه، ولكن قد يجوز أن يكون على جهة التفسير للهدى، كأنه قال: هداهم بأن لطف لهم، وهداهم بأن أذن لهم. وقال الجبائي: لا بد من أن يكون على حذف (فاهتدوا) باذنه.

والقول الثاني - هداهم بالحق بعمله، والاذن بمعنى العلم معروف في اللغة قال

(١٩٦)

الحارث بن حلزة: أدنتنا بينها أسماء (١)

أي أعلمتنا. وهو قول الزجاج، وغيره من أهل اللغة. فان قيل: إذا كانوا إنما هدوا للحق من الاختلاف فلم قيل: للاختلاف من الحق؟ قيل: لانه لما كانت العناية بذكر الاختلاف. كان الاولى بالتقديم، ثم تفسيره ب (من). وقال الفراء هو من المقلوب نحو قول الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما * كان الزناء فريضة الرجم (٢)

وإنما الرجم فريضة الزنا. وكما قال الاخر:

إن سراجا لكريم مفخرة * تحلى به العين إذا ما تجره (٣)

وإنما يحلى هو بالعين. وقال غيره إنما يجوز القلب في الشعر للضرورة. ووجه الكلاخ على ما بيناه واضح. فان قيل: ما الهدى الذي اختص به من يشاء؟ قيل فيه ثلاثة أقوال: قال الجبائي: اختص به المكلفين دون غيرهم ممن لا يحتمل التكليف، وهو البيان، والدلالة والثاني - قال: ويجوز أن يكون هداهم على طريق الجنة، ويكون للمؤمنين خاصة. وقال ابن الاخشاد، والبلخي: يجوز أن يكون المراد بالهداية هاهنا الارشاد إلى الدين، ونصب الدلالة عليه، لانه تعالى لا يخص بذلك قوما دون قوم، بل لا يصلح التكليف من دونه. وقد بين الله تعالى: أن اختلافهم كان بعد أن جاءتهم البيئات فعم بذلك جميعهم، فلو أراد الله بقوله " فهدى الله الذين آمنوا " بالبيئات، لكان متناقضا - اللهم إلا أن يحمل ذلك على أنه أضاف اليهم الهداية، من حيث كانوا هم المنفعين بها، والمتبعين لها، فكأنهم كانوا هم المخصوصين بها كما قال: " هدى للمتقين " (٤) وقوله تعالى: " إنما تتذر من اتبع الذكر " (٥)

" ١ " انظرا: ٣٨٠ من هذا الكتاب. " ٢ " انظر ٢: ٧٩. " ٣ " انظر ٢: ٧٩. " ٤ " سورة البقرة آية: ٢. " ٥ " سورة يس آية: ١.

(١٩٧)

" وإنما أنت منذر من يخشاها " (١) وإن كان منذرا لجميعهم، والذي يقوى ذلك قوله: " وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " (٢) فبين أنه هداهم. وإنما لم يهتدوا، فكيف يجوز أن تحمل الهداية على نصب الدلالة، وإقامة الحجة على قوم دون قوم. والفرق بين: هدى المؤمنين إلى الايمان، وبين أنعم عليهم بالايمان، قال الجبائي: إن الهدى للايمان غير الايمان، والانعام بالايمان هو نفس الايمان. والصحيح أنه هداه بالايمان يجري مجرى قوله: أنعم عليه بالايمان لانه يراد بذلك التمكين منه. والاقترار عليه والدعاء إليه ولايراد به نفس الايمان.

وقوله: " والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم " أي إلى طريق الدين الواضح. واختلفوا في الامة المعنية بهذه الاية، فقال ابن عباس، وقتادة: هم الذين كانوا بين عاد، ونوح، وهم عشر فرق كلهم كانوا على شريعة من الحق، فاختلّفوا بعد ذلك. فالتقدير - على قول هؤلاء - كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله النبيين. وقال مجاهد: المراد بالاية آدم، فبعث النبيين إلى ولده، لما اختلفوا. وقال أبي بن كعب، والربيع: كان الناس أمة حين استخرجوا من ظهر آدم، فأقروا له بالعبودية، واختلفوا فيما بعد، فبعث الله اليهم النبيين. وقال ابن عباس في رواية أخرى: كانوا أمة واحدة على الكفر، فبعث الله النبيين. قال السدي: كانوا

على دين واحد من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين. وقال الربيع والطبري: الكتاب الذي
اختلفوا فيه التوراة. وقال آخرون كل كتاب أنزل الله مع النبيين.

قوله تعالى:

أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا
حتى يقول

" ١ " سورة النازعات آية: ٤٥.

" ٢ " سورة حم السجدة آية: ١٧.

(١٩٨)

الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب (٢١٤) آية واحدة.
القراءة والنزول:

قرأ نافع " حتى يقول الرسول " بضم اللام. الباقيون بنصبها.

ذكر السدي، وقتادة، وغيرهما من أهل التفسير: أن هذه الآية نزلت يوم الخندق لما اشتدت
المخافة، وحوصر المسلمون في المدينة، واستدعاهم الله إلى الصبر، ووعدهم بالنصر.
الاعراب واللغة:

وقال الزجاج: معنى (أم) هاهنا بمعنى (بل). وقال غيره: هي بمعنى الواو. وإنما حسن
الابتداء ب (أم) لاتصال الكلام بما تقدم، ولو لم يكن قبله كلام، لما حسن. والفرق بين (أم)
حسبتم) وبين (أحسبتم) أن (أم) لا تكون إلا متصلا لكلام، معادلة للالف، أو منقطعة، فالمعادلة
نحو (أزيد في الدار أم عمرو) فالمراد أيهما في الدار، والمنقطعة نحو قولهم: (إنها لابل أم
شاء يافتى)، وأما الالف، فتكون مستأنفة. وإنما لم يجز في (أم) الاستئناف، لأن فيها معنى
(بل) كأنه قيل: (بل حسبتم). وحسبت، وظننت وخلت نظائر.

وقوله تعالى: " ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم " معناه ولما تمتحنوا، وتبتلوا بمثل ما
امتحنوا، فتصبروا كما صبروا. وهذا استدعاء إلى الصبر وبعده الوعد بالنصر.

والمثل، والشبه واحد، يقال: مثل ومثل، مثل شبه وشبه. و " خلوا " معناه مضوا.

وقوله: " مستهم " فالمس، واللمس واحد. والبأساء ضد النعماء، والضراء ضد السراء.

وقوله: " زلزلوا " معناه هاهنا: أزعجوا بالمخافة من العدو. والزلزلة: شدة

(١٩٩)

الحركة. والزلازل: البليبة المزعجة بشدة الحركة، والجمع زلازل، ويقال: زلزل الارض يزلزلها زلزالا، وتزلزل تزلزلا، مثل تدكدك تدكدكا، وأصله زل، وإنما ضوعف، مثل صرصر، وصلصل.

وقوله: " حتى يقول الرسول " من نصب اللام، ذهب إلى تقدير: إلى أن يقول الرسول، فيكون على معنى الاستقبال إذا قدرت معها (أن)، وهو يشبه الحكاية، كأنك تقدر حالا، ثم أستأنف غيره فعلا، كما تستأنف عن حال كلامك.

ويوضح ذلك (كان زيد سيقول كذا وكذا). وإنما قدرت بكان زيد وقتا، ثم يستأنف عنه فعلا، فكذلك " زلزلوا " قد دل على وقت، ثم استأنف بعده الفعل.

ومن رفع، فعلى الحال للفعل المذكور، والحال لكلام المتكلم، وذلك القول قد يكون في حال الزلزلة. فأما الغاية فلا يكون إلا بعد تقضيها وإن كان متصلا بها، والرفع يوجب التأدية بمعنى: أن الزلزلة أدت إلى قول الرسول. فأما النصب، فيوجب الغاية، فقد حصل الفرق بين الرفع والنصب من ثلاث جهات:

الاول - أن أحدها على الحال، والآخر على الاستقبال. والثاني - أن أحدها قد انقضى، والآخر لم ينقص. والثالث - أن أحدها على الغاية، والآخر على التأدية. ومعنى الغاية في الآية أظهر، لان النص جاء عند قول الرسول، فلذلك كان الاختيار في القراءة النصب. المعنى:

فان قيل: ما معنى قول الرسول والمؤمنين: " متى نصر الله "؟ قلنا: قال قوم: معناه الدعاء لله بالنصر، ولا يجوز أن يكون معناه الاستبطاء لنصر الله على كل حال لان الرسول يعلم: أن الله لا يؤخره عن الوقت الذي توجبه الحكمة. وقال قوم: معناه الاستبطاء لنصر الله. وذلك خطأ، لا يجوز مثله على الانبياء (ع) إلا أن يكون على الاستبطاء لنصره لما توجبه الحكمة من تأخره. والنصر ضد الخذلان. والقريب ضد البعيد. والقرب والدنو واحد. ومن قال: إن ذلك على وجه الاستبطاء قواه بما بعده من قوله " ألا إن نصر الله قريب ".

(٢٠٠)

اللغة:

وأصل (لما) (لم) فزيد عليها (ما) فغيرت معناها، كما غيرت في (لو) لما زيد عليها (ما) إذا قلت: (لوما) فصارت بمعنى هلا. والفرق. وبين (لم) و (لما) أن (لما) يصح أن يوقف عليها، مثل قولك: أقدم زيد؟ فيقول: لما، ولا يجوز (لم)، وفي (لما) توقع لانها عقبية (قد)، إذا انتظر قوم ركوب الامير، قلت:

قد ركب، فان نفيت هذا قلت: لما يركب، وليس كذلك (لم)، ويجمعهما نفي الماضي.
قوله تعالى:

يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل
وما تفعلوا من خير فان الله به عليم (٢١٥) آية واحدة.
المعنى:

وجه اتصال هذه الاية بما قبلها: أن الاية الاولى فى سبيل الله، وفي هذه بيان لوجه النفقة فى سبيل الله، وكل ذلك دعاء إلى فعل البر.
والنفقة: إخراج الشئ عن الملك ببيع، أو هبة أو صلة، أو نحوها، وقد غلب فى العرف على
إخراج ما كان من المال: من عين، أو ورق.
وقوله " يسألونك " خطاب للنبي (ص) بأن القوم يسألونه، والسؤال:
طلب الجواب بصيغة مخصوصة فى الكلام.
وذكر السدي: أن هذه الاية منسوخة بفرض الزكاة. وقال الحسن: ليست منسوخة، وهو
الاقوى، لانه لا دليل على نسخها.
والجواب المطابق لقوله: " يسألونك ماذا ينفقون " أن يقول: قل النفقة

(٢٠١)

التي هي خير، وإنما عدل عنه لحاجة السائل إلى البيان الذي يدل عليه، وعلى غيره، وذلك
يحسن من الحكماء اذا أرادوا تعليم غيرهم، وتبصيرهم أن يضمنوا الجواب مع الدلالة على
المسؤل عنه الدلالة على ما يحتاج إليه السائل فى ذلك المعنى مما أغفله أو حذف السؤال عنه
لبعض الاسباب المحسنة له. فأما الجدل الذي يضايق فيه الخصم، فالاصل فيه التحقيق، بأن
يكون الجواب على قدر السؤال من غير زيادة ولا نقصان، ولا عدول عما يوجبه نفس السؤال،
لان كل واحد من الخصمين قد حل محل النظر للاخر.
ولايجوز إعطاء الزكاة للوالدين، وكل من تلزمه نفقته - وبه قال الحسن - والاية عامة فى
الزكاة وفى التطوع - وبه قال الحسن - غير أنها فىمن تلزمه النفقة عليه، خاصة بالنفقة.
الاعراب:

وموضع (ما) فى قوله: " ماذا ينفقون " من الاعراب يحتمل وجهين:
الرفع، والنصب، والرفع على ما الذي ينفقون، فىكون المعنى الذي، وينفقون صلة، والنصب
بمعنى أي شئ ينفقون، فىكون (ذا) و (ما) بمنزلة شئ واحد. والمساكين جمع مسكين وهو
المحتاج.
المعنى:

ومعنى قوله: " فان الله به عليم " اي ما تفعلوا من خير فان الله يجازي عليه من غير أن يضيع منه شئ لانه عليم لا يخفى عليه شئ. قال مجاهد: معنى " يسألونك ماذا ينفقون " إنهم سألوا مالهم في ذلك، فقال الله تعالى: " قل ما أنفقتم من خير " الآية. وقال قتادة: أهمتهم النفقة، فسألوا عنها النبي (صلى الله عليه وآله) فأنزل الله " قل ما أنفقتم من خير " الآية.
قوله تعالى:

كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا

(٢٠٢)

شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦) آية واحدة.

المعنى:

معنى قوله تعالى: " كتب عليكم القتال " فرض عليكم القتال، وهذه الآية دالة على وجوب الجهاد، وفرضه، وبه قال مكحول، وسعيد بن المسيب، وأكثر المفسرين، غير أنه فرض على الكفاية. وحكي عن عطا: أن ذلك كان على الصحابة، والصحيح الاول، لحصول الاجماع عليه اليوم، وقد انقرض خلاف عطا.
اللغة:

وقوله: " وهو كره لكم " يقال: كره كراهة، وأكرهه إكراها: إذا أجبره، وتكره تكرها، واستكره استكراها، وكرهه تكريها. والكراهة:

المشقة التي يحمل عليها، والكره: المشقة من غير أن يحمل عليها. وقيل: هما لغتان، مثل ضعف، وضعف. وجمل كره: شديد الرأس، لانه لا ينقاد إلا على كره، والكريهة: الشديد في الحرب، لانه يدخل فيها على كره. وكراهية (١) الدهر:

نوازله، كرهت الامر كراهة وكراهية ومكرهة، وكره. إلي هذا الامر تكريها: أي صيره إلي بحال كريهة. والكرهاء: صفحة الوجه، لان الكره يظهر فيها.
المعنى، واللغة، والاعراب:

فان قيل: كيف كره المؤمنون الجهاد، وهو طاعة الله؟ قيل عنه جوابان:

أحدهما - أنهم يكرهونه كراهية طبايع. والثاني - أنه كره لكم قبل أن يكتب عليكم، وعلى الوجه الاول يكون لفظ الكراهة مجازا، وعلى الثاني حقيقة.

وقوله: " عسى " معناه الطمع، والاشفاق من المخاطب، ولا يكون إلا مع مثلة في الامر.
وقيل: معناها هنا قد، وإنما قال: " عسى " وقال في موضع آخر:

(٢٠٣)

" فهل عسيتم " فجمع، لانه استغنى في الغائب عن الجمع كما استغنى عن علامة الضمير في اللفظ، وليس كذلك المخاطب، فجرى في كل غائب على التوحيد، لا متاعه من من التصريف. تقول: عسى أن يقوموا، فإذا قلت: عسيتم أن تقوموا جمعت.

وفي قوله " وهو كره لكم " حذف - في قول الزجاج وغيره - لان تقديره وهو ذو كره لكم، ويجوز أن يكون معناه: وهو مكروه لكم، فوقع المصدر موقع إسم المفعول، ومثله قولهم: رجل رضى بمعنى ذو رضى، ويجوز أن يكون بمعنى مرضي.

وقوله: " وهو شر لكم " فالشر السوء، وهو ضد الخير، تقول: شر يشر شرارة. شرار النار، وشررها لهبها، وشررت اللحم والثوت تشريرا: إذا بسطته، ليحف، وكذلك أشرته إشرارا، وأشررت الكتاب: إذا أظهرته، وشرة الشباب: نشاطه، وإنما قال الله تعالى: " والله يعلم "، تنبيها على أنه يعلم مصالحكم، وما فيه منافعكم، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شق عليكم.

والفرق بين الشهوة، والمحبة واضح، لان الصائم في شهر رمضان يشتهي شرب الماء، ولا يكون مأخذا به، ولا يحبه كما لا يريده، ولو أراده وأحبه، لكان مذموما، ويكون مفطرا - عند كثير من الفقهاء -.

وقوله: " والله يعلم وأنتم لا تعلمون " يدل على فساد قول المجبرة، لانه تعالى إنما رغبهم في الجهاد، لما علم من مصالحهم، ومنافعهم، فيدبرهم لذلك، لا لكفرهم وفسادهم يتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قوله تعالى:

يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن

(٢٠٤)

دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢١٧) آية واحدة بلا خلاف.

اختلفوا في: من السائل عن هذا السؤال: أهم أهل الشرك، أم أهل الاسلام، فقال الحسن، وغيره: هم أهل الشرك على جهة العيب للمسلمين باستحلالهم القتال في الشهر الحرام، وبه

قال الجبائي، وأكثر المفسرين. وقال البلخي: هم أهل الاسلام، سألوا عن ذلك ليعلموا كيف الحكم فيه.

الاعراب:

وقوله تعالى: " قتال فيه " مجرور على البدل من الشهر، وهو من بدل الاشتمال، ومثله قوله تعالى: " قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود " (١)

وقال الاعشى:

لقد كان في حول ثواء ثويته * تقضي لبانات ويسأم سائم (١)

والذي يشتمل عليه المعنى هو أحوال الشيء، وما كان منه بمنزلة أحواله مما يغلب تعلق الفعل به، فلا يجوز رأيت زيدا لونه، لأن لونه يجوز أن يرى كما يجوز أن يرى نفسه، ويجوز سرق زيد ثوبه، لأن تعلق السرقة إنما هي بالملك دون النفس في غالب الامر، ويجوز أن تقول: رأيت زيدا مجيئه، ولا يجوز رأيت زيدا إياه، لأنه يجري مجرى حاله.

وقوله تعالى: " صد عن سبيل الله " رفع بالابتداء، ومابعد معطوف عليه، وخبره " أكبر عند الله " هذا قول الزجاج. وقال أبو علي الفارسي: لا يخلو

" ١ " سورة البروج آية: ٥.

" ٢ " ديوانه: ٧٧ رقم القصيدة: ٩. يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني ومعنى البيت يعلم من البيت قبله الذي هو مطلع القصيدة وهو:

هريرة ودعها وان لام لائم * غداة غد أم أنت للبين واجم
وهريرة قد ذكرها في قصيدة قبل هذه.

(٢٠٥)

أن يكون ارتفاع قوله: " صد عن سبيل الله وكفر " من أن يكون بالعطف على الخبر الذي هو " كبير " كأنه قال: قتال فيه كبير وصد وكفر: أي القتال، قد جمع أنه كبير، وأنه صد، وكفر. ويكون مرتفعا بالابتداء، وخبره محذوف لدلالة " كبير " المتقدم عليه، كأنه قال: والصد كبير، كقولك: زيد منطلق وعمرو، أو يكون مرتفعا بالابتداء، والخبر المظهر، فيكون الصد ابتداء، وما بعد من قوله:

" وكفر به وإخراج أهله " مرتفع بالعطف على الابتداء، والخبر قوله: " أكبر عند الله " قال: ولايجوز الوجهان الاولان - وقد أجازهما الفراء - أما الوجه الاول، فلان المعنى يصير: قل: قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله كبير، والقتال وإن كان كبيرا، ويمكن أن يكون صدا، لأنه ينفر الناس عنه، فلا يجوز أن يكون كفرا لان أحدا من المسلمين لم يقل ذلك، ولم يذهب إليه،

فلا يجوز أن يكون خبر المبتدء شيئاً لا يكون المبتدأ. ويمنع من ذلك أيضاً قوله بعد: " وإخراج أهله منه أكبر عند الله " ومحال أن يكون إخراج أهله منه أكبر من الكفر، لأنه لا شيء أعظم منه، ويمتدح الوجه الثاني أيضاً، لأن التقدير: فيه يكون قتال فيه كبير وكبير الصد عن سبيل الله والكفر به، وكذلك مثل الفراء، وقدره، فاذا صار المعنى:

وإخراج أهل المسجد الحرام أكبر عند الله من الكفر، فيكون بعض خلال الكفر أعظم منه كله، وإذا كان كذلك امتنع كما امتنع الأول وإذا امتنع هذان ثبت الوجه الثالث، وهو أن يكون قوله " وصد عن سبيل الله " ابتداء " وكفر به وإخراج أهله " معطوفاً عليه " وأكبر " خبراً.

المعنى:

فيكون المعنى: " وصد عن سبيل الله " أي منعهم لكم أيها المسلمون عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه - وأنتم ولاتيه، والذين هم أحق به منهم - وكفر بالله أكبر من قتاله في الشهر الحرام. قال الرماني، الفراء: إن التخلص من التأويل الثاني أن تقول: إخراج أهله منه أكبر من القتل فيه، لا من الكفر، لأن المعنى في إخراج أهله منه إخراج النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين عنه. قال:

(٢٠٦)

وأما التأويل الأول، فلا يجوز إلا أن يجعل " كفر به " يعني بالمسجد الحرام، لنتهاك حرمة. وقال: التأويل الأول أجود.

وهذا القتال في الشهر الحرام هو ما عابه المشركون على المسلمين، من قتل عبدالله بن جحش، وأصحابه عمر بن الحضرمي، لما فصل من الطائف، في غير - في آخر جمادى الآخر - وأخذهم العير، وهو أول من قتل من المشركين - فيما روي، وأول فئ أصابه المسلمون.

وأما قوله تعالى: " والمسجد الحرام " فقال الفراء: إنه محمول على قوله:

يسألونك عن القتال، وعن المسجد الحرام هذا لفظه. قال أبو علي الفارسي: وهذا أيضاً يمتنع، لأنه لم يكن السؤال عن المسجد الحرام، وإنما السؤال عن قتال ابن جحش الحضرمي وأصحابه الذين عابهم المشركون وعيروهم، فقالوا إنكم استحللتم الشهر الحرام، وهو رجب بقتلهم فيه، فكان السؤال عن هذا، لأن المسجد الحرام وإذا لم يجز هذا الوجه، لم يجز حمله على المضمرة المجرور، لأن عطف المظهر على المضمرة غير جائز، لأنه ضعيف جداً، فيكون محمولاً على الضمير في به، لأن المعنى ليس على كفر بالله أو بالنبي (صلى الله عليه وآله)، والمسجد، فثبت (١) أنه معطوف على (عن)

من قوله: " وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام "، لان المشركين صد والمسلمين عنه، كما قال: " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام "، (٢) فكما أن المسجد الحرام محمول في هذه الآية على (عن) المتصلة بالصد - بلا إشكال - كذلك في هذه الآية، وهو قول أبي العباس، أيضا قال الرماني: ما ذكره الفراء، واختاره الحسن ليس يمتنع، لان القوم لما استعظموا القتال في الشهر الحرام، وكان القتال عند المسجد الحرام يجري مجراه في الاستعظام جمعوها لذلك في السؤال، وإن كان القتال إنما وقع في الشهر الحرام خاصة، كأنهم قالوا: قد استحللت الشهر الحرام، والمسجد الحرام. وظاهر الآية يدل على أن القتال في الشهر الحرام كان محرما لقوله:

" ١ " في المطبوعة " بيت " .

" ٢ " سورة الحج آية: ٢٥ .

(٢٠٧)

" قل قتال فيه كبير " وذلك لا يقال إلا فيما هو محرم، محذور .

اللغة:

والصد، والمنع، والصدف واحد. صد يصد صدودا إذا صدف عن الشيء لعدوله عنه، وصددته عن الشيء، أصده صدا إذا عدلته عنه، ومنه قول تعالى:

" اذا قومك منه يصدون " (١) قرئ بالضم، والكسر. قال أبو عبيدة: يصدون يعرضون، ويصدون: يضحجون، وذلك لانهم، يعدلون إلى الصحيح. والصديد:

الدم المختلط بالقح يسيل من الجرح. والصدد: ما استقبلك وصار في قبالتك، لانه يعدل (٢) إلى مواجهتك. والصدان: ناحيتا الشعب أو الوادي. والصداد:

ضرب من الجردان يعدل لشدة تحرزه. والصداد: الوزغ (٣)، لانه يعدل عنه استقذارا له، وأصل الباب العدول.

المعنى:

وقوله " والفتنة أكبر من القتل " معناه الفتنة في الدين، وهي الكفر أعظم من القتل في الشهر الحرام. وقال قتادة وغيره، واختاره الجبائي: إن القتال في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام منسوخ بقوله: " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة " (٤) وبقوله: " فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " (٥) وقال عطا: هو باق (٦) على التحريم. وروى أصحابنا: أنه على التحريم فيمن يرى لهذه الاشهر حرمة، فانهم لا يبتدعون فيه بالقتال، وكذلك في الحرم، وإنما أباح تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) قتال أهل مكة وقت الفتح، ولذلك قال (صلى الله عليه وآله): إن الله أحلها في

هذه الساعة، ولا يحلها لاحد بعدي إلى يوم القيامة. ومن لا يرى ذلك، فقد نسخ في جهته
وجاز قتاله أي وقت كان.

" ١ " سورة الزخرف آية: ٥٧. " ٢ " في المطبوعة " بعدك ".
" ٣ " في المطبوعة " الورع ". " ٤ " سورة البقرة آية: ١٩٣.
" ٥ " سورة التوبة آية: ٦. " ٦ " في المطبوعة " فاق ".

(٢٠٨)

وقوله: " يردوكم " قال الجبائي: هو مجاز هاهنا، لان حقيقته: حتى تترتدوا بالحاءهم إياكم إلى
الارتداد، والاولى أن يكون حقيقة ذلك بالعرف.
اللغة:

وقوله تعالى: " ولا يزالون " فالزوال: العدول. ولا يزال موجودا، وما زال: أي مادام، وزال
الشئ عن مكانه يزول زوالا، وأزلته عنه، وزلته، وزالت الشمس زوالا، وزياللا، وزالت
الخيال بركبانها زياللا، ورجل زول، وامرأة زولة، وهو الظريف الركيبين (١) وأصل الباب
الزوال.

وقوله: " ومن يرتدد منكم عن دينه "، فهو على إظهار التضعيف، لسكون الثاني. ويجوز "
يرتد " - بفتح الدال - على التحريك، لالتقاء الساكنين، والفتح أجود.
وقوله: " فأولئك حبطت أعمالهم " معناه: أنها صارت بمنزلة ما لم يكن، لا يقاعهم إياها على
خلاف الوجه المأمور به، وليس المراد أنهم استحقوا عليها الثواب ثم انحبطت، لان الاحباط -
عندنا - باطل على هذا الوجه. ويقال: حبط عمل الرجل يحبط حبطا وحبوطا، وأحبطه الله
إحباطا، والحبط: فساد، يلحق الماشية في بطونها، لاكل الحباط، وهو ضرب من الكلاء. يقال:
حبطت الابل تحبط حبطا اذا أصابها ذلك.

وروي عن عطا عن ابن عباس: أن المسجد الحرام الحرم كله.
قوله تعالى:

إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور
رحيم (٢١٨) آية واحدة بلا خلاف.

" ١ " الركيبين - بفتح الراء والباء - وأصل الفخذين.

(٢٠٩)

النزول والاعراب:

ذكر جندب بن عبدالله، وعروة بن الزبير: أن هذه الآية نزلت في قصة عبدالله بن جحش وأصحابه، لما قاتلوا في رجب، وقتل واقد التميمي بن الحضرمي، ظن قوم أنهم إن سلموا من الاثم فليس لهم أجره، فأنزل الله الآية فيهم - بالوعد - .
وخبر " إن الذين آمنوا " الجملة التي هي قوله: " أولئك يرجون رحمة الله " أولئك ابتداء، ويرجون خبره، والجملة خبر (إن).

اللغة:

وقوله: " والذين هاجروا " فالهجر ضد الوصل، تقول: هجره يهجره هجرا، وهجرانا: اذا قطع مواصلته. والهجر: مالا ينبغي من الكلام، تقول: هجر المريض يهجر هجرا، لانه قال مالا ينبغي أن يهجر من الكلام، وما زال ذلك هجيرا أي دأبه (١). والهاجرة: نصف النهار، وهجر القوم تهجيرا: اذا دخلوا في الهاجرة.

وسمي المهاجرون لهجرتهم قومهم، وأرضهم. وأهجرت الجارية إهجارا: إذا شبت شبابا حسنا، فهي مهجرة، ويقال ذلك للناقة، والنخلة. والهجار: حبل يشد به يد الفحل إلى إحدى رجليه لانه يهجر بذلك التصرف وأصل الباب الهجر: قطع المواصلة.

وقوله تعالى: " وجاهدوا " تقول: جهدت الرجل جهدا: إذا حملته على مشقة، وجاهدت العدو ومجاهدة إذا حملت نفسك على المشقة قتاله. واجتهدت رأي: اذا حملت نفسك على المشقة في بلوغ صواب الرأي. والجهاد: الارض الصلبة، وأصل الباب الجهد: الحمل على المشقة.

وقوله تعالى: " في سبيل الله " يعني قتال العدو، ويدخل في ذلك مجاهدة النفس.

وقوله " أولئك يرجون " فالرجاء الامل، رجا يرجو رجاء، وترجي

" ١ " هجيره - بكسر الهاء والجيم مع تشديد الجيم - في المطبوعة (أي داته).

(٢١٠)

ترجيا، وارتجى ارتجاء، والرجا - مقصورا - ناحية كل شئ، ويثى رجوان وجمعه أرجاء، ومنه أرجاء البئر نواحيه، وقوله تعالى " مالكم لا ترجون لله وقارا (١) أي لا تخافون، قال أبو ذؤيب:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وخالفها في بيت نوب عواسل (٢)

أي لم يخف، وذلك أن الرجاء للنشئ الخوف من أن لا يكون، فلذلك سمي الخوف باسم الرجاء، وأصل الباب الامل، وهو ضد اليأس.

المعنى:

وفي الآية دلالة على أن مات مصرا على كبيرة لا يرجو رحمة الله لامرين:
أحدهما - أن ذلك دليل الخطاب، وذلك غير صحيح عند أكثر المحصلين.
والثاني - أنه قد يجتمع - عندنا - الايمان والهجرة والجهاد مع ارتكاب الكبيرة، فلا يخرج
من هذه صورته عن تناول الآية له، وإنما ذكر المؤمنين برجاء الرحمة وإن كانت هي لهم
لامحالة، لانهم لا يدرون ما يكون منهم من الإقامة على طاعة الله أو الانقلاب عنها إلى
معصيته، لانهم لا يدرون كيف تكون أحوالهم في المستقبل. وقال الجبائي: لانهم لا يعلمون أنهم
أدوا كما يجب لله عليهم، لان هذا العلم من الواجب، وهم لا يعلمونه إلا بعلم آخر، وكذلك
سبيل العلم في أنهم لا يعلمونه إلا بعلم غيره، وهذا يوجب أنهم لا يعلمون إذا كما يجب لله
عليهم. وقال ابن الاخشاد: لانه لا يتفق للعبد التوبة من كل معصية، واستدل على ذلك باجماع
الامة على أنه ليس لاحد غير النبي (صلى الله عليه وآله). ومن شهد له عليه، فلا.
ويمكن في الآية وجه آخر - على مذهبنا - وهو أن يكون رجاءهم لرخصة الله في غفران
معاصيهم التي لم يتفق لهم التوبة عنها، واخترموا دونهم، فهم يرجون أن يسقط الله عقابها
عنهم تفضلا. فأما الوجه الاول، فانما يصح على مذهب من

" ١ " سورة نوح آية: ١٣.

" ٢ " اللسان (رجا)، (خلف) في المطبوعة (عوامل) بدل (عوامل) أي دخل عليها وأخذ غسلها. ويروى " وحالفها " أي لزمها.

(٢١١)

يجوز أن يكفر المؤمن بعد إيمانه أو يفعل في المستقبل كبيرة يحبط ثواب إيمانه، وهذا لا يصح
على مذهبنا في الموفات. وما قاله الجبائي يلزم عليه وجوب مالا نهاية له، لانه إذا وجب عليه
أن يعلم أنه فعل ما وجب عليه بعلم آخر، وذلك العلم مما وجب عليه أيضا فيجب ذلك بعلم
آخر، وفي ذلك التسلسل.

وإنما ضم إلى صفة الايمان غيره في اعتبار الرجاء للرحمة ترغيبا في كل خصلة من تلك
الخصال، لانها من علامات الفلاح. فأما الوعد، فعلى كل واحدة منها إذا سلمت مما يبطلها.
وقال الحسن: الرجاء، والطمع هاهنا على الايمان إذا سلم العمل. وذكر الجبائي: أن هذه الآية
تدل على أنه لا يجوز لاحد أن يشهد لنفسه بالجنة، لان الرجاء لا يكون إلا مع الشك، وقد بين
الله تعالى: أن صفة المؤمن الرجاء للرحمة، لا القطع عليها لامحالة.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها هو أنه لما ذكر في الاولى العذاب، ذكر بعدها آية الرحمة،
ليكون العبد بين الخوف والرجاء إذ ذلك أو كد في الاستدعاء، وأحق بتدبير الحكماء.

وكتبت " رحمة الله " بالثناء في المصحف على الوصل، والاقيس بالهاء على الوقف، كما كتب " يدع الداع " (١) و " يقضي بالحق " (٢) " واضرب لهم مثلاً " (٣) كل ذلك على الوقف.
قوله تعالى:

يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما
ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢١٩)

" ١ " سورة القمر آية ٦ .

" ٢ " سورة المؤمن آية: ٢٠ .

" ٣ " سورة الكهف آية: ٣٢ .

(٢١٢)

القراءة:

قرأ أهل الكوفة إلا عاصم " إثم كثير " بالثناء. الباقون بالباء، وقرأ أبو عمرو وحده " قل العفو " بالرفع. الباقون بالنصب.

اللغة:

قال أكثر المفسرين: الخمر عصير العنب إذا اشتد. وقال جمهور أهل المدينة:

ما أسكر كثيره فهو خمر، وهو الظاهر في رواياتنا.

وأما اشتقاقه في اللغة: تقول خمرت لدابة أخمرها خمرا إذا سقيتها الخمر، وخمرت العجين والطين أخمره خمرا: إذا تركته فلم تستعمله حتى يجود. وأخمر القوم إخمارا: إذا تواروا في الشجر. ويقال لما سترك من شجر: خمري (١)، مقصورا، واختمرت المرأة، وخمرت إذا لبست الخمار: وهي المقنعة. وخامره الحزن مخامرة إذا خالطه. وخمر الاناء وغيره تخمرا: إذا غطيته، واستخمرت فلانا: إذا استعبدته.

والخمار بخار يعقبه شرب الخمر. والمخامرة: المقاربة. والخمر: ما وارك من الشجر، وغيره. والخمر: شبيه بالسجادة. والمخمرة من الغنم: سوداء ورأسها أبيض. ودخل في خمار الناس: إذا دخل في جماعة، فخفي فيهم، وأصل الباب الستر.

والميسر: قال ابن عباس، وعبدالله بن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن سيرين: هو القمار كله وهو الظاهر في رواياتنا.

واشتق الميسر من اليسر، وهو وجوب الشيء لصاحبه، من قولهم: يسر لي هذا الشيء: إذا وجب لي، فهو تيسر لي يسرا، وميسرا، والياسر: الواجب بقداح وجب لك أو غير ذلك. وقيل للمقامر: ياسر، ويسر، قال النابغة:

أو ياسر القداح بوفره * أسف تأكله الصديق مخلع (٢)

" ١ " في المطبوعة (ضراً) وهو تصحيف.

" ٢ " لم أجد هذا البيت في شعر النابغة، وهو موجود في تفسير الطبري ٤ : ٣٢٢.

الياسر: المقامر. القداح: تستعمل في لعب القمار الوفير: المال الكثير. مخلع: قد لعب في القمار مرة بعد مرة. وكأنه يصف لاعب قمار قد خسر ماله الواسع وقد أسف عليه عندما رأى أصدقاءه الذين يلعبون دائماً قد أخذوه منه وتقاسموه.

(٢١٣)

يعنى القامر. وقيل أخذ من التجزءة، لان كل شئ جزأته، فقد يسرته، والياسر: الجازر. والميسر: الجزور. وقيل الميسر مأخوذ من اليسر، وهو تسهل الشئ، لانهم - كانوا - مشتركون في الجزور، ليسهل أمرها إلا أنه المعنى الجهة: القمار. المعنى:

وقوله: " قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس " فالنفع التي في الخمر: ما كانوا يأخذونه في أثمانها، وربح تجارتها، وما فيها من اللذة بتناولها: أي فلا تغتروا بالنفع فيها، فالضرر أكثر منه. وقال الحسن، وغيره: هذه الآية تدل على تحريم الخمر، لانه ذكر أن فيها إثمًا، وقد حرم الله الاثم بقوله: " قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم " (١) على أنه قد وصفها بأن فيها إثمًا كبيرًا والكبير يحرم بلا خلاف.

وقال قوم: المعنى وإثمهما بعد تحريمهما أكبر من نفعهما قبل تحريمهما. وقال آخرون: المعنى إن الاثم بشرب هذه، والقمار بها أكبر وأعظم، لانهم كانوا إذا استكروا وثب بعضهم على بعض، وقائل بعضهم بعضا. وقال قتادة: لاتدل الآية على تحريمهما، وإنما تدل الآية التي في المائدة في قوله: " إنما الخمر والميسر " (٢)

إلى آخرها. ووجه قتادة على أنه قد يكثر فيهما " إثم كبير ". وقوله: " يسألونك ماذا ينفقون " قال السدي: نسخته آية الزكاة. وقال مجاهد: هو فرض ثابت. وقال قوم: هو أدب من الله ثابت غير منسوخ، وهو الاقوى، لانه لادليل على نسخها.

و " العفو " هنا قيل في معناه ثلاثة أقوال:

قال ابن عباس، وقتادة: هو ما فضل عن الغنى.

وقال الحسن، وعطاء: هو الوسط من غير إسراف ولا إقتار.

وقال مجاهد: هو الصدقة المفروضة.

" ١ " سورة الاعراف آية: ٣٢.

" ٢ " آية: ٩٣.

(٢١٤)

وروي عن أبي جعفر (ع) أن العفو: ما فضل عن قوت السنة، فنسخ ذلك بآية الزكاة. وروي عن أبي عبدالله (ع) أن العفو هاهنا: الوسط. والعفو مأخوذ من الزيادة ومنه قوله: " حتى عفوا " (١) أي حتى زادوا على ما كانوا عليه من العدد قال الشاعر:

ولكننا نعض السيف منها * باسبغ عافيات الشحم كوم (٢)

أي زائدات الشحم. وقال قوم: هو مأخوذ من الترك من قوله: " فمن عفي له من أخيه شيء " (٣) أي ترك له، فيكون العفو المتروك غنى عنه، ومن رفع معناه ما الذي ينفقون، وفي الأول كأنه قال: أي شيء ينفقون، فقالوا: العفو. وإنما وحد الكاف في كذلك، وإن كان الخطاب لجماعة، لاحد أمرين: أحدهما - في تقدير كذلك أيها السائل. والثاني - أن يكون الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) ويدخل فيه الأمة، كما قال: " يا أيها النبي اذا طلقتم النساء " (٣) وقوله: " لعلمك تتفكرون " أي لكي تتفكروا، وهي لام الغرض. وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى أراد منهم التفكير سواء تفكروا أو لم يتفكروا.

قوله تعالى:

في الدنيا والآخره ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لاعتنكم إن الله عزيز حكيم (٢٢٠)

آية واحدة. والاعراب والمعنى:

العامل في الضرف من قوله: " في الدنيا والآخره " يحتمل أمرين:

" ١ " سورة الاعراف آية: ٩٤.

" ٢ " قائله لبيد بن ربيعة، ديوانه: ١٩ رقم القصيدة: ٣ في المطبوعة " بعض السيف منا " وهو خطأ، لان البيت من قصيدة يفتخر في كرمهم: يقول:

" ٣ " سورة البقرة آية: ١٨٧.

" ٤ " سورة الطلاق آية: ١.

(٢١٥)

أحدهما - " يبين " على قول الحسن. والثاني - " يتفكرون " في قول غيره.

وأجاز الزجاج الوجهين معا.

وكيفية فكرهم في الدنيا والآخره، قال قتادة: يتفكرون في أن الدنيا دار بلاء، وفناء، والآخره دار جزاء وبقاء.

اللغة:

وقوله تعالى: " ويسألونك عن اليتامى "، فهو جمع يتيم، والفعل منه يتم بيتم يتما، كقولك: نكر نكرا. وحكى الفراء: يتم بيتم يتما، كشغل شغلا.

وقوله: " وإن تخالطوهم " فالمخالطة: مجامعة يتعذر معها التمييز، كمخالطة الخل للماء، والماء للماء وما أشبه ذلك، تقول: خلط يخلط خلطا، وخلطه خلطا ومخالطة، واختلاطا،

وتخالطوا تخالطاً، وخلطه تخليطاً، وتخلط تخلطاً. وأخلط الفرس: إذا قصر في جريه.
واستخلط الفحل: إذا خالط ثيله حياء الناقة (١)
. والخلاط: الجنون، لاختلاط الامور على صاحبه. والخليطان: الشريكان، لاختلاط أموالهما.
والخليط: القوم أمرهم واحد والخلاط: داء في الجوف. ورجل خلط:
متحبيب إلى الناس، لطلبه الاختلاط بهم.
المعنى:

ومعنى الآية الاذن لهم فيما كانوا متخرجون منه من مخالطة الايتام في الاموال: من المأكل،
والمشرب والمسكن، ونحو ذلك، فأذن الله لهم في ذلك إذا تحروا (٢)
الاصلاح بالتوفير على الايتام - في قول الحسن، وغيره - وهو المروي في أخبارنا.
الاعراب:

وقوله: " فاخوانكم " رفع على فهم (٣) أخوانكم خالطوهم أو لم تخالطوهم،

" ١ " في المطبوعة " ثيله حال الناقة " وهو تصحيف.

" ٢ " في المطبوعة " اذا انحروا " وهو تصحيف " ٣ " في المطبوعة " فهو " .

(٢١٦)

وقوله: " فان خفتم فرجالاً أو ركبانا " (١) نصب على فصلوا (٢) وهو حال الصلاة خاصه
لاحال معنى فأنتم رجال أو ركبنا، كيف تصرفتم الحال. ويجوز - في العربية - فاخوانكم
على النصب على تقدير: فاخوانكم تخالطون، والوجه الرفع، لما بيناه.
اللغة:

وقوله: " ولو شاء الله لاعتنكم " معناه: التذكير بالنعمة في التوسعة على ما توجبه الحكمة مع
القدرة على التضييق الذي فيه أعظم المشقة، والاعنات: الحمل على مشقة لا تطاق فعلاً.
وعنت العظم عننا اذا أصابه وهن أو كسر، وأعنته إعناتاً إذا عسفه (٣) بالحمل على مكروه
لا يطيقه. وعنت عننا إذا اكتسب مائثماً، وتعنته تعنتاً إذ لبس عليه في سؤاله له. والاكمة
العنوت: هي الطويلة من الاكام، وأصل الباب المشقة.
المعنى:

وقال البلخي: في هذه الآية دلالة على فساد قول من قال: إنه تعالى لا يقدر على الظلم، لان
الاعنات - بتكليف ما لا يجوز في الحكمة - مقدور له، إذ لو يشاء لفعله.
وقال الجبائي: لو أعنتهم لكان جائزاً حسناً، لكنه تعالى وسع على العباد، لما في التوسعة من
تعجيل النعمة. وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة (٤)

في البذل، وتكليف ما لا يطاق، أما البذل، فلأنهم يذهبون إلى النهي عن الكفر الموجود في حالة بأن يكون الايمان بدلا منه، وهذا أعظم ما يكون من الاعنات، لانه أمر له (٥) بالمحال، هو ليكن منك الايمان بدلا من الكفر الموجود في

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٣٩. " ٢ " في المطبوعة " فضلوا " بتشد الضاد.

" ٣ " عسفه: ظلمه، والعسف الظلم.

" ٤ " في المطبوعة " بطلان " ساقطة.

" ٥ " في المطبوعة " أمر " ساقطة.

(٢١٧)

الحال، وكذلك النهي فيما لم يكن منك ما هو كائن من الكفر الموجود في الحال كل ذلك محال، وكذلك الامر بالايمان، من لم يقدر على الايمان، فاذا لم يفعله عذب بأشد العذاب، وإذا لم يكلف من الممكن ما فيه مشقة وشدة، للمظاهرة على عباده بالنعمة، لم يجز أن يكلف ما ليس على قدره، لانه أسوء تناقض المظاهرة بالنعمة.

وقوله: " إن الله عزيز حكيم " أي يفعل بعزته ما يحب، لا يدفعه عنه دافع.

" حكيم " ذو حكمة فيما أمركم به من أمر اليتامى وغيره.

قوله تعالى:

ولا تتكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تتكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بأذنه ويبين آياته للناس للعلم يتذكرون (٢٢١) آية واحدة.
اللغة:

نكح ينكح نكحا ونكاحا: إذا تزوج، وأنكح غيره إنكاحا: إذا زوجه وتناكحوا تناكحا، ونكحه مناكحة قال الاعشى:

ولا تقربن جارة إن سرها * عليك حرام فانكحن أو تأبدا (١)

أي تعفف وأصل الباب التزويج.

المعنى:

وهذه الآية على عمومها - عندنا - في تحريم مناكحة الكفار، وليست منسوخة ولا مخصوصة. وقال ابن عباس في رواية شهر بن حوشب عنه قال: فرق

" ١ " ديوانه: ١٣٧ رقم القصيدة ١٧. والتأبد: التعزب أبدا وهو الابتعاد عن النساء.

يقول: لا تتزوج جارتك وتزوج غيرها أو استعفف ولا تقترب من النساء.

(٢١٨)

عمر بين (١) طلحة وحذيفة وبين إمرأتيهما اللتين كانتا عندهما (٢) وقال غيره عن ابن عباس، وإليه ذهب الحسن، ومجاهد والربيع: هي عامة إلا أنها نسخت بقوله: "والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب"، وقال قتادة، وسعيد بن جبير: هي على الخصوص، وإنما اختير ما قلناه لأنه لا دليل على نسخها، ولا على خصوصها، وسنبين وجه الآية في المائدة إذا انتهينا إليها.

فأما المجوسية، فلا يجوز نكاحها إجماعاً. والذي لا يجوز: أن يتزوج مسلمة إجماعاً، وامرأها واجباراً (٣).

وقوله "ولامة مؤمنة خير من مشركة" فالامة: المملوكة. يقال أقرت بالاموة أي بالعبودية وأميت فلانة، وتأميتها إذا جعلتها أمة قال الراجز: يرضون بالتعبيد والتأمي (٤)

وجمع أمة إماء وآم وأصل الباب العبودية، وأصل أمة فعلة بدلالة قولهم إماء وآم في الجمع نحو أكمة وأكام وآكم. والفرق بين "ولو أعجبكم" وبين "إن أعجبكم: أن لو للماضي وإن للمستقبل وكلاهما يصح في معنى الآية، ولا يجوز نكاح الوثنية إجماعاً، لأنها تدعو إلى النار كما حكاها الله تعالى، وهذه العلة بعينها قائمة في الذمية من اليهودية والنصارى، فيجب أن لا يجوز نكاحها. وفي الآية دلالة على جواز نكاح الامة المؤمنة مع وجود الطول، لقوله "ولامة مؤمنة خير من مشركة" فأما الآية التي في النساء، وهي قوله: "ومن لم يستطع منكم طولا" (٥) فإنما هي على التنزيه دون التحريم، ومتى أسلم الزوجان معا ثبتنا على النكاح - بلا خلاف - وبه قال الحسن. وإن أسلمت قبله طرفة عين، فقد وقعت الفرقة - عند الحسن،

" ١ " في المطبوعة " عمر بن طلحة " وهو تحريف.

" ٢ " في المطبوعة " وحذيفة وامرأتهما اللتين كانتا عندهما أبين " وهو تحريف فاحش.

" ٣ " هكذا في الاصل ولم أجد لها مخرجا مقطوعا به، ولعلها: اجماعا وقولا وأخبارا أي اجماعا على الفتوى، وأقوال المفسرين والاخبار المأثورة.

قائله رؤبة. اللسان " أما " في المطبوعة " ترضون " بدل " يرضون " .

" ٥ " سورة النساء آية: ٢٤.

(٢١٩)

وكثير من الفقهاء، وعندنا ينتظر عدتها فان أسلم الزوج بنينا أن الفرقة لم تحصل، ورجعت إليه، وإن لم يسلم بنينا أن الفرقة وقعت حين الاسلام غير أنه لا يمكن من الخلو بها. فان أسلم الزوج وكانت ذمية استباح وطؤها بلا خلاف. وإن كانت وثنية انتظر إسلامها ما دامت في العدة، فان أسلمت ثبت عقده عليها، وإن لم تسلم بانته منه.

فان قيل: كيف قيل للكافر الموحد مشرك: قيل فيه قولان:

أحدهما - أن كفره نعمة الله بمنزلة الاشرار في العبادة في عظم الجرم.

والآخر ذكره الزجاج - وهو الاقوى -، لانه اذا كفر بالنبى (صلى الله عليه وآله) فقد أشرك فيما لا يكون إلا من عند الله، وهو القرآن بزعمه أنه من عند غيره.

وقوله "بإذنه" معناه أحد أمرين: أحدهما - بإعلامه. والآخر - بأمره، وهو قول الحسن، وأبي علي وغيرهما.

قوله تعالى:

ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢٢٢) آية واحدة.

القراءة:

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا (حتى يطهرن) بتشديد الطاء والهاء. الباقر بالتخفيف.

المعنى:

قيل: إنما سألوا عن المحيض، لانهم كانوا على تجنب أمور: من مواكلة الحائض، ومشاربتها حتى كانوا لا يجالسونها في بيت واحد، فاستعلموا ذلك،

(٢٢٠)

أوجب هو أم لا؟ في قول قتادة، والربيع، والحسن، وقال مجاهد: كانوا على استجازة إتيانهم في الادبار أيام الحيض، فلما سألوا عنه، بين تحريمه، والاول - عندنا - أقوى. اللغة:

والمحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضا ومحیضا، فهي حائض. والمره حيضة (١) وجمعه حيض وحيضات. ونساء حيض. والمستحاضة: التي عليها الدم فلا رواق (٢) وأصل الباب الحيض: مجئ الدم لانثى على عادة معروفة.

أحكام الحيض، والاستحاضة:

وصفة الحيض: هو الدم الغليظ الاسود الذي يخرج بحرارة. وأقل الحيض ثلاثة أيام، وأكثره عشرة، وهو قول الحسن، وأهل العراق. وقال الشافعي، وأكثر أهل المدينة: أقل الحيض يوم

وليلة، وأكثره خمسة عشر يوماً. وحكي أن قوما قالوا: ليس له وقت محدود: إنما هو مارأت دم الحيض. وأقل الطهر عشرة أيام، وخالف الجميع وقالوا: خمسة عشر يوماً. والاستحاضة: دم رقيق أصفر بارد.

وحكم الاستحاضة حكم الطهر في جميع الاحكام إلا في تجديد الوضوء - عند كل صلاة - ووجوب الغسل عليها على بعض الوجوه - عندنا - .

وقوله: " أذى " معناه: قذر ونجس - في قول قتادة والسدي - .

وقوله: " فاعتزلوا النساء في المحيض " معناه: اجتنبوا الجماع في الفرج، وبه قال ابن عباس، وعائشة، والحسن، وقاتادة، ومجاهد. وما فوق المنزر أودونه، عن شريح، وسعيد بن المسيب. وعندنا: لا يحرم منها غير موضع الدم فقط. ومن وطئ الحائض في أول الحيض، كان عليه دينار، وإن كان في وسطه، فنصف دينار، وفي آخره ربع دينار. وقال ابن عباس: عليه دينار، ولم يفصل. وقال الحسن:

يلزمه رقبة أو بدنة أو عشرون صاعاً.

" ١ " في المطبوعة " والمرأة حيضة " وهو تصحيف.

(٢) هكذا في المطبوعة.

(٢٢١)

اللغة:

ويقال: عزله يعزله عزلاً، واعتزل اعتزلاً، وعزله تعزيراً. والاعزل: الذي لاسلح معه. وعزلاً المزايدة: مخرج الماء من أحد جوانبها، والجمع عزال. وكل شيء نحيت عنه موضع، فقد عزلته عنه، ومنه عزل الوالي. وأنت عن هذا بمعزل: أي منتحى. والاعزل من السماكين: الذي نزل به القمر. والمعزال من الناس: الذي لا ينزل مع القوم في السفر، لكنه ينزل ناحية، وأصل الباب الاعتزال، وهو التتحى عن الشيء.

المعنى:

وقوله: " حتى يطهرن " بالتخفيف معناه: ينقطع الدم عنهن. وبالتشديد معناه: يغتسلن - في قول الحسن، والفراء - وقال مجاهد، وطاووس: معنى تطهرن: توضحن، وهو مذهبنا.

والفرق بين (طهرت) و (طهرت) أن فعل لا يتعدى، لأن ما كان على هذا البناء لا يتعدى، وليس كذلك فعل. ومن قرأ بالتشديد قال: كان أصله " يتطهرن " فأدغمت التاء في الطاء

وعندنا يجوز وطئ المرأة إذا انقطع دمها، وطهرت وإن لم تغتسل إذا غسلت فرجها. وفيه خلاف، فمن قال: لا يجوز وطؤها إلا بعد الطهر من الدم، والاعتسال: تعلق بالقراءة بالتشديد، فإنها تفيد الاعتسال، ومن قال: يجوز، تعلق بالقراءة بالتخفيف وأنها لاتفيد الاعتسال. وهو الصحيح. ويمكن في قراءة التشديد أن تحمل على أن المراد به توضأً على ما حكيناه عن طاووس، وغيره. ومن استعمل قراءة التشديد يحتاج أن يحذف القراءة بالتخفيف أو يقدر محذوفاً تقديره حتى يطهرن ويتطهرن، وعلى ما قلناه لا يحتاج إليه. وقوله: " فإذا تطهرن " معناه: اغتسلنا، وعلى ما قلناه: حتى يتوضأً. وقوله: " فأتوهن من حيث أمركم الله " صورته صورة الامر، معناه

(٢٢٢)

الاباحة، كقوله: " فإذا حللتم فاصطادوا " (١) " وإذا قضيت الصلاة فانتشروا " (٢) وقوله: " من حيث أمركم الله " معناه من حيث أمركم الله بتجنبه في حال الحيض، وهو الفرج، على قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع. وقال السدي، والضحاك: من قبل الطهر دون الحيض. وعن ابن الحنفية من قبل النكاح دون الفجور، والاول أليق بالظاهر. ويحتمل أن يكون من حيث أباح الله لكم دون ما حرمه عليكم من إتيانها وهي صائمة أو محرمة أو معتكفة، ذكره الزجاج. وقال الفراء: لو أراد الفرج لقال في حيث، فلما قال: " من حيث " علمنا أنه أراد من الجهة الذي أمركم الله بها. وقال غيره: إنما قال: " من حيث " ولم يقل في حيث، لان (من) لابتداء الغاية في الفعل، نحو قولك: أت زيدا من مأناه من الوجه الذي يؤتى منه. وقوله: " يحب التوابين ويحب المتطهرين " قال عطا: المتطهرين بالماء. وقال مجاهد: المتطهرين من الذنوب، والاول مروى في سبب نزول هذه الآية، والمعنى يتناول الامرين. وإنما قال: " المتطهرين " ولم يقل المتطهرات، لان المؤنث يدخل في المذكر، لتغليب عليه. قوله تعالى:

نساءؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقداموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين (٢٢٣) آية واحدة بلا خلاف.

قيل في معنى قوله: " حرث لكم " قولان:

أحدهما - أن معناه: مزرع أولادكم، كأنه قيل: محترث لكم، في قول ابن عباس، والسدي، وإنما الحرث: الزرع في الاصل.

والقول الثاني: نساءؤكم ذو حرث لكم، فأتوا موضع حرثكم أنى شئتم،

" ١ " سورة المائدة آية: ٣.

" ٤ " سورة الجمعة آية: ١٠.

(٢٢٣)

ذكره الزجاج. وقيل: الحرث كناية عن النكاح على وجه التشبيه.
وقوله: " أنى شئتم " معناه: من أين شئتم - في قول قتادة، والربيع وقال مجاهد: معناه كيف شئتم. وقال الضحاك معناه متى شئتم، وهذا خطأ عند جميع المفسرين، وأهل اللغة، لان (أنى) لا يكون إلا بمعنى من أين، كما قال:
" أنى لك هذا قالت هو من عند الله " (١). وقال بعضهم: معناه من أي وجه واستشهد بقول الكميت بن زيد:

أنى ومن أين أبك الطرب * من حيث لاصبوة ولاريب (٢)

وهذا لا شاهد فيه، لانه يجوز أن يكون أتى به، لاختلاف اللغتين، كما يقولون: متى كان هذا وأي وقت كان، ويجوز أن يكون بمعنى كيف. وتأول مالك، فقال: " أنى شئتم " تفيد جواز الاتيان في الدبر، ورواه عن نافع عن أبي عمرو، وحكاه زيد بن أسلم عن محمد بن المنكدر، وروي من طرق جماعة عن ابن عمر، وبه قال أكثر أصحابنا، وخالف في ذلك جميع الفقهاء، والمفسرين، وقالوا: هذا لايجوز من وجوه:

أحدها - أن الدبر ليس بحرث، لانه لا يكون فيه الولد. وهذا ليس بشئ لانه لم يمتنع أن تسمى النساء حرثا، لانه يكون منهن الولد، ثم يبيح الوطئ فيما لا يكون منه الولد، ويدل على ذلك أنه لاخلاف أنه يجوز الوطئ بين الفخذين وإن لم يكن هناك ولد.

وثانيها - قالوا: قال الله: " فأتوهن من حيث أمركم الله " وهو الفرج، والاجماع على أن الآية الثانية ليست بناسخة للاولى. وهذا أيضا لا دلالة فيه، لان قوله: " من حيث أمركم الله " معناه: من حيث أباح الله لكم، أو من الجهة التي شرعها لكم، على ما حكيناه عن الزجاج، ويدخل في ذلك الموضوعان معا.

" ١ " سورة آل عمران آية: ٣٧.

" ٢ " الهاشميات: ٤١. قوله " أبك " معترضة بين كلامين، كما تقول: " ويحك " وهي بمعنى وبلك. وقيل: أن أبك بمعنى راجعك الطرب.

(٢٢٤)

وثالثها - قالوا: إن معناه: من أين شئتم: أي أتوا الفرج من أين شئتم، وليس في ذلك إباحة لغير الفرج. وهذا أيضا ضعيف، لانا لانسلم أن معناه الفرج، بل عندنا معناه: أتوا النساء، أو أتوا الحرث من أين شئتم، ويدخل فيه جميع ذلك.

ورابعها - قالوا: قوله في المحيض " قل هو أذى فاعتزلوا النساء " في المحيض " فاذا حرم للاذى في الدم، والاذى بالنجو أعظم منه. وهذا أيضا ليس بشئ، لان هذا حمل الشئ على غيره من غير علة، على أنه لا يمتنع أن يكون المراد بقوله:

" قل هو أذى " غير النجاسة، بل المراد أن في ذلك مفسدة، ولا يجوز أن يحمل على غيره إلا دليل يوجب العلم على أن الاذى بمعنى النجاسة حاصل في البول، ودم الاستحاضة ومع هذا، فليس بمنهي عن الوطئ في الفرج.

ويقال: أن هذه الآية نزلت ردا على اليهود، وأن الرجل إذا أتى المرأة من خلف في قبلها خرج الولد أحوال، فأكذبهم الله في ذلك، ذكره ابن عباس، وجابر، ورواه أيضا أصحابنا. وقال الحسن: أنكر اليهود إتيان المرأة قائمة، وباركة، فأنزل الله إباحته بعد أن يكون في الفرج، وهو السبب الذي روي، ولا يمنع أن يكون ما ذكرناه مباحا، لان غاية ما في السبب أن تطابقه الآية، فأما أن لا تتعداه، فلا يجب عند أكثر المحصلين (١).

وقوله: " وقدموا لانفسكم " أي قدموا الاعمال الصالحة التي أمر الله بها عباده، ورجبهم فيها، فتكون ذخرا عند الله.

ووجه اتصال قوله: " وقدموا لانفسكم " بما قبله: أنه لما قدم الامر بعد أشياء قيل: " قدموا لانفسكم " بالطاعة فيما أمرتم به، واتقوا مجاوزة الحد فيما بين لكم، وفي ذلك الحث على العمل بالواجب الذي عرفوه، والتحذير من مخالفة ما أزموه.

وقوله: " وبشر المؤمنين " فالبشارة: الدلالة على ما يظهر به السرور في

في المطبوعة " المحطين " .

(٢٢٥)

بشر الوجه.

وقوله: " أنكم ملاقوه " أي اتقوا من معاصيه التي نهاكم عنها، واتقوا عذابه، واعلموا أنكم ملاقوا عذابه إن عصيتموه، وملاقوه ثوابه إن أطعتموه، وإنما أضافه اليه على ضرب من المجاز، كما يقول القائل لغيره: سنلقى ما عملت، وإنما يريد جزاء ما عملت، فيسمى الجزاء باسم الشئ.

قوله تعالى:

ولا تجعلوا الله عرضة لآيمانكم أن تبروا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم (٢٢٤) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

قيل في معنى قوله: " ولا تجعلوا الله عرضة لآيمانكم " ثلاثة أقوال:

أحدها - أن العرضة: علة، كأنه قال لا تجعلوا اليمين بالله علة مانعة من البر، والتقوى: من حيث تتعمدوا، لتعتلوا بها، وتقولوا: قد حلفنا بالله، ولم تحلفوا به، وهذا قول الحسن، وطاووس، وقتادة، وأصله - في هذا الوجه - الاعتراض به بينكم وبين البر والتقوى، للامتناع منهما، لأنه قد يكون المعترض بين الشئيين مانعا من وصول أحدهما إلى الأخرى، فالعلة مانعة كهذا المعترض. وقيل: العرضة:

المعترض، قال الشاعر:

لا تجعليني عرضة اللوائم الثاني - " عرضة ": حجة، كأنه قال لا تجعلوا اليمين بالله حجة في المنع " أن تبروا وتتقوا " بأن تكونوا قد سلف منكم يمين ثم يظهر أن غيرها خير منها، فافعلوا الذي هو خير، ولا تحتجوا بما سلف من اليمين، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، والربيع، والأصل في هذا القول والاول واحد، لأنه منع من جهة الاعتراض بعلة أو حجة. وقال بعضهم: إن أصل عرضة: قوة، فكأنه قيل: ولا تجعلوا الحلف بالله قوة لآيمانكم في ألا تبروا وأنشد لكعب بن زهير:

(٢٢٦)

من كل نضاحة الذفرى إذا عرقت * عرضتها طامس الاعلام مجهول (١)
وعلى هذا يكون الاصل العرض، لان بالقوة يتصرف في العرض والطول، فالقوة: عرضة لذلك.

الثالث - بمعنى: ولا تجعلوا اليمين بالله مبتذلة في كل حق وباطل، لان تبروا في الحلف بها، وانقوا المآثم فيها، وهو المروي عن عائشة، لانها قالت:

لاتحلفوا به وإن بررتم، وبه قال الجبائي، وهو المروي عن أئمتنا (ع) وأصله على هذا معترض بالبذل: لا تبذل يمينك في كل حق وباطل. فأما في الاصل، فمعترض بالمنع أي لا يعترض بها مانعا من البر، والتقوى، فتقدير الاول: لا تجعل الله مانعا من البر والتقوى باعتراضك به حالفا، وتقدير الثاني - لا تجعل الله مما تحلف به دائما باعتراضك بالحلف في كل حق وباطل، لان تكون من البررة، والانتقاء.

اللغة:

واليمين، والقسم، والحلف واحد. واليمينية: ضرب من برود اليمن. وأخذ يمناً، ويسرة. ويمن
ييمن يمناً، فهو ميمون. ويمن، فهو ميمن: إذا أتى باليمن، والبركة. وتيمن به تيمناً، وتيامن
تيامناً. واليمين خلاف الشمال، وأصل الباب اليمن، والبركة.
المعنى:

وقوله: " أن تبروا " قيل في معناه ثلاثة أقوال:
أحدها - " أن تبروا ": لان تبروا على معنى الإثبات.
الثاني - أن يكون على معنى لدفع أن تبروا، أو لتترك أن تبروا - في قول

" ١ " ديوانه: ٩، واللسان " عرض ". نضح الرجل بالعرق نضحاً: نض به حتى سال سيلاً، ونضاحة: شديدة النضح.
والذفرى: الموضع الذي يعرق خلف الأذن، وهو من كل حيوان حتى الإنسان وهو العظم الشاخص خلف الأذن.
والطامس: الدارس الذي أمحي أثره. والاعلام:
أعلام الطريق. وأرض مجهولة إذا كان لا أعلام فيها ولا جبال. يقول: إذا نزلت هذه المجاهل، عرقت حينئذ قوتها
وشدتها وصبرها على العطش والسير في الملوات.

(٢٢٧)

أبي العباس.

الثالث - على تقدير: ألا تبروا، وحذفت (لا) لانه في معنى القسم كما قال امرؤ القيس:
فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي (١)
أي لا أبرح، هذا قول أبي عبيد، وأنكر أبو العباس هذا، لانه لما كان معه (أن)، بطل أن يكون
جواباً للقسم، وإنما يجوز (والله أقم في القسم بمعنى لأقوم، لانه لو كان إثباتاً، لقال لاقومن،
باللام والنون. والمعنى في قول أبي العباس، وأبي عبيد واحد، والتقدير مختلف، فحمله
أبو العباس على ماله نظير من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وأنكر قياسه على
ما يشبهه.

الاعراب:

وفي موضع أن تبروا ثلاثة أقوال:

قال الخليل، والكسائي: موضعه الخفض بحذف اللام مع أن خاصة.
الثاني - قال سيوييه وأكثر النحويين: إن موضعه النصب، لانه لما حذف المضاف وصل
الفعل وهو القياس.

الثالث - قال قوم: موضعه الرفع على " أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس " أولى، وحذف،
لانه معلوم المعنى، أجاز ذلك الزجاج وإنما حذف اللام جاز مع (أن)، ولم يجز مع المصدر،

لان (أن) يصلح معها الماضي، والمستقبل، نحو قولك جئتك أن ضربت زيدا، وجئتك أن تضرب زيدا، والمصدر ليس كذلك، كقولك: جئتك لضرب زيد، فمعنى ذلك: أنه لما وصل بالفعل، احتمل الحذف كما يحتمل (الذي) وإذا وصل بالفعل من حذف ضمير المفعول، ما لا يحتمله الالف واللام إذا وصل بالاسم، نحو الذي ضربت زيد: يريد ضربته. فأما الضاربه أنا زيد، فلا يحسن إلا بالهاء، وذلك لان الفعل أثقل، فهو بالحذف أولى. ويجوز أن

" ١ " ديوانه: ١٤١.

(٢٢٨)

يكون لما صلح للامرين كثير في الاستعمال، فكان بالحذف أولى مما قل منه. وقال الزجاج إنما جاز حذف اللام مع (أن)، ولم يجز مع المصدر، لان (أن) إذا وصلت، دل بما بعدها على الاستقبال، والمعنى تقول: جئتك أن ضربت زيدا، وجئتك أن تضرب زيدا، فلذلك جاز حذف اللام، فاذا قلت: جئتك ضرب زيد، لم يدل الضرب على مضي ولا إستقبال. المعنى:

فاذا حلف لا يعطي من معروفه، ثم رأى أن يره خيرا، أعطاه، ونقض يمينه. وعندنا لا كفارة عليه، وإنما جاز ذلك، لانه لا يخلو من أن يكون حلف يميناً جائزة أو غيره جائزة، فان كانت جائزة، فهي مقيدة بأن لا يرى ما هو خير، فليس في هذا مناقضة للجائزة، وأن كانت غير جائزة، فنقضها غير مكروه.

وقوله: " والله سميع عليم " معناه: أنه سميع ليمينه، عليم بنيته فيه، وفي ذلك تذكير، وتحذير. قوله تعالى:

لا يؤأخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤأخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم (٢٢٥) آية.

المعنى:

اختلفوا في يمين اللغو في هذه الآية، فقال ابن عباس، وعائشة، والشعبي: هو ما يجري على عادة اللسان: من لا والله، وبلى والله من غير عقد على يمين يقتطع بها مال، يظلم بها أحد، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله (ع). وقال الحسن، ومجاهد، وابراهيم: هي يمين الظان، وهو يرى أنه حلف، فلا إثم عليه، ولا كفارة. روي أيضا عن ابن عباس، وطاووس: أنها يمين الغضبان، لا يؤأخذ بالحنث فيها، وبه قال سعيد بن جبیر، إلا أنه أوجب فيها الكفارة. وقال مسروق

كل يمين ليس له الوفاء بها، فهي لغو، ولا يجب فيها كفارة. وقال الضحاك: روي ايضا عن ابن عباس: أن لغو اليمين ما يجب فيه الكفارة. وروي عن إبراهيم: أنها يمين الناس إذا حنث. وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصري، أو أهلك الله مالي، فيدعو على نفسه. اللغة:

وأصل اللغو: هو الكلام الذي لا فائدة فيه، وكل يمين جرت مجرى ما لا فائدة فيه حتى صارت بمنزلة ما لم يقع، فهي لغو ولا شئ فيها، وهو اختيار الرماني. تقول: لغا يلغو لغوا: إذا أتى بكلام. وألغى إلقاء: إذا أطرحت الكلام، لانه لا فائدة فيه. وقوله: " والغوا فيه " معناه: ارفعوا الصوت بكلام لا فائدة فيه. والحساب الذي يلغى: أي يطرح، لانه بمنزلة كلام لا فائدة فيه. ولاغية: كلمة قبيحة فاحشة، ومنه اللغا، لانها كلام لا فائدة فيه عند غير أهله، وهو مشتق من لغا الطائر، وهو منطقته، وقال ابن صغير المازني:

باكرتم بسباء جون ذارع * قبل الصباح وقبل لغو الطائر (١)

المعنى:

الايمان على ضربين: أحدهما لا كفارة فيها. والثاني - يجب فيها الكفارة، فما لا كفارة فيه: هو اليمين على الماضي إذا كان كاذبا فيه، مثل أن يحلف أنه ما فعل، وكان فعل أو (٢) أن يحلف أنه فعل، وما كان فعل، فهاتان لا كفارة فيهما - عندنا - وكذلك إذا حلف على مال، ليقتطعه كاذبا، فلا كفارة عليه، ويلزمه الخروج مما حلف عليه، والتوبة، وهي اليمين الغموس، وفي هذه أيضا خلاف، ومنها أن يحلف على أمر فعل، أو ترك، وكان خلاف ما حلف عليه أولى

" ١ " اللسان (لغا) في المطبوعة (بسبا) بدل (بساء) و (الصباح) بدل (الصباح) و " رزاع " بدل " ذارع " وكل ذلك تحريف. باكرتم بسباء: أي بشرب الخمرة. " ٢ " في المطبوعة " أو " ساقطة.

من المقام عليه، فليخالف، ولا كفارة عليه - عندنا - وفيه خلاف عند أكثر الفقهاء. وما فيه كفارة، فهو أن يحلف على أن يفعل، أو يترك وكان الوفاء به إما واجبا أو ندبا أو كان فعله، وتركه سواء، فمتى خالف كان عليه الكفارة، وقد بينا أمثلة ذلك في النهاية في الفقه. وقال الحسن: الايمان على ثلاثة أقسام: منها أن يحلف على أمر، وهو يرى أنه على ما حلف، فهذا هو اللغو، لا عقوبة فيه، ولا كفارة.

ومنها: أن يحلف على أمر، وهو يعلم أنه كاذب، فهذا آثم فاجر عليه التوبة، ولا كفارة عليه.
ومنها أن يحلف: لا يفعل كذا، فيفعل، أو يحلف: ليفعلن، ولا يفعل، ففي ذلك الكفارة. وكان
يقول: إذا حلف على مملوك، أو على حر، فقال:

والله لتأكلن من هذا الطعام، فلم يأكل، فعليه الكفارة. وقال: اليمين على أربعة أوجه - في قول
أكثر الفقهاء: اثنتان: لا كفارة فيها، واثنتان: فيها الكفارة، فالأول - قول الرجل: والله ما
فعلت، وقد فعل، وقوله: والله لقد فعلت، وما فعل، فهاتان لا كفارة فيهما، لأنه لا حنث فيهما.
والثاني - قول الحالف: والله لا فعلت، ثم يفعل. وقوله: والله لافعلن، ثم لا يفعل، فهاتان فيهما
الكفارة. وقد بينا الخلاف في خلاف الفقهاء.

اللغة:

والفرق بين اللغا، واللغو، أن اللغا: الذكر بالكلام القبيح. لغيت ألغي لغا، قال العجاج:

ورب أسراب حبيج كظم * عن اللغا ورفث التكلم (١)

وجواب اليمين على أربعة أقسام: اللام، وما، وإن، ولا، نحو: والله لاتينك، ووالله ما فعلت،
ووالله إنه لكاذب، ووالله لا كلمته.

وقوله: " والله غفور حلیم " فالحلم الامهال بتأخير العقاب (٢) على الذنب، تقول: حلم حلما،
وتحلم تحلما، وحلمه تحليما. وحلم في نومه حلما: إذا رأى

" ١ " مر تخريجه في ٢ : ١٣٢ .

" ٢ " في المطبوعة " العقل " .

(٢٣١)

الاحلام، ومنه " أضغاث أحلام " (١). والحلم الرؤيا في النوم، ومنه الاحتمام.
والحلم: ما عظم من القردان، والواحد حلمة، لأنه كحملة (٢) الثدي، وحلمة الثدي، لأنها تحلم
المرتضع. والحلمة: شجرة السعدان، وهي من أفضل المرعى.
وتحلمت الضباب: إذا سمنت لأنه يكسبها دعة كدعة الحلم. والحلام: الجدي، وأصل الباب
الحلم: الاناة. وأما حلم الاديم اذا نغل (٣) فلأنه وقع فيه الحلم.
قوله تعالى:

للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاعوا فان الله غفور رحيم (٢٢٦) آية واحدة
بلا خلاف.

اللغة:

قوله: " يؤلون " معناه: يطفون - بلا خلاف بين أهل التأويل - وهو المروي عن سعيد بن المسيب وهو مأخوذ من الآلية قال الشاعر:
كفينا من تغيب من نزار * وأحنثنا إليه مقسمينا (٤)
ويقال: ألى الرجل - من إمرأته - يؤلي إيلاء، وأليه، وألوة، وهو الحلف قال الاعشى:
إني أليت على حفة * ولم أفلها سحر الساحر (٥)
وجمع أليه: أليا، وأليات، كعشية، وعشايا، وعشيات، فأما جمع ألوة، فأليا، كركوبة وركائب،
وجمع آلية: ألاء كصحيفة، وصحائف، ومنه اعلى يأتلى

" ١ " سورة يوسف آية: ٤٤.

" ٢ " في المطبوعة " كجلمة " .

" ٣ " حلم - بفتح الحاء وكسر اللام - ونقل الاديم: فسد في دباغته.

" ٤ " تفسير الطبري ٤: ٤٥٦، وروايته " في تراب " بدل " من نزار " وفي مجمع لبيان طبع صيدا ١: ٣٣٢ " من نزار " كما ذكر الشيخ سواء. وقد اعترف محقق الطبري أنه بدل " من " ب " في " وكانت في المخطوطة والمطبوعة عنده " من " .

" ٥ " ديوانه: ١٤٣ رقم القصيدة: ١٨ وروايته " ولم اقله عشر العاثر " بدل " ولم قلها سحر الساحر " .

(٢٣٢)

اعتلاء، وفي التنزيل " ولا يأتل أولوا الفضل منكم " (١)، وتقول: لا تألوا أليا، وألو، نحو العنى، والعتو. وما ألوت جهدا، ولا ألوته نصحا، أو غشا، ومنه قوله: " لا يألونكم خبالا " (٢)، وقال الشاعر:
نحن فصلنا جهدنا لم نأتله أي لم نقصر. وأصل الباب التقصير، فمنه لا يألوا جهدا، ومنه الآلية:
اليمين، لأنها لنفي التقصير. وعود ألوة، وألوة: أجود العمود، لانه خالص.
المعنى:

والإيلاء في الآية: المراد به: اعتزل النساء، وترك جماعهن على وجه الاضرار بهن، وكأنه قيل: " للذين يألون " أن يعتزلوا نساءهم " تربص أربعة أشهر " منهم، واليمين التي يكون بها الرجل مؤليا، هي اليمين بالله عزوجل، أو بشئ من صفاته التي لا يشركه فيها غيره. على وجه لا يقع موقع اللغو الذي لا فائدة فيه، ويكون الحلف على الامتناع من الجماع على جهة الغضب، والضرار، وهو المروي عن علي (ع)، وابن عباس، والحسن. وقال ابراهيم، وابن سيرين، والشعبي: في الغضب.

وقال سعيد بن المسيب: هو في الجماع، وغيره من الضرار، ونحو الحلف ألا يكلمها.

اللغة:

والتربص بالشئ انتظارك به خيرا، أو شرا يحل، وتقول: تربصت بالشئ تربصا، وربصت به ربصا، ومنه قوله: " فتربصوا به حتى حين " (٣) و " نتربص به ريب المنون " (٤) قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها * تطلق يوما أو يموت حليلها (٥)
ومالي على هذا الامر ربصة: أي تلبث، وأصله الانتظار.
وقوله: " فان فاعوا " معناه: فان رجعوا، ومنه قوله: " حتى تقي إلى أمر

" ١ " سورة النور آية: ٢٢. " ٢ " سورة آل عمران آية: ١١٨.

" ٣ " سورة المؤمن آية ٢٥. " ٤ " سورة الطور آية: ٣٠.

" ٥ " اللسان (ربص) في المطبوعة (خليلها) بدل " حليلها ". والمعنى فيهما واحد.

(٢٣٣)

الله " (١) أي ترجع من الخطأ إلى الصواب. والفرق بين الفئ والظل: ما قال المبرد: إن الفئ ما نسخ الشمس، لانه هو الراجع، وأما الظل: فما لا شمس فيه.
وكل فئ ظل، وليس كل ظل فئ، ولذلك أهل الجنة في ظل، لا في فئ، لانه لا شمس فيها، كما قال الله تعالى: " وظل ممدود " (٢). وجمع الفئ أفياء، تقول:
فاء الفئ: إذا نحول عن جهة الغداة برجوع الشمس عنه. وتفيأت في الشجر، وفيأت الشجرة. والفئ: غنائم المشركين، أفاء الله علينا فيهم، لانه من رجع الشئ إلى حقه، والفئ الرجوع عن الغضب. إن فلانا لسريع الفئ من غضبه.
المعنى:

فان قيل: ما الذي يكون المولى به فائئا؟ قيل - عندنا - : يكون فائئا بأن يجمع، وبه قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن المسيب. وقال الحسن، وابراهيم، وعلقمة: يكون فائئا بالعزم في حال العذر إلا أنه ينبغي أن يشهد على فيئه، وهذا يكون - عندنا - للمضطر الذي لا يقدر على الجماع، ويجب على الفاء - عندنا - الكفارة، وبه قال ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وقتادة، ولا عقوبة عليه، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله (ع). وقال الحسن، وابراهيم: لا كفارة عليه، لقوله: " فان فاؤوا فان الله غفور رحيم ": أي لا يتبعه بكفارة، ولا عقوبة.

الاعراب:

ويجوز في " تربص أربعة أشهر " ثلاثة أوجه: الجر بالاضافة، وعليه جميع القراء. ويجوز النصب، والرفع في العربية " تربص أربعة أشهر " كما قال: " ألم نجعل الارض كفاتا أحياء

وأمواتا " (٣) أي يكفتمهم (٤) أحياء، وأمواتا، و " تربص أربعة أشهر " كقوله: " فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله " (٥)

" ١ " سورة الحجرات آية: ٩. " ٢ " سورة الواقعة آية: ٣٠.

" ٣ " سورة المرسلات آية: ٢٥ - ٢٦. " ٤ " في المطبوعة يكفيهم " ٥ " سورة النور آية: ٦.

(٢٣٤)

عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان " (١)
أنعم عليكم. والمنة: القوة في القلب والمن: الذي يقع من السماء، والمن الذي يوزن به، لانه يقطع على مقدار مخصوص.

وقوله: " ولا أذى " فهو نحو قولهم أنت أبدا فقير، ومن أبلاني بك وأراحي الله منك، وما أشبه ذلك مما يؤذي قلب المعطى وقوله " لهم أجرهم عند ربهم " والاجر هو النفع المستحق بالعمل " ولاخوف عليهم " فالخوف يوقع الضرر الذي لا يؤمن وقوعه.

" ولاهم يحزنون " فالحزن الغم الذي يغلب على النفس. ومنه الحزن:

الارض الغليظة. وقيل في معناه قولان:

أحدهما - لاخوف عليهم لفوت الاجر. والثاني - لاخوف عليهم لاهوال الآخرة. وقيل أنه دليل على أن الوعد بشرط لانه مغموم الكلام. لان تقديره في المعنى ان لم يتبعوا ما أنفقوا منا ولا أذى، فلهم من الاجر كذا، وليس في الآية ما يدل على صحة القول بالاحباط أصلا، لان الوعد متى كان مشروطا بأن لا يتبع بالمن والاذى فمتى اتبع بهما لم يحصل الشرط الذي يوجب استحقاق الثواب فلم يحصل شئ أصلا ثم انحبط، وإنما كان فيه لبس لو ثبت استحقاقهم بنفس الانفاق فاذا اتبع بالمن انحبط ذلك. وهذا ليس في الآية.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: المنان: بما يعطي لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكبه وله عذاب أليم. وقال الضحاك لان يمسك ماله خير له من أن ينفقه ثم يتبعه منا وأذى. قوله تعالى:

(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم) (٢٦٣) آية بلا خلاف.

" ١ " سورة الحجرات: ١٧.

(٢٣٥)

أو طلق، فان لم يفعل، حبسه حتى يطلق، ومثل هذا قال أهل المدينة غير أنهم قالوا:

متى امتنع من الطلاق والفيأة، طلق عنه الحاكم طلقة رجعية. وقال أهل العراق: الإيلاء: أن يحلف ألا يجامعها أربعة أشهر فصاعدا، فإذا مضت أربعة أشهر فلم يقربها، باننت منه بتطليقة لا رجعة له عليها، وعليها عدة ثلاث حيض، يخطبها في العدة، ولا يخطبها غيره، فان فاء قيل أربعة أشهر: أي إن جامع، كفر بمينه، وهي امرأته. وقال الحسن، وقتادة وابن مسعود، وابراهيم، وابن عباس، وحماد: هو مضي أربعة أشهر قبل أن يفئ من غير عذر. اللعة:

والعزم: هو العقد على فعل شئ في مستقبل الوقت. والعزم على الشئ هو إرادته له: إذا كانت مقدمة للفعل بأكثر من وقت واحد، وتكون متعلقة بفعل العازم، ولا يدخل بينهما، وبين الفعل سهو، ولانسيان. يقال: عزم عزمًا: إذا عقد على أن يفعل الشئ، واعتزم اعتزامًا. وعزمت عليك لتفعلن: أي أقسمت.

وعزم الراقي: كأنه أقسم على الداء. ورجل ماضي العزم: حاد في أمره. وما لفلان عزيمة: أي ما يثبت على أمر، لتلونه، ومنه قوله: " فاصبر كما صبر ألو العزم من الرسل " (١). وعزائم القرآن التي تقرأ على ذوي الإفات، لما يرجى من البرء بها. وأصل الباب العزم على العقد على الشئ.

والطلاق: حل عقدة النكاح بما يوجب في الشريعة. تقول: طلقت تطلق طلاقًا، فهي طالق - بلا علامة التأنيث، حكاة الزجاج. وقال قوم: لأنه يختص بال مؤنث. وقال الزجاج: هذا ليس بشئ، لان في الكلام شيئًا كثيرًا يشترك فيه المؤنث، والمذكر - بلا علامة التأنيث - نحو قولهم: بعير ضامر، وناقاة ضامر، وبعير ساعل، وناقاة ساعل. وزعم سيبويه، وأصحابه: أن هذا واقع على لفظ التذكير صفة للمؤنث، لان المعنى: هي طالق حقيقة - عندهم - انه على جهة

" ١ " سورة الاحقاف آية: ٣٥.

(٢٣٦)

النسب، نحو قولهم: امرأة مذكر، ورجل مذكر، ورجل مؤنث، وامرأة مؤنث، ومعناه: ذات ذكران، وذات أناث، وكذلك مطلق: ذات طفل، وكذلك طالق: ذات طلاق. فان أجرته على الفعل قلت طالقة، قال الشاعر:
أيا جارتا بيني فانك طالقه ! * كذاك أمور الناس غاد وطارقه (١)
تقول: طلقها، وتطلق تطلقًا، وأطلق إطلاقًا، واستطلق استطلاقًا، وانطلق انطلاقًا، وتطلقت المرأة عند الولادة، فهي مطلوقة إذا تمخضت. والطلق:

الشوط من الجري. والطلاق: قيد من قدم أو عقب (٢) تقيد به الابل. ورجل طلق الوجه: بهلول ضحاك. ويوم طلق إذا لم يكن فيه حر، ولا قر. والطلاق: الاسير يخلى عنه ورجل طلق اليدين: سمح بالعتاء. والطلاق: الحبل الشديد الفتل، يقوم قيام. وأصل الباب الانطلاق، والطلاق، لانطلاق المرأة فيه على عقدة النكاح. المعنى:

والطلاق بعد الايلاء، والايقاف يكون واحدة رجعية، وبه قال سعيد بن المسيب، وابن عمر. وقال الحسن وابن مسعود، وابن عباس: تكون بائنة. وقوله: " فان الله سميع عليم " فيه دلالة على الاخذ بالفئ أو الطلاق، لانه بمعنى. أن الله يسمع قوله، ويعلم ضميره. وقيل: بل هو راجع إلى يسمع الايلاء، ويعلم بنيته، وكلاهما يحتمل في اللغة - على قول الزجاج - وحقيقة السميع: هو من كان على صفة يجب لاجلها أن يدرك المسموعات إذا وجدت. وهو يرجع إلى كونه حيا لا آفة به (٣). والسماع: هو المدرك. والله تعالى يوصف بما لم يزل بأنه

" ١ " قائله الاعشى. ديوانه: ٢٦٣ رقم القصيدة: ٤١ واللسان " طلق " قالها لامرأته الهزانية حين فارقتها بينى: فارقي. غاد: يأتي غدوة في الصباح. والطارق: الذي يطرق أي يأتي ليلا. " ٢ " هكذا في المطبوعة وفي اللسان (طلق) الطلق - بالتحريك - قيد من جلود، والطلق - بالتحريك - قيد من آدم. " ٣ " في المطبوعة (لاحريه) بدل (حيا لآفة به)

(٢٣٧)

سميع، ولا يوصف فيما لم يزل بأنه سامع، وإنما يوصف بأنه سامع إذا وجدت المسموعات. وإنما ذكر عقيب الاول " أن الله غفور رحيم " لانه لما أخبر عن المولى أنه يلزمه الفئ، أو الطلاق بين أنه إن فاء " فان الله غفور رحيم " بأن يقبل رجوعه، ولا يتبعه بعقاب ما ارتكبه. وذكر هاهنا أنه " سميع عليم " لما أخبر عنه بايقاع الطلاق، وكان ذلك مما يسمع، أخبر أنه لا يخفى عليه، وأنه يسمعه، لانه على صفة يوجب إدراكه لذلك، وأنه عالم ببيانه، فلا الذي ذكر في الاية الاولى يليق بهذه الاية، ولا الذي ذكر هاهنا يليق هناك، وذلك من عظم فصاحة القرآن، وجلالة موقعه.

قوله تعالى:

والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم (٢٢٨) آية بلا خلاف.

المعنى:

القرؤ: الطهر - عندنا - وبه قال زيد بن ثابت، وعائشة، وابن عمر، وسالم، وأهل الحجاز. وروي عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وبه قال أهل العراق، ورواه عن علي (ع) أنه الحيض.

اللغة:

وأصل القرء يحتمل وجهين في اللغة:

أحدهما - الاجتماع، فمنه قرأت القرآن، لاجتماع حروفه، ومنه قولهم:

(٢٣٨)

ما قرأت الناقة سلاقط: أي لم تجمع رحمها على ولد قط. قال عمرو بن كلثوم:

ذراعي عيطل أدماء بكر * هجان اللون لم تقرأ جنينا (١)

ومنه أقرأت النجوم: إذا اجتمعت في الاقول، فعلى هذا، يقال: أقرأت المرأة: إذا حاضت، فهي مقرئ، في قول الاصمعي، والاخفش، والكسائي والفراء، وأنشدوا له:

قروؤ كقروؤ الحائض فتأويل ذلك: اجتماع الدم في الرحم. ويجيء على هذا الاصل أن يكون القرأ: الطهر، لاجتماع الدم في جملة البدن، هذا قول الزجاج.

والوجه الثاني أن يكون أصل القرء: وقت الفعل الذي يجرى على آخر عادة، في قول أبي عمرو بن العلاء، وقال: هو يصلح للحيض، والطهر، يقال: هذا قارئ الرياح أي وقت هبوبها قال الشاعر:

شننت العقر عقر بني شليل * إذا هبت لقارئها الرياح (٢)

أي لوقت شدة بردها، وقال آخر:

رجا أياس أن تؤوب ولا أذى * إياسا لقرؤ الغائبين يؤوب (٣)

أي لحين الغائبين، فعلى هذا يكون القرؤ الحيض، لانه وقت اجتماع الدم في الرحم على العادة المعروفة فيه، ويكون الطهر، لانه وقت ارتفاعه على عادة جارية فيه، قال الاعشى في الطهر:

وفي كل عام أنت جاشم غزوة * تشد لاقصاها عزيماً عزائكا

" ١ " اللسان (عطل) (قرأ) وقد رواه الجوهرى برواية أخرى وهي:

ذراعي عيطل أدماء بكر * تربعت الاماعز والمتونا

وفي المطبوعة " اللوم " بدل " اللون " وهو تصحيف، والعيطل: طويل العنق من الابل وغيرها. والادماء من الابل البيضاء، وكذلك هجان اللون أي بيض اللون. ولم تقرأ جنينا: أي لم تجمع رحمها على جنين، وهو الولد.

" ٢ " قائله مالك ابن الحرث الهذلي، ديوان الهذليين ٣ : ٨٣ . واللسان (قرأ) شنتت:
أي كرهت، والعقر: اسم مكان وشليل: هو جدجديرا بن عبدالله البجلي.
" ٣ " لم أجد هذا البيت فيماحضرني من المصادر.

(٢٣٩)

مورثة مالا وفي الحمد رفعة * لما ضاع فيها من قروء نسائكا (١)
والذي ضاع هاهنا الاطهار، لانه بعد غيبته، فيضيع بها طهر النساء، فلا يطأهن، والوقت
الجارى في الفعل على عادة راجع إلى معنى الاجتماع، وذلك، لاجتماع الفعل مع الوقت
الدائر، فالاجتماع أصل الباب. وأخذ القروء من الوقت ردا له إلى فرع، وكلا الامرين يحتمل
في اللغة.

المعنى ومن خفف الهمزة في " قروء " قال: قروء، ومثله " من يعمل سوءا " (٢)
واستشهد أهل العراق بأشياء يقوى أن المراد الحيض، منها قوله (ع) في مستحاضة سألته:
دعي الصلاة أيام أقرائك. واستشهد أهل المدينة بقوله: " فطلقوهن لعدتهن " (٣) أي طهر لم
يجامع فيه كما يقال لغرة الشهر، وتأوله غيرهم: لاستقبال عدتهن، وهو الحيض.
فان قيل: لو كان المراد - في الاقراء في الاية - الاطهار، لوجب استيفاء الثلاثة أطهار
بكمالها، كما أن من كانت عدتها بالاشهر، وجب عليها ثلاثة أشهر على الكمال، وقد أجمعنا
على أنه - لو طلقها في آخر يوم الطهر الذي ما قربها فيه، لا يلزمها أكثر من طهرين
آخرين، وذلك دليل على فساد ما قلتموه ! قلنا: تسمى القرآن الكاملان، وبعض الثالث ثلاثة
أقراء، كما تسمى - الشهران وبعض الثالث - ثلاثة أشهر قال الله تعالى: " الحج أشهر
معلومات " (٤) وإنما هي شوال، وذو القعدة، وبعض من ذي الحجة. وروي عن عائشة أنها
قالت: الاقراء الاطهار.

وقوله: " ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن " قيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها
- قال إبراهيم: الحيض. وثانيها - قال قتادة: الحبل. وثالثها -

" ١ " ديوانه: ٩١ رقم القصيدة: ١١ يمدح بها هودة بن علي الحنفي، ومعنى البيتين:
لك في كل عام غزوة،؟ لها صبرك وجلدك، فتعود منها بالغنيمة والمجد الذي يعوضك عما عاينت من العبد عن
نسائك.

" ٢ " سورة النساء آية: ١٠٩، ١٠٢.

" ٣ " سورة الطلاق آية: ١ " ٤ " سورة البقرة آية: ١٩٧.

(٢٤٠)

قال ابن عمر، والحسن: هو الحبل، والحبيص، وهو الأقوى لأنه أعم. وإنما لم يحل لهن الكتمان: لظلم الزوج بمنعه المراجعة - في قول ابن عباس - . وقال قتادة: لنسبة الولد إلى غيره، كفعل الجاهلية.
اللغة:

وإنما قال: " ثلاثة قروء " ولم يقل: ثلاثة أقرء على جمع القليل، لأنه لما كانت كل مطلقة يلزمها هذا، دخله معنى الكثرة فأتى ببناء الكثرة، للاشعار بذلك، فالقروء كثيرة إلا أنها ثلاثة في القسمة. ووجه آخر - أن بناء الكثير فيه أغلب في الاستعمال، لأنه على قياس الباب في جمع فعل الكثير، فأما القليل، فقياسه، أفعل دون أفعال، فصار بمنزلة ما لا يعتد به فجاء مجيء قولهم: ثلاثة شسوع، فاستغني فيه ببناء الكثير عن القليل. ووجه ثالث - أن يذهب مذهب الجنس نحو قولهم:

ثلاثة كلاب يعنون ثلاثة من الكلاب إذا أريد رفع الإيهام.
المعنى:

والشرط بقوله: " إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر " معناه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فهذه صفة فيما يلزمه، لا أنه يلزم المؤمن دون غيره. وخرج ذلك مخرج التهديد. " وبعولتهن أحق بردهن " يعني أزواجهن أحق برجعتهن، وذلك يختص بالرجعيات وإن كان أول الآية عاما في جميع المطلقات الرجعية والباينة.

وسمي الزوج بعلا، لأنه عال على المرأة بملكه لزوجيتها.
اللغة:

تقول: بعل يبعل بعولة، وهو بعل. وقوله " أتدعون بعلا " (١)
أي ربا، لأنه بمعنى من سميتومه باستعلاء الربوبية تخرصا، وقيل أنه صنم. والبعل النخل يشرب بعروقة، لأنه مستعل على شربه، وبعل الرجل بأمره إذا ضاق به ذرعا،

" ١ " سورة الصافات آية: ١٢٥.

(٢٤١)

لأنه علاه منه ما ضاق به صدره. وبعل الرجل في معنى بطر، لأنه استعلى معظما، وكبرا، وامرأة بعلة: لا تحسن لبس الثياب، لان الحيرة تستعلي عليها، فتدهشها.
وبعل الرجل يبعل بعلا إذا دهش دهشا.
المعنى:

وقوله: " ولهن مثل الذي عليهن " قال الضحاك: لهن من حسن العشرة بالمعروف على أزواجهن مثل ما عليهن من الطاعة فيما أوجبه الله عليهن لهم. وقال ابن عباس: لهن على أزواجهن من التصنع والتزين مثل ما لازواجهن عليهن. وقال الطبري: لهن على أزواجهن ترك مضارتهن، كما أن عليهن لازواجهن.

وقوله: " وللرجال عليهن درجة " قيل معناه: فضيلة منها الطاعة، ومنها أن يملك التخلية، ومنها زيادة الميراث (على قسم) (١) المرأة، والجهاد. هذا قول مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس: منزلة في الاخذ عليها بالفضل في المعاملة حتى قال: ما أحب أن استوفي منها جميع حقي، ليكون لي عليها الفضيلة.

اللغة:

وتقول: رجل بين الرجولة أي القوة، وهو أرجلها أي أفواهما، وفرس رجيل قوي على المشي. والرجل معروفة، لقوتها على المشي. ورجل من جراد أي قطعة منه تشببها بالرجل، لأنها قطعة من الجملة. والراجل الذي يمشي على رجله. وارتجل الكلام ارتجالاً، لأنه قوي عليه من غير ركوب فكرة، ولا روية. وترجل النهار، لأنه قوي ضياؤه بنزول الشمس إلى الأرض. ورجل شعره إذا طوله، لأنه قوي بكثرتة من غير أن يركب بعضه بعضاً، فيقل في رأي العين. والمرجل معروف.

وأصل الباب: القوة.

والدرجة: المنزلة: درجت الشيء أدرجه درجاً، وأدرجته إدراجاً، ودرج القوم قرناً بعد قرن أي فنوا. وأدرجه الله إدراجاً، لأنه كطي الشيء

" ١ " ما بين القوسين من مجمع البيان، لان الجملة لاتتم بدونه.

(٢٤٢)

بمنزلة بعد منزلة والدرج سفيط للطيب، لأنه بمنزلة مايدرج فيه. ومدرجة الطريق: قارعتة. وأصل الباب الطي، فالدرجة منزلة من منازل الطي، ومنه الدرجة التي يرتقى فيها. المعنى:

وقيل إن في الآية نسخاً، لان التي لم يدخل بها، لاعدة عليها بقوله:

" يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات " إلى قوله: " فما لكم عليهن من عدة تعتدونها " (١) ولان الحامل عدتها وضع ما في بطنها بقوله " وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن ".

(٢)

قوله تعالى:

الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح باحسان ولايحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون (٢٢٩) آية بلا خلاف.
القراءة:

قرأ حمزة، وأبوجعفر " إلا أن يخافا " بضم الياء، والباقون بفتحها.
المعنى:

قيل في معنى قوله: " الطلاق مرتان " قولان:
أحدهما - ما قال ابن عباس، ومجاهد: إن معناه البيان عن تفضيل الطلاق في السنة، وهو أنه أراد طلاقها فينبغي أن يطلقها في طهر لم يقربها فيه بجماع،

" ١ " سورة الاحزاب آية: ٤٩. " ٢ " سورة الطلاق آية: ٤.

(٢٤٣)

تطليقة واحدة، ثم يتركها حتى تخرج من العدة، أو حتى تحيض وتطهر، ثم يطلقها ثانية.
والثاني - ما قاله عروة، وقتادة: إن معناه البيان عن عدد الطلاق الذي يوجب البيونة، مما لا يوجبها. وفي الآية بيان أنه ليس بعد التطليقتين إلا الفرقة البائنة. وقال الزجاج: في الآية حذف، لان التقدير: الطلاق الذي يملك فيه الرجعة مرتان، بدلالة قوله: " فامسك بمعروف أو تسريح باحسان ". والمرتان معناه: دفعتان.
اللغة:

وتقول مر يمر مرا واستمر استمرارا، وأمره إمرارا وتمرر تمررا، مرره تمريرا. والمر:
خلاف الحلو، ومنه المرارة، لان فيها المرة. والمرة مزاج من أمزجة البدن. والمرة شدة
القتل، لاستمراره على إحكام. والمرير: الحبل المقتول. وفي التنزيل " ذو مرة فاستوى " (١)
أي ذو قوة وشدة: والمر الذي يعمل به في الطين وأصل الباب المرور: خلاف الوقوف.
وقوله " فامسك بمعروف " رفع، ومعناه: فالواجب إمساك عليه، وكان يجوز النصب على
فليمسك إمساكا، والامسك خلاف الاطلاق. تقول أمسك إمساكا، وتمسك تمسكا، وتماسك
تماسكا، وامتسك امتسكا، ومسك تمسكا، واستمسك استمسكا. وفلان ممسك: أي بخيل، وما
بفان مسكة، ولا تماسك:

إذا لم يكن فيه خير، لانه منحل عن ضبط شئ من أموره. والمسك: الاهاب، لانه يمسك البدن
باحتوائه عليه. والمسك السواء (٢)، وسمي باستمسাকে في اليد.
المعنى:

وقوله: " معروف " أي على وجه جميل سائغ (٣) في الشرع لاعلى وجه الاضرار بهن.

" ١ " سورة النجم آية: ٦.

" ٢ " في مجمع البيان: السواد، وفي لسان العرب: السوار.

" ٣ " في المطبوعة (سايغ).

(٢٤٤)

وقوله: " أو تسريح باحسان " قيل فيه قولان:

أحدهما - أنها الطلقة الثالثة، وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن رجلا سأله، فقال: الطلاق مرتان فأين الثالثة؟ فأجابه: أو تسريح باحسان. وقال السدي، والضحاك: هو ترك المعتدة حتى تبين بانقضاء العدة، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله (ع).
اللغة:

والتسريح مأخوذ من السرح. وهو الانطلاق. تقول: سرح تسريحا، وسرح الماشية في الرعي سرحا: إذا أطلقها ترعى: والسرحان: الذئب، لاتباعه السرح. والسرحة: الشجرة المرتفعة، لانطلاقها في جهة الطول. والمسرح: المشط، لاطلاق الشعر به. وسرحت الماشية: إذا انطلقت في المرعى. وسرحت العبد إذا أعتقته. والسرح: الجراد، لانطلاقه في البلاد، والسريحة: القطعة من القد يشد بها نقال الابل، وكل شئ قددته مستطيلا، فهو سريح.
النزول:

وروي أن هذه الآية نزلت في ثابت بن قيس، وزوجته، وردت عليه حديقته، وطلقها باذن النبي (صلى الله عليه وآله) رواه ابن جريج.

المعنى، والحجة، والاعراب:

وقوله: " إلا أن يخافا " معناه: إلا أن يظنا وقال الشاعر:

أتاني كلام عن نصيب بقوله * وما خفت يا سلام أنك عائبي (١)

يعني ما ظننت وأنشد الفراء:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة * تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفني في الفلات فانني * أخاف إذا مامت ألا أدوقها (٢)

" ١ " مرتجيجه في ٢: ١٨٩. من هذا الكتاب.

" ٢ " قائلهما أبو محجن النقي، ديوانه: ٢٣، ومعاني القرآن للفراء ١: ١٤٦ وغيرها كثير، وخبر أبي محجن في الخمر مشهور.

(٢٤٥)

ومن ضم الياء، فتقديره: إلا أن يخافا على أن يقيما حدود الله. وقال أبو عبيدة " إلا أن يخافا " معناه: يوقنا، " فان خفتم " معناه فان أيقنتم. وقال أبو علي الفارسي: خاف فعل يتعدى إلى مفعول واحد، وذلك المفعول تارة يكون (أن) وصلتها، وأخري غيرها، فأما تعديه إلى غير (أن) فنحو قوله: " تخافونهم كخيفتكم أنفسكم " (١). وتعديته إلى (أن) كقوله: " تخافون أن يتخطفكم الناس " (٢) وقوله: " أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله " (٣) فان عديته إلى مفعول بأن ضعفت العين، أو اجتلبت حرف الجر كقولك: خوفت ضعف الناس قولهم، وحرف الجر كقوله:

لو خافك الله عليه حرمة ومن ذلك قوله: " إنما الشيطان يخوف أولياءه " (٤) فيخوف قد حذف معه مفعول يقتضيه تقديره يخوف المؤمنين بأولياءه، فحذف المفعول، والجار، فوصل الفعل إلى المفعول الثاني، ألا ترى أنه لا يخوف أولياءه على حد قولك خوفت اللص، وإنما يخوف غيرهم مما لا استتصار لديهم، ومثله فاذا خفت عليه بمنزلة المحذوف من قوله: " أولياءه " فاذا كان تعدي هذا الفعل على ما وصفنا، فقول حمزة " إلا أن يخافا "، مستقيم لأنه لما بني الفعل للمفعول به اسند الفعل إليه، فلم يبق شيء يتعدى إليه، وأما (أن) من قوله: " ألا يقيما حدود الله "، فان الفعل يتعدى إليه بالجار، كما تعدى بالجار في قوله:

لو خافك الله عليه حرمة وموضع أن في الآية جر بالجار المقدر، على قول الخليل، والكسائي. ونصب، في قول سيبويه، وأصحابه، لأنه لما حذف الجار، وصل الفعل إلى المفعول الثاني، مثل استغفر الله ذنبا، وامرأتك الخير، فقوله مستقيم على ما رأيت. فان قال قائل:

لو كان يخافا كما قد أخبره، لكان ينبغي أن يكون فان خيفا ! قيل لا يلزمه هذا السؤال لامرين:

" ١ " سورة الروم آية: ٢٨. " ٢ " سورة الانفال آية: ٢٦.

" ٣ " سورة النور آية: ٥٠. " ٤ " سورة آل عمران آية: ١٧٥.

(٢٤٦)

أحدهما - أن يكون انصرف من الغيبة إلى الخطاب، كما قال: " الحمد لله " (١) ثم قال: " إياك نعبد " (٢)، وقال: " ما أتيتم من زكاة ترديدون وجه الله فأولئك هم الاضخون " (٣) ونظائر ذلك كثيرة.

والاخر - أن يكون الخطاب في قوله: " فان خفتم " مصروفا إلى الولاية، والفقهاء الذين يقومون بامور الكافة، وجاز أن يكون الخطاب للكثرة في من جعله انصرافا من الغيبة إلى

الخطاب، لان ضمير الاثنين في " يخافا " ليس يراد به اثنان مخصوصان، وإنما يراد كل من كان هذا شأنه، فهذا حكمه.

وأما من قرأ بالفتح، فالمعنى أنه إذا خاف: من كل واحد من الزوج والمرأة " ألا يقيما حدود الله " حل الافتداء، ولايحتاج في قولهم إلى تقدير الجار، لان الفصل يقتضي مفعولا يتعدى إليه، كما اقتضى في قوله: " فلا تخافوهم وخافون " (٤)

ولابد من تقدير الجار في قراءة من ضم الياء، لان الفعل قد استند إلى المفعول، فلا يتعدى إلى المفعول الاخر إلا بالجار. قال أبو علي: فأما ما قاله الفراء في قول حمزة " إلا أن يخافا " من أنه اعتبر قراءة عبدالله " إلا أن يخافوا " فلم ينصبه، لان الخوف في قول عبدالله واقع على (أن). وفي قراءة حمزة على الرجل، والمرأة، وحال الخوف التي معه.
المعنى:

" ألا يقيما حدود الله " قال ابن عباس وعروة والضحاك: هو نشوز المرأة بغضا للزوج. وقال الشعبي هو نشورها ونشوزه، والذي روي عن أبي عبدالله (ع) أنه إذا خاف أن تعصي الله فيه بارتكاب محذور، واخلاق بواجب، وألا تطيعه فيما يجب عليها، فحينئذ يحل له أن يخلعها، ومثله روي عن الحسن. وقيل: إن الخوف من الاخلال بالحقوق التي تجب لكل واحد منهما على صاحبه، وحسن العشرة وجميل الصحبة.

" ١، ٢ " سورة الفاتحة آية: ١، ٤. " ٣ " سورة الروم آية: ٣٩.

" ٤ " سورة آل عمران آية: ١٧٥.

(٢٤٧)

فان قيل كيف قال: " فلا جناح عليهما "، وإنما الاباحة لاخذ الفدية؟
لانه لو خص بالذكر لاوهم أنها عاصية، وإن كانت الفدية له جائزة، فبين الاذن لهما لئلا يوهم أنه كالزنا المحرم على الاخذ، والمعطي. وذكر الفراء وجهين:
أحدهما - أنه قال: هو كقوله " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " (١) وإنما هو من الملح دون العذب، فجاز الاتساع، وهذا هو الذي يليق بمذهبنا، لان الذي يبيح الخلع - عندنا - هو ما لولاه، لكانت المرأة به عاصية.

والوجه الثاني - على قوله (صلى الله عليه وآله): إن أظهرت الصدقة، فحسن وإن أسررت فحسن، وإنما على مزوجة الكلام كقوله " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه " (٢)
والثاني ليس بعد، وإن الفدية الجائزة في الخلع - فعندنا - إن كان البغض منها، وحدها وخاف منها العصيان، جاز أن يأخذ المهر فما زاد عليه، وإن كان منهما، فيكون دون المهر. ورووا

عن علي (ع) فقط، ولم يفصلوا، وبه قال الربيع، وعطاء، والزهري، والشعبي. وقال ابن عباس، وابن عمر، ورحا بن حوة، وإبراهيم، ومجاهد: إنه يجوز الزيادة على المهر، والنقصان، ولم يفصلوا، والاية غير منسوخة عند أكثر المفسرين، ابن عباس والحسن، وجميع أهل العلم إلا بكر بن عبدالله، فإنه زعم أنها منسوخة بقوله " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج " (٣)

الاية. والخلع بالفدية على ثلاثة أوجه:

أحدها - أن تكون المرأة عجوزا وذميمة، فيضار بها ليفتدي بها، فهذا لا يحل له الفدي، لقوله " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج " (٤) الاية.

والثاني - أن يرى الرجل إمرأته على فاحشة، فيضاربها لتفتدي بخلعها، فهذا يجوز، وهو معنى قوله " ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة " (٥) والوجه الثالث:

" أن يخافا ألا يقيما حدود الله " لسوء خلق أو لقلّة نفقة من غير ظلم، أو

" ١ " سورة الرحمن آية: ٢٢. " ٢ " سورة البقرة آية: ١٩٤، ٣، ٤ " سورة النساء آية: ١٩، ٥ " سورة النساء آية: ١٨.

(٢٤٨)

نحو ذلك فيجوز الفدية لهما جميعا على ما فصلناه.

واستدل أصحابنا بهذه الاية على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد، لا يقع، لانه قال: " مرتان " ثم ذكر الثالثة على الخلاف في أنها قوله: " أو تسريح باحسان " أو قوله: " فان طلقتهما " ومن طلق بلفظ واحد لا يكون أتى بالمرتين، ولا بالثالثة كما أنه لو أوجب في اللعان أربع شهادات: ولو أتى بلفظ واحد لما وقع موقعه. وكما لو رمى تسع حصيات في الجمار دفعة واحدة، لم يكن مجزيا له، فكذلك الطلاق، ومتى ادعوا، في ذلك خبرا، فعليهم أن يذكره ليتكلم عليه، فأما مسائل الخلع، وفروعه، وشروطه فقد ذكرناها في النهاية، والمبسوط، فلا معنى للتطويل بذكرها هاهنا لان المطلوب هاهنا معاني القرآن، وتأويله دون مسائل الفقه.

قوله تعالى:

فان طلقتهما فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٠) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

قوله: " فان طلقها فلاتحل له من بعد " المعني فيه التغطية الثالثة على ما روي عن أبي جعفر (ع) وبه قال السدي، والضحاك، والزجاج، والجبائي، والنظام. وقال مجاهد: هو تفسير لقوله: " أو تسريح باحسان " (١) فانه التغطية الثالثة، وهو اختيار الطبري. وصفة الزوج الذي تحل المرأة، للزوج الاول أن يكون بالغا، ويعقد عليها عقدا صحيحا دائما ويزوق عسيلتها، بان يطأها وتذوق هي عسيلته - بلا

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٢٩.

(٢٤٩)

خلاف بين أهل العلم - فلا يحل لاحد أن يتزوجها في العدة، وأما العقود الفاسدة أو عقود الشبهة فانها لا تحل للزوج الاول، ومتى وطأها بعقد صحيح في زمان يحرم عليه وطؤها مثل أن تكون حائضا، أو محرمة، أو معتكفة، فانها تحل للاول لان الوطئ قد حصل في نكاح صحيح، وإنما حرم الوطئ لامر، ضار عليه، هذا عند أكثر أهل العلم. وقال مالك: الوطئ في الحيض لا يحل للاول وإن وجب به المهر كله، والعدة. الاعراب:

وموضع (أن) في قوله: " فلا جناح عليهما أن يتراجعا " خفض، وتقديره في أن يتراجعا - عند الخليل، والكسائي، والزجاج - وقال الفراء: موضعه النصب، واختاره الزجاج، وباقي النحويين. وقال الفراء: الخفض لا أعرفه، وموضع (أن) الثانية في قوله: " أن يقيما حدود الله " نصب - بلا خلاف ب (ظنا)، وإنما جاز حذف (في) من أن يتراجعا ولم يجز من التراجع، لانه إنما جاز مع (أن) لطولها بالصلة، كما جاز (الذي ضربت زيد)، لطول الذي بالصلة، ولم يجز في المصدر، كما لم يجز في اسم الفاعل نحو (زيد ضارب عمرو) وتريد ضاربه. المعنى:

وقوله: " فان طلقها " الثانية يعنى به الزوج الثاني. وذلك يدل على أن الوطئ بعقد لا تحل للزوج الاول، لان الطلاق لا يلحق نكاح شبهة. والراجع المذكور هاهنا، هو بعقد مستأنف، ومهر جديد، بلا خلاف. القراءة:

وقول: " يبينها " قرأ المفضل عن عاصم بالنون على وجه الاخبار من الله من نفسه. الباقون بالياء، الكناية عن الله.

المعنى:

قوله: " لقوم يعلمون " إنما خص العلم بذكر البيان وإن كان بيانا لغيرهم، لانهم الذين ينتفعون ببيان الايات، فصار غيرهم بمنزلة من لم يعتد به. ويجوز أيضا أن يكونوا خصوا بالذكر تشريفا لهم، كما قال: " من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال " (١).

والحدود: المراد بها ما تقدم بيانها من أحكام الطلاق، والايلاء، والخلع، وغير ذلك.

وقوله: " إن ظنا أن يقيما حدود الله " لا يدل على وجوب الاجتهاد في الشريعة، لانه لا يمنع من تعلق أحكام كثيرة - في الشرع - في الظن، وإنما فيه دلالة على، من قال: لا يجوز: أن يعمل في شئ من الدين إلا على اليقين، فأما الظن، فلا يجوز أن يتعلق فيه شئ من الاحكام، فالاية تبطل قوله.

وقوله: " فلا تحل له حتى تتكح زوجا غيره " يدل على أن النكاح بغير ولي جائز، وأن المرأة لها العقد على نفسها، لانه أضاف العقد إليها دون وليها.

قوله تعالى:

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شئ عليم (٢٣١) آية واحدة بلا خلاف.

قوله: " فبلغن أجلهن " معناه: انقضى عدتهن بالاقراء، أو الأشهر،

" ١ " سورة البقرة آية: ٩٨.

أو الوضع. والمعنى: إذا بلغن قرب انقضاء عدتهن، لان بعد انقضاء العدة ليس له إمساكها، والامساك هاهنا المراجعة قيل انقضاء العدة، وبه قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، قد يقال لمن دنا من البلد: فلان قد بلغ البلد. والمراد " بالمعروف " هذا الحق الذي يدعو إليه العقل، أو الشرع للمعرفة بصحته، بخلاف المنكر الذي يزر عنه العقل، أو السمع لاستحالة المعرفة بصحته، فما يجوز المعرفة بصحته: معروف، وما لايجوز المعروف بصحته منكر.

والمراد به هاهنا أن يمسكها على الوجه الذي أباحه الله له: من القيام بما يجب لها من النفقة، وحسن العشرة، وغير ذلك، ولا يقصد الاضرار بها.

وقد بينا أن التسريح أصله إرسال الماشية في المرعى ومنه قوله: " حين تريحون وحين تسرحون " (١).

وقوله: " ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا " معناه: لا تراجعواهن لا لرغبة فيهن بل لطلب الاضرار بهن إما تطويل العدة، أو طلب المفاداة أو غير ذلك، فان ذلك غير جائز.

وقوله: " ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه " فالظلم الضرر الذي ليس لاحد أن يضر به.

وقوله: " ولا تتخذوا آيات الله هزوا " يعني ما ذكره من الاحكام في الطلاق بما يجوز فيه

المراجعة، وما لهم على النساء من التربص حتى؟ أو رفعوه مما ليس لهم عن ذلك (٢) وروي

عن أبي الدرداء وأبي موسى الاشعري: أنهم قالوا: كان الرجل يطلق أو يعتق ثم يقول: إنما

كنت لاعبا، فلذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

من طلق لاعبا، أو أعتق لاعبا، فقد جاز عليه.

وقوله: " واعلموا أن الله بكل شئ عليم " معناه: التنبيه على أنه لا يسقط الجزاء على عمل من

أعمالهم، لخفائه عنه، لانه " بكل شئ عليم " والاجل هو

" ١ " سورة النحل آية: ٦.

" ٢ " هكذا في المطبوعة، ولم تتمكن من تصحيحها بما يناسب، وهي كما ترى.

(٢٥٢)

انقضاء مدة الانتظار. والامساك هاهنا: المنع من الذهاب والتسريح: الارسال بتركهن بانقضاء العدة.

قوله تعالى:

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف

ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا

تعلمون (٢٣٢) آية واحدة بلا خلاف.

النزول:

قال قتادة، والحسن: إن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى

الزوج الاول، فانه طلقها، وخرجت من العدة ثم أراد أن يجتمعا بعقد آخر على نكاح آخر،

فمنعها من ذلك، فنزلت فيه الآية. وقال السدي: نزلت في جابر بن عبدالله عضل بنت عم له.

والوجهان لا يصحان على - مذهبنا -، لان عندنا أنه لا ولاية للاخ، ولا لابن العم عليها

وإنما هي ولية نفسها، فلا تأثير لعضلها.

المعنى:

والوجه في ذلك أن تحمل الآية على المطلقين، لانه خطاب لهم بقوله " وإذا طلقتم النساء " نكايه قال: " فلا تعضلوهن " بأن تراجعوهن عند قرب انقضاء عدتهن، ولا رغبة لكم فيهن، وإنما تريدون الاضرار بهن، فان ذلك مما لا يسوغ في الدين، والشرع، كما قال في الاولى: " ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا " ولا يطعن على ذلك قوله: " أن ينكحن أزواجهن "، لان المعنى فيه من يصيروا

(٢٥٣)

أزواجهن، كما أنهم لابد لهم من ذلك إذا حملوا على الزوج الاول، لان بعد انقضاء العدة لا يكون زوجا، ويكون المراد من كان أزواجهن، فما لهم إلا مثل ما عليهم. ويجوز أن يحمل العضل في الآية على الجبر، والحيلولة بينهما، وبين التزويج دون ما يتعلق بالولاية، لان العضل هو الحبس.

اللغة:

وقيل: إن العضل مأخوذ من المنع. وقيل: إنه مأخوذ من الضيق، قال أوس بن حجر:

وليس أخوك الدائم العهد بالذي * يذمك إن ولى ويرضيك مقبلا

ولكنه النائي إذا كنت آمنا * وصاحبك الادنى إذا الامر أعضلا (١)

وتقول: عضل المرأة يعضلها اذ منعها من التزويج ظلما. وفي بعض اللغات يعضلها - بكسر الضاد - في المضارع. وأعضل الداء الاطباء إذا أعياهم أن يقوموا به، لانه امتنع عليهم بشدة، وهو داء عضال. والامر المعضل: الذي يغلب الناس، لامتناعه بصعوبته. وعضلت عليه إذا ضيقت عليه بما يحول بينه، وبين، ما يريد ظلما، لانك منعته بالضيق عليه مما يريد. وعضلت المرأة بولدها إذا عسرت ولادتها وكذلك أعضلت، وأعسرت، لان الولد امتنع من الخروج عسرا. وفلان عضلة من العضل: أي داهية من الدواهي، لانه امتنع بدهائه. وعضل الوادي بأهله:

إذا ضاق بأهله: وعضلة الساق: لحمة مكتنزة. وأصل الباب المنع. وقيل أصله التضييق.

الاعراب، والمعنى:

موضع (أن) من قوله: " أن ينكحن أزواجهن " جر عند الخليل، والكسائي، وتقديره: من أن، ونصب عند غيرهما بالفعل.

وقوله: " ذلك يوعظ به " إنما قال بلفظ التوحيد وإن كان الخطاب للجميع

(٢٥٤)

لاحد ثلاثة أوجه:

أحدها - أن (ذا) لما كان منها ما يستعمل الكاف معه كثيرا، صار بمنزلة شئ واحد. ولا يجوز على ذلك (أيها القوم هذا غلامك). وقال الفراء: توهم أن الكاف من (ذا)، وأنكر ذلك الزجاج، وقال: ليس في أفصح اللغات بناء على توهم خطأ. والوجه ما قلناه من التشبيه مما جعلت الكلمتان فيه بمنزلة شئ واحد.

والوجه الثاني - على تقدير: ذلك أيها القبيل.

والوجه الثالث - أن يكون خطابا للرسول (صلى الله عليه وآله).

وقوله: " والله يعلم " معناه أنه يعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون.

وقوله " من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر " (من) في موضع رفع ب (يوعظ)، وإنما خص المؤمن بالوعظ لاحتد ثلاثة أقوال:

أحدها - لانهم المشفقون بالوعظ، فنسب اليهم، كما قال " هدى للمتقين " (١)

و " إنما أنت منذر من يخشاها " (٢).

والثاني - لانهم أولى بالاعتراض.

الثالث - إنما يلزمه الوعظ بعد قبوله الايمان واعترافه بالله تعالى.

قوله تعالى:

والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فان أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم

" ١ " سورة البقرة آية: ٢. " ٢ " سورة النازعات آية: ٤٥.

(٢٥٥)

بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير (٢٣٣)

آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن كثير، وأهل البصرة، وقتيبة: "لاتضار" - بتشديد الراء - ورفعها. وقرأ أبو جعفر بتخفيفها وسكون. الباقر بتشديدها وفتحها. وقرأ ابن كثير "ما آتيتم" قصراً، وكذلك "ما آتيتم من ربا" في الروم (١).

قوله: "يرضعن أولادهن حولين كاملين" في حكم الله الذي أوجبه على عباءة. ده فحذف للدلالة عليه.

الثاني - لانه وقع موقع يرضعن، صرفاً في الكلام مع رفع الاشكال ولو كان خبراً لكان كذباً، لوجود والوالدات يرضعن أولادهن أكثر من حولين، وأقل منهما.

وفي الآية بيان لامرين: أحدهما مندوب، والثاني فرض، فالمندوب: هو أن يجعل الرضاع تمام الحولين، هي التي تستحق المرضعة الاجر فيهما، لا تستحق فيما زاد عليهما، وهو الذي بينه الله تعالى بقوله: "فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن" (٢)، فتثبت المدة التي تستحق بها الاجرة على ما أوجبه الله في هذه الآية.

اللغة:

تقول: رضع يرضع، ورضع يرضع رضاعة، وأرضعته أمه إرضاعاً، وارتضاعاً، واسترضع استرضاعاً، وراضعه رضاعاً، ومراضعة. ولئيم راضع، لانه يرضع لبن ناقته من لؤمه، لالا يسمع الضيف صوت الشخب. والرضعتان: التثيتان: مقدمتا الاسنان، لانه يشرب عليهما اللبن. وأصل الباب الرضع: مص الثدي،

" ١ " سورة البقرة آية: ٣٩، سورة الروم آية: ٥.

" ٢ " سورة الطلاق آية: ٦.

(٢٥٦)

لشرب اللبن منه. ومعنى "حولين" سنتان، وهو مأخوذ من الانقلاب في قولك: حال الشيء عما كان عليه يحول، فالحول، لانه انقلب عن الوقت الاول إلى الثاني، ومنه الاستحالة في الكلام، لانقلابه عن الصواب. وقيل أخذ من الانتقال من قولك: تحول عن المكان. وإنما قال: "كاملين" فان كانت التثنية تأتي على استيفاء العدة، لرفع التوهم، وإنه على طريقة التغليب، كقولهم: سرنا يوم الجمعة. وإن كان السير في بعضه. وقد يقال: أقمنا حولين، وإن كانت الإقامة في حولين، وبعض آخر (١) فهو لرفع الإيهام الذي يعرض في الكلام.

المعنى:

فان قيل: هل يلزم في كل مولود قيل: فيه خلاف: قال ابن عباس:

لا، لانه يعتبر ذلك بقوله: " وحمله وفصاله ثلاثون شهرا " (٢) فان ولدت المرأة لسته أشهر، فحولين كاملين، وإن ولدت لسبعة أشهر، فثلاثة وعشرون شهرا، وإن ولدت لتسعة أشهر، فاحد وعشرين شهرا تطلب بذل التكملة لثلاثين شهرا في الحمل والفصال الذي سقط به الفرض، وعلى هذا تدل أخبارنا، لانهم رووا: أن ما نقص عن إحدى وعشرين شهرا فهو جور على الصبي. وقال الثوري: هو لازم في كل ولد إذا اختلف والداه، رجعا إلى الحولين من غير نقصان، ولازيادة، ولايجوز لهما غير ذلك، والرضاع بعد الحولين لاحكم له في التحريم - عندنا - وبه قال ابن مسعود وابن عباس وابن عمرو أكثر العلماء، وروي عن عائشة أن رضاع الكثير يؤثر. وقال أبو علي الجبائي لم يقم بهذا حجة ولا نزل له ظاهر القرآن.

وقوله: " وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف " معناه أنه يجب على الاب إطعام أم الولد وكسوتها ما دامت في الرضاعة اللازمة إذا كانت مطلقة، وبه قال الضحاك والثوري وأكثر المفسرين.

" ١ " هكذا في المطبوعة ولعل الاصح (حول وبعض من آخر).

" ٢ " سورة الاحقاق آية: ١٥.

(٢٥٧)

اللغة، والحجة:

يقال كساه يكسوه كسوة: إذا ألبسه الثياب واكتسى هو اكتساء: إذا لبس، واكتست الارض بالنبات إذا تغطت به، وكسوته مدحا أو نما: إذا أثنيت عليه أو ذمته. والكساء معروف، وأصل الباب الكسوة: اللباس.

وقوله: " لا تكلف نفس إلا وسعها " يدل على فساد قول المجبرة: في حسن تكليف ما لا يطاق لانه إذا لم يجز أن يكلف مع عدم الجدة لم يجز أن يكلف مع عدم القدرة، لانه إنما لم يحسن في الاول من حيث أنه لا طريق له إلى إداء ما كلفه من غير جدة، فكذا لا سبيل له إلى إداء ما كلف إلى الطاعة مع عدم القدرة، ولا ينافي ذلك قوله: " فضلوا فلا يستطيعون سبيلا " (١) لانه ليس المراد نفي القدرة وإنما معناه: أنه يتقل عليهم كما يقول القائل: لا أستطيع أن أنظر إلى كذا معناه:

أنه يتقل علي، ويقال: كلف وجهه كلفا، وبخده كلف أي أثر، والكلف بالشئ الايلاع به، لانه لزوم يظهر أثره عليه، وكلف كلفا: إذا أحب. وتكلف الامر تكلفا، تحمله. وكلفه تكليفا: ألزمه. وأصل الباب الكلف: ظهور الاثر.

وقوله: " لا تضار والدة بولدها " أصله تضارر - بكسر الراء الاولى - وقيل - بفتحها - وأسكنت وأدغمت في الراء بعدها. ومن فتحها بالتقاء الساكنين، وهو الاقوى فيما قبله فتحة أو ألف نحو عض (٢) ولا تضار زيدا. وقال بعضهم: لا يجوز ألا تضارر بفتح الراء الاولى، لان المولود لا يصح منه مضامرة، لان الافصح لو كان كذلك الكسر. وقال الرماني: غلط في الاعتلالين أما الاول، فلانه ينقلب عليه في تضار إذا المضارة من إثنتين في الحقيقة، وإن لم يسم الفاعل. ولانه إنما يرجع ذلك إلى الزوج، والمراد الاولى والولد. فأما الافصح، فعلى خلاف ما ذكر، لان الفتح لغة أهل الحجاز، بني أسد، وكثير من العرب، وهو القياس، لانه إذا جاز مد بالضم للاتباع، كانت الفتحة بذلك أولى، لانها أخف، ولانه يجوز مد بالفتح طلبا للخفة، فاذا اجتمع الاتباع والاستخفاف كان أولى، وقوله: إن

" ١ " سورة الاسرى آية ٤٨:، وسورة الفرقان آية ٩ " ٢ " هكذا في المطبوعة

(٢٥٨)

الفتحة في تضار: هي الفتحة في الراء الاولى، دعوى منه لادليل عليها. ويدل على صحة ما قلناه: قوله: " من يرتد منكم " (١) " ولا يضار كاتب " (٢) كل ذلك بالفتح دون الكسر. المعنى:

وإنما قيل: " يضار " والفعل من واحد لانه لما كان معناه المبالغة كان بمنزلة من إثنتين، وذلك لانه يضره إن رجع عليه، منه ضرورة، فكأنه قيل: لا تضار والدة من الزوج بولدها. ولو قيل في ولدها لجاز في المعنى، وكذلك فرض الوالد.

وعن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أي لا يترك جماعها خوف الحمل لاجل ولدها المرتضع " ولا مولود له بولده " يعني لا تمنع نفسها من الاب خوف الحمل، فيضر ذلك بالاب وقيل: " لا تضار والدة بولدها " بأن ينزع الولد منها، ويسترضع امرأة أخرى مع إيجابتها إلى الرضاع باجرة المثل " ولا مولود له " بولده أي لا تمتنع هي من الارضاع إذا أعطيت أجرة مثلها، والاولى حمل الآية على عموم ذلك.

وقيل: معناه أن على الوالدة ألا تضار بولدها فيما يجب عليها من تعاهده، والقيام بأمره، ورضاعه، وغذائه. وعلى الوالد ألا يضار بولده فيما يجب عليه من النفقة عليه، وعلى أمه، وفي حفظه، وتعاهده.

وقوله: " وعلى الوارث مثل ذلك " قال الحسن، وقتادة، والسدي: الوارث للولد. وقال قبيصة بن ذؤيب: هو الوالد، والاول أقوى. فان قيل: أعلى كل وارث له، أم على بعضهم؟ قيل: ذكر أبو علي الجبائي: أن على كل وارث نفقة الرضاع الاقرب فالاقرب يؤخذ به. وأما نفقة ما بعد

الرضاع، فاختلفوا، فعندنا يلزم الوالدين - وإن عليا - النفقة على الولد وإن نزل، ولا يلزم غيرهم. وقال قوم:

يلزم العصبية دون الام، والاخوة من الام، ذهب اليه عمر، والحسن.
وقيل: على الوارث من الرجال، والنساء على قدر النصيب من الميراث، ذكره قتادة، وعموم الآية يقتضيه، غير أنا خصصناه بدليل. وقال أبوحنيفة،

" ١ " سورة المائدة آية: ٥٧. " ٢ " سورة البقرة آية: ٢٨٢.

(٢٥٩)

وأبيوسف، ومحمد: على الوارث ممن كان ذا رحم محرم دون من كان ذا رحم ليس بمحرم، كابن العم وابن الاخت، فأوجبوا على ابن الاخت ولم؟ على ابن العم وإن كان وارثه في تلك الحال، وكذلك العمه وابن العمه حكاد أبو علي الجبائي، والبلخي. وقال سفيان " وعلى الوارث " : أي الباقي من أبويه، وهذا مثل ما قلناه. وقد روي في أخبارنا: أن على الوارث كائنا من كان النفقة، وهو ظاهر القرآن، وبه قال قتادة، وأحمد، وإسحاق، والحسن وإبراهيم.
اللغة:

والميراث: تركة الميت، تقول: ورث يرث إرثا، ووأرثه ميراثا، وتوارثوا توارثا، ووورثه توريثا. وأورثه الحي ضعفا. والتراث: الميراث. ووورثت النار، وأورثتها: إذا حركت جمرها، ليشتعل، لانه تظهر فيه النار عن الاول، كظهور الميراث في الثاني عن الاول.
المعنى:

وقوله: " مثل ذلك " يعنى من النفقة، وبه قال ابراهيم. وقال الضحاك:
من ترك المضارة. والمفهوم من الكلام، وعند أكثر العلماء: الامران معا، وهو أليق بالعموم.
وقوله: " فان أرادا فصالا " فالفصال: الفطام، لانفصال المولود عن الاغتذاء بثدي أمه إلى غيره من الاغتذاء.

فان قيل: أي فصال ذلك أقبل الحولين أم بعدهما؟ قيل: فصال الحولين، لان الفرض معلوم (١) إذا تنازعا رجعا إليه، فأما بعد الحولين، فلا يجب على واحد منهما اتباع الاخر في دعائه. وبه قال مجاهد، وقتاده، وابن شهاب، وسفيان وابن زيد. وروي عن ابن عباس: أنه إذا تراضيا على الفصال قبله أو بعده مضى، فان لم يتراضيا رجعا إلى الحولين.

" ١ " في المطبوعة (مغلوجة).

اللغة:

وأصل الباب الفرق، يقال: فصل يفصل فصلا، وفاصله مفاصلة، وتفصلوا تفاصلا، واستفصلوا استفصالا وانفصل انفصالا، وفصله تفصيلا، وتفصل تفصلا.
وفواصل القلادة: شذر بين نظم الذهب. والفصل: القضاء بين الحق، والباطل، وهو الفيصل.
وفصيلة الرجل بنو أبيه، لانفصالمهم من أصل واحد. والفصيل: الواحد من أولاد الأبل، لانه فصل عن أمه والفصيل: حائط قصير دون السور.

المعنى:

وقوله: " فلا جناح عليهما " يعني لاجرج، على قول ابن عباس، وهو مأخوذ من " جنحوا للسلم " (١) أي مالوا. والجناح: الميل عن الاستقامة.

وقوله: " إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف " معناه على قول مجاهد، والسدي:
أجر الام بمقدار ما أرضعت أجرة المثل. وقال سفيان: أجرة المسترضعة. وقال ابن شهاب:
سلمتم الاسترضاع. وقال ابن جريج: أجرة الام والنظير.

وقوله: " أن تسترضعوا أولادكم " معناه: لأولادكم، وحذفت اللام لدلالة الاسترضاع عليه من حيث أنه لا يكون إلا للولاد، ولا يجوز: دعوت زيدا، تريد لزيدا، لانه يجوز أن يكون المدعو، والمدعو له، إذ معنى دعوت زيدا لعمره، خلاف دعوت زيدا فقط، فلا يجوز للالباس.

وفي الآية دلالة على أن الولادة لستة أشهر تصح، لانه إذا ضم إلى الحولين كان ثلاثين شهرا، وروي عن علي (ع) وابن عباس ذلك.

الاعراب:

ومن رفع " لا تضار " فعلا استئناف النفي. وقال الكسائي، والفراء: هو منسوق على " لا تكلف ". قال الرماني هذا غلط، لان النسق ب (لا) إنما هو على إخراج الثاني مما دخل فيه الأول، نحو ضربت زيدا لا عمرا، فأما أن يقوم زيد

" ١ " سورة الانفال آية: ٦٢.

لا يقعد عمره، فلا يجوز على النسق، ولكن يرفع على استئناف النفي ب (لا)، فكذلك " لا تضار " مستأنف في اللفظ متصل في المعنى، وقوله: " وان تصبروا وتتقوا " (١) إنما جاز في موضع الجزم للاتباع، وليس ذلك في " لاتضار ".

اللغة:

والوسع: الطاقة مأخوذ من سعة المسلك إلى العرض، فيتمكن لذلك. ولو ضاق لاعجز عنه،
والسعة فيه بمنزلة القدرة، فلذلك قيل: الوسع بمعنى الطاقة.

وقوله: " وتشاور " فالتشاور مأخوذ من الشور، وهو اجتناء العسل، تقول: شرت العسل، وأنا
شوره شورا، وأشيره إشارة: إذا اجتنيته من مكانه.

والمشورة: استخراج الرأي من المستشار، لانه يجتنى منه (٢). وشاوره مشاورة، وأشار عليه
إشارة، واستشار استشارة. واستشار العسل: إذا اجتناه وأشار إلى الشيء إشارة: إذا أومئ إليه،
والمشيرة الاصبع الذي تسمى السبابة لانه يشار بها الشباب، وغيره. والشابة: الهيبة، واللباس
الحسن لانه مما يشاب إليه لحسنه والتشوير: استخراج سير الدابة كالأحسان.
قوله تعالى:

والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن
فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير (٢٣٤) آية واحدة بلا
خلاف.

المعنى:

هذه الآية ناسخة لقوله: " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية

" ١ " سورة آل عمران آية: ١٢٠، ١٢٥، ١٨٦.

" ٢ " في المطبوعة (بخشى منه).

(٢٦٢)

لازواجهم متاعا إلى الحول غير اخراج " (١) وإن كانت مقدمة عليه في التلاوة وعدة كل
متوفى عنها زوجها: أربعة أشهر وعشرا سواء كانت مدخولا بها، أو غير مدخول، حرة كانت
أو أمة، فإن كانت حبلى، فعدتها أبعد الاجلين، من وضع الحمل أو مضى الاربعة أشهر،
وعشرة أيام، وهو المروى عن علي (ع)، ووافقنا في الامة الاصم، وخالف باقي الفقهاء في
ذلك، وقالوا: عدتها نصف عدة الحرة: شهران وخمسة أيام، وإليه ذهب قوم من أصحابنا،
وقالوا في عدة الحامل:

إنها بوضع الحمل، وإن كان بعد على المغتسل، وروي ذلك عن عمر، وأبي مسعود البدرى،
وأبي هريرة. وعندنا أن وضع الحمل يختص بعدة المطلقة. والذي يجب على المعتدة في عدة
الوفاة اجتنابه في قول ابن عباس،، وابن شهاب:

الزينة، والكحل بالاثمد، وترك النقلة عن المنزل. وقال الحسن في احدى الروايتين عن ابن
عباس: إن الواجب عليها الامتناع من الزواج لاغير. وعندنا أن جميع ذلك واجب.

الاعراب:

وقوله: " والذين " رفع بالابتداء " ويتوفون منكم " في صلة الذين " ويذرون أزواجا " عطف عليه، وخبر الذين قيل فيه أربعة أقوال:

أولها - أن تكون الجملة على تقدير " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا " أزواجهم " يتربصن " .

الثاني - على تقدير " يتربصن " بعدهم أزواجهم.

الثالث - أن يكون الضمير في يتربصن لما عاد إلى مضاف في المعنى، كان كان بمنزلة على تقدير " يتربصن " أزواجهم: هذا قول الزجاج والاول قول أبي العباس، والثاني قول الاخفش ونظير قول الزجاج أن تقول: إذا مات، وخلف ابنتين، يرثان الثلثين، المعنى يرث إبنته الثلثين.

الرابع - أن يعدل عن الاخبار عن الأزواج، لان المعنى عليه، والفائدة

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٤٠.

(٢٦٣)

فيه ذهب إليه الكسائي، والفراء، وأنكر ذلك أبو العباس، والزجاج، لانه لا يكون مبتدأ لاخبر له، ولاخبر إلا عن مخبر عنه، وأنشد الفراء (١):

لعلي إن مالت بي الريح ميلا * على ابن أبي ديان أن يتندما (٢)

المعنى لعل ابن أبي ديان أن يتندم، وهذا يجوز على حذف أن يتندم لاجلي وقال أيضا:

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راض والرأي مختلف (٣)

وقال أبو عبيدة: نظير الآية قول شداد بن عنتر:

فمن يك سائلا عنى فاني * وحروة لاترود ولا نعار

حروة اسم فرسه وإنما حذف الخبر من الاول، لان خبر الثاني يدل عليه، لانه أراد فاني حاضر، وفرسي حاضرة لاترود، ولانعار، فدل بقوله: لاترود ولانعار: على أنها حاضرة بتوعد وتتهدد في قول أبي العباس.

وقوله: " يذرون " يتركون وترك ماضيه يترك تركا. وتقول ذره تركا وكذلك يدع ليذر سواء، والعلة في ذلك أنهم كرهوا الواوات في أول الكلام حتى أنهم لم يحلقوها، أو على جهة الزيادة أصلا، ففي رفض وذر: دليل على الكراهة لها أصلية، وليس بعد الضعف إلا الاتباع فلما ضعفت أصلية امتنعت زيادة، فان قيل كيف قال وعشرا بالتأنيث وإنما العدة على الايام والليالي، ولذلك لم يجز أن تقول: عندي عشر من الرجال والنساء. قيل لتغليب الليالي على

الايام إذا اجتمعت في التاريخ، وغيره، لان ابتداء شهور الالهة الليالي منذ طلوع الهلال فلما كانت الاوائل غلبت، لان الاوائل أقوى من الثواني وقال الشاعر:

" ١ " قائله ثابت قطنه التعكي، واسمه ثابت بن كعب، ذهبت عينه في الحرب فكان يحشوها بقطنه، وهو شاعر فارسي من شعراء خراسان في عهد الدولة الاموية قال فيه حاجب الفيل:
لايعرف الناس منه غير قطنته * وما سواها من الاتساب مجهول
" ٢ " تاريخ الطبري ٨: ١٦٠، ومعاني القرآن للفراء ١: ١٥٠ وهو من قصيدة يرثي بها يزيد بن المهلب، لما قتل في سنة ١٠٢ في خروجه على يزيد بن عبدالمك بن مروان.
" ٣ " مر تخريجه في ١: ١٧٢، ٢٠٣.

(٢٦٤)

أقامت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تضيف وتجأرا (١)
معنى تضيف تميل وحكى الفراء: صمنا عشرا من شهر رمضان ولو أضاف إلى الايام فقال عشرة أيام، لم يجز إلا التذكير، وإنما جاز في الاول لانه بمعنى عشر من رمضان وقع العمل في نهاره.
اللغة:

وقوله: " فاذا بلغن أجلهن " يقال: أجله تأجيلا: إذا أخره، والاجل نقيض العاجل، وتأجل تأجلا واستأجله استأجلا، وأجلوا ما لهم يأجلونه أجلا:
إذا حبسوه في المرعى، لانهم أخروه فيه والاجل: غاية الوقت في محل الدين وغيره، لتأخره إلى ذلك الوقت وأجل الشئ يأجل وهو آجل نقيض العاجل. لتأخره عن وقت غيره، وفعلته من أجل كذا أي لعاقبة كذا وهي متأخرة عن وقت الفعل الذي دعت. إليه والاجل: القطيع من نفر الوحش، وجمعه آجال، وقد تأجل الصوار أي صار قطيعا لتأخر بعضه عن بعض، وآجل عليهم شرا آجلا أي خبأه، لانه أعقبهم شرا، وهو متأخر عن وقت فعله. والاجلة الاخرة، والعاجلة الدنيا. والمأجل شبه حوض واسع يؤجل فيه ماء البئر أياما، ثم يفجر في الزرع، وهو بالفارسية: (كرجه) وذلك لتأخر الماء فيه.

وقوله: " والله بما تعملون خبير " فالخبير: العالم، لانه عالم بمخبر الخبر.
والخبار: الارض السهلة فيها حجارة، وأحفار. وأخبرت بالشئ إخبارا، لانه تسهيل لطريق العلم به، واستخبره استخبارا، وتخبر تخبرا، وخبره تخبيرا، وأخبره إخبارا، وتخبر القوم: بينهم خبرة: إذا اشتروا شاة، فذبحوها، واقتسموا لحمها، والشاة: خبيرة. والمخبرة: المزايدة العظيمة. والخابرة: أن يزرع على النصف، أو الثلث، أو نحوه. والاكار: الخبير. والمخابرة: المؤاكرة، وذلك لتسهيل الزراعة.

" ١ " اللسان ضيف. قائله النابغة الجعدي. في المطبوعة (تجأوا) بدل (تجأرا) وهو تحريف.

(٢٦٥)

المعنى:

وقوله: " فاذا بلغن أجلهن " أي انقضت هذه المدة، وهي الاربعة أشهر وعشرا " فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف " أي لا جناح عليكم أن تتركوهن إذا انقضت هذه المدة أن يتزوجن، وأن يتزين زينة لا ينكر مثلها وهو معنى قوله " بالمعروف ".
قوله تعالى:

ولاجناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلیم (٢٣٥) آية في الكوفي.

المعنى:

قال ابن عباس: التعريض المباح في العدة هو قول الرجل: أريد التزويج، وأحب امرأة من حالها، ومن أمرها، وشأنها، فيذكر بعض الصفة التي هي عليها، هذا قول ابن عباس. وقال القاسم بن محمد، وعامر تقول: إنك لنافقة، وإنك لعجبة جميلة، وإن قضى الله شيئا كان اللعة:

والخطبة: الذكر الذي يستدعي به إلى عقدة النكاح، والخطبة: الوعظ المنسق على ضرب من التأليف. وقيل الخطبة: ماله أول، وآخر، مثل الرسالة. والخطبة

(٢٦٦)

للحال نحو الجلسة، والعقدة، تقول: خطب المرأة يخطبها خطبة، لأنه خاطب في عقد النكاح. وخطب خطبة، لأنه خاطب بالزجر، والوعظ على ضرب من تأليف اللفظ المخصوص. وخاطب مخاطبة، وخاطبا، وتخاطبوا تخاطبا. والخطب: الامر العظيم. والخطبان: الحنظل الذي تشتد خضرته حتى تستحيل إلى الغبرة، والصفرة.
وأصل الباب الخطاب.

والفرق بين التعريض، والكناية أن التعريض: تضمين الكلام دلالة على شئ ليس فيه ذكر له، والكناية: العدول عن الذكر الاخص بالشئ إلى ذكر يدل عليه فالاول كقول القائل: ما أقبح

البخل، يعرض بأن المخاطب بخيل، ولعن الله الملحدين، يعرض له بالاحاد. والثاني كقولك: زيد ضربته، كنييت عنه بالهاء الموجودة في (ضربته).

وقوله: " أو أكننتم في أنفسكم " فالاكنان: إسرار العزم على النكاح دون إظهاره على قول ابن زيد، ومجاهد. وقال قوم: هو معنى التعريض بالخطبة إن شئت أظهرته، وإن شئت أضمرته. وتقول: كننت الشيء: إذا سترته، أكنه كنا وكنونا وأكننته إكنانا إذا أضمرته، لأنك سترته في نفسك. واستكن الرجل، وأكنن إذا صار في كن، لأنه صار فيما يستره. والكناية الجعبة غير أنها صيغة تتخذ للنبل. والكة: امرأة الابن أو ابن الاخ. والجمع كنائن. وسمي الكانون كانونا، لأنه يحتاج إليه في وقت الاكتنان من البرد، ومنه قوله:

" كأنهن بيض مكنون " (١) " وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون " (٢)

وأصل الباب الكن: الستر.

والفرق بين الاكنان ولكن: أن الاكنان: الاضمار في النفس، ولا يقال كننته في نفسي. وقيل: كننته معناه صنته كما قال: " كأنهن بيض مكنون ".

" ١ " سورة الصافات آية: ٤٩.

" ٢ " سورة النمل آية ٧٤، وسورة القصص آية: ٦٩.

(٢٦٧)

المعنى:

وقوله: " لا تواعدوهن سرا " قال الحسن، وإبراهيم، وأبومجيلة: السر المنهي عنه هاهنا الزنا. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والشعبي: هو العهد على الامتناع من تزويج غيرك. وقال مجاهد: هو أن تقول لها لا تفوتيني بنفسك، فاني ناكحك. وقال ابن زيد: هو اسرار عقدة النكاح في العدة.

اللغة:

والسر في اللغة على ثلاثة أوجه: الاخفاء في النفس، والشرف في الحسب، يقال: فلان في سر قومه إذا كان في شرفهم، وصميمهم. والجماع في الفرج قال الشاعر:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني * كبرت وألا يشهد السر أمثالي (١)
وقال رؤبة:

فحف عن أسرارها بعد العسق * ولم يضعها بين فرك وعشق (٢)
العشق اللصوق وقال الحطيئة:

ويحرم سر جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنف القصاع (٣)

وقوله: " إلا أن تقولوا قولاً معروفاً " يعنى التعريض الذي أباحه الله تعالى.
و (إلا) بمعنى (لكن) لان ما قبلها هو المنهي عنه، وما بعدها هو المأذون فيه.
وتقديره: ولكن قولوا قولاً معروفاً.
وقوله " ولا تعزموا عقدة النكاح: تقديره على عقدة النكاح، وحذفت على،

" ١ " قائله امرء القيس ديوانه: ١٥٩ وروايته (وألا يحسن السر) بدل (وألا يشهد السر).
" ٢ " ديوانه: ١٠٤، واللسان " عسق "، " عشق "، " فرك "، " سرر ". والاسرار جمع سر. والعسق مصدر " عسق " به يعسق " لزمه وأولع به. والفرك - بكسر الفاء وسكون الراء - بغضة الرجل امرأته أو بالعكس، وامرأة فارك، وفروك: تكره زوجها وقد روى " العشق ".
" ٣ " اللسان (أنف). أنف كل شئ: طرفه، وأوله.

(٢٦٨)

لدلالة العزم عليها، لانه لا يكون إلا على معزوم عليه، كما قيل: ضربه الظهر والبطن أي على الظهر والبطن.

والعقد: الشد، تقول: عقد يعقد عقداً، وأعقدت العسل إققاداً، واعتقد صحة الامر اعتقاداً وتعاقداً على الامر تعاقداً، وعاقدة معاقدة، وعقد كلامه تعقيداً، وتعقد تعقداً، وانعقدنا نعقاداً، وعقد العبد، لانه كعقد الحبل في التوثيق.

والعقد: السمط من الجوهر. والعقد: الرمل للتداخل. وعقد اليمين: خلاف اللغو.
وناقاة عاقد أي لاقح، لانها تعقد بذنبها، فيظهر أنها قد لقحت.

المعنى:

وقوله: " حتى يبلغ الكتاب أجله " معناه انقضاء العدة بلا خلاف. والكتاب الذي يبلغ أجله هو القرآن ومعناه: فرض الكتاب أجله. ويجوز أن يكون الكتاب نفسه هو الفرض، ذكره الزجاج، ووجه ثالث أن يكون ذلك على وجه التشبيه بكتاب الدين، ذكره الجبائي.

وقوله: " والله غفور حلیم " قد بينا أن الحلم من الله هو إمهال العقوبة المستحقة. وقال أبو علي الجبائي هو كل فعل يضاد حدوث العقوبة في الانسان، وهو من الانسان ترك العقاب. والله تعالى لايجوز عليه الترك، فهو ما وصفنا من نعمه التي تضاد عقوبته.

قوله تعالى:

لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقا على المحسنين (٢٣٦) آية بلا خلاف.

القراءة:

قرأ حمرة، والكسائي، وخلف " تماسوهن " بضم التاء وبألف هاهنا

(٢٦٩)

موضعان، وموضع في الاحزاب، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة إلا أبابكر، وابن ذكوان " قدره " بفتح الدال في الموضعين. الباقرن باسكانها.

المعنى:

المفروض صداقها داخلة في دلالة الآية وإن لم يذكر، لأن التقدير ما لم تماسوهن ممن قد فرضتم لهن أو لم تفرضوا لهن فريضة، لأن أو تنبئ عن ذلك، لأنه لو كان على الجمع لكان بالواو.

والفريضة المذكورة في الآية: الصداق، بلاخلاف، لأنه يجب بالعقد للمرأة، فهو فرض لوجوبه بالعقد.

ومتعة التي لم يدخل بها ولا يسمى لها صداق على قدر الرجل، والمرأة، قال ابن عباس، والشعبي، والربيع: خادم أو كسوة أو رزق، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع). وقيل مثل نصف صداق تلك المرأة المنكوحة، حكى ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه. وفي وجوب المتعة لكل مطلقة خلاف. قال الحسن وأبو العالية: المتعة لكل مطلقة إلا المختلعة، والمبارية، والملاعنة. وقال سعيد بن المسيب: المتعة التي لم يسم لها صداق، خاصة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع). وقد روي أيضا أنها لكل مطلقة، وذلك على وجه الاستحباب.

والمتعة للتي لم يدخل بها ولم يعرض لها يجبر عليها السلطان، وهو قول أهل العراق. وقال أهل المدينة وشريح يؤمر لها، ولا يجبر عليها.

اللغة:

والموسع: الغني في سعة من ماله لعياله. والمقتر: الذي في ضيق لفقره، تقول: أقر الرجل إقتارا: إذا أقل، فهو مقتر أي مقل، وقترت الشيء أقرته قترا، وأقرته إقتارا، وقترته تقيرا: إذا ضيقت الانفاق منه. والقنار: دخان الشحم على النار، ونحوه، لغلبته بالاضافة إلى بقيته. والقنر: الغبار. والقنرة: ما يغشى الوجه

(٢٧٠)

من غير الموت، والكرب، لأنه كالقنار أو كالجبار يغشى اشلوجه، وفي التنزيل " ترهقها قنرة " (١) والقنير: مسامير الدروع، لقلتها وصغرها. والقنير ابتداء الشيب، لقلته. ويجوز أن يكون مشبها بالدخان أول ما يرتفع. والقنرة ناموس الصائد، لأنها كالقنار باخفائه إياها. ورجل قنر:

حسن الاخذ من ظهر البعير لا يعقره لقلته ما يأخذ منه، وأصل الباب الاقلال. وابن قنبر: حية خبيثة لا ينجو سليمها.

المعنى:

والمتوفى عنها زوجها إذا لم يفرض لها صداق عليها العدة - بلا خلاف - ولها الميراث إجماعاً. وقال الحسن والضحاك وأكثر الفقهاء. لها صداق مثلها. وحكى الجبائي عن بعض الفقهاء: أنه لامهر لها، وهو الذي يليق بمذهبنا، ولانص لأصحابنا فيها. الاعراب، والمعنى:

ويحتمل نصب " متاعاً " وجهين: أحدهما - أن يكون حالاً من قدره، لأنه معرفة، والعامل فيه الظرف. والثاني - على المصدر، والعامل فيه " ومتعوهن " .

ويحتمل نصب حقا وجهين: أحدهما - أن يكون حالاً من " بالمعروف حقا " والعامل فيه معنى عرف حقا. الثاني - على التأكيد، لجملة الخبر كأنه قيل: أخبركم به حقا كأنه قيل: إيجاباً " على المحسنين " وإنما خص التي لم يدخل بها بالذكر في رفع الجناح دون المدخول بها بالذكر وإن كان حكمهما واحد الأمرين: أحدهما - لازالة الشك في الحرج على هذا الطلاق. والثاني - لأن له أن يطلق أي وقت شاء، وليس كذلك حكم المدخول بها، لأنه يجب أن يطلقها للعدة. " وقدره " على تقدير أعطوهن قدر الوسع كما يقال: أخذ صدقاتهن لكل أربعين شاة بالرفع، والنصب. وقال الشاعر في تسكين الدال:

" ١ " سورة عبس آية: ٤١ .

(٢٧١)

وما صب رجلي في حديد مجاشع * مع القدر إلا حاجة لي أريدها (١)
وقال آخر:

ألا يالقومى للنوائب والقدر ! * وللامر يأتي المرء من حيث لا يدري " (٢)
قال أبو زيد: قدر القوم: أمرهم يقدرونه قدراً، وهذا قدر هذا أي مثله، وقدر الله الرزق يقدره. وروى السكوني يقدره قدراً. وقدرت الشيء بالشيء أقدره قدراً. وقدرت على الأمر أقدر عليه قدرة، وقدوراً، وقدارة. ونسأل الله خير القدر. وقال أبو الصقر: هذا قدر هذا، وأحمل قدر ما تطيق. وقال أبو الحسن:

هو القدر، والقدر. وخذ منه بقدر كذا، وقدر كذا: لغتان فيه وقوله:

" فسالت أودية بقدرها " وقدرها (٣).

الحجة:

ومن قرأ " تمسوهن " بلألف، فلقوله تعالى: " ولم يمسنني بشر " (٤)
فانه من جاء على (فعل)، وكذلك قوله: " ولم يطمئنهن أنس قبلهم ولا جان " (٥)
ومن قرأ " تماسوهن بالف "، لان (فاعل)، و (فعل) قد يراد بكل واحد منهما ما يراد بالآخر،
نحو طابقت النعل وعاقبت اللص، ولا يلزم على ذلك في آية الظهر " من قبل أن يتماسا "
(٦) لان المهاسة محرمة في الظهر على كل واحد من الزوجين للآخر، فلذلك لم يجز إلا "
من قبل أن يتماسا ". وفي الآية دليل على أن العقد بغير مهر صحيح، لانه لو لم يصح لما
جاز فيه الطلاق، ولا وجبت المتعة.

" ١ " قائله الفرزدق ديوانه: ٢١٥، واللسان (صبيب)، و (قدر)، ومقاييس اللغة ٥: ٦٢ والاساس (صبيب)، واصلاح المنطق: ١٠٩.

" ٢ " البيت لهدبة بن خشرم. اللسان (قدر) في المطبوعة (بالقوم) بدل (لقومي) و (للام) بدل (للامر).

" ٣ " سورة الرعد آية: ١٩ وقد قرأت الآية " بقدرها " بفتح الدال، ويسكونها. وخط المصحف بالسكون.

" ٤ " سورة آل عمران آية: ٤٧. " ٥ " سورة الرحمن آية: ٧٤.

" ٦ " سورة المجادلة آية: ٣، ٤.

(٢٧٢)

قوله تعالى:

وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح أن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم أن الله بما تعملون بصير (٢٣٧) آية واحدة بلا خلاف.

روى سعيد بن المسيب: أن هذه الآية ناسخة لحكم المتعة في الآية الاولى.

قال البلخي: وهذا ليس بصحيح، لان الآية الاولى تضمنت حكم من لم يدخل بها، ولم يسم لها مهرا إذا طلقها، وهذه تضمنت حكم التي فرض لها صداق إذا طلقت قبل الدخول، وأحد الحكمين غير الآخر. والذي قاله سعيد بن المسيب متوجه على ما قدمناه في الآية من أن دليلها يتناول التي فرض لها المهر. وإن حملنا قوله:

" ومتعوهن " على عمومه لزم أن تمتع كل مطلقة وإن سمي لها مهرا. وإن قلنا:

لامتعة للمفروض لها الصداق، فلا يلزم نسخ الآية أو تخصيصها إن نزلت معها.

وقال جميع أهل التأويل: إنه إذا طلق الرجل من سمي لها مهرا معلوما قبل أن يدخل بها، فإنه يستقر لها نصف المهر، فإن كانت ما قبضت شيئا وجب عليه تسليم نصف المهر، وإن كانت قد سلمت جميع المهر، وجب عليها رد نصف المهر، ويستقر لها النصف الآخر.
اللغة:

والنصف: هو سهم من اثنين، تقول: نصفه ينصفه، وانتصف انتصافا، ونصفه تنصيفا، وأنصفه إنصافا، وتناصفوا تناصفا، وناصفه مناصفة، وتتنصف تنصفا. والنصف: المرأة بين المسنة والحدثة، لأنها على نصف المسنة. والناصف: الخادم، وهو ينصف الملوك أي يخدمهم، لأنه يعطيهم النصف من نفسه قسرا وذلا.

(٢٧٣)

والانصاف، لأنه كالنصف في العدل. والنصيف: الخمار، لأنه كالنصف في أنه وسط بين الصغير، والكبير، ويقال له: نصيفة. ومنتصف الطريق: وسطه. والمنصف من الشراب الذي طبخ حتى ذهب نصفه. والنصيف: مكيال، لأنه على النصف بالتعديل بين الكبير والصغير.
المعنى:

وقوله: " أن يعفون " معناه: أن يصح عفوها، من الحرار البالغات غير المولى عليها، لفساد عقلها، فتترك ما يجب لها من نصف الصداق، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وجميع أهل العلم.

وقوله: " أوعفو الذي بيده عقدة النكاح " قال مجاهد، والحسن، وعقمة: إنه الولي، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله (ع)، غير أنه لا ولاية لاحد - عندنا - إلا الأب أو الجد على البكر غير البالغ، فأما من عداها، فلا ولاية له إلا بتولية منهما، روي عن علي (ع). وعن سعيد بن المسيب، وشريح، وحما، وإبراهيم، وأبي حذيفة، وابن شبرمة: أنه الزوج، وروي ذلك أيضا في أخبارنا غير أن الأول أظهر، وهو المذهب، وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف، وقوينا ما أخبرنا هناك.

والالف واللام في قوله " عقدة النكاح " بدل من الاضافة، فمن جعل الزوج قال تقديره: الذي بيده عقدة نكاحه، ومن جعل الولي، قال: تقدير الذي بيده عقدة نكاحها، ومثله قوله تعالى: "

فان الجنة هي المأوى " (١) ومعناه: هي مأواه وقراره وقال النابغة:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم * من الناس والاحلام غير عواذب (٢)

" ١ " سورة النازعات آية: ٤١. " ٢ " ديوانه: ٤٥ من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الاصغر الاعرج الغساني وذلك حين فر من النعمان بن المنذر إلى الشام. والضمير في " لهم " عائد إلى ملوك غسان من بني جفنة. والشيمة: الخلق، والطبيعة.

(٢٧٤)

معناه وأحلامهم غير عواذب. ومن جعل العفو للزوج قال: له أن يعفو عن جميع نصفه. ومن جعله للولي: قال أصحابنا له أن يعفو عن بعضه، وليس له أن يعفو عن جميعه، فإن امتنعت المرأة من ذلك لم يكن لها ذلك إذا اقتضت المصلحة ذلك، عن أبي عبد الله (ع). واختار الجبائي أن يكون المراد به الزوج، قال: لأنه ليس للولي أن يهب مال المرأة، قوله: " وأن تعفوا أقرب للتقوى " خطاب للزوج والمرأة، قال لأنه ليس للولي أن يهب مال المرأة. وقوله: " وأن تعفوا أقرب للتقوى " خطاب للزوج، والمرأة جميعاً - في قول ابن عباس - وقيل: للزوج وحده عن الشعبي، وإنما جمع لأنه لكل زوج وقول ابن عباس أقوى لأنه العموم. وإنما كان العفو أقرب للتقوى من وجهين: أحدهما - لانتقاء ظلم كل واحد صاحبه مما يجب من حقه. الثاني - أنه أدعى إلى اتقاء معاصي الله، للرغبة فيما رغب فيه من العفو عماله. الاعراب:

وقوله: " فنصف ما فرضتم " رفع على: عليكم نصف ما فرضتم، وكان يجوز أن ينصب في العربية على فأدوا نصف ما فرضتم. وقوله: " ولا تتسو الفضل بينكم " الواو مضمومة، لأنها واو الجمع، وقياسها أن تكون مع ضم ما قبلها، فإذا لم يوصل إليه جعل الضم منها، وكان يجوز فيها الكسر، ومثله " اشتروا الضلالة " (١) على ضعف فيه، وقد مضى ذكره. المعنى:

والذي يوجب المهر كاملاً الجماع، وهو المراد بالمسيس، وقال أهل العراق: هو الخلوة التامة إذا أغلق الباب وأرخی الستر، وقد روى ذلك أصحابنا غير أن هذا يعبر في حق الثيب.

" ١ " سورة البقرة آية: ١٦، ١٧٥.

(٢٧٥)

قوله تعالى:

حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين (٢٣٨) آية.

اللغة:

الحفظ ضبط الشئ في النفس، ثم يشبه به ضبطه بالمنع من الذهاب. والحفظ خلاف النسيان تقول: حفظ حفظا، وحافظ محافظة، وحافظا، واحتفظ به احتفاظا، وتحفظ تحفظا، واستحفظ استحفاظا، وأحفظه إحفاظا: إذا أغضبه، لانه حفظ عليه ما يكرهه. ومنه الحفيظة: الحمية والحافظ: خلاف المضيع. والحفيظ: الموكل بالشئ، لانه وكل به ليحفظه وأهل الحفاظ: أهل الذمام، ومنه قوله: " فما أرسلناك عليهم حفيظا " (١).

المعنى:

ومعنى الآية الحث على مراعات الصلوات، ومواقيتهن، وألا يقع فيها تضييع وتفريط. وقوله " والصلاة الوسطى " هي العصر فيما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) وعلي (ع) وابن عباس، والحسن. وقال زيد بن ثابت، وابن عمر: إنها الظهر، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع). وقال قبيصة بن ذؤيب: هي المغرب، وقال جابر ابن عبدالله هي الغداة. وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف. وروي عن ابن عمر أنه قال: واحدة من الخمس غير متميزة. وقال الحسين بن علي المغربي:

المعنى فيها صلاة الجماعة، لان الوسط العدل، فلما كانت صلاة الجماعة أفضلها خصت بالذكر، وهذا وجه مليح غير أنه لم يذهب إليه أحد من المفسرين، فمن جعلها العصر قال: لأنها بين صلاتي النهار، وصلاتي الليل، وإنما حض عليها، لأنها وقت شغل الناس في غالب الامر، ومن قال: إنها الظهر قال: لأنها وسط النهار، وقيل:

هي أول صلاة فرضت، فلها بذلك فضل. ومن قال: هي المغرب قال: لأنها وسط في الطول، والقصر من بين الصلوات، فهي أول صلاة الليل الذي رغب في الصلاة

" ١ " سورة النساء آية: ٧٩، وسورة الشورى آية: ٤٨.

(٢٧٦)

فيه، وأما من قال هي الغداة قال: لأنها بين الظلام والضياء، وصلاة لا تجمع مع غيرها. وقد جمع النبي (صلى الله عليه وآله) بين الظهر والعصر بعرفة، وجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة، فهذه متواخية وتلك مفردة.

وقوله: " وقوموا لله قانتين " قال ابن عباس، والحسن: معناه طائعين.

وقال عبدالله بن مسعود: ساكتين، لانهم نهوا بذلك عن الكلام في الصلاة.

وقال مجاهد: معناه خاشعين فنهوا عن العبث، والتلفت في الصلاة. قال ابن عباس في رواية: داعين ولذلك قال هي صلاة الصبح، لأنه لا صلاة فرض فيها قنوت إلا هي. وعن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) مثل ذلك إلا أنهما قالوا: القنوت في كل ركعتين قبل الركوع. اللغة: والاعراب:

وأصل القنوت الدوام على أمر واحد. وقيل أصله الطاعة. وقيل أصله الدعاء في حال القيام. وقال الرماني والوجه الأول أحسن بصرفه في الباب، لأن الدوام على الطاعة قانت، وقال الدوام في صلاته على السكوت إلا عن الذكر المشروع له، وكذلك الدوام. ويقال: فلان يقنت عليه أي يدعوا عليه دائما.

والصلاة الوسطى محفوظة بالعطف على الصلوات وكان يجوز النصب على " والصلاة الوسطى " فخصوها بالمحافظة. ومن حمل الصلاة الوسطى على صلاة الجماعة جعل قوله: " على الصلوات " على عمومها. ومن حملها على واحدة من الصلوات على الخلاف فيه اختلفوا، فمنهم من قال أراد بقوله " على الصلوات " ما عدا هذه الصلاة وإلا كان يكون عطف الشيء على نفسه، ومنهم من قال لا يمتنع أن يريد بالاول جميع الصلوات، وخص هذه بالذكر تعظيما لها وتأكيدا لفضلها.

قوله تعالى:

فان خفتم فرجالا أو ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لمن تكونوا تعلمون (٢٣٩) آية.

اللغة:

معنى قوله: " فرجالا " أي على أرجلكم، لان الراجل: هو الكائن على رجله واقفا كان، أو ماشيا. وأحد الرجال: راجل وجمعه رجال، مثل تاجر وتجار، وصاحب، وصحاب، وقائم، وقيام. وواحد الركبان: راكب، وجمعه ركبان، وركاب، كفارس، وفرسان. وتقول: ركب يركب ركوبا، وأركبه إركابا، وارتكب ارتكابا، وتراكب الشيء تراكبا، وتركب تركيبا، وركبة تركيبا، واستركب استركابا وكل شيء علا شيئا، فقد ركبه. وركبه الدين، ونحوه. والركبة معروفة، لروب البدن لها. وركبة البعير في يده. والركاب: المطي. وركاب السرج، لانه يركب. والركبان: أصلا الفخذين الذني عليهما لحم الفرج لركوبه إياهما. وفرس أركب، والانتى ركبى: إذا عظمت ركبتيهما وهو عيب. وأركب المهر: إذا أمكن أن يركب. ورجل مركب: الذي يغزوا على فرس غيره. والراكبة: فسيلة تتعلق بالنخلة لا تبلغ الارض. وركبت الرجل أركبه ركبا: إذا ضربته بركبتك.

والركوب: كل دابة تركب، ومنه قوله: " فمنها ركوبهم " (١) وأصل الباب الركوب: العلو على الشيء.

المعنى:

والعامل في قوله: " فرجالا " محذوف، وتقديره: فصلوا رجالا أو ركبانا. وصلاة الخوف من العدو: ركعتان كيف توجه إنما يجعل السجود أخفض من الركوع - في قول ابراهيم، والضحاك - فان لم يستطع، فليكن بتكبيرتين. وروي أن عليا (ع) صلى ليلة الهرير خمس صلوات بالايماء وقيل بالتكبير. وإن النبي (صلى الله عليه وآله) صلى يوم الاحزاب ايماء. وروي أنه قضاها بعد أن فانت بالليل. وقال ابن عباس والحسن: يجوز في صلاة الخوف ركعة واحدة. وقال الحسن، وقتادة، وابن زيد:

يجوز أن يصلي الخائف ماشيا. وقال أهل العراق: لا يصلي ماشيا، لان المشي

" ١ " سورة يس آية: ٧٢.

عمل. والذي نقوله: إن الخائف إن صلى منفردا صلاة شدة الخوف صلى ركعتين يومئ ايماء، ويكون سجوده أخفض من ركوعه، وإن لم يتمكن كبر عن كل ركعة تكبيرة، وهكذا صلاة شدة الخوف إذا صلوا جماعة، وإن صلوا جماعة غير صلاة شدة الخوف، فقد بينا الخلاف فيه وكيفية فعلها في خلاف الفقهاء.

والذكر في الآية قيل في معناه قولان:

أحدهما - أنه الصلاة، أي فصلوا صلاة الامن كما علمكم الله، هذا قول الحسن، وابن زيد.
الثاني - اذكروه بالثناء عليه، والحمدله كما علمكم ما لم تعلموا من أمر دينكم، وغير ذلك من أموركم. والاولى حمل الآية على عمومها في الامرين.
قوله تعالى:

والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لآزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم (٢٤٠) آية واحدة بلا خلاف.

قرأ نافع، وابن كثير، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم " وصية " بالرفع.
الباقون بالنصب.

المعنى:

هذه الآية منسوخة بالحكم بالآية المتقدمة، وهي قوله: " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا " بلا خلاف في نسخ العدة إلا أبا حذيفة، فإنه قال: العدة أربعة أشهر وعشرا، وما زاد إلى الحول يثبت بالوصية والنفقة، فإن امتع الورثة من ذلك كان لها أن تتصرف في نفسها، فأما حكم الوصية، فعندنا باق لم ينسخ وإن كان على وجه الاستجاب. وحكي عن ابن

(٢٧٩)

عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد: أنها منسوخة بآية الميراث، وقد بينا فساد قولهم: لاوصية لوارث. فأما آية الميراث، فلاتنا في الوصية، فلا يجوز أن تكون ناسخة لها، وقد مضى الكلام في خبر الذين (١) في الآية المتقدمة، فلا وجه لاعادته.

المعنى، والاعراب:

ومن نصب " وصية " فإنه يحتمل قوله: " وصية " أمرين:

أحدهما - فليوصوا وصيه لآزواجهم، فينب على المصدر.

الثاني - كتب الله عليهم وصية لآزواجهم، فينصب على أنه مفعول به.

والمصدر النصب يدل على فعل الامر المأخوذ منه، أما دلالاته على فعله، فلأنه مشتق منه، وأما دلالة نصبه على الامر منه، فلغلبة الباب في الامر، فأما دلالاته على كتب، فلأن ما أمر الله به، فقد كتبه. والنصب يدل على الامر به. والرفع يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها - فعليهم وصية لآزواجهم. الثاني - فلازواجهم وصية كما تقول: لزيد مال. والثالث - كتب عليهم وصية لآزواجهم. وقال بعضهم:

لايجوز غير الرفع، لانه، لايمكن الوصية بعد الوفاة، لان الفرض كان لهن أوصى أو لم يوص. وقال الرماني: وهذا غلط، لان المعنى والذين يحضرهم الوفاة منكم، فلذلك قال: " يتوفون منكم " على لفظ الحاضر الذي يتناول على نحو قولك: الذين يصلون، فليعرضوا عن الذكر فيما يشغلهم. فأما قوله: الفرض كان لهم، فان لم يوصوا فقال قتادة والسدي: إنما كان لهن بالوصية على أنه لو كان على ما زعم، لم ينكر أن يوجهه الله على الورثة إن فرط الزوج في الوصية.

وقوله: " متاعا إلى الحول " نصب، والعامل فيه أحد أمرين:

أحدهما - جعل الله لهن ذلك متاعا، لان ما قبله دل عليه.

والثاني - متعوهن متاعا. وقوله غير إخراج نصب بأحد الشئيين: أحدهما - بأن يكون صفة

لمتاع. والثاني - أن يكون مصدرا كأنه قيل: لإخراجا. قال

" ١ " في تفسير آية: ٢٣٤ وفي المطبوعة (جر الدين) وهو تصحيف.

(٢٨٠)

الفراء: هو كقولك: جئتك عن رغبة اليك فكأنه قال: متعوهن مقاما في مساكنهن، فيكون مصدرا وقع موقع الحال. ويجوز أن يكون بمعنى الإقامة في مساكنهن. وقال الحسن، والسدي: قوله: " فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف " دليل على سقوط النفقة، والسكنى بالخروج، لانه إنما جعل لهن ذلك بالإقامة إلى الحول، فان خرجن قبله بطل الحق الذي وجب بالإقامة.

وإنما يحتاج إلى هذا التخريج من يوجب النفقة للمتعدة عن الوفاة. فأما من قال:

لا نفقة لها، ولا سكنى، فلا يحتاج إلى ذلك، وهو مذهبنا، لان المتوفى عنها زوجها لانفقة لها، وإذا قلنا القرآن لا ينسخ بالسنة، قلنا: النفقة هاهنا على وجه الاستحباب أو أنها تثبت بالوصية، لانا بينا أن الوصية غير منسوخة.

قوله تعالى:

وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين (٢٤١)

آية بلا خلاف.

المعنى:

قال سعيد بن المسيب الاية منسوخة بقوله: " فنصف ما فرضتم " وعندنا أنها مخصوصة بتلك إن نزلت معها. وإن كانت تلك متأخرة فالامر على ما قال سعيد ابن المسيب: إنها منسوخة، لان عندنا لا تجب المتعة إلا للتي لم يدخل بها ولم يسم لها مهر. وإن سمي لها مهر، فلما ما سمي

وإن لم يدخل بها فإن فرض لها مهرا كان لها نصف مهرها، ولا متعة لها في الحالين، فلا بد من تخصيص هذه الآية. وقال سعيد ابن جبير وأبو العالية والزهري: المتعة واجبة لكل مطلقة، وبه قال أبو حنيفة. وقال الحسن: هي للمطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق ما قلناه. قال عطاء، ومجاهد: هي للمدخول بها، وحكى أبو علي: للمطلقة البائنة. وإنما كرر ذكر المتعة هاهنا وقد تقدم ذكرها قبل هذه الآية، لأنه ذكر في غيرها خاصا وذكر فيها عاما فدخل فيه الأمة، وغيرها، والمتعة في الموضع الذي يجب

(٢٨١)

على قدر الرجل بظاهر الآية، لأنه قال: " وعلى الموسع قدره " : مثلها وإن كان فوق قدره حكاه البلخي.

وقوله: " بالمعروف " معناه بالمعروف صحته، لأنه عدل بين الإفراط، والتقصير. وقال الضحاك: على قدر الميسرة، وإنما خص المتاع بالمتقين وإن كان واجبا على الفاسقين، تشريفا لهم بالذكر اختصاصا، وجعل غيرهم على وجه التبع، كما قال: " هدى للمتقين " (١) وقيل: لأنه أخرج الكلام مخرج من لا يعتد بغيرهم لاحتقارهم، وجلالة المتقين بالتقوى، ولأنه إذا وجب على المتقين، فهو واجب على جميع المتعبدين، لأن التقوى واجب على المكلفين، وهذا إنما يدل على أنه واجب بشريطة التقوى. فأما إذا وجب على التقي والفاجر، فالجواب هو الأول.

الاعراب:

وقوله: " حقا على المتقين " نصب على المصدر، وقع موقع الحال، والعامل فيه " بالمعروف " كأنه قيل: عرف حقا، ويجوز أن يكون العامل فيه الظرف.

ويجوز أن يعمل فيه معنى الجملة، كأنه قيل: أحق ذلك حقا وكان يجوز أن يرفع على أنه صفة لمتاع.

المعنى:

والمتع: النفقة مقدار ما تقيم في العدة على قول الجبائي: وعلى ما قلناه قدر ما يوصي به لها بالمعروف الذي لا يضر بباقي الورثة.

قوله تعالى:

كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون (٢٤٢) آية.

التشبيه بقوله: " كذلك يبين الله " وقع على البيان الذي تقدم في الاحكام والحجاج والمواظ والاداب وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى عمله، والعمل عليه في

(٢٨٢)

أمر دينهم ودينهم شبه البيان الذي يأتي بالبيان الماضي، والبيان: هو الأدلة التي يفرق بها بين الحق، والباطل. وعبر عنه بأنه فعل يظهر به أمر على طريقة حسنة، وليس كلما يظهر به غيره ما لا يأتیه. وقد يكون ذلك بكلام فاسد يفهم به المراد، فلا يستحق صفة بيان. والاية هي العلامة فيما كان من الامور العظيمة، لان في الاية تفخيما ليس في العلامة. وقوله: " لعلكم تعقلون " معناه: لكي تعقلوا آيات الله بالبيان عنها. والعقل مجموع علوم ضرورية يميز بها بين القبيح، والحسن، ويمكن معها الاستدلال بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى:

ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا أحياءهم إن الله لنو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٢٤٣) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى " ألم تر " ألم تعلم، لان الرؤية مشتركة بين العلم - وهي رؤية القلب - وبين رؤية القلب. وقيل في معنى قوله: " وهم ألوف " قولان:

أحدهما - أن معناه: الكثرة، فكأنه: وهم أكثر الناس، ذهب إليه ابن عباس، والضحاك، والحسن. وقال ابن زيد: معناه هم مؤتلفوا القلوب، لم يخرجوا عن بتاعض. ومن قال: المراد به العدد الكثير، اختلفوا، فقال ابن عباس: كانوا أربعين الفا. وقال قوم: أربعة آلاف. وقال آخرون: ثمانية آلاف. وقال السدي:

بضعة وثلاثون ألفا. والذي يقضي به الظاهر: أنهم أكثر من عشرة آلاف، لان بناء (فعل) للكثير، وهو مازادا على العشرة. فأما ما نقص، فيقال فيه:

آلاف على وزن (أفعال) نحو عشرة آلاف ولا يقال: عشرة ألوف. وقال الحسن،

(٢٨٣)

وأكثر المفسرين: كانوا فروا من الطاعون الذي وقع بأرضهم. وقال الضحاك: فروا من الجهاد.

ومعنى الاية: الحض على الجهاد، بأنه لا ينفع - من الموت - فرار، ومن أمر الله، لانه يجوز أن يعجله على جهة العقاب، كما علجه لهؤلاء، للاعتبار. وفي الاية دليل على من أنكر عذاب القبر والرجعة معا، لان الاحياء في القبر، وفي الرجعة مثل إحياء هؤلاء الذين أحياهم للعبرة. وقوله: " فقال لهم الله موتوا " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أن معناه أمانهم الله، كما يقال: قالت السماء، فهطلت، وقلت برأسى كذا وقلت بيدي، وذلك لما كان القول في الأكثر استفتاحاً للفعل، كالقول الذي هو تسمية، وما جرى مجراها مما كان يستفتح به الفعل، صار معنى قالت السماء، فهطلت أي استفتحت الهطلان، وصار بمنزلة استفتاح الأفعال فذلك صارت أمانتهم بمنزلة استفتاح الأفعال.

الثاني - أن يكون أحياءهم عند قول سمعته الملائكة بضرب من العبرة. ويجوز - عندنا - أن يكونوا أحيوا في غير زمان نبي. وقالت المعتزلة: لا يجوز أن يكون ذلك إلا في زمان نبي، لأن المعجزة لا يجوز ظهورها إلا للدلالة على صدق نبي، تكون له آية. وقد بينا فساد ذلك في غير موضع، وأنه تجوز المعجزات على دين من الصادقين: من الأئمة، والأولياء وإن لم يكونوا أنبياء. وروي عن ابن عباس: أنه مريبهم نبي، فدعا الله تعالى، فأحياءهم. وقوله: " إن الله لذو فضل الله على الناس " إنما ذكر، واتصل بما تقدم، لأنه لما ذكر النعمة عليهم بما آتاهم من الآية العظيمة في أنفسهم ليلزموا سبيل الهدى، ويتجنبوا طرق الردى ذكر عند ذلك ماله على الناس من الانعام مع ما هم من الكفران. قوله تعالى:

وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم (٢٤٤) آية بلا خلاف.

(٢٨٤)

المعنى:

قيل فيمن يتوجه إليه هذا الخطاب قولان:

أحدهما - أنه متوجه إلى الصحابة بعد ما ذكرهم بحال من فر من الموت، فلم ينفعه الفرار، حضهم على الجهاد، لئلا يسلكوا سبيلهم في الفرار من الجهاد، كما فر أولئك من الديار.

الثاني - الخطاب للذين جرى ذكرهم على تقدير، وقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله. والقول الأول أظهر، لأن الكلام على وجهه، لامحذوف فيه.

وقوله: " واعلموا أن الله سميع عليم " معناه هاهنا: أنه " سميع " لما يقوله المنافق " عليم " بما يحبه المنافق، فاحذروا حاله. وقيل: " سميع " لما يقوله المتعلل

" عليم " بما يضم، فإياكم والتعلل بالباطل. وقيل: " سميع " لقولكم إن قلتم كقول من قبلكم " عليم " بضمائركم.

وسبيل الله الذي أمر بالقتال فيها: قتل في دين الله، لا عزازه، والنصر له، وقتل في طاعة الله، وقتل في جهاد أعداء المؤمنين.

اللغة:

والقتل: نقض البنية التي تحتاج إليها الحياة. والقتال: هو تعرض كل واحد منهما للقتل. والفرق بين سميع وسامع: أن سامعا يقتضي وجوه السمع، وسميع لا يدل عليه، وإنما معناه: أنه من كان على صفة لاجلها يسمع المسموعات اذا وجدت ولذلك يوصف تعالى فيما لم يزل بأنه سميع، ولا يوصف بأنه سامع إلا بعد وجود المسموعات.
قوله تعالى:

من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون (٢٤٥)
آية واحدة بلا خلاف.

(٢٨٥)

القراءة:

قرأ أبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي " فيضاعفه " بالرفع. وقرأ عاصم بلال، والنصب. وقرأ ابن كثير " فيضعفه " بالتشديد، والرفع. وقرأ ابن عامر بالتشديد والنصب.
المعنى، واللغة:

والقرض الذي دعا الله إليه قال ابن زيد هو الجهاد، وقال في البر من النفل.
والقرض: هو قطع جزء من المال بالاعطاء على أن يرد بدل منه. وقوله:
" يقرض الله " مجاز (١) في اللغة لان حقيقته أن يستعمل في الحاجة، وفي هذا الموضع يستحيل ذلك، فلذلك كان مجازاً، وقد يستعمل القرض في غير الحاجة قال أمية بن أبي الصلت:
لا تخطن خبيثات بطيبة * واخلع ثيابك منها وانح عريانا
كل امرئ سوف يجزى قرضه حسناً * أو سيئاً ومديناً كالذي دانا (٢)
فهذا يبين أن القرض من غير عوز، وقال آخر:

وإذا جوزيت قرضاً فاجزه * إنما ليس الفتى غير الحمل (٣)
والقرض القطع بالناب. قرض يقرض قرضاً: إذا قطع الشيء بنابه، وقرض تقريضاً، وتقرض تقرضاً، واقترض المال اقتراضاً. والقرض ما أعطيته لتكافئه، أو يرد بعينه. واقترض اقتراضاً، واستقرض استقرضاً، وتقرض التثاء: إذا أتى كل واحد منهما على صاحبه، وكذلك قارضه التثاء. وانقرضوا انقرضوا: إذا هلكوا. والدنيا قروض: أي يتقرضها الناس من بينهم بالمكافأة. وفرض الشيء

" ١ " في المطبوعة (محلّه) وهو تحريف.

" ٢ " اللسان (قرض) ذكر البيت الثاني فقط وروايته (أو مديناً مثل ما دانا)

بدل (ومدينا...).

" ٣ " قائله لبيد. اللسان (قرض) ورويته (اتما يجزى الفتى ليس الجملة).

(٢٨٦)

يقرضه قرضا. والشعر قريض. ومنه قوله: " تقرضهم ذات الشمال " (١) أي تقطعهم بمرورها عليهم والمقراض: الجلم الصغير، وقراضات الثوب ما ينفيه الجلم. الاعراب، واللغة:

وقوله: " فيضاعفه " من رفع عطفه على قوله: " يقرض " ومن نصب، فعلى جواب الاستفهام بالفاء. والاختيار الرفع لان فيه معنى الجزاء، وجواب الجزاء بالفاء لا يكون إلا رفعاً " ويضاعفه " أكثر في الاستعمال، وإنما شدد أبو عمرو " يضعف لها العذاب ضعفين " (٢) ولم يشدد " فيضاعفه " لان المضاعفة عنده لما لا يحد. والتضعيف للمحدود، وتقول: ضعفت القوم أضعفهم ضعفاً: إذا كثرتهم، فصرت مع أصحابك على الضعف منهم، وضعف الشيء: مثله في المقدار.

وأضعفت الشيء إضعافاً، وضعفته تضعيفاً، وضاعفته مضاعفة، وهو الزيادة على أصل الشيء حتى يصير مثلين أو أكثر. وتضاعف الشيء تضاعفاً وضعف ضعفاً. والضعف خلاف القوة، لانه قطع القوة عن التمام. وضعف الشيء مثله في المقدار إذا زيد عليه، فكل واحد منهما ضعف. والتضعيف: تكرير الخوف، واستضعفت الرجل استضعافاً، وأصل الباب الضعف. وهو زيادة المثل.

وقوله: " والله يقبض ويبسط " قال الحسن، وابن زيد في الرزق، وحكى الزجاج: أنه يقبض الصدقات ويبسط الجزاء عليها عاجلاً، وآجلاً عليها.

والقبض خلاف البسط والقبض ضم الكف على الشيء قبضه قبضاً وتقبض عنه تقبضاً: إذا اشمأز منه: لانه ضم نفسه عن الانبساط إليه. وانقبض انقباضاً، وقبضت الرجل تقبضاً: إذا أعطيته لانضمام كفه على ما أخذه. ورجل قبض: إذا كان منكشاً سريعاً لتجمعه للاسراع. وراع قبضة: إذا كان لايتفسح في رعيه، لانقباضه.

والنقبض: التشنج. وقبض الانسان: إذا مات. والملك قابض الارواح.

والبسط خلاف القبض تقول: بسط يبسط بسطاً، وانبسط انبساطاً، وبسطه تبسيطاً، وتبسط تبسطاً. والبساط - بكسر الباء - ما بسطته. والبساط - بفتح الباء - الارض الواسعة، وناقاة بسط: معها ولدها لا نبساطه. والبسطة: الفضيلة في

(٢٨٧)

الجسم أو المال، ونحو ذلك " وزاده بسطة في العلم، والجسم " (١) وكتب " بصطة " بالصاد، وبسطة بالسين، لان القلب على الساكن أقوى منه على المتحرك.
المعنى:

ومعنى " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا " التلطف في الاستدعاء إلى أعمال البر والانفاق في سبيل الخير.

وجهلت اليهود لما نزلت هذه الآية، فقالوا الله يستقرض منا فنحن أغنياء وهو فقير الينا !
فأنزل الله تعالى " لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء " (٢) ذكره الحسن والهاء في قوله: " وإليه ترجعون " عائدة إلى الله.

ومعناه إلى الله ترجعون في الآخرة. وقيل إلى التراب الذي خلقكم منه ذكره قتادة.
قوله تعالى:

ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالو لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين
(٢٤٦) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ نافع عسيتم بكسر السين. الباقرن بفتحها.

اللغة:

الملا: الجماعة: الاشراف من الناس وروي أن رجلا من الانصار قال يوم

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٤٧. " ٢ " سورة آل عمران: ١٨١.

(٢٨٨)

بدر: إن قتلنا الاعجاز صلعا (١)، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): أولئك الملا من قريش لو رأيتهم في أنديتهم لهتهم، ولو أمروك لاطعتهم، ولا حثرت فعالك عند فعالهم. وتقول ملات الا ناء أملاه ملاء إذا أترعته، لانه يجتمع فيه ما لا يكون معه مزيد عليه، وامتلا امتلاء: إذا طفح، ومالات الرجل: إذا عاونته ممالاة.

وتمالؤوا علي: إذا تعاونوا. وملوء الرجل ملاءة، فهو ملئ بالامر: إذا أمكنه القيام به. ووعاء ملان والانثى ملأى، والجمع: ملاء. والملا: الجماعة من الناس يستجمعون للمشاورة. والجميع الاملاء قال الشاعر:

وقالت لنا الاملاء من كل معشر * وخير أقاويل الرجال سديدها
والاملاء: الربطة وأصل الباب الاملاء، وهو الاجتماع فيما لا يحتمل المزيد، ومنه شاب مالى العين أي قد اجتمع له من الحسن في العين ما ليس عليه مزيد.
والملا: الخلق، لان جميع أفعال صاحبه تجرى عليه.
المعنى:

وقال السدي: إن النبي الذي قالت له بنوا إسرائيل ما حكاه يقال: شمعون سمته أمه بذلك لان الله سمع دعاءها فيه. وقال قتادة: هو يوشع بن نون. وقال وهب بن منية: هو شمويل، وهو المروي عن أبي جعفر (ع). وكان سبب سؤالهم هذا استدلال الجبابرة لهم من الملوك الذين كانوا في زمانهم إياهم على قول وهب، والربيع. وقال السدي: قتال العمالقة. وإنما سألوا ملكا، ليكون أمرا عليهم تنتظم به كلمتهم، وتجتمع أمورهم، ويستقيم حالهم في جهاد عدوهم.
الاعراب، واللغة:

وأكثر النحويين على الجزم في " نقائل " مع النون، وقالوا: لا يجوز غير

" ١ " هكذا في المطبوعة، وفي مجمع البيان " ان قتلنا عجائز صلعا ". ورواه لسان العرب في (صلع)، وقال: وفي حديث بدر ما قتلنا الا عجائز صلعا: أي مشايخ صلعا وفي (ملا) قال:
ويروى أن النبي (صلى الله عليه وآله) سمع رجلا من الانصار - وقد رجعوا من غزوة بدر - يقول: ما قتلنا الا عجائز صلعا، فقال (صلى الله عليه وآله): أولئك الملا من قريش لو حضرت فعالهم لا حترقت فلك.

(٢٨٩)

الجزم. وأجاز الزجاج الرفع على ضعف فيه على تقرير: فانا نقائل في سبيل الله. ولو كان بالتاء لجاز الرفع على أن يكون صفة للملك. والجزم على الجواب، كما قال " فهب لي من لدنك وليا يرثني " (١) بالجزم، والرفع. ولو كان (نقائل معه) لحسن الرفع أيضا لعائد الذكر، ولا يجوز أن تقول: الذي مررت زيد، تريد: به. ودخلت (أن) في قوله: " مالنا ألا نقائل في سبيل الله "، وأسقطت في قوله: " وما لكم لا تؤمنون بالله " (٢) لاحد ثلاثة أشياء:
أولها - دخلت (أن) لتدل أن فيه معنى: ما منعنا من أن نقائل، كما دخلت الباء في خبر هل لما تضمنت معنى ما قال الفرزدق يهجو جريرا، ويذكر أن أباه كان ينكح اتانا (٣).
يقول إذا اقلولى عليها وأقرددت * أأهل أخو عيش لذيد بدائم (٤)

معنى اقولى: علاها، ومعنى أقرددت: ذلت.

وأما سقوطها في الموضع الاخر، فعلى الاصل كأنه قيل: ما لنا غير مقاتلين، كما قال: " فما لهم عن التذكرة معرضين " (٥) هذا قول الفراء.

الثاني - أن تكون (أن) زائدة في قول الاخفش، وهو ضعيف، لانه لايجوز الحمل على الزيادة لا لضرورة.

الثالث - على حذف الواو كأنه قال: وما لنا ولان نقاتل، كما قالوا: إياك أن تتكلم بمعنى إياك وأن تتكلم. قال الرماني: وهذا ليس بالوجه، لانه لا يحكم أحد بالحذف، ولا بالزيادة إلا عند الضرورة قال الشاعر:

فبح بالسرائر في أهلها * وأياك في غيرهم أن تبوحا (٦)

فالاية مستغنية عن الواو مثل البيت سواء قال الشاعر:

فاياك المحايين أن تحينا

" ١ " سورة مريم آية: ٤. " ٢ " سورة الحديد آية: ٨.

" ٣ " في المطبوعة " اناثا " بدل " اتانا " .

" ٤ " ديوان جرير ٢: ١٢٨،، واللسان " قرد " ورواية الديوان " ليس ذو " بدل " هل أخو " ورواية اللسان " تقول " بدل " يقول " .

" ٥ " سورة المدثر آية: ٤٩ " ٦ " معاني القرآن للفراء ١: ١٦٥

(٢٩٠)

فانما هو على احذر المحايين لا على إضمار (أن). قال المبرد في (ما) وجه آخر، وهو أن يكون جحدا، ويكون تقديره: مالنا ترك القتال. وعلى الوجه الاول (ما) استفهام، وإنما جاز، مالك أن تقوم، ولم يجز مالك أن قمت، لان المنع إنما يكون على الاستئناف، تقول: منعه أن يقوم، ولايجوز أن يقوم منعه أن قام، كذا قال الفراء في الكلام حذف، وتقديره: " وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبناءنا " فسأل، فبعث، فوجب عليهم القتال " فلما كتب " " تولوا " ، وإنما وجب أن يكون محذوفاً، لان الكلام لايدل عليه إلا من جهة الذكر له أو الحذف منه، فأما ما يدل عليه الكلام من غير جهة الذكر له، أو الحذف منه، فليس بمحذوف نحو قد عرف زيد، فانه يدل على أنه عرفه عارف، وليس بمحذوف، لانه لم يدل عليه من جهة الذكر له ولا الحذف منه.

وعسيتم - بكسر السين - لغة، والفتح أكثر. وقوله: " إلا قليلا " لا يجوز فيه الرفع، لانه استثناء بعد موجب، وكذلك قوله: " فشربوا منه إلا قليلا " لا يجوز فيه الرفع.

قوله تعالى:

وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم (٢٤٧) آية واحدة بلا خلاف.
المعنى:

قال السدي، ووهب بن منبه: إنما أنكروا أن يكون طالوت ملكا، لأنه لم يكن من سبط النبوة، ولا سبط المملكة بل كان من أجمل سبط في بني إسرائيل.

(٢٩١)

وقوله: " إن الله اصطفاه " معناه اختاره في قول ابن عباس، وابن زيد، وأصله الصفوة من الأنداس.

وقوله: " وزاده بسطة في العلم والجسم " قيل في معناه قولان:
قال الحسن: زيادة في العلم وعظما في الجسم. وقال الجبائي: كان إذا قام الرجل، فبسط يده رافعا لها نال رأسه.
اللغة:

يقال: جسم يجسم جسامة يعنى ضخم صخامة. ورجل جسيم: عظيم الخلق.
وجسمه تجسيما، وتجسم تجسما. وهو أجسم منه أي أضخم. وأصل الباب الضخم.
والجسم: هو الذاهب في الجهات الثلاثة: الطول والعرض والعمق.
الاعراب والمعنى:

وإنما لم يصرف (طالوت)، وصرف (جاموس) إذا سميت به، وإن كانا أعجميين - في قول الزجاج - لأنه لما كان يدخله الالف واللام نكر، نحو قولهم:
الجاموس. وكلما أعرب في حال تنكيره فإنه لا يعتد بالعجمة فيه، لأنه بمنزلة ما أصله عربي فأما ما أعرب في حال تعريفه، فليس كذلك، لأنه لم يستعمل إلا على إحدى الحالين دون الأخرى، فنقل لذلك.

وقوله: " والله سميع عليم " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - واسع الفضل، فحذف، كما حذف في قولهم: فلان كبير أي كبير القدر. الثاني - واسع بمعنى: موسع أي يوسع على من يشاء من نعمه، كما جاء (أليم) بمعنى: مؤلم. والثالث - واسع بمعنى ذو سعة نحو " عيشة راضية " أي ذات رضى، وهم ناصب أي ذو نصب. وتامر، ولابن، أي ذو تمر وذو لبن. يجئ باب في فاعل بمعنى ذو كذا. وقوله: " عليم " أي

عليهم بمن ينبغي أن يؤتية الفضل إما للاستصلاح، وإما للامتحان. قال البلخي: وفي الآية دلالة على فساد قول من قال بأن الامامة وراثية، لأن الله تعالى رد عليهم ما أنكروه من التعليل

(٢٩٢)

عليهم من ليس من أهل النبوة، ولا المملكة، وبين أنه يجب بالعلم والفة لبالوراثة. وقال أصحابنا فيها دلالة على أن من شرط الامام ان يكون أعلم رعيته وأفضلهم في خصال الفضل، لأن الله تعالى علل تقديمه عليهم بكونه أعلم وأقوى فلو لا أنه شرط وإلا لم يكن له معنى.

قوله تعالى:

وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٢٤٨) آية.

المعنى:

قال الحسن: وجه الآية في التابوت أن الملائكة كانت تحمله بين السماء والارض يرونه عيانا وقال ابن عباس ووهب: إن الله انتزعه من أيدي أعدائهم الذين نهبوه منهم، فرد عليهم " تحمله الملائكة " وقيل: إن التابوت كان في أيدي أعداء بني إسرائيل من العمالقة الذين غلبوهم عليه - على قول ابن عباس، ووهب -، وروي ذلك عن أبي عبدالله (ع). وقال قتادة: كان في بريبة التيه: خلفه هناك يوشع ابن نون. وقال وهب بن منبه: كان قدر التابوت نحو من ثلاث أذرع في ذراعين. وروي عن علي (ع). أنه قال: السكينة التي كانت فيه ربح هفافة لها وجه كوجه الانسان. وقال مجاهد لها رأس كراس الهرة، وروي ذلك في أخبارنا.

وقال وهب: روح من الله تكلمهم بالبيان عند وقوع الاختلاف. وقال عطا: كان فيه آية يسكنون إليها.

والسكينة مصدر وقع موقع الاسم نحو القضية والبقية والعزيمة وأخذ من معنى السكون لأن نفوسهم تسكن إليه والبقية التي ترك آل موسى، آل هارون. قال

(٢٩٣)

ابن عباس، وفتادة، والسدي: إنها عصا موسى ورمصاص للالواح، وهو المروي عن أبي جعفر. وقال أبو جعفر التابوت هو الذي وضعت أم موسى فيه موسى حين ألقته في اليم. وأقوى هذه الأقوال أن يحمل على أنه كان فيه ما يسكنون إليه، ويجوز أن يكون ذلك عصا موسى والرمصاص، وغير ذلك مما اختلفوا فيه بعد أن يكون فيه ما تسكن النفس إليه، لأنه

تعالى بين أن فيه سكينه، وهي فعيلة من السكون، ولا يقطع بشئ من ذلك إلا بدليل يوجب العلم. وقال الحسن: كان فيه التوراة وشئ من ثياب موسى.
اللغة:

وفي التابوت لغتان فلغة جميع العرب إلا الانصار: التابوت بالناء. والانصار تقول: التابوه بالهاء. ويقال: بقي بقاء وأبقاه إبقاء واستبقاه استبقاء وتبقىا وتبقىا وتبقىا وتبقىا وبقاه مبقاة. ومنه بقايا الخراج. وأصل الباب البقاء: خلاف؟.

وقوله: " تحمله الملائكة " تقول: حمل يحمل حملا واحتمل احتمالا وتحامل تحاملا. وتحمل تحملا وحمله تحميلا وحامله محاملة. وانحمل انحمالا واستحمل استحمالا. والحمل من الضان: الخروف. والحمل: السحاب الكثير الماء. والحمل: ما في البطن. والحمل: ما على الظهر. والحماله علاقة السيف. والمحمل: الذي يوكبه الناس والحماله الدينة، يتحملها قوم عن قوم والحميل: الكفيل، والحميل الغريب لانه يحمل على القوم وليس منهم. وحميل السيل: غثاؤه. وامرأة حامل: حبلى لحملها الولد. وحملت فلانا على فلان: إذا حرشته عليه، لانك حملته على مكروهه. والحمولة الابل لانها يحمل عليها الاتقال. وأصل الباب الحمل: كون الشئ على الشئ وقوله: " إن كنتم مؤمنين " معناه إن كنتم مصدقين ولا يجوز أن يكونوا على تثبيت الايمان لهم، لانهم كفروا حين ردوا على نبيهم. وقيل: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون.

قوله تعالى:

فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر

(٢٩٤)

فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (٢٤٩) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ " غرفة " - بالفتح - ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع. الباقون بالضم، وهما لغتان.

اللغة:

قوله: " فلما فصل " معناه قطع، والفصل: القطع. ويقال فصل اللحم عن العظم أي قطعه فأبانه عنه، وفصل الصبي فصلا: إذا قطعه عن اللبن. وقول فصل أي يفصل بين الحق والباطل. والجنود جمع جند قال السدي: كانوا ثمانين ألف مقاتل، والاجناد جمع القلة. وجند الجنود

تجنيدا أي جمعهم. والجند الارض الغليظة وكل صنف من الخلق: جند على حدة. وفي الحديث: الارواح جنود مجندة. وأصل الباب الجند: الغليظ من الارض. المعنى:

قوله: " إن الله مبتليكم بنهر " فمعنى الابتلاء هاهنا تمييز الصادق من الكاذب في قوله - على قول الحسن - . وقال وهب بن منية: السبب الذي لاجله ابتلوا بالنهر شكايتهم قلة المياه، وخوف التلف من العطش. والنهر الذي ابتلوا به، قال ابن عباس، والربيع، وقتادة: هو نهر بين الاردن، وفلسطين. وروي عن ابن عباس

(٢٩٥)

أيضا أنه نهر فلسطين. وقوله: " فمن شرب منه " الهاء عائدة على النهر في اللفظ، وهو في المعنى الماء.

وقوله: " فليس مني " معناه ليس على ديني، ولا من أهل ولايتي، فحذف ودلت من عليه. اللغة:

ويقال: طعم الماء كما يقال طعم الطعام وأنشدوا.

وإن شئت لم أطمع نقاها ولا براد والغرفة بالفتح المرة من الغرف. والغرفة بالضم ملء الكف من الماء، فالغرفة اسم للماء المغروف والغرفة اسم للفعل. وقال بعضهم الاختيار الضم لانه لو جاء على معنى المرة، لكان اغترافة. وهذا ليس بشئ، لانه إذا كان المعنى واحدا جاز اغترافة، لانه الاصل وجار غرفة، لانه أخف، وكلاهما حسن. ويقال غرف يغرف غرفا، واغترف اغترافا والمغرفة الالة لتي يغرف بها. وغرف غروف أي كبير والغريف: ماء في الاجمة، لانه يغرف من بين القصب. ومزادة غريفية مدبوغة بالغرف: وهو جنس من الدباغ. والغريف شجر مجتمع من أي شجر كان. والغرفة العلية. وأصل الباب الغرف. المعنى:

وقال ابن عباس، وقتادة، والربيع: من استكثر من ذلك الماء عطش، ومن لمن يشرب إلا غرفة روي. وقال الفراء، والحسن، وقتادة، والربيع: والذين جازوا النهر مع طالوت كان عددهم مثل عدد أهل بدر، وهم ثلاثة وبضعة عشر، وهم المؤمنون خاصة. وقال ابن عباس، والسدي: جاوزه الكافر، والمؤمن إلا أن الكافرين انخزلوا عنهم، وبقي المؤمنون على عدد أهل بدر. وهذا قوي، لقوله تعالى:

" فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه "، فلما رأوا كثرة جنود جالوت قال الكفار منهم " لا طاقة لنا اليوم بجالوت " وقال المؤمنون حينئذ الذين عدتهم عدة أهل

(٢٩٦)

بدر " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله " قال البلخي: ويجوز أن يكونوا كلهم مؤمنين، غير أن بعضهم أشد إيقانا وأقوى اعتقادا، وهم الذين قالوا: " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ".

اللغة:

وتقول: جاز الشيء يجوزُه: إذا قطعه. وأجازَه إجازة: إذا استصوبه. والشيء يجوز: إذا لم يمنع منه دليل. واجتاز فلان اجتيازًا، واستجاز فعل كذا استجازة. وتجاوز في كلامه تجاوزًا. وتجاوز عن ذنبه تجاوزًا. وجاوزه في الشيء تجاوزه، وجوزه تجويزًا. وجوز كل شيء وسطه بمجاز الطريق، وهو وسطه الذي يجاز فيه. وقيل هذا اشتقاق الجوزاء، لأنها تعرض جوز السماء أي وسطها، وأما الجوز المروف، ففارسي معرب. والجواز الصك للمسافر. والمجاز في الكلام، لأنه خروج عن الاجل إلى ما يجوز في الاستعمال. وأصل الباب الجواز: المرور من غير شيء يصد، منه التجاوز عن الذنب، لان المرور عليه بالصفح. المعنى:

وقوله: " وقال الذين يظنون " قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال الذين يستيقنون، ذهب إليه السدي قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بالفى مدجج * سراتهم في الفارسي المسرد

أي أيقنوا وقيل إنه استعارة فيما يكفي فيه الظن حتى يلزم العمل، فيكف المعرفة، فجاء على وجه المبالغة في تأكيد لزوم العمل.

الثاني - يحدثون نفوسهم وهو أصل الظن، لان حديث النفس بالشيء قد يكون مع الشك ومع العلم إلا أنه قد على ركبت ما كان مع الشك.

الثالث - يظنون أنهم ملاقوا الله بالقتل في تلك الواقعة.

وقوله: " كم من فئة " الفئة: الطائفة من الناس، والجمع: فئتين وفئات. ولا يجوز في عدة إلا عدات، لان نقض عدة من أوله. وليس كذلك فئة، وما نقص

(٢٩٧)

من أوله يجري في الباب على اطراد بمنزلة غير المنقوص، فأما فئة ومئة. وثبة وعزة، فان النقص فيه على غير اطراد، كما يكون في عدة، وصلة، وزنة، وصفة، وجهة.

وتقول فأوت رأسه بالسيف إفاءة فأوا: إذا قطعه وانفاء الشيء إنفاء: إذا تقطع وأصل الباب القطع، فمنه الفئة، لانهم قطعة من الناس.

وقوله: " غلبت " تقول: غلب يغلب غلبًا وغالبه مغالبة وتغالبا وتغالبا.

وتغلب تغلبا وغلبه تغليباً. وأشدُّ أغلب: إذا كان غليظ العنق. ورجل أغلب كذلك، لأنه من إمارة الغلب. واغلوب العشب إذا كثُرَ لأنه غلب على غيره بكثرتِه. وأصل الباب الغلب: القهر.

المعنى:

وقوله: " باذن الله " معناه بنصر الله على قول الحسن، لان الله إذا أذن في القتال نصر فيه على الوجه الذي أذن فيه ويجوز في (كم) الجر والنصب وإن كان على معنى الخبر في قول الفراء. وفي الآية حذف لدلالة (١) ما بقى عليه وهو فأتاهم التابوت بالصفة التي وعدوا بها، فصدقوا لان قوله " فصل طالوت بالجنود " بعد تلك المنازعة منهم ينبئ أن الآية أتتهم، فانقادوا لاجلها.

قوله تعالى:

ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥٠)

آية بلا خلاف.

اللغة:

البروز الظهور للقتال، ومنه البراز، وهي الأرض:؟. وتقول: برز يبرز بروزاً، وبارزه مبارزة، وتبارز تبارزاً، وبرز تبريزاً، وتبرز تبرزاً. ورجل

" ١ " في المطبوعة الإله

(٢٩٨)

برز، وامرأة برزة أي ذو عفة وفضل، لظهور ذاك فيها. والحنود الجموع التي تعد للقتال واحدها جند، مأخوذ من الجند وهو الغلظ.

وقوله: " ربنا افرغ " فالافراغ: صب السيل على جهة اخلاء المكان منه (١)

وأصله الخلو. وإنما قيل " افرغ علينا صبراً " تشبيهاً بتفريغ الاناء من جهة أنه نهاية ماتوجبه الحكمة، كما أنه نهاية ما في الواحد من الانية. وتقول فرغ يفرغ فراغاً، وأفرغ إفراغاً، وفرغ تفريغاً وتفرغ تفرغاً، واستفرغ استفرغاً، وافرغت افتراغاً: إذا صببت عليك الماء. وقوله: " سنفرغ لكم أيها الثقلان " (٢)

معناه سنعمد، لأنه عمل مجرد من غير شاغل، ومنه قوله: " وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً " (٣) أي خالياً من الصبر والفرغ مفرغ الدلو، وهو خرفة الذي يأخذ الماء، لأنه يفرغ منه الماء

" وأفرغ علينا صبرا " أي صب. ودرهم مفرغ أي مصبوب في قالب. وضربة فريغة: واسعة. وفرغ الإناء، وفرغ الرجل من عمله. وأصل الباب الفراغ الخلو. وقوله: " وثبت أقدامنا " تثبيت الأقدام يكون بشيئين: أحدهما - بتقوية قلوبهم. والثانية - بالقاء الرعب في قلوب أعدائهم حتى يظهر منهم الخور في قتالهم وقيل باختلاف كلمتهم حتى يقع التخاذل منهم، وكذلك الصبر، لأنه من فعل العبد كما أن الثبوت في الحرب من فعله، لأنه يجازى عليه، فأما النصر، ففعل الله تعالى، والصبر: حبس النفس عما تتازع إليه من الفعل. وها هنا حبسها عما تتازع إليه من الفرار من القتال. والتثبيت تمكين الشيء في مكانه بلزومه إياه. وقد يقال ثبت يثبت ثبوتا، وأثبتته إثباتا وثبتت تثبتا، واستثبتت استثباتا، وثبته تثبيتا. ورجل ثبت المقام: إذا كان شجاعا لا يبرح موقفه، وطعنه فأثبت فيه الرمح أي نفذ فيه، لأنه يلزم فيه. وأثبت حجته إذا أقامها. والقول الثابت الصحيح يلزم العمل عليه، ومنه قوله: " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت " أي يؤدبهم به ليلزموا طريق

" ١ " في المطبوعة (على جهة الاخلاص منه المكان).

" ٢ " سورة الرحمن آية: ٣١.

" ٣ " سورة القصص آية: ١٠.

(٢٩٩)

الحق فيه. وفلان ثبت أي؟ مأمون فيما روى. وأثبت الحسنات في الدفتر، لأنك ضبطه، وأصل الباب اللزوم.

وقوله: " فانصرنا " النصر: هو المعونة على العدو، ويكون ذلك بأشياء منها بزيادة القوة، ومنها الرعب من الملاقاة، ومنها الاطلاع على العورة، ومنها تخيل الكثرة، ومنها اختلاف الكلمة التي تقع بلطف في إعطاء النصر، والفرق بين النصر، واللطف: أن كل نصر من الله، فهو لطف، وليس كل لطف نصرا، لان اللطف يكون في إحدى طاعاته بدلا من معصيته، وقد يكون في فعل طاعة من النوافل فأما العصمة فلا تكون إلا من معصية. قوله تعالى:

فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين (٢٥١) آية.

القراءة:

قرأ نافع، وأبان عن عاصم " دفاع الله " الباقون " دفع " بلا ألف.

المعنى:

في الآية حذف وتقديره فاستجاب لهم ربهم، فهزموهم بنصره لهم، لان ذكر الهزيمة (١) بعد سؤال النصر دليل على أنه كان على معنى الاجابة.
اللغة:

والهزم: الدفع، تقول: هزم القوم في الحرب يهزمهم هزما: إذا دفعهم بالقتال هربا منه، وانهزموا انهزاما، وتهزم السقاء: إذا يبس، فتصدع لاندفاع بعضه على بعض، والاهتزام الذبح تقول العرب: اهتزموا شاتكم قبل أن تهزل فتهلك،

" ١ " في المطبوعة " الهزيمة " .

(٣٠٠)

لدفع صاعها بتذكيتهها. والهزمة: دفعك الشيء بقوة حتى تدخل عن موضعه في الجسد، وزمزم هزمة، جبرئيل لاسماعيل (ع) والمهزم خشبة يحرك بها الجمر، لانها يرفع بها بعضه عن بعض، وهزمة الرعد صوته، وأصابتهم هازمة من هوازم الدهر أي داهية كاسرة، لانها كهازمة الجيش في البليلة، وهزمت عليك أي عطفك عليك.
المعنى:

فالاولى أن يكون القوم هزموهم حقيقة لانهم سنوا الهزيمة بأن فعلوا ما يلجئهم اليها وقال الجبائي: ذلك مجاز، لانهم لم يفعلوا هزيمتهم، كما يقال: اخرجته من منزله إذا ألجأه إلى الخروج، ولم يفعل خروجه، وهذا ليس بصحيح، لانه ليس معنى هزمه فعل هزيمته، ليكون إذا صرف عن ذلك إلى معنى غيره يكون مجازا في العبارة بل معناه ما قلناه.

وقوله: " باذن الله " يحتمل أمرين: أحدهما - بأمر الله. والثاني بعلم الله.

وقيل: إن سبب قتل داود جالوت كان أن جالوت طلب البراز، فخرج إليه داود (ع) فرماه بحجر مقلاع فوقع بين عينيه خرج من قفاه، فأصاب جماعة كثيرة من أهل عسكره فقتلهم، وانهزم القوم عن آخرهم، ذكر ذلك وهب بن منبه وغيره من المفسرين.

وقوله: " وآتاه الله الملك والحكمة " قيل في معناه قولان: أحدهما - أنه جمع له الملك والنبوة في حالة واحدة. والآخر - أنه اختصه من علم السمع بحكمة لم يؤتها غيره.

وقوله: " وعلمه مما يشاء " معناه أنه علمه أمور الدين وما يشاء من أمور الدنيا، منها صنعة الدرع وعمل السرد، ذكره الزجاج، والطبري. فان قيل:

ما الفائدة في قوله: " وعلمه مما يشاء " إذا كنا لاندرى ما الذي شاء من ذلك؟

قيل هو تعالى وإن لم يشرح لنا ما علمه فقد بين لنا أنه خصه من العلم بعد علم الدين بما لم يؤتّه غيره، لأن غيره من المؤمنين إنما نعلم ما دله الله عليه من أمر دينه

(٣٠١)

ودنياه، وكان داود مساويا لهم في ذلك إن لم يكن أكثرهم علما فيه، لأنه كان مؤمنا مثلهم، وكان معهم في أمورهم، فلما بين لنا " آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء " بعد قتل جالوت، علمنا أنه كان خصه بما ذكره من الملك والحكمة، وخصه منه بما لم يخص به أحدا سواه.

وقوله: " ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " قيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها - يدفع الله بالبر عن الفاجر الهالك، هذا قول علي (ع) وهو المروي عن أبي جعفر محمد بن علي (ع)، وبه قال مجاهد. الثاني - يدفع باللفظ للمؤمن والرعب في قلب الفاجر. وأن يعم الارض الفساد. الثالث - قال الحسن، والبلخي: يزغ الله بالسلطان فلا يزغ بالقرآن، لأنه يغنيه على دفع الاشرار عن ظلم الناس، لأنه يريد منه المنع من الظلم والفساد، كان مؤمنا أو فاسقا. اللغة:

وأصل الدفع: الصرف عن الشيء، دفع دفعا، ودافع مدافعة ودفاعا، واندفع اندفاعا، وتدافع تدافعا، ودفعه تدفيعا، واستدفع استدفاعا. والضيف المدفع، لتدافع الحي به لاحتقاره. والدفاع السيل لتدافع بعضه على بعض. والدفعة اندفاع الشيء جملة. ورجل مدفع أي عن نسبه. الحجة:

وقال الحسن: لم يكن داود نبيا قبل قتله جالوت، لأنه لايجوز أن يترأس من ليس بنبي على نبي لأنه قلب ما يوجبه تدبير الحكماء، لأن النبي يوثق بظاهره وباطنه ولا يخبر إلا بالحق ولا يدعوا إلا إلى حق، وليس كذلك من ليس بنبي من أهل العقل. ومن قرأ " دفاع " بألف فوجهه: أن الله لما أولياه على مدافعة أعدائه حتى هزموهم، حسن إضافة الدفاع إليه، لما كان من معاونته، وإرادته له.

(٣٠٢)

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: إنه ليس لله على الكافر نعمه، لأنه قال: " إن الله لذو فضل على الناس " فعم الجميع بالنعمة ولم يخص، " ولكن أكثر الناس لايشكرون " ويفسد به أيضا قولهم: في الارادة وأن جميع ما أعطى الله الكفار إنما هو ليكفروا لا ليؤمنوا، وما روي

أن طالوت هم بقتل داود لما رأى أن وجوه الناس أقبلت عليه بقتله جالوت رواية شاذة، فإن صحت دلت على أن طالوت لم يكن نبيا، ولا إماما، لان النبي أو الامام لا يبد أن يكون معصوما.

قوله تعالى:

تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين (٢٥٢).

الآيات المذكورة في هذه الآية المراد بها ما تقدم ذكره من إماتة ألوف من الناس دفعة واحدة بخلاف ما جرت به العادة ثم أحياهم في مقدار ساعة، ومن تمليك طالوت وقد كان من الخاملين الذين لا تتقاد لهم النفوس بما جعله له من الآية علما على تملكه، ومن نصرة أصحاب طالوت مع قلة عددهم، وضعفهم على جالوت وجنوده مع قوتهم وكثرة عددهم وشدة بطشهم حتى قهروهم واستعلوا عليهم، وكل ذلك مما لا يقدر عليه غير الله تعالى فهو دلالة عليه.

قوله: " وإنك لمن المرسلين " دليل على نبوته على وجوه: منها ما في الاحياء بما تقدم من الدلالة على النبوة. ومنها أنه يجب التصديق بتلك الامور لنبوته (ع). ومنها أنه أوحى إليه به، كما أوحى إلى المرسلين، لانه سنة الله عز وجل في مثله. ومنها الاستدعاء إلى القيام بما أرسل به بعد قيام الحجة عليه. ومنها أنه كما نصب تلك الآيات جعلك من المرسلين لما في ذلك من الحكمة التي تدعوا إلى صلاح المكلفين. وإنما صارت الاخبار بذلك دلالة على النبوة من جهة أنها أخبار عن عيون لم تشهدا ولا خالط أهل المعرفة بها، ومتى قال قائل: إنه أخذها عن أهل العلم بالاخبار، فإن قوله يبطل، لانه لو كان كذلك لم يتكلم لخروجه عن العادة كخروج أن يصير انسان من أعلم الناس بصناعة لم يشهدا ولاخالط

(٣٠٣)

أهلها، ولان في أنبيائه تثبت معجزة من غير تلك الجهة، وهو المنع من الازاحة مع توفر الاسباب الداعية إلى الحديث به، ولا نشرله وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

اللغة:

والرسالة تحمل جملة من الكلام لها فائدة إلى المقصود بالدلالة. والحق هو وقوع الشئ موقعه الذي هو له من غير تغيير عنه بما لا يجوز فيه. والتلاوة: ذكر الكلمة بعد الكلمة من غير فاصلة، لان التالي للشئ يليه من غير فصل بغيره.

والاصل: التلو وهو ايقاع الشئ بعد الشئ الذي يليه.

قوله تعالى:

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٢٥٣) آية واحدة بلا خلاف.

إنما ذكر الله تعالى تفضيل بعضهم على بعض، لامور: منها أن لا يغلط غلط منهم، فيسوي بينهم في الفضل. كما استووا في الرسالة، وثانيها أن يبين أن تفضيل محمد (صلى الله عليه وآله) كتفضيل من مضى من الانبياء بعضهم على بعض. وثالثها - أن الفضيلة قد تكون بعد إداء الفريضة. والمراد الفضيلة المذكورة هاهنا ما خص كل واحد منهم من المنازل الجليلة التي هي أعلى من منزلة غيره، نحو كلامه لموسى بلا سفير، وإرساله محمدا (صلى الله عليه وآله) إلى الكافة من الناس المكلفين والجن المتعدين، هذا قول مجاهد.

(٣٠٤)

ويحتمل فضلناهم بأعمالهم التي استحقوا بها الفضيلة على غيرهم. والفرق بين الابتداء بالفضيلة وبين المحاباة ان المحاباة اختصاص البعض بالنفع على ما توجه الشهوة دون الحكمة، وليس كذلك الابتداء بالفضيلة، لانه قد يكون للمصلحة التي لولاها لفسد التدبير وأدى إلى حرمان الثواب للجميع. فمن حسن النظر لهذا الانسان تفضيل غيره عليه إذا كان في ذلك مصلحة له فهذا وجه تدعوا إليه الحكمة وليس كالوجه الاول الذي انما تدعوا إليه الشهوة. وقوله: " وأيدناه بروح القدس " معناه قويناه. والروح: جبريل. والقدس الله - على قول الحسن - وقال ابن عباس: روح القدس: الاسم الذي كان يحيي به الموتى. والضمير في قوله: " من بعدهم " عائذ على الرسل. وقال قتادة، والربيع:

على عيسى وموسى (ع). وجاز بلفظ الجميع، لان ذكرهم قد يغني عن ذكر المتبعين لهم. كما يقال: خرج الامير فانكوا في العدو نكاية عظيمة.

وقوله: " ولو شاء الله ما اقتتلوا " إخبار عن قدرته على إجتائهم على الامتناع من الاقتتال، أو أبان يمنعهم من ذلك. وهذا قول الحسن وغيره. وجملته انه أخبر انه قادر على أن يحول بينهم، وبين الاقتتال بالالغاء والاضطرار. ومثله " ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها " " ولو شاء ربك لامن من في الارض كلهم جميعا " فان جميع ذلك دلالة على قدرته عليهم. ولا يدل قوله " ولو شاء الله ما اقتتلوا " على أنه قد شاء اقتتالهم، لانه إذا احتمل الكلام وجهين: أحدهما - يجوز عليه والآخر لا يجوز عليه، وجب حمله على ما يجوز عليه، دون ما لا يجوز عليه، فلذلك كان تقدير الكلام ولو شاء الله امتناعهم بالالغاء ما اقتتلوا. ونظيره قول القائل ولو شاء السلطان الاعظم، لم يشرب النصارى الخمر في سلطانه ولا نكحت المجوس الامهات والبنات

وليس في ذلك دليل على أنه قد شاءه وإنما كرر قوله: " ولو شاء الله ما اقتتلوا " لاختلاف المعنى: فمعنى الاول لو شاء الله ما اقتتلوا قتالهم، ويجوز أن يكون لتأكيد البينة على هذا المعنى. وقال قوم: الاول معناه لو شاء الله ما اقتتل

(٣٠٥)

المحقون، والمبطلون بأن يحول. وبينهم، وبينهم. والثاني لو شاء الله ما اقتتل المحقون فيما بينهم والمبطلون فيما بينهم.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤) آية واحدة.

القراءة:

قرأ أبو عمرو وابن كثير " لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة " بالنصب فيها أجمع. والباقون بالضم.

المعنى:

قوله " يا أيها الذين آمنوا " خطاب للمؤمنين يأمرهم بالانفاق مما رزقهم. والانفاق المأمور به على وجه الفرض هاهنا الزكاة وغيرها دون الفعل لان ظاهر الامر الايجاب في قول الحسن. قال: لانه مقرون بالوعيد. وقال ابن جريج: يدخل في الخطاب الزكاة، والتطوع. وهو أقوى، لانه أعم. وبه قال البلخي. وليس في الآية وعيد على ترك النفقة. وانما فيها إخبار عن عظم أهوال يوم القيامة وشدائدها. وقوله: " من قبل أن يأتي يوم " يعنى يوم القيامة.

اللغة:

" لايبيع فيه " البيع هو استبدال المتاع بالثمن. تقول: باع يبيع ببعاء، وابتاع ابتياعا، واستباع استباعة، وباعه مبايعة، وتبايعوا تبايعا، والبيع: نقيض الشراء والبيع أيضا الشراء لانه تارة عقد على الاستبدال بالثمن، وتارة على الاستبدال بالمتاع. والبيعة الصفقة على ايجاب البيع. والبيعة الصفقة على ايجاب الطاعة. والبيعان البائع

(٣٠٦)

والمشتري. والبيعة كنيسة النصارى وجمعها بيع.

وقوله: " لاخله ". فالخلة خالص المودة. والخلل: الافراج بين الشيين. وخلته بالخلال أخله خلا: إذا صككته به واختلت حاله اختلالا، لانحرافه بالفقر. وتخلل الطرق تخللا إذا قطع فرجة بعد فرجة. وأخل به إخلالا، وخاله يخاله مخاللة: إذا صافاة المودة. والخل معروف لتخلله بحدته، ولطفه فيما ينساب فيه. والخل: الرجل الخفيف الجسم. والخل: الطريق في الرمل. والخل: عرق في العنق يتصل بالرأس. والخليل: الخالص المودة من الخلة، لانه من تخلل الاسرار بينهما. وقيل لانه يمتنع من الشوب - في المودة بالنقيصة - والخليل أيضا: المحتاج من الخلة. والخلة: جفن السيف. وفي فلان خلة: أي خصلة. والخلة خلاف الحصن لانه مرعى بتخلله الماشية للاعتداء به. وخلل أصابعه تخليلا. وقوله تعالى: " فترى الودق يخرج من خلاله " (١) وقوله: " فجاسوا خلال الديار " (٢) والخلال: البلج. وأصل الباب: الخلل: الانفراج.

المعنى:

وقوله: " ولا شفاعه " وإن كان على لفظ العموم فالمراد به الخصوص بلا خلاف، لان عندنا قد تكون شفاعه في اسقاط الضرر. وعند مخالفينا في الوعيد قد يكون في زيادة المنافع فقد أجمعنا على ثبوت شفاعه وإنما ننفي نحن الشفاعه قطعا عن الكفار. ومخالفونا عن كل مرتكب كبيرة إذا لم يتب منها.

وقوله: " والكافرون هم الظالمون " إنما ذم الله تعالى الكافر بالظلم وإن كان الكفر أعظم منه لأمريين:

أحدهما - للدلالة على أن الكافر قد ضر نفسه بالخلود في النار، فقد ظلم نفسه.

" ١ " سورة النور آية: ٤٣، وسورة الروم آية: ٤٨.

" ٢ " سورة الاسرى آية: ٥.

(٣٠٧)

والاخر - أنه لما نفى البيع في ذلك اليوم والخلة والشفاعة، قال وليس ذلك بظلم منا، بل الكافرون هم الظالمون، لانهم عملوا ما استحقوا به حرمان الثواب. قوله تعالى:

الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم (٢٥٥) آية واحدة (١).

الاعراب:

" الله " رفع بالابتداء " ولا إله إلا هو الحي القيوم " خبره. والكلام مخرجه مخرج النفي أن يصح إله سوى الله. وحقيقة الإثبات إلا له واحد هو الله. كأنه قيل الله إلا له دون غيره. وارتفع هو في لا إله إلا هو على أحد وجهين:

أحدهما - بالابتداء كأنه قال ما إله إلا الله.

والثاني - أن يكون بدلا كأنه قال ما إله ثابتا إلا الله. ويجوز في العربية لا إله إلا الله بالنصب على الاستثناء. وفيه دلالة على الأمر باخلاص العبادة لله تعالى.

اللغة، والمعنى والحي هو من كان على صفة لا يستحيل معها كونه عالما قادرا، وان شئت قلت:

هو من كان على صفة يجب لاجلها أن يدرك المدركات، إذا وجدت. والقيوم أصله قيوم على وزن فيعول. إلا أن الياء الساكنة إذا كانت بعدها واو متحركة قلبت ياء وأدغمت فيها قياسا مطردا. والقيام أصله قيوم على وزن فيعال. وقيل في معنى القيوم، أربعة أقوال:

" ١ " وفي مجمع البيان والمصحف الهاشمي آيتان، وفي أكثر التفاسير آية واحدة.

(٣٠٨)

أحدها - قال الحسن إنه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم لا يخفى عليه شيء منه.

الثاني - قال سعيد بن جبير: إن معناه الدائم الوجود.

الثالث - قال قتادة: معناه: القائم بتدبير خلقه.

الرابع - قال قوم: إن معناه العالم بالأمور من قولهم: فلان قيوم هذا الكتاب أي هو عالم به. وكل هذه الوجوه تحتل. وقال أمية بن أبي الصلت:

لم تخلق السماء والنجوم * والشمس معها قمر يقوم

قدره المهيمن القيوم * والحشر والجنة والجحيم

إلا لأمر شأنه عظيم (١)

وقوله: " لا تأخذه سنة ولا نوم " فالسنة النوم بلا خلاف قال عدي ابن الرقاع:

وسنان أقصده النعاس فرنقت * في عينه سنة وليس بنائم (٢)

فالسنة النقلة من النعاس، تقول: وسن فلان وسنا إذا أخذته سنة النعاس، وقد علتة وسنة، ورجل وسنانه ووسن، وامرأته وسنانة، ووسنى، وأصل الباب:

النعاس. والنوم الاستئقال في النوم، تقول نام ينام نوما وأنامه إنامة، ونومه تنويما وتناوم
تتاوما، واستنام إليه: إذا استانس إليه، واطمأن إلى ناحيته، لان حاله معه كحالة النائم في
المكان أنسا به وأصل الباب النوم خلاف اليقظة.
وقوله: " ما في السماوات وما في الارض " معناه أن أحدا ممن له شفاعة لا يشفع إلا بعد أن
يأذن الله له في ذلك ويأمره به، فأما أن يبتدئ أحد بالشفاعة من غير إذن، كما يكون فيما بيننا،
فليس ذلك لاحد.

" ١ " ديوانه: ٥٧، وتفسير أبي حيان ٢٥: ٢٧٧ ورواية أبي حيان (قمر يعوم) بدل (قمر يقوم) وفي تفسير الطبري
قد اجتهد محققه فأخطأ، لانه اثبت (والجسر) بدل (والحشر)
راجع صفحة ٣٨٨ من المجلد الخامس في تفسير الطبري.
" ٢ " الشعر والشعراء: ٦٠٢، واللسان " وسن "، "؟".

(٣٠٩)

وقوله: " يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم " قال: ابن جريج ومجاهد والسدي:
معناه ما مضى من الدنيا وما خلفهم من الآخرة.
وقوله: " ولا يحيطون بشئ من علمه " معناه من علومه، كقول القائل:
ألهم اغفر لنا علمك فينا، فاذا ظهرت آية يقولون قدرة الله أي مقدور الله وقوله:
" وسع كرسيه " قال ابن عباس كرسيه: علمه وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله (ع).
وقال الحسن: الكرسي هو العرش. وقيل: هو سرير دون العرش وقد روي ذلك عن أبي
عبدالله (ع). وقيل: أصل ملكه. وكل ذلك محتمل.
أما العلم، فلانه يقال للعلماء الكراسي، لانهم المعتمد كما يقال: هم أوتاد الارض، وهم الاصل
الذي يعتمد عليه. ويقال لكل أصل يعتمد عليه. كرسي قال الشاعر:
تحف بهم بيض الوجوه وعصبة * كراسي بالاحداث حين تنوب (١)
أي علماء بحوادث الامور. وقال آخر:
نحن الكراسي ما تعد هوازن * أفعالنا في النائبات ولا أسد
وقال آخر:
مالي بأمرك كرسي كاتمه * وهل بكرسي علم الغيب مخلوق
وكل شئ تراكب فقد تكارس تكارسا، ومنه الكراسية لتراكب بعض ورقها على بعض قال
العجاج:
ياصاح هل تعرف رسما مكرسا * قال نعم أعرفه وأبلسا (٢)

أي تكارس عليه التراب، فغطاه، والكرس البعر والبول: إذا تلبد بعضه على بعض، والاكارس الجموع الكثيرة، لاواحد له، لانه بكثرتة بمنزلة ما تراكب بعضه على بعض. ورجل كروس شديد الرأس، لانه تضاعف القوى كتراكب الشئ بعضه على بعض، والكرياس: كنيّف في أعلى السطح بقناة إلى الارض، لتراكب

" ١ " أساس البلاغة (كرس).

" ٢ " ديوانه؟: ٣١، والكامل ١: ٢٥٢، واللسان (بلس)، (كرس). يقال:

ابلس الرجل أي سكت عما في نفسه، وانكر وتحير، ولم ينطق. قد مر في ١: ١٥٣

(٣١٠)

بعض ابنيته على بعض، وسمي الكرسي بذلك، لتكريب بعضه على بعض. ويقال: كرسي الملك من مكان كذا إلى مكان كذا أي ملكه تشبيها بالكرسي المعروف. وكرس يكرس كرسا، وأكرس إكراسا، وتكارس تكارسا، وتكرس تكرسا، وكرسه تكريسا، وأصل الباب الكرسي: تراكب الشئ بعضه على بعض. والوجه في خلق الكرسي إذا قلنا: أنه جسم هو أن الله تعبد تحمله الملائكة والتعبد عنده كما تعبد البشر بزيادة، ولم يخلقه ليجلس عليه، كما تقول المجسمة. واختاره الطبري، لانه عزوجل يتعالى عن ذلك، لان ذلك من صفات الاجسام ولو احتاج إلى الجلوس عليه، لكان جسما ومحدثا وقد ثبت قدمه. وقوله: " ولا يؤوده حفظهما " أي لا يثقله، والهاء في يؤوده راجعة إلى الله وقيل إنها عائدة إلى الكرسي. والاوود مصدر، آده يؤوده أودا وأيادا إذا أثقله وجهده، وأودت العود فأنا أوده أودا، فانآد ومعناه عجته فانعاج، لانه اعتمد عليه بالثقل حتى مال، والاوود، والاووداء على وزن اعوج وعوجاء والمعنى واحد والجمع الاوود بوزن العوج وأصل الباب الثقل. وقوله: " هو العلي العظيم " فالعلي يعنى بالاقنتدار ونفوذ السلطان. ويقال علا بالاقنتدار، ولايقال رفيع، لان الرفعة من المكان، والعلو منقول إلى معنى الاقنتدار يوضح ذلك قولهم: علا قرنه بمعنى اقتدر ولا يقال ارتفع عليه بمعنى اقتدر وكذلك استعلى عليه بالحجة، ولا يقال ارتفع عليه بالحجة. وتقول: علا يعلو علوا وأعلى إعلاء وعلى تعلية واستعلى استعلاء. وتعالى تعليا. وتعالى تعاليا واعتلاه اعتلاء، وعالى معالاة. والعلو - بضم العين وكسرهما - نقيض السفلى، والعلو التجبر، ومنه قوله تعالى: " إن فرعون علا في الارض " (١) أي تجبر، لانه طلب الاستعلاء على الناس بالسلطان والقهر. والله العالى والمتعالى أي القادر القاهر، لانه عال بالاقنتدار، لانه لا يعجزه شئ

والعالية: القناة المستقيمة، لاستمرارها في جهة العلو. وفلان من علية الناس أي من أشرفهم،
لأنه علا بشرفه. والعالية: الغرفة

" ١ " سورة القصص آية: ٤.

(٣١١)

وأصل الباب العلو. والعظيم معناه عظيم الشأن بأنه قادر، ولا يعجزه شيء، وعالم لا يخفى
عليه شيء، فلا نهاية لمقدوره ومعلومه، وقال قوم: العظيم بمعنى المعظم كما قالوا في الخمر
العتيقة معتقة، والاول أقوى لأن على هذا كان يجب ألا يوصف بأنه عظيم فيما لم يزل وقد
علمنا خلافه.

قوله تعالى:

لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك
بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم (٢٥٦) آية واحدة.

المعنى:

قيل في معنى قوله: " لا إكراه في الدين " أربعة أقوال: أولها - قال الحسن وقتادة والضحاك:
إنها في أهل الكتاب خاصة الذين يؤخذ منهم الجزية.

الثاني - قال السدي وابن زيد: إنها منسوخة بالآيات التي أمر فيها بالحرب نحو قوله: "
واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " (١) وقوله: " فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب "
(٢). والثالث - قال ابن عباس وسعيد بن جبیر: إنها نزلت في بعض أبناء الانصار وكانوا
يهودا فإريد إكراههم على الاسلام. الرابع - قيل " لا إكراه في الدين " أي لا تقولوا لمن دخل
فيه بعد حرب إنه دخل مكرها، لأنه إذا رضي بعد الحرب، وصح اسلامه فليس بمكره، فان
قيل كيف تقولون " لا إكراه في الدين " وهم يقتلون عليه ! قلنا المراد بذلك لا إكراه فيما هو
دين في الحقيقة، لان ذلك من أفعال القلوب إذا فعل لوجه بوجوبه، فأما يكره عليه
من إظهار الشهادتين، فليس بدين، كما أن من أكره على كلمة الكفر لم يكن كافرا.
وقوله: " قد تبين الرشد من الغي " معناه قد ظهر بكثرة الحجج، والآيات

" ١ " سورة النساء آية: ٨٨. " ٢ " سورة محمد آية: ٤

(٣١٢)

الدالة لانضمام ما أتى الرسول فيه إلى ما في الفعل منه والالف واللام في قوله " في الدين " يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون مثل قوله " فان الجنة هي المأوى " (١) بمعنى هي مأواه فكذلك " لا إكراه في الدين " أي في دينه، لانه قد تقدم ذكر الله كأنه قال:

" لا إكراه في دين " الله.

والثاني - لتعريف دين الاسلام.

اللغة، والمعنى:

والغي ضد الرشد، تقول غوى يغوي غيا وغواية: إذا سلك خلاف طريق الرشد، وغوى: إذا خاب قال الشاعر:

ومن يغو لا يعدم على الغي لائما (٢)

أي من يخب. وغوى الفصيل يغوي غيا: إذا قطع عن اللبن حتى يكاد يهلك وقوله: " رب بما أغويتني " (٣) يحتمل أمرين: أحدهما - خيبتني. الثاني - بما حكمت بغوايتي، ومنه قوله: " أغويناهم كما غوينا تبر أنا اليك " (٤) والاصل الغي سلوك طريق الهلاك.

وقوله: " ومن يكفر بالطاغوت " قيل فيه خمسة أقوال: أحدها - ما روي عن عمر، ومجاهد، وقتادة: أنه الشيطان الثاني - قال سعيد بن جبير: هو الكاهن.

الثالث - قال أبو العالية: هو الساحر. والرابع - قال قوم: هم مردة الجن والانس.

الخامس - قال بعضهم: هي الاصنام. وأصل طاغوت من الطغيان، ووزنه فعلوت نحو جبروت، وتقديره: طيغوت إلا أن لام الفعل قلبت إلى موضع العين، كما قيل صاعقة

" ١ " سورة النازعات آية: ٤١ .

" ٢ " قائله المرقش الاصغر وصدرة:

من يلق خيرا يحمد الناس أمره العقد الفريد ٢: ١٧٦، ٣: ٧٧، ٥: ٣٣٩.

" ٣ " سورة الحجر آية: ٣٩ " ٤ " سورة القصص آية: ٣٦ .

(٣١٣)

صاعقة، ثم قلبت الفا لوقوعها في موضع حركة، وانفتاح ما قلبها.

ومعنى (يؤمن بالله) يصدق بالله.

وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) فالعروة الوثقى الايمان بالله، عن مجاهد، وجرى ذلك مجرى المثل لحسن البيان باخراج ما لا يقع به الاحساس إلى ما يقع به (١) والعروة: عروة الدلو ونحوه لانها متعلقة، وعروت الرجل، أعروه عروا: إذا الممت به متعلقا بسبب منه،

واعتراه (٢) يعتريه: إذا تعلق به، وعرته الحمى تعروه: إذا علقت به وعراه يعريه إذا اتخذ له عروة. وأصل الباب التعلق. وقال الأزهري العروة: كل نبات له أصل ثابت، كالشوح والقيصوم، وغيره. وشبهت عرى الأشياء في لزومها. وقوله: " لانفصام لها " أي لا انقطاع لها - في قول السدي - . والانكسار، والانفصام والانصداع والانقطاع نظائر. قال اعشى بني ثعلبة. ومبسمها عن شتيت النبا * ت غير أكس ولانفصم (٣) وانفصم انفصاما: إذا انصدع، وفصمته تفصمه فصما: إذا صدعته من غير أن تكسره، وأصل الباب: الفصم، كصدع الزجاج. قوله تعالى:

(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٥٧) آية. المعنى، واللغة: معنى (ولي الذين آمنوا " نصيرهم، ومعينهم في كل ما بهم إليه الحاجة (٤)،

" ١ " به ساقطة من المطبوعة.

" ٢ " في المطبوعة اعتراءهم.

" ٣ " ديوانه: ٣٥ رقم القصيدة ٤. الشتيت: المتفرق المفلج من الاسنان الكس:

قصر الاسنان. في المطبوعة " عرائس " بدل " غير أكس " وروايته: (منقضم).

" ٤ " هذا ما استنبطناه وفي المطبوعة (كلماتهم اليه الحاجة).

(٣١٤)

فيه صلاح لهم في دينهم ودنياهم وإنما يوصف بالولي من كان أولى بغيره وأحق بتدبيره. ومنه الوالي، لأنه يلي القوم بالتدبير والامر، والنهي، ومنه المولى من فوق، لأنه يلي أمر العبد بسد الخلة، وما به إليه الحاجة، ومنه المولى من أسفل لأنه يلي أمر المالك بالطاعة، والمولى ابن العم لأنه يلي أمره بالنصرة لتلك القرابة، وولي اليتيم لأنه يلي أمر ماله بالحفظ له والقيام عليه. والولي في الدين وغير، لأنه يلي أمره بالنصرة والمعونة لما توجبه الحكمة، والمعاقدة لجميع هذه المواضع الاولى واللاحق ملحوظ فهي. وولي: إذا ادير عن الشيء لأنه زال

عن أن يليه بوجهه واستولى على الشيء: إذا احتوى عليه، لأنه وليه بالقهر.

والله تعالى يتولى المؤمنين على ثلاثة أوجه: يتولاهم بالمعونة على إقامة الحجة، ويتولاهم بالنصرة لهم في الحرب حتى يغلّبوا، ويتولاهم بالثبوت على الطاعة. وقوله (يخرجهم من الظلمات إلى النور). ومعناه: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، لأنه الكفر كالظلمة في المنع من إدراك الحق كما أن الظلمة مانعة من إدراك البصر. وقال قتادة: يخرجهم من ظلمة الضلالة إلى نور الهدى، وهذا قريب من الأول، ووجه إخراج الله تعالى المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان باهدائهم إليه، ونصب الأدلة لهم، وترغيبهم فيه، وفعله بهم من اللطاف ما يقوي دواعيهم إلى الإيمان، فإذا اختارواهم الإيمان، فكأن الله أخرجهم منها، ولم يجز أن يقال: إنه أخرج الكفار من الظلمات إلى النور من حيث قدرهم على الإيمان، ودعاهم إليه ورغبهم فيه، كما فعل بالمؤمنين، لأنهم لم يختاروا الإيمان، فلم يجز أن يقال: إنه أخرجهم منه لأنه توهم أنهم فعلوا الإيمان. وقوله: (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) إنما أضاف إخراجهم " من النور " الذي هو الإيمان إلى الكفر إلى الطاغوت، لما كان ذلك باغوائهم، ودعائهم، وإنما كفروا عند ذلك، فأضاف ذلك إليهم، فهو عكس الأول. فان قيل: كيف " يخرجونهم من النور " وما دخلوا فيه؟

(٣١٥)

قلنا عنه جوابان:

أحدهما - إن ذلك يجري مجرى قولهم: أخرجني والدي من ميراثه. ولم يدخل فيه، وإنما ذلك لأنه لو لم يفعل ما فعل، لدخل فيه، فهو لذلك بمنزلة الداخل فيه الذي أخرج منه. قال الغنوي: فان تكن الأيام أحسن مرة * إلي فقد عادت لهن ذنوب (١) ولم يكن لها ذنوب قبل ذلك.

والوجه الثاني - قال مجاهد: إنه في قوم ارتدوا عن الإسلام، والأول أليق بمذهبنا، لأن عندنا لا يجوز أن يرتد المؤمن على الحقيقة، وإنما قال " يخرجونهم " على لفظ الجمع. فان كان الطاغوت واحدا لأنه في معنى جميع كما قال العباس بن مرداس:

فقلنا: أسلموا أنا أخوكم * فقد برئت من الأحن الصدور (٢)

وإنما جاز ذلك في الخفض، لأن كل واحد يقوم مقام الآخر فصار ذكر واحد ينوب عن جميعه، فأما ما يميز بالخلقة وصار بمنزلة الأشياء المختلفة فقياسه أن يجمع، كرجل ورجال. وإنما حسن في الطاغوت، لأن جميعه يجري واحد في الضلال.

وفي الآية دليل على فساد قول المجبرة في المخلوق، والارادة، لأنه تعالى نسب الإخراج من نور الهدى إلى ظلمة الكفر والضلال إلى الطاغوت منكرا لتلك الحال، ولم يكن لينكر شيئا أراده ولا يغيب شيئا عنه فعله (تعالى الله) عن ذلك.

قوله تعالى:

ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال

" ١ " فأنله كعب الغنوي من قصيدة يرثي بها أخاه أبا المغوار العقد الفريد ٣ : ٢١٧ .
وروايته " لقد " بدل " فقد " . " ٢ " سيرة ابن هشام ٤ : ٩٥ ، واللسان " أخو " ومجاز القرآن ١ . ٩٧ من قصيدة له في
يوم حنين، وفي هزيمة هوزان يذكر قارب بن الاسود وفراره من بني أبيه. و؟؟
أحنة: وهي الحقد.

(٣١٦)

إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فان الله يأتي بالشمس من
المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين (٢٥٨) آية.
القراءة:

قرأ أهل المدينة " أنا أحيي وأميت " باثبات الالف إذا كان بعدها همزة مضمومة أو مفتوحة.
فان كان بعدها همزة مكسورة حذفوها إجماعاً.
المعنى:

قال مجاهد، وقتادة والربيع: إن المحاج لإبراهيم كان نمرود بن كنعان (١)
وهو أول من تجبر في الارض بادعاء الربوبية. وقوله: (ألم تر ألى) دخلت إلى الكلام للتعجب
من حال الكافر المحاج بالباطل، كما يقولون: أما ترى إلى فلان كيف يصنع، وفيه معنى هل
رأيت كفلان في صنيعه كذا، وإنما دخلت (إلى)
لهذا المعنى من بين حروف الجر، لان إلى لما كانت نهاية صارت بمنزلة هل انتهت رؤيتك
إلى من هذه صفة لتدل على بعد وقوع مثله على التعجب منه، لان التعجب إنما يكون مما
استبهم شبيه بما لم يجز عادة به، وقد صارت إلى ههنا بمنزلة كاف التشبيه من حروف
الإضافة، لما بينا من العلة إذ كان ماندر مثله كالذي يبعد وقوعه.
وقوله: (أن آتاه الله الملك) معناه أعطاه والهاء في " آتاه " قال الحسن وأبو علي: إنها كناية
عن المحاج لإبراهيم. وقال أبو حذيفة والبلخي إنها عائدة إلى إبراهيم.
فان قيل: كيف يجوز أن يؤتي الله الكافر الملك؟ قيل: الملك على وجهين:
أحدهما - يكون بكثرة المال واتساع الحال، فهذا يجوز أن ينعم الله (عز وجل) به على أحد
من مؤمن وكافر، كما قال في قصة بني إسرائيل: " وجعلكم

" ١ " ابن كوش بن سام بن نوح. وقيل: انه نمرود بن فالخ بن عامر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح.

(٣١٧)

ملوكا و آتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين " (١).

والثاني - ملك بتمليك الامر والنهي والتدبير لامور الناس، فهذا لا يجوز أن يجعله الله لاهل الضلال لما فيه من الاستفساد بنصب من هذا سبيله للناس، لانه لا يصح مع علمه بفساده إرادة الاستصلاح به كما يصح منا فيمن لا يعلم باطن حاله ممن يؤمن علينا. ومن قال الهاء كناية عن إبراهيم (ع) لم يتوجه عليه السؤال، لانه تعالى لم يؤت الكافر الملك، وإنما آتى نبيا مرسلا.

وقوله (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت) معناه يحيي الميت ويميت الحي، فقال الكافر عند ذلك: أنا أحيي وأميت، يعنى أحييه بالتخلية من الحبس ممن وجب عليه القتل وأميت بالقتل من شئت ممن هو حي، وهذا جهل منه، لانه اعتمد في المعارضة على العبارة فقط دون المعنى، عادلا عن وجه الحجة بفعل الحياة للميت أو الموت للحي على سبيل الاختراع كما يفعله الله (تعالى) من إحياء من قتل أو مات ودفن وذلك معجز لا يقدر عليه سواه، فقال إبراهيم (إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) ولم يكن ذلك انتقالا من إبراهيم من دليل إلى دليل آخر من وجهين:

أحدهما - أن ذلك يجوز من كل حكيم بعد تمام ما ابتداء به من الحجاج، وعلامة تمامه ظهوره من غير اعتراض عليه بشبهة لها تأثير عند التأمل، والتدبر لموقعها من الحجة المعتمد عليها.

الثاني - أن إبراهيم إنما قال ذلك ليتبين أن من شأن من يقدر على إحياء الاموات وإماتة الاحياء، إن يقدر على الاتيان بالشمس من المشرق، فان كنت قادرا على ذلك فأت بها من المغرب " فبهت الذي كفر " وإنما فعل ذلك، لانه لو تشاغل معه بأني أردت اختراع الحياة والموت من غير سبب ولا علاج لاشتبه على كثير ممن حضر، فعدل إلى ما هو أوضح وأكشف، لان الانبياء (ع) إنما بعثوا للبيان والايضاح، وليس أمورهم مبنية على بناء الخصمين إذا تحاجا، وطلب

" ١ " سورة المائدة آية ٢٢.

(٣١٨)

كل واحد غلبة خصمه، فلذلك فعل إبراهيم (ع) ما فعل وقد روي عن أبي عبدالله (ع) أن إبراهيم قال له: احيي من قتلته إن كنت صادقا، ثم استظهر عليه بما قال.

اللغة:

والشمس معروفة وجمعها شمس، وقد شمس يومنا يشمس شمساً، فهو شامس: إذا اشتدت شمس، وكذلك أشمس. وشمس الفرس شماساً، فهو شمس، إذا اشتد نفوره، لأنه كاشتداد الشمس في اليوم ما يكون من زيادة حرها، وتوقدها. وشمس فلان إذا اشتدت عداوته. قال الشاعر:

شمس العداوة حتى يستفاد لهم * وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا (١)
والشمس في القلادة وغيرها: دائرة مشرقة كالشمس. وشمس الشيء تشميساً إذا ألقاه في الشمس، وتشمس تشمساً: إذا قعد في الشمس.
المعنى:

وقوله: (فبهت الذي كفر) معناه تحير عند الانقطاع بما بان ظهور الحجة. فان قيل هلا قال لإبراهيم. فليات ربك بها من المغرب؟ قلنا عن ذلك جوابان:
أحدهما - أنه لما علم بما رأى من الآيات منه أنه لو اقتراح ذلك لفعل الله ذلك فتزداد نصيحته، عدل عن ذلك، ولو قال ذلك واقتراح لآتى الله بالشمس من المغرب تصديقاً لإبراهيم (ع).

والجواب الثاني - أنه (تعالى) خذله عن التلبس والشبهة.
اللغة:

وفي بهت ثلاث لغات: بهت على لفظ القرآن، وبهت وبهت على وزن ظرف وحذر، وحكي بهت على وزن ذهب والبهت: الحيرة عند استيلاء الحجة، لأنها كالحيرة للمواجهة بالكذب، لأن تحير المكذب في مذهبه كتحير المكذوب عليه،

" ١ " قائله الاخطل. اللسان " شمس " .

(٣١٩)

ومنه قوله: (أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) (١) كأنه قال أتأخذونه ادعاء للكذب فيه. وفي إبراهيم خمس لغات إبراهيم، وإبراهيم، وإبراهم، وإبراهم، وإبراهم بإسقاط الياء وتعاقب الحركات الثلاث عليه.
المعنى:

وقوله (والله لا يهدي القوم الظالمين) لا يعارض قوله: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) (٢) لأن الهدى يتصرف على وجوه وأصله واحد وهو الدلالة على الطريق المؤدي إلى البغية والله (تعالى) قد هدى جميع المكلفين بأن دلهم على طريق الحق وخص المؤمنين

في هدايته لهم بالمعونة على سلوك طريق الحق، لانه بمنزلة الدلالة على طريق الحق والله (تعالى) لا يهدي للمعونة على بلوغ البغية في فساد القوم الظالمين. وفي الاية دلالة على فساد (٣) قول من يقول:

المعارف ضرورة، لانه لو كانت ضرورة لما حاج إبراهيم الكافر، ولاذكر له الدلالة على إثبات الصانع، وفيها دلالة على فساد التقليد وحسن المحاجة والجدال، لانه لو كان ذلك غير جائز لما فعل إبراهيم (ع) ذلك. قوله تعالى:

(أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال اعلم أن الله على كل شئ قدير) (٢٥٩) آية واحدة.

" ١ " النساء آية: ١٩. " ٢ " حم السجدة آية: ١٢.
" ٣ " على فساد " ساقطة من المطبوعة.

(٣٢٠)

القرآءة:

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب. والكسائي عن أبي بكر (يتسن) بحذف الهاء وفي الواقف باثباتها بلا خلاف. قرأ ابن عامر وأهل الكوفة (تنشزها) بالزاي الباقون بالراء. وقرأ حمزة الكسائي (قال اعلم) بهمزة موصولة الباقون بقطعها.

الاعراب:

هذه الاية معطوفة على الاية الاولى وتقديره رأيت ك (الذي حاج إبراهيم في ربه) وك (الذي مر على قرية) وموضع الكاف نصب ب (تر) ومعناه التعجب منه لان كلما خرج في بابيه يعظمه عن حد نظائره مما يتعجب منه نحو (ما أجعله)

أي قدخرج بعظم جهله عن حد نظائر، وكذلك لو قلت: هل رأيت كزيد الجاهل، لدللت على مثل الاول في التعجب، لما بينا إلا أن (ما أفعله) صيغة موضوعة للتعجب، وليس كذلك هل رأيت لانها في الاصل للاستفهام، ونحو قولك: هل رأيت في الدنانير مثل هذا الدينا فهذا استفهام محض لا تعجب فيه، لان أمثاله كثير، فلم يخرج بعظم حاله عن حد نظائره، كما خرج الاول بعظم جهله. وقيل: الكاف زائدة للتوكيد، كما زيدت في ليس كمثله شئ والاول الوجه، لانه لا يحكم بالزيادة إلا للضرورة.

المعنى:

وقال قتادة والربيع: الذي مر على قرية هو عزيز، وروي ذلك عن أبي عبدالله (ع). وقال وهب بن منبه: هو أرميا، وهو المروي عن أبي جعفر (ع). وقال ابن إسحاق: هو الخضر، والقرية التي مر عليها. قال وهب بن منبه، قتادة، والربيع هي بيت المقدس لما خر به بخت نصر، وقال ابن زيد: هي القرية التي خرج منها الالوف (حذر الموت). وقوله: (وهي خاوية) معناه خالية. وقال ابن عباس، والربيع، والضحاك خراب. قال قوم: معناه وهي قائمة على أساسها وقد وقع

(٣٢١)

وقد وقع سقفها. وأصل الخواء (١) الخلاء قال الراجز:

بيدو خواء الارض من خويله (٢)

والخواء: الفرجة بين الشئيين يخلو ما بينهما. وخوت الدار فهي خاوية.

تخوي خواء. إذا باد أهلها بخلوها منهم والخوى: الجوع، خوى يخوى خوى: يخلو البطن من الغذاء. والتخوية التفريح بين العضدين والجبيين يخلو ما بينهما بتباعدهما. والتخوية تمكين البعير لنفسه في بروكه، لانه تفحصه الارض بخلوها مما يمنع من تمكنه. واخواء النجم: سقوطه من غير مطر بخلوه من المطر. خوى النجم واخوى. وخوى المنزل إذا تهدم، لانه بتهدمه يخلو من أهله وأصل الباب الخلو.

وقوله: (على عروشها) يعني على أبنيتها ومنه " وما كانوا بعروشون " (٣)

أي بينون. ومنه عريش مكة: أبنيتها وخيامها، وكل بناء: عرش، عرش يعرش ويعرش عرشا: إذا بنى. والعرش البيت، وجمعه عروش لارتفاع أبنيتها.

والعرش: السرير، لارتفاعه على غيره. وعرش الرجل: قوام أمره وعرش البيت:

سقفه، لارتفاعه. والتعريش جعل الخشب تحت الكرم ليتمد عليه. تقول:

عرشته تعريشا. وعرشته أعرشه عرشا. وذلك، لارتفاعه في امتداده على الخشب الذي تعمده. والتعريش رفع الحمار رأسه شاحيا فاه على عانته، عرش بعانته تعريشا. والعرش ظللة من شجر أو نحوه، لارتفاعه على ما يستره. وعرش البئر طيها بالخشب بعد طيها بالحجارة. والعرشان من الفرس: آخر شعر العرف لارتفاع العرف على العنق. وتل عرشه: إذا قتلته. وأصل الباب: الارتفاع.

والقرية أصلها من قرية الماء: إذا جمعت، سميت بذلك لاجتماع الناس فيها للاقامة بها.

المعنى:

وقوله " انى يحيى هذه الله بعد موتها " معناه كيف، وذلك يدل على أن

(١) في المطبوعة (الخوَأ) (٢) في المطبوعة (خو) (٣) سورة الاعراف آية: ٣٦:

(٣٢٢)

" انى " . في قوله (فأتوا حرثكم أنى شئتم) (١) معناه كيف شئتم دون ما قاله بعضهم من أن معناه حيث شئتم، لان معناه هاهنا لا يكون إلا على كيف.

ولقائل أن يقول: إن اللفظ مشترك. وإنما يستفاد بحسب مواضعه. وقال الزجاج: معناه من أين في الموضعين.

وقوله (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) قال أبو علي لا يجوز أن يكون الذي أماته ثم أحياه نبيا لان الله تعالى عجب منه ولو لذلك، لجاز أن يكون نبيا على أنه شك في ذلك قبل البلوغ لحال التكليف، ثم نبي في ما بعده، وعلى هذا لا يمتنع أن يكون نبيا في ما تقدم. والاول أقوى، وأقرب. ويجوز هذه الالية أن تكون في غير زمان نبي. وقال الجبائي: لايجوز ذلك لان المعجزات لا تجوز إلا للانبيا لانها دالة عليهم. فلو وقعت المعجزة في غير زمن نبي لم يكن وقوعها دليلا على النبوة، وهذا ليس بصحيح - عندنا - لان المعجزات تدل على صدق من ظهرت على يده. وربما كان نبيا وربما كان إماما أو وليا لله، وما روي أن الحياة جعلت في عينيه أولا، ليرى كيف يحيي الله الموتى لا يجوز، لان الرأي هو الانسان بكماله غير أنه يجوز أن يكون أول ما نفخ فيه الروح عيناه، وتكون الحياة قد وجدت في جميع الروح، ولم يحصل في البدن من الروح إلا ما في العينين دون ما في البدن.

اللغة، والمعنى:

وقوله: (مئة عام) معناه ومئة سنة، والعام جمعه أعوام، وهو حول يأتي بد شتوه وصيفة، لان فيه سبحا طويلا بما يكن من التصرف فيه. والعموم:

السباحة. و عام في الماء يسوم عوما: إذا سبح. والسفينة تعوم في جريها.

والابل تعوم في سيرها، لانها تسبح في السير بجريها. والاعتيام: اصطفاء خيار مال الرجل ليجري (٢) في أحده له شيئا بعد شئ كالسباح في الماء الجاري

(١) سورة البقرة آية ٢٠٥ (٢) في المطبوعة (لايجري)

(٣٢٣)

واعتام الموت النفوس أولا أولا، لانه يجري في أحدها حالا بعد حال كجري السباح في الماء، وأصل الباب السبح.

وقوله: (ثم بعثه) يعني أحياءه. وقوله: (كم لبثت) موضع نصب بلبثت، كأنه قيل: أمائة سنة لبثت أو أقل أو أكثر؟ فقال (لبثت يوما أو بعض يوم) لأن الله تعالى أماته في أول النهار وأحياءه بعد مائة سنة في آخر النهار، فقال: "يوما" ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال "أو بعض يوم". واللبث المكث، لبث لبثا فهو لآبث وتلبث تلبثا إذا تمكث ولبثه تلبيثا، وأصل الباب المكث. وقوله: (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) معناه لم تغيره السنون. وقيل: كان زاده عصيرا وتينا وعنبا، فوجد العصير حلوا، والتين، والعنب كما جناه لم يتغير، أو هو مأخوذ من السنة، والأصل فيه على قولهم: سانيته مساناة إذا عاملته سنة سنة أن يكون في الوصل لم يتسن، نحو لم يتعد، والأصل الواو، بدليل قولهم سنوات فاذا وقف جاء بهاء السكت، ويجوز أن يكون على قولهم: سانهة وسنهات، واكثرية مسانهة. والهاء على هذا أصلية مجزومة بلم، ولا يجوز أن يكون من الاسن، لأنه لو كان منه لقليل لم يتأسن. قال الزجاج لايجوز أن يكون من قوله: "من حمأسنون" (١) لأن معنى مسنون منصوب على سنة الطريق قال الشاعر:

ليست بسنهاء ولارجبية * ولكن عرايا في السنين الجوائح (٢)
فجعل الهاء أصلية. والسنهاء: النخلة القديمة، لأنه قد مرت عليها سنون

(١) سورة الحجر آية: ٢، ٢٨، ٣٣ (٢) قاتله سويد بن الصامت الانصاري وقيل احيحة بن الجلاح. اللسان (عرا)، (خور)، (رحب)، (قرح)، (سنه) وأمالى القالى ١: ٢١. الرجبية - بضم الراء وتشديد الجيم المفتوحة أو فتحها بغير تشديد - نسبة شاذة إلى رجبية - ضم فسكون - البناء تحت النخلة الكريمة لدعمها إذا خيف عليها لكثرة حملها والعرايا جمع عرية وهي التي يوهب ثمرها في عامها. الجوائح: السنين المجذبة.

(٣٢٤)

كثيرة. وإنما علم بأنه مات مائة سنة بشيينين: أحدهما - باخبار من اراه المعجزة في نفسه وحماره وطعامه، وشرابه من تقطع أوصاله، ثم اتصال بعضها إلى بعض حتى رجع إلى حاله التي كان عليها في أول أمره. والآخر - بالآيات الدالة على ذلك لما رجع إلى وطنه فرأى ولد ولده شيوخا وقد كان خلف أباهم شبابا إلى غير ذلك من الامور التي تغيرت، والاحوال التي تقلبت مع تظاهر الاخبار عما يسأل عنه أنه كان في مائة سنة. وقوله: (ولنجعلك آية للناس) قيل بعث وأولاد أولاده شيوخ. وروي عن علي (ع) أن عزيزا خرج من أهله وامراته حامل وله خمسون سنة.

فأماته الله مائة سنة، ثم بعثه فرجع إلى أهله ابن خمسين سنة وله ابن له مائة سنة، فكان ابنه أكبر منه، وذلك من آيات الله. وقيل: لتتعظ أنت ويتعظ الناس بك، فيكون الاعتبار عاما. ودخلت الواو في الكلام لاتصال اللام بفعل محذوف كأنه قال: ولنجعله آية للناس. فعلنا ذلك، لأن الواو لو سقطت اتصلت اللام بالفعل المتقدم.

وقوله: (وانظر إلى حمارك) فالحمار يقال للوحشي والاهلي لأن الحمرة أغلب على الوحشي ثم صار لكل حمار تشبيها بالوحشي، والحمرة لون أحمر تقول: احمر احمرارا واحمارا حميرارا والحر: فرس هجين، لأنه كالحمار في التقصير، وحمارة القيظ: شدة حره، وحمار السرج الذي يركبه السرج وحر فو الفرس يحمر حمرا إذا انتن. والحمارة حجارة عريضة توضع على اللحد لركوب التراب عليها كالحمار وجمعها حمائر. وما يخفى على الاسود والاحمر أي العرب والعجم، لأن السواد أغلب على لون العرب كما الحمرة أغلب على العجم. وموت أحمر:

شديد مشبه بحمرة النار في شدة الايقاد. وعبث حمرشديد، وأصل الباب الحمرة. ومنه الحمرة طائر كالعصفور، لأنه تغلب عليه الحمرة.

وقوله: (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) فمن قرأ بالراء غير المعجمة

(٣٢٥)

ذهب إلى النشور، وهو الحياة بعد الموت. ونشر الميت: إذا عاش ونشره الله وأنشره: إذا أحياه. ومنه قوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) (١) وقوله: " ثم إذا شاء أنشره " (٢) والنشر خلاف الطي. يقال: نشرت الثوب وغيره أنشره نشرا وانتشر انتشارا. والنشر إذاعة الحديث والنشر: الرائحة الطيبة، وربما قيل في الخبيثة. والنشر نحت (٣) العود بالمنشار. والنشر نبات الربيع. والنشر: اكتساء البازي ريشا واسعا طويلا. والنشرة عن المريض الرقية حتى يفيق والتناشر: عرض كتابة الغلمان على المعلم ينشرونه عليه أي يرونه إياه، وذلك لبسط الكتاب بين يديه. وأصل الباب الانبساط. ومن قرأ بالزاء فمعناه يرفع بعضها إلى بعض وأصل النشوز: الارتفاع فمنه النشر المرتفع من الأرض. ومنه نشوز المرأة رفعها عن طاعة زوجها. وقوله: (ثم نكسوها لحما) معناه نغطيها باللحم كما نغطي باللباس. وإنما قيل ذلك لأجل التفصيل الذي كان عليه، فوصله الله عزوجل حتى صار كجزء. منه قال الجعدي (٤):

فالحمد لله إذا لم يأتني أجلي * حتى اكتسيت من الاسلام سربالا (٥)
فجعل الاسلام غطاء للكفر كما يجعل غطاء لملعصية قوله (فلما تبين له) أي ظهر. " قال اعلم " فمن قطع الهمة جعل ذلك أخبارا عن نفسه ومن وصلها احتمل أمرين:
أحدهما - أن يكون ذلك أمرا من الله له. والثاني - أن يكون تذكيرا للنفس بالواجب وأخرجه مخرج الأمر لها كأنه قال: يا أيها الانسان. وفي الآية دليل على بطلان قول من قال: المعارف ضرورة، لانه لما شك أراه الله الايات التي

" ١ " سورة المؤمنون آية: ١٤. " ٢ " سورة عبس آية: ٢٢.

" ٣ " في المطبوعة (حث).

" ٤ " هو النابغة الجعدي. وقيل: انه للبيد بن ربيعة العامري وقيل: لقردة بن فائة السلولي.

" ٥ " ديوان النابغة: ٨٦.

(٣٢٦)

استبصر بها ولو كان مضطرا إلى المعرفة بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز لم يحتج إلى دليل يعلم به ما هو مضطر إليه وكان يقال: ان عند الموت لم تحصل له المعارف الضرورية كما يحصل لمن لا يريد الله إعادته إلى التكليف فتكون الامامة كالنوم. والمعلوم خلافه.
قوله تعالى:

(وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزء ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم) (٢٦٠) آية واحدة بلا خلاف.
القراءة:

قرأ حمزة وحده " فصرهن " بكسر الصاد. الباقرن بضمها.
الاعراب:

العامل في قوله " وإذ " يحتمل أن يكون أحد شيئين: أحدهما - ما قال الزجاج: واذكر إذ قال. والثاني - ألم تر إذ قال عطفًا على " ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه " .
المعنى:

وقيل في سبب سؤال إبراهيم أن يريه كيف يحيي الموتى ثلاثة أقوال:

أحدها - قال الحسن، وقتادة، والضحاك، وأبو عبد الله الصادق (ع):

أنه رأى جيفة قد مزقتها السباع تأكل منها سباع البر وسباع الهواء ودواب البحر فسأل الله (تعالى) أن يريه كيف يحييها وقال ابن اسحاق كان سبب ذلك منازعة نمرود له في الأحياء، وتوعده إياه بالقتل إن لم يحيي الله الميت يشاهده، ولذلك قال

(٣٢٧)

ليطمئن قلبي إلى أنه لا يقتلني الجبار، وقال قوم إنما سأل ذلك لقومه، كما سأل موسى الرؤية، لقومه. وقال قوم: إنما سألته، لأنه أحب أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالما به من جهة الاستدلال. وهو أقوى الوجوه. وقال قوم: إنما سأل ذلك، لأنه كان شاكا فيه. وروي فيه رواية، فهذا باطل، لأن الشك في أن الله قادر على أحياء الموتى كفر لا يجوز على الأنبياء، لأنه تعالى لا يجوز أن يبعث إلى خلقه من هو جاهل بما يجوز عليه وما لا يجوز. والذي يبين ذلك أن الله تعالى لما قال له " أولم تؤمن " فقرر أنه قال إبراهيم " بلى ولكن ليطمئن قلبي " فبين أنه عارف بذلك مصدق به، وإنما سأل تخفيف المحنة بمقاساة الشبهات، ودفعها عن النفس.

والالف في قوله " أولم تؤمن " ألف إيجاب قال الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح (١)

أي قد آمنت لامحالة، فلم تسأل ذا، فقال: " ليطمئن قلبي " وقوله: (ليطمئن قلبي)

معناه ليزداد يقينا إلى يقينه، وهو قول الحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير، والربيع، ومجاهد، ولايجوز " ليطمئن قلبي " بالعلم بعد الشك الذي قد اضطرب به لما بيناه، ولكن يجوز أن يطلب علم البيان بعد علم الاستدلال. وقيل معناه " ليطمئن قلبي " بأن لا يقتلني الحبار.

اللغة والمعنى:

ويقال: اطمأن يطمئن اطمئنانا: إذا تواطأ والمطمئن من الارض ما انخفض وطمأن، واطمأن إليه إذا وثق به، لسكون نفسه إليه، ولتوطي حاله بالامانة عنده، وأصل الباب التوطئة. وقوله: (قال فخذو أربعة من الطير) قيل أنها الديك، والطاووس، والغراب، والحمام. أمر أن يقطعها ويخلط ريشها بدمها، ويجعل على كل جبل منهن جزءا،

" ١ " مرتخرجه ١: ١٣٢ - ٤٠٠.

(٣٢٨)

هذا قول مجاهد، وابن جريح، وابن زيد، وابن اسحاق، والطير معروف يقال: طار يطير طيرانا وأطاره اطارة وطيّره تطييرا، وتطار تطائرا وطائره مطايرة، واستطار استطارة، فأما تطير تطيرا فمن الطيرة لانه زجر الطير بما يكره، وتطائر الشئ إذا تفرق في الهواء، وطائر الانسان: عمله الذي قلده من خير أو شر، لانه كطائر الزجر في البركة أو الشؤم قال الله (تعالى) (وكل إنسان أئزمناه طائره في عنقه) (١) والمطير ضرب من الوشي لان عليه تماثيل الطيور. وفجر مستطير أي منتشر في الافق كانتشار الطيران. وغبار مستطار، كذا كلام العرب للفرق وفرس مطار وهو الحديد الفؤاد لانه طيار في جريه وأصل الباب الطيران.

وقوله (فصرهن) فمن قرأ بضم الصاد احتمل معنيين:

أحدهما - يقطعهن على قول ابن عباس، وسعيد بن جببر، والحسن، ومجاهد. قال توبة بن الحمير:

فأدنت لي الاسباب حتى بلغتها * بنهضي وقد كان ارتقائي يصورها (٢)
أي يقطعها.

والثاني - أن معناه أضممهن إليك على قول عطا وابن زيد من صاره يصوره صورا: إذا أماله. قال المعلى (٣) العبدى:

وجاءت خلعة دهن صفايا * يصور عنوقها أحوى زنيم (٤)

معناه أن هذه الغنم يعطف عنوقها هذا التيس الاحوى، ومن قال بالكسر احتمل ذلك أيضا الوجهين اللذين ذكرناهما في الضم وقال بعض بني سليم:

" ١ " سورة الاسرى آية: ١٣.

" ٢ " بنهضي أي بنهوضي.

" ٣ " هو المعلى بن جمال العبدى. في المطبوعة (المعلم) بدل (المعلى).

" ٤ " اللسان: (ظأب) (ظاب) (صور) (دهس) (خلع) (صوع) (عشق)

(زنم) وفي بعض الروايات (يصوع) بدل (يصور). الخامة - بكسر الخاء وضمها -: خيار المال. والدهس جمع دهساء وهي من المعزى السوداء المشربة حمرة لا تغلو. والاحوى من المعزى: والتيس الذي تضرب حمرة إلى السواد. والزنيم الذي له زنمتان في حلقة.

(٣٢٩)

وفرع يصير الجيدوحف كأنه * على الليت قنوان الكروم الدوالح (١)

معناه يميل الجيد. وإذا كان بمعنى قطعهن فإليك من صلة خذ (٢). وإذا كان بمعنى أملهن يجوز أن يكون إلى متعلقا به (٣). ويجوز أن يكون متعلقا بصرهن، وهو الاقوى على قول سيبويه لأنه أقوى كذا قال أبو علي الفارسي وإذا كان بمعنى أملهن إليك وقطعهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ). والصور العطف يقال صاره يصوره صورا إذا عطفه. وقال الشاعر:

وما يقبل الاحياء من حب خندف * ولكن أطراف الرياح يصورها

والصور النقطيع. وصاره يصوره. والصور: ميل لأنه انقطاع إلى الشئ بالميل إليه ومنه الصورة لتقطيعها بالتأليف على بعض الامثلة صور يصور تصويرا وتصور تصورا والصور: القطيع من بقر الوحش، لانقطاعه بالانفراد عن غيره.

والصور: النخل الصغار، والصور: قرن ينفخ فيه لاجتماع الصورة به. ويجوز للانقطاع إليه بالدعاء إليه والصور: جمع صورة. والصور. والنفحة من المسك وأصل الباب القطع. وقال الفراء: صاره يصيره بمعنى قطعة من المقلوب من صراه يصرية وأنشد:

يقولون ان الشام يقتل أهله * فمن لي إذا لم آته بخلود

تعرب آبائي فهلا صراهم * من الموت أن لم يذهبوا وجدودي (٤)

قال المبرد لا يجوز ذلك، لان سيبويه قال: إن كل واحد من اللفظين إذا تصرف في بابيه لم يكن أحدهما أصلا للاخر: نحو جذب يجذب جذبا، فهو جاذب،

" ١ " اللسان: (صير) ومعاني القرآن للفراء ١: ١٧٤. الفرع: الشعر التام. والوحف:

الاسود الحسن الكثير. الليت: العنق. قنوان جمع قنو - بكسر وسكون - عذق النخل بما فيه من الرطب واستعاره هنا لعنا قيد العنب. والدوالح جمع دالح وهو المنقل بالحمل - هنا - وأصله في ما يمشي. يقال بعير دالح.

" ٢ " في المطبوعة (خذ) غير منقطة.

" ٣ " في المطبوعة (عليه) بدل (به). " ٤ " في المطبوعة (فمن ان انه بخلود) و (يعرب) بدل (تعرب) اللسان: (عام)

- ذكر البيت الاول فقط - ومعاني القرآن للفراء ٤: ١٧٤ تعرب القوم: سكنوا البادية.

(٣٣٠)

وجذب يجذب جبذا فهو جابذ فلذلك لما تصرف صاره يصيره صيرا كما ينصرف صراه يصريه صريا، لم يكن أحدهما أصلا للاخر، ولكن المقلوب نحو قسى لان بابه على تأخير السين نحو قوس، واقواس وقويس.

المعنى:

وقوله (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) قال ابن عباس، والحسن وقتادة: إنها كانت أربعة. وقال ابن جريح، والسدي: كانت سبعة. وقال مجاهد، والضحاك كل جبل على العموم بحسب الامكان، كأنه قيل كل فرقة على جبل يمكنك التفرقة عليه. وروي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله (عليهما السلام) (١) أنها كانت عشرة. وفي رواية أخرى أنها كانت سبعة، والفرق بين الجزء والسهم أن السهم من الجملة ما انقسمت عليه، وليس كذلك الجزء نحو الاثني وهو سهم من العشرة لانها تنقسم عليه، وليس كذلك الثلاثة وهو جزء منها لانه بعض لها فان قيل: كيف أحيب ابراهيم إلى آيات الاخرة دون موسى في قوله (رب أرني أنظر إليك).

(٢) قيل عنه جوابان:

أحدهما أنه سأل أية لا يصح معها بقاء التكليف من وقوع الضرورة التي لا يعترضها الشكوك بوجه من الوجوه، و ابراهيم إنما سأل في شئ خاص يصح معه التكليف.

والقول الاخر - أن الاحوال قد تختلف فيكون الاصلح الاصبوب في بعض الاوقات الاجابة، وفي وقت آخر المنع فيما لم يتقدم فيه إذن. وفان قيل: كيف قال:

(ثم ادعهن) ودعاء الجماد قبيح؟ قلنا إنما أراد بذلك الاشارة إليها والايماء لتقبل عليه إذا أحيأها الله. فأما من قال أنه جعل على كل جبل طيرا ثم دعاها فبعيد، لان ذلك لايفيد ما طلب، لانه إنما طلب ما يعلم به كونه قادرا على إحياء الموتى، وليس في مجئ طير حي بالايماء إليه ما يدل عليه. وفي الكلام حذف، فكأنه قال: فقطعهن

" ١ " في المطبوعة زياده عنها في هذا الموضع.

" ٢ " سورة الاعراف آية: ١٤٢.

(٣٣١)

واجعل على كل جبل منهن جزأ فان الله يحييها، فاذا أحيأهن فادعهن يأتينك سعيا، فيكون الايماء إليها بعد أن صارت أحياء، لان الايماء إلى الجماد لا يحسن، فان قيل: إذا أحيأها الله كفى ذلك في باب الدلالة، فلا معنى لدعائها، لان دعاء البهائم قبيح؟ قلنا: وجه الحسن في ذلك

أنه يشير إليها، فسمي ذلك دعاء لتأتي إليه فيتحقق كونها أحياء ويكون ذلك أبهر في باب الاعجاز. وقال الطبري معنى الدعاء ههنا الاخبار عن تكوينها أحياء كما قال (كونوا قردة خاسئين) (١) قوله:

(أتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين).

اللغة:

والجبل وتد من أوتاد الارض معروف. وجبل فلان على كذا أي طبع عليه وأجبل القوم أجبالا: إذا صاروا في الجبال وتجلبوا إذا دخلوها، ورجل ذو جبلة إذا كان غليظ الجسم، لانه كالجبل في الغظ. والجبلة الامة من الناس وأجبل الحافر: إذا أفضى إلى صلابة لايمكنه الحفر فيه، ومنه أجبل الشاعر إذا صعب عليه القول، والجزء: بعض. الجزأ جزأته تجزئة إذا بعضته، والجزء الاجتزاء بالرطب عن الماء جزأت الوحشية جزوء لا كتفائها بالجزء الذي في الرطب منه والجزء نصاب السكين وأصل الباب الجزء البعض.

قوله تعالى:

(مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة؟ نة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (٢٦١) آية واحدة بلا خلاف. هذه الاية متصلة بقوله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) وما بينهما الاعتراض بالاستدعاء إلى الحق مما أمر الله بالحجج والعبر التي ذكرها من احياء

" ١ " سورة البقرة آية: ٦٥.

(٣٣٢)

الموتى لابراهيم ومن حجابة للذي ادعى أنه رب العباد إلى غير ذلك مما تقدم ذكره مع البيان عنه وقال الربيع والسدي الاية تدل على أن النفقة في سبيل الله بسبعمئة مائة ضعف لقوله " سبع سنابل " فأما غيرها فبالحسنة عشرة. وقد بينا في ما تقدم أبواب البر كلها من سبيل الله فيمكن أن يقال ذلك عام في جميع ذلك. والذي ذكرناه مروى عن أبي عبدالله (ع) واختاره الجبائي: فان قيل هل رئي في سنبلة مائة حبة حتى يضرب المثل بها؟ قيل عنه ثلاثة أجوبة: أولها - أن ذلك متصور فشبه لذلك وإن لم ير كما قال امرؤ القيس: ومسونة زرق كانياب أغوال وقال تعالى (طلعها كأنه رؤس الشياطين) (١)

الثاني - أنه قد رئي ذلك في سنبل الدخن. والثالث - أن السنبلة تنبت مائة حبة فقيل فيها على ذلك المعنى - كما يقال - في هذه الحبة حب كثير والاول هو الوجه. والوعد بامضاعفة لمن أنفق في سبيل الله - في قول ابن عباس - وقال الضحاك ولغيرهم من المطيعين. وقوله: "

انبتت " فالنبت الحشيش وكلما ينبت من الارض يقال فيه نبت نباتا. ونباتا. وأنبتته الله إنباتا:
ونبتته تنبيتا قال (تعالى): (والله أنبتكم من الارض نباتا) (٢) على تقدير فنبتم نباتا وانه لحسن
النبت. والمنبت الاصل. فلان في منبت صدق أي في أصل كريم، لانه يخرج منه كما يخرج
النبات. والنبوت: شجر الخشخاش. وأنبت الغلام: إذا راهق واستبان شعر عانته.
والسنبله على وزن فاعله لقولهم أسبل الزرع بمعنى سنبل إذا صار فيه السنبل.
والاصل فيه الاسبال، وهو ارسال الستر ونحوه. فمنه أسبل الزرع، لانه استرسل بالسنبل كما
يسترسل الستر في الاسبال فيطول، لانه صار فيه حب مستور كما يستر بالاسبال. فأما السبيل
الطريق، فلانه يرسل فيه المار به.
والمائة: عدد معروف يجمع على مئات ومئين (٣). ويقال أمأت الغنم إذا بلغت مائة. وأمأيتها
أنا أي وفيتها مائة. والمأي (٤) النميمة بين القوم

" ١ " سورة الصافات آية: ٦٥. " ٢ " سورة نوح آية: ١٧.

" ٣ " في المطبوعة (مبين وميون) " ٤ " في المطبوعة (والثاني).

(٣٣٣)

مأيت بينهم أمأي إذا دببت بينهم بالشر.
وقوله (واسع عليم) معناه واسع المقدره لايضيق عنه ما شاء من الزيادة " عليم " بمن يستحق
الزيادة - على قول ابن زيد - ويحتمل أن يكون المراد " واسع " الرحمة لا يضيق عن
مضاعفة " عليم " بما كان من النفقة.
وقوله تعالى:

(الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا اذى لهم أجرهم عند ربهم
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢٦٢) آية بلا خلاف.

الاعراب:

" الذين " رفع بالابتداء. و " ينفقون " خبره و " أموالهم " نصب لانه مفعول به.
اللغة، والمعنى:

والانفاق إخراج الشئ عن الملك. وقوله " في سبيل الله " قال ابن زيد:
هو الجهاد. وقال الجبائي: أبواب البر كلها، وهو الصحيح عندنا. والمروي عن أبي عبدالله
(ع). وقوله: " ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا " فالمن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول القائل:
أحسننت إلى فلان ونعشته وأغنيته وما أشبه ذلك مما ينغص النعمة وأصل المن: القطع ومنه
قولهم: حبل منين أي ضعيف، لانه مقطوع ومنيته أي قطعه ومنه قوله: " فلهم أجر غير ممنون

" (١) أي غير مقطوع وسمي ما يكدر النعمة والمعروف بانه منة لانه قطع الحق الذي يجب به. والمنة: النعمة العظيمة سميت بذلك لانها تجل عن قطع الحق بها لعظمتها. ومنه قوله: " يمنون

" ١ " سورة التين آية: ٦.

(٣٣٤)

ومثله " فجزاء ما قتل من النعم " (١). وإنما جعل اختصاص الايلاء بحال الغضب، لان مدة التربص جعل فسحة للمرأة في التخلص من المضارة، فاذا لم يكن ضرار لم يصح إيلاء. ومن لمن يخص بحال الغضب، حمله على عموم الايلاء، وهو الاقوى. ومتى حلف بغير الله في الايلاء، فلا تتعد يمينه، ولا يكون مؤليا.

وقال الجبائي: إذا حلف بما يلزمه فيه عزم، نحو الصدقة، أو الطلاق، أو العناق، فهو إيلاء، وإلا، فهو لغو، نحو قوله: وحياتك، وما أشبهه. وقال الشافعي:

لايلاء إلا بالله، كما قلناه. ومتى حلف ألا يجامع أقل من أربعة أشهر، لا يكون مؤليا، لان الايلاء على أربعة أشهر، أو أكثر. ومتى حلف ألا يقر بها، وهي مرضعة خوفا من أن تحبل، فيضر ذلك بولدها، لا يلزمه حكم الايلاء، وهو المروي عن علي (ع)، وبه قال الحسن، وابن شهاب. ويجوز أن يكون في الآية تقديم، وتأخير، ويكون تقديره " للذين يؤلون " " تربص أربعة أشهر " " من نسائهم ".

ويجوز أن يكون معناه: " للذين يؤلون من " أجل " نسائهم تربص أربعة أشهر " كما تقول: غضبت لفلان: أي من أجل فلان. وإذا مضت أربعة أشهر لم تبين منه إلا بطلاق، ويلزمه الحاكم، إما الرجوع والكفارة، وإما الطلاق، فان امتنع حبسه حتى يفئ، أو يطلق. وفيه خلاف. قوله تعالى:

وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم (٢٢٧) آية واحدة.

المعنى:

عزيمة الطلاق في الحكم - عندنا - أن يعزم، ثم يتلفظ بالطلاق، ومتى لم يتلفظ بالطلاق بعد مضي أربعة أشهر، فان المرأة لا تبين منه إلا أن تستدعي، فان استدعت، ضرب الحاكم مدة أربعة أشهر ثم توقف بعد أربعة أشهر، فيقال له: فيئ

" ١ " سورة المائدة آية: ٩٨.

(٣٣٥)

القول المعروف معناه ما كان حسنا جميلا لاوجه فيه من وجوه القبح، وهو أن تقول للسائل قولا معروفا عليه حسنا من غير صدقة تعطيها إياه. وقال الحسن: وهو قول حسن لاعتراف العقل به. وتقبله إياه دون إنكاره له. والمغفرة ههنا قيل في معناها ثلاثة أقوال.

أولها - ستر الحلة على السائل. الثاني - قال الحسن: المغفرة له بالعفو عن ظلمه. الثالث - قال الجبائي: معناه أي سلامته في المعصية لان حالها كحال المغفرة في الامان من العقوبة. اللغة:

وقوله. " الله غني حلیم " فالغني هو الحي الذي ليس بمحتاج، ومعناه ههنا غني عن كل شئ من صدق و غيرها. وإنما دعاكم إليها لينفعكم بها. وقال الرماني: الغني الواسع الملك فأنه غني لانه مالك لجميع الاشياء لانه قادر عليها لايتعذر عليه شئ منها. والغنى ضد الحاجة. تقول: غني يغني غنى وأغناه اغتناء واستغنى استغناء وغنى غناء وتغنى تغنيا. والغناء ممدود: الصوت الحسن.

ويقال فيه أغنية وأغاني والغنى: الكفاية للغنى به عن غيره. والمغنى المنزل غني بالدار: إذا أقام بها ومنه قوله " كان لم تغن بالامس " (١) والغانية: الشابة المتزوجة لغناها بزوجها عن غيره. وهي أيضا العفيفة لغناها بعفتها. والغنية الاستغناء. والحلم: الامهال بتأخير العقوبة للانابة، ولو وقع موقع حلیم حميد أو حلیم، لما حسن لانه تعالى لما نهاهم أن يتبعوا الصدقة بالمن، بين أنهم إن خالفوا ذلك فهو غني عن طاعتهم حلیم. في أن لايعاجلهم بالعقوبة. قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل

" ١ " سورة يونس آية ٢٤.

(٣٣٦)

صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لايقدرن على شئ مما كسبوا والله لايهدي القوم الكافرين) (٢٦٤) آية بلا خلاف. المعنى:

ضرب الله (تعالى) هذه الآية مثلا لعمل المنافق والمنان جميعا، فانهما إذا فعلا فعلا لغير وجه الله أو قرنا الانفاق بالمن والاذى، فانهما لا يستحقان عليه ثوابا. وشبه ذلك بالصفة الذي أزال

المطر ما عليه من التراب، فانه لا يقدر أحد على رد ذلك التراب عليه فكذلك إذا رفع المنان صدقته وقرن بها المن فقد أوقعها على وجه لا طريق له إلى استداركه، وتلافيه لوقوعه على الوجه الذي لا يستحق عليه الثواب فان وجوه الافعال تابعة للحدوث، فاذا فاتت فلا طريق إلى تلافيتها وليس فيها ما يدل على أن الثواب الثابت المستقر يزول بالمن فيما بعد ولا بالرياء الذي يحصل فميا يتجدد فليس في الآية ما يدل على ما قالوه.

وقوله: " رثاء الناس " إنما جمع بين همزتين ولم يجمع في نوائب جمع ذؤابة، لوقوع الالف في الجمع بين الهمزتين، فلم يجز ذؤائب (١)، فأما الواحد فاجتمع لخفته وهما أيضا مفتوحان فهو أخف لها.

وقوله: (كالذي ينفق ما له رثاء الناس) يدخل فيه المؤمن والكافر إذا أخرجنا الانفاق للرياء. وقوله: " ولا يؤمن بالله واليوم الآخر " صفة للكافر خاصة " مثله كمثل صفوان " يعني الحجارة الصلبة " عليه تراب ".

اللغة:

فالتراب والتراب واحد يقال ترب الرجل إذا افتقر، لانه لصق بالتراب للفقير ومنه قوله: " مسكينا ذا متربة " (٢) لانه قعد على التراب للفقير وأترب الرجل إذا استغنى لانه كثر ماله حتى صار كالتراب. والتراب الذي ينشأ معك. وقيل فيه.

" ١ " في المطبوعة (فلم بحر ذؤائب) والصحيح ما ذكرنا.

" ٢ " سورة البلد آية: ١٦.

(٣٣٧)

أقوال: منها للعبهم بالتراب إذ هم صبيان أقران. ومنها - لانهم خرجوا إلى عفر التراب في وقت من الزمان. ومنها - لانهم على الاشتباه كالتراب. وقوله:

" عربا أتربا " (١) أي أشباه أمثال. الترائب (٢) عظام الصدر واحدها تريبة.

قيل لانه متشابهة كالانراب أو كنشابه التراب. ومنه قوله: " من بين الصلب والترائب " (٣). وقوله: (فأصابه وابل) فالوابل: المطر الشديد الوقع، يقال وبلت السماء تبل وبللا: إذا اشتد وقع المطر.

وقوله: (فأخذناه أخذًا وبيلا) (٤) أي شديدا. ولو ببيل: المرعى الوخيم. والوابال: سوء العاقبة. والموبل: المغلظ القلب والوبيلة: الحزمة من الحطب لانها مشدودة. والوبيل: العصا الغليظة. والوابلة:

طرد العضد في الكتف. وأصل الباب الشدة. والصفوان واحده صفوانة مثل مرجان ومرجانة وسعدان وسعدانه وقال الكسائي: جمع صفوان صفى. وأنكر ذلك المبرد وقال: إنما هو صفاء وصفى مثل عصا وعصي وقفا وقي وكذلك ذكران وصفوان - بكسر الصاد - وإنما هو جمع صفا نحو خرب وخربان، وورل * وورلان. وقال معنى صفا وصفوان واحد. وقوله: (فتركه صلدا) فالصلد: الحجر الاملس الصلب قال الشاعر:
ولست بجلب جلب ريح وقره * ولا بصفا صلد عن الخير معزل (٥) وقال رؤبة.

" ١ " سورة الواقعة آية: ٣٧.

" ٢ " في المطبوعة (التربية) * ورل: دابة على خلفه الضب الا أنه أعظم منه. والجمع اورال وورلان وارئل.

" ٣ " سورة الطارق آية: ٧. " ٤ " سورة المزمل آية: ١٦.

" ٥ " البيت لتأبط شرا. اللسان (جلب) وروايته (جلب ليل) بدل (جلب ريح) وفي اللسان (عزل) كما هنا. الجلب بكسر الجيم أوضمها مع سكون اللام - : السحاب المعترض تراه كأنه جبل. ويقال هو السحاب الرقيق. والقره - بكسر القاف - والقر - بضم القاف - البرد الشديد.

(٣٣٨)

لما رأنتي خلق المموه * براق أصلا الجبين الاجله (١)

والصلد الذي لا ينبت شيئا من الارض لانه كالحجر الصلد، والصلد: البخيل وصد الزند صلودا إذا لم يور ناراً وفرس صلود: إذا أبطأ عرقه. وقدر صلود إذا أبطأ غليها. وأصل الباب ملاسة في صلابة ويقال يصلد يصلدا فهو صلد.

وقوله: (والله لا يهدي القوم الكافرين) معناه أنه لا يهديهم إلى طريق الجنة على وجه الانابة لهم ويحتمل لا يهديهم بمعنى لا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال المهتدين من المؤمنين، لان أعمالهم لا يقع على وجه بها المدح.

قوله تعالى:

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) (٢٦٥) آية.

القراءة:

قرأ عاصم وابن عامر بربوة - بفتح الراء - الباؤون بضمها. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع (أكلها) باسكان الكاف الباؤون بالنتقيل.

المعنى:

وهذا مثل ضربيه الله لمن أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله أي طلبا لرضاه. وقوله:

" وتثبيتنا من أنفسهم " بقوة اليقين والبصيرة في الدين في قول ابن زيد، والسدي، وأبي صالح والشعبي. الثاني - قال الحسن ومجاهد: معناه أنهم يثبتون أين يضعون صدقاتهم. والثالث - قال أبو علي: معناه توطينا لنفوسهم على الثبوت على طاعة الله واعتراض على قول مجاهد بأنه لم يقل تثبيتنا. وهذا ليس بشئ لأنه لا يجوز أن يقول القائل يثبتوا أنفسهم تثبيتا إذا كانوا كذلك فهم لا يثبتون أين يضعون

" ١ " ديوانه: ١٦٥ من قصيدة مرا الاستشهاد ببعض أبياتها في ١: ٢٨ - ٣٠٤

(٣٣٩)

الصدقات. وقوله: " كمثل جنة بربوة " إنما خصت بالربوة لأنها إذا كانت بربوة فتثبتها أحسن وربيعها أكثر كما قال الاعشى:
ما روضة من رياض الحزن معشبة * خضراء جاد عليها مسبل هطل (١)
فخص بها الحزن لها بيناه.
اللغة:

والربو: الزيادة يقال ربا الشئ يربو إذا زاد. وأصابه ربو: إذا أصابه نفس في جوفه، لزيادة النفس على عادته. والربوة: العلو من الارض لزيادته على غيره بارتفاعه. والربا في المال: المعاملة على أن يأخذ أكثر مما يعطي للزيادة على ما يفرض يقال ربا المال يربوا ربا وأربي صاحبه فهو مرب. وأصل الباب الزيادة: وفي الربوة ثلاث لغات - فتح الراء وضمها وكسرها - . وفيها أربع لغات آخر رباوة ورباوة ورباوة وربا. فتلك سبع لغات.
المعنى واللغة:

وقال ابن عباس، والضحاك، والحسن، ومجاهد، والسدي، والربيع:
الربوة ولرابية المرتفع من الارض " فأنت أكلها " فالفرق بين الاكل والاكل ان الاكل بالفتح المصدر والاكل بالضم الطعام الذي يؤكل " ضعفين " يعني مثلين في قول الزجاج لان ضعف الشئ مثله زائدا عليه وضعفاه مثلاه زائدين عليه.

وقال قوم: ضعف الشئ مثلاه. وقوله " فطل " قال الحسن والضحاك والربيع وقتادة هو اللين من المطر. وإنما ذكر الطل ههنا لتشبيهه أضعاف النفقة به كثرت أو قلت: إذ كان خيرها لا يختلف على حال في قول الحسن وقتادة. وإنما قيل لما مضى (فان لم يصبها وابل فطل) لان فيه إضمار (كان) كأنه قيل: فان يكن لم يصبها وابل، فطل. ومثله قد أعتقت عبيد فان لم أعتق اثنين فواحدا بقيمتها.

" ١ " ديوانه ٥٧ رقم القصيدة ٦. الرياض جمع روض وهي البستان. والحزن ضد المنخفض من الارض ورياض الحزن أطيب من رياض المنخفضات لان الريح تهب عليها فتهبج رانحتها. مسبل أي منزل؟.

(٣٤٠)

والمعنى ان أكن لم أعتق قال الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة * ولم تجدي من أن تقري بها بدا (١)
كأنه قال: أكن لم تلدني لئيمة. والطل المطر الصغار القطر يقال: أطلت السماء فهي مطلة. وروضة طلة ندية. والطل: إيطال الذم بأن لا يثار بصاحبه. طل دمه فهو مطلول لانه بمنزلة ما جاء عليه الطل، وأذهبه كأنه قيل غسله. والطل والطلل ما شخص من الدار، لانه كموضع الندى بالطل لغمارة الناس له خلاف المستوى، والقفر، لان الخصب حيث تكون الابنية. وصار الطلل اسما لكل شخص. والاطلال: الاشراف على الشئ والطل: الشحم، ما بالناقة طل أي ما بها طرق. وطللة الرجل امرأته. وأصل الباب الطل المطر.
وقوله: (والله بما تعملون بصير) معناه عالم بأفعالكم، فيجازيكم بحسنها وفي ذلك ترغيب وترهيب.

قوله تعالى:

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فاصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون) (٢٦٦) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى قوله: (أيود أحدكم أن تكون له جنة) التقدير (على) مثل ضربه الله في الحسرة بسلب النعمة فقيل هو مثل للمرائي في النفقة، لانه ينتفع بها عاجلا وتتقطع عنه آجلا في أحوج ما يكون إليه. هذا قول السدي وقال مجاهد: هو مثل للمفرط في طاعة الله يملأ الدنيا يحصل في الاخرة على الحسرة العظمى. وقال ابن عباس: هو مثل للذي يختم عمله بفساد.

" ١ " قائله زائدة بن صعصعة الفقعسي وقد مر في ١: ٢٨٩ - ٣٥٢.

(٣٤١)

اللغة:

وقوله. (أيود أحدكم أن تكون له جنة) فأتى بمستقبل ثم عطف عليه بماض في قوله " وأصابه الكبير " قال الفراء يجوز ذلك في يود لأنها تلتقي مرة ب (أن) ومرة ب (لو) فجاز أن يقدر أحدهما مكان الأخرى، لاتفاق المعنى، فكأنه قال أيود أحدكم لو كانت له جنة من نخيل وأعنان وأصابه الكبير. وقال الرماني وعندي أنه قد دل بأن على الاستقبال، وبتضمين الكلام معنى لو على التمني، كأنه قيل أوجب ذلك متمنيا له. والتمني يقع على الماضي والمستقبل ألا ترى أنه يصح أن يتمنى أن كان له ولد. ويصح أن يتمنى أن يكون له ولد. والمحبة لاتقع إلا على المستقبل، لأنه لايجوز أن يقال أحب أن كان لي ولد ويجوز أحب أن يكون لي ولد. والفرق بين المودة والمحبة أن المودة قد تكون بمعنى التمني نحو قولك: أود لو قدم زيد بمعنى أتمنى لو قدم، ولا يجوز أحب لو قدم. وقوله أن تكون له جنة، فالجنة: البستان الكثيرة الشجر لان الشجر يجنه بكثرتة فيه.

والنخل معروف. وقيل: إنه مأخوذ من نخل المنخل، لاستخلافه كاستخلاص اللباب بالنخل. والنخل والنخيل جمع نخلة. وهي شجرة التمر. وقوله: (كأنهم أعجاز نخل خاوية (١) وقوله (كأنهم أعجاز نخل منقعر) (٢) فذكر على اللفظ وأنت على المعنى. والنخل نخل الدقيق نخلته نخلا. ومنه المنخل، لأنه آلة النخل والنخالة معروفة والنخل نخل السماء بالثلج أو ما صغر من القطر والانتخال الاختيار والتنخل (٣): التخير وأصل الباب النخل: الدقيق. والعنب: ثمر الكرم معروف ورجل عانب وعنب. والعناب معروف. والعناب ما تقطعه الخائنه مشبه بالعنب في التعلق. ورجل عناب: عظيم الانف مشبه بعنقود العنب في التعلق والعظم. وأصل الباب العنب. وقوله: " من تحتها الانهار " وتحت نقيض فوق وفي الحديث

" ١ " سورة الحاقة آية: ٧. " ٢ " سورة القمر آية ٢٠.

" ٣ " في المطبوعة: (التنخر).

(٣٤٢)

" لاتقوم الساعة حتى يظهر التحوت " أي الذين كانوا تحت أقدام الناس لايشعر بهم ذلا. والانهار جمع نهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء قال الشاعر:
ملكنت بها كفي فأنهزت فتقها * يرى قائم من دونها ماوراءها (١)
معناه وسعت فتقها كالنهر.

وقوله: (فيها من كل الثمرات) فالثمرة: طعام الناس من الشجر. وقوله:
(وأصابه الكبير) فالإصابة الوقوع على المقصود. والمراد ههنا: لحقه الكبير، والكبير حال زائدة على مقدار آخر. والمراد ههنا: الشيخوخة. والفرق بين الكبير والكثير أن الكثير مضمن بعدد

وليس كذلك الكبير نحو دار واحدة كبيرة. ولا يجوز كثيرة. والذرية: الولد من الناس. والضعفاء: جمع ضعيف، والضعف نقصان القوة. وقوله: (فأصابها إحصار فيه نار فاحترقت) فالعصر عصر الثوب ونحوه من كل شئ رطب عصرته أعصره عصرا فهو معصور، وعصير. واعتصرته اعتصارا، وتعصر تعصرا، وعتصره تعصيرا. وانعصر انعصارا. والعصر الدهر.

وفي التنزيل " والعصر إن الانسان لفي خسر " (٢) والعصر العشي. ومنه صلاة العصر لانها تعصر أي تؤخر كما يؤخر الشئ بالتعصر فيه. والعصر النجاة من الحذب ومنه قوله تعالى: (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) (٣) لانه كعصر الثوب في الخروج من حال إلى حال. والعصر: العطية. والاعتصار: الالتجاء. والمعتصر:

الملجأ. والاعصار: غبار يلتف بين السماء والارض كالنفث في العصور. والمعصر فوق الكاعب. ولمعصرات السحاب. ومنه قوله (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) (٤) والعصرة: الدينة يقال هو لاموالنا عصرة: أي دينة. وأصل الباب: عصر الثوب. والاحراق إحراق النار أحرقته بالنار فاحترق احتراقا وحرقته تحريقا وتحرق تحرقا والحرق حك البعير أحد نابيه بالآخر يكون وعيدا وتهديدا

" ١ " انظر ١: ٢٦، ٢: ٥٧. " ٢ " سورة العصر آية: ١ - ٢.

" ٣ " سورة يوسف آية: ٤٩. " ٤ " سورة النبأ آية: ١٤.

(٣٤٣)

من فحول الابل، لالتهابه غضبا كالتهب الاحراق. والحرق: حك الحديد بالمبرد حرقت الحديدة أحرقها حرقا: إذا بردتها للتفريق بالاحراق. والحرق: قطع عصبه في الورك لاتلتئم كما لا يرجع ما أحرق، يقال حرق الورك فهو محروق والحرق:

الثوب يقع فيه الحرق من دق القصار لانه كالأحراق بالنار في أنه لايرجع إلى الحال. ومنه ريش حرق لانه كالمنقطع بالاحراق. والحرق: ما اقتبست به النار للاحراق. والحرقة ما يجده من حدة لانه كالأحراق بالنار. والحرقات: سفن يتخذ منها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر وأصل الباب الاحراق. والفكر:

جولان القلب بالخواطر يقال: أفكر أفكارا وفكر تفكيرا وتفكر تفكرا ورجل فكير كثير الفكر. وقوله: (فاحترقت) فالاحتراق: افتراق الاجزاء بالنار والبيان: هو الدلالة على ما بيناه - في ما مضى - وقال الرماني: البيان اظهار المعنى بما يتميز به من غيره على جهة الصواب.

ولا يقال للحن من الكلام بيان وإن فهم به المراد، لان البيان على الاطلاق ممدوح. والحن عيب لكن يقال قد أبان عن مراده مجازا.
قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تتفقون ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد) (٢٦٧) آية.
المعنى:

هذا خطاب للمؤمنين دون سائر الناس وقال الحسن، وعلقمة: كل شئ في القرآن " يا أيها الذين آمنوا " فانما أنزل بالمدينة وكلما فيه " يا أيها الناس " أنزل بمكة وقوله: (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) يدخل فيه الزكاة المفروضة وغيرها من أنواع النفقة. وقال عبيدة السلماني، والحسن: هي مختصة بالزكاة.

وقال الجبائي: هي في المتطوع، لان الفرض من الصدقة له مقدار من القيمة إن

(٣٤٤)

قصر كان ديننا عليه إلى أن يؤديه على التمام. فأما إذا كان مال المزكي كله رديا فجاز له أن يعطي منه ولا يدخل في ما نهى عنه، لان تقدير ما جعله الله للفقير في مال الغني تقدير حصة الشربك، فليس لاحد الشريكين أن يأخذ الجيد ويعطي صاحبه الردي لما فيه من الوكس فاذا استوى في الرداوة جاز له إعطاء الردي، لانه حينئذ لم يبخسه تحقا هو له كما يبخسه في الاول وقوله: (ولا تيمموا الخبيث منه تتفقون) روي عن علي (ع)، والبراء بن عازب، والحسن، وقتادة: أنها نزلت لان بعضهم كان يأتي بالحشف فيدخله في تمر الصدقة فنزلت فيه الآية. قال ابن زيد: الخبيث الحرام. والاول أقوى، لانه قال: (أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الارض) ثم قال: " ولا تيمموا الخبيث " يعني من الذي كسبتم إذ أخرج الله من الارض. والحرام وإن كان خبيثا فليس من ذلك غير أنه يمكن أن يراد به ذلك لانه لا ينافي السبب. وروي عن أبي عبدالله (ع) أنها نزلت في أقوام لهم أموال من ربا الجاهلية كانوا يتصدقون منها، فنهى الله عن ذلك وأمر بالصدقة من الحلال. ويقوي الوجه الاول قوله: (ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه) والاعراض لا يكون في شئ ردي متسامح في أخذه دون ما هو حرام. وفي الفقهاء من استدل بهذه الآية على أن الرقبة الكافرة لاتجزى في الكفارة وضعفه قوم وقالوا: العتق ليس بانفاق. والاولى أن يكون ذلك صحيحا لان الانفاق يقع على كل ما يخرج لوجه الله عتقا كان أو غيره. اللغة والتيمم: التعمد تيممت الشئ تيمما.

ومنه قوله: (فتيمموا صعيدا طيبا) (١) أي تعمدوا، وقال خفاف: فعمدا على عين تيممت مالكا

وقال آخر: يممته الرمح شزرا ثم قلت له * هذي المروءة لالعب الزحاليق (٣)

" ١ " سورة النساء آية: ٤٢، وسورة المائدة آية: ٧.

" ٢ " اللسان (عمد) وصدرة:

ان تك خيلي قد أصيب صميمها " ٣ " قائله: عامر بن مالك. والزحاليق لغة في الزحاليق واحدها زحلوقة وهي أثر تزج الصبيان من فوق طين أورمل.

(٣٤٥)

واليم: لجة البحر، لانه يتعمد به البعيد من الارض، ويم الرجل: إذا غرق في البحر، ويم الساحل إذا طما عليه يم البحر فغلب عليه. واليمامة، واليمام: الحمام الطورانية تتعمد إلى أو كارها بحسن هدايتها. وقال الخليل: أمته قصدت أمامه ويممته: تعمدته من أي جهة كان. وقال غيره: هما سواء. والخبيث: الردئ من كل شيء، خبث خبثا وتخبث تخبثا وتخابث تخابثا وخبثه تخبثا. والخبثة: الريبة، وخبث الفضة ما نقاه الكير لانه ينفي الردئ وأصله الرادة. الاعراب واللغة:

وقوله: (ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه) إنما فتحت (أن) في قول الفراء من أجل (إلا) إذ وقعت عليها. وهي في موضع خفض في الاصل عنده (إن) لان الكلام في معنى الجزاء وهو إن أغمضتم بعض الاغماض أخذتموه، ومثله (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) (١) وأنكر ذلك أبو العباس وقال: (أن)

هذه التي بمعنى المصدر مفتوحة على كل حال وذلك نحو أن تأتيني خير لك. وإنما المعنى ولستم بأخذيهِ إلا لاغماضكم فيه. والاغماض في البيع الحط من الثمن لعيب فيه، أغمض إغماضا وذلك لاخفاض بعض الثمن بالحط له. والغموض: الخفاء.

غمض يغمض غموضا فهو غمامض. والتغميض إطباق الجفن وغمض العين. والغمض المطمئن من الارض حتى يغيب من فيه وأصل الباب: الخفاء. المعنى:

وقيل في معنى (إلا أن تغمضوا فيه) قولان قال البراء بن عازب إلا أن تتساهلوا فيه. وقال بان عباس، والحسن وقتادة إلا أن تحطوا من الثمن فيه.

وقال الزجاج: ولستم بأخذيهِ إلا بوكس فكيف تعطونه في الصدقة قال الطرماح ابن حكيم:

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٢٩.

(٣٤٦)

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيم * رجال يرضون بالاغماض (١)
أي بالوكس قوله: (واعلموا ان الله غني حميد) ههنا معناه أنه غني عن صدقاتكم وإنما دعاكم إليها لنفعكم، فأما " حميد " ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها - أنه مستحق للحمد على نعمه. الثاني - موجب للحمد على طاعته.

والثالث - قال الحسن: معناه مستحدا إلى خلقه بما يعطون من النعم لعباده أي مبتدع لهم إلى ما يوجب لهم الحمد. وحميد في هذا الموضع أليق من حليم كما أن حليما أليق بالاية المتقدمة من حميد، لما بيناه وإنما قلنا ذلك لأنه لما أمرهم بالانفاق من طيب ماكسبوه بين أنه غني عن ذلك وأنه يحمدهم على ما يفعلونه إذا فعلوه على ما أمرهم به ومعناه أنه يجازيهم عليه.

قوله تعالى:

(الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم)
(٢٦٨) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

معنى الاية الوعد من الشيطان أنكم من أخرجتم من أموالكم الصدقة وأديتم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم افتقرتم ويأمركم أيضا بالفحشاء من المعاصي وترك طاعته. والله (تعالى) يعد بالمغفرة منه والستر عليكم، والصفح عن العقوبة " وفضلا " يعني ويعدكم أن يخلف عليكم خيرا من صدقتكم ويتفضل عليكم ويسبغ عليكم في أرزاقكم قال ابن عباس: اثنان من الله، واثنان من الشيطان.

فاللذان من الشيطان الوعد بالفقر والامر بالفحشاء. والذان من الله المغفرة على المعاصي والفضل في الرزق.

" ١ " ديوانه: ٨٦ من قصيدة مجد بها قومه، وقبله:

انا معشر شمائلنا الصبر اذا الخوف مال بالاخفص نصر للدليل في؟ الحي مراتيب للتأى المنهاض.
من برم جمعهم يجدهم مراجيح حماة للعزل الاحرض

(٣٤٧)

اللغة والمعنى:

والفقر: الحاجة وهو ضد الغنى يقال: أفقره الله إفقارا وافتقر افتقارا وتفقر تفاقرا، لان الفقر بمنزلة كسر الفقار في تعذر المراد. والفقار: عظام منتظمة في النخاع تسمى خرز الظهر

واحدها فقرة. والافقار: إعارة الدابة لتركب ثم ترد. والافقار: دنو الصيد. والفاقرة الداهية، لانها تكسر الفقار. ومنه قوله:

" تظن أن يفعل بها فاقرة " (١) وأصل الباب الفقار: خرز الظهر. تقول وعدته الخير، ووعده بالخير والأصل فيه تعديته بغير حرف الإضافة إلا أنه كثر استعماله في التعدي بحرف الإضافة حتى صار أصلا فيه لكثرتة. وأمرته بالخير أكثر في الكلام وإنما يجوز أمرته الخير في الشعر وقوله: (والله واسع عليم) حكى البلخي أنه بغير واو في مصاحف أهل الشام ولم يقرأ به أحد فان صح فهو دلالة على نقصان الحروف من كثير من القرآن على ما اختلفوا فيه. والفرق بين الوعد والوعيد أن الوعيد في الشر خاصة، والوعد بالتقييد للخير والشر معا غير أنه إذا أطلق لم يكن إلا في الخير، وكذلك إذا أبهم التقييد كقولك وعدته بأشياء لانه بمنزلة المطلق. وحد الوعد: هو الخبر بفعل الخير في المطلق. والوعد: هو الخبر بفعل الشر. والامر هو قول القائل لمن هو دونه: افعل، مع إرادة المأمور به، فان الضم إليه الزجر عن الإخلال به كان مقتضيا للإيجاب. وقال ابن مسعود للشيطان لمة وللملك لمة.

ومثله روي عن أبي عبدالله (ع) فلمة الشيطان وعده بالفقر وأمره بالفاحشة ولمة الملك أمره بالانفاق ونهيه عن المعاصي. وقال أبو مسلم والازهري الفحشاء البخل والفاحش البخيل قال طرفة:

عقيلة مال الفاحش المتشدد (٢)

" ١ " سورة القيامة آية: ٢٥. " ٢ " هو طرفة بن العبد الكري معلقته، واللسان: (فحش) وصدرة:
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى

(٣٤٨)

وقال الحسين بن علي المغربي والذي يقوي قوله ما أنشده أبو حيرة الراحل من طي:

قد أخذ المجد كما أراد * ليس بفحاش يضمن الزادا

وقال الرماني: والله ما قالاه بعيد. والفحشاء المعاصي في أغلب الاستعمال ومعنى البيت الذي أنشده أن الفاحش هو سئ الرد بسؤاله وضيافته وذلك من البخل لامحالة قال كعب:

أخي ما أخي لافاحش عند بيته * ولا برم عند اللقاء هبوب (١)

فتلخيص معنى الآية أن الشيطان يحملكم على أن تؤدوا في الصدقة ردى المال يخوفكم الفقر باعطاء الجيد - والفقر والفقر لغتان - ويعدكم الفقر: معناه بالفقر فحذف الباء وعدى الفعل فنصب قال:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به * فقد تركتك ذا مال وذا نشب

وقوله: (والله واسع عليم) معناه واسع يعطي من سعة مقدراته " عليم " حيث يضع ذلك ويعلم الغيب والشهادة.

قوله تعالى:

(يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الاباب (٢٦٩) آية.

القراءة والمعنى:

قرأ يعقوب " ومن يؤت " - بكسر التاء - الباقون بالفتح قيل في معنى الحكمة في الآية وجوه قال ابن عباس وابن مسعود: هو علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله. وقال ابن

" ١ " هكذا في المطبوعة. وفي أمالي القالي ٢: ١٤٢: ولا ورع عند اللقاء هبوب وفي مجمع البيان: عند اللقاب هبوب.

(٣٤٩)

زيد: هو علم الدين. وقال السدي: هو النبوة. وقال مجاهد الاصابة. وقال ابراهيم النخعي: الفهم. قال الربيع: الخشية. وقال قوم: هو العلم الذي تعظم منفعته وتحل فائدته وهو جميع ما قالوه. وقال قتادة: والضحاك، وفي رواية عن مجاهد:

هو القرآن، والفقة. وهو المروي عن أبي عبدالله (ع) وإنما قيل للعلم: حكمة لانه يمتنع به من القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن، والزجر عن القبيح. وقال الجبائي: هو ما آتاه الله أنبياء وأمهم من كتبه وآياته ودلالاته التي يدلهم بها على معرفتهم به وبدينه وذلك تفضل منه يؤتاه من يشاء. وقوله: (وما يذكر إلا أولوا الاباب) وكل مكلف ذو لب لانه إنما يطلق عليهم هذه الصفة لما فيها من المدحة فلذلك عقد التذکر بهم وهم الذين يستعملون ما توجبه عقولهم من طاعة الله في كل ما أمر به ودعا إليه و " يؤت " جزم ب (من) والجواب " فقد أوتي خيرا كثيرا " ومن قرأ يؤت بكسر التاء على ما روي عن يعقوب ذهب إلى أن معناه ومن يؤتته الحكمة، وإنما حذف الهاء في الصلة ويكون (من) على هذا المعنى " الذي " لامعنى الجزاء.

قوله تعالى:

(وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار) (٢٧٠) آية بلا خلاف.

(ما) في قوله وما أنفقتم بمعنى الذي وما بعده صلتها والعائد إليها الهاء في قوله: " فان الله يعلمه " لانها لايجوز أن تعود على النفقة، لانها مؤنثة، ولا على النفقة والنذر، لان ذلك يوجب التثنية. والمراد بالانفاق ههنا ما يخرج في طاعة الله: واجباتها ومنذوباتها. وقوله: (أو نذرت من نذر) فالنذر هو عقد الشيء على النفس فعل شيء من البر بشرط، ولاينعقد ذلك إلا بقوله الله علي كذا، ولا يثبت بغير هذا اللفظ. وأصل النذر الخوف لانه يعقد على نفسه خوف التقصير في الامر ومنه

(٣٥٠)

نذر الدم: العقد على سفكه للخوف من مضرة صاحبه قال الشاعر:
هم يندرون دمي وأنذر إن لقيت بأن أشدا ومنه الانذار الاعلام بموقع العدو، للخوف منه ليتقى يقال نذرت النذر أنذره نذرا وجمعه نذور وقوله: (فان الله يعلمه) معناه يجازي عليه لانه عالم به، فدل بذكر العلم على تحقيق الجزاء ايجازا للكلام وقوله (وما للظالمين من أنصار) وعيد للظالمين وهم الفاعلون لضرر يستحق عليه الذم. والمراد بالظالمين ههنا الذين كانوا انفاقهم على غير الوجه المأذون لهم فيه من ربا أو ضرار أو شقاق أو من مال مغصوب أو مأخوذ من غير وجه. وسمي ذلك ظلما، لانه وضع فيه في غير موضعه، والانصار جمع نصير مثل شريف وأشرف، وباب فعيل يجمع على فعلاء مثل عليم وعلماء وكريم وكرماء، وقد ورد فيه فعال مثل نصير ونصار.

والنصير: هو المعين على العدو، فعلى هذا لا تدل الآية على أنه لاشفاعة لمرتكبي الكبائر لان أحدا لايقول أن لهم معيننا على عدوهم بل إنما نقول لهم من يسأل في بابهم على وجه التضرع ولا يسمى ذلك نصر على حال.

قوله تعالى:

إن تبدوا الصدقات فنعمنا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعلمونه خبير)
(١٧١) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ ابن عامر وحمزة الكسائي وخلف فنعمنا - بفتح النون وكسر العين - وقرأ ابن كثير، وورش، ويعقوب، وحفص، والاعشى والبرجمي - بكسر النون والعين - وقرأ أهل المدينة - إلا وورشا - وأبو عمر، وأبو بكر - إلا الاعشى - والبرجمي - بكسر النون وسكون العين - وكذلك في النساء في قوله: " نعمنا يعظكم

(٣٥١)

به " وقرأ ابن عامر وحفص " ويكفر " بالياء والرفع. وقرأ أهل المدينة، وحمزة والكسائي وخلف عن أبي بكر بالنون والجزم. الباقر بالنون والرفع.
المعنى الاعراب:

قال أبو علي الفارسي: المعنى في قوله (إن تبدوا الصدقات فنعمنا هي) إن في نعم ضمير الفاعل و " ما " في موضع نصب وهي تفسير الفاعل المضمرة قبل الذكر والتقدير نعم شيئاً ابدواها. فالابداء هو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف وقيم المضاف إليه الذي هو ضمير الصدقات مقامه، فالخصوص بالمدح هو الابداء بالصدقات لان الصدقات تدل على ذلك قوله: (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) أي الاخفاء خير لكم. فكما أن هو ضمير الاخفاء وليس بالصدقات كذلك ينبغي أن يكون ضمير الابداء مراداً وإنما كان الاخفاء - والله أعلم - خيراً لانه أبعد من أن يشوب الصدقة مراعاة للناس وتصنع لهم فيخلص الله (تعالى) ولم يكن المسلمون إذ ذاك ممن يسبق إليهم ظنه في منع واجب. والفرق بين الصدقة والزكاة أن الزكاة لا تكون إلا فرضاً والصدقات قد تكون فرضاً، وقد تكون نفلاً. واختلفوا في الصدقة التي إخفاؤها أفضل. وقال ابن عباس، وسفيان، واختاره الجبائي: انها صدقة التطوع، لانه أبعد من الرياء فأما الصدقة الواجبة فإظهارها عندهم أفضل لانه أبعد من التهمة. وقال يزيد بن أبي حبيب: الصدقات على أهل الكتاب إظهارها أولى، وهي على المسلمين إخفاؤها أفضل. وقال الحسن، وقتادة: الاخفاء في كل صدقة من زكاة وغيرها أفضل، وهو الأقوى لانه عموم الآية وعليه تدل اخبارنا وقد روي عن أبي عبدالله (ع) أن الاخفاء في النوافل أفضل. وقال أبو القاسم الابداء خير. والمفسرون على خلافه.

(٣٥٢)

اللغة:

والاخفاء: هو الستر تقول أخفيت الشيء أخفيه إخفاء: إذ استرته: والخفي الاظهار خفيته أخفيه خفياً إذا أظهرته لانه إظهار يخفي قال الشاعر:
فان تدفونا الداء لاتخفه * وأن تبعثوا الحرب لانقعد (١)
والخفاء: الغطاء والخوافي من ريش الطائر ما دون القوائم لانها يخفي بها والخفية عريش الاسد لانه يختفي فيها تقول: اختفى اختفاء وخفي تخفية وتخفياً واستخفى استخفاء وأصل الباب الستر. والابداء والاطهار والاعلان نظائر والاخفاء والاسرار والاعماض نظائر. تقول بدا الشيء يبدو: إذا ظهر، وابديته: إذا أظهرته.

الاعراب والقراءة:

وضعف النحويون بأجمعهم قراءة أبي عمرو قراءة أبي عمرو، وقالوا لا يجوز إسكان العين مع الإدغام وإنما هو إخفاء يظن السامع أنه إسكان. وإنما لم يجرز الاسكان مع الإدغام لأنه جمع بين ساكنين في غير حروف المد واللين في نحو دابة وغير ذلك. وقد أنشد سيبويه في الجمع بين ساكنين مثل اجتماعهما في نعم قول الشاعر:

كأنها بعد كلال الزاجر * ومسحه مر عقاب كاسر (٢)

وأنكره أصحابه. ومن رفع يكفر عطفه على موضع (ما) بعد الفاء ومن جزم فعلى موضع الفاء. ومثل الاول قوله: (ومن يضل الله فلا هادي له ويذرهم) ونظير الثاني " فأصدق وأكن " فمن اختار الجزم فلانه أبين في الاتصال بالجزاء ومن رفع فلانه أشكل بما دخلت له الفاء إذ كانت إنما دخلت لاستقبال الكلام بعدها وإن كان في معنى الجواب. ومن قرأ بالياء فمعناه " ويكفر الله " وقوله: " من

" ١ " قاله امرؤ القيس بن عابس الكندي. ديوان امر القيس: ٣٤٣، واللسان (خفا) وروايته (فان تكتموا السر لا تخفه).

(٢) اللسان (كسر) في المطبوعة (كانه) بدل (كأنها) و (مر) ساقطة. وأنشده سيبويه: ومسح مر عقاب كاسر.

(٣٥٣)

سيئاتكم " دخلت من للتبعيض لانه إنما يكفر بالطاعة - غير التوبة - الصغائر. هذا على مذهب من يقول بالصغائر والاحباط. فأما على مذهبا فانما كان كذلك لان اسقاط العقاب كله تقضل، فله أن يتفضل باسقاط بعضه دون بعض فلو لم يدخل من لا فاداته يسقط جميع العقاب. وقال قوم من زائده والذي ذكرناه أولى لانه لاحاجة بنا إلى الحكم بزيادتها مع امكان حملها على فائدة (والله بما تعملون خبير) معناه أنه تعالى بما تعملونه في صدقاتكم من إخفائها وإعلانها عالم خبير به لا يخفى عليه شئ من ذلك فيجازي على جميعه بحبسه. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال لابن العاص " تعما بالمال الصالح للرجل الصالح " فاختار أبو عبيد لاجل هذه الرواية قراءة أبي عمرو وقال الزجاج هذه الرواية غير مضبوطة ولا يجوز عند البصريين ذلك لانه فيه جمعا بين ساكنين من غير حرف مد ولين وفي نعم ثلاث لغات نعم ونعم ونعما.

قوله تعالى:

(ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا نفسكم وماتفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون) (٢٧٢) آية واحدة.

المعنى:

قيل في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها قولان: أحدهما - ما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ليس عليك هداهم بمنع المشركين الاقرباء من الصدقة ليدخلوا في الاسلام فعلى هذا معناه الاباحة. الثاني - قال الحسن، أبو علي الجبائي، والزجاج: " ليس عليك هداهم " بالحمل على النفقة في وجوه البر فعلى هذا معناه التسلية والتقدير ليس عليك أن تعدي الناس إلى نيل الثواب، والجنة وإنما عليك أن تهديم إلى الايمان بأن تدلهم عليه لانه (عليه السلام) كان يغتم إذا لم يؤمنوا

(٣٥٤)

ولم يقبلوا منه لعلمه بما يصيرون إليه من العقاب فسلاه الله بهذا القول. وإنه لا ينبغي ترك مواساة ذوي القربى من أهل الشرك ليدخلوا في الاسلام فيكون ذلك مبيحا للصدقة المندوبة عليهم. وقال ابن عباس، وابن الحنفية، وسعيد بن جبير:

نزلت هذه الآية لانهم كانوا يتفون الصدقة على المشركين حتى نزلت " ليس عليك هداهم " وقوله: " ولكن الله يهدي من يشاء " إنما علق الهداية بالمشيئة لمن كان في المعلوم أنه يصلح باللفظ وليس كل أحد يصلح به فلذلك جاء الاختصاص بالمشيئة. وقال أبو علي الجبائي: الهداية في الآية هو إلى طريق الجنة وذلك يختص بالمؤمنين المستحقين للثواب والاول اختيار البلخي وابن الاخشاد والزجاج وأكثر أهل العلم.

وقوله: (وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله)

معناه فلهذا يجب ألا تمنوا بالصدقة والانفاق: إذ كان لانفسكم من حيث هو دخر لكم ولابتغاء وجه الله الذي هو يوفر به الجزاء لم فهو من كل وجه عائد عليكم وليس كتمليك الله لعباده إذ نفعه راجع عليهم كيف تصرفت الحال بهم، فلذلك افترق ذكر العطية منه (تعالى)، والعطية من غيره. ومعنى قوله " إلا ابتغاء وجه الله " إلا ابتغاء رضوان الله. واستدل بذلك على حسن باطن المعنيين بالآية.

وانهم كانوا ينفقونه لوجه الله خالصا. وقيل معناه وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، فكيف يضيع سعيكم وإنفاقكم. وقيل في ذكر الوجه قولان:

أحدهما - لتحقيق الاضا؟ إليه، لان ذكره يزيل الابهام انه له أو لغيره، لانه إذا اختصت ذكر الوجه ومعناه التبيين، دل على أنك أردت الاختصاص وإزالة الابهام، ورفع الاشتراك وحققت الاضافة.

والثاني - لاشرف الذكرين في الصفة لانه إذا قلت: فعلته لوجه زيد فهو أشرف في الذكر من فعلته (الزيد). لان وجه الشئ في الاصل أشرف ما فيه ثم كثر حتى صار يدل على شرف الذكر في الصفة فقط من غير تحقيق وجه ألا ترى أنك تقول:
وجه هذا الامر كذا وهذا أوجه الرأي وهذا أوجه الدليل فلا تريد تحقيق الوجه

(٣٥٥)

وإنما يريد أشرف ما فيه من أجل شدة ظهوره وشدة بيانه.
قوله تعالى:

(للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) (٢٧٣) آية واحدة.

قرأ حمزة وعاصم وابن عامر " يحسبهم " - بفتح السين - الباقون بكسرها.
قال مجاهد، والسدي: الفقراء المذكورون في الآية هم فقراء المهاجرين. وقال أبو جعفر (ع) نزلت في أصحاب الصفة. والعامل في الفقراء محذوف وتقديره النفقة للفقراء وقد تقدم ما يدل عليه. وقال بعضهم هو مردود على اللام الاولى في قوله:

(وما تنفقوا من خير فلا نفسكم) قال الرماني هذا لا يجوز لان بدل الشئ من غيره لا يكون إلا والمعنى يشتمل عليه. وليس كذلك ذكر النفس ههنا، لان الانفاق لها من حيث هو عائد عليها، وللفقراء من حيث هو. واصل إليهم وليس من باب " والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " لان الامر لازم للمستطيع خاصة ولا يجوز أن يكون العامل فيه " تنفقوا " لانه لا يفصل بين العامل والمعمول فيه بما ليس منه كما لا يجوز كانت الحمى تأخذ.
اللغة:

وقوله: (الذين احصروا) فالاحصار منع النفس عن التصرف لمرض أو حاجة أو مخافة والحصر هو منع الغير وليس كالاول، لانه منع النفس. وقال قتادة وابن زيد: منعوا أنفسهم من التصريف في التجارة للمعاش خوف العدو من الكفار.
وقال السدي: منعهم الكفار والخوف منهم، ولو كان الامر على ما ذكر لكان

(٣٥٦)

حصروا لان الذي يمنعه العدو محصور والذي يمنع نفسه محصر، ويحسبهم - بفتح السين وكسرها - لغتان ومعناه يظنهم ولا يعرف حالهم " أغنياء من التعفف " وقوله: (لا يستطيعون ضربا في الارض) ليس معناه أنهم لا يقدرين وإنما معناه أنهم ألزموا أنفسهم أمر الجهاد

فمنعهم ذلك من التصرف كقولك: أمرني الوالي أن أقيم، فما أقدر أن أبرح معناه ألزمت نفسي طاعته لا أني لا أقدر عليه.

وتقول ضربت في الارض ضربا ومضربا إذا سرت فيها وضرب الجرح إذا ألم ضربانا وضربا، وضرب الفحل الناقة: إذا طرقها ضربا والضرب. الجليد تقول: ضربت الارض وجلدت. رواه الكسائي. وقوله: " تعرفهم بسيماهم " فالسيما العلامة. المعنى:

وقال مجاهد: معناه ههنا التخشع. وقال السدي، والربيع: علامة الفقر وأصل سيما الارتفاع لأنها علامة رفعت للظهور. ومنه السؤم في البيع: وهو الزيادة في مقدار الثمن، للارتفاع فيه عن الحد. ومنه سوم الخسف للتوقع فيه بتحميل ما يشق. ومنه سوم الماشية إرسالها في المرعى. وقوله: " لا يسألون الناس إلحافا " لا يدل على أنهم كانوا يسألون غير إلحاف - في قول الفراء، والزجاج، والبلخي، والجبائي - وإنما هو كقولك ما رأيت مثله. وأنت لم ترد أن له مثلا ما رأيتَه وإنما تريد أنه ليس له مثل فيرى. وقال الزجاج معناه لم يكن سؤال، فيكون إلحاح كما قال امرؤ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره * إذا سافه العود النباطي جرجرا (١)

والمعنى لامنار به فيهتدى بها، وإنما وجهوه على ذلك، لان في الكلام

" ١ " ديوانه: ٨٩. اللاحب: الطريق الواضح. والنار: العلامة توضع لارشاد المسافرين. سافة: شمه. العود: الجمل المسن الضخم. جرجر: رغا وضج. وقد مرصده في ١: ١٨٩ - ٢٨٩ - ٤٤٤. في المطبوعة وآمالي المرتضى ١: ٢٢٨ الدبافي بدل (النباطي)

(٣٥٧)

دليلا عليه، لانه (تعالى) وصفهم بالتعفف والمعرفة بسيماهم دون الافصاح بسؤالهم لانهم لو أفصحوا به لم يحسبهم الجاهل أغنياء، لانه إنما يجهل ما ينال بالاستدلال وإنما جاز هذا الاختصاص بالذكر لان المعنى نفي صفة الذم عنهم. وقوله " إلحافا " قال الزجاج هو مأخوذ من اللحاف لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللحاف في التغطية وقال غيره: لانه يلزم لزوم اللحاف في غير وقته. وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة في الاستطاعة، لانه تعالى إذا عذر من لا يستطيع للمخافة كان من لا يستطيع لعدم القدرة أعذر. وقوله (وما تتفقوا من خير فان الله به عليم) معناه يجازيكم عليه كما قال (وما تتفقوا من خير يعلمه الله). قوله تعالى:

(الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)
(٢٧٤) آية.

ذكر ابن عباس أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب (ع) كانت معه أربعة دراهم فانفقها على هذه الصفة بالليل والنهار. وفي السر والعلانية. وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) وروي عن أبي ذر (ره) والاوزاعي إنها نزلت في النفقة على الخيل في سبيل انه. قيل هي في كل من أنفق ماله في طاعة الله على هذه الصفة وإذا قلنا أنها نزلت في علي (ع) فحكمها سار في كل من فعل مثله فعله.

وله فضل الاختصاص بالسبق إلى ذلك. ونزول الآية من جهته. وقيل في قسمة الاموال في الانفاق على الليل والنهار والاسرار والاعلان أفضل من الانفاق على غير ذلك الوجه قولان: قال ابن عباس: إن هذا كان يعمل به حتى نزل فرض الزكاة في براءة. والثاني - ان الافضل موافقة هذه الصفة التي وصفها الله. وهو الاقوى لانه الظاهر، وقال الرماني، ومن تابعه من المعتزلة لا يجب هذا الوعد

(٣٥٨)

إذا ارتكب صاحبها الكبيرة من الجرم كما لا يجب إن اوتد عن الايمان إلى الكفر وإنما يجب لمن أخلصها مما يفسق بها وهذا وعندنا ليس بصحيح، لان القول بالاحباط باطل ومفارقة الكبيرة بعد فعل الطاعة لا تحبط ثواب الطاعة بحال. وإنما يستحق بمعصية العقاب والله فيه المشيئة، فأما الارتداد فعندنا أن المؤمن على الحقيقة لا يجوز أن يقع منه كفر، ومتى وقع ممن كان على ظاهر الايمان ارتداد علمنا أن ما كان يظهره لم يكن إيماناً على الحقيقة، وإنما قلنا ذلك لانه لو كان إيماناً لكان مستحقاً به الثواب الدائم فاذا ارتد فيما بعد استحق بارتداه عقاباً دائماً فيجتمع له استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم وذلك خلاف الاجماع وقوله: " الذين رفع بالابتداء " وما بعده صلة له وخبره " فلهم أجرهم عند ربهم " وإنما دخل الفاء في خبر الذين لان فيها معنى الجزاء، لانه يدل على أن الاجر من أجل الانفاق في طاعة الله. ولا يجوز أن يقال زيد فله درهم لانه ليس فيه معنى الجزاء وإنما رفع (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ونصب " لا ريب فيه " لاجل تكرير (لا) في جواب إذا قال الشاعر:

وما صرمتك حتى قلت معلنة * لاناقة لي في هذا ولا جمل

فأما " لا ريب فيه "، فجواب (هل) من ريب فيه، فقيل لا ريب فيه على عموم النفي كما أن السؤال على استغراق الجنس بمن فالاعتماد في أحدهما على عموم النفي وفي الاخر على

اشتمال النفي على شيئين قد توهم: إثبات أحدهما. والانفاق إخراج ما كان من المال عن الملك ولهذا لا يصح في صفة الله (تعالى) الانفاق:

وهو موصوف بالاعطاء لعباده ما شاء من نعمة لان الاعطاء إيصال الشئ إلى الاخذ له والسر: إخفاء الشئ في النفس فأما اخفاؤه في خباء، فليس بسر في الحقيقة، ومنه السرار والمسارة لان كل واحد منهما يخفي الشئ عن غيره إلا عن صاحبه، والعلانية، نقيض السر وهو إظهار الشئ وإبرازه من النفس.

(٣٥٩)

قوله تعالى:

(الذين ياكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا إنما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره إلى الله ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٢٥٧) آية.

المعنى:

أصل الربا: الزيادة من قولهم ربا الشئ يربو اربوا إذا زاد. والربا: هو الزيادة على رأس المال. في نسيئة أو مماثلة وذلك كالزيادة على مقدار الدين للزيادة في الاجل أو كاعطاء درهم بدر همين أو دينار بدينارين، والمنصوص عن النبي (صلى الله عليه وآله) تحريم التفاضل في ستة أشياء. الذهب، والفضة، والحنطة، والشعير، والتمر، والملح. وقيل: الزبيب: فقال النبي (صلى الله عليه وآله) فيها مثلا بمثل يدا بيد من زاد أو؟، فقد أرى. هذا الستة أشياء لاخلاف في حصول الربا فيها، وباقي الاشياء عند الفقهاء مقيس عليها. وفيها خلاف بينهم، وعندنا أن الربا في كل ما يكال، أو يوزن إذا كان الجنس واحدا، منصوص عليه. والربا محرم متوعد عليه كبيرة بلا خلاف، بهذه الآية، بقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاذنوا بحرب من الله رسوله) (١)

وقوله: (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وقتادة: إن قيامهم هذه الصفة يكون

" ١ " سورة البقرة آية: ٧٨ - ٧٩.

(٣٦٠)

يوم القيامة: إذا قاموا من قبورهم، ويكون ذلك إمارة لاهل الموقف على أنهم أكلة الربا. وقوله: " يتخبطه الشيطان " مثل عند أبي علي الجبائي لاحقيقة على وجه التشبيه بحال من

تغلب عليه المرة السوداء، فتضعف نفسه ويلج الشيطان بأغوائه عليه فيقع عند تلك الحال ويحصل به الصراع من فعل الله. ونسب إلى الشيطان مجازا لما كان عند وسوسته. وكان أبو الهذيل وابن الاخشاد يجيزان أن يكون الصراع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض قالوا. لان الظاهر من القران يشهد به، وليس في العقل ما يمنع منه وقال الجبائي: لايجوز ذلك، لان الشيطان خلق ضعيف لم يقدره الله على كيد البشر بالقتل والتخبيط ولو قوي على ذلك لقتل المؤمنين الصالحين والداعين إلى الخير، لانهم أعداؤه، ومن أشد الاشياء عليه. وفي ذلك نظر وأصل الخبط: الضرب على غير استواء، خبطته أخبطه خبطا. والخبط ضرب البعير الارض بيديه والتخبط المس بالجنون أو التخبل، لانه كالضرب على غير استواء في الادهاش. والخبطة البقية من طعام أو ماء أو غيره لانه كالصبة من الدلو وهي الخبطة به، والخبط: ورق تغلفه الابل.

والاخباط: داء كالجنون، لانه اضطراب في العقل كالاضطراب في الضرب. والخبطة كالزكمة، لانها تضرب بالانحدار على اضطراب. والخباط سمة في الفخذ لانها تضرب فيه على اضطراب ومعنى قوله: (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) إن المشركين قالوا: الزيادة على رأس المال بعد مصيره على جهة الدين كالزيادة عليه في ابتداء البيع وذلك خطأ، لانه أحدهما محرم والآخر مباح، وهو أيضا منفصل منه في العقد، لان الزيادة في أحدهما لتأخير الدين وفي الآخر لاجل البيع. والفرق بين البيع والربا: أن البيع يبذل لان الثمن فيه بدل الثمن. والربا ليس كذلك وإنما هو زيادة من غير بدل للتأخير في الاجل أو زيادة في الجنس (وقد أحل الله البيع وحرم الربا) وقوله: (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) قال أبو جعفر من أدرك الاسلام وتاب مما كان عمله في الجاهلية، وضع الله عنه ما سلف. وقال السدي: له ما أكل، وليس عليه رد ما سلف، فأما ما لم

(٣٦١)

يقبض بعد، فلا يجوز له أخذه. وله رأس المال. وقال الطبري: الموعظة التذكير والتخويف الذي ذكره الله وخوفهم به من أي القرآن وأوعدهم عليه إذا أكلوا الربا من أنواع العقاب. وقوله: " وما أمره إلى الله " معناه بعد مجئ الموعظة والتحريم، وبعد انتهاء أكله إلى الله (تعالى) عصمته، وتوفيقه إن شاء عصمه عن أكله وثبته في انتهائه عنه، وإن شاء خذله. ويحتمل أن يكون أراد، فله ما سلف يعني من الربا المأخوذ دون العقاب الذي استحقه. اللغة:

وقوله: (وأمره إلى الله) معناه في جواز العفو عنه إن لم يتب وكل شيء قدمته امامك فهو سلف. والسلف التقدم يقال: سلف يسلف سلوفا ومنه الامم السالفة أي الماضية. والسالفة أعلى

العنق. والاسلاف الاعطاء قبل الاستحقاق تقول أسلفت المال إسلافاً، وسلافة الخمر: صفوها
لأنه أول ما يخرج من عصيرها والسلفة: جلد رقيق يجعل بطانة للخفاف. وسلف الرجل:
المتزوج باخت امرأته والسلفة ما تدخره المرأة لتتحف به زائراً، وأصل الباب التقدم. وقوله: "
ومن عاد " فالعود هو الرجوع تقول عاد يعود عودا إذا رجع. وعبادة المريض: المصير إليه
لتعرف خبره. والعود: من عيدان الشجر، لأنه يعود إذا قطع ومنه العود الذي يتبخر به.
والعود: المسن من الأبل. والمعاد كل شئ إليه المصير. فالأخرة معاد الناس أي مرجع.
وقوله: " لرادك إلى معاد " (١) يعني مكة بأن يفتحها عليه.
والإعادة: فعل الشئ ثانية وهو المبدئ المعيد. والعادة تكرر الشئ مرة بعد مرة. وتعود الخير
عادة. والعيد كل يوم مجمع عظيم، لأنه يعود في السنة أو في الأسبوع. والعائدة الصلة لأنها
تعود بنفع على صاحبها وأصل الباب الرجوع.

" ١ " سورة القصص آية: ٨٥.

(٣٦٢)

تقول: عاد عودا واعتادا واعتيادا واستعادة وعود تعويدا، وتعود تعودا، وعاود معاودة.
المعنى:
ومعنى الآية ومن عاد الأكل الربا بعد التحريم. وقال ما كان يقوله قبل مجئ الموعدة من أن
البيع مثل الربا (فأنك أصحاب النار هم فيها خالدون) لأن ذلك لا يصدر إلا من كافر، لأن
مستحل الربا كافر بالاجماع فلذلك توعد به عذاب الأبد. والخلود والوعيد في الآية يتوجه إلى
من أربى، وإن لم يأكله وإنما ذكر الله الذين يأكلون الربا لأنها نزلت في قوم كانوا يأكلونه،
فوصفهم بصفاتهم وحكمها سائر في جميع من أربى. والآية الأخرى التي ذكرناها وتبين معناها
فيما بعد تبين ما قلناه وعليه أيضا الإجماع وقيل في علة تحريم الربا أن فيه تعطيل المعاش
والاجلاب والمتاجر إذا وجد المرابي من يعطيه دراهم وفضلا بدراهم. وقال أبو عبد الله (ع)
إنما شدد في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف فرضا أو رفا وأما ذكر
الموعدة ههنا وأنها في قوله: (قد جاءتكم موعدة من ربكم) لامرين:
أحدهما - أن كل تأنيب ليس بحقيقي جاز فيه التذكير والتأنيب فجاء القرآن بالوجهين معا.
والثاني - أنه ذكر ههنا لوقوع الفصل بين الفعل والفاعل بالضمير وأنت في الموضع الذي لم
يفصل. والربا محرم في النقد والنسيئة بلا خلاف وكان بعض من تقدم يقول لا ربا إلا في
النسيئة والذي كان يريه أهل الجاهلية أن يؤخروا الدين عن محله إلى محل آخر بزيادة فيه

وهذا حرام بلا خلاف. ومسائل البيع الصحيح منها والفاقد وفروعها بينها في النهاية والمبسوط وكذلك مسائل الصرف فلانطول بذكرها في هذا الكتاب.
قوله تعالى:

(يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار

(٣٦٣)

أثيم) (٢٧٦) آية واحدة باللغة:

المحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال. محقه الله يمحقه محقاً، فانمحق وامتحق أي هلك وتلف بذها به حالاً بعد حال. والمحاق آخر الشهر لامحاق الهلال فيه.
والشيء محيق بمعنى محقوق وأصل الباب المحق فان قيل بأي شيء "يمحق الله الربا ويربي الصدقات؟" قلنا: يمحقه بأن ينقصه حالاً بعد حال. وقال البلخي محقه في الدنيا بسقوط عدالته والحكم بفسقه وتسميته بالفسق.
المعنى:

وقوله (ويربي الصدقات) معناه يزيدها بما يثمر المال في نفسه وبالاجر عليه وذلك بحسب الانتفاع بها وحسن النية فيها ووجه زيادته على المستحق بالعمل تفصل بالوعد به وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الله يقبل الصدقة، ولا يقبل منها إلا الطيب ويربيها لصاحبه كما يربي أحدكم مهره أو فصيله حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد، وذلك قوله: (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) وقوله: (والله لا يحب كل كفار أثيم) إنما لم يقل كل كافر مع دخول الكفار في الكافر لان كل كفار كافر وليس كل كافر كفار للدلالة على أن مستحل الربا في قوله "إنما البيع مثل الربا" مع أنه كافر كفار، ويجوز للدلالة على صفات الذم إذ قد يتوهم أن الكفار من استكثر من كفر نعمة إنسان لا يبلغ به استحقاق العقاب ويجوز أن يكون من باب الاختصاص لعظم المنزلة في الامر الذي تعلق به الذكر "والاثيم" هو المتمادي في الاثم. والاثم: الفاعل للاثم وإنما قال لا يحبه ولم يقل يبغضه لانه إذا لم يحب المكلف فهو يبغضه فقولك لا يحبه الله من صفات الذم كما أن قولك لم ينصف في المعاملة من صفات الذم كما أن قولك لم ينصف في المعاملة من صفات الذم.

(٣٦٤)

قوله تعالى:

(أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢٧٧) آية واحدة.

المعنى:

إن قيل: إذا كان الثواب يستحق بخلوص الايمان فلم يشترط غيره من الخصال؟ قلنا: لم يذكر ذلك ليكون شرطاً في استحقاق الثواب على الايمان وإنما بين أن كل خصلة من هذه الخصال يستحق به الثواب ونظير ذلك ما ذكره في آية الوعيد في قوله: (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) (١) فانما بين أن كل خصلة من هذه الخصال يستحق بها العقاب لأن من المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر لا يحتاج إلى شرط عمل آخر استحق العقاب وإن كان الوعيد إنما يتوجه عليه بمجموع تلك الخصال لكان فيه تسهيل لكل واحد منهما وليس التقييد في آية الوعيد يجري مجرى قوله: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) (٢) من قبل أن هذا معلق بحكم يجب بوجوبه ويرتفع بارتفاعه باجماع وليس كذلك ذكر هذه الخصال. وهذه الآية تدل على أن أفعال الجوارح ليست من الايمان وإن الايمان هو التصديق بما وجب لانها لو كانت من الايمان، لكان قوله "إن الذين آمنوا" قد اشتمل عليها فلا معنى لذكرها بواو العطف إذ لا يعطف الشيء على نفسه. فان قيل ذلك يجري مجرى قوله: (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) (٣) وقوله:

" ١ " سورة الفرقان آية: ٦٨. " ٢ " سورة النور آية: ٤.

" ٣ " سورة محمد آية: ١، وسورة النحل آية: ٨٨.

(٣٦٥)

(الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) (١) قلنا والخلاف في هاتين كالحلاف في تلك لاننا لا نقول إن التكذيب بالآيات هو الكفر نفسه وإنما نقول هو دلالة على الكفر وكذلك الصد عن سبيل الله كما نقول: إن قول النبي (صلى الله عليه وآله) فلان كافر يدل على كفره. وإن يكن ذلك كفراً وقال قوم: من المرجئة إن الوعد بهذه الخصال يدل على بطلان التحابط، لأنه تعالى ضمن الثواب بنفس فعل هذه الخصال، ولم يشترط ألا يأتي بما يحبطها فان قيل لا بد أن يكون ذلك مشروطاً كما أن الوعيد على الكفر لا بد أن يكون مشروطاً بارتفاع التوبة منه، لان كل واحد من الامرين إنما يستحق بخلوه مما ينافيه وإذا اتبع بكبيرة لم يخلص كما لم يخلص ما اتبع بتوبة. قلنا: إنما شرطنا الوعيد على الكفر بعدم التوبة لمكان الاجماع، لان التوبة تسقط العقاب على الكفر، وإنما وعد الله (تعالى) تفضلاً باسقاط العقاب على المعاصي بالتوبة منها، وليس

مثل ذلك موجودا في آية الوعد لانه ليس على شرط انتفاء الكبيرة إجماع، والعمل هو التغيير للشئ بالاحداث له أو فيه فاذا قيل:

عمل فلان الصالحات كان معناه أحدثها وإذا قيل: عمل الموازين والخوض والسروج والصفير وغير ذلك، كان المراد أنه أحدث فيها ما تتغير به صورتها.
قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) (٢٧٨) آية واحدة.
النزول:

ذكر السدي وابن جريج وعكرمة أن هذه الآية نزلت في بقية من الربا كانت للعباس ومسعود وعبد يألل وحبيب وربيعة. وبني عمرو بن عمير وروي عن أبي جعفر (ع) أن الوليد بن المغيرة كان يربي في الجاهلية وكان بقي له بقايا على

" ١ " سورة البقرة آية: ٣٩، وسورة المائدة آية: ١١، ٨٩ وسورة الحج آية: ٥٧ وسورة الحديد آية: ١٩، وسورة التغابن آية: ١٠.

(٣٦٦)

تقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت هذه الآية في المنع من ذلك.
المعنى:

ومعنى " ذروا ما بقي من الربا " ظاهره تحريم ما بقي دينا من الربا وإيجاب أخذ رأس المال دون الزيادة على جهة الربا. وقوله: " إن كنتم مؤمنين " قيل فيه قولان: أحدهما - من كان مؤمنا فهذا حكمه. والثاني - إذ كنتم مؤمنين. والاول هو الاقوى.
اللغة:

ومعنى " ذروا " اتركوا. ولم يستعمل منه ذر، ولا واذر لكرهته الواو مبتدأة لانها لم تزد أولا في كلامهم كزيادة اختيها الياء والهمزة. قال الخليل:

إذا التقت واوان في أول الكلمة أشبه بنباح الكلب فرفضوا ذلك إلا فيما هو عارض لا يعتد به فاستعملوا يذر، لانه لا تظهر فيه الواو، ومثله يدع. فأما وعد ف جاء على الاصل. فان قيل: لم جاز وصف المبهم بالوصول، ولم يحسن بالمضاف فجاز أن يقول: " يا أيها الذين آمنوا " ولم يحسن (يا أيها غلام زيد) قلنا: لان المبهم حقه أن يوصف بالجنس المعرف بالالف واللام، لانه إذا عرض فيه تكبير بطلت دلالاته على الجنس، فاحتيج إلى وصفه بالجنس لذلك. فان قيل: هلا جاز (يا أيها غلام الرجل) كما جاز (نعم غلام الرجل) إذ المضاف إلى الجنس يقوم مقام الجنس: قيل: لانه لا يجوز في الاسماء التامة أن تكون ثلاثة أسماء بمنزلة إسم واحد منها. وقد

جعل (يا أيها الرجل) بمنزلة اسمين ضم أحدهما إلى الآخر نحو (حزرموت) ليكون بذلك أشد اتصالاً بالموصوف من سائر الصفات، فلم يجز في المضاف لما يجب له من شدة الاتصال وجاز في نعم، لأنه على الانفصال.

(٣٦٧)

قوله تعالى:

(فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) (٢٧٩) آية.

القراءة:

قرأ " فأذنوا " من الرباعي ممدودة حمزة وعاصم: من أذنت أي أعلمت.

الباقون (فأذنوا).

المعنى:

والتقدير في قوله: " فإن لم تفعلوا " يعني ترك ما بقي من الربا أو تجنب ما بقي من الربا، لأن ما تقدم دل عليه. وقال ابن عباس، وقتادة، والربيع: من عامل بالربا استتا به الامام فان تاب، وإلا قتله. وقال البلخي: لو اجتمع أهل قرية على اظهار المعاملة بالربا، لكان على الامام محاربتهم، وإن كان محرمين له، ولو فعل الواحد بعد الواحد، والاكثر منكر لفعله لم يقتل الواحد، لكن يقام عليه من الحكم ما يستحقه. وعندنا أنه يؤدبه الامام ثلاث مرات بما يرتدع معه عن فعل مثله فان عاد رابعا قتله.

اللغة:

ومعنى قوله: " فأذنوا " ممدودا: علموا غيركم. ومن قرأ بالقصر فهو من أذنت به آذن اذا إذا علمت به. وقوله: " بحرب من الله " فالحرب: القتال.

والحرب: الشدة. والحربة: التي يطعن بها من آلة الحرب. والتحريب: التحريش.

لأنه حمل على ما هو كالحرب من الاذى. والمحراب: مقام الامام، لأنه كموضع الحرب في شدة التحفظ. والحربا: المسمار الذي يجمع حلقتي الدرع. والحربا: دويبة

(٣٦٨)

أكبر من العطاء، لأنه ينتصب على الشجرة كمصلوب أخذ من الحرب لشدة طلبه للشمس تدور معها كيفما دارت. وأصل الباب الشدة. ومعنى قوله: (وإن تبتم) يعني من الربا لأن الكلام يدل عليه، فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون بأخذ الزيادة على رأس المال ولا تظلمون بالنقصان. وروي في الشواذ " لا تظلمون ولا تظلمون " والمعنى واحد وإنما فيه تقدم وتأخير وموضع (لا تظلمون) نصب على الحال. وتقديره فلكم رؤس أموالكم غير ظالمين ولا مظلومين:

وقوله تعالى:

(وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وإن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) (٢٨٠).

معنى قوله: " وإن كان ذو عسرة أي من غمائمكم إن كان معسرا. وارتفع ذو عسرة لاحد وجهين:

أحدهما - حذف الخبر، وتقديره وإن كان ذو عسرة غريما لكم. الثاني - أن تكون كان التامة المكتفية باسمها وتقديره وإن وقع ذو عسرة أو وجد ذو عسرة وكان يجوز وإن كان ذا عسرة على تقدير وإن كان الذي عليه الدين ذا عسرة.

وروي ذلك في قراءة أبي. وقوله: (فنظرة) معناه فعليكم نظرة، وهل الانظار واجب في كل دين أو في دين الربا فقط. قيل فيه ثلاثة أقوال:

أولها - قال شريح، وإبراهيم في دين الربا خاصة. والثاني - قال ابن عباس، والضحاك، والحسن: في كل دين. وهو قول أبي جعفر، وأبي عبدالله (ع). الثالث - بالاية يجب في دين الربا وبالقياس في كل دين، واستدل على أنه يجب في كل دين بأنه لا يخلو أن يجب في ذمته أو في رقبته أو عين ماله، فلو كان في رقبته لكان إذا مات بطل وجوبه، ولو كان في عين ماله كان إذا هلك بطل وجوبه فصح أنه في ذمته، ولا سبيل له عليه في غير ذلك من حبس أو نحوه وقرأ نافع (ميسرة) - بضم السين - الباقون بفتحها، وهما لغتان:

(٣٦٩)

ومعناه إلى أن يوسع عليه. وقال أبو جعفر (ع) إلى أن يبلغ خبره الامام فيقضي عنه من سهم الغارمين إذا كان أنفق في معروف.

وقوله: (وإن تصدقوا خير لكم) معناه على المعسر بما عليه من الدين خير لكم. وقيل إن معناه وإن تصدقوا بجميع المال على الفقراء. والاول أليق بما تقدم. وروي عن ابن عباس. وعمر أن آخر ما نزل من القرآن أي الربا. وروي عن مجاهد (ميسره) بالهاء في الوصل مضافا إلى الهاء. ولم يجز ذلك البصريون لأنه ليس في الكلام مفعله. والاعسار الذي يجب فيه الانظار قال الجبائي: التعذر بالاعدام أو بكساد المتاع ونحوه. وروي عن أبي عبدالله (ع) هو إذا لم يقدر على ما يفضل عن قوته وقوة عياله على الاقتصاد. وروي عن عطا (فناظرة) وهو شاذ، وهو مصدر نحو قوله: " ليس لوقعنها كاذبة " (١) " وتظن أن يفعل بها فاقرة (٢) وكذلك العاقبة والعافية:

قوله تعالى:

(واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) (٢٨١) آية واحدة.

القراءة والنزول:

قرأ أبو عمرو. وحده (ترجعون) بفتح التاء الباقون بضمها. قال ابن عباس وعطية والسدي:
هذه الآية آخر ما نزلت من القرآن. وقال جبريل (ع)
ضعها في رأس الثمانين والمائتين من البقرة.
المعنى:

وقيل في معنى ترجعون فيه إلى الله قولان:
أحدهما - ترجعون فيه إلى جزاء الله. الثاني - ترجعون فيه إلى ملك الله

" ١ " سورة الواقعة آية: ٢. " ٢ " سورة القيامة آية: ٢٥.

(٣٧٠)

لنفعكم وضرركم دون غيره ممن كان ملكه إياه في دار الدنيا. وقوله (ثم توفى كل)
نفس ما كسبت) قيل فيه وجهان: أحدهما - توفى جزاء ما كسبت من الاعمال.
الثاني - توفى بما كسبت من الثواب أو العقاب، لان الكسب على وجهين: كسب العبد لفعله
وكسبه لما ليس من فعله ككسبه المال وقوله: (وهم لا يظلمون)
معناه لا ينقصون ما يستحقونه من الثواب ولا يزداد عليهم فيما يستحقونه من العقاب والاية
تدل على أن الجزاء لا يكون إلا على الكسب لانه لو كان خاصا لجرى مجرى توفى كل نفس
ما قالت وليس مفهومه كذلك لانه عام فيما يجازي به العبد وموضع " ثم توفى كل نفس ما
كسبت " نصب بانه عطف على صفة يوما إلا أنه حذف منه فيه لدلالة الاول عليه.
قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب
كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه
شيئا فان كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل
واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء
أن تفضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعرا ولا تساموا أن تكتبوه
صغيرا أو كبيرا إلى اجله ذلكم أقسط عند الله واقوام للشهادة وادنى الا ترتابوا إلا أن تكون

(٣٧١)

تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولايضار
كاتب ولاشهود وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم) (٢٨٢)
آية واحدة:

القراءة:

قرأ حمزة وحده " ان تضل احدهما " بكسر الالف. الباقر بفتحها. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو " فتذكر " بالتخفيف والنصب. وقرأ حمزة بالتشديد، والرفع. وقرأ (تجارة حاضرة) بالنصب عاصم. الباقر بالرفع.

المعنى:

قوله: " إذا تداينتم " معناه تعاملتم بدين. وإنما قال: " بدين " وإن كان تداينتم أفاده لامرين: أحدهما - أنه على وجه التأكيد كما تقول ضربته ضربا. والثاني - أن تداينتم يكون بمعنى تجازيتم من الدين الذي هو الجزاء فإذا قال: بدين اختص بالدين خاصة " إلى أجل مسمى " معناه معلوم وقوله: " فاكتبوه " ظاهره الامر بالكتابة. واختلفوا في مقتضاه، فقال أبو سعيد الخدري، والشعبي، والحسن:

هو مندوب إليه. وقال الربيع، وكعب: هو على الفرض. والاول أصح، لاجماع أهل عصرنا على ذلك. ولقوله تعالى " فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أو تمن أمانته " ومفهومه فان أمنه فيما له أن يأمنه. وقال ابن عباس: هذه الآية في السلم خاصة. وقال غيره: حكمها في كل دين من سلم أو تأخير ثمن في بيع. وهو الأقوى لآية العموم. فأما القرض فلا مدخل له فيه لانه لايجوز مؤجلا وقوله: (ولايأب)

(٣٧٢)

كاتب) ظاهره النهي عن الامتناع من الكتابة، والنهي يقتضي تحريم الامتناع.

وقال عامر الشعبي هو فرض على الكفاية كالجهاد، وهو اختيار الرماني، والجبائي وجوز الجبائي أن يأخذ الكاتب والشاهد الاجرة على ذلك. وعندنا لايجوز ذلك. والورق الذي يكتب فيه على صاحب الدين دون من عليه الدين. ويكون الكتاب في يده لانه له. وقال السدي واجب على الكاتب في حال فراغه. وقال مجاهد وعطا هو واجب إذا أمر. وقال الضحاك نسختها قوله: " ولايضار كاتب ولاشهيد ".

وقوله: (أن يكتب كما علمه الله فليكتب) يعني الكاتب (وليمل الذي عليه الحق) أمر لمن عليه الحق بالاملال وهو الاملاء بمعنى تقول أملت عليه وأملت عليه بمعنى واحد. وقوله: (وليتق الله ربه) معناه لايمل إلا الحق الذي عليه والاملال المراد به النذب لانه لو أملا غيره وأشهد هو كان جائزا بلا خلاف.

وقوله: (ولايبخس منه شيئا) أي لا ينقص منه شيئا والبخس النقص ظلما. وقد بخسه حقه يبخسه بخسا إذا نقصه ظلما ومنه قوله تعالى " ولا تبخسوا الناس أشياءهم " أي لا تنقصوهم ظالمين لهم ومنه قوله (وشروره بئمن بخس) أي ناقص عن حقه والبخس فقأ العين لانه إدخال

نقص على صاحبها وتباخس القوم في البيع إذا تعانبوا وقوله: (فان كان الذي عليه الحق سفيها) قال مجاهد السفيه: الجاهل.

وقال السدي الصغير وأصل السفه الخفة ومن ذلك قوله الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت * أعاليها مر الرياح النواسم (١)
أي استخفتها الرياح وقال الشاعر:

نخاف أن يسفه أحلامنا * فنحمل الدهر مع الخامل

أي تخف أحلامنا فالسفيه الجاهل، لانه خفيف العقل بنقصه. وقوله:

" وأو ضعيفا " قال مجاهد والشعبي: هو الاحمق. وقال الطبري: هو العاجز عن الاملاء بالعي

أو بالخرس " أو لا يستطيع أن يمل " قال ابن عباس: هو العي الاخرس. وقيل المجنون.

والهاء في قوله " وليه " عائدة إلى السفيه - في قول الهامش " ١ " اللسان (سفه).

(٣٧٣)

الضحاك، وابن زيد - الذي يقوم مقامه. وقال الربيع: ترجع إلى ولي الحق.

والاول أقوى. وإذا أشهد الولي على نفسه فلا يلزمه المال في ذمته بل يلزم ذلك في مال

المولى عليه. وقوله: " واستشهدوا شهيدين من رجالكم " يعني من رجال الاحرار المسلمين

دون الكفار والعبيد - في قول مجاهد - والحرية ليست عندنا شرطا في قبول الشهادة وإنما

الاسلام شرط من العدالة. وبه قال شريح والبتى، وأبو ثور، ومثله قوله: (وانكحوا الايامى

منكم والصالحين من عبادكم وامائكم) (١)

وقوله: " فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان " يحتمل رفعه أربعة أوجه:

أحدها - فليكن رجل وامرأتان. الثاني - فليشهد رجل وامرأتان الثالث - فالشاهد رجل

وامرأتان. الرابع - فرجل وامرأتان يشهدون وكل ذلك حسن. وكان يجوز أن ينصب رجلا

وامرأتين بمعنى واستشهدوا رجلا وامرأتين.

وقوله: " أن تضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى " يحتمل وجهين:

أحدهما - قال الربيع والسدي والضحاك وأكثر المفسرين إنه من الذكر الذي هو ضد النسيان.

وقال سفيان بن عيينة: هو من الذكر. ومعناه أن تجعلها كذكر من الرجال. ومعنى أن تضل

لان تضل أو من أجل أن. فان قيل لم قال " إن تضل " وإنما الاشهاد، للانكار لا للضلال قيل

عنه جوابان:

أحدهما - قال سيبويه أنه لما كان الضلال سبب الانكار قدم لذلك وجاز لتعلق كل واحد منهما

بالاخر في حكم واحد فصار بمنزلة ما وقع الاشهاد للمرأتين من أجل الضلال، كما وقع من

أجل الانكار وكثيرا في السبب والمسبب أن يحمل كل واحد منهما على الاخر، ومثله أعددت

الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه وإنما أعددته في الحقيقة للدعم ولكن حمل عليه الميل لانه سببه.

الثاني - قال الفراء إنه بمعنى الجزاء على أن تذكر احدهما الاخرى إن ضلت إلا أنه لما قدمت (أن) اتصلت بما قبلها من العامل فانفتحت. ومثله يعجبني أن سأل السائل فيعطى. وإنما يعجبك الاعطاء دون المسألة. ومثله قوله: " ولولا أن

" ١ " سورة النور آية: ٣٢.

(٣٧٤)

تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا " (١) ومعناه ولولا أن يقولوا أن اصابهم مصيبة، وإنما قدم وأخر. قال الرماني قول سيبويه في هذا أقوى لما في الثاني من الدعوى لاجراج الجزاء إلى المصدر لغير فائدة.

وأنكر بعضهم قراءة حمزة " إن تضل " - بكسر الهمزة - وقال الرماني:

لامعنى لهذا الانكار، لان عليها إجماع الامة وتسليم القراءة بها ولها وجه صحيح في العربية. وقال أبو علي الفارسي إن حمزة جعل إن للجزاء، والفاء في قوله " فتذكر " جواب الجزاء، ويكون موضع جوابه رفعا بكونها وصفا للمنكرين وهما المرأتان في الاي وقوله: (فرجل وامرأتان) خبر ابتداء محذوف، وتقديره فمن يشهد رجل وامرأتان، وانفتحت اللام في هذه القراءة لالتقاء الساكنين، وموضعها الجزم ولو كسرت، لكان جائزا وقال قوم: غلط سفيان بن عيينة في تأويله، لان احدهما إذا نسيت لم تجعلها الاخرى ذكرا وهذا ليس بشئ، لان المعنى تذكرها تصير معها بمنزلة الذكر لان بعدهما من النسيان إذا اجتمعا بمنزلة بعد الذكر، فان قيل: فلم قال " فتذكر إحداهما الاخرى " فكرر لفظ إحداهما، ولو قال فتذكرها الاخرى لقام مقامه مع اختصاره. قيل قال الحسين بن علي المغربي: إن تضل إحداهما يعني إحدى الشهادتين أي تضيع بالنسيان فتذكر إحدى المرأتين الاخرى، لئلا يتكرر لفظ إحداهما بلا معنى ويؤيد ذلك أنه يسمى ناسي الشهادة ضالا. ويجوز أن يقال: ضلت الشهادة إذا ضاعت كما قال تعالى: " قالوا ضلوا عنا " (٢) أي ضاعوا منا ويحتمل أن يكون إنما كرر لئلا يفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول فان ذلك مكروه غير جيد، فعلى هذا يكون احدهما الفاعلة والاخرى مفعولا بها. وقوله: (ولايأب الشهداء إذا ما دعوا) قيل في معنى ما دعوا إليه ثلاثة أقوال:

أحدها - لاثبات الشهادة في الكتاب وتحملها ذهب إليه ابن عباس، وقتادة،

" ١ " سورة القصص آية: ٤٧ .

" ٢ " سورة الاعراف آية ٣٦ ، وسورة المؤمن آية: ٧٣ .

(٣٧٥)

والربيع. الثاني - قال مجاهد، وعامر، وعطا ذلك إذا دعوا لاقامتها. الثالث - في رواية عن ابن عباس، والحسن، وأبي عبدالله (ع) لاقامتها وإثباتها. وهو أعم فائدة. وقال الطبري: لايجوز إلا إذا دعوا لاقامتها، لان قيل أن يشهدوا لايوصفون بأنهم شهداء. وهذا باطل لانه تعالى قال: " واستشهدوا شهيدين من رجالكم " فسامهما شاهدين قبل إقامة الشهادة.

اللغة:

وقوله: (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله) فالسأم:

الملل، سئم يسأم سأمًا إذا مل من الشئ وضجر منه قال زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش * ثمانين حولا لأبالك ويسأم (١)

والصغير: خلاف الكبير صغر الشئ يصغر صغرا، وصغره تصغيرا واستصغره إستصغارا وتصاغر تصاغرا. وصغر يصغر صغرا وصغارا: إذا رضي بالضم، لانه رضي باستصغاره. تصاغرت إليه نفسه ذلا ومهانة. والاصغار حنين الناقة الحفيض والاكبار حنينها الكبير. والهاء في قوله: " أجله " يحتمل أن تكون عائدة إلى أجل الدين. وهو الاقوى. والثاني إلى أجل الشاهد. أي الوقت الذي تجوز فيه الشهادة. وقوله: " ذلكم أقسط عند الله " معناه أعدل والقسط: العدل تقول: أقسط إسقاطا، فهو مقسط إذا عدل ومنه قوله: " إن الله يحب المقسطين " والقسط: الحصة تقول أخذ فلان قسطه أي حصته. وقد تقسطوا الشئ بينهم أي اقتسموه على القسط أي على العدل. وكل مقدار قسط لانه عدل غيره بالمساواة له. والقسوط: الجور لانه عدول عن الحق قسط يقسط قسطا، فهو قاسط إذا جاز عن الحق. وقوله تعالى: " وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا " (٢) والرجل القسطاء: التي في ساقها أعوجاج لعدوله عن الاستقامة.

" ١ " من معلقته الشهيرة: ديوانه ٩ .

" ٢ " سورة الجن آية: ١٥ .

(٣٧٦)

المعنى:

وقوله: " وأقوم للشهادة " معناه أصح لها مأخوذ من الاستقامة. وقوله:

" وأدنى ألا ترتابوا " أي أقرب ألا تشكوا بأن ينكر من عليه الحق. وقيل:

بالا ترتابوا بالشاهد أن يضل، وقوله: " إلا أن تكون تجارة حاضرة " فمن رفع احتمال رفعه أمرين:

أحدهما - أن تكون (كان) تامة بمعنى وقع، فيكون اسم كان، ويحتمل أن تكون ناقصة ويكون اسمها والخبر تديرونها. ومن نصب معناه أن تكون التبايع تجارة أو التجارة تجارة. وقوله: (واشهدوا إذا تبايعتم) قال الضحاك:

الاشهاد: فرض في التبايع وبه قال أصحاب الطاهر واختاره الطبري. وقال الحسن، والشعبي ذو ندب. وهو الصحيح وبه قال جميع الفقهاء. وقوله " ولايضار " أصله يضر - بكسر الراء - عند الحسن، وقتادة، وعطاء، وابن زيد، وقيل:

المضارة وهو أن يشهد الشاهد بما لم يستشهد فيه، ويكتب الكاتب بما لم يمل عليه. ذهب إليه الحسن، وطاووس، وهو الأقوى. بدلالة قوله " وإن تفعلوا " يعني المضارة " فانه فسوق بكم " أي معصية في قول ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. ومن دعا الشاهد وهو مشغول، فتأخر لا يكون فاسقا بلا خلاف. وقال ابن مسعود، ومجاهد - بفتح الراء - ومعناه لا يدعى الكاتب، والشاهد، وهو مشغول على وجه الاضرار به. ومعنى قوله: " صغيرا أو كبيرا " معناه هو في العادة صغير

جرت العادة بكتب مثله. ولا يريد بذلك ما قدره حبة أو قيراط، لان ذلك لم تجر العادة بكتب مثله، والاشهاد عليه وليس في الاية ما يدل على أنه لايجوز الحكم بالشاهد واليمين، لان الحكم بالشاهد والمرأتين أو بالشاهدين لا يمنع من قيام الدلالة على جواب الحكم بالشاهد مع اليمين. ولا يكون ذلك نسخا لذلك، لانه ليس بمناف للمذكور في الاية والحكم بالشاهد والمرأتين يختص بما يكون مالا أن المقصد به المال فأما الحدود التي هي حق الله وحقوق الادميين وما يوجب القصاص. وفلا يحكم

(٣٧٧)

فيها بشهادة رجل وامرأتين، وكذلك عندنا في الشاهد، واليمين حكم الشاهد والمرأتين سواء. وقد بسطنا مسائل الشهادات، وفروعها، وما يقبل منها وما لا يقبل وأحكام شهادة النساء والعبيد وغير ذلك في كتابينا النهائية، والمبسوط، فلا معنى للتطوير بذكرها ههنا. وقوله: (واتقوا الله) معناه اتقوا معاصية وعقابه وقوله: " ويعلمكم الله " معناه يعلمكم ما فيه صلاح دينكم ودنياكم وما ينبغي لكم فعله، وما يحرم عليكم. والله عليم بذلك وبما سواه من المعلومات فلذلك، قال " بكل شئ عليم ".

الاعراب:

وقال أبو علي الفارسي " ان تضل احدهما فتذكر إحداهما الاخرى " لا يكون متعلقا بقوله: " واستشهدوا شهيدين من رجالكم " " ان تضل احدهما " ولكن يتعلق بأن يفعل مضمرة دل عليه هذا الكلام، لان قوله: " فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان " يدل على قولك واستشهدوا رجلا وامرأتين، فتعلق (ان) إنما هو بهذا الفعل المدلول عليه. قال ويجوز أن تتعلق (ان) باحد ثلاثة أشياء.

أحدها - المضمرة الذي دل عليه قوله: " واستشهدوا شهيدين ".

الثاني - الفعل الذي هو فليشهد رجل وامرأتان

* الثالث - الفعل الذي هو خبر المبتدأ، وتقديره فرجل وامرأتان يشهدون، فيكون يشهدون خبر المبتدأ. قال وقوله: " ممن ترضون من الشهداء " فيه ذكر يعود إلى الموصوفين الذين هم " فرجل وامرأتان "، ولا يجوز أن يكون فيه ذكر لشهيدين المتقدم ذكرهما لاختلاف إعراب الموصوفين ألا ترى أن شهيدين منصوبان، ورجل وامرأتان اعرابهم الرفع، فاذا كان كذلك علمت أن الوصف الذي هو ظرف إنما هو وصف لقوله: " فرجل وامرأتان " دون من تقدم ذكرهما من الشاهدين.

والشرط وجزاؤه وصف للمرأتين، لان الشرط، والجزاء جملة يوصف بها كما يوصل بها في قوله: " الذين إن مكناهم... الآية " (١).

" ١ " سورة الحج آية ٤١

(٣٧٨)

اللغة:

وأما إحدى فهو مؤنث الواحد والواحد الذي مؤنثه إحدى إنما هو اسم وليس. وبوصف ولذلك جاء إحدى على بناء لا يكون للصفات أبدا كما كان الذي هو مذكوره كذلك وقال أحمد بن يحيى قالوا: هو إحدى الاحد، وواحد الاحدين وواحد الاحاد وأنشد:

عدوني الثعلب فيما عدوا * حتى استثار واني إحدى الاحد

ليثا هزبرا ذا سلاح معتدى (١)

المعنى:

وقوله: (الا أن تكون تجارة حاضرة (استثناء من جملة ما أمر الله بكتابته والاشهاد عليه عند التبائع فاستثنى منه يدا بيد فانه لا يحتاج إلى الكتابة ولا الاشهاد عليه، والاول يحتاج اليه على خلاف، في كونه ندبا أو وجوبا كما ذكرناه.

وقيل في البقرة خمسمائة حكم وفي هذه الآية أربعة عشر حكما أولها قوله:

" يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه " والثاني - " وليكتب بينكم كاتب بالعدل " الثالث - " ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله والرابح - " وليلمّل الذي عليه الحق " وهو أقداره إذا أملاه. الخامس - " وليتق الله ربه ولا يبخر منه شيئاً ". أي لا يخون، ولا ينقصه. السادس - " فان كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو " أي لا يحسن " فليمّل وليه بالعدل " السابع - " واستشهدوا شهيدين من رجالكم " والثامن - " فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى " التاسع - " ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا " والعاشر - " ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله " أي لا تضجروا. والحادي عشر - " ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة

" ١ " هكذا في المطبوعة. ولم نجد لها من مصادرها - وهي كما ترى.

(٣٧٩)

تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها " الثاني عشر - " واشهدوا إذا تبايعتم " الثالث عشر - " ولا يضار كاتب ولا شهيد " الرابع عشر - " وإن فعلوا فانه فسوق بكم " وقال قوم: فيها إحدى وعشرون حكما: " إذا تداينتم " حكم " فاكتبوه " حكم " ولا يبخر " حكم " فان كان الذي عليه الحق سفيها " حكم " أو ضعيفا " حكم " أو لا يستطيع " حكم " فليمّل وليه " حكم " بالعدل " حكم " واستشهدوا شهيدين " حكم " فرجل وامرأتان " حكم " ممن ترضون من الشهداء " حكم " ولا يأب الشهداء " حكم " ولا تسأموا " حكم " إلا أن تكون تجارة حاضرة " حكم " واشهدوا إذا تبايعتم " حكم " ولا يضار كاتب " حكم " ولا شهيد " حكم. قوله تعالى:

(وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة فان امن بعضكم بعضا فليؤد الذي أو تمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) (٢٨٣) آية بلا خلاف.

القراءة واللغة:

قرأ أبو عمرو وابن كثير " فرهن " على وزن فعل. الباقر " فرهان " على فعال. الرهن مصدر رهننت الشيء أرهنه رهنا وأرهننته إرهانا. والاول أفصح. قال الشاعر في أرهننت:

فلما خشيت أظافيره * نجوت وأرهننته مالكا (١)

وقال الازهري:

أرهننت في الشيء إذا سلفت فيه.

" ١ " قيل ان البيت لهما بن مرة، وفي الصحاح لعبد الله بن همام السلوي. اللسان رهن) وروايته (اظايرهم) بدل (اظايره). في المطبوعة (نحرت) بدل نجوت.

(٣٨٠)

قال الشاعر:

عيديه أرهننت فيها الدنانير (١)

وأرهننت إرتهانا وتراهنوا تراهنانا. وراهنه مراهننة واسترهنه استرهانا.

والانسان رهين عمله. وكل شيء يحتبس غيره فهو رهينة ومرتهنة. وأصل الباب الرهن: حبس الشيء بما عليه وواحد الرهن رهان. وهو جمع الجمع نحو ثمار وثمر في قول الكسائي، والفراء. وقال أبو عبيدة: واحده رهن نحو سقف وسقف. وقيل لا يعرف في الاسماء فعل وفعل غير هذين. وزاد بعضهم قلب النخلة وقلب. فأما (رهان) فهو جمع رهن، وهو على القياس نحو حبل وحبال، وفعل وفعال، وكبش وكباش، وإنما اختار أبو عمرو: فرهن لأنه موافق لخط المصحف، ولغلبة الاستعمال في الرهان في الخيل، واختاره الزجاج أيضا. ومن اختار (رهان)

فلا طراده في باب الجمع. وكل حسن. وارتفع (فرهن) بأنه خبر ابتداء محذوف تقديره فالوثيقة رهن ويجوز فعلية ورهن. ولو قرئ " فرهنا " بالنصب بمعنى فارتهنوا رهنا جاز في العربية، ولكن لم يقرأ به أحد. وشاهد الرهن قول قعب بن أم صاحب:

باننت سعاد وأمسي دونها عدن * وغلقت عندها من قبلك الرهن (٢)

المعنى:

ومن شرط صحة الرهن أن يكون مقبوضا لقوله: " فرهان مقبوضة " فان لم يقبض لم ينعقد الرهن. ومسائل الرهن ذكرناها في النهاية والمبسوط مستوفاة فلا فائدة للتطويل بذكرها ههنا. ويجوز أخذ الرهن في الحضر مع وجود الكاتب، لما روي أن النبي (صلى الله عليه وآله) اشترى طعاما نساء ورهن فيه درعا. وقوله (ع) لا يخلق الرهن. معناه أن يقول الراهن إن جئتك بفكاكه إلى شهر وإلا فهو لك بالدين. وهذا باطل بلا خلاف.

" ١ " اللسان (عود) وصدرة: ظلت بحوب بها البلدان ناحية.

" ٢ " اللسان (رهن).

(٣٨١)

وقوله: " ولا تكتموا الشهادة " يعني بعد تحملها " ومن يكتمها فانه آثم قلبه " إنما أضاف إلى القلب مجازاً، لانه محل الكتمان، وإلا فالآثم هو الحي.

وقوله: " فان أمن بعضكم بعضاً " معناه ان أتمنه فلم يقبض منه رهناً " فليؤد الذي أو تمن أمانته " يعني الذي عليه الدين " وليثق الله ربه " أن يظلمه أن يخونه " والله بما تعملون عليم " بما تسرونه وتكتمونه.

ودل قوله: " فان أمن بعضكم بعضاً) على أن الاشهاد والكتابة في المداينة ليس بواجب، وإنما هو على جهة الاحتياط. وقد روي عن ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما (فان لم تجدوا كتاباً) يعني ما تكتبون فيه من طرس أو غيره. والمشهور هو الاول الذي حكيناه عن قرأ أهل الامصار، وحكي عن بعضهم أنه قرأ " فانه آثم قلبه " بالنصب فان صح فهو من قولهم: سفهت نفسك وأثمت قلبك.

قوله تعالى:

(لله ما في السموات وما في الارض وإن تبدوا ما في أنفسكم أن تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير) (٢٨٤) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة:

قرأ " فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء " بالرفع عاصم، وابن عامر على الاستئناف في قول المبرد. ويجوز أن يكون محمولا على تأويل " يحاسبكم " لانه لو دخلته الفاء كان رفعا، فيكون فيه على هذا معنى الجواب. وقرأ الباقر على الجزم: عطفا على " يحاسبكم " وهو جواب الشرط، وكان يجوز أن يقرأ فيغفر بالنصب على مصدر الفعل الاول وتقديره إن يكن محاسبة، فيغفر لمن يشاء.

وروي ذلك عن ابن عباس.

(٣٨٢)

المعنى:

واللام في قوله: " لله " لام الملك ومعناه ان الله تصريف السموات والارض وتدبيرهما لقدرته على ذلك وليس لاحد منعه ومنه وإنما ذكر قوله: (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه) لان المعنى فيه كتمان الشهادة. ويحتمل أن يريد جميع الاحكام التي تقدمت في السورة. خوفهم الله من العمل بخلافها. وقال قوم هذه الآية منسوخة بقوله: (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) (١) ورووا في ذلك خبرا ضعيفا، وهذا لايجوز لامرين:

أحدهما - أن الاخبار التي لا تتضمن معنى الامر والنهي والاباحة لا يجوز نسخها، وهذا خبر محض خال من ذلك الثاني - لايجوز تكليف نفس ما ليس في وسعها على وجهه، فينسخ. ويجوز أن تكون الاية الثانية بينت الاولى وأزالت توهم من صرف ذلك إلى غير وجهه، فلم يضبط الرواية فيه، وظن أن ما يخطر للنفسه أو تحدث نفسه به مما لا يتعلق بتكليفه فان الله يؤاخذ به. والامر بخلاف ذلك، وإنما المراد بالاية ما يتناوله الامر والنهي من الاعتقادات والارادات وغير ذلك مما هو مستور عنا. فأما ما لا يدخل في التكليف فخارج عنه لدلالة العقل. ولقوله (ع) تجوز لهذه الامة عن نسيانها وما حدثت به أنفسها. وقوله: (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) معناه ممن يستحق العقاب بأنه إن شاء عاقبة، وإن شاء عفا عنه. وذلك يقوي جواز العفو عقلا، وإنما يقطع على عقاب بعض العصاة لدليل، وهم الكفار - عندنا - فأما من عداهم فلا دليل يقطع به على أنهم معاقبون لا محالة. والايات التي يستدلون بها نبين

• الوجه فيها إذا انتهينا إليها إن شاء الله.

قوله تعالى:

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٨٦.

(٣٨٣)

بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) (٢٨٥) آية.
القراءة:

قرأ حمزة والكسائي وخلف " وكتابه " : الباقون " وكتبه " على الجمع فمن وحد احتمل وجهين: أحدهما - أن يكون أراد به القران لاغير. والثاني - أن يكون أراد جنس الكتاب، فيوافق قراءة من قرأ على الجمع في المعنى. وقرأ يعقوب " لا يفرق " بالياء ردا على الرسول حسب. الباقون بالنون ردا على الرسول والمؤمنين وهذا أليق بسياق الاية.
المعنى والاعراب:

وقوله: (لانفرق بين أحد من رسله) معناه يقولون ذلك على الحكاية كما قال " والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا " (١) أي يقولون اخرجوا. والمعنى إنا لانؤمن ببعضهم ونكفر ببعض، كما فعل اليهود، والنصارى. وقوله: " سمعنا وأطعنا " تقديره سمعنا قوله وأطعنا أمره وقبلنا ما سمعنا، لأن من لا يقبل ما يسمع يقال له أصم كما قال تعالى (صم بكم عمي فهم لا يعقلون)

(٢) وإنما حذف لدلالة الكلام عليه لانهم مدحوا به، وكان اعترافا منهم بما يلزمهم مث ما قبله. وقوله:

" غفرانك " نصب على أنه نزل من الفعل المأخوذ منه كأنه قيل: اللهم اغفر لنا غفرانك فاستغنى بالمصدر عن الفعل في الدعاء فصار بدلا منه معاقبا له. وقال بعضهم معناه نسألك غفرانك والاول أقوى، لانه على الفعل الذي أخذ منه أولى من حيث كان يدل على بالتضمين نحو (حمدا وشكرا) أي أحمد حمدا، وأشكر شكرا.

" ١ " سورة الانعام آية: ٩٣. " ٢ " سورة البقرة آية: ١٧١.

(٣٨٤)

وأجاز الزجاج والفراء غفرانك بالرفع بمعنى غفرانك بغيتنا وأنشد الزجاج: ومن يغترب عن قومه لايزل يرى * مصارع مظلوم مجرا ومسحبا وتدفن منه الصالحات وإن يسيئ * يكن ما أساء النار في رأس كبكبا (١) وقوله: (وإليك المصير) معناه وإلى جزائك المصير فجعل مصيرهم إلى جزائه مصيرا إليه كقول ابراهيم: " إني ذاهب إلى ربي سيهدين " (٢) معناه إلى ثواب ربي أو إلى ما أمرني به ربي.

قوله تعالى:

(لايكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) (٢٨٦) آية.

المعنى:

في هذه الآية دلالة واضحة على بطلان مذهب المجبرة في تجويزهم تكليف الله العبد ما لا يطيقه لانه صريح بأنه لا يكلفهم إلا ما يطيقونه لان الوسع هو ما يتسع به قدرة الانسان وهو فرق المجهود واستفراغ القدرة. ويقول القائل: ليس هذا

" ١ " البيتين للاعشى ديوانه ١١٣ رقم القصيدة ١٤. واللسان (كيب) وفي الديوان هكذا:

متى يغترب عن قومه لا يجد له * على من له رهط حواليه مغضبا

ويحطم بظلم لا يزال يرى له * مصارع مظلوم مجرا ومسحبا

وتدفن منه....

مجر ومسحب مصدر ميمي من جر وسحب. ككب: جبل.

" ٢ " سورة الصافات آية: ٩٩.

(٣٨٥)

في وسعي. أي لأقدر عليه وإن قدرتي لا تتسع لذلك. ومن قال: معناه لا يكلف الله نفسا إلا ما يحل لها من قولهم لا يسعك هذا أي لا يحل لك أن تفعله كان ذلك خطأ، لأن رجلا لو قال لعبده: أنا لا أمرك إلا بما أطلقت لك أن تفعله كان ذلك خطأ وعيا، لأن نفس أمره اطلاق. وكأنه قال: أنا لا أطلق لك إلا ما أطلق.

ولا أمرك إلا بما أمرك. وقوله: " لها ما كسبت " معناه لها ثواب ما كسبت من الطاعات وعليها جزاء ما كسبت من المعاصي والقبائح. ويجوز أيضا أن يسمى الثواب والعقاب كسبا من حيث حصل بكسبه. وقوله: (لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

إنما جاز الرغبة إليه تعالى في ذلك وإن علمنا أنه لا يؤاخذ بذلك، ولم يجز أن يقول: لا تجر علينا لأمرين أحدهما - أن قوله: لاتجر علينا يدل على تسخط الداعي، وليس كذلك " لا تؤاخذنا إن نسينا " لأن الانسان قد يتعرض للنسيان، فيقع منه الفعل الذي فيه جناية على النفس، ويحسن الاعتذار بالنسيان، فيجري الدعاء مجرى الاعتذار إذا قال العبد لسيدته لاتؤاخذني بكذا فاني نسيت، فلحسن الاعتذار حسن الدعاء به. والثاني - " إن نسينا ". بمعنى تركنا لشبهة دخلت علينا.

والنسيان بمعنى الترك معروف. نحو قوله: " نسوا الله فنسيهم " (١) أي تركوا عبادته، فترك ثوابهم. وقال الجبائي معناه ما تركناه لخطأ في التأويل واعتقدنا صحته لشبهة وهو فاسد. فأما لا تجر علينا، فلا يقال إلا لمن اعتيد منه الجور، ولا يجوز أن يؤاخذ أحد أحدا بما نسيه عند أكثر أهل العدل إلا ما يحكى عن جعفر بن ميسر من أن الله تعالى يؤاخذ الانبياء بما يفعلونه من الصغائر على وجه السهو والنسيان لعظم اقدارهم. وقال كان يجوز أن يؤاخذ الله العبد بما يفعله ناسيا أو ساهيا، ولكن تفضل بالعفو في قوله: (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) ذكر ذلك البلخي، وهذا غلط، لانه كما لم يجز تكليف فعله ولا تركه لم

" ١ " سورة التوبة آية: ٦٨.

(٣٨٦)

يجز أن يؤاخذ به، ولا يشبه ذلك المتولد الذي لا يصح تكليفه بعد وجود سببه، لانه يجوز أن يتعمده بأن يتعمد سببه، وليس كذلك مايفعله على جهة السهو والنسيان.

اللغة، والمعنى:

وقوله: (ولا تحمل علينا إصرا) قيل في معنى الاصر قولان:

أحدهما - لاتحمل علينا عهدا فنعجز عن القيام به. ذهب إليه ابن عباس، وقتادة ومجاهد.

الثاني - قال الربيع، ومالك: معناه لا تحمل علينا ثقلا والاصر في اللغة الثقل قال النابغة:

يا مانع الضيم إن يغشى سراتهم * والحامل الاصر منهم بعد ما غرقوا (١)

وكلما عطفك على شيء، فهو إصر من عهد أو رحم، وجمعه إصار. تقول أصره يأصره

إصرا. والاسم الاصر قال الحطيئة:

عطفوا علي بغيراً * صرة فقد عظم الاواصر (٢)

وقال النابغة:

ايابن الحواضن والحاضنات أينقض أصرك حالا فحالا (٣)

أي عهدك. والايصر: حيل قصير يشد به أسفل الخباء إلى وتد لانه يعطف به. والاصرة:

صلة الرحم للعطف بها والماصر حبل على طريق أونهر تحبس به السفن أو السابلة لتؤخذ

منهم العشور وكلا أصر أي يحبس من ينتهي إليه لكثرتة. والاصار: كساء يحتش فيه

الحشيش. وأصل الباب العطف، فالاصر:

الثقل لانه يعطف حامله بثقله عليه. وقوله: (لا تحملنا ما لا طاقة لنا به) قيل

" ١ " في المطبوعة (فيا مانع) بدل (يامانع) و (والخامل) بدل (والحامل).

" ٢ " اللسان (أصر).

" ٣ " في المطبوعة (انقض) بدل (اينقض).

(٣٨٧)

فيه قولان:

أحدهما - ما يتقل علينا من نحو ما كلف بني إسرائيل من قتل أنفسهم وبنيتيه أربعين سنة وغير

ذلك كما يقول القائل لأطيق أنظر إلى فلان ولا أسمع كلامه.

الثاني - ما لا طاقة لنا به من العذاب في دار الدنيا. وقوله (أنت مولانا)

معناه أنت ولىنا أي أولى بالتصرف فينا، وقال الحسن هذا على وجه التعليم للدعاء، ومعناه

قولوا ربنا لا تؤاخذنا. والثاني - أنه على وجه الحكاية أي يقولون ربنا.

والفرق بين أخطأ وخطئ أن أخطأ قد يكون على وجه الاثم، وغير الاثم فأما خطئ فائم لا

غير قال الشاعر:

والناس يلحون الامير إذا هم * خطئوا الصواب ولا يلام المرشد (١)

" ١ " قائله عبيدة بن الابصر الاسدي. ديوانه: ٥٤، وحماسة البحتري: ٢٣٦، واللسان (أمر) ورواية الديوان:
والناس يلجون الامير اذا غوي * خطب الصواب ولا؟ المرشد

(٣٨٨)

سورة آل عمران مائتا آية في الكوفي روي عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجميع المفسرين
أن هذه السورة مدنية وقيل ان من أولها إلى راس نيف وستين آية نزلت في قصة وفد نجران
لما جاؤا يحاجون النبي (صلى الله عليه وآله) في قول ابن اسحق والربيع.
بسم الله الرحمن الرحيم (ألم (١) الله لا اله إلا هو الحي القيوم) (٢) آيتان في الكوفي وآية
واحدة في ماعدها.

القراءة واللغة:

وقرأ أبو جعفر والاعشى والبرجمي (ألم) بسكون الميم (الله) بقطع الهمزة وقرأ عمر بن
الخطاب " الحي القيام " وهي لغة أهل الحجاز. ويقولون في الصواغ صياغ. الباقر (قيوم)
وإنما فتحت الميم من (ألم الله) لاحد أمرين:

أحدهما - استتقالا للكسر بعد الياء الساكنة، فصرف إلى الفتح، لانه أخف كما فعلوا في (كيف)
(وأين). وقال الزجاج، والفراء: ألقى عليها حركة الهمزة وهي الفتحة من قولك: الله. وقال
المبرد: هذا لا يجوز لأنها ألف وصل تسقط في الدرج، فلا يجوز ذلك كما لا يجوز في (إن
الكافرون) الفتح على الفاء

(٣٨٩)

حركة الهمزة. قال الفراء: والفرق بين ذلك وبين الهجاء أنه لما كان ينوي به الوقف قوي بما
بعده الاستيناف، فكانت الهمزة في حكم الثبات كما كانت في انصاف البيوت. نحو قول
الشاعر:

ولا يبادر في الشتاء وليدتي * القدر تنزلها بغير جعال (١)

وأجاز الاخفش الكسر، وخالفه الزجاج، وقال: لايجوز لان قبل الهمزة ياء ساكنة قبلها كسرة،
فلم يجز غير الفتح، كما لا يجوز في كيف. ويمكن الفرق بينهما بأن كيف موصولة وهذا
مفصول جاز أن ينوي به الوقف. وقد بينا معنى (الله) وهو أنه الذي تحقق له العبادة.

اللغة والمعنى:

وقوله: (لإله إلا هو) معناه لا تحقق العبادة لسواه، وإنما كان كذلك لانه الذي يقدر على أصول
النعم التي يستحق بها العبادة، ولان نعمة كل منعم فرع على نعمه، فصار لا تحقق العبادة

لسواه. و (الحي) هو الذي لا يستحيل لما هو عليه من الصفة كونه عالما قادرا. قال الرماني:
والعالم: مدرك لمعلومه والمدرك:

هو المتبين للشئ على ما هو به من أي وجه صح تبيينه، فالرأي مدرك وكذلك العالم إلا أنه قد
كثرت صفة الإدراك على ما طريقه الاحساس من العباد، وهذا القول منه يدل على أنه كان
يذهب مذهب البغداديين: في أن وصف القديم بأنه مدرك يرجع إلى كونه عالما من أن يكون
له صفة زائدة. وهذا بخلاف مذهب شيخه ابي علي، والبصريين. " والقيوم " قيل في معناه
قولان.

أحدهما - القائم بتدبير عباده في مايضرهم وينفعهم، وهو قول مجاهد، والربيع، والزجاج،
بدلالة قوله " قائما بالقسط " (٢) و " قائم على كل نفس بما كسبت " (٣).

" ١ " اللسان (جعل) في المطبوعة (وليدنا) بدل (وليدتي) الجعال، والجعالة - بضم الجيم وكسره - ما تنزل به القدر
من خرقه وغيرها، والجمع جعل مثل كتاب وكتب.
" ٢ " سورة آل عمران آية: ١٨. " ٣ " سورة الرعد آية: ٣٥.

(٣٩٠)

الثاني - حكي عن محمد بن جعفر بن الزبير، واختاره الجبائي أنه الدائم.
وأصل الوصف بقيوم الاستقامة. فعلى قول مجاهد يكون لاستقامة التدبير، وعلى القول الآخر
لاستقامة الصفة بالوجود من حيث لا يجوز عليه التغيير بوجه من الوجوه كما يجوز على ما
يحول وينبذل. ونقول هذا معنى قائم في النفس أي موجود على الاستقامة دون الاضطراب.
وأصل " قيوم " قيوم على وزن فيعول فقلبت الواو الاولى ياء، لان ما قبلها ياء ساكنة،
وأدغمت نحو سيد وميت.

ولايجوز أن يكون وزنه فعولا لانه لو كان كذلك لكان قووما، فوصف الله تعالى بالحي القيوم
يتضمن أنه يستحق العبادة من حيث أن هذه الصفة دلت على أنه القادر على ما يستحق به
العبادة دون غيره، لان صفة قيوم صفة مبالغة لاتجوز إلا الله على المعنيين معا من معنى
الموجود أو (القائم على) عموم الخلق بالتدبير.

قوله تعالى:

(نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل) (٣) آية.

قيل في معنى قوله: " نزل عليك الكتاب بالحق " وجهان:

أحدهما - بالصدق في أخباره وجميع دلالة التي تقوم مقام الخبر في تعلقها بمدلولها على ما
هو به، ففي جميع ذلك معنى التصديق.

والثاني - بالحق أي بما توجهه الحكمة من الانزال كما أتى بما يوجهه الحكم من الارسال وهو حق من الوجهين. وقوله: (مصدقا لما بين يديه) نصب على الحال ومعناه لما قبله من كتاب أو رسول في قول مجاهد وقتادة والربيع وجميع المفسرين. وإنما قيل لما قبله لما بين يديه، لانه ظاهر له كظهوره لما بين يديه.
وقيل في معنى " مصدقا " ههنا قولان:
أحدهما - " مصدقا لما بين يديه " وذلك لموافقته ما تقدم الخبر به وفيه آية تدل على صحة نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) من حيث لا يكون ذلك إلا من عند علام الغيوب.

(٣٩١)

الثاني - مصدقا أنه يخبر بصدق الانبياء في ما أتوا به خلاف من يؤمن ببعض، ويكفر ببعض. والتوراة ماخوذة من وريت بك زنادي إذا ظهر به الخبر كما يتقدح بالزناد النار فالاصل الظهور، فهي تورية لظهور الحق. وقيل في وريها أقوال:
أحدها - قال البصريون تورية فوعلة فقلبت (الواو) الاولى (تاء) لئلا يجتمع واوان أول الكلمة نحو حوقلة ودوخلة. والثاني - قال الكوفيون: تفعلة على وزن تتقلة وتثقلة، وهو قليل جدا لا يكاد يعرف تفعلة في الكلام. الثالث - قال بعضهم هو تفعلة إلا أنه صرف إلى الفتح استنقالا للكسر في المعتل وهو بناء يكثر نحو توفية وتوقية وتوصية، وما أشبه ذلك. قال الزجاج: وهذا ردي لأنه يجئ منه في توفية توفاة وهذا لا يجوز. والانجيل مأخوذ من النجل، وهو الاصل وقال الزجاج وزنه أفعال من النجل باجماع أهل اللغة فسمي انجيلا لانه أصل من أصول العلم.
قوله تعالى:

(من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) (٤).

المعنى:

قوله: " من قبل " أي من قبل إنزال الكتاب فلما قطعه عن الاضافة نبأه على الضم. وقوله: " هدى للناس " أي بيانا ودلالة لهم، وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى هدى الكافر إلى الايمان، كما هدى المؤمن بقوله " للناس "، بخلاف ما تقوله المجبرة: إن الله ما هدى الكافر، وموضع (هدى) نصب على الحال من الكتاب وقوله: (وأنزل الفرقان) يعني به القرآن وإنما كرر ذلك لما اختلفت دلالات صفاته وإن كانت لموصوف واحد لان لكل صفة منها فائدة غير الاخرى لان الفرقان هو الذي يفرق به بين الحق والباطل فيما يحتاج إليه من أمور الدين في الحجج،

(٣٩٢)

والاحكام، وذلك كله في القرآن وقيل أراد بالفرقان النصر ووصفه بالكتاب يفيد ان من شأنه أن يكتب. وقد بينا لذلك نظائر في الشعر وغيره في ما تقدم. وقوله:
(إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد) قرن بالوعيد لما بين الله الحجج الدالة على توحيده، وصفاته: أعقب ذلك بوعيد من يخالف في ذلك ويجحده ليتكامل به التكليف. وقوله:
(والله عزيز ذو انتقام) معناه أنه قادر لايمكن أحد من منعه من عذاب من يريد عذابه لانه " عزيز ذو انتقام " وإنما كان منيعا لانه قادر لنفسه لا يعجزه شيء.
اللغة:

وأصل الاعزاز الامتناع، ومنه أرض عزاز ممتنعة السكون لصعوبتها، ومنه قولهم من عز، بز: أي من غلب سلب لان الغالب يمتنع من الضيم، والنقمة، العقوبة: نقم ينقم نقما ونقمة ويقال نقت، ونقت عليه أي أردت له عقوبة، وانتقم منه انتقاما أي عاقبه عاقبا وأصل الباب: العقوبة. ومنه النعمة خلاف النقمة.
قوله تعالى:

(إن الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء) (٥) آية.

المعنى:

لما ذكر الله تعالى الوعيد على الاخلال بمعرفته مع نصب الادلة على توحيده وصفاته اقتضى أن يذكر أنه لا يخفى عليه شيء في الارض، ولا في السماء، فيكون في ذلك تحذير من الاغترار بالاستسرار بمعصيته، لان المجازي لا تخفى عليه خافية، فجرى ذلك موصولا بذكر التوحيد في أول السورة، لانه من الصفات الدالة على

(٣٩٣)

مالا تحقق إلا له. فان قيل لم قال: (لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء) ولم يقل لا يخفى عليه شيء على وجه من الوجوه إذ كان أشد مبالغة؟ قيل: ليعلمنا أن الغرض علم ما يستسر به في الارض أو في السماء. ولان الافصاح بذكر ذلك أعظم في النفس وأهول في الصدر مع الدلالة على أنه عالم بكل شيء إلا أنه على وجه التصرف في العبارة عن وجوه الدلالة. فان قيل: لم قال " لا يخفى عليه شيء " ولم يقل عالم بكل شيء في الارض والسماء؟ قيل لان الوصف بأنه " لا يخفى عليه شيء " يدل على أنه يعلمه من كل وجه يصح أن يعلم منه مع ما فيه من التصرف في العبارة، وإنما قلنا: لا يخفى عليه شيء من حيث كان عالما لنفسه. والعالم للنفس يجب أن يعلم كل ما يصح أن يكون معلوما. وما يصح أن يكون معلوما لانهاية له، فوجب أن يكون عالما به وإنما يجوز أن يعلم الشيء من وجه دون وجه، ويخفى عليه شيء

من وجه دون وجه من كان عالماً بعلم يستفيده: - العلم حالاً بعد حال - فأما من كان عالماً لنفسه، فلا يجوز أن يخفى عليه شيء بوجه من الوجوه.
قوله تعالى:

(هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لإله إلا هو العزيز الحكيم) (٦) آية واحدة.
اللغة:

التصوير: جعل الشيء على صورة لم يكن عليها. والصورة: هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف. والفرق بين الصورة والصيغة أن الصيغة: عبارة عما وضع في اللغة لتدل على أمر من الأمور، وليس كذلك الصورة، لأن دلالتها على جعل جاعل قياسية. والأرحام: جمع رحم وأصله. الرحمة، وذلك لأنها مما يتراحم به ويتعاطف يقولون: وصلتك رحم. أصل الصورة: الميل يقولون صار به صورته: إذا أماله، فهي صورة لأنها مائلة إلى بنية بالشبه لها.

(٣٩٤)

المعنى:

وقوله (كيف يشاء) معناه كيف يريد والمشية هي الإرادة ومعنى "يصوركم في الأرحام كيف يشاء" من ذكر أو أنثى أو أبيض أو أسود أو تام أو ناقص إلى غير ذلك ماختلف به الصور، وفيه حجة على النصارى في ادعائهم إلهية المسيح وذلك إن الله تعالى صوره في الرحم كما شاء، فهو لذلك عبد مربوب وقوله: (لإله إلا هو العزيز الحكيم) معناه أنه تعالى لما ذكر ما يدل عليه من قوله: (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) ذكر الدليل والمدلول عليه وإنما ذكر "العزيز الحكيم" تحذيراً بعد ذكر الدليل ليعلم أنه عزيز لا يتهيأ لأحد منعه من عقوبة من يريد عقابه حكيم في فعل العقاب وفي جميع أفعاله.

قوله تعالى:

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (٧).

المعنى:

قوله: (هو الذي أنزل عليك الكتاب) يعني القرآن (منه آيات محكمات) هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فالمحكم هو ما علم المراد بظاهره من غير قرينة تقترن إليه ولادلالة تدل على المراد به لوضوحه، نحو قوله: "إن الله لا يظلم

(٣٩٥)

الناس شيئاً " (١) وقوله: " لا يظلم مثقال ذرة " (٢) لأنه لا يحتاج في معرفة المراد به إلى دليل. والمتشابه: ما لا يعلم المراد بظاهره حتى يقترن به ما يدل على المراد منه. نحو قوله: " وأضله الله على علم " (٣) فإنه يفارق قوله: " وأضلهم السامري " (٤) لأن اضلال السامري قبيح وإضلال الله بمعنى حكمه بأن العبد ضال ليس قبيح بل هو حسن. واختلف أهل التأويل في المحكم، والمتشابه على خمسة أقوال:

فقال ابن عباس: المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ.

الثاني - قال مجاهد: المحكم ما لا يشتبه معناه، والمتشابه ما اشتبهت معانيه.

نحو قول: " وما يضل به إلا الفاسقين " (٥) ونحو قوله: " والذين اهتدوا زادهم هدى " (٦).

الثالث - قال محمد بن جعفر بن الزبير، والجبائي: إن المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجهين فصاعداً.

الرابع - قال ابن زيد: إن المحكم: هو الذي لم تتكرر ألفاظه. والمتشابه هو المتكرر الالفاظ.

الخامس - ما روي عن جابر أن المحكم: ما يعلم تعيين تأويله، والمتشابه ما لا يعلم تعيين تأويله. نحو قوله: " يسألونك عن الساعة أيان مرساها " (٧).

وقوله: (هن أم الكتاب) معناه أصل الكتاب الذي يستدل به على المتشابه، وغيره من أمور الدين. وقيل في توحيد أم الكتاب قولان: أحدهما - أنه قدر تقدير الجواب على وجه الحكاية كأنه قيل: ما أم الكتاب؟ فقيل هن أم الكتاب كما يقال: من نظير زيد؟ فيقال: نحن نظيره. الثاني - أن يكون ذلك

" ١ " سورة يونس آية: ٤٤. " ٢ " سورة النساء آية: ٣٩.

" ٣ " سورة الجاثية آية: ٢٢. " ٤ " سورة طه آية: ٨٥.

" ٥ " سورة البقرة آية: ٢٦. " ٦ " سورة محمد آية: ٧.

" ٧ " سورة الاعراف آية: ١٨٦، وسورة النازعات آية: ٤٢.

(٣٩٦)

مثل قوله: " وجعلنا ابن مريم وأمه آية " (١) بمعنى الجميع آية ولو أريد أن كل واحد منهما آية على التفصيل، لقيل آيتين. فان قيل: لم أنزل في القرآن المتشابه؟ وهلا أنزله كله محكما ! قيل للحث على النظر الذي يوجب العلم دون الاتكال على الخبر من غير نظر، وذلك أنه لو لم يعلم بالنظر أن جميع ما يأتي به الرسول حق يجوز أن يكون الخبر كذبا، وبطلت دلالة السمع، وفائدته، فلحاجة العباد إلى ذلك من الوجه الذي بيناه، أنزل الله متشابهها، ولولا ذلك لما بان منزلة العلماء، وفضلهم على غيرهم، لأنه لو كان كله محكما لكان من يتكلم باللغة العربية

عالمًا به، ولا كان يشتبه على أحد المراد به فيتساوى الناس في علم ذلك، على أن المصلحة معتبرة في انزال القرآن، فما أنزله متشابهًا لأن المصلحة اقتضت ذلك، وما أنزله محكمًا فلمثل ذلك. والمتشابه في القرآن يقع فيما اختلف الناس فيه من أمور الدين: من ذلك قوله تعالى " ثم استوى على العرش " (٢) فاحتمل في اللغة أن يكون كاستواء الجالس على السرير واحتتمل أن يكون بمعنى الاستيلاء نحو قول الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهباق (٣)
وأحد الوجهين لاجوز عليه تعالى لقوله: " ليس كمثلته شيء " (٤)
وقوله " لم يكن له كفوا أحد ".

والآخر يجوز عليه، فهذا من المحكم الذي يرد إليه المتشابه. ومن ذلك قوله:
" ربنا لاتحملنا مالا طاقة لنا به " (٥) فاحتمل ظاهره تكليف المشاق، واحتمل تكليف مالا يطاق وأحدهما لاجوز عليه تعالى " لا يكلف الله نفسا إلا وسعها " (٦)

" ١ " سورة المؤمنون آية: ٥١.

" ٢ " سورة الاعراف آية: ٥٣، وسورة يونس آية: ٣، وسورة الفرقان آية ٥٩، وسورة ألم السجدة آية: ٤،
وسورة الحديد آية: ٤.

" ٣ " مرتخيجه في ١: ١٢٥.

" ٤ " سورة الشورى آية: ١١. " ٥ " سورة البقرة آية: ٢٨٦.

" ٦ " سورة البقرة آية: ٢٨٦، وسورة الطلاق آية: ٧.

(٣٩٧)

فرددنا إليه المتشابه ومن ذلك قوله: " قل كل من عند الله " (١) فرددناه إلى المحكم الذي هو قوله: " ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " (٢) ومن ذلك قوله: " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله " (٣) متشابه، وبين المراد بالمحكم الذي هو قوله: " وما الله يريد ظلماً للعالمين " (٤) ومن ذلك اعتراض الملحدين في باب النبوة بما يوهم المناقضة كقوله: (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين) (٥) فقال اليومان والأربعة واليومان ثمانية ثم قال " هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام " فأوهموا أن ذلك مناقضة وليس الأمر على ما ظنوه لأن ذلك يجري مجرى قول القائل: سرنا من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وسرنا إلى الكوفة في خمسة عشر يوما فالعشرة داخلة في الخمسة عشر ولا يضاف فيقال:

عشرة، وخمسة عشر خمسة وعشرون يوما كان فيها السير، فكذلك خلق الله الارض في يومين وقضاهن سبع سماوات في يومين وتم خلقهن في ستة أيام. وتقديره خلق الارض في يومين من غير تتميم وجعل فيها رواسي وما تم به خلقها في أربعة أيام فيها اليومان والاولان كما يقال: جعل الدور في شهرين وفرغ منهن في أربعة أشهر. فيكون المحكم قد أبان عن معناه أنه على جهة خلق الارض في يومين من غير تتميم، وليس على وجه التضاد على ما ظنوه.

فان قيل: كيف يكون المحكم حجة مع جواز تقييده بما في العقل؟ وفي ذلك إمكان كل مبطل أن يدعيه فتذهب فائدة الاحتجاج بالمحكم؟ قلنا: لا يجب ذلك من قبل أن التقييد بما في العقل إنما يجوز فيما كان ردا إلى تعارف من جهة

" ١ " سورة النساء آية: ٧٧. " ٢ " سورة آل عمران آية: ٧٨.

" ٣ " سورة التكوير آية: ٢٩، وسورة الدهر آية: ٣٠.

" ٤ " سورة آل عمران آية: ١٠٨. " ٥ " سورة حم السجدة آية: ٩ - ١٢.

(٣٩٨)

العقول دون مالا يتعارف في العقول بل يحتاج إلى مقدمات لا يتعارفها العقلاء من أهل اللغة، والمراعى في ذلك أن يكون هناك تعارف من جهة العقل تقتضيه الحكمة دون عادة أو تعارف شئ لان الحجة في الاول دون الثاني، ومن جهة التباس ذلك دخل الغلط على كثير من الناس. فان قيل: كيف عدتتم من جملة المحكم قوله: " ليس كمثل شئ " مع الاشتباه فيه بدخول الكاف؟ قلنا إنما قلنا انه محكم لان مفهومه ليس مثله شئ على وجه من الوجوه دون أن يكون عند أحد من أهل التأويل ليس مثل مثله شئ فدخول الكاف وإن اشتبته على بعض الناس لم دخلت فلم يشتبته عليه المعنى الاول الذي من أجله كان محكما. وقد حكينا فيما مضى عن المرتضى (ره) على بن الحسين الموسوي أنه قال: الكاف ليست زائدة وإنما نفى أن يكون لمثله مثل فاذا ثبت ذلك علم أنه لا يمثل له، لانه لو كان له مثل لكان له أمثال، فكان يكون لمثله مثل، فاذا لم يكن له مثل مثل دل على أنه لا يمثل له غير أن هذا تدقيق في المعنى، فتصير الآية على هذا متشابهة، لان ذلك معلوم بالادلة. قد يكون الشئ محكاما من وجه ومتشابهة من وجه كما يكون معلوما من وجه، ومجهولا من وجه، فتصح الحجة به من وجه المعلوم دون المجهول.

الاعراب:

و (آخر) لا ينصرف لانه معدول عن الالف واللام وهو صفة. وقال الكسائي:

لأنه صفة. قال المبرد: هذا غلط، وقال (لبد) صفة وكذلك (حطم) وهما منصرفان قال الله تعالى " أهلكت مالا لبدأ " (١) وحكي عن أبي عبيدة أنه قال: لم يصرفوا (أخر) لان واحده لاينصرف في معرفة ولانكرة. قال المبرد: وهذا غلط، لأنه يلزم أن لايصرف غضابا وعطاشا، لان واحده غضبان وعطشان. وهو لاينصرف.

" ١ " سورة البلد آية: ٦.

(٣٩٩)

اللغة والمعنى:

وقوله: (فأما الذين في قلوبهم زيغ) يعني ميل يقال: أزاعه الله إزاعة أي أماله إمالة قال تعالى " فلما زاعوا ازاع الله قلوبهم " (١) ومنه قوله: " لا تزغ قلوبنا " (٢) والتزايغ التمايل في الاسنان. والمعنى إن الذين في قلوبهم ميل عن الحق اما بشك أو جهل فان كليهما زيغ " يتبعون ما تشابه منه " ومعناه يحتجون به في باطلهم " ابتغاء الفتنة " ومعناه طلبا للفتنة " وابتغاء تأويله " والتأويل:

التفسير وأصله المرجع، والمصير من قولهم: آل أمره إلى كذا يؤول أولا إذا صار إليه. وأولته تأويلا إذا صيرته إليه. وقوله: " وأحسن تأويلا " (٣) قيل معناه أحسن جزاء، لان أمر العباد يؤول إلى الجزاء. وأصل الباب: المصير " وما يعلم تأويله " يعني تفسيره " إلا الله والراسخون في العلم " يعني الثابتون فيه تقول: رسخ الشئ رسوخا إذا ثبت في موضعه. وأرسخته إرساخا، كما أن الخبر يرسخ في الصحيفة، ورسخ الغدير إذا ذهب مأؤه، فنضب، لأنه ثبت وحده من غير ماء، وأصل الباب الثبوت.

النزول:

وقال الربيع: نزلت هذه الآية في وفد نجران، لما حاجوا النبي (صلى الله عليه وآله) في المسيح، فقالوا: أليس هو كلمة الله وروح منه؟ فقال بلى، فقالوا: حسبنا، فأنزل الله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) ثم أنزل (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (٤)

وقال قتادة: بل كل من احتج بالمتشابه لباطله، داخل فيه، فمنهم الحرورية والسبائية، وغيرهم.

" ١ " سورة الصف آية: ٥ " ٢ " سورة آل عمران آية: ٨.

" ٣ " سورة النساء آية: ٥٨، وسورة الاسرى آية: ٣٥.

" ٤ " سورة آل عمران آية: ٥٩.

(٤٠٠)

المعنى والاعراب اللغّة:

وقوله: " ابتغاء الفتنة " قال السدي: الفتنة ههنا الشرك. وقال مجاهد:

اللبس. وقيل الضلال عن الحق، وهو أعم فائدة. وأصل الفتنة: التخليص من قولهم فتنت الذهب بالنار: إذا أخلصته، فالذي يبتغي الفتنة، يبتغي التخليص إلى الضلال بما يورده من الاشياء. وقوله: (وما يعلم تأويله إلا الله) قيل في معناه قولان: أحدهما - ما يعلم تأويل جميع المتشابه " إلا الله "، لأن فيه ما يعلم الناس، وفيه مالا يعلمه الناس من نحو تعيين الصغيرة عند من قال بها، ووقت الساعة، وما بيننا وبينها من المدة. هذا قول عائشة، والحسن، ومالك، واختاره الجبائي، وأكثر المتأولين. وعندهم أن الوقف على قوله " إلا الله " ويكون قوله:

" والراسخون في العلم يقولون آمنا به " مستأنفاً والتأويل على قولهم: معناه المتأول، كما قال تعالى " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله " يعني الموعود به. والوجه الثاني - ما قاله ابن عباس، ومجاهد، والربيع " وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم " يعلمونه قائلين آمنا كما قال الشاعر:

والريح تبكي شجرة * والبرق يلمع في الغمامة

يعني والبرق أيضا يبكيه لامعا في غمامة. وقوله " (كل من عند ربنا)

حذف المضاف من " كل " عند البصريين، لأنه اسم دال على المضاف كثير في الكلام فلا يجيزون " إنا كل فيها " على الصفة ويجيزه الكوفيون، لأنه إنما حذف عندهم لدالاته على المضاف فقط إسما كان أو صفة. وإنما بني قبل على الغاية، ولم يبين كل، وإن حذف من كل واحد منهما المضاف، لأن قبل ظرف يعود، وينكر، ففرق بين ذلك بالبناء الذي يدل على تعريفه بالمضاف، والاعراب الذي يدل على تكثيره بالانفصال، وليس كذلك كل لأنه معرفة في الافراد دون نكرة فأما (ليس غير)

فمشبه بحسب لما فيه من معنى الامر.

(٤٠١)

وقوله تعالى:

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) (٨) آية.

المعنى:

هذه حكاية عن الراسخين في العلم الذين ذكرهم في الآية الأولى، القائلين "أما به كل من عند ربنا" القائلين "ربنا لا تزغ قلوبنا" وقيل في معنى لا تزغ قلوبنا قولان: أحدهما - "لا تزغ قلوبنا" عن الحق بمنع اللطف الذي يستحق معه أن تنسب قلوبنا إلى الزيف. والثاني - قال أبو علي معناه لا تزغ قلوبنا عن الثواب بعد أن دعوتنا إليه ودللتنا عليه، ولا يجوز أن يكون المراد لا تزغ قلوبنا عن الإيمان، لأنه تعالى كما لا يأمر بالكفر كذلك لا يزيف عن الإيمان. فان قيل: هلا جاز على هذا أن يقولوا: ربنا لا تظلمنا، ولا تجز علينا؟ قلنا لان في تجز علينا تسخط السائل لاستعماله ممن جرت عادته بالجور، وليس كذلك "لا تزغ قلوبنا" على معنى سؤال اللطف، وان كان لا يجوز في حكمته تعالى منع اللطف. كما لا يجوز فعل الجور وذلك بمنزلة سؤال الملائكة في قولهم "فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم" (١) والله لا يجوز عليه خلف الوعد، كما لا يجوز عليه فعل الجور يبين ذلك قوله: "فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" (٢) ومعناه فلما مالوا عن الحق نسب الله قلوبهم إلى الزيف، لما كانت عليه. وإنما أضاف الزيف إلى القلب، وإن كان المراد به الجملة لان القلب أشرف الاعضاء، وهو محل السرور، والغم فلذلك خص بالذكر.

" ١ " سورة مؤمن آية: ٧ - ٨. " ٢ " سورة الصف آية: ٥.

(٤٠٢)

اللغة:

وقوله: (وهب لنا من لدنك رحمة) فالهبة مصدر وهبه يهبه هبة، فهو واهب. والشئ موهوب وتواهب الناس بينهم تواهبا واستوهبه استيهابا. وأصل الباب الهبة، وهي تملك الشئ من غير مثامنة. والهبة والنحلة والصلة نظائر.

ومعنى من لدنك من عندك وفي لدن خمس لغات: لدن، ولدن - بضم اللام والدادل - ولدن - بفتح اللام وتسكين الدال، وكسر النون - ولد - بحذف النون -
قوله تعالى:

(ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) (٩) آية بلا خلاف.

معنى الآية (ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) للجزاء "إن الله لا يخلف الميعاد" في وعده ولا وعيد "فاغفر لنا" فان قيل هل في قوله: "إن الله لا يخلف الميعاد" متصل بالدعاء على جهة الحكاية أو استئناف. قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه متصل بالدعاء، لان حمل الكلام على الاتصال إذا صح المعنى أولى من حمله على الانفصال، لان الاتصال أقرب إلى التشاكل، وأبعد من التنافر.

الثاني - أنه على الاستئناف لانه لو كان على الاتصال لقال انك لاتخلف الميعاد، فاختر أبو علي الجبائي هذا الوجه، وأجاز الزجاج الامرين. وقد يجوز حمل الكلام تارة على المخاطبة وتارة على الغيبة تصرفا في الكلام، كما قال: " حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة " (١) والاية دالة على أنه لا يخلف وعده، ولا وعيده، ولا ينافي ذلك ما يجوزه من العفو عن فساق أهل الملة، لان مايجوز العفو عنه ذا عفا كشف ذلك عندنا أنه ما عناه بالخطاب، وإنما الممنوع منه أن يعنيه بالخطاب وبأنه لايعفو عنه ثم يعفو، فيكون ذلك خلفا في الوعيد وذلك لايجوز عليه تعالى.

" ١ " سورة يونس آية: ٢٣.

(٤٠٣)

والميعاد، والوعد إذا اطلقا تناولا الخير، والشر. يبين ذلك قوله (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) (١) ولايجوز أن يقال وعد بالخير فأما وعد بالشر، فيجوز. واللام في قوله: " ليوم لاريب فيه " معناه في يوم وإنما جاز ذلك لما دخل الكلام من معنى اللام وتقديره جامع الناس للجزاء في يوم لاريب فيه، فلما حذف لفظ الجزاء دخلت على مايليه فأغنيت عن في لان حروف الاضافة متأخية، لما يجمعها من معنى الاضافة. قد كان يجوز فتح أن في قوله: " إن الله لا يخلف " على تقدير " جامع الناس ليوم لاريب فيه " ل " إن الله لا يخلف الميعاد " ولم يقرأ به. قوله تعالى:

(إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا واولئك هم وقود النار) (١٠) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى:

إن قيل كيف تتصل هذه الاية بما قبلها؟ قلنا: اتصال الوعيد بالدعاء، للاخلاص منه خوفا من استحقاق المتوعد به، والفرق بين " لن تغني عنهم من الله " وبين لن تغنيهم عن الله شيئا. أن لن تغنيهم عن الله لا يدل على الوعيد كما يدل " لن تغني عنهم من الله " لان تقديره من عذاب الله. ومعنى من ههنا يحتمل أمرين: قال أبو عبيدة معناها: عند. وقال المبرد: من ههنا على أصلها، لابتداء الغاية. وتقديره " لن تغني عنهم " غناء ابتداء الشيء الذي خلقه، ولايكون الغناء إلا منه، فمن هذه تقع على ما هو أول الغناء وآخره والوقود: الحطب، والوقود اللهب. وهو إيقاد النار. والغنى ضد الحاجة. وبمعنى " لن تغني عنهم من الله " أنه إن يكون شئ تبقى الحاجة إلى الله تعالى بل الحاجة باقية على كل حال.

(٤٠٤)

قوله تعالى:

(كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فاخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) (١١)
آية بلا خلاف.

اللغة:

الدأب: العادة، يقال دأب يدأب دأبا ودأبا إذا اعتاد الشيء وتمرن عليه.

قال امرؤ القيس:

كذاب من أم الحويرث قبلها * وجارتها أم الرباب بمأسل (١)
أي كعادتك من أم الحويرث.

المعنى:

ومعنى قوله: " كذاب آل فرعون " كعادتهم في التكذيب بالحق وقيل في الكفر وقيل في قبح الفعل وقيل في تكذيب الرسل وكل ذلك متقارب في المعنى. وقال قوم: معناه كذاب آل فرعون في عقاب الله إياهم على ما سلف من ذنوبهم، ومعاصيهم، والكاف في قوله: " كذاب آل فرعون " متصلة بمحذوف.

وتقديره عادتهم كذاب آل فرعون. وموضع الكاف رفع لانها في موضع خبر الابتداء، ولا يجوز أن يعمل فيها كفروا، لان صلة الذي قد انقطعت بالخبر، وهو " لن تغني عنهم أموالهم " ولا أولادهم ولكن يجوز نصبه ب (وقود النار)، لان فيه معنى الفعل على تقدير تتقد النار باجسادهم كما تتقد باجسام آل فرعون

(٤٠٥)

فهذا تقديره في المعنى. وقوله: " فاخذهم الله بذنوبهم " بمعنى عاقبهم الله بذنوبهم وسمى المعاقبة مؤاخذا لانها أخذ بالذنب والاخذ بالذنب عقوبة والذنب والجرم واحد تقول أذنب يذنب

اذنابا فهو مذنب والذنب التلو للشئ ذنبه يذنبه ذنبا إذا تلا والذنوب الدلو لانها تالية للحيل في
الجنب والذنوب النصيب لانه كالدلو في الانعام قال الشاعر:
لنا ذنوب ولكم ذنوب * فان أبيتم فلنا قليب (١)
والذنوب: الفرس الوافر شعر الذنب. وأصل الباب: التلو، فالذنب الجرم لما يتلوه من استحقاق
الذم كما قيل العقاب، لانه يستحق عقيب الذنب.
قوله تعالى:

(قل للذين كفروا ستغلبون ويحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) (١٢) آية.
القراءة، والحجة:

قرأ أهل الكوفة إلا عاصما سيغلبون، ويحشرون بالياء، فيهما: الباقون بالتاء. من اختار التاء،
فلقوله: " قد كان لكم آية في فئتین " فأجري جميعه على الخطاب. ومن اختار الياء، فالتصرف
في الكلام والانتقال من خطاب المواجه إلى الخبر بلفظ الغائب. وقيل: إن الخطاب لليهود.
والاخبار عن عبدة الاوثان لان اليهود أظهروا، الشماتة بما كان من المشركين يوم أحد، فقيل
لهم سيغلبون يعني المشركين. وعلى هذا لا يجوز إلا بالياء. وقيل التاء في عموم الفريقين.
ومثله قال زيد المال ماله. وقال المال مالي. وقل له سخرج وسيخرج. وكل ذلك جائز حسن.

" ١ " اللسان: (ذنب). وروايته: (لها ذنوب) بدل (لنا ذنوب) و (والقليب)
بدل (قليب).

(٤٠٦)

النزول:

وقال ابن عباس، وقتادة وابن اسحاق: إن هذه الآية نزلت لما هلكت قريش يوم بدر، فجمع
النبي (صلى الله عليه وآله) اليهود بسوق قينقاع فدعاهم إلى الاسلام وحذرهم مثل منازل بقريش
من الانتقام، فقالوا: لسنا كقريش الاغمار الذين لا يعرفون القتال، لئن حاربتنا لتعرفن البأس.
فانزل الله " قل للذين كفروا سيغلبون ويحشرون " الآية المعنى:
ومعنى " وبئس المهاد " قال مجاهد: بئس مامهدوا، لانفسهم. وقال الحسن:
معناه بئس القرار، وقيل بئس الفراش الممهد لهم، وقال البلخي: لا يجوز الوعد، والوعيد بغير
شرط، لان فيه بأسا من الايمان أو الكفر وذلك بمنزلة الصد عنه.
وتأول الآية على حذف الشرط، فكأنه قال: وبئس المهاد لمن مات على كفره غير تائب منه.
وقال الرماني: وهذا لا يصح من قبل أن السورة قد دلت على معنى الوعد من غير شرط
يوجب الشك، فلو كان في قطع الوعيد بأس بمنزلة الصد عن الايمان لكان في قطع الوعد

بأمان ما يوجب الاتكال عليه دون ما يلزم من الاجتهاد. والذي يخرج من ذلك أن العقاب من أجل الكفر كما أن الثواب من أجل الايمان. وهذا ليس بشئ، لأن للبلخي أن يشترط الوعد بالثواب بانتفاء ما يبطله من الكبائر، كما أنه شرط الوعيد بالعقاب بانتفاء ما يزيله من التوبة، فقد سوى بين الامرين. وقال البلخي والجبائي: قوله: " وبئس المهاد " مجاز كما قيل للمرض: شر، وإن كان خيرا من جهة أنه حكمة، وصواب، فقيل لجهنم " بئس المهاد " لعظيم الالام، لأن أصل نعم وبئس: الحمد، والذم إلا أنه كثر استعماله في المنافع، والمضار حتى سقط عن اسم مجاز. وإن كان مغيرا عن أصله.

وفي الآية دلالة على صحة نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) لأنها تضمنت الخبر عما يكون من

(٤٠٧)

غلبة المؤمنين للمشركين. وكان الامر على ما قال، ولا يكون ذلك على الاتفاق، وكما أنه بين أخبار كثيرة من الاستقبال، فكان كما قال، فكما أن كل واحد منهما كان معجزا، لانه من علام الغيوب اختص به الرسول ليبينه من سائر الناس كذلك هذه الآية. قوله تعالى:

(قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار) (١٣) آية واحدة. القراءة، والحجة:

قرأ أهل المدينة، وأبان عن عاصم، وابن شاهي عن حفص " ترونهم " بالتاء الباقون بالياء. من قرأ بالياء، فلان الخطاب لليهود والخبر عن غيرهم ممن حضر بدرا. ومن قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى الجميع.

اللغة، والمعنى، والاعراب:

الآية: العلامة، والدلالة على صدق النبي (صلى الله عليه وآله). والفئة الفرقة من فأوت رأسه بالسيف إذا فلقتة. وقال ابن عباس: ههنا هم المؤمنون من أهل بدر ومشركوا قريش، وبه قال الحسن، ومجاهد. وقوله: (فئة) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب: الرفع على الاستئناف بتقديرهم منهم فئة كذا، وأخرى كذا. ويجوز الجر على البدل. ويجوز النصب على الحال كقول كثير:

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة * ورجل رمى فيها الزمان فشلت (١)
أنشد بالرفع والجر وقال ابن مفرغ:

" ١ " ديوانه ١ : ٤٦، ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٩٢ وهو من قصيدته التا؟

(٤٠٨)

وكنتم كذي رجلين رجل صحيحة * ورجل رماها صائب الحدثن
فأما التي صحت فأزد شنوءة * وأما التي شلت فأزد عمان (١)
وقال آخر:

إذا مت كان الناس نصفين شامت * وآخر مثن بالذي كنت أصنع
ولايجوز أن تقول مررت بثلاثة صريع وجريح بالجر، لانه لم يستوف العدة ولكن يجوز
بالرفع على تقدير منهم صريع ومنهم جريح. فان قلت: مررت بثلاثة صريع، وجريح،
وسليم، وجاز فيه الرفع والجر، فان زدت فيه اقتتلوا جاز فيه الاوجه الثلاثة. ولم يقرأ إلا
بالرفع.
المعنى:

وقال ابن مسعود، والحسن: الفئة: المسلمة هي التي كانت ترى الكافرة مثليهم. وقال السدي:
رأى المشركون المسلمين مثل عددهم، لانهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر فرأواهم أضعاف
ذلك. وهذا يحتمل على قراءة من قرأ بالياء، فأما من قرأ بالتاء، فلا يحتمل ذلك إلا أن يكون
الخطاب لليهود الذين ما حضروا وهم المعنيون بقوله: " مثل الذين كفروا " وهم يهود بني
قينقاع فكأنه قيل لهم ترون المشركين مثلي المسلمين مع أن الله ظفرهم بهم، فلا تغتروا
بكثرتم. واختار البلخي هذا الوجه واختلفوا في عدة المشركين يوم بدر، فروي عن علي (ع)
وابن مسعود أنهم كانوا الفا. وقال عروة بن الزبير، وقتادة، والربيع كانوا بين تسعمائة إلى
الالف وأما عدة المسلمين، فثلاثمائة وبضعة عشر في قول قتادة، والربيع، وأكثر المفسرين.
وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع). ومعنى " يرونهم

" ١ " الوحشيات لابي تمام: ١٨٣، وخزانة الادب ٢: ٣٧٨. وازد شنوءة: قبيلة كانت مع أهل الشام في حرب صفين،
وازد عمان: قبيلة كانت مع أهل العراق ورواية الشعر:
فكنتم كذي رجلين: رجل صحيحة * ورجل بها ريب من الحدثن

(٤٠٩)

مثليهم " يحتمل وجوها أحدها - ما روي عن ابن مسعود، وغيره من أهل العلم أن الله قلل
المشركين يوم بدر في أعين المسلمين لتقوى قلوبهم فرأواهم مثلي عدتهم.
وقال الفراء يحتمل ثلاثة أمثالهم كما يقول القائل إلى الف واحناج إلى مثليه أي مضافا إليه لا
بمعنى بدلا منه، فكذلك ترونهم مثليهم مضافا إليهم فذلك ثلاثة أمثالهم، وأنكر هذا الوجه

الزجاج، لمخالفته لظاهر الكلام. وما جاء في الآية الاخرى في الانفال من تقليل الاعداد. فان قيل كيف يصح تقليل الاعداد مع حصول الرؤية وارتفاع الموانع وهل هذا إلا ما تقوله المجبرة من أنه يجوز أن يكون بحضرتنا أشياء تدرك بعضها دون بعض بحسب ما يفعل فينا من الادراك وهذا عندنا سفسطة تقليل في المشاهدات؟ قلنا: يحتمل أن يكون التقليل في أعين المؤمنين بأن يظنونهم قليلي العدد، لانهم أدركوا بعضهم دون بعض، لان العلم بما يدركه الانسان جملة غير العلم بما يدركه مفصلا، ولهذا: إذا رأينا جيشا كبيرا أو جمعا عظيما ندرك جميعهم، ونتبين أطرافهم ومع هذا نشك في أعدادهم حتى يقع الخلف بين الناس في حزر عددهم، فعلى هذا يكون تأويل الآية. وقد ذكر الفراء عن ابن عباس أنه قال: رأى المسلمون المشركين مثلثيهم في الحزر بستمائة وكان المشركون سبعمائة وخمسين. فأما قوله في الانفال: " وإذ يريكموهم إذا التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم " (٣)

فلا ينافي هذا لان هذه آية للمسلمين أخبرهم بها وتلك آية لاهل الكفر حجة عليهم. على أنك تقول في الكلام إنني لأرى كثيركم قليلا أي تهونون على لاني أرى الثلاثة اثنين ذكره الفراء، وهو جيد. وقيل: الوجه في تقليل الكفار في أعين المؤمنين أن يكون أقوى لقلوب المؤمنين، فلا يفرعوا، ولا يفشلوا، ويتجرأوا على قتالهم. والوجه في تقليل المؤمنين في أعين الكفار إذا رأوهم قليلين استهانوا بهم واستحقروهم فلم يأخذوا إهبتهم ولم يستعدوا كل الاستعداد فيظفر بهم المؤمنون، وهو جيد أيضا. وقال البلخي إنما قال مثلثيهم وهم كانوا ثلاثة أمثالهم لانه أقام الحجة عليهم بأنهم وإن كانوا ثلاثة أمثالهم فلم يخرجوا من أن يكونوا الهامش " ١ " سورة الانفال آية: ٤٥.

(٤١٠)

مثلثيهم. والمعتمد ما قلناه أولا.

اللغة والمعنى:

وقوله: (والله يؤيد بنصره من يشاء) فالإيد القوة ومنه قوله: " داود ذا الأيد " (١) وتقول: ادته أيده أيدا، كقولك بعته أبيعته بيعة بمعنى قوته.

وأيدته أيده تأييدا. والنصر: المعونة على الاعداء، وهو على وجهين: نصر بالغبلة، ونصر بالحجة، ولو هزم قوم من المؤمنين، لجاز أن يقال: هم المنصورون بالحجة ومحمودوا العاقبة، وان سرعدوهم بظفر العاجل.

والآية التي ذكرها الله تعالى كانت في الفئتين من وجهين:

أحدهما - غلبة القليل العدد في نفسه للكثير في ذلك بخلاف ما تجري به العادة بما أمدهم الله به من الملائكة وقوى به نفوسهم من تقليل العدة. والثاني - بالوعد المتقدم بالغبلة لاحدى

الطائفتين لامحالة. وقوله: (إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار) معناه لأولي العقول، كما يقال له بصر بالأمور، وليس المراد بالابصار الحواس التي يشترك فيها سائر الحيوان. والعبرة الآية تقول: اعتبرت بالشئ عبرة واعتبارا والعبور: النفوذ عبرت النهر أعبره عبورا: إذا قطعته. والمعبرة: السفينة التي يعبر فيها. والعبارة الكلام، يعبر بالمعنى إلى المخاطب، فالعبارة تفسير الرؤيا. والتعبير وزن الدنانير، وغيرها. والعبرة: الدمعة من العين. وأصل الباب العبور النفوذ.

قوله تعالى:

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك " الهامش ١ " سورة ص آية: ١٧

(٤١١)

متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) (١٤) آية واحدة بلا خلاف.

المعنى، واللغة:

قيل في المزين لحب الشهوات ثلاثة أقوال: قال الحسن: زينه الشيطان، لانه لا أحد أشد ذمًا لها من خالقها. الثاني - ما قاله الزجاج: انه زينه الله بما جعل في الطباع من المنازعة، كما قال تعالى " إنا جعلنا ما على الارض زينة لها " (١)

الثالث - ما قاله أبو علي أنه زين الله عزوجل ما يحسن منه، وزين الشيطان ما يقبح منه. والشهوات: جمع شهوة وهي توقان النفس إلى الشئ يقال: اشتهى يشتهي شهوة، واشتهاء وشهاه تشهية، وتشهى تشهيا. والشهوة من فعل الله تعالى لايقدر عليها أحد من البشر، وهي ضرورية فينا، لانه لا يمكننا دفعها عن أنفسنا.

والقناطير: جمع قنطار. واختلفوا في مقدار القنطار، فقال معاذين جبل، وابن عمر، وأبي بن كعب، وأبو هريرة: هو ألف ومأتا أوقية. وقال ابن عباس، والحسن، والضحاك: هو ألف ومأتا مثقال. وروي عن الحسن أيضا أنه ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم. وقال قتادة: ثمانون ألفا من الدراهم أو مائة رطل.

وقال مجاهد، وعطا: سبعون ألف دينار. وقال أبو نضر هو ملء مسك ثور ذهبيا. وبه قال الفراء: وهو المروي عن أبي جعفر. وقال الربيع وابن أنس: هو المال الكثير. ومعنى المقنطرة: المضاعفة - على قول قتادة - وقال الفراء: هي تسعة قناطير، وقيل هي كقولك دراهم مدر همة أي مجعولة كذلك. وقال السدي مضروبة دراهم أو دنانير. والقنطرة: البناء المعقود للعبور والقنطر الداهية. وأصل الباب القنطرة المعروفة. والقنطار لانه مال عظيم كالقنطرة. والذهب، والفضة معروفان

(٤١٢)

وتقول فضضته تفضيضا. وفض الجمع يفضه فضا إذا فرقه. ومنه قوله: " لا نفضوا من حو؟ " (١) وفضضت الخاتم كسرتة ولايفضض الله فاك أي لا يكسره. وافتضضت الماء: إذا شربته. وأصل الباب التفرق.

والخيل: الأفراس سميت خيلا، لاختيالها في مشيها. والاختيال: من التخيل، لانه يتخيل به صاحبه في صورة من هو أعظم منه كبرا. والخيال كالظل، لانه يتخيل به صورة الشئ تقول: خلت زيدا أخال خيلانا إذا خشيته لانه يتخيل إلى النفس أنه هو. والاخليل: الشقراق وهو طائر الغالب عليه الخضرة مشرب حمرة، لانه يتخيل مرة أخضر ومرة أحمر. وأصل الباب التخيل: التشبه بالشئ، ومنه أخال عليه الامرخييل إذا اشتبه عليه، فهو مخيل.

وقوله: " المسومة " قيل في معناه أربعة أقوال قال سعيد بن جبير وابن عباس والحسن والربيع هي الراعية وقال مجاهد وعكرمة والسدي: هي الحسنه، وقال ابن عباس في رواية، وقتادة: المعلمة. وقال ابن زيد: هي المعدة للجهاد فمن قال: هي الراعية، فمن قولهم: اسمت الماشية وسومتها إذا رعيتها. وسأمت، فهي سائمة ذا كانت راعية، ومنه تسيمون: أي ترعون. ومن قال: الحسنه فمن السيماء مقصور. ويقال فيه سيميا أيضا وهو الحسن. قال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعا * له سيميا ليشق على البصر

ومن قال المعلمة، فمن السيماء التي هي العلامة كقوله تعالى: " يعرف المجرمون بسيمياهم " ومن قال المعدة للجهاد، فهو راجع إلى العلامة لانها معدة بالعلامة وأصل الباب العلامة. وقوله: " والانعام " فهي الابل، والبقر، والغنم من الضان والمعز ولا يقال لجنس منها على الانفراد نعم إلا الابل خاصة لانه غلب عليها في التفصيل والجملة. والحرث: الزرع. وقوله: (ذلك متاع الحياة الدنيا)

فالمتاع: ما يستنفع به مدة ثم يفنى. وقوله: (والله عنده حسن الماب) فالماب:

(٤١٣)

المرجع من آب يؤوب أوبا وإيابا وأوبة، ومآبا إذا رجع وتأوب تأوبا: إذا ترجع وأوبه تأويبا: إذا رجعه. وأصل الباب الاوب الرجوع.

قوله تعالى:

(قل أُوْنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدین فیها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصیر بالعباد) (١٥) آية واحدة بلا خلاف.
القراءة والمعنى:

قرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر ورضوان - بضم الراء - الباقون بكسرها فالضم لغة قيس، وتميم. والكسر لغة أهل الحجاز. وقيل في آخر الاستفهام بقوله أُوْنبئكم قولان: أحدهما - ان اخره عند قوله بخير من ذلكم، ثم استأنف للذين اتقوا.

الثاني - عند قوله: " عند ربهم ثم استأنف جنات على تقدير الجواب، كأنه قيل:

ما هو ذلك الخير، فقيل هو جنات. ومثله: " قل أُوْنبئكم بشر من ذلك النار " (١)

أي هي النار، ويجوز في إعراب جنات في العربية الرفع، والجر، فالجر على أن يكون في آخر الكلام عند ربهم. ولايجوز الجر على الوجه الآخر للفصل باللام، كما لايجوز أمرت لك بالفين ولاخيك مأتين حتى تقول بمأنتين ولو قدمت فقلت ومأتين لاخيك جاز، ولايجوز النصب في جنات على موضع الباء فيما لم يكن الباء فيه زائدة كما لا يحسن مررت برجل زيدا ويحسن خشنت بصدرة وصدر زيد، لان الباء زائدة، ولايجوز أن تكون زائدة في بخير لان نبات لايجوز الاقتصار فيه على المفعول الثاني دون الثالث، لانه بمعنى أعلمت، ولايجوز أعلمت زيدا

" ١ " سورة الحج آية: ٧٢.

(٤١٤)

أخاك حتى تقول خيرا من عمرو، أو نحوه. وقد تقدم تفسير الجنات والانهار.
وقوله: (خالدین) نصب على الحال ومعنى تأويل قوله: " وأزواج مطهرة " فلا معنى لاعادته. والرضا والمرضاة: معنى واحد. ومعنى قوله: " للذين اتقوا " يعني ما حرم عليهم - في قول الحسن - . فان قيل ما تقولون أنتم لانكم تقولون إن من لايتقى جميع ما حرم عليه إذا كان عارفا بالله ومصداقا لجميع ما وجب عليه موعود له بالجنة؟ قلنا: نقول إن هذه الآية تدل على أن من اتقى جميع ما حرم عليه، فله الجنة، وما وعد بها من غير أن يقترب بها شئ من استحقاق العقاب قطعا. ومن ليس معه إلا التصديق بجميع ما وجب عليه وقد أحل بكثير من الواجبات وارتكب كثيرا من المحظورات فانا نقطع على استحقاقه الثواب مع استحقاقه للعقاب ونجوز فعل العقاب به ونجوز العفو عنه مع القطع على وجوب الثواب له، ففارق المتقي على ما تراه.

قوله تعالى:

(الذين يقولون ربنا إنما آمانا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) (١٦) آية بلا خلاف.

الاعراب:

موضع الذين يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب الجر. والرفع، والنصب.
فالجر للاتباع، للذين اتقوا والرفع على تقديرهم الذين يقولون. والنصب على المدح وتقديره
أعني.

اللغة:

وقوله: (فاغفر لنا ذنوبنا) فالمغفرة هي الستر للذنب برفع التبعة، والذنب، والجرم بمعنى واحد
وإنما الفرق بينهما من جهة الاصل، لان أصل الذنب الاتباع،

(٤١٥)

فالذنب ما يتبع عليه العبد من قبيح عمله كالتبعة والجرم أصله القطع، فالجرم القبيح الذي
ينقطع به عن الواجب، والفرق بين القول، والكلام أن القول فيه معنى الحكاية وليس كذلك
الكلام.

المعنى:

وقوله: (وقنا عذاب النار) قيل في معنى هذه المسألة قولان:

أحدهما - مسألة الله ما هو من حكمه نحو قوله: "فاغفر للذين تابوا" والفائدة في هذا الدعاء
التعبد بما فيه مصلحة للعباد. الثاني - مسألة الله عزوجل ما لا يجوز أن يعطيه العبد إلا بعد
المسألة لانه لا يكون لطفًا إلا بعد المسألة وعلى مذهبا وجه حسن السؤال إن العفو تفضل من
الله لا يجب عند التوبة، ويجوز أيضا العفو مع عدم التوبة، فيكون وجه السؤال " اغفر لنا
ذنوبنا وقنا عذاب النار " ان منا مصرين ولم نتب.

قوله تعالى:

(الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار) (١٧).

الاعراب، واللغة، والمعنى:

الصابرين نصب على المدح وكذلك باقي الصفات، ويجوز أن تكون جرا صفات " للذين اتقوا
" ومعنى الصابرين: الحابسين نفوسهم بمنعها عما حرم الله (تعالى) عليها، فالصابر المدوح:
هو الحابس نفسه عن جميع معاصي الله، والمقيم على ما أوجب عليه من العبادات، والصادقين
هم المخبرون بالشئ على ما هو به وهي أيضا صفة مدح " والقانتين " قال قتادة: هم
المطيعون. وقال الزجاج: هم الدائمون على العبادة، لان أصل القنوت الدوام. " والمنفقين ":

الذين يخرجون ما أوجب الله عليهم من الزكوات، غيرهما من الحقوق. ويدخل في: لك المتطوعون

(٤١٦)

بالانفاق فيما رغب الله في الانفاق فيه. " والمستغفرين بالاسحار " قال قتادة: هم المصلون بالاسحار. وقال أنس بن مالك: هم الذين يسألون المغفرة، وهو الاظهر. والاول جائز أيضا، لانه قد تطلب المغفرة بالصلاة، كما تطلب بالدعاء. اللغة:

والاسحار: جمع سحر، وهو الوقت الذي قبل طلوع الفجر. وأصله: الخفاء، وسمي السحر، لخفاء الشخص فيه. ومنه السحر، لخفاء سببه. ومنه السحر الرثة لخفاء موضعها. والمسحر الذي يأكل الطعام لخفاء مسالكة. وروي عن أبي عبدالله أن من استغفر الله سبعين مرة في وقت السحر، فهو من أهل هذه الاية. قوله تعالى:

(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم (١٨).

المعنى:

حقيقة الشهادة الاخبار بالشئ عن مشاهدة أو ما يقوم مقام الشهادة من الدلالات الواضحة، والحجج اللائحة على وحدانيته من عجيب خلقه، ولطيف حكمته في ما خلق. وقال أبو عبيدة: معنى " شهد الله " قضى الله " أنه لا إله إلا هو والملائكة " شهود " وأولو العلم " وحكى عمرو بن عبيد عن الحسن، وروي ذلك في تفسيرنا أن في الاية تقديما، وتأخيرا. وتقديرها " شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط " أي بالعدل، وشهد الملائكة أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط، وشهد أولو العلم أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط. وأولو العلم: هم المؤمنون.

(٤١٧)

القرأة، والحجة، والاعراب:

وقرأ أبوالمهلب عمر بن محارب بن دثار " شهداء الله " على وزن فعلاء جمع شهيد، نصب على الحال برده على ما قبله من الكلام كأنه قال: الذين يقولون ربنا إنا آمننا شهداء الله أنه لا إله إلا هو، وهي جائزة غير أنها شهادة لم يوافق عليها أحد من قراء الامصار، ذكر ذلك البلخي. و (إن) الاولى، والثانية تحتمل أربعة أوجه من العربية، فتحهما جميعا وكسرها جميعا، وفتح الاولى وكسر الثانية، وكسر الاولى وفتح الثانية. فمن فتحهما أوقع الشهادة على

أن الثانية وحذف حرف الاضافة من الاولى، وتقديره "شهد الله أنه لا إله إلا هو" "إن الدين عند الله الاسلام" (١) وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون نصبها على البدل من شيئين. أحدهما - من قوله "إنه لا إله" وتقديره شهد الله "إن الدين عند الله الاسلام" ويجوز بدل الشيء من الشيء وهو هو.

والثاني - أن يكون بدل الاشتمال، لأن الاسلام يشتمل على التوحيد والعدل وغير ذلك. ومن كسرهما اعترض بالاولى للتعظيم لله عزوجل به كما قيل لبيك إن الحمد. وكسر الثانية على الحكاية، لأن في معنى شهد معنى قال. وقال المؤرخ: شهد بمعنى قال بلغة قيس عيلان. الثالث - من فتح الاولى وكسر الثانية - وهو أجودها، وعليه أكثر القراء - أوقع الشهادة على الاولى واستأنف الثانية وهو أحسن الوجوه وأظهرها.

الرابع - من كسر الاولى، فعلى الاعتراض، ثم فتح الثانية بإيقاع الشهادة عليها. وهو المروي عن ابن عباس، وقيل في نصب قائما قولان: أحدهما - أنه حال من اسم الله على تقدير شهد الله قائما بالقسط. الثاني - على الحال من هو وتقديره لا إله إلا هو قائما بالقسط. وقال مجاهد:

" ١ " سورة آل عمران آية: ١٩.

(٤١٨)

معنى قائما بالقسط أي قائما بالعدل كما تقول: قائما بالتدبير أي يجريه على الاستقامة فكذلك يجري التدبير على الاستقامة والعدل في جميع الامور. قوله تعالى:

(إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب (١٩) آية. القراءة، واللغة، والمعنى:

قرأ " أن الدين " بفتح الهمزة الكسائي وحكي ذلك عن ابن مسعود. الباقر بكسرها وقد بينا الوجه فيه. معنى الدين ههنا الطاعة فمعناه ان الطاعة لله عزوجل هي الاسلام. قال الاعشى:

هردان الرباب إذ كرهوا الد * ين دراكا بغزوة وصيال (١)
ومعناه ذلكم للطاعة، إذكر هو الطاعة والدين الجزاء. من قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزي. ومنه قوله: " مالك يوم الدين " أي يوم الجزاء، وسميت الطاعة ديناً، لانها للجزاء. ومنه الدين، لانه كالجزاء في وجوب القضاء.

والاسلام أصله السلم، فأسلم معناه دخل في السلم كقولهم أقحط بمعنى دخل القحط وأربع دخل في الربيع، وأصل السلم السلامة، لأنه انقياد على السلامة، ويصلح أن يكون أصله التسليم، لأنه تسليم، لأمر الله، والتسليم من السلامة، لأنه تأدية الشئ على السلامة من الفساد والنقصان، فالاسلام: هو تأدية الطاعات على السلامة من الادغال، والاسلام، والايمان عندنا وعند المعتزلة بمعنى واحد غير أن عندهم أن فعل الواجبات من أفعال الجوارح من الايمان (وعندنا أن أفعال

" ١ " انظر ٢: ١٤٧.

(٤١٩)

الواجبات من أفعال الجوارح من الايمان) (١) وعندنا أن أفعال الواجبات من أفعال القلوب - التي هي التصديق - من الايمان، فأما أفعال الجوارح، فليست من الايمان، وإن كانت واجبة. وقد بينا ذلك في ما مضى وسنبينه إن شاء الله.

والاسلام:؟ الانقياد لكل ما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) من العبادات الشرعية وترك النكير عليه، والاستسلام له، فاذا قلنا: دين المؤمن هو الايمان، وهو الاسلام، فالاسلام هو الايمان. ونظير ذلك قولنا. الانسان، والانسان حيوان على الصورة الانسانية، فالحيوان على الصورة الانسانية بشر.

وقوله: (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) قال الربيع: المراد بالكتاب:

التوراة. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: هو الانجيل. وقال الجبائي: خرج مخرج الجنس، ومعناه كتب الله المتقدمة التي بين فيها الحلال والحرام.

والاختلاف ذهب أحد النفيسين إلى خلاف ما ذهب إليه الاخر فهذا الاختلاف في الايمان. فأما الاختلاف في الاجناس، فهو امتناع أحد الشيثيين أن يسد مسد الاخر فيما يرجع إلى ذاته. والبغي: طلب الاستعلاء بالظلم وأصله من بغيت الحاجة إذا طلبتها، وليس في الآية ما يدل على أن الذين اختلفوا بغيا كانوا معاندين، لان البغي قد يحمل على العدول عن طريق العلم، كما يحمل على عناد أهل العلم. ولانه قد يقع الخلف بينهم وإن كانوا بأجمعهم مبطلين، كاختلاف اليهود والنصارى في المسيح، فنسبه النصارى إلى الالهية، واليهود إلى الفرية.

الاعراب، والمعنى:

والعامل في " بغيا بينهم " يحتمل أمرين: أحدهما - (اختلف) هذا المذكور، وتقديره: وما اختلف فيه بغيا بينهم إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم، هذا قول الاخفش وقال الزجاج: نصبه محذوف دل عليه اختلف المذكور، وتقديره اختلفوا بغيا بينهم. وقوله: (ومن يكفر بآيات الله) معناه: من يجحد آيات الله

" ١ " ما بين القوسين زائد حسب ما يظهر.

(٤٢٠)

يعني أدلته وبينا؟ " فان الله سريع الحساب " وفي الاخر سريع الحساب للجزاء. قوله تعالى:

(فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين ءأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) (٢٠) آية بلا خلاف.

المعنى:

المعنى بقوله: " فان حاجوك " نصارى نجران - على قول جميع المفسرين - فان قيل: لمن قال: " ومن اتبعن " ولم يؤكد الضمير، فلم يقل: اسلمت أنا ولا يجوز أن يقول القائل قمت وزيد إلا بعد أن يقول قمت أنا وزيد؟ قيل: إنما جاز ههنا لطول الكلام، فصار طولوه عوضا من تأكيد الضمير المتصل، ولو قال اسلمت وزيد لم يجز حتى يقول: أسلمت أنا وزيد، فاذا قال: أسلمت اليوم بانسراح صدري ومن جاء معي حسن. فان قيل ما الحجة في قوله: " فقل اسلمت وجهي لله "؟ قلنا فيه وجهان:

أحدهما - أنه أراد إلزامهم على - ما أقروا به من أن الله خالقهم - اتباع أمره في " ألا تعبدوا إلا إياه " (١) فلذلك قال: " اسلمت وجهي لله " أي انقذت لامره في اخلاص التوحيد له. الثاني - أنه ذكر الاصل الذي يلزم جميع المكلفين الاقرار به لانه لا ينتقض في ما يحتاج إلى العمل عليه في الدين الذي هو طريق النجاة من العذاب إلى النعيم، ومعنى قوله: " وجهي " يريد نفسي وإنما أضاف الاسلام إلى الوجه، لانه لما كان وجه الشئ أشرف ما فيه ذكر بدلا منه ليبدل على شرف الذكر. ومثله " كل شئ هالك إلا وجهه " (٢) أي إلا هو. وقوله: (وقل للذين أتوا الكتاب)

" ١ " سورة الاسرى آية: ٢٣. " ٢ " سورة القصص آية: ٨٨.

(٤٢١)

يعني اليهود والنصارى، " والاميين " الذين لا كتاب لهم على قول ابن عباس وغيره. من أهل التأويل، وهم مشركوا العرب، كما قال: " هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم " (١) وقال: " النبي الامي " (٢) أي الذي لا يكتب. وإنما قيل لمن لا يكتب أمي، لانه نسب إلى ما عليه الامة في الخلقة لانهم خلقوا لا يكتبون شيئا. وإنما يستفيدون الكتابة.

وقوله: (ومن اتبعن) من حذف الياء اجتزاء بالكسرة وإنما حذفها حمزة، والكسائي وعاصم، وحذف الياء في أواخر الاي أحسن لأنها تشبه القوافي. ويجوز في وسط الاي أيضا وأحسنها ما كان قبلها نون مثل قوله: " ومن اتبعن "، فان لم يكن نون، فانه يجوز أيضا نحو قولك هذا غلام، وما أشبه ذلك. والاجود أن تقول هذا غلامي وإن شئت أسكنت الياء. وإن شئت فتحتها وقوله: (أسلمتم) أمر في صورة الاستفهام، وإنما كان كذلك، لانه بمنزلة طلب الفعل،

والاستدعاء إليه فذكر ذلك للدلالة على أمرين من غير تصريح به ليقر المأمور به بما يلزمه فيه، كما تقول لمن توصيه بما هو أعود عليه: أقبلت هذا. ومعناه اقبل، ومثله قوله تعالى: " فهل أنتم منتهون " (٣) معنا ٠ ه انتهوا، وأقروا به. وتقول لغيرك: هل أنت كاف عنا. ومعناه اكفف. ويقول القائل لغيره: أين أنت، ومعناه اثبت مكانك لاتبرح. وقوله: (فان اسلموا فقد اهتدوا) معناه اهتدوا إلى طريق الحق " وان تولوا " معناه كفروا، ولم يقبلوا واعرضوا عنه " فانما عليك البلاغ " ومعناه عليك البلاغ، فقط دون ألا يتولوا، لانه ليس عليك ألا يتولوا. وقوله: " والله بصير بالعباد " معناه ههنا لا يفوته شئ من أعمالهم التي يجازيهم بها، لانه بصير بهم أي عالم بهم وبسائرهم وظواهر أعمالهم، لا يخفى عليه خافية. وقيل معناه يعلم ما يكون منك في التبليغ، ومنهم في الايمان، والكفر.

" ١ " سورة الجمعة آية: ٢. " ٢ " سورة الاعراف آية: ١٥٦، ١٥٧. " ٣ " سورة المائدة آية: ٩٤.

(٤٢٢)

قوله تعالى:

(إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب.

أليم " (٢١) آية واحدة.

القراءة:

قرأ حمزة ونصير " ويقاتلون الذين يأمرون " بالف لان في مصحف عبدالله " وقاتلوا " والاجود ما عليه الجماعة.

المعنى:

وقوله: " إن الذين يكفرون " معناه يجحدون " آيات الله " يعني حججه وبيانه " ويقتلون النبيين " روى أبو عبيدة بن الجراح قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة قال: رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر، ثم قرأ رسول الله " ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم " ثم قال يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوه عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار في ذلك اليوم،

وهم الذين ذكرهم الله. واستدل الرماني بذلك على جواز انكار المنكر مع خوف القتل، وبالخبير الذي رواه الحسن عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر يقتل عليها. وقال عمرو بن عبيد: لانعلم عملا من أعمال البشر أفضل من القيام بالقسط يقتل عليه. وهذا الذي ذكروه غير صحيح، لان من شرط إنكار المنكر إلا يكون فيه مفسدة، وألا يؤدي إلى قتل المنكر، ومنى أدى ذلك إلى قتله، فقد انتفى عنه الشرطان معا فيجب أن يكون قبيحا، والاخبار

(٤٢٣)

التي رووها أخبار آحاد لايعارض بها على أدلة العقول على أنه لا يمتنع أن يكون الوجه فيها وفي قوله: " ويقتلون الذين يأمرون بالقسط " هو من غلب على ظنه أن انكاره لا يؤدي إلى مفسدة فحسن منه ذلك بل وجب وإن تعقب - في مابعد - القتل، لانه ليس من شرطه أن يعلم ذلك بل يكفي فيه غلبة الظن.

وقوله: (بغير حق) لايدل على أن قتل النبيين يكون بحق بل المراد بذلك أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق، كما قال: " ومن يدع مع الله إليها آخر لابرهان له به " (١). والمعنى ان ذلك لا يكون عليه برهان كما قال امرؤ القيس:

على لاحب لايهتدى؟ * إذا سافه العود الدنيا في جرجرا (٢)

وتقول: لاخير عنده يرجى. وأنت تريد لاخير عنده أصلا. وكذلك أراد امرؤ القيس أنه لامنار هناك، فيهتدى به قال أبو ذؤيب:

متفلق انشاؤها عن قاني * كالقرط صاو غيره لايرضع

أي ليس له بقية لبن فيرضع، ومعنى صاو في البيت صوت يابس النخلة.

وقوله: (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) معناه الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وقوله: " فبشرهم بعذاب أليم " إنما خاطبهم بذلك وإن كان الخبر عن أسلافهم من حيث رضواهم بافعالهم، فاجملوا معهم على تقدير فبشر أخلافهم بأن العقاب لهم، وكأسلافهم. فان قيل لم جاز أن تقول إن الذي يقوم، فيكرمك، ولم يجز ليت الذي يقوم فيكرمك؟ قلنا: لان دخول الفاء لشبه الجزاء، لان الذي يحتاج إلى صلة فصلتها قامت مقام الشرط، فلذلك دخل الفاء في الجواب كما دخل في جواب الشرط، وليت تبطل معنى الجزاء وليس كذلك أن لانها بمنزلة الابتداء.

قوله تعالى:

(أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والاخرة وما

" ١ " سورة المؤمنون آية: ١١٨. " ٢ " مر تخريجه في ٢: ٣٥٦.

(٤٢٤)

لهم من ناصرين) (٢٢) آية بلا خلاف.
المعنى:

حبوط العمل - عندنا - هو إيقاعه على خلاف الوجه المأمور به، فإذا أوقعه كذلك لم يستحق عليه الثواب، فجاز لذلك أن يقال: أحبط عمله، ومتى أوقعه على الوجه المنهي عنه، استحق مع ذلك العقاب، وليس المراد بذلك بطلان ما يستحق عليه من الحمد والثناء. ولابطلان الثواب بما يستحق من العقاب، لأن الثواب إذا ثبت فلا يزول على وجهه بما يستحق صاحبه من العقاب، لانه لا تنافي بين المستحقين، ولا تضاد. وأما حبوطها في الدنيا، فلانهم لم ينالوا بها مدحا ولا ثناء.

وأصل الحبوط مأخوذ من قولهم: حبطت بطون الماشية: إذا فسدت من مآكل الربيع. فعلى ما حررناه إنما تبطل الطاعة حتى تصير بمنزلة مالم تفعل إذا وقعت على خلاف الوجه المأمور به وعند المعتزلة، ومن خالفنا في ذلك أن أحدهما يبطل صاحبه إذا كان ما يستحق عليه من الثواب أو العقاب أكثر مما يستحق على الآخر فانه يبطل الأقل على خلاف بينهم في أنه يتحبط على طريق الموازنة أو غير الموازنة، قال الرماني: والفرق بين حبوط الفريضة وحبوط النافلة أن النافلة من الفاسق لابد عليها من منفعة عاجلة، لان الله رغب فيها إن أقام على فسقه أو لم يقم.

والترغيب من الحكيم لا يكون إلا لمنفعة، فأما الفريضة من الفاسق، فلانتقاض المضرة التي كان يستحقها على ترك المضرة، وهذا - على مذهبنا - لا يصح على ما فصلناه، ولا على مذهب شيوخه، لان المستحق على النوافل لا يكون إلا الثواب والثواب لا يصح فعله في دار التكليف، فكيف يصح ما قاله. وقوله: (وما لهم من ناصرين) يدل على أنه تعالى لا ينصر كافرا لانه لو نصره، لكان أعظم ناصر والله تعالى نفى على وجه العموم أن يكون لهم ناصر، ولان مفهوم الكلام أنه لا ينفعهم نصر لكفرهم.

(٤٢٥)

قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)
(٢٣) آية بلا خلاف.

المعنى:

معنى " ألم تر " ألم تعلم " إلى الذين أوتوا " معناه الذين أعطوا " نصيبا " أي حضا وإنما قيل " أوتوا نصيبا " منه، لانهم يعلمون بعض ما فيه " من الكتاب " قال ابن عباس، والزجاج، والجبائي: إنه التوراة دعي إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجة عليهم بما فيه من الدلالة على نبوة نبينا (صلى الله عليه وآله) وتصديقه. والثاني - قال الحسن، وقتادة: دعوا إلى القرآن، لان ما فيه موافق ما في التوراة في أصول الديانة وأركان الشريعة. وفي الصفة التي تقدمت البشارة بها.

والحكم الذي دعوا فيه إلى الكتاب يحتمل ثلاثة أشياء: أحدها - أن يكون نبوة النبي (صلى الله عليه وآله). والثاني - أن يكون أمر إبراهيم فان دينه الاسلام. والثالث - أن يكون حدا من الحدود، لانهم نازعوا في ذلك، وليس في القرآن دليل على تعيين ذلك وإنما هو محتمل لكل واحد منها.

والفريق بين الدعاء إلى الشئ والامر به أن الامر له صيغة مخصوصة وفيه زجر عن المخالفة عند من قال: إنه يقتضي الايجاب. والدعاء قد يكون بالخبر وغيره من الدلالات على معنى الخبر وإنما دعوا إلى المحاكمة لتظهر الحجة فأ؟ إلا المخالفة.

والحكم هو الخبر الذي يفصل الحق من الباطل بامتناعه من الالباس وهو مأخوذ من الحكمة. وهو الخبر الذي توجب صحته الحكمة. وإنما يقال حكم بالباطل لانه جعل موضع الحق باطلا بدلا منه. وقولهم ليس هذا حكم كذا معناه ليس هذا حقه فانما دعوا إلى كتاب الله ليفصل الحق من الباطل فيما اختلفوا فيه. ومعنى

(٤٢٦)

قوله: (يتولى فريق منهم وهم معرضون) فالتولي عن الشئ هو الاعراض عنه، فليس على وجه التكرار لان معناه يتولى عن الداعي، وهو معرض عما دعا إليه، لانه قد كان يمكنه أن يتولى عنه وهو متأمل لما دعا إليه، فلما لم يفعل كان العيب.

له ألزم والذم على ما فعل أعظم.

قوله تعالى:

(ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) (٢٤) آية بلا خلاف.

المعنى:

الايام المعدودات قيل فيها قولان:

أحدهما - هي الايام التي عبدوا فيها العجل وهي أربعون يوما. ذكره قتادة، والربيع، والحسن إلا أن الحسن قال: سبعة أيام. والثاني - قال الجبائي: أرادوا أياما منقطعة لانقضاء العذاب فيها وانقطاعه.

اللغة:

وقوله: (وغرهم في دينهم) فالغرور الاطماع في ما لا يصح. غره يغره غرورا، فهو مغرور واعتراه اغترارا. والغرور الشيطان، لانه يغر الناس. والغار: الغافل، لانه كالمغتر. والغرارة: الدنيا، لانها تغر أهلها. والغر: الغمر الذي لم يجرب الامور، ومصدره الغرارة، لان من شأنه أن يقبل الغرور. والغرر: الخطر الذي يقدم فيه على ما لا ينبغي، لانه كحال الغرور في الطمع المذموم. والغرارة: الوعاء، لانها تغر بعظمها وخفاء ما فيها. والغر: آثار طي الثوب. أطوه على غره أي على آثارطيه. والغرغرة: التغرغر في الحلق. والغرغرة: حكاية صوت الراعي. والغر: زق الطائر فرخه. غره يغره غرا: إذا زقه وذلك، لانه كالغرغرة في الحلق.

(٤٢٧)

والغرة: الجبهة. وأصل الباب الغرور. الطماع في غير مطعم. وقوله: (ما كانوا يفترون) فالافتراء: الكذب، وفرى فلان كذبا يفره فرية، والفري: الشق، فريت الاديم فريا، وفرية. مفرية: مشقوقة. قد تفرو بجورها أي تشق. والفري: الاصر العظيم، لانه يشق على النفس. وأصل الباب: الفري: الشق. ومنه الافتراء، لانه يشق على النفس. المعنى:

والافتراء الذي غرهم قيل فيه قولان: أحدهما - قوله: " نحن أبناء الله وأحباؤه " في قول قتادة، وقال مجاهد غرهم قوله: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) وليس في الاية ما يدل على خلاف ما نذهب إلى من جواز العفو واخراج المعاقبين من أهل الملة من النار من حيث أن الله ذم هؤلاء بانه لاتمسهم النار إلا أياما معدودات. وذلك انا لانقول أن الايام التي يعاقب فيها الفاسق بعدد أيام عصيانه بل إنما نقول: إن عقاب من ثبت دوام ثوابه لا يكون إلا منقطعا وإن لم يحط العلم مقداره. والله تعالى عاب أهل الكتاب بذلك من حيث قطعوا على ما قالوه وحكموا به وذلك بخلاف ما قلناه.

قوله تعالى:

(فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وفيب كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) (٢٥) آية بلا خلاف.

" كيف " موضوعة للسؤال عن الحال. ومعناها ههنا التنبيه بصيغة السؤال عن حال من يساق إلى النار. وفيه بلاغة، واختصار شديد، لأن تقديره أي حال يكون حال من اغتر بالدعاوي الباطلة حتى أداه ذلك إلى الخلود في العقوبة؟ ونظيره قول القائل: أنا أكرمك وإن لم تجنني فكيف إذا جننتي؟ معناه فكيف إكرامي لك إذا جننتي. والتقدير: كيف حالها إذا جمعناهم؟ لأنه خبر ابتداء محذوف.

(٤٢٨)

وقوله: (اليوم لا ريب فيه) معناه لجزاء يوم. واللام يدل على هذا التقدير. ولو قال: جمعناهم في يوم لما دل على ذلك. ومثله جننته ليوم الخميس أي لما يكون في يوم الخميس. وقال الفراء. معناه في يوم.

وقوله: (ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) قيل في معناه قولان. أحدهما " وفيت كل نفس ما كسبت " من ثواب أو عقاب. الثاني ما كسبت من ثواب أو عقاب بمعنى اجتلبت بعملها من الثواب أو العقاب، كما تقول كسب فلان المال بالتجارة والزراعة. فان قيل: كيف قال: " وفيت كل نفس ما كسبت " وما كسبت، لانهاية له، لانه دائم وما لانهاية له لا يصح فعله؟ قلنا: معناه أنه توفي كل نفس ما كسبت حالا بعد حال، فأما أن يفعل جميع المستحق فمحال لكن لا ينتهي إلى حد ينقطع ولا يفعل فيما بعده. " وهم لا يظلمون " معناه لا يبخسون، فلا يبخس المحسن جزاء إحسانه، ولا يعاقب مسيء فوق جزائه. وقوله تعالى:

(قل اللهم مالك المكل تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) (٢٦) آية واحدة. اللغة:

قيل في زيادة الميم في اللهم قولان: أحدهما - قال الخليل: إنها عوض من ياء التي هي أداة للنداء بدلالة أنه لا يجوز أن تقول غفر اللهم لي، ولا يجوز أيضا مع (يا) في الكلام. والثاني - ما قاله الفراء: إنها الميم في قولك يا الله أمنا بخير فألقت الهمزة وطرحت حركتها على ما قبلها. ومثله هلم وإنما هي هل أم، قال: وما قاله الخليل لا يجوز لأن الميم إنما تزداد مخففة في مثل فم وابنم، ولأنها قد اجتمعت مع (يا) في قول الشاعر:

(٤٢٩)

وما عليك أن تقولي كلما * سبحت أو صليت يا اللهم
أردد علينا شيخنا مسلما (١)

قال الرماني لا يفسد قول الخليل بما قاله، لأنها عوض من حرفين فشددت كما قيل قمتن وضربتن لما كانت النون عوضا من حرفين في قمتم، وذهبتم، فأما قمن وذهبن فعوض من حرف واحد، وأما البيت فانما جاز فيه لضرورة الشعر، وأما هل، فلا تدخل على (أم) بوجه من الوجوه. والاصل في (ها) أنها للتببيه دخلت على (لم) في قول الخليل.
الاعراب:

وقوله: (مالك الملك) أكثر النحويين على أنه منصوب بأنه منادى مضاف وتقديره يا مالك الملك. وقال الزجاج: يحتمل هذا ويحتمل أيضا أن يكون صفة من اللهم، لان اللهم منادى، والميم في آخره عوض من ياء في أوله ثم وصفه بعد ذلك كما تقول يا زيد ذا الحجة.
المعنى:

ومعنى الآية قيل فيه أربعة أقوال:

أحدها - أن الملك ههنا النبوة ذكره مجاهد. و (الثاني) قال الزجاج: مالك العباد، وما ملكوا. و (الثالث) قال قوم: مالك أمر الدنيا والاخرة. والرابع: انه أفاد صفة لاتجوز الاله من أنه مالك كل ملك.
وقوله: (تؤتي الملك من تشاء) تقديره من تشاء أن تؤتيه وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه، كما تقول: خذ ما شئت واترك ما شئت. ومعناه ما شئت أن تتركه.

" ١ " اللسان (أله)، ومعاني القرآن للفراء ١: ٢٠٣ وغيرهما من كتب اللغة والنحو والادب، ورايتها مختلفة.

(٤٣٠)

اللغة:

والنزع: قلع الشيء عن الشيء، نزع ينزع نزعا. ومنه قوله: " والنازعات غرقا " قال أبو عبيدة هي النجوم تنزع أي تطلع والنزع الشبه للقوم نزع إلى أخواله أي نزع إليهم بالشبه، فصار واحدا منهم بشبهه لهم. والنزاع: الحنين إلى الشيء والمنازعة: الخصومة. والنزوع عن الشيء الترك له. والنزع: ذهاب الشعر عن مقدم الرأس. والمنزعة: آلة النزع. وأصل الباب النزع: القلع.

المعنى:

وقال البلخي والجبائي لايجوز أن يعطي الله الملك للفاسق لانه تمليك الامر العظيم من السياسة والتدبير مع المال الكثير، لقوله: (لاينال عهدي الظالمين) (١)

والملك من أعظم العهود، ولا ينافي ذلك قوله: (ألم تر إلى الذين حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك) (٢) لامرين: أحدهما - قال مجاد الهاء كناية عن إبراهيم والملك المراد به النبوة

والتقدير أن أتى الله إبراهيم النبوة. والثاني - أن يكون المراد بالملك المال دون السياسة، والتدبير فان قيل: ما الفرق بين تملك الكافر العبيد والاماء وبين تملكه السياسة والتدبير: قيل: لان لايجعل للجاهل أن يسوس العالم، وهذا الذي ذكره البلخي بعينه يستدل به على الامام يجب أن يكون معصوما، ولا يكون في باطنه كافرا، ولا فاسقا. فان قيل: إن ذلك عادة وجاز أن يكلفنا الله اختياره على ظاهر العدالة فاذا أبان فسقه انخلعت إمامته وإنما لا يجوز أن يختار الله (تعالى) من في باطنه فاسق، لانه يعلم البواطن لما جاز منا أن نختاره؟ قلنا عن ذلك جوابان: أحدهما أن الامام - عندنا - الله (تعالى) يختاره، فوجب أن يكون

سورة البقرة آية: ١٢٤.

" ١ " سورة البقرة آية: ٢٥٨.

(٤٣١)

مأمون الباطن على ما قلتموه. وما الفرق بين أن يختار من في باطنه فاسق وبين أن يكلفنا ذلك مع علمه بأننا لانختار إلا الفاسق. والجواب الثاني - أنه إذا كانت علة الحاجة إلى الامام ارتفاع العصمة فلو كان الامام غير معصوم لاحتاج إلى امام آخر وأدى ذلك إلى التسلسل وذلك باطل. وقوله: (بيدك الخير) معناه إنك قادر على الخير وإنما خص الخير بالذكر وإن كان بيده كان شئ من خير أو شر، لان الغرض ترغيب العبد، وإنما يرغب في الخير دون الشر، وقال الحسن، وقتادة: هذه الآية نزلت جوابا لما سأل الله النبي (صلى الله عليه وآله) أن يجعل لامته ملك فارس والروم فأنزل الله الآية. قوله تعالى:

(تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب) (٢٧) آية بلا خلاف. القراءة واللغة:

قرأ بتشديد الياء " من الميت " نافع وحمزة والكسائي وحفص الباقون بالتخفيف. الايلاج: الادخال يقال: أولجه ايلاجا، وولج ولوجا. ومنه قوله: " حتى يلج الجمل في سم الخياط " (١) والوليجة بطانة الرجل لانه يطلعه على داخل أمره. ومنه قوله: (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) (٢)

والتولج كناس الظبي لانه يدخله ليأوي إليه والولجة شئ يكون بين يدي فناء القوم لانه مدخل إلى أفنائهم وأصل الباب الدخول.

" ١ " سورة الاعراف آية: ٢٩. " ٢ " سورة التوبة آية: ١٧.

(٤٣٢)

المعنى:

قيل في معنى الآية قولان: أحدهما - ما روي عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، والضحاك، وابن زيد: انه يجعل ما نقص من أحدهما زيادة في الاخر. وقال الجبائي: معناه يدخل أحدهما في الاخر باتيانه بدلا منه في مكانه. وقوله: (وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي) قيل في معناه قولان: أحدهما - يخرج الحي من النطفة، وهي ميتة، والنطفة من الحي وكذلك الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، هذا قول عبدالله بن مسعود، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وقتادة، وابن زيد.

الثاني - ما قاله الحسن وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أنه إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. والفرق بين تخفيف الياء وتشديدها أن الميت بالتخفيف الذي قد مات وبالتثقيل الذي لم يميت قال المبرد: ولا خلاف بين علماء البصريين أنهما سواء وأنشد لابن الرعاء الغساني:

ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الاحياء

انما الميت من يعيش كئيبا * كاسفا باله قليل الرخاء (١)

فجمع بين اللغتين وإنما كرر في عدة مواضع في القرآن لما فيه من عظم المنفعة وجزيل الفائدة.

وقوله. (بغير حساب) قيل فيه ثلاثة أقوال: أولها - قال الحسن والربيع:

بغير نقصان، لانه لانهاية لما في مقدوره فما يوجد منه لاينقصه، ولا هو على حساب جزء من كذا وكذا جزءا منه، فهو بغير حساب التجزئة. الثاني بغير حساب التقدير كما يقال فلان ينفق بغير حساب، لان من عادة المقتر ألا ينفق إلا

" ١ " اللسان (موت) وروايته (شقيا) بدل (كئيبا).

(٤٣٣)

بحساب ذكره الزجاج. الثالث - ما قاله الجبائي: ان معناه بغير حساب الاستحقاق.
لانه تفضل وذلك، لان النعيم منه بحساب ومنه بغير حساب فأما العقاب فجميعه بحساب.
قوله تعالى:

(لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا
أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) (٢٨) آية واحدة.
القراءة، والحجة:

قال الفراء، والحسن، ومجاهد: "تقية" وبه قرأ يعقوب. الباقر "تقاة" وأمال "تقاة"
الكسائي. وقرأ حمزة، ونافع بين بين. الباقر بالتخيم، وهو الاجود، لان فيه حرفا مستعليا،
وهو القاف. من أمال، ليؤذن أن الالف منقلبة من الياء. معنى قوله: (يتخذ المؤمنون) نهى
للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء يعني أنصارا، وكسر الذال لالتقاء الساكنين، ولو رفع،
لكان جائزا بمعنى لا ينبغي لهم أن يتخذوا.
المعنى:

وقوله: (من دون المؤمنين) من لابتداء الغاية. وتقديره الآية لاتجعلوا ابتداء الولاية مكانا دون
المؤمنين لان مكان المؤمن الاعلى ومكان الكافر الادنى، كما تقول زيد دونك ولست تريد أنه
في موضع مسفل، وأنت في موضع مرتفع لكن جعلت الشرف بمنزلة الارتفاع والخيانة
كالاستفال. وفي الآية دلالة على أنه لايجوز ملاطفة الكفار. قال ابن عباس: نهى الله سبحانه
المؤمنين أن يلاطفوا الكفار قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم

(٤٣٤)

خبالا) (١) وقال: (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) (٢)
وقال: (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) (٣)
وقال (واعرض عن الجاهلين) (٤) وقال تعالى: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب
عليهم) (٥) وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء
بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم) (٦) وكل ذلك يدل على أنه ينبغي أن يعاملوا بالغلظة
والجفوة دون الملاطفة، والملاينة إلا ما وقع من النادر لعارض من الامر.
النظم:

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه (تعالى) لما بين عظيم آياته بما في مقدوراته مما لا يقدر
عليه سواه، دل على أنه ينبغي أن تكون الرغبة في ما عنده وعند أوليائه من المؤمنين دون
أعدائه الكافرين، فنهى عن اتخاذهم أولياء دون أهل التقوى الذين سلكوا طريق الهدى. والولى

هو الاولى، وهو أيضا الذي يلي أمر من ارتضى فعله بالمعونة والنصرة. وتجري على وجهين:

أحدهما - المعين بالنصرة. والآخر - المعان فمن ذلك قوله: " الله ولي الذين آمنوا " أي معينهم بنصرته، والمؤمن ولي الله أي معان بنصرة الله. وقوله: " ومن يفعل ذلك " يعني من اتخذ الكافرين أولياء " فليس من الله في شئ " أي ليس هو من أولياء الله الصالحين والله برئ منهم " إلا أن تتقوا منهم تقاة " فالتقية الاظهار باللسان خلاف ما ينطوي عليه القلب للخوف على النفس إذا كان ما يبطنه هو الحق فان كان ما يبطنه باطلا كان ذلك نفاقا.

اللغة:

وقوله: (تقاة) أصله وقاة فابدلت الواو المضمومة تاء استتقالا لها، لانهم

" ١ " سورة آل عمران آية: ١١٨. " ٢ " سورة المجادلة آية: ٢٢.

" ٣ " سورة الانعام آية ٨. " ٤ " سورة الاعراف آية: ١٩٨.

" ٥ " سورة التوبة آية: ٧٤. " ٦ " سورة المائدة آية: ٥٤.

(٤٣٥)

يفرون منها إلى الهمزة تارة وإلى التاء أخرى فأما التاء فلقرها من الواو مع أنها من حروف الزيادة. وأما الهمزة فلانها نظيرتها في الطرف الآخر من مخارج الحروف مع حسن زيادتها أولا، ووزن تقاة فعله مثل تودة، وتخمة ونكاة وهي مصدر اتقى تقاة، وتقية، وتقوى، واتقاء. حكم التقية:

والتقية - عندنا - واجبة عند الخوف على النفس وقد روي رخصة في جواز الافصاح بالحق عندها. روى الحسن أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال لاحدهما أنتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. قال:

أفتشهد أني رسول الله؟ قال نعم، ثم دعا بالآخر فقال أنتشهد أن محمدا رسول الله؟

قال: نعم، فقال له أفتشهد أني رسول الله؟ قال إني أصم - قالها ثلاثا كل ذلك تقية - فتقول ذلك فضرب عنقه فبلغ ذلك (١) فقال أما هذا المقتول فمضى على صدقه وتقيته وأخذ بفضله فهنيئا له. وأما الآخر فقبل رخصة الله، فلا تبعة عليه فعلى هذا التقية رخصة والافصاح بالحق فضيلة. وظاهر أخبارنا يدل على أنها واجبة، وخلافها خطأ.

وقوله (ويحذركم الله نفسه) يعني اياه فوضع نفسه مكان اياه، ونفسه يعني عذابه، وأضافه إلى نفسه على وجه الاختصاص، والتحقيق كما لو حققه بصفة بأن يقول يحذركم الله المجازي لكم. قوله: (وإلى الله المصير) معناه إلى جزاء الله المصير أي المرجع. قوله تعالى:

(قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الارض والله على كل شئ قدير) (٢٩)
آية واحدة.

" ١ " يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(٤٣٦)

النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها. أنه لما تقدم النهي عن اتخاذ الكفار أولياء خوفوا من الاعلان بخلاف الاظهار في ما نهوا عنه بأن الله (تعالى) يعلم الاسرار كما يعلم الاعلان. اللغة:

والصدر معروف. والصدر: أعلى مقدم كل شئ. والصدر: الانصراف عن الماء بعد الري. تقول: صدرت الابل عن الماء فهي صادرة. والمصدر: الحوض الذي تصدر عنه الابل. والتصدير: حزام الرجل لميله إلى الصدور. والصدار: شبيهة بالفقيرة تلبسها المرأة لانه قصير يغطي الصدر وما حاذاه وكذلك الصدر. وأصل الباب الصدر المعروف.

وقوله: (يعلمه الله) جزم، لانه جواب الشرط، وان كان الله يعلمه كان أو لم يكن، ومعناه يعلمه كائنا. ولا يصح وصفه بذلك قبل أن يكون. والمعني:

وما تفعلوا من خير يجاز الله عليه، لانه يعلمه، فلا يذهب عليه شئ منه وإنما قال: " ويعلم ما في السموات وما في الارض " ليذكر بمعلومات الله على التفصيل بعلم الضمير وإنما رفعه على الاستئناف. وقوله: (والله على كل شئ قدير) معناه التحذير من عقاب من لا يعجزه شئ أصلا من حيث أنه قادر على كل شئ يصح أن يكون مقدورا له. قوله تعالى:

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد) (٣٠) آية بلا خلاف.

الاعراب:

قيل في انتصاب يوم ثلاثة أوجه: أحدهما - أنه منصوب ب (يحذركم) الله أي يحذركم نفسه يوم تجد. الثاني - بالمصير وتقديره وإلى الله المصير يوم تجد. الثالث - إنكر يوم تجد. وقوله: " وما عملت " معنى (ما) ههنا الذي لأنه عمل فيها (تجد) وتكون في موضع نصب. ويحتمل أيضا أن تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر، وتقديره: يوم تجد كل نفس عملها، بمعنى جزاء عملها. وقوله: " وما عملت " يجوز أن تكون (ما) بمعنى الذي، ويقوي ذلك قوله: " تود " بالرفع ويجوز أن يكون بمعنى الجزاء، وتود على هذا يحتمل أن يكون مفتوحا أو مكسورا. والرفع جائز على ضعف.

المعنى:

ومعنى تجد النفس عملها يحتمل أمرين: أحدهما - جزاء عملها من الثواب أو العقاب. الثاني - تجد بيان عملها بما ترى من صحائف الحسنات، والسيئات. وحكم الآية جار على فريقين ولي الله وعدوه، فاحدها يرى حسناته، والاخر يرى سيئاته. ويحتمل أيضا أن يكون متناولا لمن جمع بين الطاعة والمعصية، فان من جمع بينها فانه يرى استحقاقه للعقاب على معاصيه حاصلا، فانه يود أيضا أنه لم يكن فعلها. والامد الغاية التي ينتهي إليها قال الطرماح:

كل حي مستكمل عدة العمر * ومرد إذا انقضى أمده

أي غاية أجله. فان قيل كيف يتصل التحذير بالرأفة؟ قيل: قال الحسن:

إن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه، وقد بينا أن معنى قوله " ويحذركم الله نفسه " عذابه. وفسرنا معنى رؤوف في ماضى. وإن معناه رحيم بعباده.

قوله تعالى:

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم)

ذنوبكم والله غفور رحيم) (٣١) آية:

النزول:

قيل: إن هذه الآية نزلت في قوم من أهل الكتاب، قالوا: نحن الذين نحب ربنا فجعل الله تصديق ذلك اتباع رسله. هذا قول الحسن وابن جريج. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: إنها نزلت في وفد نجران من النصارى.

اللغة:

والمحبة: هي الارادة إلا أنها تضاف إلى المراد تارة، وإلى متعلق المراد أخرى نحو أن تقول: أحب زيدا واحب إكرام زيد، ولاتقول في الارادة ذلك لانك تقول: أريد إكرام زيد، ولا تقول أريد زيدا. وإنما كان كذلك لقوة تصرف المحبة في موضع مثل الطباع الذي يجري مجرى الشهوة، فعو ملت تلك المعاملة في الاضافة ومحبة الله للعبد هي ارادته لثوابه ومحبة العبد لله هي ارادته لطاعته.

القراءة، والحجة، والاعراب:

وقوله: (فاتبعوني) أثبتت الياء فيه بلا خلاف، لأنها في وسط آية وحذفت من قوله: " فاتقوا الله وأطيعون " لأنها رأس آية نوي بها الوقف لتشاكل رعوس الاي، لان سبيل الفواصل سبيل القوافي. وقيل أحببت فلانا، فهو محبوب، فجاء مفعول للاستغناء به عن حبيب حتى صار ذلك مهملًا، وقد جاء على الاصل قول عنتره:

ولقد نزلت فلا تظني غيره * مني بمنزلة المحب المكرم (١)

وقد حكى الزجاج عن الكسائي (حبيب) من الثلاثي، وأجاز القراءة بفتح

" ١ " معلقته الشهيرة وغيرها.

(٤٣٩)

الناء غير أنه قال هذه لغة قد ماتت. وقوله: (يغفر لكم) لا يجوز في القياس إدغام الراء في اللام كما جاز إدغام اللام في الراء في هل رأيت، لان الراء مكررة، ولا يدغم الزائد في الناقص للاخلال به، وقياسها في ذلك قياس الضاد، لانه يجوز هل ضربت بالادغام ولا يجوز انقض له إلا بالاظهار لما في الضاد من الاستطالة، وقال الزجاج: روي عن أبي عمرو إدغام الراء في اللام، وغلظ عليه لانه خطأ فاحش باجماع علماء النحويين: الموثوق بهم، وأجاز الفراء إدغامها في اللام كما يجوز إدغام الياء في الميم.
قوله تعالى:

(قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين) (٣٢) آية بلا خلاف.

قال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت هذه الآية في وفد نجران، وفيها دلالة على بطلان مذهب الجبرة، لانه قال لا يحب الكافرين ومعنى لا يحبهم لا يريد ثوابهم من أجل كفرهم، فاذن لا يريد كفرهم، لانه لو أراده لم يكن نفي محبته لكفرهم، والطاعة إتباع الداعي فيما دعا إليه بأمره أو إرادته، ولذلك قد يكون الانسان مطيعا للشيطان فيما يدعوه إليه، وإن لم يقصد أن يطيعه، لانه إذا مال مع ما يجده في نفسه من الدعاء إلى المعصية، فقد أطاع الداعي إليها. فان قيل ما الفرق بين الطاعة وموافقه الارادة؟ قيل: موافقة الارادة فدتكون طاعة، وقد تكون غير طاعة

إذالم تقع موقع الداعي إلى الفعل نحو ارادتي، لان يتصدق زيد بدرهم من غير أن يشعر بذلك، فلا يكون بفعله مطيعا لي ولو فعله من أجل إرادتي لكان مطيعا وكذلك لو أحسن بدعائي إلى ذلك فمال معه. وقوله: (إن الله لا يحب الكافرين) معناه أنه يبغضهم ولا يريد ثوابهم، فدل بالنفي على الاثبات وكان ذلك أبلغ، لانه لو قال إنه يبغضهم لجاز أن يتوهم أن يبغضهم من وجه ويحبهم من وجه كما يعلم الشيء من وجه، ويجهل من وجه، فاذا قيل لا يعلمه

(٤٤٠)

لم يحتمل الوجوه.

قوله تعالى:

(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) (٣٣) آية واحدة. معنى الصطفى: اختار واجتنب وأصله من الصفوة، وهذا من حسن البيان الذي يمثل فيه المعلوم بالمرئي وذلك أن الصافي هو النقي من شائب الكدر فيما يشاهد فمثل به خلوص هؤلاء القوم من الفساد لما علم الله ذلك من حالهم لانهم كخلوص الصافي من شائب الادناس. فان قيل: بماذا اختارهم بأختيار دينهم أو بغير؟

قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - بمعنى أنه اختار دينهم واصطفاه، كما قال: " واسأل القرية " (١)

وهذا قول الفراء:

و (الثاني) قال الزجاج واختاره الجبائي. انه اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم.

الثالث - قال البلخي: بالفضل على غيرهم بما رتبهم عليه من الامور الجليلة، لما في ذلك من المصلحة.

والاصطفاء هو الاختصاص بحال خالصة من الادناس. ويقال ذلك على وجهين. ويقال: اصطفاه لنفسه أي جعله خالصا له يختص به. والثاني - اصطفاه على غيره أي اختصه بالفضل على غيره وهو معنى الآية فان قيل: كيف يجوز اختصاصهم بالفضل قبل العمل؟ قيل: إذا كان في المعلوم أن صلاح الخلق لا يتم إلا بتقديم الاعلام لذلك بما قدم من البشارة بهم، والخبار بما يكون من حسن أفعالهم والتشويق إليهم بما يكون من جلالتهم إلى غيره من الايات التي تشهد لهم، والقوى في العقول والافهام التي كانت لهم، وجب في الحكمة تقديم ذلك لما فيه

(٤٤١)

من حسن التدبير.

فان قيل: من آل ابراهيم؟ قيل: قال ابن عباس، والحسن: هم المؤمنون الذين على دينه، فيكون بمعنى اختصاصهم بميرة كانت منهم على عالمي زمانهم. وقيل: آل عمران هم آل ابراهيم كما قال: " ذرية بعضهما من بعض " فهم موسى وهرون ابنا عمران. وقال الحسن: آل عمران المسيح، لان أمه مريم بنت عمران. وفي قراءة أهل البيت " وآل محمد على العالمين ". وقال أيضا: إن آل إبراهيم: هم آل محمد الذين هم أهله. وقد بينا فيما مضى أن الال بمعنى الأهل. والآية تدل على أن الذين اصطفا معصومون منزهون، لانه لا يختار ولا يصطفى إلا من كان كذلك، ويكون ظاهره وباطنه واحدا، فاذا يجب أن يختص الاصطفاء بآل إبراهيم وآل عمران من كان مرضيا معصوما سواء كان نبيا أو إماما. قوله تعالى:

(ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) (٣٤).

اللغة، والاعراب:

وزن ذرية فعلية، مثل قمرية. ويحتمل أن يكون على وزن فعلولة. وأصله ضرورة إلا أنه كره التضعيف، فقلبت الراء الاخيرة ياء، فصار ذروية وقلبت الواو للياء التي بعدها ياء وادغمت احدهما في الاخرى، فصار ذرية. قال الزجاج: والاول أجود وأقيس. ويحتمل فصبها وجهين: أحدهما - أن يكون حالا والعامل فيها اصطفى. والثاني - أن يكون على البديل من مفعول اصطفى.

المعنى:

ومعنى قوله: (بعضها من بعض) أي في الاجتماع على الصواب. قال الحسن:

(٤٤٢)

" والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " (١) في الاجتماع على الهدى. وبه قال قتادة. الثاني - قال الجبائي وغيره: إنه في التناسل إذ جميعهم ذرية آدم، ثم ذرية نوح، ثم ذرية إبراهيم، وهو المروي عن أبي عبدالله (ع)، لانه قال الذين اصطفاهم الله بعضهم من نسل بعض. وقوله: (والله سميع عليم) قيل فيه قولان:

أحدهما - أنه سميع لما تقوله الذرية عليهم بما تضمه، فلذلك فضلها على غيرها لما في معلومه من استقامتها في قولها، وفعلها. والثاني - سميع لما تقوله امرأة عمران من قوله: " اني نذرت لك ما في بطني محررا " عليهم بما تضمه ليدل على أنه لا يضيع لها شئ من جزاء

عملها ونبه بذلك على استحسان ذلك منها، لان قول القائل قد علمت ما فعلت يجري في الوعد والوعيد معا على حد واحد.

قوله تعالى:

(إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) (٣٥) آية واحدة بلا خلاف.

الاعراب، والمعنى:

امرأة عمران المذكورة في الآية هي أم مريم بنت عمران أم المسيح، وقيل أن اسمها كانت حنة. و (إذ) تدل على ما مضى. وقيل فيما يتعلق به (إذ) أربعة أقوال: أحدها - قال الاخفش والمبرد: أنه اذكر إذ قالت.

الثاني - قال الزجاج: انه متعلق باصطفى آل عمران إذا قالت.

الثالث - يتعلق بسميع عليم إذ قالت، فيعمل فيه معنى الصفتين على تقدير مدرك لنيتها وقولها إذ قالت ذكره الرماني.

الرابع - قال أبو عبيدة: ان (إذ) زائدة، فلا موضع لها من الاعراب

" ١ " سورة التوبة آية: ٧٢.

(٤٤٣)

وهذا خطأ عند البصريين. وقوله: (نذرت لك ما في بطني محررا) فالنذر قد بيناه فيما مضى، وهو قول القائل: لله علي كذا وكذا. وقيل في معنى (محررا) ثلاثة أقوال: أحدها - قال الشعبي: معناه مخلصا للعبادة. قال مجاهد: خادما للبيعة. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: عتيقا من الدنيا لطاعة الله. اللغة:

ومعنى (محرر) في اللغة يحتمل أمرين: أحدهما - معتق من الحرية.

تقول: حررتَه تحريراً: إذا أعتقته أي جعلته حراً. الثاني - من تحرير الكتاب وهو إخلاصه من الضرر والفساد. وأصل الباب الحرارة، لان الحر يحمي في مواضع الانفة. فالمحرر يخلص من الاضطراب كما يخلص حرارة النار الذهب ونحوه من شائبة الفساد، وهو نصب على الحال من (ما) وتقديره نذرت لك الذي في بطني محررا والعامل فيه نذرت.

وقوله: " فتقبل مني " فأصل التقبل المقابلة، وذلك للاعتداد بالشئ فيما يقابل بالجزاء عليه. وتقبل الصنيع مشبه بتقبل الهدية من جهة أخذه دون رده.

وقوله (إنك أنت السميع العليم) معناه السميع لما أقول العليم بما أنوي، فلهذا صحت الثقة لي.

قوله تعالى:

(فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) (٣٦) آية بلا خلاف.
القراءة، والمعنى:

قرأ " والله أعلم بما وضعت " ابن عامر، وأبو عمرو عن عاصم، ويعقوب

(٤٤٤)

بمعنى قولي. " فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها انثى " قيل: فيه قولان: أحدهما - الاعتذار من العدول عن النذر، لأنها انثى. الثاني - تقديم الذكر في السؤال لها بانها انثى وذلك؟ عيب الانثى أقطع، وهو إليها أسرع، وسعيها أضعف، وعقلها أنقص فقدمت ذكر الانثى ليصح القصد لها في السؤال على هذا الوجه.
وقوله: " وليس الذكر كالانثى " اعتذار بأن الانثى لاتصلح لما يصلح له الذكر، وإنما كان يجوز لهم التحرير في الذكور دون الاناث، لأنها لاتصلح لما يصلح له الذكر من التحرير لخدمة المسجد المقدس، لما يلحقها من الحيض والنفاس، والصيانة عن التبرج للناس. وقال قتادة: لم يكن التحرير إلا للغلان فيما جرت به العادة. والهاء في قوله: " وضعتها " يحتمل أن يكون كناية عن (ما) في قوله " نذرت لك ما في بطني " وجاز ذلك لوقوع (ما) على مؤنث. ويحتمل أن يكون كناية عن معلوم قد دل عليه الكلام.

اللغة:

؟ أصل الوضع: الحط. وضعه يضعه وضعا. ووضعت بمعنى ولدت أي وضعت الولد. ومنه الموضع: مكان الوضع. والتواضع: خلاف التكبر لأنه وضع العبد من نفسه. والضععة: الخساسة لأنها تضع من قدر صاحبها. والوضيعة: ذهاب شئ من رأس المال. والمواضعة: المواهبة في التباع لوضع ما ينفق عليه في ذلك.

والايضاع في السير: الرفق فيه لأنه حط عن شدة الاسراع. ومنه قوله تعالى:

" ولا وضعوا خلالكم " (١) وأصل الباب: الحط.

المعنى:

فان قيل هل يجوز أن تقول: والله أعلم بأن الجسم محدث من زيد العالم به، كما قالت: " وانه أعلم بما وضعت "؟ قيل: لايجوز لان علم كل واحد منهما يجوز أن ينقلب عنه إلى خلافه، وليس كذلك بأنه يعلم الله، وأفعل من كذا إنما يقال للمبالغة في الصفة. ومن ضم التاء جعل ذلك من كلام أم مريم على وجه

(٤٤٥)

التسبيح والانقطاع إليه تعالى كما يقول القائل: قد كان كذا وكذا، وأنت تعلم لاعلى وجه الاعلام بل على ما قلناه. واسكان التاء أجود لامرين: أحدهما - أن قولها " إني وضعتها انثى " قد أغنى عن ذلك. والثاني - أنه كان يجب أن تقول وأنت أعلم، لأنها تخاطب الله تعالى. وقوله: " وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم " قيل في معناه قولان: أحدهما - الاستعاذة من طعن الشيطان للطفل الذي له يستهل صارخا، فوفاها الله عزوجل وولدها عيسى منه بحجاب على ما رواه أبوهريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) الثاني - قال الحسن انها استعاذت من إغواء الشيطان.

اللغة:

والرجيم بمعنى الموجود بالشبهة وأصل الرجم: الرمي بالحجارة رجم يرمم رجما والرجم القذف بالغيب لانه رمى العبد به. ومنه " لارجمك وأهجرني مليا " (١) والرجم الاخبار عن الظن لانه رمى بالخبر لاعتن يقين. ومنه " رجما بالغيب " (٢) والرجوم النجوم، لان من شأنها أن يرمى بها الشياطين ومنه قوله: " وجعلناها رجوما للشياطين " (٣). الرجم القبور التي عليها الحجارة. والمراجعة المباراة في الكلام، والعمل له من كل واحد من النفيسين لرمي صاحبه بما يكيد به وأصل الباب الرمي.

قوله تعالى:

(فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى

" ١ " سورة مريم آية: ٤٦. " ٢ " سورة الكهف آية: ٢٣. " ٣ " سورة الملك آية: ٥.

(٤٤٦)

لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) (٢٧) آية واحدة بلا خلاف.

القراءة، والمعنى، واللغة:

قرأ أهل الكوفة " كفلها " بالتشديد. الباقون بالتخفيف. والتخفيف أليق بقوله " أيهم يكفل مريم " (١) وقرأ أهل الكوفة إلا أبابكر (زكريا) مقصورا.

الباقون بالمد. ونصب (زكرياء) مع المد أبوبكر. الباقون بالرفع.
 قوله: " فتقبلها ربها بقبول حسن " معناه رضيها في النذر الذي نذرتة بالاخلاص للعبادة في
 بيت المقدس، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك المعنى. وإنما جاء مصدر تقبلها على القبول دون
 التقبل، لان فيه معنى قبلها. وقال أبو عمرو:
 لانظير للقبول في المصادر، ففتح فاء الفعل والباب كله مضموم الفاء كالدخول، والخروج،
 وقال سيبويه: جاءت خمسة مصادر على فعول: قبول، ووضوح، وظهور، وولوج، ووقود إلا
 أن الاكثر في وقود الضم إذا أريد المصدر.
 وأجاز الزجاج في القبول الضم.
 وقوله: " وأنبثها نباتا حسنا " معناه أنشأها إنشاء حسنا في عذابها وحسن تربيتها. والكفل
 تضمن مؤنة الانسان كفلته أكفله كفلا فأنا كافل:
 إذا تكلفت مؤنته. ومنه " وكفلها زكريا " ومن قرأ بالتثنية فمعنا كفلها الله زكريا والكفيل:
 الضامن. والكفل: مؤخر العجز. والكفل من الرجال الذي يكون في مؤخر الحرب همته
 الفرار. والكفل النصيب.
 ومنه قوله: (يؤتكم كفلين من رحمته) (٢) وقوله: (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها)
 (٣) وأصل الباب التأخر فمنه الكفالة الضمان. وفي زكريا ثلاث لغات: المد، والقصر. وقد
 قرئ بهما وزكري بالياء المشددة وأحكامها مختلفة

" ١ " سورة آل عمران آية: ٤٤. " ٢ " سورة الحديد آية: ٢٨.

" ٣ " سورة النساء آية: ٨٤.

(٤٤٧)

في الجمع. والتثنية، فمن مد قال في التثنية: زكريا وان. وفي الجمع زكريا وون.
 ومن قصر قال في التثنية زكريان. وفي الجمع زكريون. والذي بالياء زكريان في التثنية،
 وزكريون في الجمع، وزكرياء بالمد لايجوز صرفه لان فيه ألفي التانيث.
 ومن قال: لانه أعجمي معرفة يلزمه إذا نكر أن يصرفه، وهذا لايجوز. وأما زكري، فان
 ينصرف لانه بنا النسب خرج إلى شبه العربي كما خرج مدائني إلى شبه الواحد على قول
 المبرد. والمحراب: مقام الامام من المسجد وأصله أكرم موضع في المجلس وأشرفه قال عدي
 بن زيد العبادي:

كدمى العجاج في المحاريب أو كال * بيض في الروض زهره مستنير (١)

وقيل هو المكان العالي ذكره الزجاج قال الشاعر:

ربة محراب إذا جنّتها * لم ألقها أو أرتقي سلما (٢)

وقوله: " وجد عندها رزقا "، فالرزق هو ما للانسان، الانتفاع به على وجه ليس لاحد منعه.
المعنى:

وقيل إنه كان فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن اسحق. وقال: تكلمت في المهدي، ولم تلقم ثديا قط، وإنما كان يأتيها رزقها من الجنة، وهذه تكرمة من الله تعالى لها. وعندنا يجوز فعل ذلك بالاولياء والصالحين، وإن لم يكونوا أنبياء. ومن منع منه قالوا فيه قولين: أحدهما - أن ذلك كان آية لدعوة زكريا لها بالرزق في الجملة.

والثاني - قال قوم: هو تأسيس لنبوّة المسيح، والاول قول الجبائي. واختار وجهها آخر أن يكون الله (تعالى) سخر لها بعض عبادته أن يأتيها به بلطفه على مجرى

" ١ " ديوانه في شعراء الجاهلية: ٤٥٥. يصف نساء يقول: هن كتماثيل العاج في محارب المعابد. والبيض: يعني بيض النعام. والروض جمع روضة وهي البستان.
" ٢ " قائله وضاح اليميني اللسان (حرب). وقد استشهد به على أن المحراب صدر البيت، وأكرم موضع فيه، والجمع المحارب.

(٤٤٨)

العادة، ولا يكون معجزا، وهذا خلاف جميع أقوال المفسرين لانهم قالوا لما رأى زكريا ذلك قال: الذي يقدر على أن يأتي مريم بالرزق يقدر أن يخلق الولد من امرأة عاقر، فهنالكَ سأله أن يرزقه ولدا. ويحتمل إيصال قوله: " إن الله يرزق من يشاء بغير حساب " بما تقدم من وجهين: أحدهما - أن يكون حكاية لقول مريم. والثاني - أن يكون استئنافا من الله الاخبار به. والاولى أن يكون على الاستئناف، لانه ليس من معنى الجواب عما سئلت عنه في شيء. وقال الحسن هو على الحكاية. وقوله: " بغير حساب " معناه بغير حساب الاستحقاق على العمل، لانه تفضل ببنتى الله به من يشاء من خلقه. ويحتمل أن يكون المراد بغير تفتير كما يحسب الذي يخاف الاملاق. وقد بينا فيما مضى معنى (أنى) وأن معناه من أين لك. وقال قوم معناه كيف لك. والاول أظهر.

قوله تعالى:

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) (٣٨) آية واحدة.

اللغة والمعنى:

معنى هنالك: عند ذلك. والاصل فيه الطرف من المكان نحو رأيتُه هنا وهناك، وهنالك، والفصل بينهما، القرب والعبد، فهنا للقريب وهنالك للبعيد، وهناك لما بينهما. وقال الزجاج: ويستعمل في الحال كقوله من ههنا قلت: كذا أي من هذا الوجه. وفيه معنى الاشارة كقولك: ذاء، وذلك. وزيدت اللام لتأكيد التعريف، لان الاصل في زيادتها التعريف إلا أنها كسرت لالتقاء الساكنين كما كسرت في ذلك. ولايجوز إعرابها، لان فيها معنى الحرف. ومعنى الآية عند ذلك الذي رأى من فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف على خلاف ما جرت به العادة، طمع في رزق الولد من العاقر

(٤٤٩)

على خلاف مجرى العادة، فسأل ذلك. وزكريا (ع) وإن كان عالما بانه تعالى يقدر على خلق الولد من العاقر، وإن لم تجربه العادة، فانه كان يجوز ألا يفعل ذلك لبعض التدبير، فلما رأى خرق العادة بخلق الفاكهة في غير وقتها قوي ظنه أنه يفعل ذلك: إذا اقتضت المصلحة، وقوي في نفسه ما كان علمه، كما أن ابراهيم وإن كان عالما بأنه (تعالى) يقدر على إحياء الميت سأل ذلك مشاهدة لتأكد معرفته ونزول عنه خواطره. وقال الجبائي: إن الله تعالى كان أذن له في المسألة وجعل وقته الذي أذن له فيه الوقت الذي رأى فيه المعجزة الظاهرة فلذلك دعا.

وقوله (قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة) فالهبة تملك الشيء من غير ثمن تقول: وهب يهب، فهو واهب والشيء موهوب، وتواهبوا الامر بينهم تواهبا، واستوهبه استيهابا. وقوله من لدنك معناه من عندك وإنما بني ولم يبين عند، لانه استبهم استيهام الحروف، لانه لايقع في جواب أين كما يقع عند نحو قوله أين زيد فنقول عندك، ولاتقول لدنك. " ذرية " تقع على الجمع، والواحد. وقيل أن المراد ههنا واحد لقوله " فهب لي من لدنك وليا " (١) وأما بمعنى الجمع، فمثل قوله: " ذرية من حملنا من نوح " (٢) وقوله: " طيبة " قال السدي معناه مباركة. وإنما انث طيبة، وهو سأل ولدا ذكرا على تأنيث الذرية كما قال الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك بالكمال (٣)

وقال آخر:

فما نذري من حية جبلية * سكات إذا ما عاض ليس بأدردا (٤)

فجمع التأنيث، والتذكير في بيت واحد مرة على اللفظ، ومرة على المعنى.

١ " سورة مريم آية: ٤. " ٢ " سورة الاسراء آية: ٣.

٣ " اللسان: (خلف)، ومعاني القرآن للفراء ١: ٢٠٨.

" ٤ " اللسان: (سكت)، ومعاني القرآن للفراء ١ : ٢٠٨. الحية الجبلية لسعها أشد. وحية سكوت وسكات - بضم السين - : إذا لم يشعر الملسوع بها حتى؟. والادرد: الذي سقطت أسنانه، فلم؟ في فمه سن. يصف رجلا داهية شبيهه بالحية الجبلية السكوت.

(٤٥٠)

وإنما يجوز هذا في أسماء الاجناس دون الاعلام نحو طلحة، وحمزة، وعترة، لاجوز أن تقول جاءت طلحة من قبل أن التذكير الحقيقي يغلب على تأنيث اللفظ فأما قوله: وعترة الفيحاء جاءت ملاما * كأنك فند من عماية أسود فانما أراد شفة عنترة، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وقوله: (إنك سميع الدعاء) معناه سامع الدعاء بمعنى قابل الدعاء. ومنه قول القائل: سمع الله لمن حمده أي قبل الله دعاه وأصل السمع ادراك المسموع وإنما قيل للقابل سامع لأن من كان أهلا أن يسمع منه فهو أهل أن يقبل منه خلاف من لا يعتد بكلامه فكلامه بمنزلة ما لم يسمع. قوله تعالى:

(فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا و؟ من الصالحين)
(٣٩) آية واحدة بلا خلاف.
القراءة:

قرأ حمزة والكسائي وخلف " فناداه الملائكة " على التذكير، والامالة. الباقر على التأنيث، فالاول على المعنى، والثاني على اللفظ. وقرأ حمزة وابن عامر " إن الله " بكسر الهمزة على الحكاية. الباقر بفتحها على اعمال المناداة، وتقديره نادته بأن الله. وقرأ حمزة والكسائي " يبشرك " بفتح الياء وتخفيف الشين وضمها. الباقر بضم الياء وتشديد الشين.
المعنى واللغة:

وقال السدي الذي نادى زكريا جبريل وحده، فعلى هذا يكون ذهب مذهب

(٤٥١)

الجمع كما يقولون ذهب في السفن وإنما خرج في سفينة وخرج على البغال وإنما ركب بغلا واحدا. وقال غيره: ناداه جماعة من الملائكة كأنه قيل: النداء جاء من قبل الملائكة وإنما جاز ذلك لعادة جارية نحو قولهم: ناداه أهل العسكر، وناداه أهل البلد. وقوله: (وهو قائم يصلي) جملة في موضع الحال. وقوله: (إن الله يبشرك) في بشره من البشرى ثلاث لغات: بشره يبشره وبشره يبشره بشرا، وأبشره بشارا عن أبي العباس. وقرأ حميد " يبشرك " من أبشر،

وكل ذلك لظهور السرور في بشرة الوجه. وقيل إن الثقل من البشارة، والمخفف من السرور، والمعنيان متقاربان. وأنشد الاخفش:

وإذا لقيت الباهشين إلى الندى * غيرا أكفهم بقاع محل

فاعنهم وابشر بما بشروا به * وإذا هم نزلوا بضعك فانزل (١)

قال الزجاج هذا على بشر يبشر إذا فرح. وأصل هذا كله أن بشرة الانسان تنسبط عند السرور. وقوله: (بيحيى) قال قتادة سمي يحيى، لان الله تعالى أحياء بالايامن سماه الله بهذا الاسم قبل مولده.

وقوله: (مصدقا) نصب على الحال من يحيى " بكلمة " يعني المسيح (ع) في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والضحاك، والسدي وجميع

أهل التأويل إلا ما حكي عن أبي عبيدة أنه قال " بكلمة " أي بكتاب الله كما يقولون أنشدني فلان كلمة فلان أي قصيدته وإن طالت، وإنما سمي المسيح كلمة الله لامرين: أحدهما - أنه كان بكلمة الله من غير أب من ولد آدم.

والثاني - لان الناس يهتدون به في الدين كما يهتدون بكلام الله.

وقوله: (وسيدا) يعني مالكا لمن يجب عليه طاعته. ومن ذلك سيد الغلام

" ١ " قائله عبد قيس بن خفاف البرجمي. اللسان: (كرب)، (بشر)، (؟)، معاني القرآن للفرأء ١: ٢١٢ والبيتان من قصيدة ينصح بها ولده جبيل.؟ رواية المصادر مختلفة. البهش: الفرخ. بهش إلى الشئ: فرح به وأسرع اليه. الندى: الكرم. المحل: المجذب الضك: الضيق.

(٤٥٢)

يعني مالكة، ولا يقال سيد الثوب بمعنى مالك الثوب، لانه لايتصور هناك وجوب طاعته. وأصل السواد الشخص، فقيل سيد القوم بمعنى مالك السواد الاعظم، وهو الشخص الذي تجب طاعته لمالكة، وهذا إذا قيل مضافا أو مقيدا فأما إذا اطلق فلا ينبغي إلا الله تعالى، لانه المالك لجميع الخلق. وقيل: معناه ههنا وسيدا في العلم والعبادة في قول قتادة. وقال الجبائي: معناه وسيدا للمؤمنين بالرياسة لهم. وقال الضحاك: سيذا في الحلم والتقوى. وقيل سواد الانسان لشخصه، لانه يستتر به لستر سواد الظلمة بتكائفه، وتسوله. " وحصورا " معناه الممتنع من الجماع.

ومنه قيل للذي يمتنع أن يخرج مع ندمائه شيأ للنفقة حصور قال الاخطل:

وشارب مريح بالكاس نادمني * لابلحصور ولافيها بسوار (١)

يعني معربد ويقال للذي يكتم سره حصور ويقال: حصر في قراءته إذا امتنع بالانقطاع فيها
ومنه حصر العدو منعه الناس من التصرف. وقال عبدالله:

الحصور العنين. وقال سعيد بن المسيب إنما كان معه مثل هذب الثوب. وقال الحسن، وقتادة
هو الذي لا يأتي النساء، وهو المروي عن أبي عبدالله (ع)، وقال بعضهم هو الذي لا يبالي ألا
يأتي النساء. وقوله: " ونبيا من الصالحين " (من)

ههنا لتبيين الصفة ليس المراد به التبويض، لان النبي لا يكون إلا صالحا.
قوله تعالى:

(قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء)
(٤٠).

" ١ " ديوانه: ١١٦، واللسان: (حصر)، (سأر)، (سور)، وطبقات فحول الشعراء: ٤٣٢، ومجاز القرآن ١: ٩٢.
المريح: المعطي الريح للتاجر.
ير؟ أنه؟ بثمن الخمر ولا؟ بما يبذل فيها. والسوار: الذي تسور الخمر في دماغه؟ على رفاقه.

(٤٥٣)

المعنى إن قيل لم راجع هذه المراجعة مع ما بشره الله تعالى بأنه يهب له ذرية طيبة، وبعد أن
سأل ذلك؟ قيل: إنما راجع ليعرف على أي حال يكون ذلك أيرده إلى حال الشباب وامرأته، أم
مع الكبر، فقال الله (تعالى) " كذلك الله يفعل ما يشاء " أي على هذه الحال، وتقديره كذلك
الامر الذي أنت عليه " يفعل الله ما يشاء " هذا قاله الحسن. وقيل في وجه آخر، وهو أنه قال
على وجه الاستعظام لمقدور الله والتعجب الذي يحدث للانسان عند ظهور آية عظيمة من
آيات الله، كما يقول القائل: كيف سمحت نفسك باخراج الملك النفيس من يدك تعجبا من جوده،
واعترافا بعظمه. وقال بعضهم: إن ذلك إنما كان للوسوسة التي خالطت قلبه من قبل الشيطان
حتى خيلت له أن النداء كان من غير الملائكة. وهذا لا يجوز، لان النداء كان على وجه
الاعجاز على عادة الملك فيما يأتي به من الوحي عن الله، والانبياء (ع) لا يجوز عليهم تلاعب
الشيطان بهم حتى يختلط عليهم طريق الافهام، فلا يعرفوا نداء ملك من نداء شيطان أو انسان.
اللغة:

والغلام: هو الشباب من الناس. يقال: غلام بين الغلومية والغلومة والغلمة.
والاغتلام: شدة طلب النكاح. والغليم (١) منع الماء من الابار، لانه طلب الظهور. وغلم
الاديم جعله في غلمة ليتفسخ عنه صوفه، لانه طلب لتقطعه.

وقوله: (وقد بلغني الكبر) والمراد بلغت الكبر، لان الكبر بمنزلة الطالب له، فهو يأتيه بحدوثه فيه. والانسان أيضا يأتيه بمرور السنين عليه، كما يقول القائل:
يقطعني الثوب وإنما هو يقطع الثوب. ولا يجوز أن يقول بلغني البلد بمعنى بلغت البلد، لان البلد لا يأتيه أصلا. وقوله: (وامرأتي عاقر) فالعاقر من النساء التي لا تلد يقال: امرأة عاقر، ورجل عاقر. وقال عامر بن الطفيل:

" ١ " الضفدع. ذكر السلحفاة. الشباب الكثير الشعر.

(٤٥٤)

لبئس الفتى ان كنت أعور عاقرا * جباننا فما عذري لدى كل محضر (١)
وذلك لانه كالذي حدث به عقر يقعه عما يحاول من الامر. وعقر كل شئ أصله. وعقر العاقر المصدر. والعقر دية فرج المرأة: إذا غصبت نفسها وبيضة العقر آخر بيضة. والعقر: الجرح. والعقر: محلة القوم. والعاقر معروف.
والعقار الخمر. والمعاقرة إدمان شربها مع أهلها. وأصل الباب: العقر الذي هو أصل كل شئ، فعقر العاقر لانقطاع أصل النسل.
قوله تعالى:

(قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار) (٤١).

الآية: العلامة وإنما سأل العلامة، والآية لوقت الحمل الذي سأل ربه ليتعجل السرور به في قول الحسن، فجعل الله تعالى آيته في امسالك لسانه، فلم يقدر أن يكلم الناس إلا إيماء من غير آفة حدثت في لسانه، كما يقال في مريم " ثلاث ليال سويا " هذا قول الحسن، وقتادة، والربيع، وأكثر المفسرين.

اللغة:

وفي وزن " آية " ثلاثة أقوال:

أحدها - فعلة إلا أنه شذ من جهة إعلال العين مع كون اللام حرف؟.
وإنما القياس في مثله أعلال اللام نحو حياة ونواة. ونظيرها راية وطاية، وشذ ذلك، للاشعار بقوة اعلال العين.

الثاني - فعلة آية إلا أنها قلبت كراهية التضعيف نحو طاي في طيي.

" ١ " ديوانه: ١١٩ ومجاز القرآن ١: ٩٢ في المطبوعة (اغدر) بدل (اعور).
وعامر بن الطفيل أمد العوران. ذهب عينه يوم فيف الريح وأما عقمه، فقد قال: مالي ولد واتي لعاهر الذكر، واني
لاعور البصر.

(٤٥٥)

الثالث - فاعلة منقوصة وهذا ضعيف، لانهم صغروها أبية ولو كانت فاعلة لقالوا أوية إلا أنه
يجوز على ترخيم التصغير نحو فطيمة. " والرمز " الايماء بالشفنتين. وقد يستعمل في الايماء
بالحاجبين، والعينين واليدين. والاول أغلب قال جؤية بن عائذ:
وكان تكلم الابطال رمزا * وغمغمة لهم مثل الهرير (١)
يقال منه: رمز يرمز رمزا. ويقال ارتمز: إذا تحرك. واصله الحركة.
المعنى، واللغة:

وقال مجاهد: الرمز تحريك الشفتين. وقال قتادة الرمز الاشارة. وقوله:
(واذكر ربك كثيرا) معناه أنه لما منع من كلام الناس عرف أنه لا يمنع من الذكر لله والتسبيح
له، وذلك أعظم الاية وأبين المعجزة. وقوله: (سبح)
معناه ههنا صل يقال فرغت من سبحتي أي من صلاتي. وأصل التسبيح التعظيم لله وتنزيهه
عما لا يليق به. والعشي من حين زوال الشمس إلى غروب الشمس في قول مجاهد. قال
الشاعر:

فلا الظل من برد الضحى يستطيعه * ولا الغي من برد العشي تذوق
والعشاء من لدن غروب الشمس إلى أن يولي صدر الليل. والعشاء طعام العشي.
والعشا ضعف العين والتعاشي: التعامي، لابهام أنه بمنزلة من هو في ظلمة لا يبصر وأصل
الباب الظلمة. والابكار من حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى. وأصله التعجيل بالشئ يقال:
أبكر ابكارا وبكر بيكر بكورا. وقال عمر بن أبي ربيعة:

أمن آل نعم أنت عاد فمبكر (٢)

وقال جرير:

ألا بكرت سلمى فجد بكورها * وشق العصا بعد اجتماع أميرها (٣)

" ١ " لم نجد هذا البيت. في المطبوعة (كان) بدل (وكان) والصحيح ما ذكرناه.
" ٢ " ديوانه مطلع قصيدته الرائية المشهورة وتتمه البيت: غداة غدأم رائح فمبكر.
" ٣ " ديوانه: ١٣٦؟. حكيم بن معية الربيعي، وكان هجا جر؟. شق العصا. التفريق

(٤٥٦)

ويقال في كل شئ تقدم: بكر ومنه الباكورة أول ما يجي من الفاكهة.

وقوله تعالى:

(وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك اصطفاك على نساء العالمين) (٤٢) آية واحدة.

العامل في (إذ) يحتمل أن يكون أحد شيئين:

أحدهما - سميع عليم إذ قالت امرأة عمران. وإذ قالت الملائكة يكون؟
على (إذ) الأولى.

الثاني - اذكر إذ قالت، لان المخاطب في حال تذكير وتعريف. وقوله:

(اصطفاك على نساء العالمين) يحتمل وجهين: قال الحسن وابن جريج على عالمي زمانها. وهو قول أبي جعفر (ع)، لان فاطمة سيدة نساء العالمين. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين. وقال أيضا (ع) حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وآله).

الثاني - ما قاله الزجاج، واختاره الجبائي: إن معناه اختارك على نساء العالمين بحال جليلة من ولادة المسيح عيسى (ع).

وقوله: (وطهرك) في معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن، ومجاهد: طهرك من الكفر.

والثاني - ذكره الزجاج أن معناه طهرك من سائر الادناس: الحيض، والنفاس، وغيرهما. وإنما كرر لفظ اصطفاك، لان معنى الاول اصطفاك بالتفريغ لعبادته بما لطف لك حتى انقطعت إلى طاعته وصرت متوفرة على اتباع مرضاته ومعنى الثاني اصطفاك بالاختيار لولادة نبيه عيسى (ع) على قول الجبائي. وقال أبو جعفر (ع) اصطفاها أولا من ذرية الانبياء وطهرها من السفاح. والثاني -

(٤٥٧)

اصطفاها لولادة عيسى (ع) من غير فحل. وفي ظهور الملائكة لمريم قالوا قولين:

أحدهما - أن ذلك معجزة لذكريا (ع)، لان مريم لم تكن نبيية، لقول الله تعالى " وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم " (١). والثاني - أن يكون ذلك برهانا لنبوة عيسى (ع) كما كان ظهور الشهب والغمامة وغير ذلك معجزة للنبي (صلى الله عليه وآله) قبل بعثته، فالاول قول الجبائي، والثاني قول ابن الاخشاد.

ويجوز عندنا أن يكون ذلك معجزة لها وكرامة، وإن لم تكن نبية لان اظهار المعجزات -
عندنا - تجوز على يد الاولياء، والصالحين، لانها إنما تدل على صدق من ظهرت على يده
سواء كان نبيا أو إماما أو صالحا، على أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قال ذلك لمريم على
لسان زكريا (ع).

وقد يقال: قال الله لها * وإن كان بواسطة كما تقول: قال الله للخلق كذا وكذا وإن كان على
لسان النبي (صلى الله عليه وآله)، ولا يحتاج مع ذلك إلى ما قالوه.
قوله تعالى:

(يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)
(٤٣) آية واحدة بلا خلاف.

قيل في معنى قوله: " افنتى " ثلاثة أقوال:

أحدها - قال سعيد بن جبير أن معناه اخلصي لربك العبادة. الثاني - قال قتادة معناه اديمي
الطاعة. الثالث - قال مجاهد اطلبي القيام في الصلاة. وأصل القنوت الدوام على الشيء.
وقوله: (واسجدي) وأصل السجود الانخفاض الشديد للخضوع قال الشاعر:

فكلتاها خرت واسجد راسها * كما سجدت نصرانة لم تحنف (٢)
وكذلك القول في الركوع إلا أن السجود أشد انخفاضا. وقد بينا فيما

" ١ " سورة يوسف آية: ١٠٩ وسورة النحل آية: ٤٣ وسورة الانبياء آية: ٧.

" ٢ " مر تخريجه في ١: ٢٨١.

(٤٥٨)

مضى حقيقته. وإنما قدم ذكر السجود في الآية على الركوع، لان النية به التأخير والتقدير
اركعي واسجدي، لان الواو لا توجب الترتيب، لانها نظيرة التنثية إذا اتفقت الاسماء
والصفات. تقول جاءني زيد وعمرو، ولو جمعت بينهما في الخبر لقلت جاءني الزيدان.
وقوله: (مع الراكعين) فيه قولان أحدهما - أن معناه افعلى مثل فعلهم. الثاني - قال الجبائي:
أي في صلاة الجماعة.

قوله تعالى:

(ذلك من أبناء الغيب نوحية اليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت
لديهم إذ يختصمون)

(٤٤) آية.

المعنى، واللغة:

ذلك إشارة إلى الاخبار عما تقدم من القصص. وفيه احتجاج على المشركين، من حيث أنه جاء بما لا يعلم إلا من أربعة أوجه: إما مشاهدة الحال، أو قراءة الكتب، أو تعليم بعض العباد، أو بوحى من الله. وقد بطلت الأوجه الثلاثة للعلم بأنها لم تكن حاصلة للنبي (صلى الله عليه وآله). فصح أنه على الوجه الرابع: بوحى من الله (تعالى). والإيحاء: هو القاء المعنى إلى صاحبه فقوله: " نوحيه إليك " أي نلقي معناه إليك. والإيحاء: الإرسال إلى الأنبياء تقول: أوحى الله إليه أي أرسل إليه ملكا. والإيحاء الإلهام ومنه قوله تعالى " وأوحى ربك إلى النحل " (١) أي ألهما وقوله: " بأن ربك أوحى لها " (٢) معناه ألقى إليها معنى ما أراد فيها. قال العجاج:

" ١ " سورة؟ آية: ٦٨.

" ٢ " سورة الزلزال آية: ٥.

(٤٥٩)

أوحى لها القرار فاستقرت (١)

والإيحاء الإيحاء قال الشاعر:

فأوحت إلينا والانامل رسلها ومنه قوله: " فاوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا " (٢) أي أشار إليهم، والوحي: الكتاب. يقال: وحي يحي وحيأ أي كتب، لأن به يلقي المعنى إلى صاحبه قال روية:

لقدر كان وحاها الواحي وقال:

في سور من ربنا موحية وقال آخر:

من رسم آثار كوحى الواحي وأصل الباب القاء المعنى إلى صاحبه. وقوله: " أوحيت إلى الحواريين " (٣) أي ألقى إليهم وألهمهم إلهاما. ومنه قوله: " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم " (٤) أي يلقون إليهم وقوله: " وأوحى إلي هذا القرآن " (٥) أي ألقى إلي. والغيب: خفاء الشيء عن الإدراك. تقول غاب عني كذا يغيب غيبا وغيابا. والغائب: نقيض الحاضر.

وقوله: (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) قيل فيه قولان:

أحدها - التعجب من حرصهم على كفالته، لفضلها. ذكره قتادة، لأنه

" ١ " ديوانه: ٥ والنسان (وحى) من رجز يذكر فيه ربه ويثني عليه بآلاته، أوله:

الحمد لله الذي استقلت * بأذنه السماء واطمأنت

بأذنه الارض وما تعنت * أوحى لها القرار فاستقرت

وشدها بالراسيات الثبت * رب البلاد والعباد؟

وفي أحد روايتي اللسان (وحى لها)؟ (أوحى لها).
" ٢ " سورة مريم آية: ١١. " ٣ " سورة المائدة آية: ١١٤.
" ٤ " سورة الانعام آية: ١٢١. " ٥ " سورة الانعام آية: ١٩.

(٤٦٠)

قال: فشاح القوم عليها، فقال زكريا: أنا أولى، لان خالتها عندي. وقال القوم:
نحن أولى لانها بنت إمامنا، لان عمران كان إمام الجماعة.
الثاني - التعجب من تدافعهم لكفالتها، لشدة الازمة التي لحقتهم حتى وفق لها خير الكفلاء بها
زكريا (ع) وفي الاية حذف وتقديرها " إذ يلقون أقلامهم " لينظروا " أيهم يكفل مريم " أي أيهم
أحق بكفالتها. والأقلام معناها هنا القداح وذلك أنهم ألقوا تلقاء الجرية، فاستقبلت عصا
زكريا جرية الماء مصعدة.

وانحدرت أقلام الباقين، ففرعهم زكريا في قول الربيع، وكان ذلك معجزة له (ع).
والقلم: الذي يكتب به. والقلم: الذي يجال بين القوم، كل إنسان وقلمه، وهو القدح. والقلم: قص
الظفر قلمته تقليما. ومقالم الرمح كعوبه. والقلامه هي المقلومة عن طرف الظفر وأصل الباب
قطع طرف الشيء.

وقوله: (وما كنت لديهم إذ يختصمون) فيه دلالة على أنهم قد بلغوا في التشاح عليها إلى حد
الخصومة، وفي وقت التشاح قولان:

أحدهما - حين ولادتها وحمل أمها إياها إلى الكنيسة تشاحوا في الذي يخصها ويحضنها
ويكفل بتربيتها، وهو الأكثر. وقال بعضهم إنه كان ذلك بعد كبرها وعجز زكريا عن تربيتها.
و (إذ) الأولى متعلقة بقوله: " وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم " والثانية بقوله: " يختصمون "
على قول الزجاج.

قوله تعالى:

(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه سمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في
الدنيا والاخرة ومن المقربين (٤٥)
آية عند الجميع.

العامل في (إذ) يحتمل أمرين أحدهما - وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة.

الثاني - يختصمون " إذ قالت الملائكة ": " إن الله يبشرك " فالتبشير إخبار المرء بما يسر

(٤٦١)

من الامر سمي بذلك لظهور السرور في بشرة وجهه عند إخباره بما يسره، لان أصله البشرة
وهي ظاهر الجلد. وقوله: (بكلمة منه) هو المسيح سماه الله كلمة على قول ابن عباس وقتادة

وذلك يحتمل ثلاثة أوجه: سمي بذلك، لأنه كان بكلمة الله من غير والد وهو قوله: " كن فيكون " (١). الثاني - لأن الله تعالى بشره في الكتب السالفة، كما تقول: الذي يخبرنا بأمر يكون (إذا خرج موافقا لامره) (٢) قد جاء في قول لي وكلامي. فمن البشارة به في التوراة آتانا الله من سبينا، فأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران. وساعير هو الموضع الذي بعث منه المسيح (ع). الثالث - لأن الله يهدي به كما يهدي بكلمته. والقول الثاني مما قيل في الكلمة: أنها بمعنى البشارة كأنه قيل ببشارة منه: ولد اسمه المسيح والتأويل الاول أقوى، لقوله: " إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه " (٣)، ولأنه معلوم من دين المسلمين أن كلمة الله المسيح (ع) وإنما ذكر الضمير في اسمه وهو عائد إلى الكلمة، لأنه واقع على مذكر، فإذا ذكر ذهب إلى المعنى، وإذا أنث ذهب إلى اللفظ. وقيل في تسمية المسيح مسيحا: قولان:

أحدهما - قال الحسن، وسعيد: لأنه مسح بالبركة. وقال آخرون: لأنه مسح بالتطهر من الذنوب. وقال الجبائي سمي بذلك، لأنه مسح بدهن زيت بورك فيه. وكانت الانبياء تتمسح به. فان قيل: يجب على ذلك أن يكون الانبياء كلهم يسمون مسيحا؟ قلنا: لايمتنع أن يختص بذلك بعضهم، وإن كان المعنى في الجميع حاصلًا، كما قالوا في ابراهيم خليل الله. وأصله ممسوح عدل عن مفعول إلى فعيل. وقوله: (وجيها) نصب على الحال. ومعنى الوجيه الكريم على من يسأله

" ١ " سورة البقرة آية: ١١٨ وسورة آل عمران آية: ٤٧ وسورة الانعام آية: ٧٣ وسورة النحل: ٤٠ وسورة مريم آية: ٣٥ وسورة يس آية: ٨٢ وسورة المؤمن آية: ٦٨ " ٢ " ما بين القوسين من مجمع البيان وكان في المطبوعة نقص في هذا الموضع كما أن الجملة التي بعدها لا تقرأ.
" ٣ " سورة آل عمران: ١٧

(٤٦٢)

لأنه لايرده لكرم وجهه عنده، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد، يقال منه وجه الرجل يوجه وجاهة، وله جاه عند الناس وجاهة أي منزلة رفيعة. قوله:
" ومن المقربين " معناه إلى ثواب الله وكرامته، وكذلك التقرب إلى الله إنما هو التقرب إلى ثوابه وكرامته. وفي الآية دلالة على تكذيب اليهود في الفرية على أم المسيح وتكذيب النصراني في ادعاء إلهيته على ما ذكره محمد بن جعفر بن الزبير وغيره.
قوله تعالى:

(ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) (٤٦) آية.

الاعراب:

موضع " ويكلم الناس في المهد " نصب على الحال عطفًا على (وجيها) ومكلمًا وكذلك عطف عليه (وكهلا) بالنصب. ويجوز عطف الفاعل على الفعل لتقارب معنيهما قال الشاعر:

بات يغشاها بعضب بائر * يقصد في أسوقها وجائر (١)
أي ويجوز وقال آخر:

يا ليتني علقت غير خارج * قبل الصباح ذات خلق بارج
أم صبي قد حبا أم دارج (٢)

أي أو درج ويجوز في قوله: " وكهلا " أن يكون معطوفا على الظرف من قوله: " من المهد ".

اللغة:

والمهد مضجع الصبي في رضاعه في قول ابن عباس، مأخوذ من التمهيد.

" ١ " معاني القرآن للفراء ١: ٢١٣ وأمالى ابن الشجري ٢: ١٦٧ وخزانة الادب ٢: ٣٤٥ واللسان (كهل) ورواية البيت مختلفة. فبعضها (بت أعشيها..).

" ٢ " هكذا في المطبوعة ورواية اللسان (درج):

يا ليتني قد زرت غير خارج * أم صبي قد حبا ودارج

(٤٦٣)

والكهل: من كان فوق حال الغلوممة، ودون الشيخوخة. ومنه اكتهل الذب: إذا طال، وقوي. ومنه الكاهل فوق الظهر إلى ما يلي العنق والمرأة كهلة. قال الراجز:

ولا أعود بعدها كريا * امارس الكهلة والصبيا (١)

وقيل الكهولة بلوغ أربع وثلاثين سنة. وقال مجاهد: الكهل: الحليم وأصل الباب العلو، فالكهل لعلو سنه، أو لعلو منزلته.

المعنى:

ووجه كلامه في المهد تبرئة لأمه مما قذفت به، وجلالة له بالمعجزة التي ظهرت فيه. فان قيل: فما معنى " وكهلا " وليس بمنكر الكلام من الكهل؟ قيل فيه ثلاثة أوجه:

أحدها - يكلمهم كهلا بالوحي الذي يأتيه من قبل الله. الثاني - انه يبلغ حال الكهل في السن، وفي ذلك أيضا إعجاز لكون المخبر على ما أخبر به. الثالث - أن المراد به الرد على النصرى بما كان منه من التقلب في الاحوال، لانه مناف لصفة الاله. فان قيل كيف جحدت النصرى كلام المسيح في المهد وهو معجزة عظيمة؟

قلنا: لان في ذلك ابطال مذهبهم، لانه قال: " إني عبدالله " (٢) فاستمروا على تكذيب من أخبر أنه شاهده كذلك. وفي ظهور المعجزة في تلك الحال قيل فيه قولان: أحدهما - إنها كانت مقرونة بنبوة المسيح، لانه كمل عقله في تلك الحال حتى عرف الله بالاستدلال، ثم أوحى إليه بما تلكم به، هذا قول أبي على الجبائي. وقال ابن الاخشاذ: إن كل ذلك كان على جهة التأسيس لنبوته، والتمكين لها بما يكون دالا عليها، وبشارة متقدمة لها. ويجوز - عندنا - الوجهان. ويجوز

" ١ " قائله عذافر الفقيمي أمالي القالي ٢: ٢١٥ وشرح أدب الكاتب لابن السيد: ٢١٧، ٣٨٩، واللسان (كهل)، (كرا)، (شعفر)، (أمم) وغيرها كثير كريا: مكاري وكان عذافر يكرى ابله إلى مكة فامر معه - رجل من أهل البصرة - بعيرا يركبه هو وزوجته وفي الطريق قال بهما رجز طويل " ٢ " سورة مريم آية: ٣٠.

(٤٦٤)

أيضا أن يكون ذلك معجزة لمريم تدل على براءة ساحتها مما قذفت على ما بينا جوازه فيما مضى.

قوله تعالى:

قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون (٤٧)

آية واحدة:

المعنى:

إن قيل سألت مريم عن خلق الولد من غير مسيس مع أنها لاتنكر ذلك في مقدور الله تعالى؟ قلنا: فيه وجهان: أحدهما - أنها استفهمت أيكون ذلك، وهي على حالتها من غير بشر أم على مجرى العادة من بشر، كما يقول القائل:

كيف تبعث بفلان في هذا السفر، وليس معه ما يركبه معناه، لانه قوي أم هناك مركوب؟ الثاني - ان في البشرية: التعجب مما خرج عن المعتاد فتعجبت من عظم قدرة الله كما يقول القائل عند الآية يراها: ما أعظم الله، وكما يقول القائل لغيره كيف تهب ضيعتك، وهي أجل شئ لك. وليس يشك في هبته وإنما يتعجب من جوده. وقوله: (قال كذلك الله) حكاية ما قال لها الملك. وقوله: " كن فيكون " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أنه على جهة المثل لان منزلة جميع ما يريد احداثه من جسم أو عرض كثر ذلك أو قل، فانما هو بمنزلة قول القائل: كن، في أنه يكون بغير علاج، ولا معاناة، ولا تكلف سبب، ولا أداة، ولا شغل ببعض عن بعض، ولا انتهاء فيه إلى حد لا يمكن ضعفه، ولا زيادة عليه.

الثاني - ان معناه أن الله تعالى جعل (كن) علامة للملائكة فيما يريد إحداثه

(٤٦٥)

لما فيها من اللطف، والاعتبار. ويمكن الدلالة على الامور المقدورة لله تعالى. وقول من قال ان قوله: " كن " سبب للحوادث التي يفعلها الله تعالى فاسد من وجوه: أحدها - ان القادر بقدره يقدر على أن يفعل من غير سبب، فالقادر للنفس بذلك أولى. ومنها أن " كن " محدثه فلو احتاجت إلى " كن " أخرى لتسلسل، وذلك فاسد. ولو استند ذلك إلى كن قديمة، لوجب قدم المكون، لانه كان يجب أن يكون عقيب، لان الفاء توجب التعقيب وذلك يؤدي إلى قدم المكونات.

ومنها أنه لو ولدت لولدت من فعلنا كالاعتماد. وإنما استعمل القديم لفظة الامر فيما ليس بأمر هاهنا ليدل بذلك على أن فعله بمنزلة فعل المأمور في أنه لاكلفة على الامر، فكذلك هذا لاكلفة على الفاعل، وذلك على عادة العرب في جعلهم وقوع الشيء عقيب الارادة بمنزلة الجواب عن السؤال قال الشاعر:

وقالت لنا العينان سمعا وطاعة * وحدثتا كالدرا لما يتقرب (١)

فجعل انحدار الدمع قولاً على الوجه الذي بيناه. وقوله: (كن فيكون)

ههنا لايجوز فيه إلا الرفع، لانه لا يصلح أن يكون جواباً للام في كن لان الجواب يجب بوجود الاول نحو انتي فاكرمك وقم فاقوم معك. ولا يجوز قم فيقوم، لانه بتقدير قم فانك إن تقم يقم. وهذا لا معنى له، ولكن يجوز الرفع على الاختيار انه سيقوم ويجوز في قوله: " إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون " (٢) النصب، لانه معطوف على " أن نقول " كأنه قيل أن نقول فيكون.

قوله تعالى:

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) (٤٨).

" ١ " مر تخريجه في ١ : ٤٣١ .

" ٢ " سورة النحل آية: ٤٠

(٤٦٦)

القراءة، والحجة:

قرأ أهل المدينة، وعاصم، ويعقوب " ويعلمه " بالياء الباقون بالنون. فمن قرأ بالياء حمله على " يخلق ما يشاء " ويعلمه. ومن قرأ بالنون حمله على قوله:

" نوحيه إليك ". والنون أفخم في الاخبار، لان الياء حكاية عن الملك.
المعنى، والاعراب:

ومعنى قوله: " ويعلمه الكتاب " قال ابن جريج: الكتابة بيده. وقال أبو علي:
كتاب آخر غير التوراة، والانجيل نحو الزبور أو غيره. فان قيل: لم أفرد التوراة والانجيل
بالذكر مع دخولهما في الحكمة؟ قيل: إنما أفردهما بالذكر تنبيها على فضلها مع جلالة
موقعهما كما قال: " وملائكته ورسله وجبريل وميكايل " (١) وموضع يعلمه من الاعراب
يحتمل أن يكون نصبا بالعطف على وجيها. ويحتمل أن يكون لا موضع له من الاعراب، لانه
عطف على جملة لا موضع لها، وهي قوله: " كذلك الله يخلق ما يشاء ". وقال بعضهم: هو
عطف " نوحيه إليك " قال الرماني:

هذا لايجوز، لانه يخرج من معنى البشارة به لمريم. وإنما هو محمول على مشاكلته لا على
جهة العطف عليه. وعد أهل الكوفة التوراة والانجيل، ولم يعدوا رسولا إلى بني اسرائيل
للتكبر الاستئناف بأن المفتوحة. والاستئناف بذكر المنسوب كثير في الكلام. وأما أهل المدينة
فانما طلبوا تمام صفة المسيح، لان تقديره ومعلما كذا ورسولا إلى كذا.
قوله تعالى:

(ورسولا إلى بني إسرائيل إني قد جئتكُم بآية من ربكم اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير
فانفخ فيه فيكون طيرا باذن

" ١ " سورة البقرة آية: ٩٨

(٤٦٧)

الله وأبرئ الاكمه والابرص وأحيي الموتى باذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في
بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٤٩) آية.
القراءة:

قرأ أهل المدينة ويعقوب " طائرا بأذن الله " الباقون " طيرا " وهو الاجود، لانه إسم جنس
وطائر صفه. وقرأ نافع وحده " إني أخلق " بكسر الهمزة. الباقون بفتحها الاعراب، والحجة:
يحتمل نصب قوله: " ورسولا " وجهين أحدهما - بتقدير ويجعله رسولا فحذف لدلالة الإشارة
عليه. والثاني - أن يكون نصبا على الحال عطفًا على وجيها، لا أنه في ذلك الوقت يكون
رسولا بمعنى أنه يرسل رسولا. وقال الزجاج وجهًا ثالثًا بمعنى يكلمهم رسولا في المهدب "
أنني قد جئتكُم بآية من ربكم " ولو قرئت (إني) بالكسر (قد جئتكُم) كان صوابا.
والمعنى يقول " إني قد جئتكُم بآية من ربكم " أي بعلامة تدل على ثبوت رسالتي.

وموضع " إني أخلق " يحتتمل أن يكون خفضا ورفعا، فمن قرأبا لخفض فعلى البدل من آية بمعنى جنئكم بأني أخلق لكم من الطين. والرفع أريد به الآية إني أخلق من الطين. وجائز أن يكون (إني أخلق لكم) مخبرهم بهذه الآية ما هي أي أقول لكم " إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير " .

المعنى:

والمراد بالخلق التقدير دون الاحداث، يقال في التفسير أنه صنع من الطين كهيئة الخفاش، ونفخ فيه فصار طائرا. وجاز أن يقول فيه لفظ الطين. وقال في

(٤٦٨)

موضع آخر " فينفخ فيها فتكون طائرا باذني " (١) لفظ الهيئة.

اللغة:

والطين معروف. ومنه طنت الكتاب طينا أي جعلت عليه طينا، لاختمه. وطينت البيت تطيينا. والطيانة: حرفة الطيان والطينة: قطعة من طين يختم بها الصك ونحوه.

والهيأة: الحال الظاهرة هاء فلان يهاء هيئة. ومن قرأ (هيئت)

معناه تهيأت لك فأما " هيت لك " فهلم لك والهيئ: الحسن الهيئة من كل شئ.

والمهاياة: أمر يتهايا عليه القوم فيتراضون به. وقوله: " فانفخ فيه " النفخ معروف تقول نفخ ينفخ نفخا، وانتفخ انتفاخا، ونفخه نفخا. والنفاخة للماء، والنفخة نحو الورم في البطن. والنفخة:

نفخة الصور يوم القيامة. والمنفاخ كبير الحداد.

وأصل الباب نفخ الريح التي تخرج من الفم.

المعنى:

ومعنى " أنفخ فيه " يعني أنفخ فيه الروح وهو جسم رقيق كالريح، وهو غير الحياة، لان

الجسم انما يحيا بما يفعله الله تعالى فيه من الحياة، لان الاجسام كلها متماثلة يحيي الله منها ما يشاء. وإنما قيد قوله: " فيكون طيرا بأذن الله " ولم يقيد قوله: " أخلق من الطين كهيئة الطير "

بذكر إذن الله لينبه بذكر الاذن أنه من فعل الله دون عيسى. وأما التصوير والنفخ، ففعله، لانه

مما يدخل تحت مقدر القدر، وليس كذلك انقلاب الجماد حيوانا فانه لايقدر على ذلك أحد

سواه تعالى. وقوله: (وأحيي الموتى بأذن الله) على وجه المجاز إضافة إلى نفسه وحقيقته

ادعوا الله باحياء الموتى فيحييهم الله فيحيون باذنه.

اللغة والمعنى:

وقوله: " وأبرئ الاكمه " فالبراء والشفاء والعافية نظائر في اللغة.

سورة المائدة آية: ١١٣.

(٤٦٩)

والاكمه الذي يولد أعمى في قول قتادة، وأبي علي وقال الحسن، والسدي: هو الاعمي. والكمه عند العرب العمى كمه يكمه كمها قال سويد بن أبي كاهل:
كهمت عيناه حتى ابيضتا * فهو يلحي نفسه لما نزع (١)
والابرص معروف. وقوله: (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) أي أخبركم وأعلمكم بالذي تأكلونه، فتكون (ما) بمعنى الذي ويحتمل أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر، ويكون تقديره أخبركم بأكلكم.

والاول أجود لقوله: " وما تدخرون " ويحتمل أن يكون المراد أيضا وادخاركم. والاذخار الافتعال من الذخر ذخرت أذخر ذخرا وأذخرت اذخارا. وأصل الباب الذخر، وهو خبء الشئ لتأتيه. وإنما أبدلت الدال من الذال في " تدخرون " لتعديل الحروف أو أبدلت الدال من الذال بوجهين الجهر واختلاف المخرج، فبدل ذلك بالدال، لأنها موافقة للتاء بالمخرج والدال بالجهر، فلذلك كان الاختيار، وكان يجوز تدخرون بالذال على الاصل ونظير ذلك في التعديل بين الحروف وازدجر، فمن اضطر، واصطبر، لموافقة الطاء للضاد والضاد بالاستعلاء والاطباق، ولم يجز إدغام الزاي في الدال، لأنها من حروف الصفير. ولكن يجوز مزجر. ولم يدغم الضاد في الطاء لان فيها استطالة. والمجهور من الحروف: كل حرف اشبع الاعتماد عليه في موضعه ومنع النفس أن يجري معه. والمهموس: كل حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه وجرى معه النفس. وقوله: (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وإن كانت آية للجميع، لان معناه " إن كنتم مؤمنين " بالله إذ كان لا يصح العلم بمدلول المعجزة إلا لمن آمن بالله، لان العلم بالمرسل قبل العلم بالرسول. وإنما يقال هي آية للجميع بأن يقدموا قبل ذلك الاستدلال على التوحيد. وأيضا بأن من استحق وصفه بأنه مؤمن علم أن ذلك من آيات الله عزوجل.

" ١ " اللسان (كمه) وروايته (لما) بدل (حتى) وكذلك رواية المفضليات: ٤٠٥. يلحي نفسه أي يلومها. لما نزع يعني لما ترك.

(٤٧٠)

قوله تعالى:
(ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتمك بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون)
(٥٠) آية واحدة:

الاعراب:

ومصدقا نصب على الحال وتقديره قد جئتم مصدقا، لان أول الكلام يدل عليه ونظيره جئته بما يجب ومعرفا له، وليس عطا على وجبها ولا رسولا لقوله " لما بين يدي " ولم يقل لما بين يديه.

المعنى:

وقوله: (ولاحل لكم بعضه الذي حرم عليكم) فانما أحل لهم لحوم الابل والثروب وأشياء من الطير والحيتان، مما كان محرما في شرع موسى (ع) ولم يحل لهم جميع ما كان محرما عليهم من الظلم، والغصب، والكذب، والعبث وغير ذلك، فلذلك قال " بعض الذي حرم عليكم " وبمثل هذا قال قتادة والربيع، وابن جريج ووهب ابن منية، وأكثر المفسرين. وقال أبو عبيدة أراد كل الذي حرم عليكم واستشهد على ذلك بقول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو يعتلق بعض النفوس حمامها (١)

قال معناه أو يعتلق نفسي حمامها. وأنكر الزجاج تأويله. وقال: هو خطأ من وجهين:

أحدهما - أن البعض لا يكون بمعنى الكل. والآخر - أنه لا يجوز تحليل

" ١ " اللسان (بعض) ذكر العجز فقط.

(٤٧١)

المحرمات أجمع، لانه يدخل في ذلك الكذب، والظلم، والكفر قال: ومعنى البيت أو يعتلق نفسي حمامها، كما يقول القائل: بعضنا يعرفك يريد أنا أعرفك، وهذا أيضا إنما هو تبعيض صحيح. ووجه الآية ما ذكره أبو علي، وجماعة من المفسرين.

أن قوما من اليهود حرموا على نفوسهم أشياء ما حرمها الله عليهم، فجاء بتحليل ذلك. قال الرماني: تأويل الآية على ما قالوه، لكنه لا يمتنع أن يوضع البعض في موضع الكل اذا كانت هناك قرينة تدل عليه، كما يجوز وضع الكل في موضع البعض بقرينة.

قوله: (ولاحل لكم) معطوف على معنى الكلام الاول، لان معنا جئتم لاصدق ما بين يدي من التواراة، ولاحل لكم، كما يقول القائل: جئته معتذرا ولاجتلب عطفه. والاحلال هو الاطلاق في الفعل بتحسينه، والتحرير هو حظر الفعل بتقبيحه. والفرق بين التصديق، والتقليد أن التصديق لا يكون إلا فيما يبرهن عند صاحبه. والتقليد يكون فيما لم يبرهن، ولهذا لم تكن مقلدين للنبي (صلى الله عليه وآله) وإن كنا مصدقين له.

قوله تعالى:

(إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) (٥١) آية.

قوله: (إن الله ربي وربكم) استئناف كلام، لانه رأس آية، وعليه جميع العلماء. وكان يجوز أن تفتح الهمزة على قوله: " وجئتمكم " ب " أن الله ربي وربكم ". والفرق بين قوله " إن الله ربي وربكم " وقوله " ربنا " أن الاول أكد في إقراره بالربوبية، لانه ذكر على التفصيل، فهو أبعد من الغلط في التأويل، لان لقائل أن يقول الذكر قد يجوز في الجملة على التغليب كما يغلب التنكير على التأنيث في الجملة دون التفصيل.

والربوبية هي تنشئة الشيء حالاً بعد حال حتى يبلغ حد الكمال في التربية.

(٤٧٢)

فلما كان الله تعالى مالكا لإنشاء العالم كان ربا، ولاتطلق هذه الصفة إلا عليه تعالى، لان إطلاقها يقتضي الملك بجميع الخلق، فأما إجراؤها على غيره، فعلى وجه التقيد، كقولك رب الدار، ورب الضيعة. وقالوا في وصف قوم من العلماء: هم أرباب البيان يراد به شدة اقتدارهم عليه. وقوله: " هذا صراط مستقيم " فالاستقامة استمرار الشيء في جهة واحدة، ونظيرها الاستواء: خلاف الاعوجاج، فلذلك قيل للطريق المؤدي إلى المراد الموصول إلى الحق: طريق الاستقامة، لانه يفضي بصاحبه إلى غرضه، وقد استوفينا معناه في سورة الحمد. وقد يوصف الدليل بأنه طريق مستقيم، لانه يؤدي إلى الحق اليقين. وفي الآية حجة على النصارى بما قاله المسيح مما يقرون به أنه في الانجيل من نحو هذا الكلام، لان فيه أذهب إلى إلهي، وإلهكم، كقوله ههنا: " إن الله ربي وربكم " قوله تعالى:

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) (٥٢) آية.

اللغة:

الاحساس هو الوجود بالحاسة، أحس يحس إحساسا. والحس القتل، لانه يحس بألمه، ومنه قوله: " إذ تحسونهم " بأذنه " (١) والحس: العطف، لاحساس الرقة على صاحبه. والاصل فيه إدراك الشيء من جهة الملابس. ومعنى الآية: فلما علم عيسى منهم الكفر، قال: " من أنصاري إلى الله ". والانصار جمع نصير مثل شريف وأشراف، وشهيد وأشهاد. وإنما لم يحمل على ناصر لانه يجب أن يحمل على نظيره من فعيل وأفعال.

" ١ " سورة آل عمران آية: ١٥٢.

(٤٧٣)

المعنى:

وقوله: " من أنصاري إلى الله " قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - من أعواني على هؤلاء الكفار إلى معونة الله أي مع معونة الله في قول السدي، وابن جريج وإنما جاز أن تكون (إلى) بمعنى (مع) لما دخل الكلام من معنى الاضافة ومعنى المصاحبة، ونظيره (الذود إلى الذود إيل) أي مع الذود. ومثله " ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم " (١) أي مع أموالكم، وقولك: قدم زيد ومعه مال، فلا يجوز فيه إلى وكذلك قدم إلى أهله، لا يجوز فيه مع، لاختلاف المعنى.

الثاني - قال الحسن من أنصاري في السبيل إلى الله، لانه دعاهم إلى سبيل الله.

الثالث - قال الجبائي: من أنصاري لله، كما قال: " هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق " (٢) ووجه ذلك أن العرض يصلح فيه اللام على طريق العلة وإلى طريق النهاية. فان قيل عيسى إنما بعث بالوعظ دون الحرب لم استنصر عليهم؟ قلنا: للحماية من الكافرين الذين أرادوا قتله عند اظهار الدعوة - في قول الحسن ومجاهد - وقال آخرون: يجوز أن يكون طلب النصر للتمكين من إقامة الحجة وإنما قاله ليتميز الموافق من المخالف. وقوله: (قال الحواريون)

اختلفوا في تسميتهم حواريين على ثلاثة أقوال قال سعيد بن جبير: سموا بذلك لنقاء ثيابهم. الثاني - قال ابن جريج عن أبي أرطاء أنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب. الثالث - قال قتادة، والضحاك: لانهم خاصة الانبياء يذهب إلى نقاء قلوبهم كنقاء الابيض بالتحوير. وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي.

" ١ " سورة النساء آية: ٢. " ٢ " سورة يونس آية: ٣٥.

(٤٧٤)

اللغة:

وأصل الحواري الحور، وهو شدة البياض. ومنه الحواري من الطعام لشدة بياضه. ومنه الاحور، والحوراء لنقاء بياض العين، ومنه الحواريات نساء الانصار لبياضهن. قال أبو جلدة الشكري (١):

فقل للحواريات بيكين غيرنا * ولا تبكنا إلا الكلاب النواج (٢)

وقال بعض بني كلاب:

ولكنه ألقى زمام قلوبه * ليحيا كريما أو يموت حواريا

أي ناصرا لرفاقه غير خاذل لهم. والمحور: الحديدية التي تدور عليها البكرة، لانها تنصقل حتى تبيض و حار يحور: إذا رجع، لانقلابه في الطريق الذي جاء فيه كانقلاب المحور بالتحوير.

المعنى:

وفي الآية حجة على من زعم أن المسيح والذين آمنوا به، كانوا نصارى فبين الله تعالى أنهم كانوا مسلمين كما بين ذلك في قصة ابراهيم (ع) حيث قال " ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما "

قوله تعالى:

(ربنا آما بما أنزلت وأتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين).

(٥٣) آية واحدة بلا خلاف.

" ١ " هو أبوجلدة بن عبيد بن منفذ اليشكري من شعراء الدولة الاموية، وكان من أخص الناس بالحجاج ثم فارقه وخرج مع ابن الاشعث، وصار من أشد الناس تحريضا على الحجاج " ٢ " اللسان (حور)، والاغاني ١١ : ٣١١ وحماسة بن الشجري: ٦٥ وهو من أبيات قالها في التحريض على قتال أهل الشام.

(٤٧٥)

هذا حكاية لقول الحواريين حيث قالوا " آما بالله واشهد بأنا مسلمون ". قالوا " ربنا " ومعناه يا ربنا ونصبه، لانه نداء مضاف. " آما " أي صدقنا. وإنما لم يقل رب العباد آما للاختصاص بما أنعم به عليهم من الايمان الذي أجابوا إليه دون غيرهم ممن عدل عنه. وإنما قال " ربنا آما " على لفظ الخطاب ولم يعدل إلى لفظ الغائب، فكان أبلغ في التعظيم، كما تقول السمع والطاعة للملك، فيكون أفخم من أن يقال: لك أيها الملك، لان المشاهدة أغنت عن التصريح بالخطاب وصار كالاستدلال له مع الغنى عنه وليس كذلك استعماله مع الحاجة إليه، لانه لايدل على ابتداء له. فان قيل لم حذف (يا) من يا ربنا آما، ولم يحذف من " يا عبادي لاخوف عليكم " (١)؟ قلنا حذف للاستغناء عن تنبيه المدعو، وليس كذلك الثاني لانه بشارة للعباد ينبغي أن يمد بها لان سماعها ما يسر. وقوله: (واتبعنا الرسول) فالاتباع سلوك طريقة الداعي على الاجابة إلى ما دعا إليه، وليس كل إجابة اتباعا، لان اجابة الدعاء يجوز على الله تعالى ولا يجوز عليه الاتباع. وقوله:

(فاكتبنا مع الشاهدين) قيل معناه قولان:

أحدهما - اثبت اسماعنا مع اسمائهم لنفوز بمثل ما فازوا، وننال من الكرامة مثل ما نالوا، ونستمتع بالدخول في جملتهم والانضمام إليهم. الثاني - يصل ما بيننا وبينهم بالخلة على

التقوى، والمودة على سلوك طريق الهدى، وتجنب طريق الردى، وعلى هذا يكونون فيه بمنزلة من كتب عليهم. وحقيقة الشاهد المخبر بالشئ عن مشاهدة، وقد يتصرف فيه، فيقال: البرهان شاهد بحق أي هو بمنزلة المخبر به عن مشاهدة. ويقال هذا شاهد أي معد للشهادة والمراد في الآية الشاهدين بالحق المنكرين للباطل.

قوله تعالى:

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (٥٤) آية.

" ١ " سورة الزخرف آية ٦٨.

(٤٧٦)

المعنى:

قيل في معنى الآية قولان:

أحدهما - قال السدي مكروا بالمسيح بالحيلة عليه، لقتله " ومكر الله بردهم " بالخبيثة، لاقائه شبه المسيح على غيره. الثاني - " مكروا " باضمار الكفر " ومكر الله " بمجازاتهم عليه بالعقوبة. والمكر، وإن كان قبيحا فانما أضافه تعالى إلى نفسه لمزاوجة الكلام، كما قال: " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " (١) وليس باعتداء وإنما هو جزاء، وهذا أحد وجوه البلاغة، لأنه على أربعة أقسام:

أحدها - المزاوجة نحو " ومكروا ومكر الله ". والثاني - المجانسة نحو قوله:

" يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار " (٢). الثالث - المطابقة نحو قوله:

" ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا " (٣) بالنصب على مطابقة الجواب للسؤال.

والرابع - المقابلة نحو قوله: " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة " (٤) قال الشاعر:

واعلم وأيقن ان ملكك زائل * واعلم بأن كما تدين تدان (٥)

أي كما تجزي تجزى. والاول ليس بجزاء وأصل المكر الالتفاف، فمنه المكر ضرور من الشجر مثل الدعل ونحوه، لالتفافه. والممكورة من النساء الملتفة والمكر طين أحمر شبيهه بالمغرة. وثوب ممكور إذا صبغ بذلك الطين. والمكر الاحتيال

" ١ " سورة البقرة آية: ١٩٤. " ٢ " سورة النور آية: ٣٧.

" ٣ " سورة النحل آية: ٣٠. " ٤ " سورة القيامة آية: ٢٢ - ٢٥.

" هـ " اللسان (زنا)، (دان) وجمهرة الامثال للعسكري: ١٦٩ وغيرها وقد نسبه في اللسان إلى خلويـد بن نوفل الكلابي. وقيل: هو لبعض الكلابيين. وقيل: ليزيد بن الصعق الكلابي. وقد مر البيت في ١ : ٣٦ وروايته هناك (بأنك ما تدين تـدان).

ورويته اللسان:

يا حار ايـقن أن ملكك زائل * واعلم بأن كما تدين تـدان

وحار: ترخيم حارث. والمخاطب هنا الحارث بن أبي شمر الغساني وكان قد اغتصب ابنة الشاعر فخاطبه في قصيدة منها هذا البيت.

(٤٧٧)

على العبد، لالتفاف المكروه عليه. وحد المكر: خبء يختدع به العبد لايقاعه في الضر. والفرق بين المكر والحيلة أن الحيلة قد تكون، لاطهار ما تعسر من الفعل من غير قصد إلى الاضرار بالعبد. والمكر حيلة على العبد توقعه في مثل الرهق.

قوله تعالى:

" إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون " (٥٥) آية.

الاعراب:

العامل في (إذ) يحتمل أحد أمرين.

أحدهما - قوله: " ومكروا ومكر الله " " إذ قال " . والآخر ذاك " إذ قال يا عيسى " وعيسى في موضع الضم، لأنه منادا مفرد، ولكن لايبين فيه لأنه منقوص، وعيسى لاينصرف لاجتماع العجمة والتعريف على قول الزجاج، لأنه حمل الالف على حكم الملحق بمخرج ولم يحملها على التأنيث، فأما الالف في زكريا، فلا يكون إلا للتأنيث، لأنه لا مثال له في الاصول. وإذا عرب جرى على قياس كلامهم في أن الالف الزائدة لاتخلو أن تكون للتأنيث أو لللاحق، فاذا بطل أحدهما صح أنها للآخر. وإنما وجب ذلك، لأنه يجري مجرى الاعراب بالعوامل، فأما الاشتقاق، فلا يجب، لأنه تصريف من أصل المشتق، وليس العربي بأصل للعجمي، وذلك نحو العيس وهو بياض الابل والعوس وهو السياسة لو كان عربيا، لصلح أخذه من أحد الاصلين. وإذا أخذ من أحدهما

(٤٧٨)

امتنع من الآخر، فلذلك إذا أخذ من العجمي امتنع من العربي.

وقوله: (إني متوفيك) قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قابضك برفعك من الارض إلى السماء من غير وفاة موت في قول الحسن وابن جريج وابن زيد. الثاني - متوفيك وفاة نوم في قول ابن عباس ووهب ابن منية. والثالث - ان فيه تقدما وتأخيرا، ومعناه إني رافعك، ومتوفيك فيما بعد ذكره الفراء. وقوله: " ورافعك " قيل في معناه قولان:

أحدهما - رافعك في السماء فجعل ذلك رفعا إليه للتفخيم واجراءه على طريق التعظيم. والاخر - مصيرك إلى كرامتي كما يقال رفع إلى السلطان، ورفع الكتاب إلى الديوان. وقال ابراهيم " إني ذاهب إلى ربي " (٦). وإنما ذهب من العراق إلى الشام. وإنما أراد إلى حيث أمرني ربي بالمضي إليه. وقوله: (ومطهرك) قيل فيه قولان:

أحدهما - مطهرك باخراجك من بين الارجاس، لان كونه في جملتهم بمنزلة التجسس له بهم، وإن كان **(عليه السلام)** طاهرا في كل حال، وإنما ذلك على ازالته عن مجاورة الانجاس. والثاني - قال أبو علي: تطهيره: منعه من كفر يفعلونه بالقتل الذي كانوا هموا به لان ذلك نجس طهره الله منه. وقوله: (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة يحتمل أن يكون جعلهم فوقهم بالحجة والبرهان، ويحتمل أن يكون ذلك بالعز والغلبة، وقال الحسن، وقتادة، والربيع: المعني بهذه الآية أهل الايمان. وما جاء به دون الذين كذبوه أو كذبوا عليه. وقال ابن زيد: المعني به النصارى، وهم فرق اليهود من حيث كانوا اليهود أذل منهم إلى يوم القيامة، ولهذا زال الملك عنهم وإن ان ثابتا في النصارى في بلاد الروم وغيرها، فهم أعز منهم وفوقهم. وقال الجبائي فيه دلالة على أنه لا يكون لليهود مملكة إلى يوم القيامة كما للروم. والوجه الاول أقوى، لانه أظهر إذا كان على جهة

(٤٧٩)

الترغيب في الحق، وقوله: (ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) وجه اتصاله بالكلام كأنه قال أما الدنيا فأنتم فيها على هذه الحال، وأما الآخرة، فيقع فيها التوفية للحقوق على التمام والكمال. وإنما عدل عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: " ثم إلي مرجعكم " لتغلب الحاضر على الغائب لما دخل معه في المعنى كما يقول بعض الملوك: قد بلغني عن أهل بلد كذا جميل، فأحسن إليكم معشر الرعية. وقوله تعالى:

(فاما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) (٥٦) آية واحدة بلا خلاف.

معنى قوله " فأما " تفصيل المجمل على قولك فيجازي العباد أما المؤمن فبالثواب وأما الكافر فبالعقاب. وقوله: " فاعذبهم " فالعذاب: استمرار الالام لان أصله استمرار الشيء، فمنه العذوبة لاستمرار العذب في الحلق، ومنه العذبة لاستمرارها بالحركة. وقوله " شديدا " فالشدة صعوبة بالانتقام. والقوة: عظم القدرة، فالشدة نقيض الرخاوة. والقوة نقيض الضعف، فشدة العذاب قد تكون بالتضعيف، وقد تكون بالتحبيس. وقوله: (في الدنيا والاخرة) فعذابهم في الدنيا اذلالهم بالقتل، والاسر، والسبي، والخسف، والجزية، وكلما فعل على وجه الذلة والاهانة. وفي الاخرة عذاب الابد. والفرق بين الاخرة والانتهاه أن الاخرة قد تكون بعد العمل، فأما الانتهاه فجزء منه لا يكون بعد كماله هذا إذا اطلق فان اضيف فقلل آخر العمل فمعناه انتهاء العمل. وقوله: (وما لهم من ناصرين) فالنصرة هي المعونة على العدو خاصة. والمعونة هي زيادة في القوة وقد تكون على العدو، وغير العدو.

(٤٨٠)

قوله تعالى:

(وأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم والله لا يحب الظالمين) (٥٧) آية واحدة بلا خلاف.

قرأ " فيوفيههم " بالياء حفص ورويس. الباقر بالنون.

فان قيل: لم كرر الوعد ههنا وقد ذكر في غير هذا الموضع من القرآن؟

قلنا: ليس ذلك بتكرير في المعنى، لان معنى ذلك آمنوا بك يا عيسى و عملوا الصالحات فيما دعوتهم إليه من الهدى، لانه تفصيل ما أجمل في قوله: " ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون " وقوله: " و عملوا الصالحات " ليس بتقييد للوعد بكل واحدة من الخصلتين على اختلاف فائدة الصفتين، وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في أن الله تعالى يريد الظلم، لانه قال:

" لا يحب الظالمين " وإذا لم يحب الظالم لم يحب فعل الظلم، لانه إنما لم يجز محبة الظالم لظلمه.

والمحبة هي الارادة، وفي الآية دلالة على أنه لايجازي المحسن بما يستحقه المسئ ولا المسئ بما يستحقه المحسن، لان ذلك ظلم. ومعنى التوفية في الآية مساواة مقدار الاستحقاق لان المقدار لا يخلو أن يكون مساويا أو زائدا أو ناقصا، والزيادة على مقدار الاستحقاق لا يجوز أن يعطي ثواب العمل من ليس بعامل لكن تجوز الزيادة على وجه التفضل، فأما التوفية،

فواجبه في الحكمة والنقصان لايجوز، لانه ظلم. وفي الاية دلالة على بطلان القول بالتحابط، لانه تعالى وعد بتوفية الاجور ولم يشترط الاحباط، فوجب حمل الكلام على ظاهره. قوله تعالى:

" ذلك نتلوه عليك من الايات والذكر الحكيم " (٥٨)
آية واحدة.

(٤٨١)

المعنى:

" ذلك " اشارة إلى الاخبار عن عيسى، وزكريا، ويحيى، عن الحواريين، واليهود من بني إسرائيل، وهو في موضع نصب بما تقدم. و " نتلوه عليك " لما فيه من الاية لمن تذكر في ذلك واعتبر به. والذكر وإن كان حكمة فانما وصفه بأنه حكيم من حيث لما كان ما فيه من الدلالة بمنزلة الناطق بالحكمة حسن وصفه بأنه حكيم من هذه الجهة، كما وصفت الدلالة بأنها دليل لما فيها من البيان، وذلك لانه الناطق بالبيان. الاعراب:

وموضع " نتلوه " من الاعراب يحتمل أمرين: أحدهما - أن يكون رفعا بأنه خبر ذلك، والثاني - ألا يكون له موضع، لانه صلة ذلك وتقديره: الذي نتلوه عليك من الايات، ويكون موضع " من الايات " رفعا بأنه خبر ذلك. ذكره الزجاج وأنشدوا في مثله:

عدس ما للعباد عليك إمارة * أمنت وهذا تحملين طليق (١)
بمعنى والذي تحملين طليق.

المعنى:

وقيل في معنى قوله: " نتلوه عليك " قولان: أحدهما - نكلمك به، ويكون وضع " نتلوه " موضع نكلم كما يقول القائل: انشأ زيد الكتاب وتلاوة عمرو، فالتلاوة تكون الاظهار الكلام على جهة الحكاية الثاني - " نتلوه عليك " بأمرنا جبريل أن يتلوه عليك على قول الجبائي، والذكر حصول ما به يظهر المعنى للنفس ويكون كلاما وغير كلام من بيان أو خاطر على

" ١ " البيت مشهور في كتب النحو.

(٤٨٢)

البال، وليس إذا ظهر الشئ للنفس دل على صحته، لان الضدين قد يظهران ولايجوز صحتهما معا.

قوله تعالى:

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (٥٩) آية.

قال ابن عباس، والحسن وقتادة: هذه الآية نزلت في وفد نجران: السيد والعاقب، قالاً للنبي (صلى الله عليه وآله) هل رأيت ولداً من غير ذكر، فأُنزل الله تعالى الآية.

والمثل ذكر سائر يدل على أن سبيل الثاني سبيل الاول، فذكر الله آدم بأن انشأه من غير والد يدل على أن سبيل الثاني سبيل الاول في باب الامكان، والقدرة. وفي ذلك دلالة على (بطلان قول) من حرم النظر، لان الله تعالى احتج به على المشركين ولايجوز أن يدلهم إلا بما فيه دليل فقياس خلق عيسى من غير ذكر كقياس خلق آدم بل هو فيه أوجب، لانه في آدم من غير أنثى، ولاذكر. ومعنى " خلقه " أنشأه، ولا موضع له من الاعراب، لانه لا يصلح أن يكون صفة لادم من حيث هو نكرة، ولايكون حالاً له، لانه ماض فهو متصل في المعنى غير متصل في اللفظ من علامات الاتصال من الاعراب أو مرتبة كالصلة. وقوله: (كن فيكون) قد بينا معناه فيما مضى وأنه اخبار عن سرعة الفعل وتيسره من غير مشقة ولا إبطاء وقيل إنه يفعله عند قوله: " كن " ويكون ذلك علامة للملائكة على ما يريد الله إنشاءه. وقوله: " فيكون " رفع لا يجوز فيه النصب على جواب الامر في كن، لان جواب الشرط غيره في نفسه أو معناه نحو اتني فاكرمك واتني فتحسن إلي، فهذا يجوز، لان تقديره فانك إن تأتني تحسن إلي، ولايجوز تقدير (أن)، فيكون بالنصب، لان تقدير كن فانك أن تكن فهذا لايصح، لان الجواب هو الشرط على معناه، ولكن يجوز الرفع على فهو يكون.

(٤٨٣)

قوله تعالى:

أَلْحَقْ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) آية.

الاعراب:

الحق رفع بأنه خبر ابتداء محذوف وتقديره ذلك الاخبار في أمر عيسى الحق من ربك، محذوف، لتقدم ذكره وأغنى بشاهد الحال عن الإشارة إليه كما تقول الهلال أي هذا الهلال.

المعنى واللغة:

وقوله: (فلا تكن من الممترين) يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون خطابا للنبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به غيره، كما قال. " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء " (١). والآخر - " فلا تكن من الممترين " أيها السامع للبرهان من المكلفين كائنا من كان.

والامتراء الشك، ومثله المرية وأصله الاستخراج مرى الضرع يمريه مريا: إذا استخرج اللبن منه يمسه ليدر، وكذلك الريح تمرى السحاب مريا. فالامتراء شك كحال المستخرج لما لا يعرف. وإنما قال: " الحق من ربك " ولم يقتصر على قوله: " ذلك الحق " " فلا تكن من الممترين " لان في هذه الاية دلالة على أنه الحق، لانه من ربك، ولو قال ذلك الحق " فلا تكن من الممترين " لان في هذه الاية دلالة على أنه الحق، لانه من ربك. ولو قال: ذلك الحق فلا تكن (٢) لم يفد هذه الفائدة. والفرق بين قوله: " فلا تكن من الممترين " وبين قوله: فلا تكن ممتريا أن ذلك أبلغ في النهي، لانه اشارة إلى قوم قد عرفت حالهم في النقص والعيب.

" ١ " سورة الطلاق آية: ١. " ٢ " هكذا في المطبوعة وفيه تكرار كما ترى.

(٤٨٤)

قوله تعالى:

(فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) (٦١) آية بلا خلاف.
المعنى:

الهاء في قوله: " فيه " يحتمل أن تكون عائدة إلى أحد أمرين:

أحدهما - إلى عيسى في قوله: " إن مثل عيسى عند الله " في قول قتادة.

الثاني - أن تكون عائدة على الحق في قوله " الحق من ربك ". والذين دعاهم النبي (صلى الله عليه وآله) في المباهلة نصارى نجران، ولما نزلت الاية أخذ النبي (صلى الله عليه وآله) بيد على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، ثم دعا النصارى إلى المباهلة، فاحجموا عنها، وأقروا بالذلة والجزية. ويقال: إن بعضهم قال لبعض إن باهلتموه اضطرر انوادي نارا عليكم ولم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة.

وروي أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لاصحابه: مثل ذلك. ولا خلاف بين أهل العلم أنهم لم يجيبوا إلى المباهلة.

اللغة، والمعنى:

و " تعاوا " أصله من العلو، يقال منه تعاليت أتعالى تعاليا: إذا جئت وأصله المجئ إلى الارتفاع إلا أنه كثر في الاستعمال حتى صار لكل مجئ وصار تعالى بمنزلة هلم. وقيل في معنى الابتهاال قولان:

أحدهما - الالتعان بهله الله أي لعنه وعليه بهلة الله. الثاني " بتهل " ندعوا بهلاك الكاذب. وقال لبيد:

(٤٨٥)

نظر الدهر إليهم فابتهل (١)

أي دعا عليهم بالهلاك كاللعن، وهو المباحدة من رحمة الله عقابا على معصيته فلذلك لايجوز أن يلعن من ليس بعاص من طفل أو يهيمه أو نحو ذلك، وقال أبو بكر الرازي: الآية تدل على أن الحسن والحسين ابناه، وأن ولد البنت ابن على الحقيقة. وقال ابن أبي علان: فيها دلالة على أن الحسن والحسين كانا مكلفين في تلك الحال، لان المباهلة لاتجوز إلا مع البالغين. واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن أمير المؤمنين (ع) كان أفضل الصحابة من وجهين: أحدهما - أن موضوع المباهلة ليتميز المحق من المبطل وذلك لايصح أن يفعل إلا بمن هو مأمون الباطن مقطوعا على صحة عقيدته أفضل الناس عند الله.

والثاني - أنه (صلى الله عليه وآله) جعله مثل نفسه بقوله: " وأنفسنا وأنفسكم " لانه أراد بقوله: " أبناءنا " الحسن والحسين (ع) بلا خلاف. وبقوله: " ونساءنا ونساءكم " فاطمة (ع) وبقوله: " وأنفسنا " أراد به نفسه، ونفس علي (ع)

لانه لم يحضر غيرهما بلا خلاف، وإذا جعله مثل نفسه، وجب ألا يدانيه أحد في الفضل، ولايقاربه. ومتى قيل لهم أنه أدخل في المباهلة الحسن والحسين (ع)

مع كونهما غير بالغين وغير مستحقين للثواب، وإن كانا مستحقين للثواب لم يكونا أفضل الصحابة. قال لهم أصحابنا: إن الحسن والحسين (ع). كانا بالغين مكلفين، لان البلوغ وكمال العقل لا يفتقر إلى شرط مخصوص، ولذلك تكلم عيسى في المهد بما دل على كونه مكلفا عاقلا، وقد حكيت ذلك عن امام من أئمة المعتزلة مثل ذلك وقالوا أيضا أعني أصحابنا: إنهما كانا أفضل الصحابة بعد أبيهما وجدهما، لان كثرة الثواب ليس بموقوف على كثرة الأفعال، فصغر سنهما لا يمنع من أن يكون

" ١ " ديوانه قصيدة ٣٩ البيت ٨١، وأمالى الشريف المرتضى ١ : ٤٥ وأساس البلاغة (بهل) وصدرة:

في قروم سادة من قومه

(٤٨٦)

معرفتهما وطاعتهما لله، وإقرارهما بالنبى (صلى الله عليه وآله) وقع على وجه يستحق به من الثواب ما يزيد على ثواب كل من عاصرهما سوى جدهما وأبيهما. وقد فرغنا الكلام في ذلك واستقصيناه في كتاب الامامة.
قوله تعالى:

(إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم) (٦٢) آية.
المعنى، واللغة:

إن قيل: لم قال: " إن هذا لهو القصص " مع قيام الحجة، وشهادة المعجزة له؟ قلنا: معناه البيان عن أن مخالفتهم له بعد وضوح أمره يجري مجرى العناد فيه، وكذلك قوله: " وما من إله إلا الله ". والقصص: الخبر الذي تتابع فيه المعاني وأصله اتباع الاثر، وفلان يقص أثر فلان أي يتبعه. وقوله: (وما من إله إلا الله) دخول (من) فيه تدل على عموم النفي لكل إله غير الله. ولو قال:

ما إله إلا الله لم يفد ذلك وإنما أفادت (من) هذا المعنى، لأن أصلها لابتداء الغاية فدللت على استغراق النفي من ابتداء الغاية إلى انتهائها. ويجوز جر اسم الله على البدل من إله، لأن ذلك لا يحسن في الكلام، لأن (من) لا تدخل في الايجاب وما بعد (إلا) هنا ايجاب، ولا تدخل أيضا على المعرفة للعموم، ولا يحسن إلا رفعه على الموضع، كأنه قيل ما لكم إله إلا الله. وما لكم مستحق للعبادة إلا الله قال الشاعر:

ابني لبيني لستم بيد * الايد ليست لها عضد

أنشدوه بالجر، فعلى هذا يجوز ما جاءني من رجل إلا زيد، وليس هو وجه الكلام، ولكنه يتبعه وإن لم يصلح إعادة العامل فيه، كما يقال: اختصم زيد وعمرو، ولا يجوز واختصم عمرو، وقوله: " وإن الله لهو العزيز الحكيم " معناه

(٤٨٧)

لا أحد يستحق إطلاق هذه الصفة إلا هو، فوصل ذلك بذكر التوحيد في الالهية لانه حجة على صحته من حيث لو كان إله آخر، لبطل إطلاق هذه الصفة.
الاعراب:

وموضع هو من الاعراب يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون فصلا، وهو الذي تسمية الكوفيون عمادا، فلا يكون له موضع من الاعراب، لانه في حكم الحرف ويكون القصص خبر إن. والآخر - أن يكون إسما موضعه رفع بالابتداء والقصص خبر إن والجملة خبر إن.

قوله تعالى:

(فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين) (٦٣)

اللغة والمعنى:

التولي عن الحق هو اعتقاد خلافه بعد ظهوره، لانه كالادبار عنه بعد الاقبال. وتولى عنه خلاف تولى إليه. والاصل واحد كما أن رغب عنه خلاف رغب فيه. وهو الزوال بالوجه عن جهته إلى غيره، فأصل التولي كون الشيء يلي غيره من غير فصل بينه وبينه، فقليل تولى عنه أي زال عن جهته. وقوله: (فان الله عليم بالمفسدين) إنما خص المفسدين بأنه عليم بهم على جهة التهديد لهم، والوعد بما يعلمه مما وقع من إفسادهم كما يقول القائل أنا أعلم بسر فلان، وما يجري إليه من الفساد. والافساد إيقاع الشيء على خلاف ما توجبه الحكمة، وهو ضد الاصلاح، لانه ايقاع الشيء على مقدار ما توجبه الحكمة. والفرق بين الفساد، والقبيح: أن الفساد تغيير عن المقدار الذي تدعو إليه الحكمة بدلالة أن نقيضه الاصلاح، فاذا قصر عن المقدار أو أفرط لم يصلح، فاذا كان على المقدار صلح، وليس كذلك القبيح، لانه ليس فيه معنى المقدار. وإنما القبيح ما تزجر عنه الحكمة كما أن الحسن ما تدعوا إليه الحكمة.

(٤٨٨)

قوله تعالى:

(قل يا أيها الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (٦٤) آية واحدة.

النزول:

قيل في من نزلت هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدهما - ذكره الحسن، والسدي، وابن زيد، ومحمد بن جعفر بن الزبير:

أنهم نصارى نجران. والثاني - قال قتادة، والربيع، وابن جريج: أنهم يهود المدينة، وقد روى ذلك أصحابنا. ووجه هذا القول أنهم أطاعوا الاحبار طاعة الارباب، فسلخوا بهم طريق الضلال. ويدل على ذلك قوله: (عزوجل)

" اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله " (١) وروي عن أبي عبدالله (ع)

أنه قال ما عبدوهم من دون الله وإنما حرموا لهم حلالاً وأطوا لهم حراماً، فكان ذلك اتخاذ الارباب من دون الله. الثالث - ذكره أبو علي الجبائي أنها في الفريقين من أهل الكتاب على ظاهر الكلام.

المعنى، والاعراب، واللغة:

وقوله: (إلى كلمة سواء) فسواء إسم وليس بصفة وإنما جر سواء بتقدير ذات سواء في قول الزجاج. وكان يجوز نصبه على المصدر، وموضع " أن لا " خفض على البذل من (كلمة). وقال الرماني: إنما أجراه على الأول، وهو الثاني ولايجوز في مثل قولك مررت برجل سواء عليه الخير والشر غير الرفع لامرين: أحدهما - أن رفع الثاني بتقدير محذوف، كأنه قال هي " ألا تعبد إلا

" ١ " سورة التوبة آية: ٣٢.

(٤٨٩)

الله "، فيكون سواء من صفة الكلمة في اللفظ، والمعنى. ويجوز أن يكون موضعه خفضا على البذل من الكلمة، وتقديره تعالوا إلى ألا نعبد إلا الله، وكذلك جاء مالا يصلح لالول على الاستئناف، نحو " الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد " (١) وكذلك " أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم " (٢). الثاني - أن يقع بمعنى المصدر في موضع الصفة الجارية بتقدير (كلمة) مستوية " بيننا وبينكم " فيها الامتناع من عبادة غير الله. وإنما جاز، لان لانعت بغير معنى الكلمة، فصار بمنزلة إضمار الكلمة. والفرق بين كلمة عدل وكلمة سواء (أن " كلمة سواء ") بمعنى مستوية وأن عدل بمعنى عادلة فيما يكون منها، كما تقول رجل عدل أي عادل، فاما كلمة مستوية فمستقيمة، كما يقال الرجل مستو - في نفسه - غير مائل عن جهته فلذلك فسر سواء على الوجهين، فكان يجوز في العربية الجزم في " ألا نعبد إلا الله " على طريق النهي، كقولك انتي وقت يأتي الناس لاتجئ في غير ذلك من الاوقات، ويجوز فيه الرفع أيضا بمعنى الحكاية على أن تقول " لانهبد إلا الله " وأجاز الفراء الجزم عطا على موضع (أن) لانها في موضع جواب الامر على تقدير " تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشارك به شيئا " كما تقول: تعالوا لا نقل إلا خيرا، وهذا لايجوز عند البصريين، لان (أن) لا توافق معنى الجواب كالفاء في قوله: " فأصدق وأكن من الصالحين " (٣)

كما توافقه " إذا " في قوله: " وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون " (٤) واللام في قوله: " فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " إنما اتصل بما قبله على تقدير قابلوا إعراضهم عن الحق بخلافه للانكار عليهم وتجديدا للاقرار به عند صدمهم أي أقيموا على إسلامكم، وقولوا لهم: " اشهدوا بأنا مسلمون " مقيمون على الاسلام.

" ١ " سورة الحج آية: ٢٥. " ٢ " سورة الجاثية آية: ٢٠.
" ٣ " سورة المنافقين آية: ١٠. " ٤ " سورة الروم آية ٣٦.

(٤٩٠)

قوله تعالى:

(يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون)
(٦٥) آية واحدة.

النزول:

روي عن ابن عباس، والحسن، وقتادة والسدي أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فتنازعوا في إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلا يهوديا. وقالت النصارى ما كان إلا نصرانيا، فأنزل الله تعالى هذه الآية:
اللغة:

وقوله: " لم تحاجون " فالحجاج، والمحاجة واحد، وهو الجدل أما بحجة أو شبهة، وقد يسمى الجدل بابهام الحجة حجاجا، وعلى ذلك كان أهل الكتاب في ادعائهم لإبراهيم، لأنهم أو هموا صحة الدعوى من غير سلوك لطريق الهدى ولا تعلق بما يظن به صحة المعنى. وأما الحجة فهو البيان الذي يشهد لصحة المقالة، وهي والدلالة بمعنى واحد. والفرق بين الحجاج والجدال أن الحجاج يتضمن اما بحجة أو شبهة أو ابهام في الحقيقة، لأن أصله من الجدل، وهو شدة الفتل.

المعنى:

وقوله: (أفلا تعقلون) معناه أفلا تعقلون فساد هذه الدعوى إذ العقل يمنع من الإقامة على دعوى بغير حجة، فكيف بما قد علم، وظهر فسادها بالمناقضة. وفي ذلك دلالة على أن العاقل لا يعذر في الإقامة على الدعوى من غير حجة، لما فيه من البيان عن الفساد والانتقاض. ولأن العقل طريق العلم، فكيف يضل عن الرشد من قد جعل الله إليه السبيل !.

(٤٩١)

قوله تعالى:

(ها أنتم هؤلاء حاجبتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٦٦) آية واحدة.

القرءة:

قرأ أهل المدينة وأبو عمرو " ها أنتم " بتخفيف الهمزة حيث وقع الباقون بتخفيفها (١) وكلهم أثبت الالف قبل الهمزة إلا بان عامر عن قنبل فإنه حذفها.

المعنى واللغة:

" ها " للتنبية وإنما نبههم على أنفسهم وإن كان الانسان لاينبه على نفسه وإنما ينبه على ما أغفله من حاله، لان المراد بذلك تنبيههم بذكر ما يعلمون على ما لا يعلمون، فلذلك خرج التنبية على النفس، والمراد على حال النفس. ولو جاء على الاصل، لكان لابد من ذكر النفس للبيان، ففيه مع ذلك ايجاز. وقد كثر التنبية في هذه ولم يكثر في ها أنت، لان ذا مبهم من حيث يصلح لكل حاضر والمعنى فيه على واحد بعينه مما يصلح له فقوى بالتنبية، لتحريك النفس على طلبه بعينه، وليس كذلك أنت، لانه لا يصلح لكل حاضر في الجملة، وإنما هو للمخاطب. إن قيل أين خبر أنتم في " ها أنتم "؟ قيل: يحتمل أمرين: أحدهما - حاجتكم على أن يكون " هؤلاء " تابعا عطف بيان.

والثاني - أن يكون الخبر " هؤلاء " على معنى هؤلاء بمعنى الذين وما بعده صلة له. فان قيل: ما الذي حاجوا فيه مما لهم به علم؟ قلنا: أما الذي لهم به علم فما وجدوه في كتبهم، لانهم يعلمون أنهم وجدوه فيها وأما الذي ليس لهم به علم

" ١ " هكذا وجدناه في الاصل وهو كما ترى. وفي مجمع البيان. قرأ أهل الكوفة (ها أنتم) بالمد والهمزة وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بغير مد ولا همزة الا بقدر خروج الالف الساكنة. وقرأ ابن عامر بالمد دون الهمزة.

(٤٩٢)

فشأن إبراهيم على قول السدي وأبي علي. وقوله: " والله يعلم " يعني شأن إبراهيم وكلماليس عليه دليل، لانه علام الغيوب العالم بغير تعليم " وأنتم لاتعلمون " ذلك، فينبغي أن تلتمسوا حقه من باطله من جهة عالم به. قال أبو علي الفارسي: وجه

قراءة ابن كثير أنه أبدل من الهمزة هاء والتقدير أنتم، فابدل من همزة الاستفهام هاء، وذلك جائز. قال: ولا يجوز على هذا أن تكون (ها) للتنبية. وحذف الالف منها في مثل هلم، لان الحذف إنما يجوز إذا كان فيها تضعيف قوله تعالى:

(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) (٦٧) آية.

المعنى:

ذكر الحسن، وقتادة، وعامر، وهوالمروي عن أبي جعفر (ع): أن اليهود قالت: كان ابراهيم يهوديا، وقالت النصارى كان نصرانيا، فاكذبهم الله في ذلك بانزال هذه الاية. فان قيل: هل كان الله تعبد باليهودية والنصرانية ثم نسخا أم لا؟ قلنا: كان الذي بعثه الله به شرع موسى ثم شرع عيسى ثم نسخهما فأما اليهودية والنصرانية فصفتا ثم قد دل القرآن والاجماع على ذلك، لأن موسى لم يكن يهوديا، وعيسى لم يكن نصرانيا، لقوله تعالى: " ان الدين عند الله الاسلام " واليهودية ملة محرقة عن شرع موسى وكذلك النصرانية محرقة عن شرع عيسى. وقيل في أصل الصفة بيهود قولان:

أحدهما - أنهم ولد يهود. والآخر - أنه مأخوذ من هاد يهود إذا رجع. وفي النصارى قولان:

أحدهما - أنه مأخوذ من ناصرة قرية بالشام. والآخر - أنه من نصر المسيح. وكيف تصرفت الحال فقد صارتا صفتي ثم تجريان على فرقتين ضاليتين.

(٤٩٣)

فان قيل: إن كان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، لان التوراة والانجيل أنزلا بعده، فيجب أن لا يكون مسلما، لان القرآن أيضا أنزل بعده؟ قلنا: لا يجب ذلك، لان التوراة والانجيل أنزلا من بعده من غير أن يكون فيها ذكر له بأنه يهوديا أو نصرانيا. والقرآن أنزل من بعده وفيه الذكر له بأنه كان حنيفا مسلما. وقيل في معنى الحنيف قولان:

أحدهما - المستقيم الدين، لان الحنف هو الاستقامة في اللغة. وإنما سمي من كان معوج الرجل أحنف على طريق التفاؤل كما قيل للضرير إنه بصير. والثاني - إن الحنيف هو المائل إلى الحق في الدين فيكون مأخوذا من الحنف في القدم، وهو الميل. فان قيل: هل كان ابراهيم على جميع ما نحن عليه الان من شرع الاسلام؟ قلنا. هو (ع) كان مسلما، وإن كان على بعض شريعتنا، لان في شرعنا تلاوة الكتاب في صلاتنا وما أنزل القرآن إلا على نبينا، وإنما قلنا: إنه مسلم باقامة بعض الشريعة، لان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) كانوا مسلمين في الابتداء قبل استكمال الشرع. وقد سماه الله تعالى مسلما، فلا مرية تبقى بعد ذلك. قوله تعالى:

(إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) (٦٨) آية واحدة.

المعنى:

معنى قوله: " إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي " أي أحقهم بنصرته بالمعونة أو الحجة، لان الذين اتبعوه في زمانه تولوه بالنصرة على عدوه حتى ظهر أمره، وعلت كلمته. وسائر المؤمنين يتولونه بالحجة بما كان عليه من الحق وتبرئته من كل عيب، فالله تعالى ولي المؤمنين، لانه يوليهم النصره، والمؤمن ولي الله لهذا المعنى بعينه. وقيل، لانه يولي صفاته التعظيم. ويجوز،

(٤٩٤)

لانهم يتولون نصره ما أمره به من الدين. وقيل والله ولي المؤمنين، لانه يتولى نصرهم. والمؤمنون أولياء الله، لانهم يتولون نصر دينه الذي أمرهم به.
اللغة:

" وأولى " الذي هو بمعنى أفعل من غيره لا يجمع ولا يثنى، لانه يتضمن معنى الفعل والمصدر على تقدير يزيد فضله على فضله في أفضل منه. ومعنى قولنا: هذا الفعل أولى من غيره أي بأن يفعل. وقولنا زيد أولى من غيره معناه: أنه على حال هو بها أحق من غيره. وقوله: " للذين اتبعوه " فالاتباع جريان الثاني على طريقة الاول من حيث هو عليه كالمدلول الذي يتبع الدليل في سلوك الطريق أو في التصحيح، لانه إن صح الدليل صح المدلول عليه لصحته، وكذلك المأموم الذي يتبع الامام.

فان قيل: لم فصل ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) من ذكر المؤمنين؟ قلنا: يحتمل أمرين: أحدهما - أنه بمعنى والذين آمنوا به، فتقدم ذكره ليدخل في الولاية ويعود إليه الكتابة. والثاني - أن اختصاصه بالذكر بالحال العليا في الفضل.
قوله تعالى:

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) (٦٩).
اللغة:

معنى ودت: تمتت وإذا كانت بمعنى التمني، فهي تصلح للماضي والحاضر والمستقبل فلذلك جاز ب (لو) وليس كذلك المحبة والارادة، لانهما لا يتعلقان إلا بالمستقبل فلا يجوز أن يكون بمعنى أرادت " لو يضلونكم " كما يجوز ودت " لو يضلونكم "، لان الارادة تجري مجرى الاستدعاء إلى الفعل أو مجرى العلة

(٤٩٥)

في ترتيب الفعل، فأما التمني، فهو تقدير شئ في النفس يستمتع بتقريره. والفرق بين ود لو يضل، وبين ود أن يضل: أن (أن) للاستقبال وليس كذلك (لو)

وقوله: (لو يضلونكم) فالاضلال: الاهلاك بالدخول في الضلال. وأصل الضلال الهلاك من قوله: "أذا ضللنا في الارض" (١) أي هلكنا.

المعنى:

وقوله: (وما يضلون إلا أنفسهم) قيل فيه قولان:

أحدهما - أن المؤمنين لا يقبلون ما يدعونهم إليه من ترك الاسلام إلى غيره من الاديان فيحصل عليهم حينئذ الاثم والوبال، والاستدعاء إلى الضلال.

الثاني - "وما يضلون إلا أنفسهم" بفعل الضلال كما يقال ما أهلك إلا نفسه أي لا يعتد بهلاك غيره في عظم هلاكه.

اللغة:

والفرق بين أضله عن الطريق وبين أخرجه عن الطريق: أن أضله عنه يكون بالاستدعاء إلى غيره دون فعل الضلال. وأخرجه عنه قد يكون بفعل الخروج منه.

والفرق بين الاضلال والاستدعاء إلى الضلال أن الاضلال لا يكون إلا إذا قبل المدعو، فأما الاستدعاء إلى الضلال، فيكون، قبل المدعو أم لم يقبل. وحقيقة الاضلال: الدعاء إلى الضلال الذي يقبله المدعو. وقال بعضهم: إنه لا يصح إضلال أحد بغيره. وإنما يقال ذلك على وجه المجاز ذهب إلى أنه يفعل فعل الضلال في غيره، لانه لا يوصف بأنه مضل لغيره إلا إذا أضل المدعو باغوائه. قال الرماني:

وهذا غير صحيح، لانه يذم بالاستدعاء إلى الضلال الذي يقبله المدعو أكثر مما يذم بالاستدعاء إلى الضلال الذي لا يقبله المدعو، فلذلك فرق بين الاستدعاءين فوصف أحدهما بالاضلال ولم يوصف الاخر.

" ١ " سورة الم السجدة آية: ١٠.

(٤٩٦)

قوله تعالى:

(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون)

(٧٠) آية واحدة بلا خلاف.

اللغة:

قوله: "يا أهل" نصب، لانه منادى مضاف. وقوله: "لم" أصله لما، لانها (ما) التي للاستفهام دخلت عليها اللام وإنما حذفتم لاتصالها بحرف الاضافة مع وقوعها ظرفاً تدل عليها الفتحة. وكذلك قياسها مع سائر حروف الاضافة مثل "فيم تبشرون" (١) "وعم يتساءلون" (٢) وإنما

حذفت الالف من (ما) في الاستفهام، ولم تحذف من (ما) في الصلوات لان الظرف أقوى على التغيير من وسط الاسم كما يقوى على التغيير بالاعراب، والتنوين. والالف في الصلة بمنزلة حرف في وسط الاسم، لانه لا يتم إلا بصلته، وليس كذلك الاستفهام، لان الالف فيه منتهى الاسم، و (لم) أصلها (لما) وهي مخالفة عند البصريين ل (كم) على ما قاله الكسائي أن أصلها كما، لان (كم) مخالفة (لما) في اللفظ، والمعنى: أما في اللفظ، فلانه كان يجب أن تبقى الفتحة لتدل على الالف، كما بقيت في (لم) ونحوه، والامر بخلافه. وأما في المعنى، فلان (كم) سؤال عن العدد، و (ما) سؤال عن الجنس، فليست منها في شيء، ولا لكاف التشبيه في (كم) معنى، ويلزمه في متى أن تكون أصلها (ما) إلا أنهم زادوا التاء، لانه تغيير من غير دليل، فاذا لم يمنع في أحدهما لم يمنع في الآخر.

وإنما بني على نظيره في حذف الالف، فلذلك يلزمه أن يبنى على نظيره في زيادة التاء قبل الالف، نحو (رهبوتى خير من رحمونى) قال الزجاج: قول الكسائي في هذا لا يعرج عليه.

" ١ " سورة الحجر آية: ٥٤. " ٢ " سورة النبا آية: ١.

(٤٩٧)

المعنى:

وقوله: (لم تكفرون بآيات الله) معناه لم تجحدون آيات الله. " وأنتم تشهدون " قيل في معناه قولان:

أحدهما - وأنتم تشهدون بما يدل على صحتها من كتابكم الذي فيه البشارة بها في قول قتادة والربيع والسدي.

والثاني - وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الانبياء التي تقرون بها. والشهادة الخبر بالشيء عن مشاهدة: إما للخبر به، وإما لما يظهر به ظهوره بالمشاهدة. فاذا شهد بالاقرار، فهو مشاهدة المخبر به، وإذا شهد بالملك، فهو يظهر به ظهوره بالمشاهدة. وإنما قيل: شهد بالباطل، لانه يخبر عن مشاهدة في دعواه. وقوله:

(وأنتم تشهدون) فيه حذف، وتقديره " وأنتم تشهدون " ما عليكم فيه الحجة فحذف للايجاز مع الاستغناء عنه بالتوبيخ الذى تضمنه الكلام. والحجة في ذلك من وجهين:

أحدهما - الاقرار بما فيه من البشارة من الكتاب. والثاني - الاقرار بمثله من الايات.

قوله تعالى:

(يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) (٧١) آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل في معنى قوله: " لم تلبسون الحق بالباطل " ثلاثة أقوال:
أحدها - بتحريف التوراة والانجيل في قول الحسن وابن زيد:
الثاني - قال ابن عباس، وقتادة: باظهار الاسلام، وإبطان النفاق، وفي قلوبهم من اليهودية
والنصرانية مأمنا، لانهم يداعوا إلى الاظهار الاسلام في صدر

(٤٩٨)

النهار والرجوع عنه في آخره لتشكيك الناس فيه.
الثالث - بالايمان بموسى، وعيسى، والكفر بمحمد (صلى الله عليه وآله).
والحق الذي كتموه - في قول الحسن، وغيره من المفسرين - هو ما وجدوه من صفة النبي
(صلى الله عليه وآله) والبشارة به في كتبهم على وجه العناد من علمائهم.
وقوله: (وأنتم تعلمون) فيه حذف وتقديره وأنتم تعلمون الحق، لان التقريع قد دل على أنهم
كتموا الحق وهم يعلمون أنه حق. ولو كتموه وهم لا يعلمون أنه حق لم يلائم معنى التقريع
الذي دل على أنهم كتموا الحق وهم يعلمون أنه حق ولم يلائم معنى التقريع الذي دل عليه
الكلام. وقيل أيضا: وأنتم تعلمون الامور التي يصح بها التكليف. والاول أصح، لما بيناه من
الذم على الكتمان.

فان قيل: إذا كانوا يعلمون الحق في الدين، فقد صح كونهم معاندين فلم ينكر مذهب أصحاب
المعارف الذين يقولون أن كل كافر معاند؟ قلنا: هذا في قوم مخصوصين يجوز على مثلهم
الكتمان، فأما الخلق الكثير، فلا يصح ذلك منهم، كما يجوز الكتمان على القليل، ولا يجوز على
الكثير فيما طريقه الاخبار.

على أن في الآية ما يدل على فساد قول أصحاب المعارف. وهو الاخبار بأنهم كتموا الحق
الذي علموا، فلو اشترك الناس فيه، لما صح الكتمان كما لا يصح في ما يعلمونه من
المشاهدات والضروريات، لاشتراكهم في العلم به. وقوله: (وتكتمون الحق) رفع، لانه
معطوف على قوله: " تلبسون " وكان يجوز النصب، فتقول:

وتكتموا الحق على الصبر، كما لو قلت لم تقوم وتقعّد كان جائزا أي لم تجمع الفعلين وأنت
مستغن باحدهما عن الآخر.

قوله تعالى:

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره
لعلهم يرجعون) (٧٢) آية.

(٤٩٩)

اللغة:

الطائفة الجماعة. وقيل في أصلها قولان:

أحدهما - أنه كالرفقة التي من شأنها أن تطوف البلاد في السفر الذي يقع عليه الاجتماع. والآخر - أنها جماعة يستوي بها حلقة يطاف حولها. وإنما دخلت هاء التأنيث فيها لمعنى المضاعفة اللازمة كما دخلت في الجماعة، لان في اصل التأنيث معنى التضعيف من أجل انه مركب على التذكير.

المعنى:

وفي قوله: " آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره " ثلاثة أقوال: أولها - أظهروا الايمان لهم في أول النهار وارجعوا عنه في آخره، فانه أحرى أن ينقلبوا عن دينهم.

الثاني - آمنوا بصلاتهم إلى بيت المقدس في أول النهار، واكفروا بصلاتهم إلى الكعبة في آخره ليرجعوا بذلك عن دينهم.

الثالث - أظهروا الايمان في صدر النهار لما سلف لكم من الاقرار بصفة محمد (صلى الله عليه وآله)، ثم ارجعوا في آخره لتوهموهم أنه كان وقع عليكم غلط في صفته.

والوجه الاول قول أكثر أهل العلم. ووجه النهار هو أوله عند جميع المفسرين، كقتادة، والربيع، ومجاهد. وانما سمي أول النهار بأنه وجهه لاحد أمرين:

أحدهما - لانه أول ما يواجه منه كما يقال، لاول الثوب وجه الثوب. الثاني - لانه كالوجه في أنه أعلاه وأشرف ما فيه قال ربيع ابن زياد:

من كان مسرورا بمقتل مالك * فليأت نسوتنا بوجه نهار (١)

" ١ " اللسان (وجه) والاعاني ١٦ : ٢٧، ومجاز القرآن ١ : ٩٧، وحماسة أبي تمام ٣ : ٢٦ وخزانة الادب ٣ : ٥٣٨ من أبيات قالها لما قتل حميمه مالك بن زهير، وقد استعد لطلب ثاره وبعده:

(٥٠٠)

وقيل في معنى البيت: انه كان من عادتهم أن لاتتوح نساؤهم على قتلاهم إلا بعد أن يؤخذ بثاره، فاراد الشاعر أن يبين أنهم أخذوا بثار مالك بأن النساء ينحن عليه. ولذلك قال في البيت الذي بعده:

يجد النساء حواسرا يندبنه وقوله: (لعلمهم يرجعون) فيه حذف وتقديره: لعلمهم يرجعون عن دينهم في قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد.

قوله تعالى:

" ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله واسع عليم " (٧٣) آية.
المعنى، والاعراب:

قال الحسن: القائلين " لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم " هم يهود خبير ليهود المدينة. وقال قتادة، والربيع، والسدي، وابن زيد: هم بعض اليهود لبعض.
وقيل في معنى الآية ستة أقوال:

أحدها - قال الحسن، ومجاهد: اعرض بقوله: " قل إن الهدى هدى الله " وتقديره: " ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم " ولا تؤمنوا " أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم " ولا تؤمنوا " أن يحاجوكم عند ربكم " لأنه لاحجة لهم. قال أبو علي الفارسي. وتقديره ولا تصدقوا ب " أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم " " إلا لمن تبع دينكم ".

" ١ " يجد النساء حوسرا يندبنه * بيكين قبل تبلج الاسحار

قد كن يخبان الوحوه تسترا * فاليوم حين برزن للنظار

بخمشن حرات الوجوه على امرئ * سهل الخليفة طيب الاخبار

(٥٠١)

الثاني - قال السدي، وابن جريج: هو على الاتصال بالهدى دون الاعتراض، والمعنى " قل إن الهدى هدى الله أن " لا " يؤتى أحد مثل ما أوتيتم " أيها المسلمون، كقوله " يبين الله لكم أن تضلوا " (١) وأن لا " يحاجوكم عند ربكم " لأنه لاحجة لهم.

الثالث - قال الكسائي، والفراء: " أو يحاجوكم عند ربكم " بمعنى حتى " يحاجوكم عند ربكم " على التبعيد كما يقال لا تلتقي معه أو تقوم الساعة.

الرابع - قال أبو علي: " قل إن الهدى هدى الله " فلا تجحدوا " أن يؤتى أحد مثل أوتيتم ".

الخامس - قال الزجاج: " ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم " لئلا تكون طريقا لعبدة الاوثان إلى تصديقه.

السادس - " أو يحاجوكم عند ربكم " ان اعترفتم به، فيلزمكم العمل به منهم، لاقراركم بصحته.

وفي دخول اللام في قوله: " إلا لن " قيل فيه قولان:

أحدهما - أن تكون زائدة كاللام في قوله: " ردف لكم " (٢) أي ردفكم بمعنى لاتصدقوا إلا من تبع دينكم. قال المبرد: إنما يسوغ ذلك على تقدير المصدر بعد تمام الكلام، فأما قام لزيد بمعنى قام زيد، فلا يجوز، لأنه لا يحمل على التأويل إلا بعد التمام.

والقول الآخر - لاتعترفوا بالحق " إلا لمن تبع دينكم " فتدخل للتعدية، وقال أبو علي الفارسي لا يجوز أن يتعلق اللام في قوله: " لمن تبع دينكم " بقوله: " ولا تؤمنوا "، لأنه قد تعلق به حرف الجر في قوله: " بأن يؤتى " كما لا يتعلق مفعولان بفعل واحد. فان قيل: لم جاز حذف (لا) من قوله تعالى " أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم " على قول من قال ذلك؟ قلنا: الدلالة عليها كالدلالة في

" ١ " سورة النساء آية: ١٧٥.

" ٢ " سورة النمل آية: ٧٢.

(٥٠٢)

جواب القسم، نحو والله أقوم أي لا أقوم قال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي (١)

أي لا أبرح. والدليل عليه في الآية اتصاله بالعرض في اختصاص أهل الايمان، فلا يتبعه في المعنى إلا على " أن لا " " يؤتى أحد مثل ما أوتيتم " وكذلك " يبين الله لكم أن تضلوا " (٢) لان البيان لا يكون طريقا إلى الضلال.

وقال المبرد تقديره كراهة " أن تضلوا "، وكراهة " ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم " فحمله على الأكثر، لان حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أكثر من حذف (لا). وقوله: (والله واسع عليم) معناه واسع الرحمة عليم بالمصلحة، فمن صلح له ذلك من غيركم فهو يؤتیه تفضلا عليه.

قوله تعالى:

" يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم " (٧٤) آية.

اللغة:

الاختصاص: انفراد بعض الاشياء بمعنى دون غيره، كالانفراد بالملك أو الفعل أو العلم أو السبب أو الطلب أو غير ذلك. ويصح الانفراد بالنفس وغير النفس، وليس كذلك الاختصاص، لانه نقيض الاشتراك. والانفراد نقيض الازدواج.

والفرق بين الاختصاص، والخاصة: أن الخاصة تحتمل الاضافة وغير الاضافة، لانها نقيض العامة، فأما الاختصاص، فلا يكون إلا على الاضافة، لانه اختصاص بكذا دون كذا.

المعنى:

وقيل في معنى الرحمة ههنا قولان:

" ١ " مر البيت في ٢ : ٢٢٧ .

" ٢ " سورة النساء آية: ١٧٥ .

(٥٠٣)

أحدهما - قال الحسن، ومجاهد، والربيع، والجبائي: إنها السورة وقال ابن جريج: هي القرآن، والاسلام. ووجه هذا القول أنه يختصهم بالاسلام بما لهم من اللطف فيه. وفي الآية دلالة على أن النبوة ليست مستحقة بالأفعال، لأنها لو كانت جزاء، لما جاز أن يقول يختص بها من يشاء، كما لا يجوز أن يختص بعقابه من يشاء من عباده. فان قيل اللطف مستحق، وهو يختص به من يشاء من عباده؟

قلنا: لانه قد يكون لطفا على وجه الاختصاص دون الاشتراك وليس كذلك الثواب.

اللغة:

وقوله: (والله ذو الفضل العظيم)، فالفضل الزيادة عن الاحسان وأصله على الطلاق الزيادة يقال في بدنه فضل أي زيادة. والفاضل: الزائد على غيره في خصال الخير، فأما التفضل، فزيادة النفع على مقدار الاستحقاق ثم كثر استعماله حتى صار لكل نفع قصد به فاعله أن ينفع صاحبه.

وقوله تعالى:

" ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " (٧٥) آية بلا خلاف.

القراءة، والحجة:

قرأ أبو عمرو " يؤده إليك " باسكان الهاء الباقون باشباعها.

قال الزجاج: هذا غلط من الراوي كما غلط في " بارئكم " (٤) باسكان

" ١ " سورة البقرة آية: ٥٤ .

(٥٠٤)

الهمزة، وإنما كان أبو عمرو يختلس الحركة فيما رواه الضباط عنه كسيبويه وغيره. وإنما لم يجر حذف الحركة، كما لم يجر في هذا غلام فاعلم، لانه لما حذف الياء تركت الكسرة لتدل عليها.

المعنى، واللغة:

والقنطار: قد ذكرنا الخلاف في مقداره، فانه على قول الحسن ألف ومأتا متقال. وفي قول أبي نضرة ملا مسك ثور ذهباً. وقيل سبعون ألفاً عن مجاهد.

وعن أبي صالح أنه مئة رطل. والفرق بين " تأمنه بقنطار " وتأمنه على قنطار أن معنى الباء الصاق الأمانة، ومعنى على استعلاء الأمانة، وهما يتعاقبان في هذا الموضع، لتقارب المعنى، كما يقال: مررت به ومررت عليه. وقوله: (إلا ما دمت عليه قائماً) قيل في معناه قولان: أحدهما - " إلا مادمت عليه قائماً " بالتقاضي والمطالبة في قول قتادة، ومجاهد و (الثاني) قال السدي إلا مادمت عليه قائماً بالاجتماع معه، والملازمة. ومعناه إلا ما دمت عليه قائماً على رأسه.

ودمت ودمت لغتان مثل مت ومت لكن من كسر الدال والميم قال في المستقبل: تدام وتمات، وهي لغة ازد لغة السراة، ومن جاورهم.

وقوله: " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال قتادة والسدي: قالت اليهود ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل، لانهم مشركون. و (الثاني) قال الحسن وابن جريج: لانهم تحولوا عن دينهم الذي عاملناهم عليه وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم. وقوله: (وهم يعلمون) معناه يعلمون هذا الكذب على الله تعالى، فيقدمون عليه، والحجة قائمة عليهم فيه. وقال قوم: قوله: " ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده

(٥٠٥)

إليك " يعني النصارى، لانهم لا يستحلون أموال من خالفهم، وعنى بقوله:

" ومنهم من إن تأمنه بدينار " اليهود لانهم يستحلون مال كل من خالفهم في حل السبت.

وعلى هذا يسقط سؤال من يقول أي فائدة في ذكر ذلك، لان من المعلوم في كل حال من كل أمة أن فيها من يؤدي الأمانة وفيها من لا يؤديها، فلا فائدة في ذلك؟

فان هذا ميز بين الفريقين. ومن قال بالاول يمكنه أن يقول فائدة الآية القطع على أن فيهم هؤلاء، وهؤلاء وسائر الناس يجوز أن لا يكون فيهم إلا أحد الفريقين، فلذلك فائدة بينة. ويمكن أيضاً أن تكون الفائدة أن هؤلاء لا يؤدون الأمانة لاستحلالهم ذلك بقوله: " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل " وسائر الفرق وإن كان منهم من لا يؤدي الأمانة، لانعلم أنه يستحلها وذلك فائدة.

قوله تعالى:

(بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين)

(٧٦) آية.

الهاء في قوله: "بعده" يحتمل أن تكون عائدة على اسم الله في قوله:
"ويقولون على الله الكذب" ويحتمل أن تكون عائدة على (من) في قوله:
"بلى من أوفى بعده" لان العهد يضاف إلى الفاعل، والمفعول. تقول هذا عهد فلان الذي
عهد إليه به، وهذا عهد فلان الذي عهده إلى غيره. ووفى وأوفى لغنان، فأهل الحجاز يقولون
أوفيت وأهل نجد يقولون وفيت. وقوله: "بلى" يحتمل معنيين:
أحدهما - الاضراب عن الاول على وجه الانكار للاول وعلى هذا الوجه "من أوفى بعده"
تكون مكتفية، نحو قولك: ما قدم فلان، فتقول بلى أي بلى قد قدم. وقال الزجاج: بلى ههنا
وقف تام لانهم لما قالوا "ليس علينا في الاميين سبيل" قيل "بلى" أي بلى عليهم سبيل.
والثاني - الاضراب عن الاول والاعتماد على البيان الثاني وعلى هذا الوجه

(٥٠٦)

لا تكون مكتفية، نحو ان تقول قد قدم زيد، حدسا لغوا من القول، بلى لو كان متيقنا لعمل على
قوله. فكذلك الآية تدل على ما تقدم على إدعائهم خلاف الصواب في التقوى فقول: "بلى"
للاضراب عن الاول، والاعتماد على البيان الثاني.
والفرق بين بلى ونعم أن بلى جواب النفي، نحو قوله: "أست بربكم قالوا بلى" (١) فأما أزيد
في الدار فجوابه، نعم، أو، لا. وإنما جاز إمالة بلى لمشابقتها الاسم من وجهين:
أحدهما - أنه يوقف عليها في الجواب، كما يوقف على الاسم نحو من رأيت من النساء، فيقول
الحبلى، وكذلك إذا قال أليس زيد في الدار قلت بلى. ولانها على ثلاثة أحرف وهي أصل العدة
التي يكون عليها الاسم ولذلك خالفت (لا) في الإمالة.
وإنما قال "فان الله يحب المتقين" ولم يقل فان الله يحبه فيرد العامل إلى اللفظ، لإبانة الصفة
التي تجب بها محبة الله وإن كان فيه معنى فان الله يحبهم.
قوله تعالى:

(إن الذين يشتركون بالله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله
ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم) (٧٧) آية واحدة.
النزول:

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد، وعامر الشعبي: إنها نزلت في رجل حلف
يمينا فاجرة في تنفيق سلعته. وقال ابن جريج: إنها نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له في
أرض قام ليحلف عند رسول الله، فنزلت الآية فنكل الأشعث، واعترف بالحق، ورد الأرض.
وقال عكرمة نزلت في جماعة من

(٥٠٧)

اليهود: حي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وأبي رافع، وكنانة بن أبي الحقيق. وقال الحسن كتبوا كتابا بأيديهم ثم حلفوا أنه من عند الله فيما ادعوا من أنه ليس علينا في الاميين سبيل المعنى:

وعهد الله هو ما يلزم الوفاء به. ويستحق بنقضه الوعيد. وهو ما أخذه على العبد وأوجبه عليه بما جعل في عقله من قبح تركه، وذلك في كل واجب عليه، فانه يلزم بنقضه الوعيد إلا أن يتوب أو يجتنب الكبيرة. والعهد: هو العقد الذي تقدم به إلى العبد بما يجده في عقله من الزجر عن خلاف الحق، والدعاء إلى التمسك به، والعمل عليه، وإنما وصف ما اشتروه من عرض الدنيا بأنه ثمن قليل مع ما قرن به الوعيد لامرين:

أحدهما - لانه قليل في جنب ما يؤدي إليه من العقاب والتنكيل. والثاني - هو أنه مع كونه قليلا، الاقدام فيه على اليمين مع نقض العهد عظيم. وقوله:

" أولئك لاخلق لهم " معناه لانصيب وافر لهم. وقيل في أصل الخلاف قولان:

أحدهما - الخلق: التقدير، فيوافق معناه، لان النصيب: الوافر من الخير بالتقدير لصاحبه يكون نصيبا له. والآخر - من الخلق، لانه نصيب مما يوجبه الخلق الكريم. وقوله: (ولا يكلمهم الله) قيل في معناه قولان:

أحدهما " لا يكلمهم " بما يسرهم بل بما يسوءهم وقت الحساب لهم، لان الغرض إنما هو الوعيد، فلذلك تبعه معنى لا يكلمهم بما يسر مع أن ظاهر قوله:

" ثم أن علينا حسابهم " (١) أنه يكلمهم بما يسوءهم في محاسبته لهم، هذا قول أبي علي.

الثاني - لا يكلمهم أصلا، وثبت المحاسبة بكلام الملائكة لهم (ع)

بأمر الله إياهم، فيكون على العادة في احتقار إنسان على أن يكلمه الملك لنقصان المنزلة. وقوله:

(٥٠٨)

(ولا ينظر إليهم) أي لا يرحمهم، كما يقول القائل لغيره: انظر إلي يريد ارحمني وفي ذلك دلالة على أن النظر مع تعديته بحرف (إلى) لا يفيد الرؤية، لانه لا يجوز حملها في الآية على أنه

لايراهم بلا خلاف. وقوله: (ولايزكيهم) معناه لا يحكم بزكاتهم دون أن يكون معناه لا يفعل الايمان الذي هو الزكاء لهم، لانهم في ذلك، والمؤمنين سواء، فلو أوجب ما زعمت المجبرة، لكان لايزكيهم، ولا يزكي المؤمنين أيضا في الآخرة وذلك باطل. قوله تعالى:

" وإن منهم لفریقا یلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ویقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ویقولون على الله الكذب وهم یعلمون " (٧٨) آية. اللغة، والمعنى، والاعراب:

" وان منهم " الكناية بالهاء والميم راجعة على أهل الكتاب في قوله: " من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار " في قول جميع المفسرين: الحسن وغيره.

وقوله: " يلوون ألسنتهم " قال مجاهد، وقتادة، وابن جريج، والربيع: معناه يحرفونه بالتغيير والتبديل. وأصل اللي: الفتل من قولك لویت يده إذا فتلتها قال الشاعر:
لوی يده الله الذي هو غالبه (١)
ومنه لویت العمود إذا تثبته وقال الآخر:

" ١ " قائله فرعان بن الاعرف السعدى التميمي، في ولده منازل يدعوا عليه. لان منازل ضرب والده عندما تزوج على امه. وصدرة:

نحنون مالي ظالما ولوى يدي !
وهو من أبيات يقولها في ابنه منازل لان منازل عق اباه وهو فرعان وضربه لانه تزوج على امه امرأة شابة،؟ لامه ثم استاق مال أبيه واعتزل مع أمه فقال فيه الابيات.

(٥٠٩)

فلو كان في ليلي سدى من خصومة * للويت أعناق الخصوم الملاويا (١)
ومنه لویت الغريم ليا وليانا إذا مطلته حقه قال الشاعر:
تطيلين لياني وأنت ملية * واحسن ياذات الوشاح التقاضيا
فقل لتعريف الكلام بقبله عن وجهه: لي اللسان به، لانه فتله عن جهته. وقوله: (لفریقا)
نصب بأنه اسم (ان) واللام لام التأكيد ويجوز دخولها على اسم (ان) إذا كان مؤخرا، فان قدم لم يجز دخولها عليه، لاتقول:

ان لزيديا في الدار. وإنما امتنع ذلك لئلا يجتمع حرفا التأكيد، لان (ان) للتأكيد واللام للتأكيد أيضا فلم يجز الجمع بينهما لئلا يتوهم اختلاف المعنى، كما لم يجز دخول التعريف على التعريف، والتأنيث على التأنيث، فأما قولهم: جاءني القوم كلهم أجمعون، فكل تأكيد للقوم

وأجمعون تأكيد لكل. وقوله: (لتسحيوه من الكتاب) معناه لتظنوه. والفرق بين حسبت وزعمت: أن زعمت يحتمل أن يكون يقينا أو ظنا، وحسبت لا يحتمل اليقين أصلا. وقوله: (ألسنتهم) جمع لسان على التذكير كحمار وأحمره. ويقال ألسن على التانيث كعناق وأعناق. المعنى:

وقوله: " وما هو من عند الله " دلالة على أن المعاصي ليست من عند الله بخلاف ما تقوله المجبرة. ولا من فعله، لأنها لو كانت من فعله، لكانت من عنده، وليس لهم أن يقولوا إنها من عنده خلقا وفعلا، وليست من عنده انزالا ولا أمرا، وذلك أنها لو كانت من عنده فعلا أو خلقا، لكانت من عنده على أكد الوجوه فلم يجز إطلاق النفي بأنها ليست من عند الله. وكما لا يجوز أن تكون من عند الله من وجه من الوجوه، لإطلاق النفي بأنه ليس من عند الله، فوجب العموم فيها باطلاق النفي.

" ١ " قائله مجنون بني عامر، ولم نجده في ديوانه، وهو في اللسان (شدا)، (شذا)، (لوى) والاعاني ٢ . ٢٣ . وغيرها.

(٥١٠)

فان قيل: أليس الايمان عندكم من عنده، ومع ذلك ليس من عنده من كل الوجوه، فهلا جاز مثل ذلك في تأويل الاية؟ قيل: لايجوز ذلك، لان اطلاق النفي يوجب العموم، وليس كذلك اطلاق الاثبات ألا ترى أنك تقول: ما عندي طعام، فانما تنفي القليل، والكثير، وليس كذلك إذا قلت عندي طعام، لانه لايجب أن يكون عندك جميع الطعام فبان الفرق بين النفي والاثبات. قوله تعالى:

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) (٧٩) آية واحدة.

القراءة والنزول:

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو " تعلمون " مخففا الباقون بالتشديد.

روي عن ابن عباس أنه قال: سبب نزول هذه الاية أن قوما من اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله) أئدعوننا إلى عبادتك كما دعا المسيح النصارى فنزلت الاية. اللغة، والمعنى:

وقوله: (لبشر) فانه يقع على القليل والكثير وهو بمنزلة المصدر مثل الخلق وغيره، تقول: هذا بشر وهؤلاء بشر كما تقول: هذا خلق وهؤلاء خلق. وإنما وقع المصدر على القليل، والكثير،

لأنه جنس الفعل كما وجب في أسماء الاجناس كالماء والتراب ونحوه وقوله: " أن يؤتيه الله الكتاب " معناه أعطاه " الكتاب، والحكم والنبوة "، أن " يقول للناس: كونوا عبادا لي من دون الله ولكن " يقول لهم:

(٥١١)

" كونوا ربانيين ". وحذف يقول لدلالة الكلام عليه. ومعناه في قول الحسن:
علماء فقهاء. وقالو سعيد بن جبير: حكماء أنقياء. وقال ابن أبي رزين: حكماء علماء. وقال
الزجاج: معناه معلمي الناس. وقال غيره: مدبري أمر الناس في الولاية بالاصلاح.
اللغة:

وفي أصل رباني قولان:

أحدهما - الربان وهو الذي يرب أمر الناس بتدبيره له وإصلاحه إياه، يقال رب أمره يربه
ربابة، وهو ربان: إذا دبره، وأصلحه، ونظيره نعس ينعس، فهو نعسان. وأكثر ما يجئ فعلان
من فعل يفعل، نحو عطش يعطش، فهو عطشان فيكون العالم ربانيا، لأنه بالعلم يدبر الامر
ويصلحه الثاني - إنه مضاف إلى علم الرب تعالى، وهو على الدين الذي أمر به إلا أنه غير
في الاضافة، ليدل على هذا المعنى، كما قيل: بحراني، وكما قيل للعظيم الرقبة: رقباني،
وللعظيم اللحية: لحياني.

وكما قيل لصاحب القصب: قصباني، فكذاك صاحب علم الدين الذي أمر به الرب رباني.

الحجة، والمعنى:

ومن قرأ بالتخفيف أراد بما كنتم تعلمونه أنتم. ومن قرأ بالتشديد أراد تعلمونه، لسواكم. وقوله:
" وبما كنتم تدرسون " يقوي قراءة من قرأ بالتخفيف.

والتشديد أكثر فائدة، لأنه يفيد أنهم علماء، وأنهم يعلمون غيرهم. والتخفيف لا يفيد أكثر من
كونهم عالمين. وإنما دخلت الباء في قوله: " بما كنتم تعلمون " لاحد ثلاثة أشياء:

أحدها - كونوا معلمي الناس بعلمكم، كما تقول: انفعوهم بما لكم.

الثاني - كونوا ممن يستحق أن يطلق عليه صفة عالم بعلمه على جهة المدح له

(٥١٢)

باخلاصه مما يحبطه.

الثالث - كونوا ربانيين في علمكم ودراستكم ووقعت الباء في موضع في.

قوله تعالى:

(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) (٨٠) آية.

القراءة، والحجة:

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر " ولا يأمركم " بنصب الراء. الباقيون برفعها فمن نصب عطف على ما عملت فيه (أن) على تقدير " ما كان لبشر أن يؤتيه الله " كذا " ولا يأمركم " بكذا ومن رفع استأنف الكلام، لانه بعد انقضاء الآية، وتامها.
المعنى:

وفي الآية دلالة على أن الانبياء لايجوز أن يقع منهم ما ذكره دون أن يكون ذلك اخبارا عن أنه لايقع منهم، لانها خرجت مخرج التنزيه للنبي عن ذلك كما قال: " ما كان لله أن يتخذ من ولد " (١) ومعناه لايجوز ذلك عليه، وكذلك قوله: " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله " (٢) يدل على أن ذلك غير جائز عليه، ولو جاز أن يحمل على نفي الوقوع دون الامتناع، لجاز أن يحمل على التحريم دون الانتفاء، لان اللفظ يصلح له، لولا ما قارنه من ظاهر التعظيم للانبياء، والتنزيه لهم عن الدعاء إلى الفساد أو اعتقاد الضلال، ويجب حمل الكلام على ظاهر الحال إلا أن يكون هناك ما يقتضي صرفه عن ظاهره، على أنه لو حمل على النفي لما كان فيه تكذيب للمخالف. والاية خرجت مخرج التكذيب لهم في

" ١ " سورة مريم آية: ٣٥. " ٢ " سورة المؤمنون آية: ٩٢.

(٥١٣)

دعواهم أن المسيح أمرهم بعبادته.

والالف في قوله: " يأمركم " ألف انكار وأصلها الاستفهام. وإنما استعملت في الانكار، لانه مما لو أقر به المخاطب به، لظهرت صحته وبان سقوطه، فلذلك جاء الكلام على السؤال، وإن لم يكن الغرض تعرف الجواب.

وإنما لم تجز العبادة إلا لله تعالى، لانها تستحق باصول النعم من خلق القدرة، والحياة، والعقل، والشهوة، غير ذلك مما لايقدر عليه سواه. وليس في الآية ما يدل على أن في أفعال الجوارح كفرا، لان قوله: " يأمركم بالكفر " معناه الامر باعتقاد أن الملائكة والنبیین أرباب، وذلك كفر لامحالة. ولم يجر في الآية، لتوجيه العبادة إليهم ذكر، فأما من عند غير الله فانا نقطع على أن فيه كفرا هو الجحد بالقلب، لان نفس هذا الفعل كفر، فسقطت شبهة المخالف.
قوله تعالى:

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) (٨١).

القراءة، والمعنى:

قرأ نافع " لما آتيناكم " على الجمع. الباقون على التوحيد بالتاء. وقرأ حمزة " لما " بكسر اللام. الباقون بفتحها. التقدير اذكروا " إذ أخذ الله ميثاق النبيين " لان (إذ) لما مضى ومعنى أخذ الميثاق من النبيين بنصرة من لم يلقوه ولم يدركوا زمانه هو أنهم ينصرونه بتصديقه عند قومهم، ويأمرونهم بالاقرار به، كما قيل: إنما أخذ الله ميثاق النبيين الماضين بتصديق محمد (صلى الله عليه وآله)، هذا قول علي (ع)

(٥١٤)

وعبدالله بن عباس (ره)، وقتادة والسدي، وقال طابوس: أخذ الميثاق الاول من الانبياء لتؤمنن بالآخر. وروي عن أبي عبدالله (ع) أنه قال تقديره: وإذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين بتصديق كل أمة نبيها، والعمل بما جاءهم به، وإنهم خالفوهم فيما بعد، وما و؟ به وتركوا كثيرا من شريعته، وحرفوا كثيرا منه.

الاعراب، والحجة، والمعنى:

وقوله: (لما آتيتكم من كتاب) قيل في معنى (ما) في لما وجهان:

أحدهما - أنها بمعنى الذي وتقديره الذي آتيتكموه من كتاب، لتفعلن لاجله كذا. الثاني - أنها بمعنى الجزاء، وتقديره، لان آتيتكم شيئا " من كتاب، وحكمة ثم جاءكم رسول "، " لتؤمنن به "، لاجله. وتقديره أي شئ آتيتكم. ومهما آتيتكم. ويكفي جواب القسم من جواب الجزاء، كقوله: " لئن أشركت ليحبطن عملك " (١) وفي معنى (من) قولان:

أحدهما - أنها لتبيين ل (ما) كقولك ما عندك من ورق وعين.

الثاني - أن تكون زائدة، وتقديره الذي آتيتكم: كتاب وحكمة، فيكون في موضع خبر (ما)، وأنكر هذا القول أكثر النحويين، لان (من) لاتزاد إلا في غير الواجب من نحو النفي والاستفهام، والجزاء. والاول أصح، لانه لايجوز أن يحكم بزيادة حرف أو لفظ مع إمكان حمله على فائدة. واللام في قوله:

" لما " لام الابتداء. واللام في قوله: " لتؤمنن به " لام القسم، كما تقول لعبد الله: والله لتأتينيه. وقال قوم: اللام الاول خلف من القسم يجاب بجوابه، نحو لمن قدم ما أحسن، ولمن أتاك لاتيته، وأنكر هذا القائل أن تكون الثانية تأكيدا للاولى، لوقوع (ما) و (لا) في جوابها، كما تقع في جواب القسم.

والقول الاول أصح، لان فيه افصاحا بالقسم، نحو لزيد والله ما ضربته والقول

(٥١٥)

الثاني - صواب على تقدير آخر، وان يكون اللام خلفا من القسم، كافيا منه، فلا يحتاج إلى ذكره معه ومن ذكره معه لم يجعله خلفا منه، لانه أضعف منه، والخلف أقوى من الدال الذي ليس بخلف، لانه بمنزلة الاصل الموضوع للمعنى يفهم به من غير واسطة. ومن كسر اللام في قوله: " لما " يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون على التقديم والتأخير. والثاني - بمعنى أخذ الله ميثاقهم لذلك. وقال بعضهم: القراءة بالكسر لاتجوز، لانه ليس كل شئ أوتي الكتاب. وهذا غلط من وجهين:

أحدهما - أنه أوتي الكتاب لعلمه به مهتديا بما فيه. وان لم ينزل عليه. والآخر - أنه يجوز ذلك على التغليب بالذكر في الجملة، لانه بمنزلة من أوتي الكتاب بما أوتي من الحكم والنبوة. فان قيل لم لايجوز أن يكون (لما) آتيتكم من كتاب وحكمة، بمعنى لتبلغن ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم يحذف؟ قيل لانه لايجوز الحذف في الكلام من غير دليل ينبئ عن المراد. ومن زعم أن الدليل على حذف الفعل لام القسم، فقد غلط، لانه لام الابتداء التي تدخل على الاسماء، نحو " لمن تبعك منهم لاملان جهنم منكم أجمعين " (١). المعنى واللغة:

وقيل في معنى قوله: " وأخذتم على ذلكم اصري " قولان: أحدهما - وقبلتم على ذلكم عهدي. والثاني - " وأخذتم على ذلكم اصري " من المتبعين لكم كما يقال: أخذت بيعتي أي قبلتها، وأخذتها على غيرك بمعنى عقدتها على غيرك. والاصر العقد، وجمعه اصار وأصله العقد ومنه المأصر، لانه عقد يحبس به عن النفوذ إلا باذن. ومنه الاصر النقل، لانه عقد يثقل القيام به. ومنه قولهم مالك اصرة تأصرني عليك أي عاطفة تعطفني عليك من عقد جوار

" ١ " سورة الاعراف آية: ١٧.

(٥١٦)

أو نحوه. وقوله: (فاشهدوا) معناه فاشهدوا على أممكم بذلك " وأنا معكم من الشاهدين " عليكم، وعليهم روي ذلك عن علي بن أبي طالب (عليه السلام). قوله تعالى:

(فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون) (٨٢) آية.

المعنى:

التولي عن الايمان بالنبي (صلى الله عليه وآله) كفر - بلا خلاف - وإنما قال " فأولئك هم الفاسقون " ولم يقل الكافرون، لان تقدير الكلام فأولئك هم الفاسقون في كفرهم أي المتمردون فيه بخروجهم إلى الافحش منه، وذلك أن أصل الفسق الخروج عن أمر الله إلى حال توبقه، فلذلك قيل للخارج عن أمر الله إلى أفحش منازل الكفر، فاسق.

الاعراب:

وموضع (هم) من الاعراب يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون رفعا بأنه مبتدأ ثان والفاسقون خبره. والجملة خبر أولئك. والآخر - أنه لاموضع له، لانه فصل جاء ليؤذن أن الخبر معرفة أو ما قارب المعرفة ويسمي الكوفيون ذلك عمادا. وقوله: (فمن تولى) وإن كان شرطا وجزاء في المستقبل فان الماضي يدخل فيه من وجهين:

أحدهما - ان يكون تقديره فمن يصح أنه تولى، كما قال: " إن كان قميصه قد من قبل فصدقت " (١) أي إن يصح أن " قميصه قد من قبل فصدقت " والآخر مساواة الماضي للمستقبل، فيدخل في دلالاته. وإنما جاز جواب الجزاء بالفاء ولم يجز ب (ثم)، لان الثاني يجب بوجوب الاول بلا فصل، فلذلك جاء

" ١ " سورة يوسف آية: ٢٦

(٥١٧)

بالفاء دون (ثم)، لانهما للتراخي بين الشئيين، وذلك نحو قولك إن تأتني، فلك درهم، فوجوب الدرهم بالاتيان عقبيه بلا فصل. وإنما جاز وقوع الماضي موقع المستقبل في الجزاء ولم يجز في قام زيدا غدا، لان حرف الجزاء، لما كان يعمل في الفعل قوي على نقله من الماضي إلى المستقبل، وليس كذلك (غد) وما أشبهه مما يدل على الاستقبال، لانه نظير الفعل في الدلالة من غير عمل يوجب القوة، فلذلك جرى على المناقضة.

قوله تعالى:

(أفغير دين الله تبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون)
(٨٣). آية.

القراءة، والحجة، والاعراب:

قرأ أهل البصرة، وحفص يبعون بالياء. الباقرن بالتاء. وقرأ يعقوب وحفص وإليه يرجعون بالياء. وكسر يعقوب الجيم، وفتح الياء. فمن قرأ بالياء أراد الاخبار عن اليهود وغيرهم من

المشركين والتاء لجميع المكلفين. ومن قرأ بالتاء فيهما، فعلى الخطاب، فيهما. قوله: " أفغير دين الله " عطف جملة على جملة مثلها لو قيل أو غير دين الله يبغون إلا أن الفاء رتبته. كأنه قيل أبعد تلك الآيات غير دين الله تبغون أي تطلبون.
المعنى:

وقوله: (وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها) قيل في معناه ستة أقوال:
أولها - قال ابن عباس: أسلم من في السماوات والأرض بالحالة الناطقة عنه الدالة عليه عند أخذ الميثاق عليهم.

(٥١٨)

الثاني - قول أبي العالية، ومجاهد: ان معناه " أسلم " أي بالاقرار بالعبودية وإن كان فيهم من أشرك في العبادة، كقوله: " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " (١) وقوله: " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله " (٢)
ومعناه ما ركب الله في عقول الخلائق من الدعاء إلى الاقرار بالربوبية ليتنبهوا على ما فيه من الدلالة.

الثاني - قال الحسن: " وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها " قال: أكره أقوام على الاسلام وجاء أقوام طائعين.

الرابع - قال قتادة: أسلم المؤمن طوعا، والكافر كرها عند موته، كما قال:
" فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا " (٣) واختاره البلخي. ومعناه التخويف لهم من التأخر عما هذه سبيله.

الخامس - قال عامر، والشعبي والزجاج، والجبائي أن معناه: استسلم بالانقياد والذلة، كما قال تعالى: " قالت الاعراب أمانا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا " (٤) أي استسلمنا، ومعناه الاحتجاج به.

وسادسها - قال الفراء والازهري إنما قال " طوعا وكرها " لان فيهم من أسلم ابتداء رغبة في الاسلام، وفيهم من أسلم بعد أن قوتل وحورب، فسمي ذلك كرها مجازا وإن كان الاسلام وقع عنده طوعا.

وقوله: " طوعا وكرها " نصب على أنه مصدر، وقع موقع الحال، وتقديره طائعا أو كارها، كما تقول أتاني ركضا أي راكضا، ولا يجوز أن تقول أتاني كلاما أي متكلما، لان الكلام ليس بضرب من الاتيان والركض ضرب منه.

قوله: " إليه ترجعون " معنا تردون إليه للجزاء فإياكم ومخالفة الاسلام فيجازيكم بالعقاب. قال الله تعالى: " ومن يتبع غير الاسلام ديننا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " (٥).

-
- " ١ " سورة الزخرف آية: ٨٧. " ٢ " سورة لقمان آية: ٢٥.
" ٣ " سورة المؤمن آية: ٨٥. " ٤ " سورة الحجرات آية: ١٤.
" ٥ " سورة آل عمران آية: ٨٥.

(٥١٩)

النزول:

وروي عن أبي عبدالله (ع) أنها نزلت في الحارث بن سويد بن الصامت. وكان ارتد بعد قتله المحذر بن ديار البلوي غدرا في الاسلام، وهرب وحديثه مشروح ثم ندم، فكاتب قومه سلوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) هل لي توبة، فنزلت الايات إلى قوله: " إلا الذين تابوا "، فرجع فأسلم.

قوله تعالى:

(قل آمننا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (٨٤) آية.
المعنى:

قيل في تأويل هذه الآية قولان:

أحدهما - أن معناها الإنكار على الكفار ما ذهبوا إليه من الايمان ببعض النبيين دون بعض، فأمر الله تعالى النبي (صلى الله عليه وآله)، والمؤمنين أن يقولوا: إنا نؤمن بجميع النبيين، ولا نفرق بين أحد منهم. الثاني - أن معناها موافقة ما تقدم الوعد به من إيمان النبي الامي بجميع من تقدم من النبيين على التفصيل. وقال له في أول الآية (قل) خطابا للنبي (صلى الله عليه وآله) فجرى الكلام على التوحيد، وما بعده على الجمع.

وقيل في ذلك قولان:

أحدهما أن المتكلم قد يخبر عن نفسه بلفظ الجمع للتفخيم كما قال تعالى: " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم " (١). والثاني - أنه أراد دخول الامة في الخطاب الاول، والامر بالاقرار. ويجوز أن يقال: في الواحد

" ١ " سورة الاعراف آية: ١٠.

(٥٢٠)

المتكلم، فعلنا ولا يجوز للواحد المخاطب فعلتم. والفرق بينهما: أن الكلام بالجملة الواحدة يصح بجماعة مخاطبين، ولا يصح الكلام بالجملة الواحدة بجماعة متكلمين.

فلذلك جاز في فعلنا في الواحد للتفخيم، لأنه لا يصح أن يكون خطابا للجماعة فلم يصرف عنهم. بغير قرينة لما يدخله من الالباس في مفهوم العبارة. وقوله:

" وما أنزل علينا " في الاخبار عن المسلمين إنما جاز ذلك، وإن كان قد أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله)، لان التقدير أنزل علينا على لسان نبينا كما تقول: أمرنا به ونهينا عنه - على لسان نبينا -، ومثل ذلك ما قاله في سورة البقرة من قوله: " قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا " (١) وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون ذلك إلا إخبارا عن النبي (صلى الله عليه وآله) الذي أنزل عليه، وهذا غلط، لان الآية الاخرى تشهد بخلافه. فان قيل: ما معنى قوله: " ونحن له مسلمون " بعد الاقرار بالايمان على التفصيل؟

قيل: معناه ونحن له مستسلمون بالطاعة في جميع ما أمر به، ودعا إليه. ولان أهل الملل المخالفة، تعترف بصفة مؤمن، وينتفي من صفة مسلم. قوله تعالى:

" ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " (٨٥) آية واحدة. اللغة، والنزول، والمعنى:

الابتغاء: الطلب تقول: بغى فلان كذا أي طلبه، ومنه بغى فلان على فلان: إذا طلب الاستعلاء عليه ظلماً ومنه البغي: الفاجرة، لطلبها الزنى. ومنه ينبغي كذا، لانه حقيق بالطلب. والاسلام: هو الاستسلام لامر الله بطاعته فيما دعا إليه، فكل ذلك اسلام، وان اختلفت فيه الشرائع، وتفرقت المذاهب، لان مبتغيه ديناً ناجح، ومبتغي غيره ديناً هالك. والايمان، والاسلام واحد.

" ١ " سورة البقرة آية: ١٣٦.

(٥٢١)

لان " من يبتغي غير الاسلام ديناً " فهو مبطل، كما أن من يبتغي غير الايمان ديناً، فهو مبطل، وذلك كمن يبتغي غير عبادة الاله ديناً، فهو كافر، ومن يبتغ غير عبادة الخالق ديناً، فهو كافر. والاله هو الخالق.

وقال عكرمة: إن قوماً من اليهود قالوا: نحن المسلمون، فأنزل الله تعالى " والله على الناس حج البيت " (١) فأمرهم بالخروج إلى الحج الذي هو من فرض الاسلام، فقعدوا عنه وبنوا انسلاخهم من الاسلام، لمخالفتهم له فأنزل الله تعالى " ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " قالخسران ذهاب رأس المال. ويقال: خسر نفسه أي أهلك

نفسه. وقيل خسر عمله أي أبطل عمله بأن أوقعه على وجه يقبح لا يستحق عليه الثواب. وكل واحد منهما خسر لذهاب رأس المال.
قوله تعالى:

(كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين (٨٦) آية.
النزول:

قال الحسن: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون بالنبى (صلى الله عليه وآله) قبل مبعثه بما يجدونه في كتبهم من صفاته ودلائله، فلما بعثه الله جحدوا ذلك، وانكروه.. وقال مجاهد، والسدي: نزلت في رجل من الانصار يقال له الحارث بن سويد ارتد عن الاسلام، ثم تاب، وحسن إسلامه فقبل الله إسلامه بقوله: " إلا الذين تابوا " فيما بعد تمام الآية. وكذلك رويناه عن أبي عبدالله (ع) وقيل نزلت في قوم أرادوا من النبي (صلى الله عليه وآله) أن يحكم لهم بالاسلام،

" ١ " سورة آل عمران آية: ٩٧.

(٥٢٢)

وفي قلوبهم الكفر، فاطلعه الله على أسرارهم وما في ضمائرهم.
اللغة، والمعنى:

وقوله " كيف " أصلها للاستفهام، والمراد بها هنا إنكار أن تقع هذه الهداية من الله تعالى. وإنما دخل (كيف) معنى الانكار مع أن أصلها الاستفهام، لان المسؤل يسأل عن أغراض مختلفة، فقد يسأل للتعجيز عن إقامة البرهان، وقد يسأل للتوبيخ مما يظهر من معنى الجواب في السؤال، وقد يسأل لما يظهر فيه من الانكار، فالأصل فيه الاستفهام، لكن من شأن العالم إذا أورد مثل هذا أن يصرف إلى غير الاستعلام إلا أنه يراد من المسؤل طلب الجواب، فان قيل كيف خص هؤلاء المذكورون بمجيب البينات مع أنها قد جاءت كل مكلف للإيمان قيل عنه جوابان:

أحدهما - لان البينات التي جاءتهم هي ما في كتبهم من البشارة بالنبى (صلى الله عليه وآله).

الثاني - للتباعد من حال الهداية والتفحيش لتجويزها في هذه الفرقة. وقوله:

" والله لا يهدي القوم الظالمين " فالهداية هنا تحتل ثلاثة أشياء.

أولها سلوك طريق أهل الحق المهتدين بهم في المدح لهم والثناء عليهم.

الثاني - في اللفظ الذي يصلح به من حسنت نيته. وكان الحق معتمده، وهو أن يحكم لهم بالهداية.

الثالث - في ايجاب الجواب الذي يستحقه من خلصت طاعته، ولم يحبطهما بسوء عمله. فان قيل كيف أطلق قوله: " والله لا يهدي القوم الظالمين " مع قوله " فأما ثمود فهديناهم " قلنا: لانه لا يستحق اطلاق الصفة بالهداية إلا على جهة المدحة كقوله أولئك الذين هدى الله. فأما بالتقييد، فيجوز لكل مدلول إلى طريق الحق اليقين.

وليس في الآية ما يدل على صحة الاحباط، للايمان ولا إحباط المستحق عليه من الثواب، لانه لم يجر لذلك ذكر. وقوله: (كفروا بعد ايمانهم) يعني بعد

(٥٢٣)

إظهارهم الايمان وشهادتهم أن الرسول حق، وإن كانوا في باطنهم منافقين. وليس فيها أنهم كانوا في باطنهم مؤمنين مستحقين للثواب، فزال ذلك بالكفر فلا متعلق بذلك في صحة الاحباط.

قوله تعالى:

(أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) (٨٧) آية.

أن قيل: إذا كان لعن الملائكة والناس أجمعين تابعا للعن الله، فهلا اقتصر عليه في الذكر؟ قيل الوجه في ذلك ان لا يوهم أن لعنهم لايجوز إلا الله عزوجل كما لايجوز أن يعاقبهم إلا الله أو من يأمرهم بذلك. وليس في قوله: " والناس أجمعين " دلالة على أنه يجوز للكافر أن يلعن نفسه، لان لعنه لنفسه دعاء عليها بالابعاد من رحمة الله. وذلك يوجب رغبته فيما دعا به، ولايجوز لاحد أن يرغب في أن يعاقبه الله، لان ذلك ينافي الزجر به والتحذير منه. وأما رغبة المؤمن في أن يعاقب الله الكافر فجازز حسن، لانه لاينافي زجره بل هو أبلغ في زجره، فان قيل: لم قال: " والناس أجمعين " ومن وافق الكافر في مذهبه لايرى امه؟

قيل عن ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها - إن له أن يلعنه، وإنما لايفعله لجهله بأنه يستحق اللعن. ويصح منه معرفة الله، ومعرفة استحقاق اللعن لكل كافر، فحينئذ يعلم أن له أن يلعنه وإنما لايصح أن يلعن الكافر مع اعتقاده أنه لايستحق اللعن، لانه لو صح ذلك لادى إلى أن يصح أن يلعن نفسه لمشاركته له فيما استحق به اللعن. وقد بينا فساده.

والثاني - أن ذلك في الآخرة، لان بعضهم يلعن بعضا. وقد استقرت عليهم لعنة الجميع، وإن كانت على التفريق.

والثالث - أن يحمل لفظ الناس على الخصوص، فيحمل على ثلاثة فصاعدا،

(٥٢٤)

فلذلك قال: " أجمعين " وكان يجوز أن يرفع " والملائكة والناس أجمعين " لان الاول تقديره عليهم أن يلعنهم الله، فيحمل الثاني على معنى الاول، كما قال الشاعر:
هل أنت باعث دينار لحاجتنا * أو عبد رب أخاعون بن مخراق (١)
والاتباع أجود ليكون الكلام على نسق واحد، وإنما ذكر وعيد الكفار ههنا مع كونه مذكورا في مواضع كثيرة في القرآن، للتأكيد وتغليظا في الزجر لانه لما جرى ذكر الكافر عقب ذلك بلعنه، ووعيده، كما إذا جرى ذكر المؤمن عقب ذلك بالرحمة ليكون أرغب له في فعل الطاعة والتمسك بالايمان.
قوله تعالى:

(خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون)

(١٨٨) آية.

اللغة:

الخلود في اللغة هو طول المكث، ولذلك يقال خلد في السجن وخذ الكتاب في الديوان. وقيل للاثافي: خوالد ما دامت في موضعها، فاذا زالت لاتسمى خوالد. والفرق بين الخلود والدوام: أن الخلود يقتضي (في) كقولك خلد في الحبس ولا يقتضي ذلك الدوام، ولذلك جاز وصفه تعالى بالدوام دون الخلود.

إلا أن خلود الكفار المراد به التأبيد بلا خلاف بين الامة.

المعنى:

وقوله: " فيها " الهاء راجعة إلى اللعنة. ومعنى خلودهم فيها استحقاقهم لها دائما مع ما توجبه من أليم العقاب، فأما من ليس كافر من فساق أهل الصلاة

" ١ " مر تخريجه في ١: ٢٠٧.

(٥٢٥)

فلا يتوجه إليه الوعيد بالخلود، لانه لا يستحق إلا عقابا منقطعا به مع ثبوت استحقاقه للثواب الدائم، لانه لو كان كذلك لادى إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم، والعقاب الدائم لشخص واحد. والاجماع بخلافه. والاحباط - عندنا - باطل، فلا يمكن أن يقال يحبط أحدهما الآخر، وإنما حسن العقاب الدائم على المعاصي المنقطعة، كما حسن الثواب الدائم على الطاعة المنقطعة، فلا يجوز أن يستحق الدوام على الاصغر، ولا يستحق على الاكثر، فلما كانت نعم

الله تعالى أعظم النعم كانت معاصيه أعظم المعاصي، وكانت طاعته أصغر منها. وأيضاً، فإنه يحسن الذم للدائم على المعاصي المنقطعة فالعقاب يجري مجراه:
اللغة:

وقوله: (لا يخفف عنهم العذاب) فالتخفيف هو تغيير الشيء عن حال الصعوبة إلى السهولة، وهو تسهيل لما فيه كلفة ومشقة وأصله من خفة الجسم ضد ثقله. ومنه تخفيف المحنة معناه تسهيلها. وقوله: (ولا هم ينظرون) معناه لا يمهلون وإنما نفى إنظارهم للانابة لما علم من حالهم أنهم لا ينيبون كما قال: " ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه " (١) على أن التبقيّة ليست واجبة. وإن علم أن لو بقاه لتاب وأناب عند أكثر المتكلمين. ومن قال: يجب تبقيته متى علم أنه لو بقاه لآمن، فجوابه هو الأول. وقيل في الفرق بين الانظار والامهال أن الانظار تأخير العبد لينظر في أمره. والامهال تأخيره لتسهيل ما يتكلفه من عمله.
قوله تعالى:

(إلا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فإن الله غفور رحيم) (٨٩) آية.

" ١ " سورة الانعام آية: ٢٨.

(٥٢٦)

المعنى: إن قيل إذا كانت التوبة من الذنب لا تصلح إلا بعد فعله، فلم قال: " من بعد ذلك "؟
قيل فائدته أنه يفيد معنى تابوا منه، لان توبتهم من غيره لا تنفع في التخلص منه، كما لا تنفع
التوبة من الكبير في التخلص من الصغير، فأما من قال:

إن التوبة من معصية لاتصح مع الإقامة على معصية أخرى، فانه يقول ذلك على وجه
التأكيد، فان قيل: إذا كانت التوبة وحدها تسقط العقاب وتحصل الثواب فلم شرط معها
الاصلاح؟ قيل الوجه في ذلك إزالة الابهام لئلا يعتقد، أنه إذا حصل الايمان، والتوبة من الكفر
لايضر معه شئ من أفعال القبائح، كقوله: " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير
ممنون " (١) فذكر مع الايمان عمل الصالحات، لازالة الابهام بأن من كان مؤمنا في الحكم،
لم يضره مع ذلك ما عمله من المعاصي. وقبول التوبة واجب، لانها طاعة واستحقاق الثواب
بها ثابت عقلا، فأما سقوط العقاب عندها، فانما هو تفضل من الله، ولولا أن السمع ورد بذلك
والإ، فلا دلالة في العقل على ذلك. وقوله: " فان الله غفور رحيم " دخلت؟

لشبهه بالجزاء، إذا كان الكلام قد تضمن معنى إن تابوا " فان الله غفور رحيم " أي يغفر لهم
وليست في موضع خبر الذين، لان الذين في موضع نصب بالاستثناء من الجملة الاولى التي
هي قوله: " أولئك عليهم لعنة الله... " الآية، وذكر المغفرة في الآية دليل على أن اسقاط
العقاب بالتوبة تفضل، لانه لو كان واجبا لما استحق بذلك الاثم بأنه غفور، لانه لا يقال
هو غفور إلا فيما له المؤاخذه، فأما ما لايجوز المؤاخذه به فلا يجوز تعليقه بالمغفرة.
قوله تعالى:

(إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل)

" ١ " سورة حم السجدة آية: ٨.

(٥٢٧)

توبتهم وأولئك هم الضالون) (٩٠) آية بلا خلاف.

المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس هي فرقة ارتدت ثم عزمت على إظهار التوبة على جهة التورية،
فاطلع الله نبيه على ذلك بانزال هذه الآية. وقال أبو العالية لم تقبل توبتهم من ذنوب أصابوها
مع الإقامة على كفرهم. وقال قتادة: هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعبسى " ثم ازدادوا كفرا
" بمحمد (صلى الله عليه وآله) " فلن تقبل توبتهم " عند حضور موتهم. وقال الحسن: هم اليهود

والنصارى كفروا بالنبى (صلى الله عليه وآله) " فلن تقبل توبتهم " التي كانت في حال إيمانهم، فان قيل: لم لم تقبل التوبة من هذه الفرقة؟ قيل: لأنها كفرت بعد إيمانهم ثم ازدادت كفرا إلى انقضاء أجلها، فحصلت على ضلالتها، فلم تقبل منها التوبة الأولى في حال كفرها بعد إيمانها، ولا التوبة الثانية في حال إيجابها. وقيل: إنما لم تقبل توبتهم، لأنهم لم يكونوا فيها مخلصين بدلالة قوله: " وأولئك هم الضالون ". وقال الطبري: إنه لا يجوز تأويل من قال لن تقبل توبتهم عند حضور موتهم. قال: لأنه لاخلاف بين الأمة أن الكافر إذا أسلم قبل موته بطرفة عين في أن حكمه حكم المسلمين في وجوب الصلاة عليه وموارثته و؟ في مقام المسلمين وأجراء جميع أحكام الإسلام عليه، ولو كان إسلامه غير صحيح، لما جاز ذلك. وهذا الذي قاله ليس بصحيح، لأنه لا يمتنع أن نتعبد بأجراء أحكام الإسلام عليه وإن كان إسلامه على وجه من الاجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب عليه، كما أننا تعبدنا بأجراء أحكام الإسلام على المنافقين وإن كانوا كفارا. وإنما لم يجز قبول التوبة في حال الاجاء إليه، لأن فعل الملجأ كفعل المكره في سقوط الحمد والذم. وقد قال الله تعالى: " وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الان " (١). وقال:

" ١ " سورة النساء آية: ١٧.

(٥٢٨)

" فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا " (١) فأما إذا عاد في الذنب، فلا يعود إليه العقاب الذي سقط بالتوبة، لأنه إذا تاب منه صار بمنزلة ما لم يعمله، فلا يجوز عقابه عليه كما لا يجوز عقابه على ما لم يعمله سواء قلنا أن سقوط العقاب عند التوبة كان تفضلا أو واجبا. وقد دل السمع على وجوب قبول التوبة وعليه إجماع الأمة. وقال تعالى: " وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات " (٢) وقال:

" غافر الذنب وقابل التوب " (٣) وغير ذلك من الاي.

قوله تعالى:

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) (٩١) آية.

اللغة:

الملء أصله الملا، وهو تطفيح الاناء. ومنه الملا الاشراف، لأنهم يملأون العين هيبه وجلالة. ومنه رجل ملئ بالامر، وهو أملا به من غيره. والملا اسم للمقدار الذي يملأ. والملا بفتح

العين مصدر ملات الاناء ملا. ومثله الرعي بكسر الراء: النبات: ويفتح الراء مصدر رعيته.
قال الزجاج: ومن قال: هما سواء فقد غلط.
الاعراب:

وقوله: (ذهبا) نصب على التمييز. والتمييز على ضربين تمييز المقادير وتمييز الاعداد وكله
مستحق النصب لاشتغال العامل بالاضافة أو ما عاقبها من النون

" ١ " سورة المؤمن آية: ٨٤ - ٨٥.

" ٢ " سورة الشورى آية ٢٥. " ٣ " سورة المؤمن آية: ٣.

(٥٢٩)

الزائدة، فجرى ذلك مجرى الحال في اشتغال العامل بصاحبها، ومجرى المفعول في اشتغال
العامل عنه بالفاعل. ومثل ذلك، عندي ملء زق عسلا وقدر نحي سمنًا.
المعنى:

وقوله: (ولو افتدى به) فالفدية البديل على الشئ في إزالة الاذية. ومنه قوله: " وفديناه بذبح
عظيم " (١) لانه بدل منه في ازالة الذبح عنه، ومنه فداء الاسير بغيره، لانه بدل منه في إزالة
القتل والاسر عنه. وقيل في معنى الافتداء ههنا قولان:

أحدهما - البيان عن أن ما كلفه في الدنيا يسير في جنب ما يبذله في الآخرة من الفداء الكثير
لو وجد إليه السبيل، قال قتادة يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الارض
ذهبا، لكنك تفتدي به، فيقول: نعم، فيقال لقد سئلت أيسر من ذلك، فلم تفعل.

الثاني - ما حكاه الزجاج أنه لو افتدى به في دار الدنيا مع الإقامة على الكفر لم يقبل منه.
وقيل في دخول الواو في قوله " ولو افتدى به " قولان قال:

قوم: هي زائدة اجاز ذلك الفراء. والمعنى لو افتدى به. قال الزجاج: وهذا غلط، لان الكلام
يجب حمله على فائدة إذا أمكن، ولا يحمل على الزيادة. والثاني - أنها دخلت لتفصيل نفي
القبول بعد الاجمال، وذلك أن قوله " فلن من أحدهم ملء الارض ذهبا " قد عم وجوه القبول
بالنفي ثم أتى بالتفصيل، لئلا يتطرق عليه سوء التأويل، ولو قيل: بغير واو لم يكن قد عم
النفي وجوه القبول، فقد دخلت الواو لهذه الفائدة من نفي التفصيل بعد الجملة، فأما الواو في
قوله " وليكون من الموقنين " فانها عاطفة على محذوف في التقدير، والمعنى " وكذلك نري
إبراهيم ملكوت السماوات والارض " ليعتبر " وليكون من الموقنين " (٢).

" ١ " سورة الصافات آية: ٧.

" ٢ " سورة الانعام آية: ٧٥.

(٥٣٠)

قوله تعالى:

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شئ فان الله به عليم) (٩٢) آية واحدة.

المعنى:

قبل في معنى البر قولان:

أحدهما - البر من الله بالثواب في الجنة. الثاني - البر بفعل الخير الذي يستحقون به الاجر. وقال السدي وعمرو بن ميمون: البر الجنة.

فان قيل: كيف قال " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " والفقير لا يحب عليه الصدقة وينال الجنة، وان لم ينفق؟ قلنا: الكلام خرج مخرج الحث على الصدقة إلا أنه على ما يصح ويجوز من إمكان النفقة، فهو مقيد بذلك في الجملة إلا أنه اطلق الكلام للمبالغة في الترغيب فيه. ويجوز " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " في سبل الخير من الصدقة من وجوه الطاعة. وقال الحسن: هو الزكاة الواجبة وما فرض تعالى في الاموال خاصة. والاولى أن تحمل الاية على الخصوص بأن يقول: هي متوجهة إلى من يجب عليه إخراج شئ أوجبه الله عليه دون من لم يجب عليه، ويكون ذلك أيضا مشروطا بأن لا يعفو الله عنه - على مذهبنا في جواز العفو - أو يقول " لن تنالوا البر " الكامل الواقع على أشرف الوجوه " حتى تنفقوا مما تحبون ". وقوله: (فان الله به عليم) إنما جاء على جهة جواب الشرط وإن كان الله يعلمه على كل حال، لامرين:

(٥٣١)

أحدهما - لان فيه معنى الجزاء، فتقديره " وما تنفقوا من شئ فان الله؟

يجازيكم به قل أو كثر، لانه عليم به لا يخفى عليه شئ منه.

الثاني - فانه يعلمه الله موجودا على الحد الذي تفعلونه من حسن النية أو قبحها.

اللغة:

والفرق بين البر، والخير: أن البر هو النفع الواصل إلى الغير مع القصد إلى ذلك، والخير يكون خيرا، وان وقع عن سهو. وضد البر العقوق. وضد الخير الشر، فبذلك بين الفرق بينهما.

النظم:

ووجه إتصال هذه الاية بما قبلها أنه تعالى لما ذكر في الاية الاولى " فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به " وصل ذلك بقوله " لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " لئلا يؤدي امتناع غناء الفدية إلى الفتور في الصدقة، وما جرى مجراها من وجوه الطاعة. قوله تعالى:

(كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة؟ تلوها إن كنتم صادقين) (٩٣) آية واحدة. النظم:

وجه اتصال هذه الاية بما تقدم أنه تعالى، لما ذكر الانفاق مما يحب، ومن جملة ما يحب الطعام، فذكر حكمه، وأنه كان مباحاً حلالاً " لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ".

(٥٣٢)

النزول، والقصة، المعنى:

وكان سبب نزول هذه الاية أن اليهود أنكروا تحليل النبي (صلى الله عليه وآله) لحوم الابل، فبين الله تعالى أنها كانت محللة، لابراهيم، وولده إلى أن حرمها إسرائيل على نفسه، وحاجهم بالتوراة، فلم يجسروا على إحضار التوراة لعلمهم بصدق النبي (صلى الله عليه وآله) فيما أخبر أنه فيها.

وكان إسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم نذر إن برأ من النساء أن يحرم أحب الطعام والشراب إليه وهو لحوم الابل وألبانها، فلما برأ وفي الله بنذره. وقال ابن عباس والحسن: إن اسرائيل أخذته وجع العرق الذي يقال له النساء، فنذر إن شفاه الله يحرم العروق ولحم الابل (على نفسه)، وهو أحب الطعام إليه.

فان قيل: كيف يجوز للانسان أن يحرم على نفسه شيئاً، وهو لا يعلم ماله فيه من المصلحة مما له فيه المفسدة؟ قلنا: يجوز ذلك إذا أذن الله له في ذلك وأعلمه، وكان الله أذن لا اسرائيل في هذا النذر، فلذلك نذر. وفي الناس من استدل بهذه الاية على أنه يجوز للنبي (صلى الله عليه وآله) أن يجتهد في الاحكام، لانه إذا كان أعلم ورأيه أفضل كان اجتهاده أحق وهذا الذي ذكره إن جعل دليلاً على أنه كان يجوز ان يتعبد النبي بالاجتهاد، كان صحيحاً "، وان جعل دليلاً " على انه كان متعبداً به، فليس فيه دليل عليه، لانا قد بينا أن اسرائيل ما حرم ذلك إلا باذن الله، فمن أين إن ذلك كان محرماً له من طريق الاجتهاد، فأما من امتنع من جواز تعبد النبي (صلى الله عليه وآله) بالاجتهاد، بأن ذلك يؤدي إلى جواز مخالفة أمته له إذا ادهم الاجتهاد إلى خلاف

اجتهاده فقد أبعد، لانه لايمتنع أن يجتهد النبي (صلى الله عليه وآله) الاجتهاد إلى خلاف ما أدى اجتهاد الامة إليه، فوجب اتباعه ولا يلتفت إلى اجتهاد من يخالفه، كما أن الامة يجوز أن تجمع على حد عن اجتهاد، وإن لم يجز مخالفتها فبطل قول الفريقين.
قوله تعالى:

" فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم

(٥٣٣)

الظالمون " (٩٤).

اللغة:

الاقتراء: افتراء الكذب وأصله قطع ما يقدر من الادم، يقال فرى الاديم يفريه فريا: إذا قطعه، فقيل للكذب الفرية، لانه يقطع به على التقدير من غير تحقيق.
المعنى:

فان قيل: كيف قال: " افتري على الله الكذب " وعلى للاستعلاء، فما معناها هاهنا؟ قلنا: معناها إضافته الكذب إليه من جهة أنه أمر بما لم يأمر به الله فأوجب ما لم يوجب، وكذب عليه بخلاف كذب له، لان كذب عليه يفيد أنه كذب فيما يكرهه، وكذب له قد يجوز فيما يريده. فان قيل كيف قيد وعيد المفترى على الله الكذب ب " من بعد ذلك " وهو يستحق الوعيد بالكذب عليه على كل حال؟ قلنا: المراد به البيان أنه يلزم من بعد إقامة الحجة على العبد فيه، لانه لو كذب على الله (عزوجل) فيما ليس بمحجوج فيه لجرى مجرى كذب الصبي الذي لا يستحق الوعيد به. وإنما وصف المفترى على الله كذبا بأنه ظالم، من حيث كان ظالما لنفسه، ولمن استدعى إلى مذهبه فيما يكذب به، لان ذلك الكذب يستحق به العقاب.
والظلم والجور واحد وإن كان أصلهما مختلفا، لان أصل الظلم النقصان للحق.
الجور العدول عن الحق، ولذلك قيل في ضد الظلم الانصاف. وفي ضد الجور العدل.
والانصاف هو إعطاء الحق على التمام.
قوله تعالى:

(قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من

(٥٣٤)

المشركين) (٩٥) آية.

المعنى:

معنى قوله: " قل صدق الله " البيان عن أن الخبر بأن " كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه " صدق، لأن الله تعالى أخبر به.

وقوله: (فاتبعوا) فالاتباع إلحاق الثاني بالاول لما له به من التعلق بالقوة للاول، والثاني يستمد منه، فهم يلحقون بابراهيم (ع) لتمسكهم بملته والتابع ثان متدبر بتدبير الاول متصرف بتصريفه في نفسه، والصحيح أن شريعة نبينا ناسخة لشريعة كل من تقدم من الانبياء، وأن نبينا لم يكن متعبدا بشريعة من تقدم.

وإنما وافقت شريعته شريعة إبراهيم، فلذلك قال الله تعالى " فاتبعوا ملة إبراهيم " وإلا فالله هو الذي أوحى بها إليه وأوجبها عليه، وكانت شريعة له. فان قيل إذا كانت الشرائع بحسب المصالح، فكيف رغب في شريعة الاسلام بأنها ملة إبراهيم؟

قلنا: لان المصالح إذا وافقت ما تميل إليه النفس ويتقبله العقل بغير كلفة كانت أحق بالرغبة، كما أنها إذا وافقت الغنى بدلا من الفقر، كانت أعظم في النعمة، وكان المشركون يميلون إلى اتباع ملة إبراهيم، فلذلك خوطبوا بذلك. والحنيف: المستقيم:

الدين الذي على شريعة إبراهيم في حجه ونسكه وطيب مأكله، وتلك الشريعة هي الحنيفية. وأصل الحنف الاستقامة وإنما وصف المائل القدم بالاحنف تفاؤلا بها وقيل أصله الميل وإنما قيل الحنيف بمعنى المائل إلى الحق فيما كان عليه إبراهيم من الشرع. قوله تعالى:

(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا؟ وهدى للعالمين) (٩٦) آية بلا خلاف.

(٥٣٥)

المعنى، واللغة، والاعراب:

أول الشيء ابتداءه، ويجوز أن يكون المبتدأ له آخر، ويجوز أن لا يكون له آخر، لان الواحد أول العدد. ولانهاية، لآخره، ونعيم أهل الجنة له أول، ولا آخر له، فعلى هذا إنما كان أول بيت، لانه لم يكن قبله بيت يحج إليه.

وروي عن علي (ع) أنه قال: أول بيت وضع للعبادة البيت الحرام. وقد كانت قبله بيوت كثيرة. وقيل أول بيت رغب فيه، وطلب به البركة مكة. وقال مجاهد: لم يوضع قبله بيت. وإنما دحيت الارض من تحتها. وبه قال قتادة.

وروي أصحابنا: أن أول شيء خلق الله من الارض موضع الكعبة، ثم دحيت الارض من تحتها. وبكة قيل معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن شهاب وضمرة بن ربيعة: بكة هو المسجد، ومكة الحرم كله تدخل فيه البيوت، وهو قول أبي جعفر (ع) وقال أبو عبيدة: بكة هي بطن مكة، وقال مجاهد: هي مكة.

وأصل بكة من البك، وهو الزحم تقول بكه بيكه بكا إذا زحمه وتباك الناس بالموضع إذا ازدحموا، فبكة مزدحم الناس للطواف. وهو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام، ومنه البك: دق العنق، لانه فكه بشدة زحمة، فقيل:

سميت بكة، لانها تبك أعناق الجبابرة إذا ألدوا فيها بظلم لم يمهلوا. وأما مكة، فقال الزجاج يجوز أن يكون اشتقاقها كاشتقاق بكة. وابدلت الميم من الباء، كقولهم: ضربة لازب ولازم، ويجوز أن يكون من قولهم: امبك الفصيل ما في ضرع الناقة إذا مص مصا شديدا حتى لا يبقى منه شيئا، فسميت مكة بذلك لازدحام الناس فيه. قال والاول أحسن، ويقال مك المشاش مكا إذا تمشش بفيه.

ونصب قوله: " مباركا " يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون حالا من الضمير الذي فيه. الثاني - على الظرف من بكة على معنى الذي استقر ببكة مباركا. وعلى هذا القول لا يكون قد وضع قبله بيت

(٥٣٦)

كما يجوز في التقدير الاول. وقوله: " وهدى للعالمين " معناه أنه دلالة لهم على الله من حيث هو المدبر لهم بما لا يقدرين عليه من أمن الوحش فيه حتى يجتمع الكلب والطبي، فلا يعدو عليه وحتى يأنس الطير فلا يمتنع منه كما يمتنع من غيره إلى غير ذلك من الاثار والبيئة فيه مع البركة التي يجدها من حج إليه مع ماله من الثواب الجزيل عليه. وأصل البركة الثبوت من قولك برك وبركا وبروكا إذا ثبت على حاله، فالبركة ثبوت الخير بنموه وتزايديه ومنه البركاء: الثبوت في الحرب. ومنه البركة شبه حوض يمسك الماء، لثبوته فيه. ومنه قول الناس: تبارك الله، لثبوته لم يزل، ولا يزال وحده، ومنه البرك الصدر، لثبوت الحفظ فيه. وقوله تعالى:

(فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين) (٩٧) آية. القراءة:

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر " حج البيت " بكسر الحاء. الباقيون بفتحها فمن فتح أراد المصدر الجاري على فعله، ومن كسر أراد الاسم المعنى:

الآيات التي بمكة أشياء، منها ما قال مجاهد في مقام إبراهيم، وهو أثر قدميه داخله في حجر صلد بقدرة الله تعالى، ليكون ذلك علامة يهتدى بها، ودلالة يرجع إليها مع غير ذلك من الآيات التي فيه من أمن الخائف، وإمحاق الجمار على كثرة الرامي. وامتاع الطير من العلو

عليه. واستشفاء المريض من ماء به. ومن تعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمة على عادة كانت جارية. ومن إهلاك أصحاب الفيل

(٥٣٧)

لما قصدوا، لتخريبه. وروي عن ابن عباس أنه قرأ " آية بينة مقام إبراهيم " فجعل مقام إبراهيم هو الآية. والاول عليه القراء، والمفسرون. وقوله: " مقام إبراهيم " رفع بأنه خبر ابتداء محذوف. وتقديره هي مقام إبراهيم وغير مقام إبراهيم، وقيل التقدير منها مقام إبراهيم. وقوله: (ومن دخله كان آمنا) قيل فيه قولان:

أحدهما - الدلالة على ما عطف عليه قلوب العرب في الجاهلية، من أمر من جنى جنابة، ثم لاذ بالحرم، ومن تبعة تلحقه أو مكروه ينزل به. فأما في الاسلام فمن جنى فيه جنابة أقيم عليه الحد إلا القاتل، فانه يخرج منه، فيقتل في قول الحسن، وقتادة. وعندنا أنه إذا قتل في الحرم قتل فيه.

الثاني - أنه خبر، والمراد به الأمر، ومعناه أن من وجب عليه حد، فلاذ بالحرم والتجأ إليه، فلا يبايع ولا يشاري ولا يعامل حتى يخرج من الحرم، فيقام عليه الحد - في قول ابن عباس وابن عمر - وهو المروي عن أبي عبدالله وأبي جعفر (ع) وأجمعت الصحابة على أن من كانت له جنابة في غيره ثم عاذ به أنه لا يؤخذ بتلك الجنابة فيه. وأجمعوا أيضا أن من أصاب الحد فيه أنه يقام عليه الحد فيه. وإنما اختلفوا فيما به يخرج ليقام عليه الحد.

وروي عن أبي جعفر (ع) أنه قال: من دخله عارفا بجميع ما أوجب الله عليه، كان آمنا في الآخرة من أليم العقاب الدائم والسبيل الذي يلزم بها الحج، قال ابن عباس، وابن عمر: هي الزاد، والراحلة.

وقال ابن الزبير، والحسن: ما يبلغه كائنا ما كان. وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف. وعندنا هو وجود الزاد والراحلة ونفقة من تلزمه نفقته والرجوع إلى كفاية عند العود إما من مال أو ضياع أو عقار أو صناعة أو حرفة مع الصحة والسلامة وزوال الموانع وإمكان المسير.

وقوله: (ومن كفر) معناه من جحد فرض الحج فلم يره واجبا في قول

(٥٣٨)

ابن عباس، والحسن، والضحاك. فأما من تركه وهو يعتقد فرضه، فانه لا يكون كافرا وإن كان عاصيا. وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة إن الاستطاعة مع الفعل، لأن الله تعالى أوجب الحج على المستطيع. ومن لا يستطيع، فلا يجب عليه وذلك لا يكون إلا قبل فعل الحج.

وقال قوم: معنى " ومن كفر " يعني ترك الحج والسبب في ذلك أنه لما نزل قوله: " ومن يبتغ غير الاسلام دينا " (١)

قالت اليهود نحن المسلمون فأنزل الله هذه الآية فامرهم بالحج إن كانوا صادقين فامتنعوا، فقال الله تعالى ومن ترك من هؤلاء فهو كافر، والله غني عن العالمين.
قوله تعالى:

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعلمون) (٩٨) آية.

المعنى:

قوله: " يا أهل الكتاب " خطاب لليهود والنصارى. وإنما أجرى عليهم أهل الكتاب مع أنهم لا يعملون به، ولم يجر ذلك في أهل القرآن حتى يقال، فيمن لا يعمل بالقرآن أنه من أهل القرآن لأمريين:

أحدهما - أن القرآن اسم خاص لكتاب الله، فأما الكتاب فيجوز أن يراد به يا أهل الكتاب المحرف عن جهته، والآخر - الاحتجاج عليهم بالكتاب، لإقرارهم به، كأنه قيل يا من يقر بأنه من أهل كتاب الله " لم تكفر بآيات الله " وآيات الله المراد بها ههنا معجزات نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) التي كانت له، والعلامات التي وافقت في صفته، مما تقدمت به البشارة، وخاطبهم الله في هذه بأن قال له " قل لم تكفرون بآيات الله " على وجه التلطف في استدعائهم إلى الحق، وتوجيه الخطاب إليهم. وقال في موضع آخر " يا أهل الكتاب لم تكفرون " (٢) على وجه الإهانة

" ١ " سورة آل عمران آية: ٨٥.

" ٢ " سورة آل عمران آية: ٧٠.

(٥٣٩)

لهم لصددهم عن الحق بتوجيه الخطاب إلى غيرهم وإنما جاء لفظ التوبيخ في الآية على لفظ الاستفهام، لأنه كسؤال التعجيز عن إقامة البرهان، فكذلك سؤال التوبيخ سؤال تعجيز عن إقامة العذر كأنه قيل: هات العذر في ذلك إن أمكنك، كما قيل له هات البرهان إن كنت محققا في قولك ومذهبك.

اللغة:

وأصل لم لما وحذفت الالف في الاستفهام منها، ولم تحذف في الخبر لأنها في الاستفهام ظرف يقوى فيه التغيير قياسا على حروف الاعراب ونحوها، وأما الخبر فانها تقع وسطا إذا كانت موصولة، لان تمامها آخر صلتها والجزء يجري مجرى الصلة، لان (ما) فيه عاملة.

قوله تعالى:

(يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون) (٩٩)
آية بلا خلاف.

المعنى:

قوله: " لم تصدون " معناه لم تمنعون، لان الصد المنع. وقيل في كيفية صدهم عن سبيل الله قولان:

أحدهما - أنهم كانوا يغزون بين الاوس، والخزرج، بتذكيرهم الحروب التي كانت بينهم حتى تدخلهم العصبية وحمية الجاهلية فينسلخون عن الدين - هذا قول زيد بن أسلم - وقال الاية في اليهود خاصة. وقال الحسن الاية في اليهود والنصارى معا ومعناها لم تصدون بالتكذيب بالنبي (صلى الله عليه وآله) وإن صفته ليست في كتبهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقوله: " من آمن " موضعه النصب بأنه

(٥٤٠)

مفعول تصدون. وقوله: (تبغونها عوجا) الكناية راجعة إلى السبيل، ومعناه تطلبون لها عوجا يعني عدو لاعتن طريق الحق، وهو الضلال كأنه قال تبغونها ضلالا.
اللغة:

والعوج - بفتح العين، هو ميل كل شئ منتصب، نحو القناة والحائط، وبكسر العين - إنما هو الميل عن الاستواء في طريق الدين، وفي القول، وفي الارض. ومنه قوله: " ولا ترى فيها عوجا " (١) وقال عبد بني الحساس:

بغاك وما تبغيه حتى وجدته * كأنك قد واعدته أمس موعدا (٢)

أي طلبك وما تطلبه هذا في بغيت الحاجة فأما بغى عليه، فمعناه تطاول بظلمه له. وتقول: إبغي كذا بكسر الهمزة أي أطلبه لي. وإذا قلت: أبغني بفتح الهمزة، فمعناه أعني على طلبه. ومثله إحملني وأحملني والمسنى والمسني. واحلب لي واحلبي أي أعني على الحلب. وأصل ذلك ابغ لي غير أنه حذف اللام لكثرة الاستعمال.

المعنى:

وقوله: (وأنتم شهداء) قيل فيه قولان:

أحدهما - " أنتم شهداء " على بطلان صدكم عن دين الله، وتكون الاية مختصة بقوم معاندين، لانهم جحدوا ما علموه ويجوز أن تكون في الجميع، لاقرارهم بأنه لايجوز الصد عن دين الله، فلذلك صح ما ألزموا.

الثاني - " وأنتم شهداء " أي عقلاء كما قال الله تعالى " أولقى السمع وهو شهيد " (٣) أي وهو عاقل، وذلك أنه يشهد الدليل الذي يميز به الحق من الباطل

" ١ " سورة طه آية: ١٠٧.

" ٢ " ديوانه: ٤١ وروايته (الا) بدل (حتى) وقد ذكره ابن هشام في المعنى ١:

١١١، وقال: الا بمعنى حتى.

" ٣ " سورة ق آية: ٣٧.

(٥٤١)

قبل يتعلق بالدين ويؤديه إليه.

قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين)
(١٠٠) آية.

النزول:

قال زيد بن أسلم والسدي أن هذه الآية نزلت في الاوس والخزرج لما أغزى قوم من اليهود بينهم ليفتنوهم عن دينهم.

اللغة، والاعراب، والمعنى:

وقوله: " إن تطيعوا " فالطاعة موافقة الارادة الجاذبة للفعل بالترغيب فيه، والاجابة موافقة الارادة الداعية إلى الفعل ولذلك يجوز أن يكون الله تعالى مجيبا للعبد إذا فعل ما دعا العبد به، ولم يجز أن يكون مطيعا له. و (يا) حرف النداء وأي هو المنادى. و (ها) للتبعية وهو اسم مبهم يحتاج أن يوصف بالواحد والجميع لشدة إبهامه من حيث، لا يوقف عليه دون ما يوضحه. ولم يجز مثل ذلك في هذا، وإن كان اسما مبهما، لانه يدخله التثنية، والجمع، نحو هؤلاء وهذان وليس كذلك أي فان قيل لم جاز صفة المبهم بالموصول ولم يجز بالمعطوف؟ قيل: لان الموصول بمنزلة اسم واحد لنقصانه عن التمام إلا بصلته، فعومل لذلك معاملة المفرد، وليس كذلك المعطوف، لانه اسم تام، فلذلك لم يجز يا أيها الطويل والقصير على الصفة، وجاز يا أيها الذي أكرم زيدا على الصفة، ويجوز يا أيها الطويل والقصير على أن يكون القصير منادا أيضا ويجوز أن تقول يا هذا وتقف عليه. ولايجوز أن تقول يا أيها وتقف. وإن كانا مبهمين لا يحتاجان إلى صلة، لان أي وصلة إلى نداء

(٥٤٢)

ما فيه الالف واللام، كما أن الذي وصلت إلى صفة المعرفة بالجملته، ولذلك جاز النصب في يا هذا الكريم، ولم يجز في يا أيها الكريم. ومعنى الآية النهي عن طاعة الكفار وبيان أن من أطاعهم يدعوه ذلك إلى الارتداد عن دينه بعد أن كان مؤمنا ورجوعه كافرا. قوله تعالى:

(وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) (١٠١) آية.

النزول:

روي عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية أنه كانت بين الاوس، والخزرج حرب في الجاهلية كل شهر، فبينما هم جلوس إذ ذكروا ما كان بينهم حتى غضبوا، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت هذه الآية وما بعدها. وقال الحسن نزلت في مشركي العرب. المعنى، واللغة:

" وكيف " موضوعة للاستفهام، ومعناها ههنا التعجب وإنما استعملت في ذلك، لأنها طلب للجواب عما حمل على الفساد فيما لا يصح فيما لا يصح فيه الاعتذار. والتعجب هو حدوث إدراك مالم يكن يقدر لخفاء سببه، وخروجه عن العادة في مثله، ولذلك لم يجز في صفة القديم، ولكن يجوز في صفة تعجيب العباد من بعض الامور. وصيغة التعجب في اللغة ما أفعله، وأفعل به إلا أنه قد يجيء كلام متضمن بمعنى التعجب، وإن لم يكن في الاصل مما وضع له. وقوله: (وفيكم رسوله)

خطاب للذين عاصروه، فأما اليوم، فقد قال الزجاج: يجوز أن يقال: فينا رسول الله، ويراد به أن آثاره قائمة فينا، وأعلامه ظاهرة، وذلك بمنزلة لو كان

(٥٤٣)

موجودا فينا. وقوله: (ومن يعتصم بالله) معناه يمتنع والعصم: المنع. تقول عصمه يعصمه عصما، ومنه قوله: " لا عاصم اليوم من أمر الله " (١) أي لآمانع. والعصم: الاوعال لامتناعها بالجمال. والمعصم لانه يمتنع. والعصام: الحبل، والسبب، لانه يعتصم به.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (١٠٢) آية بلا خلاف. المعنى:

ذكر ابن عباس وطاوس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة. وقال قتادة، والربيع، والسدي، وابن زيد: هي منسوخة بقوله " فاتقوا الله ما استطعتم " (٢)

وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) لانهم ذهبوا إلى أنه يدخل فيه القيام بالقسط في حال الخوف، والامن، وأنكر أبو علي الجبائي نسخ الآية وذلك، لان من اتقى جميع معاصيه، فقد اتقى الله حق تقاته. ومثل هذا لايجوز أن ينسخ، لانه إباحة لبعض المعاصي. قال الرماني: والذي عندي أنه إذا وجه على " اتقوا الله حق تقاته " بأن تقوموا له بالحق في الخوف والامن لم يدخل عليه ما ذكره أبو علي. وهذا صحيح، لانه لا يمتنع أن يكون أوجب عليهم أن يتقوا الله على كل حال ثم أباح ترك الواجب عند الخوف على النفس، كما قال: " إلا من أكره وقلبه مطمئن الايمان " (٣) وأنكر البلخي أيضا نسخ الآية وقال: لان في ذلك ايجاب الامر بما لا يستطاع. قال الرماني: وهذا أيضا لا يلزم، لان " وما استطعتم " إنما هو من غير تحمل مشقة بتحريم التقية.

" ١ " سورة سورة هود آية: ٤٣. " ٢ " سورة التغابن آية: ١٦.
" ٣ " سورة النحل آية: ١٠٦.

(٥٤٤)

وقيل في معنى قوله: " حق تقاته " قولان:

أحدهما - قال ابن مسعود، والحسن، وقتادة: إن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فال ينسى، وهو المروي عن أبي عبدالله (ع). وقال الجبائي: هو أن يتقى جميع معاصيه. وظاهر الآية يقتضي أنه خطاب للمؤمنين خاصة، ويجوز أن يحمل من جهة المعنى على جميع المكلفين على التغليب، لانه معلوم أنه يجب عليهم من ذلك مثل ما يجب على المؤمنين من اتقاء جميع معاصي الله.
اللغة:

وقوله: " تقاته " هو من وقيت. وقال الزجاج: يجوز فيه ثلاثة أوجه تقاة ووقاة واقاة وحمله على قياس وجوه وأجوه وإن كان هذا المثال لم يجئ منه شيء على الاصل نحو تخمة ونكاة ونفاة غير أنه حمله على الاكثر من نظائره وجعل اختصاص هذا البناء في الاستعمال، لا يمنع من حمله على نظيره في القياس، لان بازاء قوة الاستعمال قوة النظير في الباب.
المعنى، واللغة:

وقوله: (ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون) معناه لا تتركوا الاسلام وإنما قال: " فلا تموتن " بلفظ النهي عن الموت من حيث أن الموت لا بد منه، فكأنه قال كونوا على الاسلام، فاذا ورد عليكم الموت صادفكم على الاسلام، فالنهي في الحقيقة عن ترك الاسلام، لئلا يهلكوا بالاقتطاع عن التمكين منه بالموت إلا أنه وضع كلام موضع كلام على جهة تصرف الابدال، لحسن

الاستعارة، وزوال اللبس، لأنه لما كان يمكنهم أن يفارقوه بالاسلام فترك الاسلام صار بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم ومثله قولهم لا أراك ههنا أي لا تكونن ههنا، فان من كان ههنا رأيته إلا أن هذا خرج مخرج النهي لغير المنهي عنه فتباعد عن الاصل، فالاول أحسن. لأنه أعدل. وروي عن أبي عبدالله (ع) " وأنتم مسلمون "

(٥٤٥)

بالتشديد، ومعناه إلا وأنتم مستسلمون لما أتى به النبي (صلى الله عليه وآله) ومنقادون له. قوله تعالى:

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) (١٠٣) آية.

المعنى، واللغة، والاعراب:

ومعنى قوله: " واعتصموا " امتنعوا بحبل الله واستمسكوا به أي بعهد الله، لأنه سبب النجاة كالحبل الذي يتمسك به للنجاة من بئر أو نحوها. ومنه الحبل الامان، لأنه سبب النجاة. ومنه قوله: " إلا بحبل من الله وحبل الناس " (١)

ومعناه بأمان، قال الاعشى:

وإذا تجوزها حبال قبيلة * أخذت من الاخرى إليك حبالها (٢)

ومنه الحبل الحمل في البطن وأصله الحبل المفتول قال ذو الرمة:

هل حبل خرقاء بعد اليوم مرموم * أم هل لها آخر الايام تكليم

وفي معنى قوله: " بحبل الله " قولان قال أبو سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه كتاب الله. وبه قال ابن مسعود. وقتادة والسدي. وقال ابن زيد " حبل الله " دين الله أي دين الاسلام. وقوله: " جميعا " منصوب على الحال. والمعنى اعتصموا بحبل الله مجتمعين على الاعتصام به. وقوله: " ولا تفرقوا " أصله ولا تتفرقوا،

" ١ " سورة آل عمران آية: ١١٢.

" ٢ " ديوانه: ٢٤ رقم القصيدة ٣ في المطبوعة (أجوزها) بدل (تجوزها) وهو أيضا في اللسان (حبل) ومشكل القرآن: ٣٥٨ وغيرها كما أثبتناه. والبيت من قصيدته في قيس ابن معد يكرب يصف ناقه يقول: لا تحتاج إلى حث بل هي سريعة الجرى عارفة طرق القبائل.

(٥٤٦)

فحذفت احدى التائين، لاجتماع المثلين. والمحذوفة الثانية، لان الاولى علامة الاستقبال، وهو مجزوم بالنهي وعلامة الجزم سقوط النون. وقال ابن مسعود وقتادة: معناه ولا تفرقوا عن دين الله الذي أمر فيه بلزوم الجماعة والاتلاف على الطاعة. وقال الحسن: معناه ولا تفرقوا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله). وقوله: (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء) معناه ما كان بين الاوس والخزرج من الحروب التي تطاولت مئة وعشرين سنة إلى أن ألف بين قلوبهم بالاسلام، وزالت تلك الاحقاد، هذا قول ابن اسحاق. وقال الحسن: هو ما كان من مشركي العرب من الطوائل.

وقوله: (وكنتم على شفا حفرة من النار) معنى الشفا الحرف، لان شفا الشئ حرفه، ويثنى شفوان، لانه من الواو، وجمعه اشفاء. ولا يجوز فيه الامالة. وإنما قال: " فانقذكم منها " وإن لم يكونوا فيها، لانهم كانوا بمنزلة من هو فيها من حيث كانوا مستحقين لدخولها. وإنما أنقذهم النبي (صلى الله عليه وآله) بدعائهم إلى الاسلام، ودخلهم فيه، فصاروا بمنزلة الخارج منها. وأصل الاخ أن الاخر مقصده مقصد أخيه، وكذلك في الصداقة أن تكون إرادة كل واحد منهما موافقة الاخر يقولون: يتوخى فلان شأن فلان أي يقصده في سيره، ويقولون: خذ على هذا الوخي أي على هذا القصد. وقوله: (كذلك يبين الله لكم آياته) الكاف في موضع نصب، والمعنى مثل البيان الذي تلي عليكم " يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون " معناه لتتهتدوا وتكونوا على رجاء هداية.

والهاء في قوله فانقذكم منها كناية عن الحفرة فترك شفا، وردت الكناية على الحفرة. ومثل ذلك قول العجاج.

طول الليالي أسرع في نقضي * طوين طولي وطوين عرضي
فترك الطول وأخبر عن الليالي. فان قالوا إذا كان الله هو الذي ألف بين قلوبهم وأنقذهم النار، فقد صح أن أفعال الخلق فعل له وخلق من خلقه؟

قيل: لا يجب ذلك، لانا نقول أن النبي (صلى الله عليه وآله) ألف بين قلوب العرب وأنقذهم من

سورة البقرة آية: ٢.

(٥٤٧)

النار، ولا يجب من ذلك أن تكون أفعالهم أفعالاً للنبي (صلى الله عليه وآله)، ولا مشاركا لهم. ومعنى ألف بين قلوبهم وأنقذهم من النار أنهم دعاهم إلى الايمان وبين لهم وهداهم، ورجبهم وحذرهم، فلما كان إسلامهم ونجاتهم بمعونته ودعائه، كان هو المؤلف لقلوبهم، والمنقذ لهم من النار على هذا المعنى، لأنه صنع أفعالهم، وأحدثها.

فان قيل: فقد فعل الله مثل ذلك بالكافرين هلا قلتم أنه ألف بينهم؟ قلنا: لاتقول ذلك وإن كان فعل بهم في الابتداء مثل الذي فعل بالمؤمن، لانه لم يوجد منهم إيمان، فلايجوز إطلاق ذلك عليهم، ولما وجد من المؤمن ذلك جاز إضافة ذلك إلى الله تعالى وجرى ذلك مجرى قوله " هدى للمتقين " أنه اضيف إلى المتقين من حيث اهدوا به. وان كان هداية للكافرين أيضا. ويجوز أن يقال: ألف الله بين الكفار، فلم يأتلفوا وانقذهم، فلم يستنقذوا، فيقيد ذلك، كما قال: " وإما ثمود، فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " (١) ولا يجوز أن يقال: هدى الله ثمود ويسكت. ومثل ذلك لو أن إنسانا اعطى ولدين له مالا وإمرهما بالتجارة وبين لهما وجوه المكاسب فكسب أحدهما ما لا واستغنى، وضيع الآخر، فافتقر جاز أن يقال أن فلانا أغنى ولده الغني، ولا يجوز أن يقال اغنى ولده الفقير على أنا لا نقول ان الله تعالى فعل بالكافر جميع ما فعل بالمؤمن، لان الذي سوى بينهما ما يتعلق بازاحة العلة في التكليف من الاقدار والاعلام والدلالة، وما به يتمكن من فعل الايمان، فأما اللطاف التي يفعلها الله بالمؤمن بعد إيمانه التي علمها له بعد الايمان ولم يعلمها للكافر، فلا نقول أنه فعل بالكافر مثلها، ولا يمتنع أن تكون هذه الزيادة من اللطاف مشروطة بحال الايمان، فالاطلاق لايصح على كل حال.

قوله تعالى:

(ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف

" ١ " سورة حم السجدة آية: ١٧.

(٥٤٨)

وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) (١٠٤) آية.

الاعراب، والمعنى:

قوله: " ولتكن " أمر واللام لام الامر وإنما سكنت مع الواو ولم يكن لام الاضافة لان تسكين لام الامر يؤذن بعملها أنه الجزم، وليس كذلك لام الاضافة.

ولم يسكن مع ثم، لان ثم بمنزلة كلمة منفصلة. وقوله: (منكم أمة) " من " ههنا للتبعيض على قول أكثر المفسرين، لان الامر بانكار المنكر، والامر بالمعروف متوجه إلى فرقة منهم غير معينة، لانه فرض على الكفاية فأى فرقة قامت به سقط عن الباقيين. وقال الزجاج التقدير " وليكن " جميعكم و (من) دخلت لتخص المخاطبين من بين سائر الاجناس، كما قال: " فاجتنبوا الرجس من الاوثان " (١)

وقال الشاعر:

أخو رغائب يعطيها ويسلبها * يأبى الظلّامة منه النوفل الزفر (٢)

لأنه وصفه باعطاء الرغائب، والنوفل الكثير الاعطاء للنوافل. والزفر: الذي يحمل الاثقال، فعلى هذا الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر من فرض الاعيان لا يسقط بقيام البعض عن الباقيين. وهو الذي اختاره الزجاج، وبه قال الجبائي، واختاره.
اللغة:

والامة في اللغة تنقسم خمسة أقسام:
أحدها - الجماعة. والثاني - القامة. والثالث - الاستقامة. والرابع - النعمة والخامس القدوة. والاصل في ذلك كله القصد من قولهم: أمه يؤمه. أما إذا

" ١ " سورة الحج آية: ٣٠.

" ٢ " قائله أعشى باهلة اللسان (زفر) وأمالى الشريف المرتضى ٢: ٢١ وهو من قصيدة من المراثي المضلة المشهورة بالبلاغة والبراعة وروايته (بسألها) بدل (يسلبها).

(٥٤٩)

قصده، فالجماعة سميت أمة لاجتماعها على مقصد واحد. والامة: القدوة، لأنه تأتم به الجماعة. والامة النعمة، لأنها المقصد الذي هو البغية. والامة القامة، لاستمرارها في العلو على مقصد واحد. والمعروف هو الفعل الحسن الذي له صفة زائدة على حسنه. وربما كان واجبا أو ندبا، فان كان واجبا فالامر به واجب.

وان كان ندبا فالامر به ندب. والمنكر هو القبيح فالنهي عنه كله واجب. والانكار هو إظهار كراهة الشئ لما فيه من وجه القبح، ونقيضه الاقرار وهو إظهار تقبل الشئ من حيث هو صواب حسن.
المعنى:

والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان بلا خلاف وأكثر المتكلمين يذهبون إلى أنه من فروض الكفايات. ومنهم من قال من فروض الاعيان، وهو الصحيح على ما بيناه. واختلفوا، فقال جماعة ان طريق وجوب انكار المنكر العقل، لأنه كما تجب كراهته وجب المنع منه إذا لم يمكن قيام الدلالة على الكراهة.

وإلا كان تاركه بمنزلة الراضي به. وقال آخرون وهو الصحيح عندنا: إن طريق وجوبه السمع وأجمعت الامة على ذلك، ويكفي المكلف الدلالة على كراهته من جهة الخير وما جرى مجراه وقد استوفينا ما يتعلق بذلك في شرح جمل العلم.

فان قيل هل يجب في إنكار المنكر حمل السلاح؟ قلنا: نعم إذا احتيج إليه بحسب الامكان، لان الله تعالى قد أمر به، فاذا لم ينجح فيه الوعظ والتخويف، ولا التناول باليد وجب حمل السلاح،

لان الفريضة لا تسقط مع الامكان إلا بزوال المنكر الذي لزم به الجهاد إلا أنه لايجوز أن يقصد القتال إلا و غرضه إنكار المنكر.

وأكثر أصحابنا على أن هذا النوع من انكار المنكر لايجوز الاقدام عليه إلا باذن سلطان الوقت. ومن خالفنا جوز ذلك من غير الاذن مثل الدفاع عن النفس سواء. وقال البلخي: إنما يجوز لسائر الناس ذلك إذا لم يكن إمام، ولا من نصبه، فأما مع وجوده، فلا ينبغي، لاحد أن يفعل ذلك إلا عند الضرورة. وقوله:

(٥٥٠)

(وأولئك هم المفلحون) معناه هم الفائزون بثواب الله، والخلص من عقابه.

قوله تعالى:

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) (١٠٥) آية.

المعنى:

قال الحسن، والربيع: المعنى بهذا التفرق في الآية اليهود والنصارى، فكأنه قال يا أيها المؤمنون " لا تكونوا كالذين تفرقوا " يعني اليهود والنصارى. وقوله:

(من بعد ما جاءهم البينات) معناه من بعد ما نصبت لهم الأدلة ولا يدل ذلك على عناد الجميع، لان قيام البينات إنما يعلم بها الحق إذا نظر فيها واستدل بها على الحق، فان قيل إذا كان التفرق في الدين هو الاختلاف فيه، فلم ذكر الوصفان؟ قلنا: لان معنى " تفرقوا " يعني بالعداوة واختلفوا في الديانة، فمعنى الصفة الأولى مخالف لمعنى الصفة الثانية، وفيمن نفى القياس، والاجتهاد من استدل بهذه الآية على المنع من الاختلاف جملة في الأصول والفروع، واعترض من خالف في ذلك بأن قال لا يدل ذلك على فساد الاختلاف في مسائل الاجتهاد، كما لا يدل على فساد الاختلاف في المسائل المنصوص عليها، كاختلاف حكم المسافر والمقيم في الصلاة والصيام، وغير ذلك من الأحكام، لان جميعه مدلول على صحته إما بالنص عليه وأما بالرضى به، وهذا ليس بشئ، لان لمن خالف في ذلك أن يقول: الظاهر يمنع من الاختلاف على كل حال إلا ما أخرجه الدليل، وما ذكره أخرجه بالاجماع فالاجود في الطعن أن يقال: وقد دل الدليل على وجوب التعبد بالقياس والاجتهاد! قلنا: إن يخص ذلك أيضا ويصير الكلام في صحة ذلك أو فساده، فالاستدلال بالآية إذا صحیح على نفي الاجتهاد. وقوله: " وجاءهم البينات " إنما حذفته منه علامة التأييد إذا تقدم، فكذلك لا يلحقه علامة التأييد لشبهها علامة التثنية والجمع.

قوله تعالى:

(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)
(١٠٦) آية بلا خلاف.

الاعراب:

العامل في قوله: " يوم " قوله " عظيم " وتقديره عظيم عذابهم يوم تبيض وجوه. ولا يجوز أن يكون العامل فيه عذاب موصول، قد فصلت صفته بينه، وبين معموله، لكن يجوز أن تعمل فيه الجملة، لأنها في معنى يعذبون يوم تبيض وجوه، كما تقول المال لزيد يوم الجمعة فالعامل الفعل والجملة خلف منه.

المعنى:

والمعنى بهذه الآية الذين كفروا بعد ايمانهم. وقيل فيهم أربعة أقوال:

أحدها - قال الحسن: الذين كفروا بعد اظهار الايمان بالنفاق.

الثاني - قال قتادة الذين كفروا بالارتداد.

الثالث - قال أبي بن كعب: إنهم جميع الكفار، لاعراضهم عما يوجبه الاقرار بالتوحيد حين أشهدهم الله على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا.

الرابع - ذكره الزجاج وأبو علي الجبائي. الذين كفروا من أهل الكتاب بالنبي (صلى الله عليه وآله) بعد ايمانهم به أي بنعته وصفته قبل مبعثه، وهذا الوجه، والوجه الاول يليق بمذهبنا في الموافقة، فأما الارتداد عن الايمان الحقيقي، فلا يجوز عندنا على ما مضى في غير موضع. فان قيل إذا كان " الذين اسودت وجوههم " كفارا " والذين ابيضت وجوههم " مؤمنين هلا دل ذلك على أنه لا واسطة بين الكفر، والايمان من

الفسق؟ قلنا لا يجب ذلك، لان ذكر اسوداد الوجوه وابيضاضها لا يمنع أن يكون هناك وجوه أخر مغبرة أو نحوها من الالوان أو يكون أدخلوا في جملة الكفار الذين اسودت وجوههم على التغليب لأعظم الصفتين كما يغلب المذكر على المؤنث، وليس ذكر اليوم بأنه تسود فيه وجوه وتبيض وجوه بمانع من أن يكون فيه وجوه عليها الغبرة، كما أن القائل إذا قال هذا يوم يعفو فيه السلطان عن قوم ويعاقب فيه قوما لا يدل على أنه ليس هناك من لا يستحق واحدا من الامرين على أن الآية تدل على أن " الذين اسودت وجوههم " هم المرتدون، لانه قال " أكفرتم

بعد إيمانكم " وليس كل الكفار هذه صورتهم، جاز لنا إثبات فاسقين مثل ذلك، وليس قوله: " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه " يجري مجرى قوله:

" وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا " (١) لان ذاك إنما ذكر على وجه المثل، كأنه قال حال الذي يبشر بالانثى بمنزلة حالة من اسود وجهه، لما حدث فيه من التغير: وإن لم يسود في الحقيقة. وعرفنا عن ذلك دليل، وليس في هذه الاية ما يدلنا على العدول عن ظاهرها.

وجواب أما في قوله: " فأما الذين اسودت " محذوف وتقديره " فأما الذين اسودت وجوههم " فيقال لهم " أكفرتم بعد ايمانكم " فحذف لدلالة اسوداد الوجوه على حال التوبيخ حتى كأنه ناطق به، وقد يحذف القول في مواضع كثيرة استغناء بما قبله من البيان، كقوله: " ولو ترى إذا المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا " (٢) أي يقولون ربنا لدلالة تنكيس الرأس من المجرم على سؤال الاقالة. وقيل في قوله تعالى: " وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا " (٣) معناه يقول " ربنا تقبل منا " ومثله " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم " (٤) أي يقولون " سلام عليكم " ونظائر ذلك كثيرة جدا.

" ١ " سورة النحل آية: ٦٨. " ٢ " سورة الم السجدة آية: ١٢.

" ٣ " سورة البقرة آية: ١٢٧. " ٤ " سورة الرعد آية: ٢٥.

(٥٥٣)

قوله تعالى:

(وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون (١٠٧)).

إن قيل: لم ذكر تعالى حال الكافرين وحال المؤمنين ولم يذكر حال الفاسقين؟

قلنا: ليقابل اسوداد الوجوه لا ببيضاض الوجوه بالعلامتين، وحال الفاسقين موقوفة على دلالة

أخرى وآية أخرى. وقوله: " ففي رحمة الله " قيل في معناه قولان:

أحدهما - انهم في ثواب الله وان الرحمة هي الثواب.

والثاني - انهم في ثواب رحمة الله، فحذف، كما قال: " واسأل القرية " (٥) ذكره الزجاج.

والاول أجود، لان الرحمة ههنا هي الثواب وإذا صح حمل الكلام على ظاهره من غير حذف

كان أولى من تقدير محذوف منه من غير ضرورة. والاية تدل على أن ثواب الله تفضل، لان

رحمة الله إنما هي نعمته، وكل نعمة فانه يستحق بها الشكر، وكل نعمة تفضل، ولو لم تكن

تفضلا لم تكن نعمة. وقيل في وجه كونه تفضلا قولان:

أحدهما - إنما كان تفضلا، لان السبب الذي هو التكليف تفضل.
والثاني - إنه تفضل لانه بمنزلة ايجاز الوعد في أنه تفضل مستحق، لان المبتدئ به قد كان له أن لا يفعله، فلما فعله وجب عليه الوفاء به، لانه لايجوز الخلف، وهو مع ذلك تفضلا، لانه جر إليه تفضل، واختار الرماني هذا الوجه.
وإنما كرر الظرف في قوله: " ففي رحمة الله هم فيها خالدون " لامرين:
أحدهما - للتأكيد، والثاني - للبيان عن صحة الصفتين أنهم في رحمة الله، وانهم فيها خالدون، وكل واحدة قائمة بنفسها.

" ١ " سورة الصافات آية: ٧.

(٥٥٤)

قوله تعالى:

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين) (١٠٨) آية بلا خلاف.

المعنى:

قال الفراء معنى " تلك آيات الله نتلوها عليك " أي مواعظه وحججه ومعنى " نتلوها " أي نقرأها عليك. والفرق بين تلك، وهذه أن تلك إشارة إلى ما هو بعيد فجازت الإشارة بها إليه لا نقضاء الآية وصلح هذه لقربها في التلاوة، ولو كانت بعيدة لم يصلح أحدهما مكان الآخر. وإنما قال " آيات الله نتلوها عليك بالحق " فقيده (بالحق)، لانه لما حقق الوعيد بأنه واقع لامحالة نفى عنه حال الظلم كعادة أهل الخير، ليكون الانسان على بصيرة في سلوك الضلالة مع الهلاك أو الهدى مع النجاة، ومعنى " نتلوها عليك بالحق " أي معاملتي حق، ويحتمل أن يكون المراد " نتلوها " المعنى الحق، لان معنى التلاوة حق من حيث يتعلق معتقدها بالشئ على ما هو به.

اللغة، والمعنى:

والفرق بين تلوت عليه، وتلوت لديه أن عليه يدل على إقرار التلاوة، لان معنى عليه استعلاء الشئ، فهي تنبئ عن استعلائه بالظهور للنفس، كما يظهر لها بعلو الصوت وليس كذلك لديه، لان معناه عنده. وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: أن الله تعالى يريد الظلم، لانه لو أراد ظلم بعضهم لبعض، لكل قد أراد ظلمهم وكذلك لو أراد ظلم الانسان لغيره، لجاز أن يريد أن يظلمه هو، لانه لا فرق بينها في القبح، ويدل أيضا على أنه لا يفعل ظلمهم، لانه لا يفعل ما لا يريد.

(٥٥٥)

وقوله: (وما الله يريد ظلما للعالمين) فيه نفي لارادة ظلمهم على كل حال بخلاف ما يقولونه.

قوله تعالى:

(ولله ما في السموات وما في الارض وإلى الله ترجع الامور)

(١٠٩) آية.

النظم:

وجه اتصال هذه الاية بما قبلها، وجه اتصال الدليل بالمدلول عليه، لانه لما قال: " وما الله يريد ظلما للعالمين " وصله بذكر غناه عن الظلم إذ الغني عنه العالم بقبحه، ومعناه لايجوز وقوعه منه.

المعنى:

وقوله: (وإلى الله ترجع الامور) لا يدل على أن الامور كانت ذاهبة عنه، لامرين:

أحدهما - لانها بمنزلة الزاهبة بهلاكها وفنائها ثم اعادتها، لانه تعالى يعيدها للجزاء على الاعمال والعوض على الالام.

والثاني - لانه قد ملك العباد كثيرا من التدبير في الدنيا فيزول جميع ذلك في الاخرة ويرجع إليه كله. وقوله: " والله ما في السموات " معناه والله ملك ما في السموات. والملك: هو ماله أن يتصرف فيه. ولا يجوز أن يقول مكان ذلك والله خلق ما في السموات، لان ذلك يدخل فيه معاصي العباد، والله تعالى منزه عنها والاية خرجت مخرج التعظيم لله تعالى، وذكر عظيم المدح.

وفي وقوع المظهر بموقع المضمرة في قوله: " وإلى الله ترجع الامور " فيه قولان:

(٥٥٦)

أحدهما - ليكون كل واحد من الكلامين مكتفيا بنفسه.

والثاني - لان المظهر في اسم الله تعالى أفخم في الذكر من المضمرة وصفة ملكه موضع تفخيم، وليس كقول الشاعر (١)

لا أرى الموت يسبق الموت شئ * نغص الموت ذا الغنى والفقيرا (٢)

لان البيت مفتقر إلى الضمير والاية مستغينة عنه وإنما احتاج البيت إليه، لان الخبر الذي هو جملة لا يتصل بالمخبر عنه إلا بضمير يعود إليه. (وما) تقع على ما يعقل وما لا يعقل إذا ذهب به مذهب الجنس، فما يعقل داخل فيه حقيقة ولو قال بدلا منه والله ومن في السموات بلفظه (من) لما دخل فيه إلا العقلاء أو الكل على جهة التغليب دون الحقيقة قوله تعالى:

كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) (١١٠) آية واحدة.
النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال المدح على الفعل الذي تقدم به الامر، لانه قد تقدم إيجاب الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر ثم مدح على قبوله والتمسك به، ويجوز أيضا ان يكون اتصال التعظيم لله تعالى بمدح المطيعين له في الاشياء التي بينت، لانهم بلطف الله تعالى أطاعوا.

" ١ " هو؟ بن زيد. وقيل انه ينسب إلى ولده سواده بن عدي. ونسبه بعضهم لاميه بن أبي الصلت.
" ٢ " حماسية البحرني: ٩٨ وشعراء الجاهلية: ٤٦٨، وسيبويه ١: ٣٠ وخزانة الادب ١: ١٨٣، ٣: ٥٣٤، ٤: ٥٥٢ وأمالي بن الشجري ١: ٢٤٣، ٢٨٨ وشرح شواهد المغني ٢٩٦ وهو من أبيات متفرقة؟ هذه الكتب وغيرها من الحكم في التأمل في الحياة والموت.

(٥٥٧)

المعنى:

وقوله: (كنتم خير أمة) إنما لم يقل أنتم لأحد أمور:

أحدها - قال الحسن أن ذلك لما قد كان في الكتب المتقدمة ما يسمع من الخير في هذه الامة من جهة البشارة. وقال نحن آخرها وأكرمها على الله. وكذلك روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) فهو موافق لمعنى أنتم خير أمة إلا أنه ذكر " كنتم " لتقدم البشارة به، ويكون التقدير " كنتم خير أمة " في الكتب الماضية فحققوا ذلك بالافعال الجميلة.

الثاني - أن كان زائدة ودخولها وخروجها بمعنى، إلا أن فيها تأكيد وقوع الامر لا محالة، لانه بمنزلة ما قد كان في الحقيقة، كما قال " واذكروا إذ أنتم قليل " (١) وفي موضع آخر " واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم " (٢) ونظيره قوله: " وكان الله غفورا رحيمًا " لان مغفرته المستأنفة كالماضية في تحقيق الوقوع لا محالة.

الثالث - أن (كان) تامة ههنا ومعناه حدثتم خير أمة ويكون خير أمة نصبا على الحال.

والرابع " كنتم خير أمة " في اللوح المحفوظ.

والخامس - كنتم مذ أنتم ليدل على أنه كذلك مذ أول أمرهم. واختأف المفسرون في المعنى بقوله: " كنتم خير أمة " فقال قوم: هم الذين هاجروا مع النبي (صلى الله عليه وآله) ذكره ابن

عباس، وعمر بن الخطاب، والسدي. وقال عكرمة: نزلت في ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل. وقال الضحاك: هم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) خاصة. وقال مجاهد معناه " كنتم خير أمة " إذا فعلتم، ما تضمنته الآية من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

والإيمان بالله والعمل بما أوجبه. وقال الربيع: معناه " كنتم خير أمة "، لأنه لم

" ١ " سورة الانفال آية: ٢٦.

" ٢ " سورة الاعراف آية: ٨٥.

(٥٥٨)

يكن أمة أكثر استجابة في الاسلام، من هذه الامة. فان قيل: لم قيل للحسن معروف مع أن القبيح أيضا يعرف أنه قبيح، ولايجوز أن يطلق عليه اسم معروف؟ قلنا: لان القبيح بمنزلة ما لا يعرف لخموله وسقوطه. والحسن بمنزلة النبيه الذي يعرف بجلالته وعلو قدره. ويعرف أيضا بالملابسة الظاهرة والمشاهدة فأما القبيح، فلا يستحق هذه المنزلة. وقوله: (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) معناه لو صدقوا بالنبي (صلى الله عليه وآله) وقوله: " منهم المؤمنون " يعني معترفون بما دلت عليه كتبهم في صفة نبينا (صلى الله عليه وآله)، والبشارة به. وقيل: إنها تناولت من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وأخيه، وغيرهما. وقوله: (وأكثرهم الفاسقون) يعني من لم يؤمن منهم، وإنما وصفهم بالفسق دون الكفر الذي هو أعظم، لان الغرض الاشعار بأنهم خرجوا بالفسق عما يوجبهم من الاقرار بالحق في نبوة النبي (صلى الله عليه وآله). وأصل الفسق الخروج. ووجه آخر وهو أنهم في الكفار بمنزلة الفساق في العصاة بخروجهم إلى الحال الفاحشة التي هي أشنع وأفظع من حال من لم يقدم إليه ذكر فيه، وليس في الآية ما يدل على أن الاجماع حجة على ما بيناه في أصول الفقه. وتلخيص الشافي، وجملته أن هذا الخطاب لايجوز أن يكون المراد به جميع الامة، لان أكثرها بخلاف هذه الصفة بل فيها من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف. ومتى كان المراد بها بعض الامة، فنحن نقول ان في الامة من هذه صفته، وهو من دل الدليل على عصمته، فمن أين لو أننا فرضنا فقدهم، لكان إجماعهم حجة واستوفينا هناك ما تقتضيه الاسئلة والجوابات، فلانطول بذكره ههنا.

قوله تعالى:

(لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) (١١١) آية.

النظم:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال البشارة بالغلبة بما تقدم من الامر

(٥٥٩)

بالمحاربة، لانه قد تقدم الامر بانكار المنكر، فالفريضة اللازمة إذ لم تترك إلا بالمحاربة.
المعنى، والاعراب:

والاذى المذكور في الآية هو أن يسمعوا منهم كذبا على الله يدعونهم به إلى الضلالة في قول الحسن، وقتادة يقول أهل الحجار أذيتني إذا أسمعتة كلاما يثقل عليه. وقال البلخي، والطبري الاستثناء منقطع ههنا، لان الاذى ليس من الضرر في شئ، وهذا ليس بصحيح، لانه إذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقي لم يجز حمله على المنقطع. والمعنى في الآية لن يضروكم إلا ضررا يسيرا، فالاذى وقع موقع المصدر الاول. وإذا كان الاذى ضررا فالاستثناء متصل. والمنقطع لا يكون فيه الثاني مخصصا للاول، كقولك ما في الدار أحد إلا حمارا، وكقولك ما زاد إلا ما نقص وما نفع إلا ما ضر. وقوله: (وإن يقاتلوكم) جزم، لانه شرط "ويولوكم" جزم لانه جزاء. وقوله: (ثم لا ينصرون) رفع على الاستئناف، ولم يعطف ليجري الثاني على مثال الاول، لان سبب التولية القتال. وليس كذلك منع النصر، لان سببه الكفر. والرفع أشكل برؤس الاي المتقدمة، وهو مع ذلك عطف جملة على جملة وفي الآية دلالة على النبوة، لوقوع مخبرها على ما تضمنته قبل وقوع مخبرها، لان يهود المدينة من بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع ويهود خيبر الذين حاربوه (صلى الله عليه وآله) والمسلمين ما قاتلوهم قط إلا ولوا الادبار منهزمين.

قوله تعالى:

(ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباعوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم

(٥٦٠)

كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (١١٢) آية بلا خلاف.

المعنى، واللغة، والاعراب:

قال الحسن: المعنى بقوله: "ضربت عليهم الذلة" اليهود أذلهم الله عز وجل، فلا عزلهم ولا منعة، وأدركتهم هذه الامة. وإن المجوس لتجبيهم الجزية " وضربت " مأخوذ من الضرب، وإنما قيل ضربت، لانها ثبتت عليهم كما ثبتت بالضرب كما أخذت منه الضريبة، لانها تثبت على صاحبها كما تثبت الضرب. وقوله: " أينما تقفوا " أي أينما وجدوا، يقال: يقفته أي

وجدته، ولقيته. فان قيل: كيف جاز عقابهم على ما لم يفعلوه من قتل الانبياء. وإنما فعله أسلافهم دونهم. قلنا:

عنه جوابان:

أحدهما - أنهم عوقبوا على رضاهم بذلك. وأجرى عليهم صفة القتل لعظم الجرم في رضاهم به، فكأنهم، فعلوه على نحو " يذبح أبناءهم " وإنما أمر به.

والثاني - أن تكون الصفة تعم الجميع، فيدخلوا في الجملة ويجري عليهم الوصف على التغليب كما يغلب المذكر على المؤنث إذا اجتماعاً، فكذلك غلب القاتل على الراضي. وقوله: (إلا بحبل من الله) فالحبل هو العهد من الله، وعهد من من الناس على وجه الذمة، وغيرها من وجوه الامان في قول ابن عباس، والحسن ومجاهد، وقتادة، والسدي، والربيع. وسمي العهد حبلاً، لانه يعقد به الامان كما يعقد بالحبل من حيث يلزم به الشئ كما يلزم بالحبل. وقال الاعشى:

فاذا تجوزها حبال قبيلة * أخذت من الاخرى اليك حبالها (١)

والعامل في الباء من قوله " إلا بحبل من الله " يحتمل أن يكون العامل محذوفاً المعنى إلا أن تعتصموا بحبل من الله على قول الفراء وأنشد:

" ١ " ديوانه: ٢٤ رقم القصيدة ٣ انظر ٢: ٥٤٥ من هذا الكتاب فثم تخريج البيت.

(٥٦١)

رأنتي بحبليها فصدت مخافة * وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق (١)

أراد رأنتي أقبلت بحبليها فحذف العامل في الباء وقال آخر: (٢)

قريب الخطو يحسب من رأني * ولست مقيداً أني بقيد (٣)

قال الرماني، على بن عيسى ما ذكره الفراء ضعيف من وجهين:

أحدهما - حذف الموصول وذلك لايحوز عند البصريين في شئ من الكلام لانه إذا احتاج إلى صلة تبيين عنه فالحاجة إلى البيان عنه بذكره أشد. وإنما يجوز حذف الشئ للاستغناء بدلالة غيره عليه، فلو دل دليل عليه لحذف مع صلته، لانه معها بمنزلة شئ واحد. والوجه الاخر أن الكلام إذا صح معناه من غير حذف لم يجز تأويله على الحذف. وقوله (إلا بحبل) قيل في هذا الاستثناء قولان:

أحدهما - أنه منقطع، لان الدلالة لازمة لهم على كل حال، فيجري مجرى قوله: " وما كان

لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ " (٤) فعامل الاعراب موجود والمعنى على الانقطاع. ومثله "

لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قبلاً سلاماً " (٥)

" ١ " قائله حميد بن ثور الهلالي ديوانه: ٣٥، ومعاني القرآن للفراء ١: ٢٣٠، واللسان (نسع)، (فرق)، (حبل) ورواية الديوان:

فجئت بحبليها فردت مخافة * إلى النفس روعاء الجنان فروق
ورواية اللسان مختلفة ففي مادة (حبل) مثل التبيان وفي مادة (فرق):
رأتني مجليها فصدت مخافة * وفي الخيل روعاء الفؤاد فروق
وفي مادة (نسع):

رأتني بنسعيها فردت مخافتني * إلى الصدر روعاء الفؤاد فروق
" ٢ " هو أبوالمحان القيني، حنظلة بن الشرقي من بني كنانة بن القين وهو؟
المعمرين. وقيل انه لعدي بن زيد. وقيل للسحاج بن سباع الضبي.

" ٣ " كتاب المعمرين: ٥٧ ومعاني القرآن للفراء ١: ٢٣٠، والاغاني طبعة دار؟ - بيروت - ٢: ٣١٣، ٣١٦،
وطبعة ليدن ١٢: ٣٤٧ وحماسة البحري: ٢٠٢ وامالي القالي ١: ١١٠ وامالي الشريف المرتضى ١: ٤٦، ٢٥٧
واللسان (ختل) وغيرها كثير.
" ٤ " سورة النساء آية: ٩١.

" ٥ " سورة الواقعة آية: ٢٥. وكان في المطبوعة " لا يسمعون فيها لغوا الا قليلا سلاما " والايات التي يحتمل أن
يستشهد بها الشيخ اثنتان الاولى هي التي أثبتناها، والثانية في سورة مريم آية: ٦٢ وهي " لا يسمعون فيها لغوا الا
سلاما ". ولا يوجد في القرآن آية مطابقة لما في المطبوعة الا بزيادة أو نقيصة.

(٥٦٢)

وكل انقطاع فيه فانما هو لازالة الايهام الذي فيه يلحق الكلام فقوله: " لا يسمعون فيها لغوا " قد
يتوهم أنه من حيث لا يسمعون فيها كلاما، فقيل لذلك " إلا قليلا سلاما " وكذلك " وما كان
لمؤمن أن يقتل مؤمنا " قد يتوهم أنه لا يقتل مؤمن مؤمنا على وجه، فقيل لذلك " إلا خطأ ".
وكذلك " ضربت عليهم الذلة " قد يتوهم أنه من غير جواز موادة، فقيل إلا بحبل من الله.
الثاني - أن الاستثناء متصل، لأن عز المسلمين عز لهم بالذمة، وهذا لا يخرجهم من الذلة في
أنفسهم. وقوله: " وباؤا بغضب من الله " أي رجعوا بغضب الله الذي هو عقابه ولعنه. وقوله:
(وضربت عليهم المسكنة) قيل اريد بالمسكنة الذلة لأن المسكين لا يكون إلا ذليلا فسمي الذليل
مسكينا. وقيل، لأن اليهود أبدا يتناقرون وان كانوا أغنياء لما رامهم الله به من الذلة. وقد بينا
فيما تقدم أن قوله:

" ويقتلون الانبياء بغير حق " (١) لا يدل على أن قتلهم يكون بحق وإنما المراد أن قتلهم
لا يكون إلا بغير حق، كما قال " ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به " والمراد ان ذلك
لا يكون إلا بغير برهان وكقول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره (٢)

ومعناه لامنار هناك فيهدى به وقوله: (يعتدون) قد بينا فيما تقدم معنى الاعتداء وهو أن معناه تجاوز الحد مأخوذ من العدوان.

قوله تعالى:

(ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) (١١٣) آية.

" ١ " سورة آل عمران آية ٢١ وسورة البقرة آية ٦١ ولكن هناك في الا؟

(النبيين) وفي هذه الآية (الانبياء).

" ٢ " انظ :٢ :٣٥٦

(٥٦٣)

النزول:

قال ابن عباس، وقتادة، وابن جريج سبب نزول هذه الآية أنه لما أسلم عبدالله بن سلام وجماعة معه قالت احبار اليهود ما آمن بمحمد إلا أشرارنا، فأنزل الله تعالى " ليسوا سواء " إلى قوله: " وأولئك من الصالحين ".

اللغة، والاعراب، والمعنى:

فان قيل لم ذكر مع سواء أحد الفريقين دون الاخر، ولايجوز مثله أن يقول سواء علي قيامك حتى يقول أم قعودك قلن عنه جوابان:

أحدهما - أنه محذوف لدلالة ما تقدم من الكلام عليه، كما قال أبو ذؤؤ؟:

عصاني إليها القلب إني لامرها * مطيع فما أدري أرشد طلابها؟

ولم يقل أم غي، لان الكلام يدل عليه، لانه كان يهواها فما يبالي أرشد أم غي طلابها. وقال آخر:

أراك فلا أدري أهم هممته * وذو الهم قدما خاشع متضائل

ولم يقل أم غيره، لان حاله في التغير ينبئ أن الهم غيره أم غيره مما يجري مجراه، وهذا قول الفراء، وضعفه الزجاج، وقال، ليس بنا حاجة إلى تقدير محذوف، لان ذكر أهل الكتاب قد جرى في قوله: " يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء " فتبين أن فيهم غير المؤمنين، فلا يحتاج أن يقدر وأمة غير قائمة.

الثاني - إن يكون ليسوا سواء منهم الجواد، والشجاع، فعلى القول الاول يكون رفع أمة على معنى الفعل، وتقديره لايستوي أمة هادية وأمة ضالة. وعلى القول الثاني يكون رفعها بالابتداء. وقال الطبري لا يجوز الاقتصار في سواء على أحد الذكرين دون الاخر. وإنما يجوز في ما أدري وما أبالي. قال الرماني: وهذا غلط، لانه ذهب عليه الفرق بين الاقتصار

والحذف لان الحذف لا بد فيه من خلف يقوم مقامه. والاقتصار ليس كذلك، لانه كالاقتصار على أحد المفعولين

(٥٦٤)

في أعطيت، وحذفه في حسبت مر تجلا أي لنا. والخلف فيه دلالة الحال، فأما أعطيت زيـدا، فلا محذوف فيه، لانه ليس معه خلف يقوم مقامه.

وقوله: (قائمة) فيه أربعة أقوال: قال الحسن وابن جريج معناه عادلة.

وقال ابن عباس، وقتادة، والربيع: معناه ثابتة على أمر الله. وقال السدي معناه قائمة بطاعة الله وقال الاخفش، والزجاج: معناه ذو أمة مستقيمة، وهذا ضعيف لانه عدول عن الظاهر في أمة والحذف لادلالة عليه. وقوله: (أناء الليل)

قبل في واحده قولان:

أحدهما - اني مثل نجي.

والثاني - اني مثل معي. وحكى الاخفش أنو، والجمع أناء. قال الشاعر:

حلو ومر كعطف القح مرته * بكل اني حذاه الليل ينتعل (١)

وروي ينتشر. وقال الحسن، والربيع، وعبدالله بن كثير معناه ساعات الليل. وقال ابن مسعود يريد صلاة العنمة، لان أهل الكتاب لا يعلمونها، وقال الثوري عن منصور هو الصلاة بين المغرب والعشاء. وقال السدي يعني جوف الليل. وقوله: (وهم يسجدون) فيه قولان: أحدهما - السجود المعروف في الصلاة.

الثاني - قال الفراء، والزجاج معناه يصلون. وبه قال البلخي، وغيره، لان القراءة لاتكون في السجود، ولا في الركوع، وهذا ترك للظاهر، وعدول عنه.

ومعنى الآية يتلون آيات الله أناء الليل وهم مع ذلك يسجدون، فليست الواو حالا وإنما هي عطف جملة على جملة، والضمير في قوله (ليسوا) عائد على أهل الكتاب، لتقدم ذكرهم، وقال أبو عبيدة هو على لغة أكلوني البراغيث. ومثله قوله:

١ قائله؟ الهذلي وقد نسبه بعضهم إلى المنخل السعدي.

ديوان الهذليين ٢: ٣٥ ومجاز القرآن ١: ١٠٢ وسيرة بن هشام ٢: ٢٠٦ ورواية اللسان (انى) والازهري عن ابن الأثير:

السالك الثغر مخشيا موارده *، بكل اني قضاه الليل ينتعل

وفي الديوان (حذاه) بدل (حذاه) فقط

(٥٦٥)

" عموا و صموا كثير منهم " (١) وقال الشاعر:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي * فاعرضن عني بالخدود النواضر (٢)

قال الرماني، وهذا غلط، لان هذه اللغة ردية في القياس والاستعمال أما القياس، فلان الجمع عارض، والعارض لا يؤكد علامته، لانه بمنزلة ما لا يعتد به، في سائر أبواب العربية وليس كالثابت للزومه فتقدم له العلامة لتؤذن به قبل ذكره ومع ذلك فجائز تركها فيه، فكيف بالعارض، ولزوم الفعل للفاعل يغني عن التثنية والجمع فيه، فلا يدخل جمع على جمع كما لا يدخل تعريف على تعريف. وأما الاستعمال، فلان أكثر العرب على خلافه.

قوله تعالى:

(يؤمنون بالله واليوم الآخر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات

وأولئك من الصالحين) (١١٤)

آية واحدة.

المعنى:

هذه الآية فيها صفة الذين ذكرهم في الآية التي قبلها في قوله: " أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون " فاضاف إلى ذلك أنهم مع ذلك يصدقون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد بينا أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، وأنه ليس طريق وجوبهما العقل، وإنما طريق وجوبهما السمع، وعليه إجماع الأمة. وإنما الواجب بالعقل كراهة المنكر، فقط غير أنه إذا ثبت بالسمع وجوبه، فعلى إزالة المنكر بما يقدر عليه من الامور الحسنة دون القبيحة، لانه لايجوز إزالة قبيح بقبيح آخر، وليس لنا أن نترك أحدا

" ١ " سورة المائدة آية: ٧٤.

" ٢ " شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك ١: ٣٩٩ وغيرها من كتب النحو كثير.

(٥٦٦)

يعمل بالمعاصي إذا أمكننا منعه منها سواء كانت المعصية من أفعال القلوب مثل اظهار المذاهب الفاسدة أو من أفعال الجوارح، ثم ننظر، فان أمكننا إزالته بالقول، فلا نزيد عليه، وإن لم يمكن إلا بالمنع من غير إضرار لم نزد عليه، فان لم يتم إلا بالدفع بالحرب، فعلناه على ما بيناه فيما تقدم، وان كان عند أكثر أصحابنا هذا الجنس موقوف على السلطان أو اذنه في ذلك. وانكار المذاهب الفاسدة، لا يكون إلا باقامة الحجج والبراهين والدعاء إلى الحق، وكذلك إنكار أهل الذمة فأما الانكار باليد، فمقصود على من يفعل شيئاً من معاصي الجوارح، أو يكون باغياً على إمام الحق، فانه يجب علينا قتاله ودفعه حتى يفى إلى الحق، وسبيلهم سبيل أهل

الحرب، فان الانكار عليهم باليد والقتال حتى يرجعوا إلى الاسلام أو يدخلوا في الذمة. وقوله: (ويسارعون في الخيرات) يحتتم أمرين:

أحدهما - أنهم يبادرون إليها خوف الفوات بالموت.

والثاني - يعملونها غير متتافلين فيها لعلمهم بجلالة موقعها، وحسن عاقبتها.
اللغة:

والفرق بن السرعة والعجلة ان السرعة هي التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه وهي محمودة وضدها الابطاء وهو مذموم. والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة وضدها الاناة وهي محمودة.

قوله تعالى:

" وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين " (١١٥) آية بلا خلاف.

القراءة والحجة والاعراب:

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر بالياء فيهما. الباقر بالتاء إلا أبا عمرو، فانه

(٥٦٧)

كان يخبر، ووجه القراءة بالياء أن يكون كناية عن تقدم ذكره من أهل الكتاب ليكون الكلام على طريقة واحدة، ووجه التاء أن يخلطهم بغيرهم من المكلفين، ويكون خطابا للجميع في أن حكمهم واحد.

وإنما جوزي ب (ما) ولم يجاز ب (كيف) لان (ما) أمكن من (كيف) لانها تكون معرفة ونكرة، لانها للجنس و (كيف) لاتكون إلا نكرة، لانها للحال والحال لاتكون إلا نكرة، لانها للفائدة واللغة والمعنى:

وقوله: (فلن يكفروه) مجاز كما أن الصفة لله بأنه شاكر مجاز. وحقيقته أنه يثيب على الطاعة ثواب الشاكر على النعمة، فلما استعير للثواب الشكر واستعبر لنقيضه من منع الثواب الكفر، لان الشكر في الاصل هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، والكفر ستر النعمة من المنعم عليه بتضييع حقها. ومعنى الآية فلن يمنعوا ثوابه، وسمي منع الجزاء كفرا، لانه بمنزلة الجحد له بستر، لان أصل الكفر الستر، ولذلك قيل لجاحد نعم الله ومن جرى مجراه في الامتناع من القيام بحقها: كافر، فالكافر هو المضيع لحق نعمة الله بما يجري مجرى الجحد.

وقوله: (والله عليم بالمتقين) إنما خص المتقين بالذكر، لان الكلام اقتضى ذكر جزاء المتقين، فدل على أنه لا يضيع شئ من عملهم، لان المجازي به عليم، وأنهم أمر أمرهم الفجار تعويلا على ما ذكره في غيرها من أي الوعيد.

قوله تعالى:

(إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (١١٦) آية.

المعنى:

لما ذكر تعالى أن عمل المتقين لن يضيع، وأنهم يجازون به، أستأنف حكم

(٥٦٨)

الكافرين، وبين انه " لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم " شيئاً من الله وإنما خص الاموال، والاولاد بالذكر في أنهم لا يغنون عن الكافر شيئاً وإن كان لا يغني عنهم غير هؤلاء أيضاً شيئاً، لانهما معتمد ما يقع به الاعتداد، ومما يعول عليه الانسان ويرجوه للشدائد ويفيد النفسي العام، لانه إذا لم يغن عنه من هو حقيق بالغناء لمنع من لا يعجزه شئ فغناء من دونه أبعد.
اللغة:

وقوله: (وأولئك أصحاب النار) إنما سموا أصحاب النار، للزومهم فيها كما يقال هؤلاء أصحاب الصحراء إذا كانوا ملازمين لها، وقد يقال أصحاب العقار بمعنى ملاكته وأصحاب الرجل أتباعه وأعوانه وأصحاب العالم من يعني به الاخذون عنه، والمتعلمون عنه، فالإضافة مختلفة. ومعنى " لن تغني عنهم " أي لن تدفع عنهم ضرر الولاء النازل بهم ولو قيل أغناه كذا عن كذا أفاد أن أحد الشئيين صار بدلاً من الآخر في نفي الحاجة، والغنى الاختصاص بما ينفي الحاجة، فان اختص بمال ينفي الحاجة، فذلك غنى. وكذلك الغنى بالجاء والاصحاب وغير ذلك، فأما الغنى في صفت الله فاخصاصه بكونه قادراً على وجه لا يعجزه شئ، وقولنا فيه: أنه غنى معناه أنه لايجوز عليه الحاجة.

وأصل النار النور، وهو مصدر. والنار جنس تجري مجرى الوصف في تضمنه معنى الاصل وزيادة عليه، لانها جسم لطيف فيه حرارة ونور. ومنه امرأة نوار أي نافرة عن الشر عفية، لانها كالنار في الامتاع. ومنه المنار الاعلام، لانها كالنور في البيان. ومنه المنارة التي يسرج عليها.

قوله تعالى:

(مثل ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته وما ظلمهم الله ولكن

(٥٦٩)

أنفسهم يظلمون) (١١٧) آية.

النزول:

قيل ان هذه الاية في أبي سفيان، وأصحابه يوم بدر، لما تظاهروا على النبي (ص) في الانفاق. وقيل بل نزلت في نفقة المنافقين مع المؤمنين في حروب المشركين على وجه النفاق للمؤمنين.

المعنى:

والمثل الشبه الذي يصير كالعلم لكثرة استعماله فيما مشبه به، فلما كان إنفاق المنافق والكافر ضائعا، ويستحق عليه العقاب والذم أشبه الحرث المهلك، فلذلك ضرب به المثل. وفي الاية حذف، وتقديرها مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك " ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم " فحذف الإهلاك لدلالة آخر الكلام عليه وفيه تقدير آخر، مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح، فيكون تشبيه ذلك الانفاق بالمهلك من الحرث بالرياح.

اللغة:

والريح جمعه رياح ومنه الروح، لدخول الريح الطيبة على النفس، وكذلك الارتياح. والتروح الراحة من التعب، لانه بمنزلة الروح الذي يدخل على النفس بزوال التعب. ومنه الاستراحة، والمراحة، لانها تجلب الريح. ومنه الروح، لانها كالريح في اللطاف؟ ومنه الرائحة، لان الريح تحملها إلى الحس، ومنه الرواح، لانه رجوع كالريح، للاستراحة. وقول: " فيها صر " قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والربيع، والسدي، وابن زيد، والضحاك: هو البرد وأصله الصوت من الصرير. قال الزجاج: الصر صوت لهب النار التي كانت في تلك الريح ويجوز أن يكون الصر صوت الريح الباردة

(٥٧٠)

الشديدة، وذلك من صفات الشمال، فانها توصف بان لها قعقة.

المعنى:

وقوله: (وما ظلمهم الله) نفي للظلم عن الله تعالى يعني في نفي استحقاقهم للثواب، واستحقاقهم للعقاب، وإن ذلك ليس بظلم منه تعالى " ولكن أنفسهم يظلمون " بذلك. وإنما وصفهم بأنهم ظلموا أنفسهم، لامرين:

أحدهما - أن ظلمهم اقتضى هلاك حرثهم عقوبة لهم، لانه لو هلك على جهة الابتلاء والمحنة لم يعتد بعاجل المضرة، للعوض الموفى عليه في العاقبة.

الثاني - أن يكونوا ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير موضع الزرع أو في غير وقت الزراعة، فجاءت الريح فأهلكته تأديبا من الله لهم في وضع الشئ غير موضعه الذي هو حقه.

وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) (١١٨)

آية بلا خلاف.

المعنى:

ذكر ابن عباس، الحسن: أن قوما من المؤمنين خافوا بعض المشركين في اليهود، والمنافقين المودة لما كان بينهم في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك بهذه الآية. والبطانة معناها ههنا خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره ويسمون دخلاء أي لا تجعلوا من هذه صفته من غير المؤمنين.

(٥٧١)

اللغة، والاعراب والبطن خلاف الظهر، فمنه بطانة الثوب خلاف ظهارته، لأنها تلي بطنه. وبطانة الرجل خاصته، لأنها بمنزلة ما يلي بطنه من ثيابه في القرب منه، ومنه البطنة وهو امتلاء البطن بالطعام. والبطان حزام البعير، لأنه يلي بطنه.

وقوله: (من دونكم) (من) تحتمل وجهين:

أحدهما - أن تكون دخلت للتبعيض، والتقدير لا تتخذوا بعض المخالفين في الدين بطانة. والثاني - أن يكون دخولها لتبيين الصفة كأنه قيل: لا تتخذوا بطانة من المشركين. وهو أعم وأولى، لأنه لا يجوز أن يتخذ مؤمن كافرا بطانة على حال وقال بعضهم إن (من) زائدة، وهذا ليس بجيد، لأنه لا يجوز أن يحكم بالزيادة مع صحة حملها على الفائدة. وقوله: (لا يألونكم خبالا) معناه لا يقصرون في أمركم خبالا من قولهم ما ألوت في الحاجة جهدا، ولا ألو الأمر ألوا أي لا أقصر جهدا. وقال الشاعر:

جهراء لاتألو إذا هي أظهرت * بصرا ولا من علية تغنيني (١)

أي لا تقصر بصرا ولا تبصر، لأنها جهراء تطلب ذلك، فلا تجده.

ومنه الآلية اليمين. ومنه قوله: " ولا يأنل أولو الفضل منكم " (٢) معناه لا يقصر، وقيل لا يحلف. والاصل التقصير والخبال معناه النكال. وأصله الفساد يقال في قوائمه خبل، وخبال أي فساد من جهة الاضطراب. ومنه الخبل الجنون، لأنه فساد العقل، ورجل مخبل الرأي أي فاسد الرأي. ومنه الاستخبال طلب إعادة المال لفساد الزمان.

" ١ " قائله أبو العيال الهذلي. ديوان الهذليين ٢. ٢٦٣، واللسان (ألا) و (جهر)

وهو من شعر في؟ بينه وبين بدر بن عامر الهذلي. الجهراء: هي التي لا تصر في الشمس.

(٥٧٢)

المعنى:

وقوله: (ودوا) معناه أحبوا " ما عنتم " معناه إدخال المشقة عليكم وقال السدي: معناه " ودوا " ضلالكم عن دينكم، لان الحمل بالضلال مشقة.
وقبل معناه " ودوا " أن يفتنوكم في دينكم أي يحملونكم على المشقة ذكره ابن جريج.
اللغة:

وأصل العنت المشقة: عنت الرجل عنتا إذا دخلت عليه المشقة. ومنه أكمة عنوت أي صعبة المسلك لمشقة السلوك فيها. وفلان يعنت فلانا أي يحمله على المشقة الشديدة في ما يطالبه به. ومنه قوله تعالى: " ولو شاء الله لا عنتكم " (١).

الاعراب، والمعنى:

وموضع ودوا يحتمل أن يكون نصبا لانه صفة لبطانة ويجوز أن يكون له موضع من الاعراب، لانه استئناف جملة. وقوله: (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي ظهر منها ما يدل على البغض " وما تخفي صدورهم أكبر قد بينالكم الايات " يعني العلامات " إن كنتم تعقلون " يعني موضع نفعه لكم ومبلغ عائدته عليكم. وقيل: معناه " إن كنتم تعقلون " الفصل بين ما يستحقه الولي والعدو.

قوله تعالى:

(ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قارا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) (١١٩) آية بلا خلاف.

(٥٧٣)

المعنى، واللغة، والاعراب:

هذا خطاب للمؤمنين أعلمهم الله تعالى أن منافقي أهل الكتاب لا يحبونهم وأنهم هم يصبحون هؤلاء المنافقين بالبر والنصيحة، كما يفعله المحب، وإن المنافقين على ضد ذلك، فأعلمهم الله مايسره المنافقون في باطنهم، وذلك من آيات النبي (صلى الله عليه وآله) قال الفراء: العرب إذا

جاءت إلى اسم مكنى قد وصف بهذا، وهذان، وهؤلاء، فرقوا بين (ها) وبين (ذا) فجعلوا المكنى منهما في جهة التقريب، لا غير يقولون:

أين أنت، فيقول القائل: هأنذا، ولا يكادون يقولون ها أنا. ومثله في التثنية والجمع. ومثله قوله: " ها أنتم أولاء تحبونهم " وربما أعادوها فوصلوها بذا، وهذان وهؤلاء، فيقولون ها أنت هذا قائما، وها أنتم هؤلاء. قال الله تعالى: " ها أنتم هؤلاء جادلتم " (١) فان كان الكلام على غير تقرب أو كان على خبر يكتفي كل واحد منهما بصاحبه بلا فعل، والتقريب لا بد فيه من فعل لنقصانه وأحبوا أن يفرقوا بين معنى التقريب، وبين معنى الاسم الصحيح، قال الازهري: يحتمل أولا أن يكون منادى كأنه قال يا أولاء. وقال نحاة البصريين (ها) للتثنية. وأنتم مبتدأ وأولاء خبره ويحبونهم حال. وقال الفراء: يحبونهم خبر.

وقال الزجاج: يجوز أن يكون أولاء بمعنى الذين ويحبونهم صلة ويكون التقدير الذين يحبونهم. ويجوز أن يكون حالا بمعنى " ها أنتم أولاء " محبين لهم. ويكون " أنتم مبتدأ وأولاء خبره. ويحبونهم حالا والمعنى انظروا إلى أنفسكم محبين لهم ولا يجوز أن تقول: ها قومك أولاء، كما جاز " ها أنتم أولاء "، لان المضمرة أحق ب (ها) التي للتثنية، لانه كالمبهم في عموم ما يصلح له. وليس كذلك الظاهر.

وقال الفراء: إنما ذاك على جهة التقريب في المضمرة، والاعتماد على غيره في الخبر. قال الحسن بن علي المغربي أولاء يعني به المناققين، كما تقول ما أنت زيدا يحبه، ولا يحبك. وهذا ملتح غير أنه يحتاج أن يقدر عامل في أولاء ينصبه، يفسره قوله:

(٥٧٤)

" يحبونهم " لانه مشغول لا يعمل فيما قبله كقوله: " والقمر قدرناه " (١) في من نصبه وأولاء للرجال، وللنساء أولات. وهو مبني على الكسر. وكان الاصل السكون والالف قبلها ساكنة فحرك لالتقاء الساكنين على أصل الكسرة. قوله:

(وتؤمنون بالكتاب كله) الكتاب واحد في موضع الجمع، لانه أريد به الجنس، كما يقال كثر الدرهم في أيدي الناس ويحتمل أن يكون مصدرا من قولك كتبت كتابا. والمراد بالكتاب ههنا كتب الله التي أنزلها على أنبيائه وفي إفراده ضرب من الأيجاز، وأشعار بالتفصيل في الاعتقاد، لانهم يؤمنون بها في الجملة. والتفصيل من حيث يؤمنون بما أنزل على ابراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد (صلى الله عليه وآله) وسائر الانبياء. وقوله: " وإذا لقوكم قالوا آمنا " معناه إذا رأوكم قالوا صدقنا " وإذا خلوا " مع أنفسهم " عضوا عليكم الانامل من الغيظ " فالعض بالاسنان. ومنه العض علف الامصار، لان له مضغة في العض يسمن عليها المال. ومنه رجل عض: لزاز الخصم، لانه يعض بالخصومة. وكذلك رجل عض فحاش، لانه يعض بالفحش والانامل أطراف الاصابع في قول قتادة، والربيع، وأصلها النمل المعروف، فهو مشبه به في الرقة، والتصرف بالحركة. ومنه رجل نمل أي نام، لانه ينقل الاحاديث الكرهة كنقل النملة في الخفاء والكثرة. وواحد الانامل أنملة. وقال الزجاج ولم يأت على هذا المثال ما يعني به الواحد لإشذ، فأما الجمع، فكثير نحو أفلس وأكعب وقوله: (قل موتوا بغيظكم) معناه الامر بالدعاء عليهم. وإن كان لفظه لفظ الامر، كأنه قال قل: أماتكم الله بغيظكم وفيه معنى الذم لهم، لانه لا يجوز أن يدعا عليهم هذا الدعاء إلا وقد استحقوه بقبيح ما أتوه. قوله تعالى:

(إن تمسكم حسنة تسوءهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون

" ١ " سورة يس آية: ٣٩.

(٥٧٥)

محيط) (١٢٠) آية بلا خلاف.

قرأ عمرو، ونافع، وابن كثير " لا يضركم " خفيفة. الباقرن مشددة الراء. وهما لغتان ضاره يضيره، وضره يضره ضرا بمعنى واحد. قوله: " إن تمسكم " حسنة فالمراد بالحسنة ههنا ما أنعم الله عليهم به من الالفة والغلبة باجتماع الكلمة، والمراد بالسيئة المحنة باصابة العدو منهم لاختلاف الكلمة، وما يؤدي إليه من الفرقة هذا قول الحسن، وقاتادة والربيع وابن جريج.

وقوله: (وإن تصبروا وتتقوا) يعني تتقوا الله بامتناع معاصيه، وفعل طاعاته " لا يضركم كيدهم " فالكيد المكر الذي يغتال به صاحبه من جهة حيلة عليه ليقع في مكروه به، وأصله المشقة تقول: رأيت فلانا يكيد بنفسه أي يقاسي المشقة في سياق المنية، ومنه المكيدة لايراد ما فيه المشقة. والمكيدة الحيلة لايقاع ما فيه المشقة. وقوله: (لا يضركم) مبني على الضم نحو مذ ولوفتح أو كسر لكان جائزا في العربية وزعم بعضهم أنه رفع على حذف الفاء بتقدير، فلانا يضركم وأنشد:

فان كان لا يرضيك حتى تردني * إلى قطري لا أخالك راضيا (١)

وهذا ضعيف، لان الحذف إنما يجوز، لضرورة الشعر والقرآن لا يحمل على ضرورة الشعر. وقوله: (إن الله بما تعملون محيط) معناه عالم به من جميع جهاته مقتدر عليه. قوله تعالى:

" وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم " (١٢١) آية.

" ١ " قائله سوار بن المضرب السعدي التميمي. نوادر أبي زيد: ٥٤، ومعاني القرآن للفراء ١: ٣٢؟، وحماسة ابن الشجري: ٥٤، ٥٥.

(٥٧٦)

المعنى، اللغة، والاعراب قال ابن عباس، وقتادة والربيع، والسدي، وابن اسحق، وهو قول أبي جعفر (ع): كان غدو النبي (صلى الله عليه وآله) مبنوًا للمؤمنين يوم أحد، وقال الحسن ومجاهد: كان يوم الاحزاب.

النبوة اتخاذ المواضع لصاحبه وأصلها اتخاذ منزل تسكنه، تقول بوأته منزله أبوئه تبوئة، ومنه المباءات المراح، لانه رجوع إلى المستقر المتخذ وأبأت الابل أبيتها اباءة إذا رددتها إلى المباءة. ومنه بوأت بالذنب أي رجعت به محتملا له.

وقوله: " والله سميع عليم " قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها انه تهدد والمراد " سميع " لما يقول المنافقون " عليم " بما يضمرون.

الثاني - " سميع " لما يقوله النبي (صلى الله عليه وآله) للمؤمنين " عليم " بما؟

تركيبه له (صلى الله عليه وآله).

الثالث - " سميع " ما يقوله المشيرون عليك " عليم " بما يضمرونه، لانهم اختلفوا، فمنهم من أشار بالخروج، ومنهم ومن أشار بالمقام. وفيه تركيبة للزاكي وتهدد للغاوي. ومعنى " تبوء المؤمنون " مثل تبوء للمؤمنين حذف اللام، كما قال " ردف لكم " (١) ويجوز ردفكم، فاذا

عداه، فعناه رتب المؤمنين على مواضعهم قدمة. وإذا لم يتعد فمعناه تتخذ لهم مواضع. ومثله قول الشاعر:

استغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد إليه الوجه والعمل (٢)
ومعناه من ذنب، والعمل في (إذ) محذوف، وتقديره واذكر إذ غدوت من أهلك فحذف لدلالة الكلام عليه ولا يجوز أن يكون العامل غدوت، لأنه مضاف إليه بمنزلة الصلة له.

سورة النمل آية ٧٢.

" ٢ " معاني القرآن للفراء ١: ٢٣٣ وسيبويه ١: ١٧ والخزانة ١: ٤٨٦ وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٥٧٧)

قوله تعالى:

(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١٢٢) آية. التقدير واذكر " إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا " وقال الزجاج العامل في (إذ) " همت أن تفشلا " والمعنى كانت النبوة في ذلك الوقت. والطائفتان:

هما بنو سلمة وبنو حارثة حيان من الانصار في قول ابن عباس، وجابر بن عبدالله: الحسن وقتادة، ومجاهد، والربيع، والسدي، وابن اسحاق، وابن زيد، وأبي جعفر وأبي عبدالله (ع). وقال الجبائي: هما قوم من المهاجرين، والانصار.

والفشل الجبن في قول ابن عباس نقول فشل يفشل فشلا. والجبن ليس من فعل الانسان وتحقيقه على هذا همت بحال الفشل إلا أنه وضع كلام موضع كلام. وليس في الآية أن همتما بالفشل كان معصية، لأنه قد يكون من غير عزم على حال الفشل بل بحديث النفس به، ومن قال كان معصية قال هي صغيرة، لقوله " والله وليهما " وروي عن جابر بن عبدالله أنه قال فينا نزلت وما أحب أنها لم تكن، لقوله:

" والله وليهما " وكان سبب همهم بالفشل في قول السدي، وابن جريج أن عبدالله ابن أبي بن سلول دعاهما إلى الرجوع إلى المدينة عن لقاء المشركين يوم أحد فهما به ولم يفعلاه وقال أبو علي: بل كان ذلك باختلافهم في الخروج إلى العدو أو المقام حتى هموا بالفشل. والتاء مدغمة في الطاء في قوله: " إذ همت طائفتان " لأنها من مخرجها فصارت بمنزلتها مع مثلها نحو همت تفعل ومثله " وقالت طائفة " (١)

ويجوز أيضا إدغام الطاء في التاء إلا أنك تبقى الاطباق نحو " احطت بما لم تحط " (٢) والاول أحسن.

" ١ " سورة الاحزاب آية: ١٣. " ٢ " سورة النمل آية: ٢٢.

(٥٧٨)

قوله تعالى:

" ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون " (١٢٣) آية.

النزول واللغة:

هذه الآية نزلت في وصف ما من الله تعالى على المؤمنين من النصر والامداد بالملائكة وظفر المؤمنين بالمشركين مع قلة المؤمنين وقوة المشركين. فانه روي عن ابن عباس (ره) أنه قال كان المهاجرون يوم بدر سبعة وسبعين رجلا والانصار مئتين وستة وثلاثين رجلا الجميع ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا. وكان المشركون نحوا من ألف رجل.

وبدر ما بين مكة والمدينة وقال الشعبي سمي بدرا لان هناك ماء لرجل يسمى بدرا، فسمي الموضع باسم صاحبه. وقال الواقدي عن شيوخه إنما هو اسم للموضع كما يسمى كل بلد باسم يخصه من غير أن ينقل إليه اسم صاحبه.

وقوله: (وأنتم أذلة) جملة في موضع الحال. والذلة الضعف عن المقاومة، وضدها العزة، وهي القوة على الغلبة، ويقال للجمل المنقاد من غير صعوبة: ذلول لانقياده انقياد الضعيف، فأما الدليل فانما ينقاد على مشقة. ومنه تذليل الطريق، ونحوه، وهو توطئة الاصل. وفيه الضعف عن المقاومة. وقوله: " أذلة " جمع ذليل وفعل قياسه أن يجمع على فعلاء إذا كان صفة، مثل ظريف وظرفاء، وكريم وكرماء، وعليم وعلماء، وشريك وشركاء، فجمع على أفعلة كراهية التضعيف، فعدل إلى جمع الاسماء نحو قفيز وأقفرة، فقيل ذليل وأذلة وعزيز وأعزة. المعنى:

ووصفهم الله بأنهم أذلة لانهم كانوا ضعفاء قليلي العدد قليلي العدة. وروي عن بعض السلف الصالح أنه قرأ " وأنتم ضعفاء " قال ولايجوز وصفهم بأنهم أذلة،

(٥٧٩)

وفيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وكان صاحب راية رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم بدر أمير المؤمنين علي بن طالب (ع). وصاحب راية الانصار سعد بن عباد. وقوله " فاتقوا الله " معناه اتقوا معاصيه واعملوا بطاعته. ويجوز أن يكون المراد اتقوا عقاب الله بترك المعاصي، والعمل بطاعته، لان أصل الاتقاء هو الحجز بين الشيين بما يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر كما تقول اتقاه بالترس

أو غيره، ووجه ادخال هذه الآية وهي متعلقة بقصة بدر بين قصة أحد أن الله تعالى وعد المؤمنين النصر يوم أحد إن صبروا وثبتوا أن يمدهم بالملائكة كما نصرهم يوم بدر، وأمدهم بالملائكة فلما لم يصبروا وتركوا مراكزهم أصاب العدو منهم ما هو معروف.
قوله تعالى:

" إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين " (١٢٤) آية بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وحده منزلين بتشديد الزاي الباقون بالتخفيف. التقدير اذكروا " إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم " وفيه إخبار أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لقومه: ألن يكفيكم يوم بدر بأن أمدكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، ثم قال " بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين " يعني يوم أحد. وقال ابن عباس، والحسن وقتادة، ومالك بن ربيعة وغيرهم: ان الامداد بالملائكة كان يوم بدر. وقال ابن عباس لم يقائل الملائكة (ع) إلا يوم بدر، وكانوا في غيره من الايام عدة ومددا.
وقال الحسن: كان جميعهم خمسة آلاف. وقال غيره: كانوا ثمانية آلاف.
اللغة:

وقوله: " ألن يكفيكم " فالكفاية مقدار يسدبه الخلة تقول: كفاه يكفيه كفاية، فهو كاف: إذا قام بالامر، واستكفيته أمرا فكفاني، واكتفى به اكتفاء.

(٥٨٠)

وكفاك هذا الامر أى حسبك. والفرق بين الاكتفاء والاستغناء، أن الاكتفاء هو الاقتصار على ما ينفي الحاجة والاستغناء الاتساع فيما ينفي الحاجة، فلذلك يوصف تعالى بأنه غني بنفسه لاتساع مقدوره من حيث كان قادرا لنفسه لا يعجزه شئ.

وقوله: " أن يمدكم " فالامداد هو إعطاء الشئ حالا بعد حال. والمعني في الآية ان الله أعطاهم القوة في أنفسهم ثم زادهم قوة بالملائكة والمد في السير هو الاستمرار عليه. وامتد بهم السير: إذا طال، واستمر، ومددت الشئ إذا جذبتة. والمد زيادة الماء تقول: مد الماء وأمد الجرح وامتدت العسكر. والمادة زيادة مستمرة، والمدة أوقات مستمرة إلى غاية. والمداد ما يكتب به. والمد مكيال مقداره ربع الصاع.

قوله تعالى:

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) (١٢٥) آية.

القراءة والمعنى:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم " مسومين " بكسر الواو. الباقون بفتحها. والقراءة بالكسر أقوى، لأن الاخبار وردت بأنهم سوموا خيلهم بعلامة جعلوها عليها. وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك: كانوا علموا بالصوف في نواصي الخيل وأذنايها. وروى هشام عن عروة قال: نزلت الملائكة يوم بدر على خيل بلق وعليهم عمائم صفر. قال السدي، وغيره من أهل التأويل: معنى " مسومين " معلمين. اللغة، والمعنى:

ومن قرأ بالفتح أراد معنى مرسلين من الابل السائمة يعني المرسل في المرعي

(٥٨١)

والسيما العلامة قال الله تعالى " سيماهم في وجوههم من أثر السجود " (١) فالتسويم العلامة قال الشاعر:

مسومين بسيما النار أنفسهم * لا مهتدين ولا بالحق راضينا
وأصل الباب السوم في المرعي، وهو الاستمرار فيه فمنه السيماء، لانهم كانوا يعلمونها:
إذا أرسلت في المرعي لئلا تختلط، ومنه السوم في البيع، ومنه سوم الرياح استمرارها في هبوبها. ومنه سوم الخسف، لانه استمرار في إلزام الشر.
وقوله: " ومن فورهم " قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والربيع، والسدي وابن زيد: معناه من وجههم. وقال مجاهد والضحاك وأبو صالح من غضبهم، فعلى القول الاول إنما هو فور الانتداب لهم، وهو ابتداءه، وعلى القول الثاني فور الغضب، وهو غليانه.
وأصل الفور فور القدر، وهو غليانه عند شدة الحمى، فمنه فورة الغضب، لانه كفور القدر بالحمى، ومنه جاء فلان على الفور أي على أشد الحمى، لفعله قبل أن تبرد نفسه. ومنه فارت العين بالماء أي جاشت به ومنه الفوارة، لانها تفور بالماء كما تفور القدر بما فيها. فان قيل: كيف قال في الاية الاولى ان لامداد بثلاثة آلاف، وفي هذه بخمسة آلاف. وهذا ظاهر التناقض؟! قلنا: لا تناقض في ذلك لان في الاية الاولى وعد الله المؤمنين على لسان نبيه بأن يمدهم بثلاثة آلاف منزلين ثم قال " بلي إن تصبروا وتتقوا " يعني تصبروا على الجهاد، والقتال، وتتقوا معاصي الله " ويأتوكم من فورهم " وهذا يعني ان رجعوا إليكم، لان الكفار في غزاة أحد بعد انصرفهم ندموا لم لم يعبروا على المدينة وهموا بالرجوع، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يأمر أصحابه بالتهيؤ للرجوع إليهم. وقال لهم " ان يمسسكم قرنح فقد مس القوم قرح مثله " (٢) ثم قال إن صبرتم على الجهاد وراجعت الكفار، وأمدكم الله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، فأخذوا في

" ١ " سورة الفتح آية: ٢٩.

" ٢ " سورة آل عمران آية: ١٤٠.

(٥٨٢)

الجهاز فبلغ ذلك قريشا فخافوهم أن يكون قد التأم اليهم من كان تأخر عنهم وانضم إليهم غيرهم، ففسدوا نعيم بن مسعود الأشجعي حتى قصدهم بتعظيم أمر قريش واسرعوا. والقصة معروفة ولذلك قال قوم من المفسرين: ان جميعهم ثمانية آلاف وقال الحسن جميعهم خمسة آلاف منهم الثلاثة آلاف المنزلين على أن الظاهر يقتضي أن الامداد بثلاثة آلاف كان يوم بدر، لان قوله: " إذ تقول للمؤمنين " متعلق بقوله: " ولقد نصركم الله ببدر " " إذ تقول للمؤمنين أن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين " ثم استأنف حكم يوم أحد، فقال:

" بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم " يعني رجعوا عليكم بعد انصرفهم امدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. والقصة في ذلك معروفة على ما بيناه وعلى هذا لا تنافي بينهما، وهذا قول البلخي رواه عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال: لم يمدوا يوم أحد ولا بملك واحد. فان قيل لم لم يمدوا بالملائكة في سائر الحروب؟ قلنا: ذلك تابع للمصلحة فاذا علم الله المصلحة في إمدادهم أمدهم. قوله تعالى:

(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) (١٢٦) آية.

الهاء في قوله: " وما جعله الله " عائدة على ذكر الامداد والوعد فيعود على معلوم بالدلالة عليه غير مذكور باسمه لان يمدد يدل على الذكر للامداد ومثله " إذ عرض عليه بالعشي الصا؟ الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب " (١) أي الشمس. وقال لبيد:

حتى إذا ألفت يدا في كافر * وأجن عورات الثغور وظلامها (٢)
أي ألفت الشمس فرد الضمير إلى معلوم ليس بمذكور. وقال قوم: ان الضمير

" ١ " سورة ص آية: ٣٢.

" ٢ " دائرة المعارف لوجدي. وغيرها. الكافر: الليل والاجنان: الستر والثغر:

موضع المخافة.

(٥٨٣)

راجع إلى الامداد نفسه. والاول أقوى لان البشرى في صفات الانزال وذلك يليق بذكر الامداد. والفرق بين قوله: " ولتطمئن قلوبكم به " وقوله واطمئنا قلوبكم، أن الوعد في أحدهما اطمئنان، وفي الاخر سببه الا؟، فهو أشد في تحقيق الكلام من أجل دخول اللام. وقوله: " وما النصر إلا من عند الله " معناه أن الحاجة لازمة في المعونة وان امدهم بالملائكة فانهم لا يستغنون عن معونته طرفة عين في تقوية قلوبهم وخذلان عدوهم بضعف قلوبهم إلى غير ذلك من الامور التي لاقوام لهم إلا بها ولا متكل لهم إلا عليها. فان قيل: كيف قال " وما النصر إلا من عند الله " وقد ينصر المؤمنون بعضهم بعضا وبعض المشركين بعضا؟ قلنا: لان نصر بعض المؤمنين بعضا من عبدا لله لانه بمعونته وحسن توفيقه، وأما نصر المشركين بعضهم، لبعض، فلا يعتد به، لانه بخذلان الله من حيث أن عاقبته إلى شر مآل من العقاب الدائم. وقوله " العزيز الحكيم " معناه ههنا العزيز في انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين، الحكيم في تدبيره للعالمين ليعلمهم بأن حربهم للمشركين يجري على اعزاز الدين، والحكمة في تدبير المكلفين ومعنى العزيز المنيع باقتداره.

قوله تعالى:

(ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين)

(١٢٧) آية.

المعنى:

قوله: " ليقطع طرفا من الذين كفروا " يحتمل أن يتصل بثلاثة أشياء:

أحدها - " وما النصر إلا من عند الله ليقطع طرفا من الذين " .

الثاني - بقوله ولقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفا.

الثالث - ذلك التدبير ليقطع طرفا.

(٥٨٤)

واليوم الذي قطع فيه الطرف من الذين كفروا: هو يوم بدر بقتل صناديدهم ورؤسائهم وقادتهم

إلى الكفر في قول الحسن، والربيع، وقتادة. وقال السدي:

هو يوم أحد قتل منهم ثمانية عشر رجلا. وإنما قال: " ليقطع طرفا " منهم ولم يقل ليقطع

وسطا منهم، لانه لا يوصل إلى الوسط منهم إلا بعد قطع الطرف ومثله " قاتلوا الذين يلونكم "

(١) والمراد بالاية ليقطع قطعة منهم.

اللغة:

وقوله: " أو يكبتهم " فالكبت الخزي. ومعناه أو يخزيهم في قول الربيع، وقتادة. وقال الخليل:
الكبت صرع الشئ على وجهه كبتهم الله فانكبتوا.

وحقيقة الكبت شدة وهن يقع في القلب فربما صرع الانسان لوجهه للخور الذي يدخله. وقوله:
" فينقلبوا " أي فيرجعوا " خائبين " الخائب المنقطع عما أمل، ولا تكون الخيبة إلا بعد الأمل،
لأنها امتناع نيل ما أمل. واليأس قد يكون قبل الأمل ويكون بعده. واليأس والرجاء نقيضان
يتعاقبان كتعاقب الخيبة والظفر، يقال: خاب يخيب خيبة وخيبة الله تخيبيا. والخبية حرمان
المراد.

قوله تعالى:

(ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) (١٢٨) آية بلا خلاف.

القصة، والمعنى:

روي عن أنس بن مالك وابن عباس، والحسن، وقتادة، والربيع: انه لما كان من المشركين يوم
أحد من كسر رباعية النبي (صلى الله عليه وآله) وشجه حتى جرت الدماء على وجهه، قال كيف
يفلح قوم نالوا هذا من نبيهم، وهو مع ذلك حريص على

" ١ " سورة التوبة آية: ١٢٤.

(٥٨٥)

دعائهم إلى ربهم، فنزلت هذه الآية، فأعلمه الله أنه ليس إليه فلاحهم وأنه ليس إليه إلا أن يبلغ
الرسالة ويجاهد حتى يظهر الدين. وكان الذي كسر رباعيته وشجه في وجهه عتبة بن أبي
وقاص، فدعا (ع) عليه الا يحول عليه الحول حتى يموت كافرا، فمات كافرا قبل حول الحول.
وقيل: انه هم بالدعاء عليهم، فنزلت الآية تسكيناله، فكف عن ذلك. وقال أبو علي الجبائي: انه
استأذن ربه يوم أحد في الدعاء عليهم، فنزلت الآية، فلم يدع عليهم بعذاب الاستئصال وإنما لم
يؤذن فيه لما كان في المعلوم من توبة بعضهم، وإنابته، فلم يجز أن يقتطعوا عن التوبة بعذاب
الاستئصال. فان قيل كيف قال " ليس لك من الأمر شئ " مع أن له أن يدعوهم إلى الله ويؤدي
إليهم ما أمره بتبليغهم؟ قيل: لان معناه ليس لك من الأمر شئ في عقابهم أو استصلاحهم حتى
تقع إنابتهم، فجاء الكلام على الإيجاز، لان المعنى مفهوم لدلالة الحال عليه وأيضا فانه لا يعتد
بما له في تدبيرهم مع تدبير الله لهم، فكأنه قال ليس لك من الأمر شئ على وجه من الوجوه.

وقوله: " أو يتوب عليهم " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أو يُلطف لهم بما يقع معه توبتهم، فيتوب عليهم بلطفه لهم.

والاخر - أو يقبل توبتهم إذا تابوا، كما قال تعالى " غافر الذنب وقابل التوب " (١) ولا تصح هذه الصفة إلا الله عزوجل، لانه يملك الجزاء بالثواب، والعقاب. فان قيل: كيف قال " أو يعذبهم " مع ما في المعلوم من أن بعضهم يؤمن؟ قيل: لانهم يستحقون ذلك باجرامهم بمعنى أنه لو فعل بهم لم يكن ظلما، وان كان لايجوز أن يقع لوجه آخر يجري مجرى تقيتهم لاستصلاح غيرهم. وقيل في نصب " أو يتوب عليهم " وجهان: أحدهما - أنه بالعطف على " ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم " " أو يتوب عليهم أو يعذبهم " ويكون " ليس لك من الامر شئ " اعتراضا بين المعطوف والمعطوف عليه كما تقول: ضربت زيدا فانهم ذلك وعمرا.

" ١ " سورة المؤمن آية: ٣.

(٥٨٦)

الثاني أن تكون أو بمعنى إلا أن، كأنه قال: ليس لك من الامر شئ " إلا أن يتوب عليهم أو يعذبهم فيكون أمرك تابعا لامر الله برضاك بتدبيره فيه قال امرؤ القيس:
فقلت له: لا تيك عينك إنما * نحاول ملكا أو نموت فنعدرا (١)
أراد إلا أن نموت أو حتى نموت.
قوله تعالى:

(ولله ما في السماوات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم)
(١٢٩) آية بلا خلاف.

عموم قوله: " والله ما في السماوات وما في الارض يقتضي أن له تعالى ملك ما في السماوات، وما في الارض، وأن له التصرف فيهما كيف شاء بلا دافع، ولا مانع، غير أنه لا بد من تخصيص هذا العموم من حيث أنه ينزه عن الصاحبة والولد على كل وجه. ووجه ما قلناه. وانما ذكر لفظ (ما) لانه أعم من (من)

لانها تتناول ما يعقل، وما لا يعقل، لانه تفيد الجنس ولو قال من في السماوات ومن في الارض لم يدخل فيه إلا العقلاء إلا أن يحمل على التغليب وذلك ليس بحقيقة. وقوله: " يغفر لمن يشاء " دليل على أن حسن العفو عن مستحق العذاب، وان لم يتب لانه لم يشترط فيه التوبة. وقوله: " ويعذب من يشاء " يعني ممن يستحق العذاب، لان من لا يستحق العذاب لايشأ عذابه، لانه ظلم يتعالى الله عن ذلك وفي ذلك دلالة على جواز العفو بلا توبة، لانه علق عذابه بمشيئته، فدل على أنه لو لم يشأ، لكان له ذلك، ولا يلزم على ما قلناه الشك في جواز غفران عقاب الكفار، لان ذلك أخرجناه من العموم بدلالة إجماع الامة على أنه لا يغفر

" ١ " ديوانه: ٨٩ يقول: انا نطلب الملك فان وصلنا اليه والا نبقي في طلبه حتى نموت.
دونه وهذا؟

(٥٨٧)

الشرك. وبقوله: " ان الله لا يغفر أن يشرك به " (١) ولولا ذلك لكنا نجوز العفو عنهم أيضا
ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما قال ليس لك من الامر شئ عقب ذلك بأن الامر كله
لله في السماوات والارضين.
قوله تعالى:

" يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلمكم تفلحون " (١٣٠) آية.
النظم، والمعنى:

لما ذكر الله تعالى أن له عذاب من يشاء، والعفو عن من يشاء، وصل ذلك بالنهاي عما لو فعلوه
لا استحقوا عليه العقاب، وعذبوا عليه، وهو الربا، والربا المنهي عنه قال عطاء، ومجاهد: هو
ربا الجاهلية، وهو الزيادة على أصل المال بالتأخير عن الاجل الحال. ويدخل فيه كل زيادة
محرمة في المعاملة من جهة المضاعفة، ووجه تحريم الربا هو المصلحة التي علمها الله
تعالى. وقيل فيه وجوه على وجه التقريب: منها للفصل بينه وبين البيع. ومنها - أنه مثال
العدل يدعو إليه ويحض عليه. ومنها - أنه يدعو إلى مكارم الاخلاق بالاقراض وانظار
المعسر من غير زيادة.

وهذا الوجه روي عن أبي عبدالله (ع). وقوله: " أضعافا مضاعفة " قيل في معناه ههنا قولان:
أحدهما - للمضاعفة بالتأخير أجلا بعد أجل كلما أخر عن أجل إلى غيره زيد عليه زيادة على
المال الثاني - " أضعافا مضاعفة " أي يضاعفون في أموالكم. وقيل في تكرير تحريم الربا
ههنا مع ما تقدم في قوله: " وأحل الله البيع وحرم الربا " (٢) وغير ذلك قولان:

" ١ " سورة النساء آية: ٤٧، ١١٥. " ٢ " سورة البقرة آية: ٢٧٥.

(٥٨٨)

أحدهما - للتصريح بالنهاي عنه بعد الاخبار بتحريمه لما في ذلك من تصريف الخطر له وشدة
التحرز منه.

الثاني - لتأكيد النهي عن هذا الضرب منه الذي يجري على الاضعاف المضاعفة.

وقوله: " واتقوا الله " معناه اتقوا معاصيه. وقيل: " اتقوا عذابه بترك معاصيه " لعلمكم تفلحون
" ، لكي تتجحوا بادراك ما تأملونه، وتفوزوا بثواب الجنة، لان (لعل) وان كان للشك، فان ذلك
لايجوز على الله تعالى. وقد بينا لذلك نظائر فيما مضى.
قوله تعالى:

(واتقوا النار التي أعدت للكافرين (١٣١) واطيعوا الله والرسول لعلمكم ترحمون) (١٣٢) آيتان
بلا خلاف.
المعنى:

فان قيل كيف قال " واتقوا النار التي أعدت للكافرين " وعندكم يجوز أن يدخلها الفساق أيضا.
وعند المعتزلة كلهم يدخلها الفساق قطعا. وهلا قال: أعدت للجميع؟ قلنا أما على ما نذهب
إليه، ففائدة ذلك اعلامنا أنها أعدت للكافرين قطعا. وذلك غير حاصل في الفساق، لانا نجوز
العفو عنهم. ومن قال أعدت للفساق قال اضيفت إلى الكافرين، لانهم أحق بها. وإن كان
الجميع يستحقونها، لان الكفر أعظم المعاصي فاعدت النار للكافرين. ويكون غيرهم من
الفساق تبعاً لهم في دخولها. فان قيل: فعلى هذا هل يجوز أن يقال: ان النار أعدت لغير
الكافرين من الفاسقين؟ قلنا عن ذلك أجوبة:

أحدها - قال الحسن يجوز ذلك، لانه من الخاص الذي معه دلالة على العام، كما قال: " يوم
تبييض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم

(٥٨٩)

بعد إيمانكم " (١) وليس كل من دخل النار كفر بعد إيمانه. ومثله قوله: " كلما القي فيها فوج
سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير " (٢) وليس كل الكفار يقول ذلك. ومنه قوله: " فكبكبوا فيهاهم
والغاوون وجنود ابليس أجمعون. قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ
نسويكم برب العالمين " (٣) وليس كل الكفار سوا الشياطين برب العالمين.

والثاني - أنه لا يقال أعدت لغيرهم من الفاسقين، لان اعدادها للكافرين من حيث كان عقابهم
هو المعتمد وعقاب الاخرين له تبع، كما قال: " وجنة عرضها السموات والارض أعدت
للمتقين " (٤) ولا خلاف أنه يدخلها الاطفال والمجانين إلا أنهم تبع للمتقين، لانه لولاهم لم
يدخلوها. ولا يقال: إن الجنة أعدت لغير المتقين.

الثالث - أن تكون هذه النار نارا مخصوصة فيها الكفار خاصة دون الفساق وان كان هناك
نار أخرى يدخلها الفساق، كما قال: " لا يصلها إلا الاشقى الذي كذب وتولى " (٥) وكما
قال: " إن المنافقين في الدرك الاسفل من النار " (٦)

وهذا قول أبي علي. واستدل البلخي بهذه الآية على أن الربا كبيرة، لأن تقديره " واتقوا النار التي أعدت للكافرين " ان يأكلوا الربا، فيستحقونها. والاجماع حاصل على أن الربا كبيرة، فلا يحتاج إلى هذا التأويل، لأن الآية يكمن أن يقول قائل: إنها بمعنى الزجر والتحذير عن الكفر، فقط وقوله: " أعدت " فالاعداد هو تقديم عمل الشئ لغيره مما هو متأخر عنه وقد قدم فعل النار ليصلها الكفار. والاعداد والايجاد والتهيئة والتقدمة متقاربة المعنى وقوله: " واطيعوا الله والرسول ": أمر بالطاعة لله ورسوله. والوجه في الأمر بالطاعة لله ورسوله مع إن العقل دال عليه يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون ذلك تأكيدا لما في العقل، كما وردت نظائره، كقوله:

" ١ " سورة آل عمران آية: ١٠٦ " ٢ " سورة الملك آية: ٨.
" ٣ " سورة الشعراء آية: ٩٤ - ٩٨ " ٤ " سورة آل عمران آية: ١٣٣ " ٥ " سورة الليل: ١٥ - ١٦ " ٦ " سورة النساء آية: ١٤٤

(٥٩٠)

" ليس كمثل شئ " (١) " ولا تدركه الابصار " (٢) وغير ذلك.
والثاني - لا اتصاله بأمر الربا الذي لاتجب الطاعة فيه إلا بالسمع، لأنه ليس مما يجب تحريمه عقلا كما يجب تحريم الظلم بالعقل، فان قيل: إذا كانت طاعة الرسول طاعة الله فما وجه التكرار؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - المقصود بها طاعة الرسول فيما دعا إليه مع القصد لطاعة الله تعالى.
الثاني - ليعلم أن من أطاعه فيما دعا إليه كمن أطاع الله، فيسارع إلى ذلك بأمر الله. والطاعة موافقة الإرادة الداعية إلى الفعل بطريق الرغبة، والرغبة. ولذلك صح أن يجيب الله تعالى عبده، وان لم يصح منه أن يطيعه، لان الاجابة إنما هي موافقة الإرادة مع القصد إلى موافقتها على حد ما وقعت من المرید. وقوله:

" لعلمكم ترحمون " يحتمل أمرين:

أحدهما - لترحموا. وقد بينا لذلك نظائر.

والثاني - ان معناه ينبغي للعباد أن يعملوا بطاعة الله على الرجاء للرحمة بدخول الجنة، لئلا يزلوا فيستحقوا الاحباط والعقوبة أو يوقعوها على وجه لا يستحق به الثواب، بل يستحق به العقاب. وفيها معنى الشك، لكنه للعباد دون الله تعالى.

النظم:

وقيل في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها قولان:

أحدهما - لاتصال الامر بالطاعة بالنهي عن أكل " الربا أضعافا مضاعفة " كأنه قال وأطيعوا الله فيما نهاكم عنه من أكل الربا، وغيره لتكونوا على سبيل الهدى.
الثاني - قال ابن اسحاق: انه معاتبة للذين عصوا رسول الله (صلى الله عليه وآله)، بما أمرهم به يوم أحد: من لزوم مراكزهم، فخالفوا واشتغلوا بالغنيمة إلا

" ١ " سورة الشورى آية: ١١ " ٢ " سورة الانعام آية ١٠٣ .

(٥٩١)

طائفة منهم قتلوا. وكان ذلك سبب هزيمة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله).
قوله تعالى:

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض اعدت للمتقين) (١٣٣) آية.
قرأ نافع وابن عامر " سارعوا " بلا واو، والباقون بالواو، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام بلا واو. وفي مصاحف أهل العراق بالواو، والمعنى واحد، وإنما الفرق بينهما استئناف الكلام إذا كان بلا واو، ووصلها بما تقدم إذا قرئ بواو، لانه يكون عطفًا على ما تقدم. وفي هذه الآية الامر بالمبادرة إلى مغفرة الله باجتتاب معصيته وإلى الجنة التي عرضها السماوات والارض بفعل طاعته.

واختلفوا في قوله " عرضها السماوات والارض " فقال ابن عباس، الحسن:
معناه عرضها كعرض السماوات السبع، والارضين السبع إذا ضم بعض ذلك إلى بعض، واختاره الجبائي، والبلخي. وإنما ذكر العرض بالعظم دون الطول، لانه يدل على أن الطول أعظم، وليس كذلك لو ذكر الطول بدلًا من العرض. ومثل الآية قوله: " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " (١) ومعناه إلا كبعث نفس واحدة. وقال الشاعر:

كأن عذيرهم بجنوب سلى * نعام قاق في بلد قفار (٢)
أي عذير نعام وقال آخر:

" ١ " سورة لقمان آية: ٢٨ .

" ٢ " قائله شفيق بن جزء بن زياح الباهلي وقد نسبه بعضهم لاعشى باهلة. ونسب أيضا للنايعة خطأ. اللسان (فوق) (سئل)، ومعجم البلدان (سلى)، والكامل للمبرد ٢: ١٩٦ وكان شفيق قد اغار على بني ضبة بروضة سلى، وروضة ساجر فهزم أهلها. وهما روضتان لعكل.

وضبة وعدي وتيم وعكل حلفاء. متجاورون فلما هزموا قال بهم شفيق أبيات منها هذا البيت.

والعزير: الحال المقافات صوت الطائر اذ كان مذعورا والقفار: المكان الذي ليس به انس كأنه يقول هزمناهم شر هزيمة وكانت حالهم مثل حال الطائر الذي في أرض قفرة اذا أتاه الصياد.

(٥٩٢)

حسبت بغام راحلتي عناقا * وما هي ويب غيرك بالعناق (١)
أي صوت عناق. وقال أبو مسلم: معناه: ثمنها لو بيعت كثن السماوات والارض لو بيعا. كما يقال عرضت هذا المتاع للبيع. والمراد بذلك عظم مقدارها، وجلالة قدرها، وانه لا؟ شئ وإن عظم، وهذا مليح غير أن فيه تعسفا شديدا. فان قيل إذا كانت الجنة عرضها السماوات والارض فأين تكون النار؟!

الجواب أنه روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه لما سئل عن ذلك، فقال: (سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل) وهذه معارضة فيها إسقاط المسألة، لان القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء قادر على أن يذهب بالنهار حيث شاء وروي أنه سئل عن ذلك ابن عباس، وغيره من الصحابة، فان قيل فان الجنة في السماء، فكيف يكون لها هذا العرض؟ قيل له يزداد فيها يوم القيامة. ذكره أبو بكر أحمد بن علي على تسليم انها في السماء ويجوز أن تكون الجنة مخلوقة في غير السماوات والارض. وفي الناس من قال: ان الجنة والنار ما خلقتا بعد وإنما بخلقهما الله على ما وصفه. وقال البلخي المراد بذلك وصفها بالسعة والعظم، كما يقول القائل في دار واسعة هذه دنيا وغرضه بذلك وصفه لها بالكبر وقوله: " اعدت للمتقين " معنى المتقين المطيعين لله ورسوله لاجتنابهم المعاصي وفعلهم الطاعات.
ويجوز لاحتجازهم بالطاعة من العقوبة. وإنما أضيفت إلى المتقين، لانهم المقصودون بها، وان دخلها الاطفال، والمجانين، فعلى وجه التبع، وكذلك حكم الفساق لو عفي عنهم.
وفيمن تكلم في أصول الفقه من استدل بقوله: " وسارعوا إلى مغفرة " على أن الامر يقتضي الفور دون التراخي، لانه تعالى أمر بالمسارعة والمبادرة إلى مغفرة وذلك يقتضي التعجيل.
ومن خالف في تلك، قال: المسارعة إلى ما يقتضي

" ١ " قائله ذو الخرق الطهوري أو الطهوي انظر الاختلاف في اسمه في؟ والمختلف ١١٩، وخزانة الادب ٢٠ : ٢٠،

٢١ ونوادير أبي زيد: ١١٦، ومعاني القرآن للفراء ١:

٦١ - ٦٢، واللسان (ويب)، (عنق)، (عقا)، (بغم) وغيرها وهو من أبيات يقولها لذنب قد تبعه في طريقه والعناق هي انثى المعز والبغام صوت الظبية أو الناقة واستعاره هنا للمعز

(٥٩٣)

الغفران واجبة وهي التوبة، ووجوبها على الفور. فمن أين أن جميع المأمورات كذلك.

قوله تعالى:

(الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)
(١٣٤) آية.

المعنى:

" الذين " في موضع الجر، لانه صفة المتقين، فذكر الله صفاتهم التي تعلو بها درجاتهم منها: أنهم يتقون عذاب الله بفعل طاعته، والانتهاة عن معصيته. وانهم ينفقون في السراء، والضراء وقد بينا فيما تقدم معنى الانفاق. وقيل في معنى السراء والضراء. قولان:

أحدهما - قال ابن عباس في اليسر، والعسر، فكأنه قال في السراء بكثرة المال، والضراء بقلته.

الثاني - في حال السرور، وحال الاعتنام. أي لا يقطعهم شئ من ذلك عن انفاقه في وجوه البر، فيدخل فيه اليسر والعسر. وإنما خصا بالذكر في التأويل الاول، لان السرور بالمال يدعو إلى الظن به. كما يدعو ضيقه إلى التمسك به خوف الفقر، لانفاقه. وقوله تعالى: " والكاظمين الغيظ " أي المتجر عين له، فلا ينتقمون ممن يدخل عليهم الضرر بل يصبرون على ذلك، ويتجرعونه.

اللغة:

وأصل الكظم شد رأس القربة عن ملئها. تقول: كظمت القربة إذا ملاتها ماء ثم شددت رأسها. وفلان كظيم ومكظوم إذا كان ممثلاً حزناً. ومنه قوله: " وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم " (١) أي ممثلي حزناً. وكذلك إذا

" ١ " سورة يوسف آية: ٧٤.

(٥٩٤)

امتلاً غضباً لم ينتقم، وكظم البعير، والناقة إذا لم تجر. والكظامة القناة التي تجري تحت الارض، وسميت بذلك، لامتلائها بالماء كامتلاء القربة المكظومة. ويقال:

أخذ بكظمه أي بمجرى نفسه، لانه موضع الامتلاء بالنفس. وكظامة الميزان المسمار الذي يدور فيه اللسان، لانه يشده ويعتمد عليه. والفرق بين الغيظ، والغضب أن الغضب ضد الرضا، وهو ارادة العقاب المستحق بالمعاصي، ولعنه. وليس كذلك الغيظ، لانه هيجان الطبع بكره ما يكون من المعاصي، ولذلك يقال غضب الله على الكفار، ولايقال اغتاض منهم.

المعنى:

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (ما من جرعة يتجرعها الرجل أو الانسان أعظم أجرا من جرعة غيظ في الله) وفي الآية دلالة على جواز العفو عن المعاصي وإن لم يتب، لأنها دلت على الترغيب في العفو من غير ايجاب له باجماع المسلمين.

وقوله " والله يحب المحسنين " معناه يريد اثابتهم وتنعيمهم. والمحسن يحتمل أمرين: أحدهما - من هو منعم على غيره على وجه عار من وجوه القبح. ويحتمل أن يكون مشتقا من الافعال الحسنة التي منها الاحسان إلى الغير، وغير ذلك من وجوه الطاعات والقربات. قوله تعالى:

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (١٣٥) آية بلا خلاف. الاعراب:

قوله: " والذين " يحتمل أن يكون موضعه جرا بالعطف على المتقين،

(٥٩٥)

فيكون من صفتهم ما تضمنه على قول الحسن، ويحتمل أن يكون رفعا على الاستئناف، ويكون عطف جملة على جملة، فيكون من صفة فرقة غير الاولى، ويجوز أن يرجع إلى الاولى في الموضع على المدح. المعنى:

وقوله: " إذا فعلوا فاحشة " يحتمل أن يكون أراد غير الظلم، ولذلك عطف عليه بقوله: " أو ظلموا أنفسهم " حتى لا يكون تكرارا. وقال الرماني: أراد بالفاحشة الكبيرة، وب " ظلموا أنفسهم " الصغيرة. وقال مجاهد: هما ذنبان وأصل الفاحشة الفحش، وهو الخروج إلى عظم القبح في العقل أو رأي العين فيه.

وكذلك قيل للطويل المفرط أنه الفاحش الطول، وأفحش فلان في كلامه إذا أفصح بذكر الفحش. وقال جابر والسدي: الفاحشة ههنا: الزنا أو ما جرى مجراه من الكبير. وقوله: " ذكروا الله " في معناه قولان:

أحدهما - ذكروا وعيد الله، فيكون من الذكر بعد النسيان. والمدح على أنهم تعرضوا للذكر. والآخر - انهم ذكروا الله بأن قالوا: اللهم اغفر لنا ذنوبنا، فانا تبنا، نادمين عليها مقلعين عنها وقال ابن مسعود، وعطا ابن ابي رباح: كانت بنو اسرائيل إذا أذنب الواحد منهم ذنبا أصبح مكتوبا على بابه كفارة ذنبك اجدع اذنك اجدع انفك، فسهل الله ذلك على هذه الامة بأن جعل توبتها الاستغفار بدلا منه منة منه تعالى. وقوله: (ومن يغفر الذنوب إلا الله) الرفع محمول على المعنى. وتقديره: وهل يغفر الذنوب إلا الله أو هل رئي أحد يغفر الذنوب إلا الله.

فان قيل: كيف قال: " ومن يغفر الذنوب إلا الله " وقد يغفر بعضنا لبعض اساءته إليه؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه أراد بذلك غفران الكبائر العظام، لان الاساءة من بعضنا لبعض صغيرة بالاضافة إلى ما يستحق من جهة.

(٥٩٦)

والثاني - أنه لا يغفر الذنب الذي يستحق عليه العقاب إلا الله تعالى. وقوله: (ولم يصروا على ما فعلوا) فالاصرار هو المقام على الذنب من غير اقلع منه بالتوبة في قول قتادة. وقال الحسن: هو فعل الذنب من غير توبة والاول أقوى، لانه نقيض التوبة. وأصله الشد من الصرة والصر شدة البرد، والاصرار إنما هو ارتباط الذنب بالاقامة عليه. وما قاله الحسن هو في حكم الاصرار.

وقوله: " وهم يعلمون " ههنا يحتمل أمرين:

أحدهما - وهم يعلمون الخطيئة ذاكرين لها غير ساهين، ولا ناسين. قال الجبائي، والله عزوجل يغفر للعبد ما نسيه من ذنوبه، وان لم يتب منه بعينه، كما يغفر له ما تاب منه، لانه قد فعل في حال النسيان جميع ما عليه.

والثاني - وهم يعلمون الحجة في أنها خطيئة. وأما من اجتهد في الاحكام فأخطأ على مذهب من يقول بالاجتهاد، فلا اثم عليه، وكذلك من تزوج بذات محرم من الرضاع أو النسب وهو لا يعلم، أو غير ذلك، فلا اثم عليه بلا خلاف لانه لم يعلم ذلك، فاقدم عليه، ولا يلزم عليه ذلك أن يكون الكافر معذورا بكفره إذا لم يعلمه قبيحا، لان الكافر له طريق إلى العلم به، وكذلك نقول: إن من أسلم في دار الحرب، وخرج فاستحل في طريقه الخمر أو لحم الخنزير قبل أن يعلم تحريمها من الشرع، فلا اثم عليه، لانه في تلك الحال لا طريق له إلى العلم بقبحه. قوله تعالى:

(أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) (١٣٦) آية واحدة.

قوله: " أولئك " اشارة إلى من تقدم وصفهم من المتقين الذين ينفقون في السراء والضراء، ويكظمون الغيظ، ويعفون عن الناس، " وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم "، فقال هؤلاء: " لهم جنات

(٥٩٧)

تجري من تحتها الانهار خالدين فيها " وقد مضى تفسير ذلك أجمع فيما مضى ثم قال.

" ونعم أجر العاملين " يعني ما وصفه من الجنات وأنواع الثواب، والغفرة بستر الذنب حتى تصير كأنها لم تعمل في زوال العار بها والعقوبة بها، والله تعالى متفضل بذلك لانا بينا أن اسقاط العذاب (١) عند التوبة تفضل منه تعالى، فأما استحقاق الثواب بالتوبة فواجب عقلا لا محالة، لانه لو لم يكن مستحقا لذلك لقبح تكليفه التوبة لما فيها من المشقة والكلفة. قوله تعالى:

(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (١٣٧) آية. المعنى:

معنى قوله: " قد خلت من قبلكم سنن " أي سنن من الله تعالى في الامم السالفة ذ (٢) كذبوا رسله ووجدوا نبوتهم بالاستئصال، والاجتياح، كعاد، وثمود، وقوم صالح، وقوم لوط الذين أهلكهم الله بأنواع العذاب من الاستئصال (٣) فبقيت (٤) لهم آثار في الديار فيها أعظم الاعتبار والاتعاظ - على قول الحسن، وابن اسحاق - فأمر الله أن يسيروا في الارض، ويتعرفوا أخبارهم، وما نزل بهم ليتعظوا بذلك، وينتهوا عن مثل ما فعلوه. وقال الزجاج: معناه " قد خلت من قبلكم " أهل " سنن " في الشر.

اللغة والمعنى:

والسنة: الطريقة المجعلولة ليقفدى بها، فمن ذلك سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

" ١ " في المخطوطة (أ): العقاب.

" ٢ " في المطبوعة ومخطوطة (أ): (إذا).

" ٣ " في المخطوطة (أ) ساقط سطر من هذا الموضع.

" ٤ " في المطبوعة (وبقيت).

(٥٩٨)

وقال لبيد:

من معشر سنت لهم آباؤهم * ولكل قوم سنة وإمامها (١)

وقال سليمان بن قتة: (٢)

وإن الالى بالطف من آل هاشم * نأسوا فسنوا للكرام التأسيا (٣)

سنة الله عزوجل الاهلاك للامم الضالة بهذه المنزلة. وأصل السنة الاستمرار في جهة. سن الماء سنا: إذا صبه حتى يفيض من الاناء. وسنه بالمسن إذا أمره عليه لتحديده. وفلان مسنون الوجه أي مستطيلة. وقوله: " من حمأ مسنون " قيل معناه متغير، لاستمرار الزمان به حتى

تغير. ومنه السن واحد الاسنان، لاستمرارها على منهاج. والسنان، لاستمرار الطعن به. والسنن استمرار الطريق. والخلو: الانفراد، فمنه الخلاء، لانفراد المكان. ومنه التخلية لانفراد الشئ بها عن صاحبه. ومنه الخلية من النوق التي خلا ولدها بذبح أو موت، لانفرادها عنه. والخلية من السفن التي تخلى تسير في نفسها. ومنه الخلا مقصور: الحشيش اختليته إذا قطعت، لانفراد بالقطع. ومنه المخلاة. ومن ذلك المخالاة المخادعة، لانفراد صاحبها بمن يخاليه يوهمه التخصص به، فمعنى " خلت " انفردت بالهلاك دون من بقي. وقوله: (فانظر كيف كان عاقبة) فالعاقبة هو ما يؤدي إليها السبب المتقدم، وليس كذلك الآخرة، لانه قد كان يمكن أن تجعل هي الاولى في العدة للمكذبين يريد به الجاحدين البعث، والنشور، والثواب، والعقاب الدافعين لمن يخبر بذلك بالرد بالتكذيب، فجازاهم الله تعالى في الدنيا بعذاب الاستئصال، ولهم في الآخرة عظيم النكال.

" ١ " البيت من معلقته الشهيرة البارعة يذكر بها قومه وفضلهم. يقول: هذه الصفات الحميدة - التي تقدم وصفها - هي سنة آباؤهم..

" ٢ " (قتة) أمه وهو مولى لتيم قريش، وهو من التابعين. وزعم بعضهم أنه (سليمان) ابن ضبيب المحارمي) وهو خطأ.

" ٣ " تاريخ الطبري ٧: ١٨٤، وانساب الاشراف ٥: ٣٣٩ وأمالى الشجري ١: ١٣١، واللسان (أمي) وغيرها. وهذا البيت أنشده مصعب بن الزبير قبل مقتله

(٥٩٩)

وقوله تعالى:

(هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) (١٣٨) آية اجماعا.

قال الحسن وقتادة: قوله: " هذا " إشارة إلى القرآن، ووصفه بأنه بيان، لانه دلالة للناس، وحجة لهم، والبيان هو الدلالة. وقال ابن اسحاق هو إشارة إلى ما تقدم ذكره في قوله: " قد خلت من قبلكم سنن.. " الآية أي هذا الذي عرفتمكم بيان للناس، وهو اختيار البلخي، والطبري. والفرق بين البيان، والهدى - على ما قاله الرمانى - أن البيان إظهار المعنى للنفس كائنا ما كان. والهدى: بيان لطريق الرشد، ليسلك دون طريق الغي. والموعظة ما يلين القلب ويدعو إلى التمسك، بما فيه من الزجر عن القبيح، والدعاء إلى الجميل. وقيل الموعظة: هو ما يدعوا (١) بالرغبة، والرغبة إلى الحسنة بدلا من السيئة. والهدى المذكور في الآية يحتمل معنيين:

أحدهما - أن يكون عبارة عن اللطف الذي يدعوا إلى فعل الطاعة بدلا من المعصية، لانه بمنزلة الارشاد.

والاخر - الدلالة على طريق الرشد. وإنما أضيف إلى المتقين، وان كان هدى لجميع المكلفين، لانهم المنتفعون به دون غيرهم. ولايجوز ان يقال: القرآن هدى وموعظة للفاجرين إلا بتفسير وبيان، لان في (٢) ذلك إيهاما، لانتفاعهم به فان قيد بأنه دلالة لهم وداع لهم إلى فعل الطاعة، وذكر ما يزيل الإيهام كان جائزا. وينبغي أن يتبع في ذلك ما ورد به القرآن. قوله تعالى:

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الا علون إن كنتم مؤمنين (١٣٩) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام

" ١ " في المخطوطة أ (بالموعظة ما يدعو) باسقاط هو " ٢ " في المخطوطة (أ) لان ذلك باسقاط في.

(٦٠٠)

ندوالها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) (١٤٠) آيتان.

القراءة، واللغة:

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا " قرح " بضم القاف. والباقون بفتحها. والفرق بينهما أن القرح - بفتح القاف - الجراح، والقرح - بالضم - ألم الجراح على قول أكثر المفسرين. وقيل هما لغتان.

المعنى، والنزول:

وقال ابن عباس، والحسن، والربيع: القرح ما أصاب المسلمين يوم أحد وأصاب المشركين يوم بدر. وقال الزهري، وقتادة، وابن أبي نجيح: هذه الآية نزلت تسلياً للمسلمين لما نالهم يوم أحد من القتل، والجراح، وكان سبب نزول الآية ما قدمنا ذكره من أن الله تعالى أراد أن يرعب الكفار، فأمر المسلمين أن يتبعوا المشركين على ما بهم من الجراح، والالام وحثهم على ذلك ونهاهم عن الوهن والحزن، ووعدهم بأنهم الاعلون إن تمسكوا بالايمان، لان المشركين كانوا هموا بالعود إلى المدينة، والغارة فيها، فلما بلغهم عزيمة المسلمين على تتبعهم خافوهم.

وقال بعضهم لبعض يوشك أن يكون انضم إليهم من كان قعد عنهم، وأعانهم أحلافهم من بني قريظة، والنضير ففسدوا نعيم بن مسعود الأشجعي وبذلوا له عشر قلائص على أن يثببط المسلمين عن تتبعهم، ويقول: إنهم تجمعوا وانضم إليهم حلفؤهم، وهم يريدونكم ولا طاقة لكم بهم، وأسرعوا المسير إلى مكة فأوحى الله بذلك إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وأعلمه ما قالوا لنعيم، فلما قال لهم ما قال، قال المسلمون:

" حسبنا الله ونعم الوكيل " وفيهم نزلت الآية (١) " الذين قال لهم الناس ان

" ١ " في المخطوطة (أ) زيادة: وهي قوله تعالى.

(٦٠١)

الناس قد جمعوا لكم " إلى قوله: " والله ذو فضل عظيم " (١) وما بعده. وإنما قال: " إن كنتم مؤمنين " مع أنهم كانوا مؤمنين للبيان عن ان الايمان يوجب تلك الحال، وتقديره إن من كان مؤمنا يجب عليه ألا يهن ولا يحزن، لثقته بالله. يحتمل أيضا أن يكون معناه إن كنتم مصدقين بوعدى لكم بنصرتي إياكم حتى تستعلوا على عدوكم، وتظفروا بهم. اللغة، والاعراب، والمعنى:

والوهن الضعف، وهن يهن وهنا، فهو واهن: إذا ضعف. وأوهنه يوهنه ايهانا. وتوهن توهنا، ووهنه توهينا. والوهن: ساعة تمضي من الليل. والواهن عرق مستبطن حبل العاتق إلى الكتف.

وقوله: (وأنتم الاعلون) جملة في موضع الحال، كأنه قال لا تحزنوا عالين أي منصورين على عدوكم، ويحتمل أن لا يكون لها موضع من الاعراب، لأنها اعتراض بوعد مؤكد، وتقديره " ولا تهنوا ولا تحزنوا " " إن كنتم مؤمنين " " وأنتم " مع ذلك " الاعلون ". وأصل الاعلون الاعلون، فحذفت احدى الواوين استتقالا، وهي الاصلية وبقيت واو الجمع، لأنها لمعنى. فأما في التنثية فنقول: إنتما الاعليان، فتقلب الواو ياء، ولاتحذفها، لأنه ليس هناك ضرورة.

وقوله: " ان يمسسكم " فالمس هو اللمس بعينه، وقيل الفرق بينهما أن اللمس لصوق باحساس والمس لصوق فقط (٢) وقال ابن عباس: معناه إن يصبكم (٣). وقوله: (وتلك الايام نداولها بين الناس) قال الحسن، وقتادة، والربيع، والسدي، وابن اسحاق: يصرفها مرة لفرقة، ومرة عليها، والدولة: الكرة

" ١ " سورة آل عمران آية: ١٧٣.

" ٢ " في المطبوعة الواو ساقطة. " ٣ " في المخطوطة أن التهكم.

(٦٠٢)

لفرقة بنيل المحبة. وادال الله فلانا من فلان: إذا جعل الكرة له (١) عليه. وقال الحجاج: إن الارض ستدال منا كما ادلنا منها، " ونداولها " إنما هو بتخفيف المحنة تارة وتشديدها أخرى

بدليل " إن الله لا يحب الظالمين " ولو كانت المداولة بالنصر لا محالة، للمؤمنين تارة وللكافرين تارة، لكان محبهم من حيث هو ناصر لهم، والعامل في قوله، وليعلم الله يحتمل أمرين:

أحدهما - ان يكون محذوفا يدل عليه أول الكلام، وتقديره وليعلم الله الذين آمنوا نداولها. الثاني - أن يعمل فيه " نداولها " الذي في اللفظ، وتقديره نداولها بين الناس لضروب من التدبير " وليعلم الله الذين آمنوا " وخبر ليعلم يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون محذوفا وتقديره " وليعلم الله الذين آمنوا " متميزين بالايامن من غيرهم، ولا يكون على هذا يعلم بمعنى يعرف، لانه ليس المعنى على تعرف الذوات بل المعنى على أن يعلم تميزها بالايامن.

والثاني - " وليعلم الله الذين آمنوا " بما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم أي يعاملهم معاملة من يريد أن يعرفهم الله بهذه الحال. وقال أبو علي: معناه وليصبروا فعبر عن الصبر بالعلم. وقال البلخي " وليعلم الله " ايمانكم موجودا أي تفعلونها، فيعلمه الله كذلك. ومعنى قوله: " ويتخذ منكم شهداء " فيه قولان:

أحدهما - قال الحسن، وقتادة، وابن اسحاق، ليكرم بالشهادة من قتل يوم أحد. الثاني - ويتخذ منكم شهداء على الناس بما يكون منهم من العصيان، لما لكم فيه من التعظيم، والتبجيل - هذا قول البلخي والجبائي - والاول أقوى لانه في ذكر القتل، فان قيل لم جعل الله مداولة الايامم بين الناس، وهلا كانت ابدا لاولياء الله دون أعدائه؟ قلنا ذلك تابع للمصلحة، وما تقتضيه الحكمة أن يكونوا تارة في

" ١ " في المخطوطة (الحكم له).

(٦٠٣)

شدة وتارة في رخاء فيكون ذلك داعيا لهم إلى فعل الطاعة، واحتقار الدنيا الفانية المنقولة من قوم إلى قوم حتى يصير الغني فقيرا، والفقير غنيا، والنبيه خاملا، والخامل نبيا، فتقل حينئذ الرغبة فيها والحرص على جمعها، ويقوي الحرص على غيرها مما نعيمه دائم، وسروره غير منقطع. وقوله: " والله لا يحب الظالمين " (١) معناه لا يريد منافعهم، وعلى مذهبنا ينبغي أن يكون ذلك مخصوصا بالكفار، لانهم إذا كانوا مؤمنين، فلهم ثواب. والله تعالى لا بد أن يريد فعل ذلك بهم ويحتمل أن يكون المراد بذلك " لا يحب الظالمين " إذا كانوا مؤمنين محبة خالصة لا يشوبها إرادة عقابهم، لان ذلك يختص من لا عقاب عليه. انتهى المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث وأوله:

(ولم يحص الله الذين آمنوا..) (١٤١)

" ١ " وقوله ساقطة من المطبوعة